

تصوير
أحمد ياسين

ماذا حدث

داخل أروقة البيت الأبيض في عهد بوش وثقافة الخداع في واشنطن

سكوت مكليلان

نقله إلى العربية

أ. د. منذر محمود صالح محمد

الأفضل مبيعاً بحسب صحيفة نيويورك تايمز

ماذا حدث

داخل أروقة البيت الأبيض في عهد بوش
وثقافة الخداع في واشنطن

سكوت مكليلان

نقله إلى العربية

أ. د. منذر محمود صالح محمد



ماذا حدث

داخل أروقة البيت الأبيض في عهد بوش

وثقافة الخداع في واشنطن



Original Title:

WHAT HAPPENED

Inside the Bush White House and Washington's Culture of Deception

Scott McClellan

ISBN-13: 978-1-58648-556-6

Published by: PublicAffairs, a member of the Perseus Books Group, 250 West 57th Street, Suite 1321, New York, NY 10019 (U.S.A.)

ISBN 3 - 718 - 54 - 9960 - 978

الطبعة العربية الأولى 1430هـ 2009م

الناشر العبيكان للنشر

المملكة العربية السعودية – شارع العليا العام – جنوب برج المملكة – عمارة الموسى للمكاتب

هاتف: 2937574/2937581، فاكس: 2937588 ص.ب: 67622 الرياض 11517

 مكتبة العبيكان، 1430هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

ماكيلان، سكوت

ماذا حدث في أروقة البيت الأبيض في عهد بوش./ سكوت ماكيلان؛ منذر محمود محمد.- الرياض 1430هـ

456ص؛ 16.5× 24سم

ردمك: 3 - 718 - 54 - 9960 - 978

1 - الولايات المتحدة 2- الأحوال السياسية أ. محمد، منذر محمود (مترجم)

ب. العنوان

ديوي: 320.973 1430 / 2644

ردمك: 3 - 718 - 54 - 9960 - 978 رقم الإيداع: 2644 / 1430

امتياز التوزيع شركة مكتبة العبيكان

المملكة العربية السعودية – العليا – تقاطع طريق الملك فهد مع شارع العروبة

هاتف: 4160018 /4654424 – فاكس: 4650129 ص. ب: 62807 الرياض 11595

الإهداء

إلى العاملين

في حقل الخدمة العامة



المحتويات

مقدمة

كانت لجامعــة تكساس دائماً مكانة خاصة بالنسبة لي ولعائلتي. فقد كان جدي لأبي، المرحوم بيج كيتون العميد الذائع الصيت فهو من قاد كلية الحقوق فيها إلى عالم الشهرة على الصعيد الوطني. ولدت وترعرعت في مدينة أوستين بولاية تكساس، حيث توجد هذه الجامعة التي حصلت منها على درجة البكالوريوس.

أعــرف جيداً بــرج جامعة تكساس، والمبنــى الرئيس في وسط الحــرم الجامعي الذي تزينه عبارة مقتبسة من إنجيل يوحنا المعمدان، منقوشة على حجر يعلو مدخله الجنوبي: «لا بد لك من أن تعرف الحقيقة، ولا بد للحقيقة أن تقوم بتحريرك».

دائمــاً ما أثارت هــذه الكلمات القويــة فضولي، بصفتي مؤمنــاً وإنسانــاً عاديّاً أهتم جــداً بالمعنى الأكثر شمولية للحيــاة. لكنني لم أصل إلى سبر غور الرسالة التي تريد هذه الكلمات إيصالها بحق، إلا في السنوات القليلة الماضية.

ربما كانت أعظم نعمة منَّ الله بها علينا في الحياة هي القدرة على التعلم من تجاربنا، وعلــى الأخصــ من أخطائنا كي نصلح من أنفسنا. هذه الميــزة الإنسانية الفريدة تتجذر في إرادتنــا الحــرة، وتتبرعــم في قدرتنا على اكتســاب المعرفة المبنية علــى فهم الحقيقة - الحقيقــة كما هي، وليس كمــا نتخيلها أو نشتهيها. وهذا يتضمــن الاعتراف بأخطائنا والقبــول بتحمــل المسؤولية عنها. كمــا تساعدنا مشاعــر الندم التي تنتابنــا في الوصول إلى الحقيقــة، وإلى الحريــة التي تتزامن معها في الوقت الذي نصبــح فيه أكثر التصاقاً بالصورة التي أراد الإلهُ خالقُنا، أن نكون عليها.

تحــب والدتي التــي بدأت حياتهــا الوظيفية في واحدة مــن المدارســ الثانوية مدرسة للتاريــخ والحقــوق المدنية أن تردد العبــارة الآتية: «من يصنع التاريــخ هم الناس وليست الأحداث». ما قالته هو عين الصواب. فالتاريخ متجذر في الخيارات التي يقوم بها الناس، وهم أشخاص لهم عيوبهم، ولهم أخطاؤهم.

هـذا كتاب يتناول شريحة من التاريخ كنت شاهداً عليها خلال سنيّ خدمتي في البيت الأبيض، كما يتناول أشخاصاً حَسَني النوايا، ولكن لهم أخطاؤهم -بمن فيهم أنا- قاموا بصنع ذلك التاريخ. كتبت هذا الكتاب ليس من منطلق تصفية حسابات ضد أحد، أو بغية تضخيم للدور الذي قمت به، بل بكل بساطة، كي أدون ما أعرفه وما تعلمته أملاً في أن يكون سجلّي عاملاً في تعميق فهمنا للتاريخ المعاصر، وعلى الأخص فيما يتعلق بالأحداث التي تلت الهجمات المأساوية في الحادي عشر من شهر أيلول، سبتمبر، سنة 2001.

بدأت عملية تدوين هذا الكتاب بوضع نفسي تحت المجهر. لم تستطع الجهود التي بذلتها في خدمة إدارة الرئيس بوش أن ترقى بي إلى ما كنت أصبو إليه بصفتي موظفاً حكومياً. لم أفهم جيداً المنحى الذي قدت نفسي إليه عبر قبولي منصب السكرتير الصحفي للبيت الأبيض في سن الخامسة والثلاثين، ولم يكن لي من الخبرة حينها سوى النذر اليسير. الآن، أفهم ذلك بشكل أفضل بكثير. هذا الكتاب هو توثيق للعملية المؤلمة في كثير من مراحلها، والتي أدت إلى وصولي إلى هذا الفهم.

كنت غالباً ما أتعثر في طريقي، وأعجز عن القيام بواجبي تجاه نفسي، وتجاه الرئيس الذي كنت أعمل لديه، وكذلك تجاه الشعب الأمريكي. حاولت ممارسة لعبة واشنطن استناداً إلى القوانين المرعية، ولم أكن أجيد ممارسة هذه اللعبة في بعض الأحيان. لم يكن باستطاعتي أن أكون صادقاً مع الآخرين لأنني لم أكن صادقاً مع نفسي. الأخطاء التي وقعت كانت أخطائي أنا، وكان لا بد لي من تحمل العواقب.

لكن قصتي الشخصية ليست لها سوى أهمية ضئيلة ضمن الصورة التاريخية العريضة. فالقصة الأهم هي تلك القصة الأكبر التي لم يكن لي فيها سوى دور صغير – إنها القصة التي تدور حول كيف انحرفت رئاسة جورج دبليو بوش بشكل رهيب عن مسارها.

أمضيت بصفتي السكرتير الصحفي ساعات لا حصر لها أدافع عن هذه الإدارة من على منصة غرفة اللقاءات الصحفية في البيت الأبيض. وبالرغم من أن ما قلته آنذاك كان مبعثه إحساسي بصدق ما أقول، فقد تبين لي لاحقاً أن بعض ما صرحت به كان تشويهاً مريعاً للحقيقة. حاولت على امتداد هذه الصفحات أن أمسك بتلابيب بعضٍ من هذه الحقائق التي أرادت القوى الفاعلة داخل البيت الأبيض طمسها أو تغييبها.

قد لا يكـون أصدقائي وزملائي القدامى الذين سكنوا وعملـوا، أو ما يزالون يسكنون ويعملـون داخل تلـك الفقاعة الجوفاء سعـداء بالمنظور الذي أعرضه في هـذا المقام. أنا متأكـد من أن العديد منهم ما زالوا على اقتناع بأن إدارة بوش كانت على صواب بشكل لا يقبل اللبس بالنسبة لرسم سياسة الكثير من أفكارها المثيرة للجدل، وبأن عدم الاحترام الـذي يبديه معظم الأمريكيين تجاه هذه الإدارة غير منصف لها. الزمن وحده قادر على كشف الحقيقة حول ذلك. لكنني بتُّ الآن مقتنعاً بشكل لا يقبل اللبس بعكس ذلك.

كانـت الحلقة التي شكلت نقطـة الانطلاق بالنسبة لهذا الكتاب هي الفضيحة المتعلقة بتسريـب معلومات سرية تتعلق بالأمن القومي - التي أطلق عليها اسم قضية بليم. بدأت هـذه القضيـة أول ما بـدأت حول اللغط الـذي أثارتـه إدارة بوش حول مسألـة أن عراق صـدام حسين كان يشكل «خطراً كبيراً ومتزايداً» ممـا يستدعي وجوب إزالته. عندما تم الإعلان عن هوية عميلة سرية تعمل لصالح وكالة المخابرات المركزية أثناء فترة الصراع الحزبـي الذي تلا هذا الإعلان، والذي أدى بدوره إلى تحويل هذا اللغط إلى آخر فضائح واشنطـن، وجدتني متورطاً في عملية الخداع التي تلت ذلك. كانت تلك لحظة حاسمة في المهمة الموكلة إلي في خدمة الرئيس، كما كانت أكثر تجاربي في الحياة إيلاماً.

عندمـا تبين لاحقاً للعيان أن الكلمات التي تفوهت بها كانت كاذبة، منعتني التزاماتي وولائـي للرئيسـ من القيام بأي تعليـق حولها. لكنني قطعت وعـداً للصحفيين وللجمهور على حد سواء بأنني سوف أروي القصة التي أعرفها كاملة يوماً ما. أدركت بعد مغادرتي البيـت الأبيضـ أن القصة لن يكون لهـا معنى من دون وضعها ضمـن السياق الشخصي والسياسي والمؤسساتي التي حدثت فيه. وهكذا تحولت القصة إلى كتاب.

لم تكـن كتابـة هذه القصـة سهلة. عندما شرعـت في الكتابة، تلقيت بعضـاً من أفضل النصائح من قبل أحد المحررين الرئيسين في واحدة من دور النشر التي عبرت عن رغبتها في نشر كتابي. قال لي إن أصعب تحدٍّ بالنسبة لي يكمن في وجوب وضع معتقداتي الخاصة وإدراكـي الحسـي موضع تساؤل طيلة فـترة الكتابة. كانت نصيحته تلـك ذات رؤية. دائماً مـا كنت أجـد نفسي أمحصـ أفكاري ومزاعمـي وتفسـيري للأحـداث. وكان العديد من

الاستنتاجـات التي توصلت إليها على العكس تماماً ممـا كنت أؤمن به عند بداية المشروع. كانت الرغبة في الوصول إلى الحقيقة تشكل صراعاً بالنسبة لي، لكنه كان صراعاً مجزياً. لا أزعـم بأنني أحتكر الحقيقة. ولكن بعد الصراع المريـر الذي خضته أثناء التجارب التي مـررت بها خلال الأشهـر القليلة الماضية، وجـدت نفسي أقرب بكثـير، وأكثر من أي وقت مضى، إلى الحقيقة كما أؤمن بها.

✻ ✻ ✻

سوف يمر العديد من القراء على هذا الكتاب بدافع الشعور بالفضول نحو الرجل الذي يعد الشخصية المحورية في قصتي؛ ألا وهو الرئيس جورج دبليو بوش. سوف تطلعون على علاقتي به، وكذلك على خبراتي كأحد أفراد فريقه وأنتم تقرؤون هذه الصفحات. أكتفي الآن بـإدرك أن جـل ما يعرفه الشعب عن بوش هو صحيـح. فهو شخص يتسم بالجاذبية والذكاء، ولديه كم هائل من الحنكة السياسية. كان مصدراً للإلهام لي ولكثير من الناس الآخريـن؛ وهذا مـا دفعنـي إلى أن أكون واحداً مـن مؤيديه. شخصيتـه الآسرة وسجله كحاكـم شعبـي غير محازب أسس لأسلـوب بَنّـاء وحقق مصالح الناس. كنـا جميعاً نأمل ونؤمن بأنه قادر أن يقوم بنفس العمل لصالح الأمة.

بدا وكأن بذار العظمة مزروعة في تربة إدارة بوش. فبالرغم من أن بوش وصل إلى البيـت الأبيض بعـد معركة قضائية طويلة ومضنية حول نتيجـة انتخابات سنة 2000، إلا أنـه بـدأ رئاسته بحسن نية مشهودة. كما تربع فوق مـدة مطولة ونادرة من الوحدة الوطنيـة التـي أعقبت الكارثة الوطنية التي فاقت الوصـف، والتي حلت بأمتنا في شهر أيلول، سبتمبر، سنة 2001.

كان الفريـق الذي اختاره بوش مثيراً للإعجاب من الناحية النظرية. فقد مثّلَ نائب الرئيـس ديك تشيني دعماً جـاداً وخبرة واسعة على أعلى المستويـات في الحكومة. أما وزير الدفاع دونالد رامسفيلد فقد كان مثالاً للنجاح في البنتاغون، وكان يفخر بأن لديه سـيرة ذاتية ربطت مع إنجازات في مجالَيْ إدارة الأعمال والعمل الحكومي. وكان كولن باول، القائد العسكري الذي يحظى بقدر واسع من الاحترام، أكثر رجال الإدارة شعبية

في البلاد، وكان من الممكن أن يصبح أول رئيس أمريكي من أصول إفريقية لو أبدى اهتماماً بهذا المنصب. وحتى كارل روف كبير مستشاري بوش السياسيين، كانت له سمعة ممتازة بصفته مفكراً إستراتيجياً حاذقاً ساعد في جعل الحزب الجمهوري القوة السياسية الأعظم في البلاد.

آمنت بقيادة جورج بوش وخططه من أجل أمريكة، وكنت واثقاً من مصداقيته واستقامته وحكمته. إلا أن الآمال العريضة التي رافقت الأيام الأولى لرئاسته ذهبت أدراج الرياح.

غادر رامسفيلد وباول منصبيهما، وكانت حقبة توليهما لمنصبيهما مثيرة للجدل ومخيبة للآمال. اعتُبِرَ الدور الذي لعبه تشيني على نطاق واسع شريراً ومدمراً لإرث الرئيس. وأما بالنسبة إلى عبقرية روف السياسية فقد أضحت مرتبطة بسمعته بصفته رجل مخابرات يعطي الأولوية للمصالح السياسية على حساب المصالح الوطنية.

ضمن هذا الوضع، بقي الرئيس بوش على حاله. فهو واثق من نفسه، وسريع البديهة، وواقعي، وعنيد كما يجب على القادة أن يكونوا أحياناً. متفرد في أسلوبه، ومخلص لمعتقداته. لم ألتقِ يوماً بلندون جونسون (هو الآخر من تكساس ويتصف أيضاً بالعناد، وهو من غطت الحرب المثيرة للجدل التي خاضها على إنجازاته الداخلية) أو ريتشارد نيكسون (وهو رئيس انخفضت نسبة التأييد التاريخية له بعد فضيحة ووترغيت إلى درجة لم يصل إليها سوى جورج بوش). ولكن استناداً إلى ما ذكره المؤرخون، فإن الرجلين المذكورين استحوذت عليهما الحاجة إلى تسويغ ما قاما به، وتملكهما الغضب وأخيراً الإحباط في الوقت الذي انهارت رئاستيهما تحت ضغط الحرب والفضائح. يختلف جورج دبليو بوش عنهما. فهو لم يتغير أبداً - بالرغم من أنه لم يكن ذلك القائد الذي تخيلته سابقاً.

لقد كان قرار خوض الحرب على العراق هو ما حرف رئاسة بوش عن مسارها. لقد كانت خطوة مأساوية خارج المسار الصحيح فرضتها جملة من الأحداث (صدمة الحادي عشر من أيلول، بالإضافة إلى نجاحنا العسكري الأولي المدهش والسريع والخادع في أفغانستان)، وكذلك الطبيعة البشرية (الطموح والثقة المفرطة بالنفس وخداع الذات)، بالإضافة إلى عاطفة تستند إلى إلهام رباني (الإشارة هنا إلى اعتقاد بوش الراسخ بحق

البشريـة الـذي منحها إيـاه الله في أن تعيش بحريـة) . لقد كانت مسألـة إزاحة «الخطر الشديـد والمتزايد» الـذي كان العراق يمثلـه وسيلة لتحقيق ذلك الهـدف العظيم المتمثل في إعادة رسم خريطة الشـرق الأوسط كمنطقة تحكمها أنظمة ديمقراطية تتعايش فيما بينها بسلام.

يبـدو أن التاريخ على وشك أن يؤكد على ما توصـل إليه معظم الأمريكيين اليوم - أن قرار غزو العراق كان خطيئة إستراتيجية خطيرة. لا أحد، بمن فيهم أنا، يستطيع أن يتنبأ بالطريقـة التي سوف يُنظَرُ فيها إلى الحرب بعد عقود من الآن عندما يكون باستطاعتنا استيعاب تأثيرها بشكل كامل. ما أعرفه هو أن الحرب يجب أن تُشَنَّ فقط عند الضرورة، لكن حرب العراق لم تكن ضرورية.

إن شن حرب غير ضرورية كان خطأ فادحاً. لكنني، وعبر استحضار كل ما حدث على امتداد إدارة بوش، توصلت إلى قناعة بأن خطأ أكثر فداحة قد وقع - وتمثل ذلك في القرار القاضي بالابتعاد عن الصدق والصراحة في الوقت الذي كنا بأمس الحاجة إلى كليهما.

أضحـت واشنطن كما سوف أشرح في هـذا الكتاب، موئلاً لحملات تجييش مستمرة، وميدانـاً للعبـة سياسيـة لا نهاية لهـا، تستنـد إلى التلاعب بظلال الحقيقـة، والحقائق المجتزأة، ولوي عنق الحقيقة، والتشويش عليها. أضحى الحكم ملحقاً بالسياسة بدلاً من أن يكون العكس هو الصحيح، وأصبح النصر الانتخابي والإمساك بزمام السلطة مقياس النجـاح. وهذا يعني أن تقوم أنت بتصنيع القصـة قبل أن تقوم هي بتصنيعك. لقد تمت تنحية الصدق والصراحة جانباً في معركةٍ الهدفُ منها هو الفوز بآخر حلقات الأخبار.

بالطبـع، لم يكـن الخـداع في السياسـة يوماً أمراً جديـداً. لكن الجديـد في الأمر هو الدرجة التي يهيمن فيها هذا الخداع على خطابنا السياسي الوطني هذه الأيام.

كثير من هذا الخداع لا يكاد يبين، أو يبدو غير مؤذٍ، أو يتم قبوله كجزء من النهج. لقد مورسـ معظم هذا الخـداع بشكل لا شعوري أو بشكل ضمني من دون أن يكون هناك سوء

نية في فعل ذلك اللهم إلا بما يخدم النزعة إلى التحكم في القرار في لعبة السلطة والنفوذ التي تتعاظم قوتها التدميرية يوماً بعد يوم.

بعض هذا الخداع هو خداع للنفس. أما أولئك المتورطون فيه فهم يقنعون أنفسهم بصواب ما يقولونه، بالرغم من أنهم في أعماقهم يعرفون أن ما ينقصهم هو الصدق والصراحة. فبدلاً من أن يُبقوا مناوراتهم السياسية خارجاً بعد انتهاء الحملة الانتخابية، فهم يُبقون عليها جزءاً من الطريقة التي تمارس فيها السياسة في واشنطن. أصبح الخداع الذي تنتجه واشنطن سرطاناً في خطابنا السياسي يدمر بشكل كبير قدرة زعمائنا المنتخبين على ممارسة الحكم بشكل فاعل، والقيام بما هو أفضل لخدمة مصالح أمريكة.

أصبح العديد من السياسيين وأتباعهم ملتزمين عاطفياً برؤية حزبية حول الحقيقة مقررةٍ سلفاً، ولا تسمح إلا بقدرٍ ضئيل من التفاهم أو التعاون مع الطرف الآخر. أما الفواصل الرمادية للحقيقة، والتي لا تكاد تبين، فقد ضاعت بين (أيديولوجيات) «الأبيض والأسود» التي يعتنقها الحزبان الجمهوري والديمقراطي. وهكذا، فلا بد من أن ينتج عن كل ذلك انقسام دائم، وتزاحم خانق وعجز عام عن مواجهة التحديات الكبرى التي نواجهها بشكل بنّاء.

لا أعتقد أن جورج بوش كان قد انخرط في هذه الممارسات الهدامة عن سابق تصور وتصميم. لكنه اختار أن يمارس لعبة واشنطن كما وجدها عند تسلمه الرئاسة بدلاً من القيام بتغيير هذه الثقافة تنفيذاً لما تعهد به أثناء حملته الانتخابية لمنصب الرئيس، شأنه في ذلك شأن الكثير ممن سبقوه إلى هذا المنصب. وكما الآخرين ممن أتوا قبله، فقد انخرط إلى حد ما في عملية خداعٍ للنفس، ربما كانت ضرورية من الناحية النفسية لتسويغ الوسائل المطلوبة للفوز باللعبة السياسية.

تُوقِع الحملة الدائمة وسائل الإعلام في شراكها بحيث تتحول هذه الأخيرة إلى شريك تحريضي في عملية الاستقطاب التي تمارسها هذه الحملة. فهي تؤكد على الصراع

والجـدل والسلبية، وتركز ليس علـى التأثير الذي تحدثه السياسـات في العالم الحقيقي والحقائـق الأشمل التي تنطلق منها، بل على مظاهر السباق المحموم في السياسة – حول من هو الفائز، ومن هو الخاسر، ولماذا.

حاولـت عبر التدقيق في هذه الأعراض والطريقة التي أدت فيها إلى انهيار واحدة من الإدارات الرئاسية على الأقل، أن أسهم في زيادة فهمنا لثقافة الخداع في واشنطن، وكيف يمكن لنا كشعب أمريكي، أن نقوم بتغيير هذه الثقافة.

بالرغم من أن الوقت الذي أمضيته في البيت الأبيض في عهد بوش لم يحقق لي ما كنت أصبـو إليه، فإن تفاؤلي بمستقبل أمريكة قد أصبـح أكثر قوة. لقد التقيت الكثير، الكثير مـن الناس التواقين إلى إجـراء تغيير إيجابي والجاهزين لتكريس حياتهم وطاقاتهم من أجـل مستقبل بلادنـا. وما زلت أؤمن بكلمات قالها الحاكم -آنـذاك ، بوش تؤكد أنه من الممكـن إثبـات أن «السياسة بعد انقضاء زمـن على تلطخ المُثُل، تستطيـع أن تكون أفضلَ وأكـثرَ سمـوّاً». أنا مقتنع بأننا لو أمعنّا النظر في السبـب الذي أدى إلى انحراف نظامنا، وفكّرنا بجدية في مسألة إصلاحه، فلن يكون هناك ما لا نستطيع تحقيقه.

آمل أن يقدم هذا الكتاب إسهاماً في النقاش الدائر على الصعيد الوطني.

سكوت ماكليلان

نيسان، إبريل، 2008



1

فضيحة على قياس واشنطن

كانــت الإدارات الرئاسيــة على امتــداد التاريخ الأمريكــي تمر بأوقــات عصيبة تكتنفها الحروب والفضائح. حدث أن أصبحتُ السكرتير الصحفي للبيت الأبيض في وقت كانت إدارة الرئيس بوش تعاني من الاثنتين معاً، وكانتا مرتبطتين مع بعضهما بعضاً ارتباطاً وثيقاً.

في أواخــر شهــر أيار، مايو سنة 2003، عندما طلب إلي الرئيس أن أبدأ مهامي ناطقاً رئيســاً باســم البيت الأبيضــ اعتباراً من شهر تمــوز، يوليو، لم يدر في خلــدي وجوب أن أحســب حساب الكم الهائل من السُّمّيّــة وروح الخصام السائدتين في واشنطن - أو مدى اللغط والاستقطاب اللذين ستكون إدارة بوش على وشك أن تنساق إليهما.

بحلــول شهر تشرين الأول، أكتوبــر، أي بعد أقل من ثلاثة أشهر على استلامي مهامي الجديدة، وجدتني في الخطوط الأمامية مدافعاً عن «بيتٍ أبيضَ» أصبح محاطاً بفضيحة تزداد اتساعاً يوماً بعد يوم عشية بدء حملة إعادة انتخاب الرئيس؛ لقد أدت هذه الفضيحة إلى زيادة صخب العداء لنا من قبل بعض وسائل الإعلام، وإلى انقضاض نقادنا الحزبيين علينــا. أما بالنسبة لعامة الشعب الأمريكي الذي بدأ يتململ من التحقيقات التي لا نهاية لهــا في الأفق، والفضائح المرتبطة برئاسة كلينتون، فقــد كانت هذه الحال تكريساً لأسوأ ما رأوه في واشنطن.

أمــا القصة التي تسربت إلى صحف واشنطن فقد كانت تتمحور حول كيف أن البيت الأبيض نزع الغطاء بشكل متعمد عن (فاليري بليم)، العميلة السرية التي تعمل لصالح وكالة المخابرات المركزية الأمريكية. قام بعضٌ من موظفي الإدارة الذين لم يتم الكشف عــن هوياتهم بتسريب هويتهــا إلى صحفيين بغية معاقبة زوجهــا (في أسوأ الأحوال) أو

تدمـير مصداقيته (في أفضلها) وهـو جوزيف ويلسون، السفـير السابق الذي صرح في العلـن أن الإدارة ضللت البـلاد في جرها إلى حرب في العـراق. أشارت بعض القصص الإخباريـة إلى أن مساعدين في البيت الأبيض هم من قام بكشف هوية بليم أمام خمسة من الصحفيين على الأقل. كان الجهد المنسّق الذي رتّب له البيت البيض في كشف هويتها يعنـي أن الموظفين المتورطين في هذه العملية، على علـمٍ منهم، أو من دون علمهم، قاموا بتسريب معلومات سرية تخص الأمن القومي.

بعـد الإعـلان عن البـدء في التحقيق الجنائي الـذي تقوم به وزارة العـدل في التاسع والعشريـن من شهر أيلول، وعلى مـدى أسبوعين، كنت أرفض بشدة فكرة أن يكون البيت الأبيض وراء مثل هذا التسريب. وكنت قد نفيت قبل ذلك أي تلميح إلى احتمال أن يكون زميلـي مـن تكساس كارل روف، الـذي غالباً ما كان مستهدفاً من قبـل منتقدينا بصفته أقـرب مستشـاري الرئيس متورطاً في عملية التسريب تلك. بعـد ذلك قمت بإضافة كبير موظفي نائب الرئيس سكوتر ليبي إلى قائمة من قمت بالدفاع عنهم.

ومـع حلـول موعد اللقـاء الصحفي في البيت الأبيض بتاريخ العاشر مـن شهر تشرين الأول، أكتوبر، كنت أبحث عن طريقة أتجنب بواسطتها التعليق على أي نقاط محددة تتعلق بقضية بليم، والتي أصبحت الآن جزءاً من موضوع التحقيق الذي تم الإعلان عنه مؤخراً.

وكان المدخـل الذي كنت أبحث عنه قد جـاء على مشارف نهاية لقاء يوم الجمعة على شكل سـؤال وجهته لي فيكتوريا جونز وهي صحافية إذاعية لطيفة لكنها متشككة، وتدير برنامجاً حوارياً ليبراليَّ النزعة، ومن المنتقدين لإدارة بوش.

قالـت جونـز: «قلت لنا يا سكـوت في بداية هذا الأسبوع إن أياً مـن كارل روف وإليوت أبرامـز ولويس ليبي لم يقم بالكشف عن أي معلومـات سرية ذات صلة بعملية التسريب. هل لك أن تطلعنا فيما إذا كان أياً من هؤلاء قد أبلغ أحد الصحفيين أن فاليري بليم كانت تعمل لدى وكالة المخابرات المركزية الأمريكية؟».

كنت جاهــزاً للإجابة عن مثل ذلك السؤال: «سبق وأن تحدثت إلى هؤلاء الأشخاص؛ وكما أخبرتكم سابقاً، أكد لي هؤلاء الأشخاص أنهم غير متورطين في هذه القضية. وهذا هو الموقف الآن».

دخل صحفي آخر على خط النقاش طالباً التوضيح: «لم يكونوا متورطين في ماذا؟»

أجبت: «في تسريب معلومات سرية».

كان ما قلته نهائياً ومحدداً - تماماً كما أردت له أن يكون.

كنــت أختار كلماتي بعنايــة. فبينما صدّقتُ ما قاله لي كل من روف وليبي، لم أكن على ثقــة لا يشوبهــا الشــك في أن ما قــالاه لي كان صحيحاً. لذلــك تعمدت أن أبقــي الكرة في ملعبهمــا عبر عبــارة أنهما «أكدا لي» عــدم تورطهما في هذه القضية. كانــت هذه العبارة بمثابة جدار من نار صممته لحماية مصداقيتي في حال أصبحت الحقيقة أكثر تعقيداً - أو اختلافاً - عما كنت قد أُخبِرتُ به. لم يكن هذا يعني أنني كنت أتوقع ذلك؛ ذلك أنني كنت واثقاً حينهاً أن الرئيس أو نائبه لا يمكن لهما أن يطلبا إليّ أن أضلل الجمهور عمداً.

كانــت التأكيدات العلنية التي أطلقتها من على المنصــة يوم العاشر من شهر تشرين الأول، أكتوبــر، آخــر التعليقــات التي تنكر أن يكون لــروف أو لليبــي أي ضلع في الكشف عــن اسم عميلة سرية تعمــل لصالح وكالة المخابرات المركزية الأمريكية، كما كانت آخر تعليقاتــي حــول أي قضايا أخرى يمكــن أن تشكل جــزءاً من التحقيقــات الجنائية التي أفرزتها قضية تسريب اسم بليم.

كانت هناك مشكلة واحدة فقط. ما كنت قد قلته لم يكن صحيحاً.

قمــت بإعطــاء معلومات كاذبــة مــن دون أن أقصد ذلــك؛ ذلك أن خمســة من كبار المسؤولــين في الإدارة كانــوا متورطين في ما كنت قد أنكرتــه: روف، وليبي، ونائب الرئيس تشيني، وكبير موظفي الرئيس أندرو كارد، بالإضافة إلى الرئيس نفسه.

كانــت العبارات الكاذبة التــي تفوهت بها في لقاء يوم الجمعة ذاك، وعلى امتداد السنتــين اللاحقتين لمهمتي كسكرتير صحفي تعــد تصريحاً عن موقف البيت الأبيض

الرسمـي حـول قضية بليم. لم يكن يدور في خلدي إلا لمامـاً حينها، أن ما صرحت به، والخداع والتضليل اللذين كانا يتضمنان هذا التصريح، سيكون بمنزلة إنهاء لمهمتي ككبير الناطقين باسم الرئيس.

لقد سمحت لنفسي أن أكون هدفاً للخداع عبر تسويق غير مقصود للزيف. وكانت هذه المسألة حاسمة في عدم تمكيني من القيام بمهامي تجاه الرئيس بشكل فاعل.

لم يتبـين لي أن مـا قلته لم يكن صحيحاً إلا عندما بـدأت وسائل الإعلام بتفنيده بعد سنتـين تقريبـاً. أنا على يقين من أن الرئيس نفســه لم يكن على اطلاع على ذلك. لقد تم خداعه هو أيضاً، وهو بذلك تورط بشكل غير مقصود في خداعي أنا. لكن كبار المسؤولين في البيـت الأبيضـ الذين كانوا يعرفون الحقيقـة - بمن فيهم روف، وليبـي، وربما نائب الرئيس تشيني - سمحوا لي، وحتى شجعوني على تكرار هذه الكذبة وتسويقها.

عندمـا بدأت الحقيقة تظهر تباعاً، كانت مصداقيتـي ناطقاً باسم البيت الأبيض قد تلطخت جداً - وكانت هذه تجربة مؤلمة جداً بالنسبة لي.

أنـا ألوم نفســي. فقد سمحت لنفسي أن أتعرض للخـداع؛ إلا أن سلوك الرئيس وكبار مستشاريه كان أكثر مدعاة لخيبة الأمل.

خلال سنتي 2003 و2004، اختـار البيت الأبيض أن يجانب الصراحة والصدق فيما يتعلق بفضيحة بليم؛ وقرر بدلاً من ذلك أن يشتري الوقت، وأدار أحياناً أذناً صماء متذرعاً بالتحقيـق الجـاري كتعليلٍ للصمت الذي التزم جانبـه. كان الهدف من ذلك منع حدوث أي إحـراج سياســي يمكن أن يعرضـ الرئيس للأذى، ويضعف من فرصـ إعادة انتخابه في تشريـن الثـاني، نوفمبر، سنة 2004. كان الدافع إلى ذلـك مفهوماً، لكن السلوك كان خاطئـاً - وشـكل في نهاية المطاف هزيمة للذات. ولو أمعنّا النظر قليلاً في ما حدث، لكان من السهولة بمكان تبيان أن ما حصل كان يشكل واحدة من سمات إدارة غالباً ما اختارت في اللحظات الحاسمة أن تستخدم التشويش والسرية بدلاً من الصدق والصراحة.

وبينما بدأتُ التأمل في حادثة التسريب هذه -وهي واحدة من أهم الحوادث التي مرت بـي خلال فترة شغلي لمنصب السكرتير الصحفي- فإن رأيي في واشنطن بدأ يتكون أكثر مـن أي وقت مضى. فمـا كنت شاهداً عليه، وما بدأت التحقـق منه في الوقت الذي كانت الأضـواء مسلطة علـيّ -حتى ما بعد هذه الحادثة- كان الحقيقـة الأكبر، والأكثر مدعاة للحـزن. إذ لم يقتصـر الخداع على حادثـة معزولة، أو حتى على البيـت الأبيض في عهد بوشـن. فقد تغلغل في مفاصل خطابنا السياسـي الوطني. وبينما كان الكم الأكبر من هذا الخـداع عَرَضيّاً، ولم يكن قادتنا المنتخبـون يمارسونه بشكل شعوري، فقد أضحى طريقاً مقبولـة لكسب الحروب الحزبية أمام الرأي العـام، وجزءاً هدّاماً تزداد وتيرته في ثقافة واشنطـن. عندما قدمت إلى واشنطن عضـواً في الإدارة الجمهورية، كنت أظن أن عقلية التلاعب السياسي كانت بشكل رئيس من صنع أسلافنا في البيت الأبيض في عهد الرئيس كلينتـون، وأن الرئيس الذي كنـت أعول عليه كثيراً، وأعني به جـورج بوش، كان مصمماً تماماً على تغيير هذا النهج. لكنه اختار أن لا يقوم بذلك. بدلاً من ذلك، انغمست إدارته بالمناورات السياسية التي كانت لا تقل سوءاً، إن لم تكن أسوأ من سابقاتها، وأكثرها كان يتعلق مباشرة بأكثر قراراته ارتباطاً بهذا الأمر - وأعني به قرار غزو العراق.

⁂

كتـب الكثير عن حادثة تسريـب المعلومات في قضية بليم على امتـداد السنين القليلة الماضيـة، لدرجـة أن الكثيريـن ومن بينهم نحن الذيـن كنا جزءاً من عمليـة كشف هذه الأحداث، يجدون صعوبة في إعادة تركيب التفاصيل المتعلقة بالكيفية التي بدأت فيها هذه القصة. دعوني أعرض عليكم هذه التفاصيل.

كان اللغـط الهائل الذي أدى في نهاية المطاف إلى فضيحـة التسريب قد بدأ بالتأكيد علـى الجهـود العراقية الرامية إلى الحصـول على كميات من اليورانيـوم المركز والقابل للانشطار - وهو ما أطلق عليه وصف الكعكة الصفراء- من دولة النيجر الواقعة في غرب إفريقيـا. استناداً إلى الوثائق التي اعترفت وكالة المخابرات المركزية فيما بعد أنها كانت مزورة، شكل هذا الزعم أحد العناصر التي استندت إليها الإدارة في جهودها سنة 2002 لإظهـار أن نظام صـدام حسين كان يسعى بشكل نَشِط لإعادة بناء برنامجه النووي الذي

تم صـرف النظر عنه سابقاً، وأنه يمتلـك ترسانة من الأسلحـة البيولوجية والكيميائية. ولجملـة هذه الأسباب، بالإضافة إلى الدعم الذي كان هذا النظام يقدمه للإرهاب، فقد قال الرئيس إن العراق كان «يشكل خطراً كبيراً ومتزايداً» على السلام في الشرق الأوسط وحتـى علـى أمن الولايات المتحدة. كان هذا النقاش حـول أسلحة الدمار الشامل النقطة الجوهريـة التي بنى عليها رأيـه في أن الولايات المتحدة محقة في قيـادة حلفائها وكذلك الأمم المتحدة باتجاه شن حرب وقائية على العراق.

في خريـف سنـة 2002، وبينما كان الجـدل محتدماً في واشنطـن وفي العالم حول ما إذا كان شـن حـرب على العراق ضروريـاً، طلب الكونغرس تقويمـاً استخباراتياً وطنياً حـول وضع برنامج العـراق لأسلحة الدمار الشامل. يمثل التقـويم الاستخباراتي الوطني الرؤيـة الجماعية لكافة الوكالات المعنية التي تشكل المجموعـة الاستخباراتية الأمريكية. أوضح التقـويم الاستخباراتي الوطني في شهر تشريـن الأول سنة 2002، بعنوان «برامج العـراق المستمرة لإنتاج أسلحة الدمار الشامـل» أن العراق «يحاول بشكل نَشِط الحصول علـى اليورانيوم الخـام وعلى الكعكة الصفـراء» (كانت عبارة «الكعكـة الصفراء» تشير إلى المزاعـم المتعلقة بدولة النيجـر). بناء على هذا التقـويم الاستخباراتي الوطني، ولو بشـكل جزئي، صوّتَ الكونغرس بأغلبية ساحقة، ومن كلا الحزبين، بتاريخ الحادي عشر مـن شهر تشريـن الأول، أكتوبر، سنة 2002 بتفويض القائـد الأعلى للجيش للقيام بعمل عسكري ضد العراق.

كانت النقلة اللاحقة في تطور مسألة اللغط حول موضوع النيجر تتجسد في خطاب الرئيـس عن حال الاتحـاد سنة 2003 الذي ركـز فيه بشكل رئيس علـى الخطر الذي يمثله العراق. ألقى الرئيس ذلك الخطاب في الوقت الذي كانت تتصاعد الاستعدادات الدعائية والعسكرية للغزو، وبينما كان صدام يستمر في تحديه للمطالب الصادرة عن مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة.

بعـد أن تحدث بشيء مـن الاستفاضة حول سعـي النظام العراقي الـدؤوب والمستمر لامتـلاك الأسلحـة البيولوجيـة والكيميائيـة، بالإضافـة إلى صلتـه بالإرهـاب، فقد لمح

الرئيس باختصار وبطريقة تنم عن التشاؤم، إلى الزعم الأكثر مدعاة للخوف -بأن ذلك النظام يسعى باتجاه تطوير برنامج متقدم للأسلحة النووية. كان الرئيس قد ذكر سابقاً أن بإمكان العراق بناء قنبلة نووية «خلال سنة» إذا ما تسنى له الحصول على المواد الضرورية مثل اليورانيوم. الآن، نطق بما أصبح يعرف لاحقاً ب «الكلمات الست عشرة» - وهي الإشارة الشخصية الأولى له إلى مسألة الزعم حول موضوع اليورانيوم النيجري: «تبين للحكومة البريطانية أن صدام حسين سعى مؤخراً إلى امتلاك كميات كبيرة من اليورانيوم من أفريقيا».

أضحت الكلمات الست عشرة تلك، السلسلة المترابطة لذلك اللغط، والتي وجهت ضربة شبه قاصمة لمصداقية الرئيس وإدارته.

وبينما استمر الدفع باتجاه الحرب، تابع الرئيس مع آخرين من إدارته الترويج للحرب ضد العراق. ونظراً لأن شعبية وزير الخارجية كولن باول عند الحزبين كانت عارمة، بالإضافة إلى استقامته وأخلاقه التي لا يرقى إليهما الشك، فقد وجد البيت الأبيض أنه الشخص الأكثر منطقية وقدرة على الإقناع، وأفضل من يمكن أن يسهم في وضع حدٍ للجدل الدائر حول هذه القضية داخل الولايات المتحدة وخارجها. وعلى هذا الأساس، قام باول في الخامس من شباط، فبراير، بتقديم عرض أمام مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة حول الجهود العراقية الرامية إلى تطوير وتخزين أسلحة الدمار الشامل. لم يتضمن هذا العرض إشارة إلى المزاعم بشأن مسألة النيجر. فبعد أن قام بالتدقيق في المسألة من الناحية الاستخباراتية، اختار باول أن لا يستخدم هذه الورقة -وكان اختياراً حكيماً وموحياً في آن، كما تبين لاحقاً.

ومع ذلك، بقيت هذه المزاعم من أكثر الدلائل تأثيراً في الرأي العام فيما يتعلق بحجة الإدارة لشن الحرب؛ ذلك أن التهديد باستخدام السلاح النووي في هجوم عراقي كان يبدو أكثر إثارة للرعب بين معظم الأمريكيين من الهجوم المستبعد أكثر، بواسطة الأسلحة البيولوجية أو الكيميائية على التراب الأمريكي. لهذا السبب تصدرت كلمات مستشارة الأمن القومي كوندوليزا رايس عناوين الصحف في الثامن من أيلول: «تكمن المشكلة هنا

في أنه سيكون هناك نوع من الترقب الدائم حول المدة التي سيستغرقها [صدام] للحصول على الأسلحة النووية. لكننا لا نريد أن يتحول دخان المدفع إلى غمامة من الفطر».

إذاً، بينما كانت أمريكة على وشك شن الحرب، أصبحت المزاعم حول مسألة النيجر قضية ثانوية.

في السابع من آذار، مارس، سنة 2003، وقبل أيام من قيام الرئيس بإطلاق عملية تحرير العراق لنزع أسلحة صدام وقلب نظامه، قام محمد البرادعي المدير العام للجنة التفتيش والتدقيق للأسلحة النووية التابعة للأمم المتحدة، ووكالة الطاقة الذرية الدولية، بالإدلاء بتصريح كان له وقع الصاعقة، وذلك ضمن الملاحظات التي قدمها إلى مجلس الأمن: فالتقارير الاستخباراتية حول مسألة اليورانيوم ليست لها أي مصداقية، كما أنه «لا يوجد أي دليل أو أي إشارة ذات قيمة» تدل على أن العراق أعاد بناء برنامجه لإنتاج الأسلحة النووية. ذهب أبعد من ذلك عندما أشار ضمناً إلى أن الوثائق التي استندت إليها المزاعم بشأن مسألة النيجر كانت مزورة: «استناداً إلى التحليل المعمق، توصلت وكالة الطاقة الذرية الدولية بالتعاون مع خبراء محايدين إلى الاستنتاج بأن هذه الوثائق التي شكلت أساس هذا التقرير حول صفقة يورانيوم جرى عقدها مؤخراً بين العراق والنيجر ليست صحيحة. وهكذا، فقد توصلنا إلى الاستنتاج بأن هذه المزاعم لا أساس لها من الصحة».

بعد ذلك بيومين اثنين، سأل تيم روسيت مقدم برنامج «واجه الصحافة» Meet the Press على محطة NBC الوزير باول عن الملاحظات التي أدلى بها البرادعي. ذكر باول في معرض إجابته أن المعلومات الواردة حول صفقة اليورانيوم قدمت لنا بحسن نية، وأنه إذا تبين أن هذه المعلومات خاطئة، فـ«لا بأس». لكنه أكد لروسيت أن الموضوع ما زال قضية مفتوحة على الاحتمالات كافة وخاضعة للتحقيقات. ثم تابع بعدها تكرار نقطة أخرى رئيسة بالنسبة إلى الإدارة وتتلخص في أننا قلنا في السابق من شأن قدرات العراق النووية. وحذر باول من «أنه يتوجب علينا أن نكون أكثر حذراً بشأن برامج الأسلحة النووية». «شاهدنا كيف أن وكالة الطاقة الذرية الدولية أعطت للعراق ما يشبه

صك البراءة في أوائل التسعينات من القرن الماضي، لتكتشف فيما بعد أن لديهم برنامج أسلحة نووية نَشِط لم يكتشفوه حينها».

كان باول محقاً في ما قاله من أن تقارير المخابرات السابقة قللت من أهمية التهديد الذي كان يشكله نظام صدام حسين. وقد أكدت ملحوظاته تلك على انعدام الثقة من قبل العديد من الموظفين الأمريكيين، في وكالة التفتيش النووية التابعة للأمم المتحدة، وقد استخدم بعض موظفي الإدارة والبيت الأبيض غياب هذه الثقة لإقناع أنفسهم بدرجة عالية من اليقين أن النظام العراقي كان يشكل تهديداً حقيقياً ومتزايداً في عالم ما بعد الحادي عشر من أيلول.

على أي حال، لم يكن للشكوك حول دقة المزاعم المتعلقة بمسألة النيجر أهمية تذكر لإبطاء الزخم في الاستعدادات للمواجهة العسكرية. فمع حلول التاسع عشر من آذار، كانت الحرب مع العراق قد بدأت.

في مقالة نشرت في جريدة النيويوركر بتاريخ الحادي والثلاثين من آذار مارس، ناقش سيمون هيرش وثائق النيجر وأطلق عليها من دون أي مواربة صفة التزوير. وبالرغم من أن هيرش كان معروفاً بآرائه الليبرالية (ومن ثم لم يكن العديد من القابعين في الطرف المحافظ يلقي بالاً لآرائه) فقد كانت وسائل الإعلام الرئيسة تعده صحافياً جاداً ذا صلات قوية مع بعض مراكز القرار السياسي، كما أن مقالته تلك ألقت الضوء على شكوك حول وثائق النيجر.

الفكرة التي تقول إن إدارة بوش استندت في جزء من حجتها لشن حرب مثيرة للجدل إلى معلومات استخبارية غير صحيحة هي فكرة قابلة للأخذ والرد؛ ذلك أن الأمريكيين يميلون إلى التسامح مع أخطاء ارتكبت بشكل غير مقصود، خصوصاً إذا كان ذلك ناتج عن إفراط في الحذر من احتمال خطر داهم في عالمِ ما بعد الحادي عشر من أيلول. أما إذا كان قادة الإدارة قد اختاروا بشكل متعمد تجاهل الحقائق في معرض تسويغهم للحرب، وإذا تعمدوا إخفاء الحقائق كي يجعلوا من قضيتهم أكثر قوة ومصداقية مما هي

عليــه، وهذا أسوأ بكثير، فإن الأمريكيين لن يكونــوا عندها متسامحين إلى تلك الدرجة. كان هــذا هــو الاتهــام الجديد الأكثر فاعلية، والــذي ظهر في واحد مــن أعمدة الرأي في صحيفــة نيويورك تايمز في شهر أيــار، مايو، سنة 2003 بقلم نيكولاس كريستوف الحائز على جائزة بوليتزر، والمناهض للحرب على العراق.

أبلــغ «سفير سابق في إحدى الدول الإفريقيــة» لم يشأ أن يفصح عن اسمه، الصحفي كريستوف أنه قد تم إيفاده إلى النيجر للحصول على أجوبة عن أسئلة معدة من قبل مكتب نائب الرئيس حول طلب العراق الحصول على اليورانيوم. ذكر كريستوف أن «هذا الموفد الــذي بقي اسمه طــي الكتمان ذكر في تقريره إلى وكالة المخابــرات المركزية، وإلى وزارة الخارجية أن المعلومات الواردة خاطئة بشكل لا لبس فيه، وأن الوثائق قد تم تزويرها. وقد انتشــر فضح الموفد لهذا التزوير في أروقــة الإدارة كافة، وبدا أن هذا التقرير كان مقبولاً لــدى أركان الإدارة - باستثنــاء أن الرئيس بوش ووزارة الخارجية استمرا في الإشارة إلى هذه الصفقة المزعومة».

كانــت تلك عبارات قاسية كتبها صحفيٌّ ليــبرالي شهير في صحيفة يعتبرها الكثيرون صحيفــة التوثيق الوطنية. كانت الشكوك تحوم حول صدقية المزاعم بشأن صفقة النيجر منــذ وقــت طويل. لكــن كريستــوف يشــير الآن إلى أن هناك ما هــو أدهى وأمــرّ - فلقد استخدمــت الإدارة المزاعــم حول صفقة اليورانيــوم وهي تعلم أن هــذه المزاعم «خاطئة بشكل لا لبس فيه».

كان الاتهــام المحدد الــذي أطلقه كل من كريستوف ومصــدر معلوماته غير المعلن قد زاد من حدة اللغط الذي كان قد انتشر بسرعة البرق والمتمثل في استخدام البيت الأبيض للمخابرات لاختلاق قضيــة أراد تسويقها للكونغرس والرأي العام لتسويغ خوضه الحرب على العراق. وفي الوقت الذي اجتاحت القوات الأمريكية العراق، فإن الكشف عن المخزون الهائل من أسلحة الدمار الشامل الذي توقع الجميع أن يتم الإعلان عنه لم يتحقق. وكرد فعل من قبل منتقدي الإدارة وخصوصاً من الحزب الآخر، بدأ هؤلاء بكيل الاتهامات إلى الرئيس بأنه قام بتضليل الأمة عن سابق تصور وتصميم إنْ بواسطة المبالغة، أو الضغط

علـى المخابرات لتبرير الحرب. في أفضل الأحوال، عـبّر منتقدو الحرب على العراق عن اعتقادهـم أن الرئيسـ لم يكن صادقاً مـع الشعب الأمريكي. كانوا يعتقـدون أن الرئيس ومستشاريه قد تجاهلوا، أو ضربوا عرض الحائط بكل التحذيرات والدلائل المتعلقة بعمل المخابـرات كي يجعلوا من التهديد الذي يمثلـه العراق أكثر جدية مما هو عليه، وليخلقوا جواً من التوتر يؤدي بهم إلى كسب التأييد الشعبي المطلوب.

وفي الوقـت الـذي لم تبدِ وسائل الإعلام الوطنية اهتماماً فورياً بما كتبه كريستوف، فقد استرعـت كتاباته اهتمام البيت الأبيض، وخصوصاً مكتب نائـب الرئيس. وعلى نفس نمط ردة فعـل البيت الأبيضـ في عهد كلينتون، الذي كان يسارع إلى الـرد بسرعة وعدوانية على منتقديـه، بدأ البيت الأبيض في عهد بوش باتخاذ خطوات للقيام بهجوم معاكس. وكان على نائب الرئيس تشيني الذي أصبحت سمعته ومصداقيته بالتحديد موضع تساؤل، وعلى مكتبه أن يأخذ دوراً قيادياً في هذه الجهود التي بدأت في أواخر شهر أيار، مايو، سنة 2003.

تحقـق مكتب نائب الرئيس بسرعة عبر استفسـارات أجراها مع وزارة الخارجية من هويـة مصدر معلومـات كريستوف الذي كان اسمـه حتى الآن طي الكتمـان. إنه السفير السابـق جوزيـف ويلسون الـذي تم إيفاده إلى النيجـر للتحقق من المزاعـم بشأن صفقة اليورانيـوم في كانون الثاني، يناير سنـة 2002. تحت غطاء من السرية، بدأ كل من نائب الرئيسـ ومساعده الموثوق سكوتر ليبي بذل كل مـا باستطاعتهما من جهد لتشويه سمعة ويلسون عن طريق بعض الصحافيين المختارين. وهكذا، ومن دون معرفة أي شخص آخر في ذلك البيت الأبيض المقسوم إلى دوائر صغيرة ضيقة مغلفة بالسرية -بمن فيهم رئيس أركان البيـت الأبيض، ومستشارة الأمن القومي، ومديـر وكالة المخابرات المركزية- قام الرئيس بنزع غطاء السرية عن أجزاء مهمة من المعلومات الواردة في التقويم الاستخباراتي الوطنـي الصـادر في شهر تشريـن الأول، أكتوبر، سنة 2002 كـي يستعملها كل من نائب الرئيس وليبي لهذا الغرض.

في الوقـت نفسـه، كان ليبـي ومسؤولـون رفيعـو المستـوى في الإدارة بمـن فيهم نائب وزير الخارجيـة ريتشارد أرميتاج، وكارل روف، والسكرتـير الصحفي حينها آري فليشر

يتقاسمـون بشـكل سري فيمـا بينهم جزءاً آخـر من المعلومـات السرية المتعلقـة بالأمن القومـي – وأعني بذلك هوية زوجة جو ويلسـون، فاليري بليم، ودورها كموظفة في وكالة المخابـرات المركزية في ترتيـب رحلة ويلسون الاستقصائيـة إلى النيجر. كان الهدف من هـذه التسريبات تشويه سمعة ويلسون عبر الحط من شأن تأكيداته العلنية أنه سافر إلى النيجـر بترتيب من وكالة المخابرات المركزية بموجب طلب من نائب الرئيس. لكن دائرة الذيـن كانوا على اطلاع على هذه التسريبات كانت ضيقة جداً، كما أن بعض من اشترك في هذه التسريبات لم يكن يعرف أن هوية بليم كانت واحدة من أسرار الدولة.

كان يمكـن أن تكـون لهذه القرارات - أيْ قرار الدفاع عـن الرئيس وشن حملة شعواء لتشويه سمعة جو ويلسون، وفضح دور زوجته في وكالة المخابرات المركزية كجزء من هذه الحملة- تأثيرات عميقة بعيدة المدى على مصداقية إدارة بوش.

⁂

في الوقـت الذي كانت الجهود لتشويه سمعة ويلسـون قيد التحضير، كنت ما أزال في منصـب نائب السكرتير الصحفي. كان قد وقع الاختيار عليّ كي أخلف آري فليشر الذي عـبّر عن نيته في ترك المنصب في منتصف شهر تموز، يوليو. ولذلك فقد كانت واجباتي منصبّـةً في مكان آخر، ومن ثم لم يكن لـديّ أي اطلاع على الجهود الخفية لفضح هوية بليـم وتشويه سمعة ويلسون. كان اللغط الذي أحدثتـه الكلمات الست عشرة ما يزال في طـور التشـكل ولم يكتمل نموه إلا في أوائل شهر تمـوز، يوليو، سنة 2002، وذلك قبل نحو أسبوع من تسلمي مهامي الجديدة.

في ذلـك الوقـت، كنت كغيري مـن موظفي البيـت الأبيض، أرى أن تأكيـدات ويلسون ليسـت سـوى تعبير عن هجوم لئيم ذي نكهة حزبية. لم يـدر في خلدي أن هناك أي سبب يستدعـي أن تكون الحرب موضع تساؤل، ولم أشعر بوجود أي سبب يدفعني شخصياً إلى التشكيـك بدوافعها. كانت ثقتي كاملة بالأعضاء البارزين في الفريق الرئاسي، ولم أرَ أي سبب موجب للتشكيك في نزاهة الرئيس.

تبين لي بالطبع أن الإدارة كانت منشغلة بالتنافس مع منتقديها في كابيتول هيل، وفي الصحافة عن دور المخابرات في فترة ما قبل الحرب، وحول قضية الحرب نفسها. لكنني شعرت أنها ليست سوى جزء من اللعبة في واشنطن المعاصرة -حملة مستمرة بين الجانبين، كل واحد منهما يحاول تشكيل الرأي العام ونيل رضاه. وكنت أتصور أننا بكل بساطة نقوم بما يجب علينا القيام به- أي القيام بهجوم معاكس ضد الاتهامات اللئيمة للرئيس بأنه كذب بشكل متعمد كي يجر الأمة إلى الحرب. احتلت الحرب الحزبية التي جرت في التسعينات من جديد مسرح الأحداث، وكانت وسائل الإعلام تتطلع إلى تغطية أخبار الطرفين المنتصر والمهزوم. غرقت الحقائق من جديد في لجة من اللغط، بما في ذلك الكيفية التي اختلق فيها البيت الأبيض قضية الحرب.

كانت دراما السرية والخداع، والاتهامات، والاتهامات المضادة التي نتجت عن ذلك تُمثّلُ على مسرح السلطة السياسية في واشنطن العاصمة. اكتشفت أن جزءاً من هذه المسرحية كان مثيراً. وبينما كانت السياسة هدفاً في حياتي بأقصى ما يمكن أن تسعفني ذاكرتي، لم يكن يدور في خلدي أبداً أنني سوف ألعب دور ممثلٍ مساعدٍ مشهور في هذه الدراما -ذات المغزى التاريخي- التي تحظى بجمهور عريض من المشاهدين.



2

جزء صغير
من مشروع عظيم

هناك مسحة من المثالية عند العديد منا ممن يعملون في سلك السياسة. فنحن نتوق إلى وجود قائد عظيم -القائد الذي نتصوره رئيساً أسطورياً ذا شخصية قوية، متحرراً من الهفوات ونقاط الضعف الشخصية، وملتزماً بالنضال من أجل المثل العليا وتجسيد أكثر ما يمكن تجسيده من شخصية كاميلوت التي تمثل الحقيقة والجمال والصلاح في أبهى صورها.

لكن أغلبنا مشدودون بما يكفي إلى الواقع الذي يبين لنا أن قائداً استثنائياً كهذا موجود فقط في مخيلاتنا. ومع ذلك، فإننا نعلل أنفسنا بالآمال بقدوم ذلك القائد النادر المتمتع بمواهب استثنائية، وبجاذبية فريدة، وبالتزام مطلق بالنضال في سبيل المجد والحصول عليه بالطريق الصحيحة، وبشرف ونبل.

يخلد تاريخنا مثل تلك القيادات النادرة. يطل علينا من نُصُبِهِم الحجرية الهائلة الحجم في عاصمة الوطن كل من جورج واشنطن، وجيفرسون، ولينكولن. يحدقون في الفضاء عبر رؤوسهم المصنوعة من الغرانيت (مع تيدي روزفلت) في جبل روشمور رامزين إلى المُثُل الأمريكية: الحرية، والديمقراطية، والأمل، وتكافؤ الفُرَص لكل الناس من مختلف مناحي الحياة. تُبَجِّلُ ذكرى مارتن لوثر كينغ جونيور وذلك بسبب تحديه لأمريكة أن ترقى إلى مستوى مُثُلها في المساواة والعدل للجميع.

وبينما كنت أرى جورج بوش القائد الأكثر جاذبية وإلهاماً في العالم عندما بدأت العمل لديه، كنت أعتقد أن لديه ما يكفي من هذه الميزات التي تؤهله كي يكون رئيساً جيداً، إن لم أقل رئيساً عظيماً. اعتقدت أيضاً أنه يمتلك تفهماً نادراً لما ينشده المواطن

العـادي على امتداد أمريكـة في شخصية القائد، وأنه ملتزم بمنحـه إياه. وهكذا، فقد غمـرني الإحساس بالحماسة عندمـا دعاني الحاكم آنـذاك، بوش في كانـون الثاني، يناير، إلى الانضمام إلى فريقه.

كنـت جالسـاً أنتظر بشيء مـن التوتر في مكتـب الاتصالات ذي الإطـارات الخشبية بسقفـه العالي داخل مبنـى عاصمة الولاية ذي القبة الوردية اللون. عادت كارن هيوز من جديـد وقالت: «الحاكم جاهز لاستقبالك» وبينما كنت ألج إلى ردهة الاستقبال الفسيحة المزخرفة خارج مكتب الحاكم، قمت بارتداء قناع اللعبة.

كان عقلـي في تلـك اللحظة في حال تركيـز شديد، كما اعتاد أن يكـون أثناء مباريات التنس التـي كنت أخوضها عندمـا كان بمقدوري حينها أن أدفع بـكل ما يمكن أن يشتت ذهنـي من حولي بعيداً عني -النـاس وحركة الهواء والضجيج- وأركـز بشكل كامل على الكرة وأرض الملعب. كنت أشعر بتدفق الأدرينالين مني. كان ينتابني مزيج من الإحساس بالثقة والقلق في الوقت نفسه. كانت لحظة من نوع خاص.

استمتعـت بموقعـي في السياسـة التكساسية، ولم أشعـر أبداً بالتوتر الـذي يعد سمة السياسـة في واشنطن. فلقد تبـين لي أن الحرب الحزبية التي طغت على مشهد السياسة الوطنية في الجزء الأكبر من عقد التسعينيات كانت متعبة ومنفرة. لكنني عرفت أن هذا العرض المقـدم لي من جورج دبليو بوش هو فرصة لا تحدث إلا مـرة واحدة في الحياة، وتتمثـل في أن أكـون جـزءاً صغـيراً من شيء عظيـم. كان هذا العرض يسـاوي في عرف الرياضة الانضمام إلى فريق لكرة القدم لديه فرصة كبيرة للفوز بالكأس العظيمة، وربما لدخول التاريخ كواحد من أعظم الفرق.

ظننـت أن أداء بوش كحاكـم لولايـة تكساس يؤكـد أن لديه القدرة علـى تغيير الجو السياسـي في واشنطن والقيام ببعض الإنجازات الكبيرة. وبالرغم من أنني كنت ملتزماً بالعمـل في مكتـب الحاكـم، إلا أنني كنت في أعماقـي أشعر بأن احتمـال أن ألحق به إلى واشنطـن يمكن أن يكون خياراً بالنسبة لي لو قرر خوض معركة الرئاسة والفوز بها كما توقع له الجميع.

كانـت كارن هيـوز مديرة مكتب بوشـ للاتصالات منذ أمد بعيد، ولقـد تحدثنا سويّاً عـن إمكان انضمامـي إلى فريق بوش بصفتـي كبير الناطقين باسـم مكتبه حين يصبح حاكمـاً. حـان الوقت الآن كـي يصادق على التوصيـة التي رفعتها إليه بهـذا الشأن. كنا، أنـا وبوش، نعـرف بعضنا بعضاً منذ أن ترشح لمنصب الحاكـم لأول مرة، ومنذ أن بدأت عملي كاستراتيجي سياسي شاب من تكساس، ولكن هذه المعرفة لم تكن بهذا العمق على المستوى الشخصي.

لم يكن قد قرر بعدُ رسمياً الدخول في السباق الرئاسي. لكن الجميع كانوا يعرفون أنه سـوف يشـرع في تطبيق خطة محكمة بهذا الشأن، حتى لـو تحدث علناً عن ذلك أعضاء مـن داخـل فريق بوش. كان كبـير مستشاريـه السياسيين كارل روف غارقـاً حتى أذنيه في عمليـة التخطيط الإستراتيجـي للقيام بحملة على الصعيـد الوطني. بعد ذلك بمدة وجيزة، كانت كارن هيوز، مستشارته الإعلامية الأكثر وثوقاً، ستنضم إلى لجنة الرئاسة التجريبيـة تاركة وراءها مساعدة خبيرة وناطقة رفيعة المستوى وهي ليندا إدواردز التي كانـت تمتلك إمكانيات صحفية قوية لكـن كانت تنقصها الخلفية السياسية. تمت ترقية ليندا إلى مرتبة مديرة الاتصالات في مكتب الحاكم، بينما كان الموقع الذي طلب إليّ أن أشغله هو نائب مديرة الاتصالات.

طلبـت إلى كارن ملء الفراغ الذي سوف يحدثه غيابهـا الوشيك. وطالما أن بوش كان من المتوقـع أن يدخل مضمار السباق الرئاسي إلى البيت الأبيض ويكون في المرتبة الأولى بـين المتسابقين معتمداً في ذلـك على اسم عائلته، وعلى نجاحه كحاكـم لولاية تكساس، فإنـه بالإضافة إلى سجله كحاكم، وسياساته سوف يكون موضع تمحيص مكثف من قبل وسائـل الإعلام الوطنيـة. أرادت كارن أن تتأكد من أن مكتب الاتصالات الحكومي التابع له، والذي سيكون في الطرف الآخر المتلقي، يحتوي على الخبرة السياسية والحس المرهف المطلوبـين مـن أجل معالجـة الهجوم المتوقع من قبـل وسائل الإعـلام الوطنية التي تمثل مراكز القوى.

قبل أسابيع قليلة على ذلك، قال ريغي بشور، وهو باحث ذكي في الشؤون الإستراتيجية سبق له أن أشرف عليّ في الفوز بثلاث حملات انتخابية قمت بإدارتها على مستوى الولاية: «لقد كان رجال الحاكم يقومون بمراقبتك. إنهم يبحثون عن ناطق رئيس ذي خلفية سياسية. إنهم يرغبون بالتحدث إليك، إذا كانت لديك رغبة في ذلك».

لم يكن قد مضى سوى عدة أيام على انتهائي من الإشراف على حملة لصالح والدتي للفوز بمنصب مهم، وهو منصب مراقب الحسابات في ولاية تكساس سنة 1998 كان التنافس فيها محموماً، وكانت والدتي في المراتب الأخيرة في هذه الحملة، وكان مفاجئاً أن تفوز هي بهذا المنصب؛ حينها لم أفكر في واقع الأمر في ما سيكون آتياً بانتظاري. كانت قوانين محاباة الأقارب تمنعني من الالتحاق بوالدتي في وظيفتها الجديدة. وكان تركيزي المباشر يتمثل في مساعدتها أثناء الفترة الانتقالية للقيام بواجباتها الجديدة: مثل إدارة طاقم واحد من المكاتب الكبيرة في الولاية؛ والإمساك بزمام خزينة الولاية بما في ذلك ميزانيتها خلال سنتين والتي تفوق 80 بليون دولاراً؛ والقيام بتقديرات مالية حول تكلفة التشريعات؛ والتصديق على كمية الأموال التي يمكن للمشرعين في الولاية إنفاقها، من ضمن أشياء أخرى. كان الهدف من كل ذلك مساعدتها في اختيار مستشارين رئيسين يمكن الوثوق بهم.

كان (ريغي بشور) يلوح باقتراح ليس من السهل مقاومته. أخجلت كلماته تواضعي. فلقد كنت أحب الحاكم. كان من السهل دائماً أن تتحدث إليه، وكان واقعياً جداً، وبدا لنا أنه شخص صادق عندما كنا نقوم بزيارته. قدرت كثيراً أسلوب قيادته التي تجاوزت حدود القضايا الحزبية، والفريق الرائع الذي جمعه حوله كي يضع خططه موضع التطبيق، لكنني لم أكن أتصور يوماً أنني سأصبح جزءاً من هذا الفريق. فقد كان أعضاء فريق بوش على درجة عالية من الذكاء الضمني، وكان يبدو عليهم التواضع، كما كانوا يظهرون التزاماً بخدمة قضية أكبر من مصالحهم الشخصية - وهذا ما يفسر حسن علاقاتهم مع بعضهم بعضاً. أن يكون المرء ضمن هذا الفريق كان يعني الانتماء إلى أفضل مجموعة مواهب في الولاية. وكان العمل لدى بوش أقصى ما يحلم به المرء في مجال السياسة بولاية تكساس.

الآن، عندمــا دخلــت إلى مكتــب بوش في مستهــل الجلسة التشريعية التــي تلت إعادة انتخابــه حاكمــاً للولايــة بنسبة ساحقــة، انتابنــي إحساس عــارم بالتواضــع والامتنان؛ وتساءلت: لماذا وقع اختيار حاكم تكساس المتمتع بالتأييد الشعبي، والذي من الممكن جداً أن يصبح الرئيس القادم للولايات المتحدة، عليّ أنا من بين كل الناس؟

كانت أضواء المكتب الكبير المستطيل الشكل خافتة، وكان مكتب الحاكم في أحد أطراف المكتــب، وكانت مقابله في الطرف الآخر مجموعته من كرات البيسبول الموقّعُ عليها. وإلى جانب كرات البيسبول، كانت هناك أريكة، وزوج من الكراسي، وطاولة صغيرة. كان هناك أيضــاً رسم لسام هوستون الشهير، الذي كان رئيساً لجمهورية تكساس وحاكماً لتكساس كولايــة، بعد انضمامهــا إلى الاتحاد؛ وهو يرتدي ثوبــاً فضفاضاً على الطــراز الروماني وإكليــلاً من الغــار شبيه بذلك الذي كان يضعه قيصر رومــا القديمة -ولم تكن أبداً تلك هــي الطريقة التي يتخيل معظم أهالي تكساس أن تكــون عليه صورة حاكمهم، خصوصاً في السنوات الأولى على تحول تكساس إلى ولاية. اعتاد بوش أن يمازح سلفه بالإشارة إلى الرسم كدرس للقادة السياسيين بأن يكونوا يقظين حول ما يوافقون على القيام به.

كان الحاكــم مسترخياً في كرسيــه وظهره إلى الوراء، وكان يضــع رجلاً فوق أخرى. كان هــذا هــو الوضع التقليدي في الاسترخاء الذي كنــت سأشاهده عليه مرات كثيرة في السنين القادمة.

رحب بي بوش بطريقة تنم عن روح طيبة: «كيف حالك يا سكوت؟ تفضل بالجلوس».

أجبت: «يشرفني أن أكون هنا يا سعادة الحاكم».

قال إنني موجود هناك لأن مواهبي لفتت الأنظار.

تحدثنــا قليــلاً عن والدتي، وعن حملتهــا الانتخابية، وكال لي المديــح بسبب الطريقة الممتازة التي أدرت فيها حملتها.

قلت: «كل ما فعلته أنني ابتعدت عن طريقها».

ضحـك ضحكـة خفيفة لأنه فهم ما كنـت أرمي إليه، ثم عقب قائـلاً: «كان هذا ذكاء منك».

والدتـي هي شخص في منتهى الحيوية، وذات شخصية قوية مـن الطراز الأول وتمتلك طاقـات غير محـدودة، تماماً كالمرأة التي كانـت تحاول أن تضمنـي إلى فريق بوش. الفرق الأكـبر بـين المرأتين هـو أن كارن كانت أطول بمقدار قدم تقريباً مـن والدتي التي لا يتجاوز طولها إلا بالكاد، الأقدام الخمسة. كنت قد داعبت كارن بالقول إن العمل معها لن يشكل أي مشكلة نظراً لأن شخصيتها تشبه إلى حد بعيد شخصية والدتي. فكلتاهما قويتان وممتلئتان حيوية، وتناضلان من أجل الحصول على ما تريدانه، كما أن كلتيهما تتحدثان بسرعة.

كان بوشـ يعبر دائمـاً عن إعجابه بالنساء اللواتي يتمتعـن بشخصية قوية بمن فيهن والدتـي. كان يحـب فيها حماستها وطاقتهـا وكلامها الصريح. كما أحـب ضآلة حجمها وصرامتها. فقد تم انتخابها لتبوء منصب على مستوى الولاية في الوقت الذي انتخب بوش للمرة الأولى حاكماً للولاية، ونشأت بينهما صداقة منذ ذلك الحين.

أمـا أنا، فلـم أكن أبدو أقلّ تحفظاً عـن الصورة التي رسمت لوالدتـي، ولكن ما كنت لأجلس حيث كنت في ذلك اليوم لولا أن والدتي طلبت إلي القيام بمساعدتها في الفوز في وظيفتها في سياسة الولاية.

سألني الحاكم بطريقة مباشرة: «لماذا تريد أن تعمل لديّ؟»

قلت: «لأنني مؤمن بك».

أسرع بوش إلى القول: «المسألة لا تتعلق بشخصي، بل بالأجندة».

قلت: «نعم يا سيدي، أنت محق، هذا ما أعنيه. أنا أؤمن بأهدافك، كما أؤمن بقيادتك. أنا معجب بالطريقة التي استطعت فيها إقناع الجميع من أجل إنجاز ما هو مطلوب».

تابعـت شـرح كيف أن أفـراد جيلـي انتابهم الملل مـن المشاحنـات السياسية على المستـوى الوطني، وكيـف أنهم تواقون إلى وجود قادة يمكن أن يترفعوا عن الانتماءات الحزبيـة، تمامـاً كما كان بوش يفعل في تكساس في الوقـت الذي كانت واشنطن تسير

في الاتجـاه المعاكـس. تحدثنا عن أسلوبه في الحكم والنَّفَس الإيجابي الذي عمل على إطلاقـه، وأهدافه (أجندته) الأكثر شمولية، وكيف أنه أحاط نفسه ببعضٍ من أفضل وأذكى الأشخاص في تكساس للعمل في فريقه.

تحدث بوش بحماس عن أهدافه (أجندته)، وعن تركيـزه على ضرورة الوصول إلى نتائـج. قال إنـه يؤمن بقوة أن برامج الحكومة التي تخدم هدفاً شرعياً يجب أن تمهّدَ لها السبل كي تحقق النتائج المتوخاة منها.

مـن زاويـة أشمل، كان السبـب في اعتقـاده أن «المسألة تتعلق بالأهـداف الموجودة في الأجنـدة» يكمـن في الدرس الذي تلقاه في مجال السياسة (والـذي تعلمه من الفترة التي تلت رئاسة والده) والمتمثل في أن ما يهم هو النتائج. فالناس يحكمون على القادة، والتاريخ يذكرهم استناداً إلى النجاحات التي يحققونها، أكثر من أي شيء آخر. ومع مرور الوقت، وصلت إلى الاستنتاج بأن رؤية بوش للسياسة الوطنية تقضي بأن عامة الناس لا يكترثون بالوسيلـة التي ينتهجها القائـد للوصول إلى هذه النتائج، سواء كانـت تستند إلى قاعدة عريضة من الدعم من قبل الحزبين أم لا، وسواء كان المرء صريحاً ومباشراً في الأسلوب الـذي اتبعه لتحقيقها أم لا. طالما تبينَّ أن البرامج أثبتت نجاحها، فإن عامة الناس تميل إلى تَذَكّـر النتائج النهائية فقـط، وليس الوسيلة التي اتبعها القادة في الوصول إليها. وفي الوقـت الذي بدأنا العمل على اتفاق طويل الأمد، مبني على علاقتنا المهنية وعلى محبتنا لتكساس، لم يكن بمقدوري بعد، تقديـر إلى أي مدى يمكن لهذا الرأي أن يطغى، إيجاباً أو سلباً، على مقاربة بوش للحكم عندما يصل إلى واشنطن.

فيمـا بعد، تحدث عن بعض توقعاته بشأن الناطقين باسمه -أهمية أن يبقى واحدهم ملتزمـاً بالرسالة الموكلة إليه، والحاجة إلى الحديث عما توافق عليه، وليس عما ترفضه، وكيـف كان يجب أن يكون هـو صانع الأحداث الكبيرة في الوقت الـذي يحدده بنفسه من دون أن تكـون هنـاك حاجة إلى أن يظهر الناطقون باسمـه أمامه؛ وأخيراً، التأكد من أن البيانـات العلنية يتم تنسيقها داخلياً بحيث يكون الجميـع دائماً يتحدثون بصوت واحد، وأن لا يكون هناك سوى الحد الأدنى من المفاجآت.

أضـاف بوش: «لم أتخذ بعد قراراً حول إمكان ترشحي لمنصب الرئيس. ما زلت أفكر في هذا الموضوع. لكنك تملك حدساً سياسياً جيداً، وسوف أكون بحاجة إلى مساعدتك في مراقبة ما يدور حولي في هذا المكتب إذا قررت تلمس إمكان البدء في عملية الترشح».

أخبرته بأنني فهمت ما يعنيه، وعند هذه النقطة، أنهى هذا الحديث.

لقد اتفقنا. لم ارتكب أي خطأ جسيم. وهكذا فقد تم التعاقد معي.

بـدا كل شيء في تلـك اللحظة يميل إلى صالحي. فقد انضممـت هنا، وفي هذا المكان إلى فريـق يتبع قائداً ذا إنجـازات كبيرة، وذا قدرة مجربة في تهدئة المياه الحزبية، لديه المقدرة على لم شمل النـاس وتحقيق نتائج إيجابية. لم يكن هناك في الأفق أي سبب يدعو إلى توقع أي شكل من أشكال خيبة الأمل.

❋ ❋ ❋

كنـت حينها في الثلاثين من عمري. ونظراً لأنـنـي نشأت في بيئة سياسية على المستوى المحلـي، وفي عاصمة تكساس، ولكوني عملت على مستوى الولاية مـدة عقد تقريباً، فقد تبين لي أن السياسة غالباً ما تتحول إلى نوع من رياضة علاقات.

يمكن للانتخابات أن تكون لها روحية لئيمة. لكن مراقبة ما كان يجري في واشنطن في التسعينيـات كانت تشبه الأسابيع الأخيرة من الحملات الانتخابية الحامية الوطيس التي تحولت إلى حملات سلبية لا نهاية في الأفق لها، تشن على شاشات التلفاز أسبوعياً، وعلى مدار الساعة.

كانـت المداولات والحلـول الوسط المقترحة، وهي عناصـر مفصلية في عملية الحكم، خصوصـاً في ظـل ديمقراطية مؤسساتية وتمثيلية تطغى علـى المشهد السياسي. كان من لديه أفضل الأفكار أو السياسات أقل أهمية بكثير من الشخص الذي استطاع كسب الرأي العـام إلى جانبه. كانـت الصراعات واللغط والسلبية تحظى بتغطيـة متزايدة في وسائل الإعـلام، كما استقطبـت الأصوات الحزبيـة والأيديولوجية اهتماماً أكـبر من الأصوات الداعية إلى الأخذ بالإجمـاع والبراغماتية العقلانية. وكأي عضوٍ في الحزب الجمهوري،

كنــت أميل إلى اعتبار الديمقراطيين أكثر صخبــاً وأقل عدالة في تكتيكهم، ولكن كان من الواضــح أيضاً أن الحزبين يتحملان المسؤولية نفسهــا في تدهور المناخ في واشنطن حيث تبدأ منها الانتخابات، إلا أن الحملات فيها لا تتوقف أبداً.

أخــذت رئاسة كلينتون فــن الحملات النـاجحــة إلى مستويات جديدة غــير مسبوقة. فقــد بدأ هذا النوع من الحملات أثناء انتخابــات سنة 1992، عندما تعهد فريق كلينتون الذي كان بقيادة الثنائي الممتلئ نشاطاً وحيوية، والمكون من جورج ستيفانوبولوس وجيمس كارفيــل بعدم السماح لأحد بالاستهــزاء بمرشحهم أو الانتقاص من قــدره أو إذلاله كما حصل مع مايكل دوكاكيس سنة 1988. قام نفر من الديمقراطيين الذين شنوا هذا النوع من الحملات الانتخابية الهجومية الفعالة بالاستيلاء على البيت الأبيض لصالح حزبهم للمــرة الثانية فقــط خلال سبعــة انتخابات. ولسوء الحــظ، عندما استتــب الأمر لإدارة كلينتــون داخل البيت الأبيض، واصلت هــذه الإدارة إلى حد كبير، ممارسة الموقف نفسه الحزبــي وتحطيم الخصــوم، مستخدمة في ذلــك أساليب لا أخلاقية كاللــف والدوران، و«الرد السريع»، والتشويش، والمراوغة، والإخضاع بالإكراه وذلك بغية تشويه سمعة أولئك الذين يتحدونها علناً.

في الوقــت نفسه، رد الجمهوريون في الكونغرســ بقيادة نيوت غينغريتش، الذين آلمتهم خســارة موقــع الرئاسة بالأسلــوب نفسه. فقد سعــوا إلى نزع السلطــات السياسية من يد الرئيس عبر الدفع بخطط أيديولوجية تحول كلينتون إلى أشلاء، وتهاجم أعضاء الكونغرس من الديمقراطيين بدلاً من محاولة التوصل إلى الدفع باتجاه طرق مشتركة بما يتماشى مع أولوياتهــم السياسية. بعضُ ما قام به أتباع غينغريتش من أعضاء الكونغرس الجمهوريين كان ببساطــة ينم عن تموضعٍ سياسي ذكي، كما فعلوا في مسألة تطوير ما أسموه «عقد مع أمريكــة» والتهليل له كمجموعة خطط (أجندة) متناسقة، ومجموعةٍ من النقاط المشتركة التي يمكن التباحث بشأنها مع مرشحين للكونغرس كي يلتفوا حولها. ساعدتهم هذه المناورة في انتزاع سيطرة الديمقراطيين على مجلس النواب سنة 1994. لكن بعضاً مما فعلوه كان يستنــد إلى اتهامــات مبالغ فيها بسوء الأمانــة وانعدام الأخلاق والفســاد مستخدمين في

ذلـك ثقافة الفضائح السائدة في واشنطن كسلاح لمهاجمة كلينتون وحلفائه. بدا مهرجان الفضائـح وكأنـه لا نهاية في الأفق له: بـدءاً بترافيلغيت، ووايت وتر، مـروراً بالإف بي آي غيت، وقضية فينس فوستر، وقضية سجلات فواتير شركة روز القانونية، وبالطبع، انتهاءً بقصة مونيكا لوينسكي.

ربمـا تبدو بعض هذه الفضائـح في نظـر التاريخ مـن دون أي قيمة تذكـر، وبعضها الآخـر سوف يكون مزعجاً، إلا أنها لـن تقيم الدنيا ولا تقعدها. لكن تأثيرها على سياسة التسعينـات كان واضحاً للعيان ولا خلاف عليـه. أصبحت سياسة «الضربة القاضية» هي القاعـدة. هنـاك فقط رابحون وهناك خاسـرون. أما بالنسبة إلى وسائـل الإعلام، فإن المسألة تدور حول من انتصر ومن هُزِمَ. وأما بالنسبة إلى القادة المنتخبين، فإن الحقيقة التي تقبع في كواليس القصة لم تعد لها الأولوية؛ فالأولوية هي أن يكونوا في موقع الهجوم: فأنـت إما أن تحبك خيوط القصـة بطريقة تخدم فيها مصلحتـك السياسية مع الشعب الأمريكـي، أو أن تقوم بالـرد بطريقة دفاعية على تلك القصة. وكما أظن أن هذا الكتاب سـوف يبين لاحقاً، فإن هناك خطاً مباشراً يربط بين الأسلوب الذي يعتبر الحقيقة أمراً ثانويـاً بالمقارنـة مع تحقيق نصـر سياسي، وبـين التشويش والمراوغة وغيـاب الاستقامة الفكرية ساعَدَ في جر بلادنا إلى حرب ضد العراق.

لكـن شيئاً مغايـراً لهذا كان يحـدث في تكساس في عقد التسعينـات. فقد كان هناك حاكـم جمهـوري ذو شعبية عريضة يعمـل بتفاهم تام مع نائب الحاكـم الذي كان ينتمي إلى الحـزب الديمقراطـي، ومع رئيس مجلـس نواب ديمقراطي للولاية مـن أجل المجيء بتشريعـات وسياسات تلبـي حاجات معظم سكان الولاية، وترضـي رغباتهم، سواء كانوا من المحافظين أو من الليبراليين.

لم تكن هنـاك خصومة تذكر بين قادة الفرعين التنفيذي والتشريعي الحكوميين، ويعود الفضـل في ذلك بدرجة كبيرة إلى تأثـير النائب الديمقراطي للحاكم، بوب بولوك، وفهم بوش العميق لطبيعة السياسة في ولاية تكساس. لم تكن القضية تتعلق في من ينال الإطراء علـى نتائـج هذا التعاون. وكان من غـير المقبول أو المسموح به ممارسـة اللعبة السياسية

خـلال الدورة التشريعية. فممارسـة الحكم لم تكن مبنية على إقناع الناس أو بيع مواقف لهم بمقدار ما كانت مبنية على التشاور والاتفاق على حلول وسط بما يخدم مصالح ولاية تكساس بأفضل الطـرق الممكنة. آمن معظم قادة الولاية بأنهـم انتخبوا من قبل الشعب للقيام بذلك تحديداً، وأن عليهم العمل على الوفاء بالتزاماتهم تجاه ناخبيهم.

بعـد انتخابه لمنصب الحاكم مباشرة، شرع بوش بمد يده إلى القادة الديمقراطيين، بمـن فيهم بولـوك القوي أمـلاً في أن يمارس الحكم علـى مبدأ المشاركـة بين الحزبين. ينتخـب الحاكم ونائبه في تكساس بشـكل منفصل. كانت لبولوك جذور عميقة في حكومة تكساس كونه خدم سابقاً لأربع دورات كمراقب الحسابات، وكان يتمتع بنفوذ قوي. يمنح قانون تكساس سلطات كبيرة لنائب الحاكم ليترأس مجلس شيوخ تكساس، حيث كان من صلاحياته تعيين رؤساء اللجان، وكان يقرر وجهة سير التشريعات، وكان له تأثير مباشر على مشروعات القوانين التي كان له إما أن يقرها أو يلغيها. كانت شخصية بولوك القوية كقوة تكساس نفسها، قد جعلت منه أكثر فاعليةً من أي نائب حاكم عادي آخر.

لهـذه الأسباب مجتمعة، عرف بوش أن بناء جسور الثقة والعلاقة الوثيقة التي تربطه إلى بولوك، بالإضافة إلى رئيس المجلس الديمقراطي بيت ليني، سيشكلان العامل الحاسم في تمرير أولوياته. غالباً ما كان الثلاثة يتحدثون، ويجتمعون بشكل روتيني مرة واحدة في الأسبوع على الأقل خلال مدة انعقاد الجلسة. بكل المعايير، أسس بوش لعلاقة زمالة قوية مع بولوك وليني أكبر بكثير من تلك التي قامت بها سلفه الديمقراطية آن ريتشاردز.

قـام بوش أيضاً بمـد يد التعاون وبنـاء علاقات مع القـادة الديمقراطيين الآخرين في السلطـة التشريعيـة، خصوصـاً ولكن ليس علـى سبيل الحصر، مـع رؤساء اللجان الرئيسين. ولم يكن مستغرباً من بوش أن يتوقف في مكتب أحد الأعضاء والقيام بزيارته مـن دون موعـد مسبق. وعندما كان يحين موعد الانتخابـات، لم يكن بوش يقوم بحملة ضـد القادة الديمقراطيين القائمـين على رأس عملهم من الذين عملوا معه وقاموا بمد يد المساعدة له لإنجاز أولوياته.

هـذه المقاربة اللا حزبية أتت أُكُلَها. ففي الحقبـة الأولى له في الحاكم، استطاع بوش تمرير التعديل الأكبر على نظام التعليم في الولاية منذ عدة عقود، ودعم القوانين العدلية المتعلقـة بالأحداث، ووضـع الإصلاحات موضع التطبيق في ما يتعلـق بالمعونة الاجتماعية وقضايا المحاكم، وهي قضايا جوهرية في حملته كحاكم للولاية.

القيادة تعني بالنسبة لي توحيد الناس حول هدف مشترك بدلاً من وضع حدود تفصل بينهم علـى أسس عقائدة (أيديولوجية)، وعلى هذا الأساس اعتبرت قيادة بوش مُلهِمةً. فقد تحالف بشكل رائع مع بولوك وليني لبناء مقاربة للحكم، والمحافظة على ثنائية حزبية تعتمد على مبدأ الزمالة.

هـل يمكن لقيادته أن تثمر عـن حركة سياسية جديدة على المستوى الوطني أيضاً كما حصـل في ولاية تكساس؟ العديـد ممن ينتمون إلى جيل الشباب كانوا يتطلعون إلى تغيير كهـذا. في المحصلـة، أليس من واجب السياسة أن تمثل قضايـا أسمى وأفضل مما قدمه لنـا قادتنا في واشنطن؟ وبوجود القيادة الرئاسية الصحيحة، ألا يمكن لقادتنا المنتخبين أن يضعـوا جانباً موضوع الإفراط في شن حملات انتخابية لا تنتهي وممارسة السياسات اللاذعة، ويعملوا معاً لخدمة مصالح أمتنا على أفضل وجه؟ كنت أؤمن بأن لديهم المقدرة على القيام بذلك، شأني في ذلك شأن العديد من الأمريكيين.

دائمـاً ما كنت أنظـر إلى السياسة على أنها تؤدي إلى إحـداث فرق إيجابي يصب في الصالح العام -وهذا الاعتقاد زُرِع في داخلي منذ سني حياتي الأولى. وكان هذا هو السبب في أنني، من جملة أسباب أخرى، اخترت مهنة في هذا الحقل. وكنت أعتقد لدرجة تشبه اليقـين، أن جـورج بوش يمكن أن يكون تجسيداً لما كنت أنا والعديد من الآخرين نتوق إلى تحقيقـه؛ قائـدٌ كان باستطاعته أن يجعلنا نعتقد أنه من المجدي الذهاب إلى واشنطن في المحصلـة- للتحقـق من إمكانية تغيـير السلوكيات التدميرية التـي سيطرت عليها خلال حقبة التسعينات.

ركز بوش بصفته حاكماً على القضايا الكبيرة التي كان لها وقع إيجابي كبير على كل أهالي ولاية تكساس. وعندما كان الأمر يتعلق بقضايا خلافية مثل قضية الإجهاض على

سبيل المثال، كان يبحث عن أرضية مشتركة عبر تحديد الطرق العملية لتخفيض حالات الإجهاض مثل تقديم الدعم للمبلغين عن حالات الأبوة، وتشجيع التبني. لم يبذل جهوداً من أجل قضايا صغيرة تؤدي إلى الانقسام، أو يختار كلماته بعناية كي يسعد مجموعة محددة من سامعيه، أو يسعى لوضع مجموعات من الناس في مواجهة بعضها بعضاً من أجل مكاسب سياسية.

توسعت شعبيته في تكساس لتشمل الطيف الديمقراطي، والمستقلين بالإضافة إلى الجمهوريين. وبوصول معدل الدعم الشعبي له إلى ما فوق السبعين بالمائة، فإن بوش استطاع جذب دعم واسع لقيادته، وسياساته، وطريقته في الحكم.

لقد كان سجله الناصع الحافل بالإنجازات التي تجاوزت الحدود الحزبية مَعْلَماً في حملته الانتخابية لمنصب رئيس الولايات المتحدة. ركزت شعارات حملتنا على ما هو فريد في شخص بوش. فقد كان «داعية وحدة» لا «داعية تقسيم»؛ كان يمثل «نموذجاً جمهورياً مختلفاً» عن نموذج غينغريتش، ومجموعته المتشددة ذات العقلية التي تنزع نحو المواجهة. لقد قدم خطةً (أجندة) «محافظة مليئة بالرفق»، والتزم بتغيير النمط المر الذي يطبع واشنطن وذلك عبر جمع الجمهوريين والديمقراطيين لحل المشكلات الكبرى.

جعل بوش من القيادة مسألة مبدأ، ومن الثنائية الحزبية سجلاً، كما أن (الأجندة) المحافظة المليئة بالرفق تبعث في نفسي الكثير من الأمل، كما في نفوس أولئك الذين سأدعوهم قريباً جداً زملائي - زملائي من أعضاء فريق بوش.

لهذا السبب كنت هناك، أمسك بتلابيب فرصة العمر التي لا تتكرر في أن أكون جزءاً من مشروع عظيم - لأنني آمنت أن السياسة باعتبارها مبدأ، يمكن أن تكون أفضل بكثير من السياسة الممارسة يومياً. لا عجب إذاً أن أكون في غاية السعادة والتواضع كوني تعاقدت للعمل لدى جورج دبليو بوش.



3

النشأة في عالم السياسة

يختــار العديــد من الناس الانخــراط في العمل السياسي كطلبــة نَشِطين في الجامعة، أو كمواطنــين مــن الأجيال الشابة المهتمين بقضايا مدنيــة، أو كأشخاص متوسطي العمر المهتمين بقضايا مجتمعاتهم. القليــل منهم، مثلي، يولدون والسياسة تجري في عروقهم. فلقد انخرطت في العمل السياسي بشكل أو بآخر، منذ نعومة أظفاري.

كانــت والدتــي نموذجاً طليعياً للنســاء في حقل السياسة. ففي سنــة 1972، عندما كنــت أبلغ من العمر أربع سنــوات، تم انتخابها لعضوية مجلس أمنــاء مدرسة أوستن. بعــد سنين قليلــة، أصبحت أول امرأة تتبوأ مقعد رئاســة المجلس. ومع اقتراب انتهائي مــن الدراسة في الصــف الثالث الابتدائي انتخبت كأول امــرأة لمنصب محافظ مدينة أوستن، وأعيد انتخابها ثلاث مرات متلاحقة مدة كل منها سنتين في سابقة لم تشهدها المدينة من قبل.

أذكر أنني ذهبت إلى مؤتمر محافظي الولايات المتحدة في مدينة أتلانتا بولاية جورجيا مع والدتي وأخويّ التوأم الأكبر مني سناً خلال رئاستها الأولى في نهاية السبعينات. كانت ترافق فترة انعقاد المؤتمر دائماً احتفالات خاصة بالنسبة للأولاد، بينما ينهمك المسؤولون المنتخبون في عقد الاجتماعات.

كنــا نذهــب، من بــين النشاطات الأخــرى، إلى منطقــة الملاهي التــي تسمى «ستة أعــلام ترفرف فوق جورجيا». كنت ولداً صغيراً، أحــب دائماً الإثارة الناجمة عن لعبة الأفعوانية في مدينة الملاهي (لم أكن في ذلك العمر أعرف سوى القليل عما يمكن لهذه اللعبــة أن تمثلــه كتحضير جيد لأي شخص يود دخول معــترك السياسة). كان أخواي الأكــبر مني سنــاً أقل حباً للمغامرة منــي (لا أحاول هنا الإشــارة إلى عامل ضعف في الشخصيــة!)، أو ربما أقل رغبة مني في الانتظام في صــف طويل للاستمتاع بدقيقتين

من ارتفاع نسبة الأدرينالين في الدم. وهكذا، كانا يتركاني أنتظر وحدي في الصف من أجل هذا الانقلاب المزدوج في الهواء الذي يكاد يذهب بالعقل. بينما كنت أقف هناك واضعاً بطاقة كتب اسمي عليها بأحرف كبيرة مطبوع عليها شعار مؤتمر المحافظين، نظر إليها طالب جامعي بحجم مساعد حكم في لعبة كرة القدم وسألني: «إذاً، والدك هو محافظ مدينة أوستن؟»

وحيث إنني كنت حينها في سن العاشرة، وكوني غير مدركٍ كم كان غير مألوف ذلك الإنجاز الذي حققته والدتي في تلك الأيام، فقد أجبته بكثير من الثقة: «كلا، إنها والدتي».

بدت علامات الدهشة على وجه ذلك الشاب الذي هتف لأصدقائه: «اسمعوا يا شباب، إليكم هذا النبأ. والدة هذا الفتى هي محافظ أوستن!»

احمرّ وجهي قليلاً بسبب أنني تسببت في لفت النظر إليّ من دون أن أرغب في ذلك في طابور انتظار لعبة الأفعوانية، لكن ذلك لم يمنعني من مشاركتهم قليلاً في الحديث عن واحد من الأبطال الذين أعتبرهم مثلاً أعلى بالنسبة لي - والدتي. كان ذلك درساً سياسياً مبكراً بالنسبة لفتى لم يفكر حينها كثيراً بمغزى جنس والدتي في منصب محافظ، أو كم كان من غير المألوف في تلك الأيام أن تشغل امرأة منصب قائد سياسي.

بالنسبة لي، كانت امرأة خارقة مفعمة بالطاقة والحيوية: كانت تعد لنا غداءنا الذي نتناوله في المدرسة، وتحضر طعام العشاء (عندما يتوفر لها الوقت)، وكانت تأخذني بالسيارة إلى مباريات التنس، وتحضر المباريات الصغيرة التي كنت أخوضها في الدوري، وتساعدني في واجباتي المدرسية، وتشتري لي شطائر الهامبرغر والبطاطا المقلية من مطعم هوليدي هاوس في الجوار، وكانت تعاقبنا أنا وإخوتي عندما نسيء التصرف، وتسمح لي أن ألهو في مكتبها، أو في غرف المجلس الخلفية، وتأخذني إلى حفلات الاستقبال (يمكن أن أضيف هنا أن تلك الحفلات كانت كثيرة جداً)، وتدير فيما تبقى لها من الوقت، شؤون مدينة كبيرة.

كانـت والدتـي معظم وقتهـا في منصب محافظ للمدينـة أماً عزبـاء. كان ذلك يبدو طبيعيـاً بالنسبـة لي في سن ما قبل المراهقة. الآن فقـط أستطيع أن أقدر بشكل كامل كم كانت والدتي وما تزال، امرأة متميزة.

انفصل والداي بالطلاق عندما كنت في سن العاشرة. لم أكن حينها أفهم لماذا حدث ذلك. كان والدي الذي يعمل محامياً أباً صالحاً بالنسبة لي في تلك السنين البريئة، لكننا ابتعدنا عن بعضنا بعضاً مع مرور السنين.

كانـت لدي ذكريات دافئة مع والدي، شأني في ذلك شأن معظم الأطفال: كنت أمسك بشعـر صدره عندما كان يتظاهـر بأنه سوف يرمي بي وأنا في سـن الرابعة أو الخامسة، في المياه الزرقاء من الطرف العميق لبركة السباحة، وكان يحملني عالياً بين ذراعيه وهو يمشـي في عتمـة الباحة الأمامية لمنزلنا وهو يشير إلى مجموعة الدب الأكبر أو إلى نجوم الجـوزاء، أو يقص علينـا حكايات من الأسطورة الإغريقيـة، أو يساعدني في التدرب مع فريـق البيسبول الصغير. لكـن الأوقات التي تحدثنا فيها إلى بعضنـا بعضاً أو قضيناها سويـة أضحت أقل، وأكثر تباعداً بعد الطلاق بينه وبين والدتي. نادراً ما نلتقي أو نتحدث إلى بعضنـا بعضـاً هذه الأيـام، لكنه ما يـزال الأب الذي أعرفه، والـذي أتذكره بشغف، والذي سيبقى حبي له دائماً غير مشروط.

كنـا، أخواي وأنا، محظوظين لأننا كنا مقربين جداً من أجدادنا الأربعة، وقد كان لهم تأثير إيجابي عارم علينا ونحن نتجه إلى بلوغ سن الرشد.

كانت جدتي ماكميلان التي عملت متطوعة في مخزن الكنيسة التجاري، وقامت بتعليم الإسبانيـة في مدارس الحضانة في مدينة سان أنطونيو، تحـب أن تدللنا وتتركنا نستمتع بأوقاتنـا. قامت بتربية أربع بنات وصبي واحد، هو والدي؛ بينما كان جدي يعمل مهندساً بتروليـاً، وهو أحد أوائل الخريجين مـن جامعة تكساس الذين يحملون شهادة جامعية في هـذا التخصص. كان رجلاً طيبـاً، نحيل البنية؛ لم يكن يتحدث كثيراً؛ ولقد نشأ وترعرع في مدينـة صغيرة بولاية تكسـاس. كان يستمتع بقضاء أوقات فراغـه مع العائلة، والعمل في فنـاء منزله المتواضع في مدينة سان أنطونيو، بالإضافة إلى الاستماع إلى التعليق على

مباريـات فريق لونغهـورن تكساس لكرة القـدم والبيسبول على جهـاز الراديو الذي كان يضعـه بجانـب مضجعه. لم تكن مقدرته على السمع على ما يرام في سني عمره الأخيرة، لكن مجرد التواجد بالقرب منه كان يمنحنا شعوراً بالارتياح.

مـن ناحية أخرى، كان جدنا كيتون يُدرّس القانون، وكما كانت والدتي تحب دائماً أن تقـول، في عائلتنا كانت جدتي كيتون هي القانـون. التحقت جدتي كيتون بجامعة تكساس في أوائـل الثلاثينات مـن القرن الماضي منتقلة من جامعة جورجيـا في مدينتها الأصلية، أتلانتـا للدراسة في كلية الحقوق. سجلـت في الصف الذي كان يقوم بتدريسه جدي. كان أستاذاً شاباً تخرج حديثاً من كلية القانون، وحدث ما حدث بعد ذلك. لم تنهِ جدتي أبداً دراستهـا في مجال القانون. كانت تعتني بـي وبأخويَّ كثيراً، ترعى شؤوننا وتتأكد من أننا نحسن التصرف.

كان جـدي بيـج كيتون عميد كليـة القانون الشهـير في جامعة تكساس. كان شخصاً حـاد الـذكاء. تزوج من جدتي في الرابع مـن آذار، مارس؛ أو كمـا كان يحب أن يمازحنا بالقـول: «بعد يومين مـن حصول تكساس على استقلالها [الـذي يحتفل به في الثاني من شهـر آذار كل سنة] فقدت أنا استقلالي». وبدلاً مـن الإشارة إلى عدد السنين التي مرت علـى زواجهما، كان يتحدث عن الجولات «الثلاث والستين» التي خاضاها عند احتفالهما بعيد زواجهما.

لم يكـن الاثنان يفترقان أبداً. حتى هذا اليوم، ينتابني شعور بالألم عندما أتذكر تلك اللحظـة التي أخذت فيها جدي لعيادة جدتي المريضـة في المستشفى. كانت في المستشفى منذ بضعة أيام، في الوقت الذي كان هو غير قادر على الحركة من دون مساعدة الكرسي المتحـرك أو الهيـكل المساعد على المشـي بسبب الوهن والتقدم في السـن، وكان مضطراً لملازمة المنزل، معانياً من القلق على مصير شريكة حياته.

أجلستـه في الكرسي بجانب سرير جدتي في المستشفى. لم تكن تقوى على الجلوس في اليـوم الـذي زرناها فيه. لاحظت أن جدي كان يحاول بأقصى ما أوتي من قوة كي ينحني إلى الأمام وهو جالس في كرسيه. كان يحاول دفع نفسه إلى الأعلى، فأمسكت به من تحت

ذراعيــه كي أساعده. كان يركز على شيء واحد فقــط - جدتي. استطاع أخيراً الوقوف، وهــو يرتجف قليــلاً، وقد استخدم كل ما أوتــي من قوة كي ينحني ببعض المساعدة مني ويقبلها وهو يقول: «أحبك يا مادج. آمل أن تعودي قريباً إلى المنزل».

في تلـك اللحظة، فكـرت أن ذلك كان كل ما في الأمر. فهنا يقـف إنسان حقق الكثير، وكان يمتلك قدرات فكرية عظيمة وشخصية قوية؛ لكن ما يهم بالنسبة له في سني حياته الأخـيرة هــذه أكثر من أي شيء آخر ليس كل ما قام بإنجازه في مجال اختصاصه، بل ما تقاسمه مع عائلته التي قدم لها الخير الكثير.

نشأ جدي في مزرعة صغيرة في الشمال الشرقي من ولاية تكساس. بعد أن كان يقطف القطـن في شبابــه المبكـر في مقاطعة ريد ريفـر، أقسم أنــه سوف يحصل علــى «وظيفة ثابتــة» عندمــا يكبر في السن. وجد تلـك الوظيفة، ومعها منضدة لتــلاوة الكتاب المقدس في كليــة القانــون في جامعة تكساس. بعــد أن شق طريقه بفترة وجيــزة في كلية القانون، قــام بشق طريقه نحو منصب الأستاذية. وانتهى به الأمــر إلى سلك التدريس إلى أن بلغ سن السادســة والثمانين. عمل لمدة خمس وعشرين سنة عميداً لكلية القانون وحولها إلى واحــدة من أفضل كليات القانون في كافة أنحاء الوطن؛ وأصبح في ما بعد واحداً من أهم خبراء قانون الضرر في البلاد.

رويــت لي منذ عدة سنوات قصة طريفة عن جــدي، أخبرني بها صديق للعائلة تخرج من كلية القانون بجامعة تكساس، بعد وفاة جدي بفترة قصيرة. كان هذا الصديق يدرس في واحد من المقررات التحضيرية للقانون التي كان جدي يقوم بتدريسها.

كان جــدي يقف على منصة غرفة الصف التي تشبه المسرح، وينظر من فوق نظاراته التــي كانت تسترخي فوق أرنبــة أنفه، وسأل الطلبة عن السمات التــي يجب أن يتمتع بها المحامي الناجح. قفز أحد الطلبة من مقعده في الصفوف الخلفية في نهاية الغرفة وقال: «أيهــا العميد كيتون، أنا مؤمن بــأن الصحيح هو الصحيح، والخطأ هو الخطأ، كما أؤمن بحتمية انتصار الخير على الشر. هل تظن أن هذا يؤهلني كي أصبح محامياً ناجحاً؟»

ولكـن، مـن دون أن يضيع لحظـة واحدة، نظر جـدي إلى ذلك الطالـب وأجابه: «لا، ولكنك سوف تكون مرسالاً ناجحاً». ضجت بعدها القاعة بالضحك.

تأملـت في هذه القصة التـي تعكس صورة الرجل الذي أعرفـه؛ الرجل الذي كانت له طريقتـه العظيمة الذكية في طرح أفكاره. كان جـدي يشرح للطلبة أن القانون ليس دائماً الأبيض مقابل الأسود، ولا يجوز لمحامٍ أن ينظر إليه من هذه الزاوية. فالحقيقة تميل إلى احتواء خطوط رفيعة من الفوارق، وظلال من اللون الرمادي.

كان ساعـة جـدي التدريسيـة توصف من قبل الطلبـة بأنها ساعة الكوميديـا. إلا أنه كان يشتهـر بالكم الهائل من المعرفـة التي يمتلكها عن القانون، وبالتأثير الذي يحدثه في تطويـره نحو الأفضل. أما بالنسبة إلى زملائه في حقـل اختصاصه الذين عرفوه وتعلموا منـه، فقد كان جـدي بالنسبة إليهم أكثر من مجرد رجل صالـح؛ لقد كان إنساناً عظيماً استحق الاحترام، وحاز على الإعجاب، وكان على الآخرين مجاراته في ذلك.

كانـت بعضـ أفضل الأوقات التـي قضيتها مع جدي وجدتي هي تلـك التي كنا نحضر فيهـا مباريات كرة القدم في جامعة تكساس. فقـد كانت لديهما أربع بطاقات مخصصة لأعضاء هيئة التدريس؛ وكنت في العادة أدعو صديقاً لحضور المباريات معنا.

بـدأت حضور مباريات كرة القـدم في جامعة تكساس في سنـي عمري الأولى في عقد السبعينات، وأتذكر بكثير من الشوق الأيام التي كان يلعب فيها إيرل كامبل، الفائز بكأس هيسمـان، ولقبنا الوطني الـذي خسرناه. كانت كرة القدم في جامعـة تكساس جزءاً من حياتنا العائلية، وأصبحت جزءاً لا يتجزأ من حياتي أيضاً.

بالعـودة إلى عقد الخمسينات وأوائل الستينات، اعتاد جـدي أن يكون رياضياً أيضاً. فقد تم التعاقد معه لفترة وجيزة كعميد لكلية القانون في جامعة أوكلاهوما قبل أن يصبح عميـداً لكلية القانـون في جامعة تكسـاس. وكان أيضاً عضواً في المجلس الرياضي الذي ساعـد في التعاقد مع بـاد ويلكينسون لصالح جامعـة أوكلاهوما. قـاد ويلكينسون فريق سونـرز الرياضي إلى الفوز على فريق جامعة تكساس في واحدة من أكثر المنافسات إثارة في الرياضة الجامعية.

عرفـت زوجتـي المستقبلية، جيـل، أن الغزل بيننـا كان جاداً كوني سمحـت لها بأن تحتفـظ ببطاقات الموسم العائدة لي. كانـت تعيش في أوستين، وكنت أعمل في واشنطن عندما التقينا.

في مرحلة الشباب، كانت السياسة والأحداث الجارية هي ما كنا نتحدث عنه ونناقشه ونحـن جالسون إلى طاولة المطبخ، أكثر من الحديث عن الألعاب الرياضية في لونغهورن. تعلمت أن السياسة هي طريق يمكن بواسطتها إحداث تغيير إيجابي في حياة الناس. كان جـدي يحب أن يقول: «ليست المسألة في كميـة الدولارات التي تكسبها، بل في الفرق الذي يمكن لك أن تحدثه بواسطتها»، وكان يشير بذلك إلى ما يهم أكثر في حياة الإنسان.

أن تنشـأ تحت الأضواء السياسية المحلية في أوستين، هو أمر له إيجابياته وسلبياته. حاولت والدتنا المحافظ، أن تبقي الأشياء طبيعية كما هي، ولم نحاول أبداً، أنا وإخوتي الثلاثـة، أن تكـون تصرفاتنا خـارج نطاق ما هـو طبيعي. اعتادت والدتـي أن تذكّرني بالقـول: «مـا يقوم به أصدقاؤك شيء، وما تقوم به أنت، يمكن أن يصل إلى الصفحات الأولى في الصحف».

حاولنـا تجنب لفت الأنظار إلينا من دون مسوغ وبأي ثمن، في الوقت الذي كنا نمارس حياتنـا بطريقة طبيعيـة. وبالرغم من أننا كنـا أبناء المحافظ، فإننا لم نكـن لِنَدَعَ حياة الأبهـة والاحتفالية والأضـواء السياسية تغير مـن طبيعة حياتنا - فقـد كنا مجرد أولاد نحاول أن نكبر ونحن نستمتع بحياتنا وسط عائلة من الطبقة الوسطى.

حاولـت والدتنـا قدر المستطاع أن تبقينا متواضعين. لم أكـن سعيداً جداً يوم أخذتني بسيارتهـا مـن المدرسة عندما كنت في المرحلـة الإعدادية وأخبرتنـي أن علينا أن نتوقف لحضـور حفل استقبال الخريجين السابقين من جامعة تكساس أي- إم في وسط المدينة، وأنه ليس لدينا الوقت الكافي كي نمر بالمنزل.

كنـت ألبس قميصـاً قصير الكمين باللونين البرتقالي والأبيض ويحمل الرقم 1 عند ذهابـي إلى المدرسـة في ذلك اليـوم لأنه كان أسبـوع المنافسة في كرة القـدم بين فريقي جامعـة تكساس وجامعة تكساس أي- إم . كانت الآن تحـاول إقناعي من دون جدوى أن

اللباس الذي أرتديه لـن يشكل مشكلة بالنسبة إلى الخريجين مـن طلبة جامعة تكساس أي- إم السابقين.

قالت والدتي: «لا تقلق! سوف يُفاجَؤون بذلك، سوف يكون الأمر مسلياً».

قلـت في سري ساخـراً: نعم سوف يكون مسليـاً بالتأكيد. كل مـا أتذكره من حفل الاستقبـال في وسط المدينة، والحاضرين الذين كانـوا يرتدون الملابس الفاخرة على شرفـة في الطابـق العُلْوي، أن أحد الخريجين، وكان ثمـلاً إلى حد ما، أتى من خلفي، وحـاول رفع قميصي فوق رأسـي. وكان زملاؤه من الخريجـين الواقفين بالقرب مني يضحكون على حساب ارتباكي المراهق.

نعم، أظنان من التسلية يا أمي.

مع ذلك، كانت تلقي عليّ وعلى إخوتي دروساً في أهمية الخدمة العامة كطريق تحدث فرقاً إيجابياً، وتغير الأشياء إلى ما هو أفضل.

نشأنـا، أنا وإخوتي في منزل ديمقراطي، تماماً مثـل والديّ. كانت والدتي ديمقراطية معتدلـة تميل نحو المحافظة، وأقرب إلى الوسطيـة السياسية عندما كانت تشغل منصب المحافظ في مدينة أوستن (بالرغم من أن المحافظين في ولاية تكساس والمرشحين لمجلس المدينـة لا يرشحون لهذه المناصب تحت أي شعار حزبي). كان الائتلاف الذي تنتمي إليه يضم الجزء الأكبر من القسم الشمالي الغربي من المدينة الأقرب إلى المحافظين، والشرق الذي تقطنه غالبية ساحقة من الأمريكيين من أصول إفريقية، لكن سكان المناطق المدنية الليبرالية في محيط الجامعـة كانوا يعارضونها. بشكل عام، كانت تعمل على الإبقاء على ضرائب منخفضـة، وتتأكد من أن الخدمات في المدينة ممولة بشكل كامل، وتحافظ على نوعيـة الحيـاة الرائعة لمدينة أوسـتن في الوقت الـذي تشجع النمو الاقتصـادي. في تلك الحقبـة، كانت مدينـة أوستين في خضم نمو اقتصادي متعاظم - فقد ارتفع عدد سكانها مـن 322000 ألفـاً إلى 461000 خـلال عشر سنـين - وأصبحت حجـر الرحى التقاني، بالإضافة إلى كونها المدينة التي تضم الجامعة والحكومة.

كان لـدى والدتـي من الصرامة ما يكفـي لمواجهة البيئة المعبـأة سياسياً بحيث كانت قـادرة على معرفة كيـف تشكل ائتلافاً ناجحاً، وكيف تهيـئ الأرضية المشتركة لإنجاز ما يجـب إنجازه، على الأقل حتى موعـد فترتها الثالثة عندما تحـول المجلس إلى الليبرالية بشكل واضح. تعلمتُ الكثير عن فن السياسة المتمثل في المداولات والإقناع الفكري، وكيفية طرح الحلول الوسط من أجل تحقيق ما تريد، وذلك عبر قضاء مدة لا بأس بها من الوقت في مجلس المدينة والغرف الخلفية مرافقاً لوالدتي. على أي حال، يمكن أن تكون السياسة في مدينـة أوستن صعبة الممارسة، ولم يكن من السهل تجاهل الأشياء القبيحة التي كانت تقـال عن والدتي. لكننـي تعلمت مع إخوتي أن لا ندع الضيق الذي كنا نشعر به جراء ذلك يطفـو علـى السطح. من الصعـب أن لا تنظر إلى الأشياء من منظـور شخصي إذا كانت والدتـك هـي من يتم الهجوم عليها. إلا أن هذه الدروس التي تعلمتها في صبايَ جعلت من السهـل عليّ فيما بعـد أن لا أنظر إلى الأشياء من زاويـة شخصية خلال سنوات النضوج التي قضيتها في عالم السياسة المشو بالمطبات والحفر.

ربمـا كانت التهديدات بالقتل التي تلقتها والدتي أثناء شغلها منصب المحافظ الجزء الأكـثر إزعاجاً. أعتقد أن تلك التهديـدات لم تطلق سوى مرات قليلة، كل واحد منها كان يطلـق أثنـاء انطلاق حملتها الانتخابية. أذكر أن أحد إخوتـي سمع صوت شخص عندما رفع سماعة الهاتف يقول: «سوف أقوم بقتل والدتك».

لم تترجـم هذه التهديـدات أبداً، ولكنني أذكر أن تهديدات كهذه أطلقت عندما كانت والدتـي تحضـر مباراة في دوري البيسبول للصغار كنت أشـارك فيها وكان تحيط بها ثلة من رجال شرطة أوستن بملابس مدنية على مدار الساعة.

تعلمـت أن للسياسة وجهاً قبيحاً لا يستطيع معظـم الناس استيعابه بشكل كامل أبداً. جعلتنـي هذه المعرفـة أشعر باحترام عظيم لـكل من يرغب في أن يقـدم التضحيات من أجـل القيـام بالعمل في مجـال الخدمة العامة. أظهـرت لي هذه المعرفة أيضـاً أن هناك بعضـ الأشخاص الغاضبين والمنفريـن الذين توفر لهم السياسة المجـال كي ينفسوا من إحساسهـم بالإحباط. لا يمكن أن تدع أشياء كهذه تردعك عن المطالبة بتحقيق ما تؤمن

بـه. وكمـا قال جدي لوالدتي مرة: «يا كارول، إذا لم يكن بمقدورك أن تجعلي شخصاً ما، يستشيط منك غضباً، فاعلمي أنك ربما لم تحققي شيئاً».

ارتدتُ وإخوتي المدارس الحكومية، وشاركنا في النشاطات اللا صفية، كما شاركنا في العـاب مختلفة من البيسبول إلى كرة السلة وكـرة المضرب واللعب في ملاعب كرة القدم ذات الأرضية الرملية. كنا نتشاجر بين الحين والآخر شأننا في ذلك شأن الإخوة الصغار في كل مـكان. ولما كنا متقاربين في السن، فقد كانـت روح المنافسة موجودة بيننا، إلا أنها قرّبتنا من بعضنا بعضاً عندما كان واحدنا يحتاج إلى الآخر.

لم تكن السياسة بعيدة عن أيٍّ منا في المدرسة أيضاً.

ففـي أعقـاب صدور الحكم الشهير عن المحكمة العليا سنـة 1971 بشأن قضية سوان ضد مجلس شارلوت- ميكلينربيرغ للتعليم، فإن منطقة المدارس المستقلة في أوستين كانت واحدة من العديد من المدن على امتداد البلاد التي خضعت لحكم قضائي يوجب استخدام الحافـلات وسيلةً لإلغاء الفصل العنصري. أعقب ذلك الحكم «نزوحاً للبيض» في أجزاء عديـدة مـن البلاد، بما في ذلك مدينـة أوستن. بين سنتـي 1971 و 1972، أعادت بعض العائلات من البيض في مدينة أوستن تموضعها في مناطق المدارس المجاورة للمدينة.

في سنة 1972، تم انتخاب والدتي لعضوية مجلس المدارس في مدينة أوستين مع ثلاثة مرشحـين كانوا يواجهون معارضة من قائمة المرشحـين المعارضين لاستخدام الحافلات (كان بعضهـم يصفهـم بأنهـم من دعـاة الفصل العنصـري). فازت والدتـي بمقعدها في المجلـس بأغلبيـة 75 بالمائة من الناخبـين، وما تزال تذكر باعتـزاز الطريقة السلمية والناجحـة لدمج المدارس، والتي قام بها مجلـس المدارس، على امتداد السنوات الخمس التي قضتها فيها.

خـلال الفترة التـي قضتها والدتـي في عضوية المجلس، قامت بتطويـر خطة مركزية للصـف السادس الابتدائي كخطـوة أولى لإلغاء الفصل العنصـري في المدارس. بموجب هـذه الخطة، كان علـى التلامذة الذين درسوا في مدارس ابتدائيـةٍ غالبيةُ تلامذتها من

البيض، استخدام نفس الحافلات التي يركبها أقرانهم الذين كانوا يدرسون في مدارسَ غالبيةُ تلامذتها من الأقليات لتقلهم إلى مدرسة تتوسط منطقتيْ أوستن لتلامذة الصف السادس. كانت الحافلة تقلني أنا وإخوتي من منزلنا في منطقة غرب أوستن، حيث كان الأولاد يرتادون مدرسة كاسيس الابتدائية، للدراسة في مركز بيكر لتلامذة الصف السادس في وسط مدينة أوستن. كما كان تلامذة المرحلة الابتدائية من المناطق التي غالبية سكانها من أصول إفريقية وإسبانية ينقلون أيضاً بواسطة الحافلات إلى مركز بيكر. لم يعتقد المجلس أن هذه الخطة أضافت عبئاً غير مبرر على أي من المناطق عبر نقل تلامذة من واحدة من المناطق إلى أخرى بواسطة الحافلات عبر المدينة. على العكس من ذلك، كان التلامذة من كلا المنطقتين يُقَلّون إلى نقطة تتوسط هاتين المنطقتين.

كنت رئيساً لمجلس التلامذة في مركز بيكر لتلامذة الصف السادس. كانت المدرسة ضخمة، ومختلفة إلى حد كبير عن المدرسة الابتدائية التي كنت أرتادها في جوارنا، والتي لم يكن يرتادها سوى عدد محدود من التلامذة من أصول إفريقية وإسبانية. أتذكر بكثير من الحنين السنة التي قضيتها في مركز بيكر. فلو لم تكن هناك حافلات ما كنت لألتقي بهيرمان هيل، وهو تلميذ من أصول إفريقية كان نائب رئيس مجلس التلامذة. وبالرغم من أن هيرمان اختلف معي بشدة حول زعمي بأنني لاعب كرة السلة الأفضل، فقد وافق على حضور مراسم زفافي بعد عشرين سنة على ذلك.

صادقت في مركز بيكر أيضاً، هيب فام الذي كان قد هاجر مع عائلته من فيتنام مؤخراً. كان هيب، التلميذ الذكي الذي كان ما يزال يتعلم اللغة الإنجليزية، يطلق عليّ تحبباً اسم تشاك نوريس (كان يلفظ الاسم بلكنته الفيتنامية «تشاك نور»)، وكنت بالمقابل كنت أطلق على هيب الذي كان يلبس حزاماً أسود، اسم بروس لي. لم أتعلم رياضة الكاراتيه، لكن هيب حاول أن يعلمني بعض الحركات (لكن الدروس التي تلقيتها منه لم تبقَ في ذاكرتي). كانت صديقتي التي هجرتني فيما بعد ، واسمها كاميل موجيكا من الصف السادس، فتاة جميلة وذكية من أصول إسبانية. ولم تكن مثل هذه الصداقات مألوفة في تلك الأيام.

كان ترحيبي بالاندماج بين الأعراق جزءاً من إرثي العائلي الذي يعود إلى ما قبل موقع والدتي في إدارة مجلس المدارس. أثناء فترة استلام جدي مهام العمادة بكلية القانون في جامعة أوكلاهوما، قام بالإدلاء بشهادته في قضية إيدا سيبويل فيشر، وهي امرأة سوداء وقفت في وجه القانون الذي أقرته الولاية لعزل الطلبة السود في كلية القانون، وقد تمت المحاكمة في منطقة معزولة من داخل مبنى الكابيتول. فقد سبق للولاية أن تسرعت في افتتاح كلية القانون في أعقاب صدور حكم قضائي من المحكمة العليا بشأن دعوى سبق لفيشر أن أقامتها وتقضي بأن أوكلاهوما لا يمكن لها أن تمتنع عن توفير فرصة تدريس القانون للجميع. استذكر بروفسور القانون السابق من ولاية تكساس، وخبير القانون الدستوري الشهير على مستوى البلاد تشارلز آلان رايت في احتفال تأبيني لجدي أقيم سنة 1999 أنه «لم يكن من المدعاة للدهشة أنها لم تشعر أن ذلك كان يشكل حماية «مساوية» يضمنها لها التعديل الرابع عشر للدستور»، وتابع قائلاً: «استطاعت أن تفرض فعلاً جديداً في محكمة الولاية عبر تحديها لدستورية كلية القانون الفورية تلك».

بعد دعوته للإدلاء بشهادته من قبل المحامي ثورغورد مارشال، الذي أصبح فيما بعد، قاضياً في المحكمة العليا، ذكر جدي أن «الكلية الجديدة لا يمكن بأيّ حال من الأحوال اعتبارها مساوية لكلية القانون العريقة في جامعة أوكلاهوما».

وكما قال رايت في مرثاته، فلقد أدلى جدي بشهادته في منتهى الهدوء والعقلانية، بعكس أحد زملائه من الشباب في عضوية هيئة التدريس بكلية القانون في جامعة أوكلاهوما الذي أخذ جانب فيشر في القضية، لكنه كان عاطفياً وأقل قدرة على كبح جماح انفعالاته أثناء التعليقات التي أدلى بها. دفعت شهادة البروفسور الشاب مناصري الفصل العنصري في أوكلاهوما إلى مطالبة مجلس الجامعة بفصله. قام جدي بصفته عميداً للكلية، بإرسال رسالة إلى مجلس الأمناء يدعم فيها حق الأستاذ في التعبير عن آرائه بحرية، مشيراً إلى «الضرر الذي سيلحق بسمعة الجامعة على الصعيد الوطني لو تم فصل ذلك الأستاذ من عمله بسبب التعبير الصادق عن رأيه حول الفصل العنصري». وانتصر منطق دفاع جدي عن الأستاذ. أخبره رئيس المجلس فيما بعد، أنه لو لم يرسل

تلـك الرسالة، لكان ذلك الأستاذ قد طرد من وظيفتـه. اشتهر جدي فيما بعد، وعلى مر السنـين، بالتعاقد مع أفضـل الأساتذة من ذوي الآراء المتباينة، وكان يدافع عن حقهم في ممارسة الحرية الأكاديمية عندما كانوا يطرحون آراء مثيرة للجدل.

عنـد عودتـه إلى منصبه كعميد، أشرف جدي على عملية الدمج السلمي التي تمت في كليـة القانـون في جامعة تكساس بعد قرار المحكمة العليا بشـأن قضية سويت ضد بينتر، وهي قضية شهيرة أخرى كانت تمر عبر أروقة النظام القانوني عندما كان جدي ما يزال يعمـل في جامعة أوكلاهوما. كانت عائلتي كلها تشعـر بالفخر لأن عميد أسرتنا كان بطل الدعـوة إلى المسـاواة في الحقوق وحريـة التعبير، كما أن اهتمامـي الشخصي بالعمل في مجال الخدمة العامة يعود الفضل فيه بدرجة كبيرة إلى الإلهام الذي كان يمنحني إياه.

في نهاية المطاف، عملت رئيساً للمجلس الأعلى للطلبة في المرحلة المتوسطة، ثم رئيساً لمجلـس الطلبة في مدرسة أوستن الثانوية، وهو الموقع نفسه الذي كانت والدتي تتبوأه منذ تسع وعشرين سنة.

خلال فـترة رئاستي للمجلس الأعلى للطلبة، نشـأت صداقة بيني وبين زميل لي، كان رئيسـاً لمجلس طلبـة مدرسة جونستون الثانويـة في مدينة أوستن، واسمـه جون بار. كان قـد نشأ بدوره في جو سياسي. فقد كان والده صديقـاً مقرباً ومستشاراً لعضو الكونغرس حينهـا جيـك بيكل الذي كان عضـواً في مجلس النواب عن مدينـة أوستين وكان قد خلف لينـدون جونسـون في الكونغرس. في السنـة التي تعرفنا إلى بعضنا بعضـاً، كانت والدتي تخوض الانتخابات ضد بيـكل (وخسرتها حينها). في السنين التي تلت تعارفنا، تحدثنا، جـون وأنا، عن ظاهـرة كيف أنه بالرغم من أننا ننتمـي إلى حزبين مختلفين تماماً، فإن آراءنـا السياسيـة متشابهة إلى حد بعيـد. غالباً ما كنا نتحدث عـن الخطر الذي يواجه الديمقراطيـة بسبب المتشدديـن والأيديولوجيـين التطهيريين الذيـن لا يقبلون بالحلول الوسط من كلا الحزبين.

أقلعت عن أنواع الرياضة كافة في المرحلة الثانوية عدا كرة المضرب التي برعت فيها لدرجة أنني أصبحت أحتل المرتبة الأولى في الفردي والزوجي. وقد حل فريق مدرستي الثانوية في المرتبة الثانية على مستوى الولاية في تلك السنة.

كان تحصيلي في المرحلة الثانوية جيداً، فقد تخرجت بمرتبة الشرف وكنت من بين العشرين من المئة الأوائل في صفي، لكن أداء أخويّ الأكبر مني سناً كان أفضل من أدائي، فقد ألقى أحدهما خطبة الترحيب في حفل التخرج وألقى الثاني خطبة الوداع فيه (لقد سبقه أخواه التوأم).

بعد أن داعبت مخيلتي فكرة الانضمام إلى الأكاديمية البحرية ولعب كرة المضرب هناك، قررت البقاء في موطني، والانضمام إلى جامعة تكساس. انضممت إلى الأخوية التي كان اثنان من إخوتي أعضاء فيها، وتابعت الدراسة بغية الحصول على شهادة في الدراسات الحكومية. بالإضافة إلى ذلك، عرض علي مدرب كرة المضرب ديف سيندار موقعاً في فريق كرة المضرب الذي يحتل المرتبة الأولى، من دون أن يؤهلني هذا العرض للحصول على منحة دراسية. وبعد أن تبين لي أن فرصي في جعل هذا الفريق ينتقل إلى الدور الثاني قليلة، انتهى بي المطاف إلى ترك موقعي في فريق كرة المضرب في منتصف الطريق عندما كنت في السنة الدراسية الثانية.

بحلول منتصف السنة الأولى من دراستي في الجامعة، انتخبت رئيساً لجماعة «سيغما في إيبسيلون Sigma Phi Epsilon» التي يزيد عدد أعضائها عن 120 عضواً ولمدة سنة. كانت الأَخويات في تلك الفترة تخضع لمراقبة لصيقة من قبل الجامعة ومدعي عام المقاطعة بسبب الغموض المستمر الذي يكتنفها.

كان الغموض جزءاً من نظام ثقافة الأخويات في جامعة تكساس، ولهذا النظام تاريخ طويل من سوء السمعة على الصعيد الوطني. لم تكن هذه الأخويات جزءاً من ثقافة الجامعة التي أشعر حيالها بالارتياح. عندما كنت طالباً في السنة الأولى، توفي مارك سيبيرغر، وهو عضو في أخوية أخرى، جراء تسمم كحولي في قضية غامضة. ثم فقدت

فيمـا بعد صديقاً من أيـام الطفولة، وكان شاباً ممتازاً مـن النواحي كافة، اسمه سكوت فيليبسـ الـذي كان قد انضـم إلى إحدى الأخويـات، وتورط في حادثـة غامضة أدت إلى وفاته. (عندما كان يعمل كمدرب متطوع، وقع من على جرفٍ عالٍ بينما كانت تتم مطاردته من قبل مجموعة من الشبان المتطوعين المتورطين في «غموض معاكس».)

دفعتنـي حـوادث مثل هذه، كما آخرين مـن جامعة تكساسـ، إلى الإحساس بضرورة تغيير ثقافة الغموض هذه. كان مركز أخوية سيغ إيب Sig Ep يعمل بدأب لحث الجماعات التي تنتمي إليه على السير ضمن توجه جديد أكثر إيجابية. لم يكن من السهل فرض مثل هذا التغيير، لكنني قررت أن أحاول القيام بذلك - جزئياً بحكم الضرورة، وأيضاً بحكم الاختيار بعد التجربة المؤسفة التي مررت بها في رئاسة الجماعة.

استلمت مسؤولياتي رئيساً للجماعة قبل عطلة عيد الميلاد في سنتي الأولى بالجامعة. عندمـا عدنا إلى الكلية، وكما كانت التقاليد تقتضي، كان صف التطوع الخريفي يمارس طقوسـه في الأسبـوع الجهنمي غـير الخاضع للرقابـة. كان هذا يتضمـن الحرمان من النـوم، والكثير من الغموضـ الكلامي، وبعضـ الغموض الجسدي أيضـاً. وبحكم أنني مررت بتجربـة الغموض في مرحلة التطوع، فقد كنت أعتبرها طريقاً خاصة للتعبير عن الحب الأخوي.

أثنـاء هذا الأسبوع الجهنمـي الخاص، كانت الأمور تخرج عـن السيطرة. فقد أصيب أحـد المتطوعـين في عينه في لحظة من الإرهاق شبه التـام الناجم عن عدم النوم في وقت متأخـر من إحـدى الليالي. كانت حادثة غريبة - فقد انسكب في عينه صباغ شعر من أحد الذيـن كانوا يلبسون ثياباً توحي بالجنون كجزء من الطقوس الغامضة، مما أدى إلى فقدٍ مؤقت لبصره. أحضره أحد الإخوة المنتمين إلى الأخوية إلى غرفتي في بيت الأخوية. نقلناه حالاً إلى غرفة الطوارئ حيث تمت معالجته وإعادته إلى منزله في صباح اليوم الثاني.

عبر الأطباء حينها عن القلق من أن الإصابة في عينه يمكن أن تؤثر عليه لبقية حياته. وبالرغم من ذلك أصر المتطوع على أنه غير راغب بإثارة مشكلة بسبب هذه المسألة. قلت

لــه إن عليــه أن يفعل ما يعتقد أنه صواب بغض النظر عما يمكن أن يعنيه ذلك للآخرين، ولكــن تبين لي أيضاً أن المشكلة الغامضة كانت ضرورية بالنسبة لأخويتنا من أجل أن يتم التعامـل معها بصــدق وبوضوح، وأن التغطية على حادثة من هــذا النوع لن يكون لها وقع إيجابي على المدى الطويل.

بعـد أن ناقشت المسألة مـع مستشار الجماعة وهو خريج متطـوع، اتفقنا على أنه من الأفضل القيام بإعلام مجلس خريجي الجماعة الذي كان يضم محامين كانوا محقين في قلقهم بشأن المسؤولية المحتملة. قلت للخريجين إنني أتحمل المسؤولية عن نتيجة أي عمل قـد نضطر إلى القيام به. قـرروا أخيراً معالجة الموضوع داخلياً، لكننـا جميعاً اتفقنا أن هذه الثقافة الضبابية يجب أن تتوقف داخل الأخوية، مرة وإلى الأبد.

وقفـت في اجتماعات الجماعة، وحثثـت بقوة بصفتي رئيساً على وجوب إلغاء فعاليات الأسبـوع الجهنمـي في المستقبل. كان هذا موقفاً متصلباً اتخذتـه حينها. كان عليَّ أنا أن أتحمـل الجـزء الأكبر من الانتقاد من زملائـي وإخوتي من أعضــاء الأخوية الذين كانوا يعتــبرون أن الضبابيــة فعلٌ يمارســه الجميع في جامعــة تكساس منذ مــدة طويلة. كانوا يتساءلــون عن السبب الذي يدفــع جماعتنا إلى طلب التغيير بسبــب حادثة واحدة تورط فيهــا متطوع لم تكـن لديه أي مشاعر حقد بسبب ما جرى لــه. لم يقم مجلس الخريجين بــأي فعل داعم لي في العلن. ربمــا كانوا ولسبب مفهوم، شديـدي الحساسية تجاه تحمل المسؤوليــة عــن هذا الموقف الذي لا يتمتــع بالتأييد بين أعضاء الأخويــة. إلا أنني تمسكت بموقفــي بالرغم من أنني كنت وحيــداً في ذلك الجانب. كلفني ذلك الموقف خسارة بعض الصداقــات، والتسبــب في ارتفاع بعض أصــوات الانتقاد. كنت متصلبــاً في موقفي لأنني كنت مؤمناً بأن هذا ما يجب أن يتم، وأن هذا هو عين الصواب. انضم إليّ لاحقاً عدد من أعضاء الأخوية. وتوصلنا بشكل فعلي إلى وقف الضبابية في أخويتنا - على الأقل مؤقتاً.

لسوء الحظ، لم يستمر هذا التغيير طويلاً. إذ قررت مجموعة صغيرة من الأعضاء في الخريف الثاني، بعد جولة من احتساء الخمر، اصطحاب بعض المتطوعين ليمارسوا متعة التجذيف.

بعد المحاولات التي قمت بها من أجل معاقبة أولئك المتورطين في تلك القضية، وصلت إلى لحظة الحقيقة. فإذا كان أعضاء الأخوية قد اتخذوا قراراً بالاستمرار في تلك الطريق المؤدية إلى تدمير الذات في وقتٍ كانت المواقف تتغير بسرعة حول مسألة قبول مثل هذه التصرفات، فسيكون هذا هو خيارهم في المرحلة الجامعية الأولى. لكنني قررت أن لا أكون جزءاً من هذه العملية. انتهى بي المطاف إلى تقديم استقالتي من رئاسة الأخوية قبل عدة أشهر من انتهاء ولايتي. في الوقت نفسه، بقيت أمارس نشاطي كواحد من أربعة قادة طلابيين عملوا مع إداريي الجامعة لتطوير الأساليب المناسبة للتحرك بعيداً عن الضبابية.

لسوء الحظ، وبالرغم من الجهود المستمرة التي بذلت من أجل إنهاء هذه الضبابية، فقد تواصل هذا الشر الاجتماعي في جامعة تكساس وفي أماكن أخرى. أقرت ولاية تكساس تشريعاً يجرّم الضبابية، كما تبنت جامعة تكساس قواعد صارمة تمنع بموجبها الضبابية وتطالب ضحاياها الإبلاغ عن الحوادث التي تسببها إلى مكتب العميد. علقت نشاطات العديد من التنظيمات في الجامعة على مر السنين بسب خرق هذه القواعد. ومع ذلك، ما تزال الضبابية مستمرة. ففي كانون الأول، ديسمبر سنة 2005، توفي أحد المتطوعين في أخوية «لامبدا في إيبسيلون Lambda Phi Epsilon» نتيجة لحادثة ناجمة عن الضبابية. وبسبب تلك الحادثة، فقد تم تعليق هذه الأخوية حتى سنة 2011، كما وجهت اتهامات جنائية لثلاثة من أعضاء الأخوية. من المحزن جداً أن مآسٍ كهذه تستمر في تلطيخ السجل الجيد لمؤسسة عظيمة مثل جامعة تكساس.

كان لهذه التجربة الجامعية تأثير عليّ لم تستطع السنون محوه. أهم ما في الأمر، فقد كشفت لي هذه التجربة كم هي صعبةٌ محاولةُ تغيير ثقافة سلبية كرست وجودها في إحدى المؤسسات على مر السنين. فبالرغم من أن الحاجة إلى التغيير في غاية الوضوح، وبالرغم من أن بعضهم من ذوي النيات الحسنة يناضلون من أجل إحداث هذا التغيير، فإن عدم المبالاة الاجتماعية والدوافع الأنانية لثلة من الأفراد الذين يستفيدون من النظام السائد تتسبب في جعل المحاولات المبذولة من أجل للإصلاح التنظيمي صعبة

المنـال. وهو درس ينبغي على أولئك الذين يريدون إصلاح الثقافة السياسية المفلسة في واشنطن أن يأخذوه على محمل الجد.

فتحت استقالتي من رئاسة الأخوية في أوائل خريف سنة 1989 الطريق لي للاستثمار في فرصــة أخرى - تبين فيما بعد أنها كانــت حاسمة في تحديد مسار مهنتي. كنت على مسافـة فصلين دراسيين لإنهاء متطلبات التخرج مــن جامعة تكساس بالرغم من أنني لم أكـن قد قررت حينها ما الــذي سأفعله بعد التخرج. ونظراً لعبء المقررات الدراسية الخفيـف نسبيــاً، والذي كنت مطالباً به في ذلك الوقــت، ولكوني أتمتع بفسحة من وقت فــراغ ناجم عن انتهاء التزاماتــي تجاه الأخوية، فقد قمت بالاتصـــال ببيل تريون، وهو أحــد الخريجين الذيــن كانوا ينتمون إلى أخويــة «سيغما في إيبسيلــون» عندما كنت في السنتــين الأولى والثانيــة مــن دراستي الجامعيــة، وكان حين اتصالي بــه يعمل لصالح الحملــة الانتخابية للحاكم الجمهــوري. أخبرت بيل بأن لدي متســع من الوقت، وبأنني أرغــب بالتطــوع من أجل اكتشـــاف معنى أن يكون المــرء جزءاً من حملــة سياسية على مستوى الولاية. كان ذلك يشكل نمواً طبيعياً منبثقاً من تاريخي العائلي، كما أنني أحبت الفكرة لأنني ظننت أنها ستقدم لي فرصة للعمل في مدينة أوستن.

لماذا ركزت على هذه الفرصة في الحزب الجمهوري؟ لم يكن هذا الاختيار يعكس ميلاً أيديولوجياً قوياً محدداً. شعرت بشكل عام، براحة أكبر في جو الحزب الجمهوري في ولاية تكساس الذي يميل نحو المحافظين؛ إلا أن انتمائي كان مبعثه إرثي العائلي، وليس العقيدة المحافظــة المتصلبة. خلال الثمانينات، لحقــت بوالدتي كما العديد من ديمقراطيي ولاية تكساس الذين هاجروا إلى الجمهوريين.

كانــت تكســاس ولاية الحــزب الواحد لأكثر من مئــة سنة، أي منذ فــترة نهاية إعادة البنــاء التي أعقبت الحــرب الأهلية. ومع ذلك، فقد كان طيلة هذه الفترة جناح محافظ، وآخــر ليــبرالي في الحزب الديمقراطي بولاية تكساس. أصبحــت ولاية تكساس منذ سنة 1980 تصوت للجمهوريــين في الانتخابات الرئاسية. اعتقد العديد من ديمقراطيي ولاية

تكساس خلال عقد الثمانينات أن الحزب الديمقراطي على الصعيد الوطني قد ذهب بعيداً باتجاه اليسار. كانت والدتي من بين كثيرين ممن اعتقدوا ذلك، وكذلك أنا. غيرت ولاءها الحزبي سنة 1985 أثناء فترة ثورة ريغان. ترشحت لعضوية الكونغرس عن الحزب الجمهوري في السنة اللاحقة (وخسرت حينها أمام عضو الكونغرس جيك بيكل.) كان ذلك في السنة التي بلغت فيها سن الثامنة عشرة؛ في الواقع، كان أول صوت أدليت به في اقتراع كان لوالدتي في الانتخابات التمهيدية للحزب الجمهوري. أدليت بصوتي سنة 1988 لأول مرة في الانتخابات الرئاسية لصالح جورج بوش الأب، الذي التقيته للمرة الأولى أيضاً أثناء احتفال انتخابي لصالح والدتي (لم أتوقع أن أتعرف عليه بشكل شخصي أكثر بعد خمس عشرة سنة على ذلك اللقاء).

أعاد بيل الاتصال بي عصر ذلك اليوم وسألني إذا كنت أرغب في العمل مساعداً صحفياً بدوام جزئي لصالح كليتون ويليامز، المرشح لمنصب الحاكم. كان ويليامز رجل أعمال ذا شخصية تضج بالحيوية جمع ثروة شخصية عن طريق الاستثمارات الناجحة في الغاز الطبيعي، والعقارات، والمصارف، ووسائل الاتصال. حتى إنه ظهر أيضاً في بعض الإعلانات التجارية التلفزيونية الناجحة عن شركة الاتصالات الهاتفية «كليديستا» للمسافات البعيدة، التي يملكها، والتي أسماها تيمناً باسمه واسم زوجته موديستا، وهو يرتدي بذلة رسمية وقبعة راعي بقر. وعد كليتون بأنه سوف يحضر أسلوبه التكساسي المميز، وذكاءه كونه رجل أعمال، وموقفه الحازم ضد الجريمة إلى قصر الحاكم في مدينة أوستن. لكنه كان سياسياً ساذجاً، وعديم الخبرة إلى درجة كارثية.

بعد لقائي بالسكرتير الصحفي بيل كينيون، تم التعاقد معي مباشرة وبدأت العمل في الحال. من بين الواجبات الأخرى التي تطلبتها مقتضيات الوظيفة هي أنه عليّ التواجد في المكتب الساعة السادسة من صباح كل يوم قبل الجميع وذلك لمتابعة ما تكتبه الصحف الرئيسة، وأخذ قصاصات منها، ونسخ القصص المهمة المتعلقة بالحملة الانتخابية، بالإضافة إلى القضايا الرئيسة التي تهم الولاية وذلك كي تكون في متناول الجميع بمن فيهم المرشح نفسه لقراءتها مباشرة. وازدادت الساعات التي التزمت

العمـل فيها، والتي تراوحت من عشرين إلى خمسـ وعشرين ساعة في الأسبوع، إلى ما بين ثلاثين وخمس وثلاثين ساعة أسبوعياً.

وقعت عقداً للعمل في حملة ويليامز لمنصب الحاكم في فترة مبكرة من حياتي المهنية، وكانـت نقلـة جيدة بالنسبة إلى شاب لـه طموح سياسي مثلي، ذلـك أن التزامي والجهد الـذي كنت أبذله كانا لافت انتباه. انتهى الأمر بويليامز إلى الفوز بالانتخابات التمهيدية لمنصـب الحاكـم بأغلبية ساحقة، هازماً ثلاثة من منافسيـه المشهورين من دون الحاجة إلى إجـراء انتخابـات جديدة - وهو إنجاز مؤثـر لمرشح يتقدم إلى هـذا المنصب للمرة الأولى. وقـد ساعده في الفوز الكـم الكبير من أمواله الشخصيـة التي ضخها في الحملة الانتخابيـة، بالإضافـة إلى جاذبيتـه التـي استقطبت الناخبـين، وبدا وكأنـه يمثل وعداً عظيمـاً استحوذ على توق الناخبـين الذي لا ينقطع، بتحقيق شيء مختلف عما يعدهم به أي سياسي نمطي.

بعد فترة وجيزة من انقضاء الانتخابات التمهيدية، سألني كينيون عن رغبتي في العمل بـدوام كامل في وظيفـة صحفية ذات دور أكـثر أهمية وتتلخص في السفـر قبل ويليامز، المرشـح، والتأكد مـن أن المناسبات العامة بما في ذلك المؤتمـرات الصحفية معدة بشكل جيد، وكذلك الستائر الخلفية للمنصة ومواقع الكاميرات، وأن ويليامز سيقدم له عرض مختصـر حول المظاهر المهمة للحـدث. اقتنصت الفرصة وأجّلتُ التقدم إلى الامتحانات النهائيـة في ذلك الصيف. كان مـن المثير جداً الانتقال إلى الصفـوف الأولى في الحملة الانتخابيـة واغتنام الفرصة كي أتعرف جيداً علـى الشخص الذي سيكون الحاكم المقبل لولاية تكساس.

انتهـى ويليامز من الانتخابـات التمهيدية بتبوء موقع قوي، وبزخـم يتعاظم يوماً بعد يوم، متقدماً على منافسته الديمقراطية المحبوبة التي تضج بالحيوية آن ريتشاردز بفارق كبـير وواضح. كانت لويليامز جاذبيـة شعبية محافظة. كان ينظر إليـه على أنه شخصٌ مـن خارج اللعبة، وكرجل أعمال ناجح قادر على الوقـوف في وجه بيروقراطية الولاية في أوستن، وعصرنة الحكومة، يحارب الجريمة بشكل فعال (كان يمكن له أن يعلم المجرمين

«متعة تفتيت الصخور») ، ويمثل على أكمل وجه القيم التي تشترك فيها غالبية المحافظين في ولايــة تكساس. أما ريتشــاردز، فإنها وبالرغم مــن أنها كانت محبوبــة على الصعيد الشخصي، فإن العديد من الناخبين كان ينظر إليها كتقدمية أو ليبرالية أكثر من اللازم في ولايــة مثل تكساس، كما أن خطابها سنة 1988 في مؤتمر الديمقراطيين الوطني الذي هاجمت فيه جورج هيربرت ووكر بوش التكساسي عزز هذا الانطباع عنها.

عملت ريتشــاردز مندوباً لمقاطعة ترافيس في ولاية أوســتن عندما كانت والدتي تشغل منصــب المحافظ، ولذلك فقد التقينا في مناسبات سياسيــة عندما كنت صغيراً. عندما خاض ويليامز معركته الانتخابية ضدها للفوز بمنصب الحاكم، كانت تحتل منصب أمين الخزانة في الولاية. كنت أعلم أن لديها الكثير من الجاذبية الشخصية، وأن من الصعب الفوز عليها، حتى عندما كان ويليامز متقدماً عليها بمعدل عشرين نقطة بعد الانتخابات التمهيديــة. كنت أرى أنها تقبــع في أقصى يسار الوسط، وكنت أعرف نقاط ضعفها حول هذه القضايا، لكنني كنت أعلم أيضاً مدى مهارتها في ضبط إيقاع موقعها أمام الجمهور وإعطاء الانطباع أنها تسير في الخط العام.

بعــد الانتخابات التمهيدية مباشرة، بــدأت مظاهر انعدام الخبرة السياسية لويليامز تؤذيــه انتخابياً، حيث إنه أبدى بضــع ملاحظات خرقاء وأفلتت منه زلات لسان مباشرة. علــى سبيل المثــال، رفض ويليامز مصافحــة ريتشاردز بعد انتهاء إحــدى المناسبات لأنه سبــق أن أبــدى انزعاجه مــن حملة شعواء مجهولــة المصدر شُنّت عليــه، ولأنها لم تكلف نفسها عناء إدانة هذه الحملة ضده. لكن رجال ولاية تكساس يفاخرون بتهذيبهم؛ وهكذا فإن طريقة ويليامز في تقريع منافسته علناً وبهذه الطريقة - والأنكى من ذلك، أنها سيدة - اعتبرت أنها تجاوز لكل الحدود.

كانــت نكتة بذيئة أطلقها ويليامز أثناء جلسة صحفيــة غير رسمية في مزرعته أسوأ مــن تلــك الحادثة بكثير. كان الطقس سيئــاً في ذلك اليوم. مــازح ويليامز مجموعة من الصحفيــين قائــلاً إن الطقس السيئ «يشبــه إلى حد ما، الاغتصــاب. وطالما أن عملية الاغتصــاب لا يمكــن مقاومتهــا، فالأفضل هــو أن تسترخي وتستمتع بهــا». لم تكن هذه

المزحة مجرد تجسيد لخطيئة سياسية، بل كانت ملاحظة فظيعة انتفت منها كل المشاعر الإنسانيـة، وكانت حقيقة أن ويليامـز يخوض معركته الانتخابية ضـد امرأة، قد جعلت الأمـر أسـوأ بكثير بالنسبة إليه. تم إبلاغي فيما بعد أنـه حالما خرجت هذه الكلمات من فمـه، انبرى السكرتير الصحفي لويليامـز، وتوجه بسرعة إلى الصحفيين قائلاً: «إن ما قيل ليس للنشر». لكن صحفياً واحداً على الأقل من بين الحاضرين أشار، وكان محقاً في ذلك، إلى أن أحداً لم يوافق على ذلك مسبقاً – كان كل ما كتبه الصحفيون يتمحور حول هذا التعليق. وكان لا بد للنكتة التي أبداها ويليامز أن تشق طريقها إلى عناوين الصحف وتتصدر التغطية التلفزيونية – وهذا ما حصل في اليوم الثاني.

ربمـا كان المرشح يخـدع نفسه عندما أخـبر أركان حملته أنه لا ضـرورة للمبالغة في توقـع التأثير السلبي الذي ستحدثه زلة اللسان تلـك. بالطبع، كان يجانب الواقع إلى حد كبير. أمرني السكرتير الصحفي في اليوم الثاني أن أجمع كل القصاصات الإخبارية التي قامـت بنشر عبارة ويليامـز والتعليق عليها، وأن أنهض باكراً صبيحة نهاية الأسبوع تلك، للإجابـة على المكالمات الهاتفية وذلك لكي يرى المرشح بـأم عينيه عمق وفداحة الغضب الشعبـي بسبـب عبارته تلك. كانت أجهزة الهاتف في مكاتـب حملتنا الانتخابية لا تتوقف عـن الرنـين، وكنت في البداية الوحيـد الذي كان يجيب على هـذه المكالمات كما طلب إليّ أن أفعـل. اعتـبر التكساسيـون عبارة ويليامز إهانـة شخصية. أذكر مـا قالته لي إحدى المتصـلات وهي تتحدث بصوت تخنقه الدموع عن حادثة اغتصاب مأساوية تعرضت لها شقيقتهـا، وكيف أن هذا الاعتداء العنيف أدى إلى تشويه دائم لها وترك ندوباً عاطفية لا تندمـل؛ وطالبتني بحقها في أن تسـأل كيف يمكن لمرشح لمنصب الحاكم أن يتحدث بمثل هذه الخفة عن قضايا كهذه. لم تكن لدي أي إجابات أو أعذار كي أقدمها لها. ما استطعت فعلـه اقتصر على التعبير عن أخلص تعاطفي، والتأكيد لها بأن رسالتها سوف تصل إلى الجهـة المقصودة. وهذا ما قمـت به بالفعل، ولويليامز شخصياً علـى (سماعة) الهاتف عندما اتصل بي كينيون، السكرتير الصحفي، وطلب إليّ قراءة بعض هذه المكالمات.

كان مقرر «القيادة» الذي قامت بتدريسه سارة ويدينغتون واحداً من المقررات المفضلة بالنسبـة لي في جامعة تكساس. هذه الأستاذة هي صديقة قديمة لآن ريتشاردز والمعروفة

عـبر تمثيلهـا ل«جين لو» المجهولة، في قضية رو ضد ويد، وهي القضية التي أدت إلى جعل الإجهاض قانونياً في كل أنحاء الولايات المتحدة. كان عدد الطلبة المسجلين في هذا الصف قليـلاً نسبيـاً بمعايير جامعـة تكساس، ولم يسجـل في هذا المقرر سـوى عدد محدود من الطلبة المتميزين والمهتمـين بالسياسة، وكان هذا المقرر يقدم المتعة والفائدة. كنت وقتها مـا أزال أعمـل بدوام جزئي في حملـة ويليامز الانتخابية. كانـت مناقشاتنا حادة ولكنها كانـت دائمـاً ودية ما عدا ذلك اليوم الذي تلا تعليق ويليامز، عندما وجه إلي زملائي في الصـف الأكثر ميلاً لليبرالية عبارات قاسية. استطعت في نهاية المطاف أن أحملهم على إعطائي فرصة للكلام، وأهدئ من روعهم عبر تأكيدي لهم بأن تلك العبارة كانت مهينة، وتذكيرهم أيضاً بأنني لست أنا من تلفظ بتلك العبارة.

تهاوى تقدم ويليامز الواضح في استطلاعات الرأي إلى لا شيء في واقع الأمر، بسبب زلـة اللسان تلك،؛ بالإضافة إلى زلات أخرى مشابهة مع حلول يوم الانتخاب. ومع ذلك فقـد كاد أن ينجح في تلك الانتخابات بفضل جاذبيتـه الشعبية. لكن ريتشاردز تقدمت عليه بفارق ضئيل.

تلـك كانت تجربـة مؤلمة استطعنـا أن نتعلم منها نحـن الذين عملنـا لساعات طوال لصالـح مرشـح كنا نعده ذكيـاً وواعداً. وكترجمـة للوعد الذي قطعته علـى نفسي بأن لا أعـود إلى عـالم الحملات السياسة الملـيء بالمطبات، فقد شاركت لفـترة قصيرة بواحد مـن المشروعات التجارية الـذي أسس له بعض زملائي الذين كانـوا ضمن فريق الحملة الانتخابية، قبل أن أقرر أن أقوم في الصيف الثاني بالعودة إلى الجامعة لإكمال متطلبات الحصول على شهادتي الجامعية الأولى.

لكـن الوعد الذي قطعته علـى نفسي بعدم العودة إلى عالم الحمـلات الانتخابية كان مجرد وعد مؤقت. فبعد حصولي على الشهادة الجامعية في الصيف الثاني، أمضيت ست سنوات متأرجحاً بين حملة انتخابية وأخرى، ومحاولات كسب القواعد الشعبية السياسية، وحكومة ولاية تكساس.

في سنة 1994، وبناء على طلب من والدتي، أدرت الحملة الانتخابية الناجحة الأولى لها بغية الوصول إلى موقع منتخب على مستوى الولاية. في أعقاب فوزها على المحافظ الديمقراطي، طلب إليّ سيناتور الولاية، توم هيوود أن أعمل بصفة رئيس لأركانه. سبق وأن أدرت حملته الانتخابية في سنة 1992، التي خسرها بفارق ضئيل ضد السيناتور المتمترس في موقعه، والذي كانت الاستطلاعات تشير إلى أنه سيفوز فوزاً ساحقاً في تلك الانتخابات. نشأت صداقة قوية بيني وبين توم، وكذلك بيني وبين ابنته البارّة دينيز، التي كانت تشرف على مصالح والدها عن كثب، خصوصاً بعد إصابته بمرض باركنسون.

لم يمنع المرضُ توم من القيام بمهامه كسيناتور، كما عملت معه لمدة ثمانية أشهر بما فيها مساعدته في المباشرة في فترته التشريعية الأولى كما اتفقنا. طلبت إليّ والدتي من جديد مساعدتها في حملة إعادة انتخابها التي فازت فيها بسهولة. بعد ذلك عملت في موقع القضايا الحكومية لحساب سلطة نهر كولورادو الأدنى (LCRA)، وهي شبه وكالة تتبع لولاية، قبل البدء في إدارة السباق الثاني لوالدتي، وكان السباق هذه المرة من أجل الفوز بمنصب أمين خزانة ولاية تكساس القوي النفوذ. في كل واحدة من هذه الحملات كنت أعمل أيضاً بصفة الناطق الرئيس.

في شهر كانون الثاني، يناير، سنة 1999، كنت أخطط للعودة إلى العمل لصالح سلطة نهر كولورادو الأدنى عندما قابلتني كارن هيوز، مديرة الاتصالات في مكتب الحاكم بوش، حاملة إليّ دعوة ستغير مجرى حياتي.



4

الحاكم بوش يرشح نفسه للرئاسة

عندما كان جورج دبليو بوش حاكماً لولاية تكساس، كان يردد أنه يظن أن ذلك المنصب هو أفضل منصب في العالم. أميل جداً إلى الاعتقاد بأنه كان يعني ما يقوله؛ وعبر معرفتي الشخصية ببوش كما أعرفه الآن، فإنني أقدر السبب الذي حدا به إلى هذا القول.

الآن، من المهم أن نفهم أولاً أن حاكمية تكساس هي منصب ضعيف من الناحية الدستورية. والسبب في ذلك يعود إلى أن دستور سنة 1876، الذي كتب في نهاية مرحلة إعادة البناء، عندما كان أهالي تكساس ما يزالون يشعرون بالاستياء من الإدارة الجمهورية الأوتوقراطية المركزية التي فرضت عليهم بعد انتهاء الحرب الأهلية، قلص إلى حد كبير من سلطات الحاكم، وأدى إلى إنشاء حكومة ولاية لامركزية . وزع الدستور الجديد السلطات بين مجموعة من متبوئي المناصب المنتخبين بشكل مستقل، والمشَرّعين الذين يعملون بدوام جزئي. يحدد هذا المجلس التنفيذي الجماعي ما يستطيع أن يمارسه الحاكم من سلطات بشكل مستقل، وذلك لأن الموظفين الآخرين المنتخبين بدورهم بشكل مستقل أحرارٌ في ممارسة سلطاتهم بشكل مستقل، ومن الممكن أن لا يدعموا أهدافهُ (أجندته) بشكل كامل.

مع ذلك، يحمل منصب حاكم ولاية تكساس في طياته تأثيراً لافتاً إذا كان الشخص الذي يتبوأ المنصب يعرف كيف يستعمل لغة الوعاظ التهديدية بشكل مؤثر. يتمتع حاكم الولاية أيضاً بحق الفيتو، بالإضافة إلى صلاحية تعيين عدد كبير من الأشخاص في مناصب مهمة وشهيرة داخل حكومة الولاية، بما في ذلك مجالس الجامعات، ولجان التشريع الرئيسة. كما أن له أن يدعو إلى عقد جلسات استثنائية للمجلس التشريعي الذي يلتئم بموجب نظام تكساس الفريد من نوعه (يمكن أن يطلق عليه بعضهم صفة الغريب)

في دورة واحدة مدتها أربعة أشهر ونصف تعقد مرة كل سنتين. ومن ضمن السلطات التي يمكن لـه ممارستها، تعيين كادر كبـير، بالإضافة إلى صلاحيات وامتيـازات أخرى مثل العيش في قصر، والتمتـع بالحماية الأمنية واستخدام الطائـرات التي تعود ملكيتها إلى حكومة الولاية. كما أنه يعد أرفع المناصب مكانة في الولاية، ويستحوذ على اهتمام وسائل الإعلام والاهتمام الشعبي أكثر من أي موقع آخر في الولاية.

كان هذا المنصب مناسباً جداً لأسلوب بوش الشخصي في الحكم. فهو شخص يستمتع بممارســة حيــاة كاملة ومتوازنة - وكمعظم السياسيين - فهــو يعتبر أن وجوده بين الناس منشطـاً ومحفزاً. كما أنه يقدر عالياً الانضبــاط والرتابة في وتيرة عمل برنامجه. وفرت لـه السلطة التي يتمتع بها عبر المنصب المقدرة على تنفيذ مشروعات مُرْضِية وذات قيمة - ومــن بينها التأثـير الإيجابي في تقرير الوجهة التي تنحو نحوهــا الولاية. كان لساعات العمـل الطبيعية والمحددة رونقها وامتيازاتها الخاصة بها، مما وفر له مرونة عظيمة كي يوازن بين العمل، والتمارين الرياضية، وأوقات الراحة.

يــولي بوش أهمية كبيرة للتماريــن الرياضية اليومية، وأعتقد أن علينا جميعاً أن نفعل ذلــك. أذكــر أحد الأيام سنــة 1997، عندما كنت موظفاً في وكالة نهــر كولورادو الأدنى، وكانــت ساعــات عملي محددة وطبيعية، حينهــا، وقبل أن أتعرضـ إلى إصابة في ركبتي، كنــت أركضـ من ثلاثة إلى أربعة أميــال يومياً. في ذلك اليوم، كنــت قد أخذت استراحة الغداء لأمارس رياضة الجري بالقرب من ضفة بحيرة تاون ليك في مدينة أوستن. وبينما كنت أتمطى وأمشي بجانب البحيرة قبل البدء برياضة الجري، تجاوزني رجل من الجهة اليمنى مسرعاً وكان يعتمر قبعة ويضع على عينيه نظارات شمسية. ما كنت لألحظ تجاوزه لي إلا بالــكاد، لــولا أنه كاد أن يتعثر بي؛ وهو ما دفعنــي إلى الاستدارة لأتبين شخصيته. رأيــت اثنين من الأشخاص يتبعانه على دراجتين جبليتين، وثالث يتبعه مشياً على قدميه. كان الشخصــ الــذي يعتمر القبعة الحاكم بوش الذي كان يقفز في الهواء بعد انتهائه من رياضة الجري في ذلك اليوم، وكان الأشخاص الذين يمشون في إثره من حراسه.

كان بوشـ يحــب ممارسة رياضة رفــع الأثقال في مبنــى الألعاب الرياضيــة المجاور، أثنــاء فترة استراحة الغــداء عدة مرات في الأسبوع، وكان يمتلــك اللياقة التي مكنته من

القيام بذلك. وفرت له المكانة التي حظي بها عبر موقعه فرصاً كثيرة للتواصل مع شرائح عريضة من الناس، خصوصاً الناس العاديين الطيبين من أهالي تكساس الذين كان بإمكانه الالتقاء بهم، وإلقاء التحية عليهم، والتوجه إليهم في خطاباته. أتصور أن غالبية الناس سيكونون سعداء بالاستمتاع في ممارسة مثل هذه الوظيفة المريحة جداً، والمهمة، وذات المكانة المرموقة، لو أتيحت لهم الفرصة.

تبين لي أن العمل في مكتب الحاكم بوش الذي بدأ في أوائل سنة 1999 مجزياً ويمثل في الوقت ذاته الكثير من التحديات. دائماً ما كانت هناك مناسبات أو قضايا تتوجب معالجتها، بما في ذلك حملته الانتخابية غير المعلنة حتى الآن لمنصب رئاسة الولايات المتحدة.

عبر موقعي كنائب لمديرة الاتصالات، غالباً ما كنت على تواصل مع الحكم بوش لأنني كنت أرد على استفسارات الصحافة، وأحضر المناسبات العامة معه في مدينة أوستن وكذلك في أرجاء الولاية، وأكتب التصريحات والبيانات الصحفية له، من بين واجبات عديدة أخرى. بدأت أتعرف عليه عن كثب أكثر فأكثر، شخصاً وكزعيماً سياسياً، ونشأت بيننا بالتدرج علاقة تسودها الإلفة الشخصية.

على العكس من الحاشية الرئاسية، تسود حاشية الحاكم نوعاً من الحميمية، وتكون صغيرة إلى حد ما. وكان بوش يفضل أن تكون كذلك دائماً. لم يكن يتحمس لوجود كثير من الناس من حوله للاهتمام بشؤونه، والسير من ورائه، أو توجيهه إلى أين يذهب أو ماذا يقول. كان من المألوف في الرحلات التي قام بها عندما كان حاكماً للولاية أن يرافقه فقط مساعد شخصي، والناطق باسمه، واثنان أو ثلاثة من حراسه الأمنيين، وكانوا الأفضل من بين ضباط قسم السلامة العامة في ولاية تكساس.

هناك عدد من اللحظات التي ما زلت أذكرها جيداً خلال فترة الأشهر الستة التي قضيتها في مكتب الحاكم قبل أن ننطلق على العمل في الحملة الانتخابية الرئاسية.

في مكتب الاتصالات التابع للحاكم، واجهت للمرة الأولى قضية سياسية تتعلق بالحياة أو بالموت – عقوبة الإعدام. اتخذ الحاكم بوش موقفاً متشدداً حول مسألتي وقف تنفيذ

أحكام الإعدام أو تخفيف هذه العقوبة. كان يؤمن أن عقوبة الإعدام تساهم في إنقاذ حياة الأبرياء عبر تأثيرها الرادع. وكان يرى أنه إذا توفرت الفرصة الكاملة للمجرم المدان في المرور بكل مراحل المحكمة، وإذا أدانته المحكمة بصورة لا يرقى إليها الشك، فإن الحاكم لا يملك صلاحية تجاوز قرار المحلفين. على أي حال، كانت خياراته بموجب قانون الولاية محـدودة وتتمثل في إيقاف مؤقت لتنفيذ العقوبـة لا يتعدى الثلاثين يوماً، كما أن بإمكانه تخفيـف العقوبة فقـط إذا تلقى توصية للقيـام بذلك من مجلس العفـو وإطلاق السراح المشـروط التابع لولاية تكساس (الذي يقوم الحاكم بتعيين أعضائـه). كان عليّ كناطق باسم الحاكم أن أجيب على التساؤلات المتعلقة بقضايا محددة، وكذلك على أسئلة تتعلق بالطريقة التي يراجع فيها الحاكم هذه القضايا قبل المصادقة على حكم الإعدام.

تعرضـ جورج دبليـو بوش إلى حملـة واسعة مـن التمحيص أكثر مـن أي حاكم آخر لتكساس، وذلـك بسبب أنه ابن رئيس سابق للولايات المتحـدة، ومرشح محتمل لرئاسة الولايات المتحدة في المستقبل. كانت القضايا المتعلقة بعقوبة الإعدام من بين أكثر القضايا تعقيداً. تنفذ أحكام الإعدام في ولاية تكساس بمعدلات هي الأعلى بين كل ولايات الإتحاد؛ وقد تم تنفيذ 152 حكم بالإعدام في تكساس خلال فترة ولاية جورج بوش كحاكم للولاية؛ وهو رقم أثار الكثير من الجدل . كان من بين من نفذ فيهم الحكم بالإعدام عدد لا بأس بـه من المجرمين الذين كان معدل ذكائهـم أدنى مما كان في الغالب، العتبة التي تضعهم في حـال أقـرب إلى التخلف العقلي، بمن فيهم «كارلا في تاكـر»، المسيحية التي ولدت من جديد، والتي شهدت قضيتها في سنة 1998 مناشدات لمنحها العفو من البابا يوحنا بولس الثاني، ومن محافظين شهيرين مثل نيوت غينغريتش وبات روبرتسون.

علـى أي حال، ربما كانت عقوبة الإعـدام القضية المهمة الأولى التي كان عليّ التعامل معهـا بشـكل مباشر مع وسائل الإعـلام، والتي كان موقفي الشخصـي بشأنها لا ينسجم مـع موقف جـورج بوش. ففي الوقت الـذي أؤمن تماماً بضرورة اتخـاذ موقف صارم من الجريمة، كانت دائماً تنتابني الشكوك حول عقوبة الإعدام. وكان رأيي ينطلق من أساس أخلاقـي. تزعجني جـداً فكرة أن يسقط شخصـ بريء ضحية هذا النظـام، وأن تطبق عليـه عقوبة الإعدام بسبب جريمة لم يرتكبها. أؤمن بـأن عقوبة السجن المؤبد المترافقة

بعـدم إمكان إطلاق السـراح، والتي تعزل المجرمين المدانين عن المجتمع يمكن لها تحقيق الهـدف نفسه -عبر إبعاد هذا الشخص مـرة وإلى الأبد، عن إمكان إيذاء شخص بريء آخـر- من دون إجبار المجتمع على القيام بدور أعتقد أنه ليس من حقه أن يمارسه. يجب أن يعـزل المجـرم المدان في مكان انفـرادي من سجن تكون فيه المراقبـة صارمة، ويعامل بشـيء من الإنسانية، ولكن بحقوق أقل بكثير من تلـك التي يتمتع بها أفراد المجتمع. كما أتسـاءل، كما فعلت العديد من الدراسات على مر السنـين، فيما إذا كان لعقوبة الإعدام أي تأثير ردعي.

كي أكون واضحاً، أنا لست ضد تطبيق عقوبة الإعدام بالمطلق. إذا كانت هناك قضية تستدعـي تطبيق هذه العقوبة، فإنـه يجب تطبيقها على مرتكبي الهجوم في الحادي عشر مـن أيلـول، سبتمبر. القضية بالنسبة لي هي من التعقيـد بحيث لا يمكن النظر إليها من منظـار الأبيض مقابل الأسـود. ولكن لدي شكوك كثـيرة حولها، تمامـاً كالشكوك التي سأشعـر بهـا لاحقاً حيال ضرورة شن حـرب على العراق (وهي أيضـاً سياسة ذات صلة بمسألـة الحيـاة أو الموت)، عندما طلب إليّ بوصفي ناطقاً رسمياً القيام بالدفاع عن هذا الموقف بالرغم من تأنيب الضمير الذي عانيت منه بشأن هذا الموضوع أيضاً.

لم أعـبر علنـاً عن شكوكي حول جـدوى عقوبة الإعدام. في المحصلـة، كنت أعبر عن اقتناعـات الحاكم، وليس عـن اقتناعاتي حول الموضوع. كان لا يتوانـى عن إعلان دعمه لتطبيـق عقوبة الإعدام، وكان هذا موقفاً سبق له أن أعلن عنه عندما كان يخوض حملته الانتخابيـة لفوز بمنصب الحاكم، والـذي أيدته فيه الغالبية العظمى من أهالي تكساس. أكـثر من ذلـك، كانت عقوبة الإعدام جزءاً من قانون الولاية. وإذاً، حتى لو رغب الحاكم في عدم إعطاء الموافقة على تنفيذه، فلا بد له مع ذلك، من الالتزام بتطبيق قوانين ولاية تكساس بأمانة. لهذه الأسبـاب مجتمعة، خاطبت نفسي قائـلاً إن شكوكي الشخصية لا تقـدم ولا تؤخر. أصدرت تصريحات باسم الحاكم بوش مدافعاً فيها عن موقفه، ورددت علـى اللغط الذي أثارته هذه القضية بالطريقة التي أرادها بوش. وهذا بالضبط ما يقوم به الناطق الرسمي.

هناك أيضاً لحظة جديرة بأن يتوقف المرء عندها؛ وتتعلق بقانون أكثر صرامة ويتعلق بقيادة السيارة تحت تأثير المسكرات تمت المصادقة عليه في ولاية تكساس. بعد قيام قياديات لجنة «الأمهات المناهضات للسائقين المخمورين» بحملة مركزة لفرض هذا القانون، وافق مشرعو ولاية تكساس على إصدار قانون سنة 1999 أصبح بموجبه الحد الأدنى المطلوب من نسبة الكحول في الدم 0.8 بدلاً من 0.10. أذكر حينها أنني اقترحت على كارن هيوز أن من المستحسن الترتيب لاحتفال علني للتوقيع على هذا القانون، بحيث يمكن للحاكم أن يؤكد على أهمية القانون الجديد. أجابت كارن: «لا أعتقد أنه سيقوم بأي شيء في العلن حول هذا الموضوع. لا أدري بالضبط ما هو السبب، إلا أنني أظن أن الأمر له علاقة بماضيه».

وجدت إجابتها وجيهة، لكنني لم أتوقف عندها كثيراً في ذلك الوقت. لست متأكداً لماذا، بالضبط؛ ربما لأن الصحف التي تهتم بالشؤون اليومية لم تعر الأمر اهتماماً كبيراً، إلى حين وقوع أحداث قبل يوم الانتخابات سنة 2000 جعلتني أتذكر الحوار الذي دار بيني وبين كارن، وأفكر بالموضوع من زاوية جديدة.

عموماً، كانت تجربتي في مكتب الحاكم جيدة. تعلمت الكثير عن الحكومة، والسياسة، وفن الاتصال. مددت يد المساعدة لإدارة كانت تعطي نتائج جيدة لولاية تكساس وشعبها بعيداً عن الروح الحزبية. كما كنت ألعب دوراً مفيداً في مهنة سياسي واعد يعده العديد من الناس رئيساً مستقبلياً محتملاً للولايات المتحدة. كل ذلك كان أمراً مثيراً وحماسياً.

استمتعت ببعض اللحظات الرائعة من الوفاق الشخصي مع بوش، عندما كنا على متن طائرة صغيرة نجلس لوحدنا في مقدمة الطائرة، أو نتجاذب أطراف الحديث في مكتب الحاكم. حدثت واحدة من اللحظات المفضلة في اليوم الذي كنت أول الواصلين إلى اجتماع لمراجعة القوانين التي تم إقرارها في جلسة المجلس التشريعي، والتي يمكن للحاكم أن يستخدم حق النقض، (الفيتو) لإسقاطها. وبحكم وصولي باكراً، دعاني الحاكم إلى المطبخ حيث كان يحضر لنفسه واحدة من الوجبات المفضلة لديه وهي شطيرة مكونة من زبدة الفستق والمربى. كان يلبس قميصاً قصير الكمين، أبيض اللون

وسـروالاً من الجينز، وكان حـافي القدمين؛ سألني فيما إذا كنت أرغب بتناول شطيرة. أجبت: بالتأكيد. أعدَّ واحدة لي، وتحدث إليّ عن جملة من الموضوعات المختلفة، وكانت أغلب تلك الموضوعات لا علاقة لها بالسياسة.

بعد انقضاء مدة ليست بالبعيدة على بدئي بالاستقرار بهدوء في عملي بمكتب اتصالات الحاكم، وذلك في المـدة التي تلت الجلسة التشريعية، ومدة توقيع القوانين التي أعقبتها، طلبت إليّ كارن هيوز التي كانت حينها مديرة حملة بوش الانتخابية لسنة 2000، التقدم خطـوة أخـرى إلى الأمام. حدث الأمر هذه المرة في أواخر شهـر تموز، يوليو سنة 1999، وكانت تلك الخطوة تتعلق بالانضمام إلى آلة الحملة الرئاسية الجاهزة للانطلاق على أن أشغـل موقع نائب السكرتير الصحفـي. كان الفريق بحاجة إلى ملء الفراغ الذي تسببت بـه مغادرة المتحدث الرسمي الوطني ديفيد بيكويث، وهو مسؤول مخضرم متخصص في مجال الاتصال السياسي في واشنطن، وكان أيضاً الناطق الرسمي السابق لنائب الرئيس. تعـود معرفتي ببيكويـث إلى سنة 1992، عندمـا كان يعمل في تكساس لصالح المرشحة لمجلس الشيوخ الأمريكي كاي بيلي هاتشيسـون. كنت أحب بيكويث، لكن كارن كانت تراه مثل مدفع ينطلق في كل الاتجاهات، وكان أقل حذراً مما يجب، وغير ملتزم كثيراً بالمهمة الموكولـة إليه كما ترغب هي بذلك. أعربت كارن عن ثقتها في مقدرتي على تعاطي الأمور بحذر، وعلى الالتزام بالمهمة الموكولة إلينا، وأحسّت بأنني قادر بشكل جيد على استيعاب النبرة التي يفضل بوش استخدامها في تصريحاته.

اكتسبتُ خبرةً لها قيمتها أثناء تعاملي مع الصحافة الوطنية خلال الفترة التي سبقت الانتخابات التمهيدية وانتخابات الولايات التمهيدية المبكرة. قضيت معظم وقتي في الرد علـى الاستفسارات الصحفية الواردة من صحفيـين من ذوي ميول مختلفة، وكذلك من مؤسسـات إخبارية، وذلك بشكل شخصي، وأيضاً على الهاتف، والمشاركة في اجتماعات الإستراتيجية الإعلامية.

كان الحاكـم بوش يبدو في طريقه إلى تأمـين ترشيح حزبه للانتخابات؛ عرضت عليّ كارن أن أكـون السكرتير الصحفي المتنقل عندما تتحـول الحملة إلى مستوى الانتخابات

العامـة. كانت كارن تتابع سفرها بانتظام كونها ناطـق رئيس باسم الحملة، ولكن بسبب أن كل الحاشيـة الصحفية تتبـع المرشح في كل خطوة يخطوها، كان لا بد من وجود ناطق ثانٍ متنقل. قبلت العرض بكثير من الحماسة.

لم يتحقـق النصـر التمهيـدي بالسرعـة والسهولـة اللتين كنـا نتوخاهـا. فقد حقق السينـاتـور ماكـين نصراً مفاجئاً في ولايـة نيو هامبشير، وتلا ذلـك نصر حققه بوش في السباق المحموم في ولاية جنوب كارولينا. بدأ تقاذف الاتهامات بين الطرفين حول حصول الكثير من الافـتراءات، والأحابيل القذرة، والهجمات السلبيـة والضربات تحت الحزام بـدءاً من السبـاق في ولاية جنوب كارولينا والمستمرة في معركـة الانتخابات التمهيدية في باقي الولايات، والتي أدت إلى شعور بالمرارة أتصور أنها ما تزال تخيم على بعض الأماكن إلى يومنا هذا.

ربمـا تتساءلـون فيما إذا كانت تلـك الأساليب (التكتيـكات) الفظة المؤذيـة في إدارة الحمـلات الانتخابية هي أحد الأهـداف التي أصوب عليها عندما أشجب المبالغة في المدى الـذي تذهـب إليه واشنطن في حملاتها التي لا تتوقـف، وسياستها التي هي أشبه بالأرض المحروقة. أنا بالتأكيد لا أتبنى تشويه سجل الخصم، ولا أتغاضى عنه؛ كما أنني لا أفبرك أكاذيـب عنه أو أغمز مـن قناته عبر نشر حملات هامسة للإساءة إليه، بل أرى أن وظيفة وسائل الإعلام هي المساعدة في كشف الحقائق في مثل هذه الظروف. لكن القلق لا يساورني بشـأن الحملات الانتخابية القاسية والصعبة، بل بشأن أساليب تكتيكات مثل هذه تتسرب إلى سلوك الحكومات. فـ(التكتيكات) الانتخابية القاسية قديمة قدم الديمقراطية. ولكن مـع نهاية الانتخابات، فإن القادة المنتخبين مـن كلا الحزبين - خصوصاً الذين يستلمون السلطة - مدينون للشعب أن يعملوا يداً واحدة من أجل حل مشكلات البلاد عبر المداولات والقبـول بالحلول الوسطى. وهذا ما قاموا بفعلـه في أغلب مراحل التاريخ الأمريكي، حتى بعـد حدوث حملات انتخابية كانـت سلبية بشكل متوحشـ أو تم خوضها بضراوة. (كانت لنـا حصتنا من هذا النوع مـن الحملات في ولاية تكساس). يجب علينا إيجاد وسيلة نعود بواسطتها إلى تلك التقاليد.

نهض ماكين من كبوته بعد خسارته في ولاية جنوب كارولينا بواسطة الانتصار الذي حققه في ولاية ميشيغان، لكن ذلك الانتصار كان الأخير بالنسبة إليه، ذلك أن بوش فاز في نهاية المطاف بترشيح الحزب الجمهوري.

غالباً ما توصف الحملات السياسية «بالفوضى المنظمة». الحملات الرئاسية هي فوضى منظمة على نطاق واسع. هناك العديد من النقاط التي يجب التركيز عليها، مثل جمع التبرعات، وممارسة الخداع، والبحث في الإستراتيجية، والاتصالات، ودفع العمل إلى الأمام، والتقصي، وتنظيم المناسبات؛ وكل واحدة من هذه النشاطات تستوجب إبقاء الصحون تدور فوق العصي بالوقت نفسه. قضيت معظم زمن الانتخابات التمهيدية في ممارسة مهمة الناطق الصحفي كنت أقوم خلالها بالرد على استفسارات وسائل الإعلام، وإجراء مقابلات، والمشاركة في اجتماعات إستراتيجية الاتصالات، والمناقشات. بعد أن تم تعييني بوظيفة المتحدث الرسمي المتنقل أثناء الانتخابات العامة، قضيت معظم وقتي متنقلاً كوني عضواً في فريق بوش المتنقل. أما في الأيام التي لم نكن نسافر فيها، فقد كنت أعود لإجراء الاتصالات الهاتفية، والمقابلات التلفزيونية من مركز الحملة الرئيس، والمشاركة في الاجتماعات الصباحية المخصصة لكبار أعضاء فريق بوش حيث كنا نناقش إستراتيجية الاتصالات بما في ذلك النقاط التي يجب الحديث عنها، بالإضافة إلى موضوع رسالة اليوم.

تتضمن ذكرياتي عن موكب الحملة الانتخابية عدداً لا يحصى من الأسفار الجوية، ومواكب الدراجات النارية، والحافلات الصحفية، وغرف الفنادق، والاحتفالات الجماهيرية الضخمة، والعلاقات الإعلامية المتنقلة. كنت أقوم بتنسيق الرسائل والردود، ونحن على طرقات السفر مع كارن هيوز، الناطقة الرئيسة باسم الحملة؛ ومنها، كنت أعود مع فريق الاتصالات إلى مركزنا الرئيس في أوستن - بمن في ذلك الناطق باسم الحملة على المستوى الوطني آري فليشر، ومدير قسم الرد السريع دان بارتليت.

كان من ضمن مهامي القيام بمهمة إدارة الإنذار المبكر، وجمع المعلومات الأمنية لصالح الحملة الانتخابية. عبر إقامة علاقات وثيقة مع الصحفيين الذين كانوا يغطون تنقلات

بوش في أسفاره، بما في ذلك قضاء وقتي بينهم، فقد التقطتُ نتفاً مفيدة من المعلومات – مثل تطوير خيوط الحبكة التي تزودنا بالدفع اللازم الذي نحتاجه، والاطلاع على الهجمات التي ترد إلينا من المعارضة، أو الآراء الواردة من داخل معسكر آل غور بواسطة زملائهم الذين يقومون بتغطية العرض الطُّرُقي للحملة الانتخابية للديمقراطيين. وكما هي الحال في أي معركة إستراتيجية، من المفيد الاطلاع على المزاج العام للخصم، وعلى طريقة تفكيره.

شكلت الحملة الانتخابية فرصة لي كي أتعرف إلى بوش أكثر، نظراً إلى أنني قضيت معظم وقتي بالقرب منه، بما في ذلك إطلاعه على المعلومات الإعلامية التي تهمه، وكان هذا يتم غالباً بوجود كارن هيوز. تتطلب الصرامة التي تتميز بها الحملات الانتخابية الرئاسية انضباطاً، وحيوية، وتركيزاً من قبل المرشح لهذا المنصب. السفر منهك جداً، وغالباً ما يتضمن المشاركة في العديد من المناسبات في كثير من المدن، وفي أي يوم؛ لكن ربما ينعم المرء بيوم أو يومين من الراحة في منزله بعد قضاء بضعة أيام مسافراً في القافلة الانتخابية. يكون المرشح دائماً تحت الأضواء، فهو يلقي خطابات، ويجري مقابلات، ويحضر اجتماعات لجمع التبرعات، ويصافح الأيدي الممدودة إليه من وراء خطوط من الحبال؛ و،نعم، يحمل الأطفال بين ذراعيه. يجب عليه أن يشارك في لعبته كل دقيقة من كل يوم.

نجح بوش في التعامل مع هذه الضغوطات بشكل لافت. فقد كرس وقتاً كافياً لتصفية ذهنه، وترتيب أوراقه، وأخذ قسط وافر من النوم (أقلّه، في معظم الأحيان). كما تفهّم أيضاً أهمية أن يكون في موقع متقدم في السباق. فالحملة الانتخابية هي سباق ماراثون، فهم بوش طبيعته عبر مراقبة حملة والده في سنة 1988 وتقديم النصح له. كان يمتلك أيضاً مقدرة عظيمة في الإبقاء على تركيزه على الصورة الكبيرة من دون أن ينتابه القلق بشأن القصص «الإجرائية الصغيرة» – التحليل اليومي للتفاصيل الصغيرة المتعلقة بسباق الخيل الذي ترغب الصحافة في نقلها، والتي لا تجد في الغالب، أي اهتمام يذكر من قبل عامة الشعب.

أدرك بوش أيضاً أهمية المحافظة على روح الدعابة لديه، خصوصاً عندما بدأت تشتد سخونة الحملة الانتخابية. يشتهر بوش بأنه يحتفظ بحجرة أدراج تحتوي على الكثير من القصص الغريبة؛ اخترت بدلاً من سرد هذه القصص في هذا الكتاب أن أتركها في تلك الحجرة من الأدراج المقفلة. ولكن عليّ القول إننا قضينا أوقاتاً مرحة جداً وخصوصاً عند اقتراب نهاية الحملة الانتخابية. كانت النهاية وشيكة بشكل أو بآخر (أو هذا ما تبادر إلى أذهاننا)، وانتابنا إحساس بأننا، وبعد عدة أشهر من التنقل والسفر، سوف نعود قريباً إلى بيوتنا.

كان الاحتفاظ بروح الدعابة وراء الستار يساعد المرشح وجميع من حوله بتحمل جو الحملة الانتخابية المتوتر والمملوء بالضغوط من دون أن يفقد أحد ملكاته الفكرية. كان بوش يحب أن يداعب أعضاء فريقه المتنقل وذلك بسؤالهم في نهاية اليوم فيما إذا كانوا يشعرون بالتعب بسبب عملهم طيلة اليوم. كانت لديه طريقة ذكية في القبض على فريسته. فلو قال أحدهم إنه كان يشعر بالتعب، كان يسارع في إبلاغ أعضاء الفريق الآخرين عن حجم التعب الذي كان يشعر به طيلة اليوم. وكان يلتفت بعدها إلى عضو الفريق ذاك ويسأله: «كم خطاباً ألقيتَ هذا اليوم؟ وكم يداً ممدودة إليك قمتَ بمصافحتها؟» كانت تلك طريقة لطيفة يذكرنا فيها بالشخص الذي كان عليه أن يتحمل أثقل الأعباء في سفرنا في ذلك اليوم. لقد كان هذا أسلوباً أعاد بوش استعماله في حملة سنة 2004، أثناء رحلات امتدت زمناً أطول من الحملة الأولى. ونعم؛ أذكر أنني وقعت في هذا الشَّرَكِ في إحدى المرات.

ففي إحدى الأمسيات، ومع اقتراب نهاية الحملة الانتخابية استدار الرئيس من مقعده بجانب الممر في مقدمة الطائرة المخصصة للحملة الانتخابية وأشار إلى واحد من أعضاء الفريق في الصف الأخير من الجزء المخصص لفريق العمل، على بعد صفوف قليلة منه إلى الوراء. كان عضو الفريق، إريك تيريل قد وقّعَ على شيكات تتعلق بمصاريف سفر محدودة. كان لطيفاً في أسلوب حديثه، وكان شخصاً يؤثر الابتعاد عن الأضواء لدرجة أن من السهولة بمكان أن تتغاضى عنه. كان بوش يدعوه: «تشيك دود»، وهو لقب أعطي

له منذ بداية الحملة الانتخابية. كان إريك هذا، قد تراهن مع لفيف من زملائه في طاقم السفر أن بإمكانه أن يتابع سفره مع بوش من بداية الحملة إلى نهايتها من دون أن يعرف بوش اسمه الحقيقي. لكن بوش استدار في تلك الأمسية، وأشار إليه قائلاً: «إريك تيريل؛ أنت إريك تيريل. لقد أمسكتُ بك. لقد وقعتَ في الفخ».

وفي الوقت الذي كان بوش يضحك مزهواً بانتصاره، كان على إريك أن يدفع الرهان الذي خسره.

بالعودة إلى الماضي، أذكر أنني مررت بتجربة لا تنسى عندما كنت مسافراً مع الحاكم بوش في بداية الحملة الانتخابية؛ ولقد كشفت لي هذه التجربة عن أشياء أكبر من النزعات المقيتة في واشنطن المعاصرة والمتمثلة في قضاء وقت غير محدد من أجل الغوص في ماضي المرشح الشخصي. كما أظهرت جانباً مثيراً للفضول في شخصية بوش - وهو الجانب الذي أثبت أهميته في بعض الأحيان أثناء إدارته الرئاسية.

أذكر أننا كنا نقوم بحملتنا الانتخابية في الغرب الأوسط. وقد حدث هذا بعد وقت قصير على ضمان بوش لترشيح الحزب الجمهوري له. كانت كارن هيوز تسافر معنا أثناء المواجهة الشرسة بين معسكري بوش وماكين في الانتخابات التمهيدية، ولكنها قررت بعد انقضاء تلك المواجهة ملازمة بيتها للتركيز على الصورة الإستراتيجية الأشمل للانتخابات العامة بعيداً عن متطلبات الطريق ومستلزماته، بينما كنت أثناء ذلك الناطق الوحيد باسم الحاكم.

بعد الانتهاء من إحدى المناسبات الانتخابية، وصلنا إلى فندق محلي حجزت فيه بعض الغرف لأعضاء الفريق لأخذ قسط من الراحة. كنا، بوش وأنا، قد قمنا بإحدى الزيارات، توجهنا بعدها إلى جناحه. كان مساعده الشخصي لوغان والترز في إثرنا مع بعض عملاء الأمن السريين. في الطريق إلى الطابق العُلْوي، بدأ بوش بطرح الأسئلة، والتدث بشأن ما يدور في سلك الصحافة. وحالما اقتربنا من غرفته، ذكرت له بأن التطرق إلى موضوع الكوكايين متواصل في الصحف وأنه يتسرب من بين ظلال الحملة الانتخابية.

كان الصحفيـون في المراحل الأولى من الحملة الانتخابية قد سألوا بوش عن موضوع إشاعـة تعاطيه للكوكايين في مراحل شبابه الأولى. كانـت الإشاعات تنتشر، لكن أياً من هذه الإشاعات لم يتم إثباتها. كان بوش يتجنب دائماً الخوض في أسئلة لها علاقة بماضيه عبر القول بطريقة مُراوِغةٍ وغامضة مقصودتين: «عندما كنت شاباً لم أشعر بالمسؤولية، كنـت شاباً لا أشعر بالمسؤولية». أغلب الصحفيـين والمعلقين - أراهن أن أغلب الناخبين كذلـك - التقطوا الرسالـة. كان بوش في واقع الأمر يقر بأنـه ارتكب بعض الأخطاء بما في ذلـك تنـاول الكحول والمخـدرات، في الوقت الـذي رفض أن ينجـرّ إلى سيل لا ينتهي مـن الأسئلـة عما قام به بالضبط وكيـف يمكن أن يؤثر ذلك علـى قدرته لاستلام زمام الحكم وذلك بعد مرور سنوات على تلك التجربة. بعد ذلك كان بوش ينتقل إلى الموضوع الأشمل الذي كان يرغب في التأكيد عليه: الرسالة الأهم التي يمكن أن يرسلها مرشحون مبتدئون مثله إلى أبنائهم هي أنهم تعلموا من أخطائهم، وأن على أبنائهم تجنب ارتكاب مثل هذه الأخطاء.

استطـاع سـام أتليسي، الصحفـي المخضرم الذي يعمل في صحيفـة «دالاس مورنينغ نيـوز» في شهـر آب، أغسطس، سنـة 1999، أن ينتزع جواباً جزئياً غـير مباشر من بوش حـول هذه المسألـة. تركز السؤال حول مـا إذا كان بوش قادراً على الوفـاء بالمعايير التي تتطلبهـا التحقيقات الأمنية التـي يجريها مكتب التحقيق الفيـدرالي (FBI) حول خلفية مـن قد يعينـون في منصب فيدرالي، والتي من بينها سؤال يتعلق بتعاطي المخدرات خلال السنين السبع الأخيرة. أجاب بوش أنه على استعداد للقيام بذلك؛ وأكد على أنه لم يتعاطَ الكوكايـين خلال تلك المدة. سئـل في اليوم الثاني عن مدى وفائه بتلك المعايير أثناء فترة إدارة والـده، عندمـا كان يعمل بصفـة مستشار غير رسمي لبوشـ الأب. هذه المرة، كان السـؤال يغطـي مدة خمس عشرة سنة. أكد بوش أنه على استعداد للقيام بذلك أيضاً؛ ثم قـام بوضـع حد لهذا الموضوع بالقول إنه لم يتعـاطَ الكوكايين منذ سنة 1974 على الأقل. بعـد ذلك عـاد إلى مقولة «الشاب اللا مسؤول»، وأوضح أنـه لن يتطرق إلى هذا الموضوع مرة أخرى.

على الرغم من ذلك، عادت القصص الإخبارية وأعمدة الرأي للحديث بشكل متواتر حـول هـذا الموضوع من جديد. أكد بعض النقاد أن هـذا الموضوع يدخل في صلب النقاش حـول ترشيح بوش. وأشاروا إلى أن بوشـ كان منافقاً عندما تبنى اتخاذ عقوبات صارمة ضـد المتعاطـين لكميات قليلة نسبياً من الكوكايين طالما أنـه هو نفسه كان قد تعاطاها في الماضي، خصوصاً أنه لم يواجه أي مشكلات تستحق الذكر بسبب فِعْلتِه تلك.

كل ما تقدم، كان في خلفية الحديث الذي جرى بيني وبين بوش في طريقنا إلى الجناح المخصصـ له في فنـدق في مكان ما، من الغـرب الأوسط. ذكرت للحاكـم أن الصحيفة المحلية في تلك البلدة نشرت صورة مبتذلة له بجانب قصة تتحدث عن الإشاعات الدائرة حول موضوع الكوكايين. كانت الصورة لرأس بوش، وكانت تظهر فيها سبابته وهي تلمس أرنبـة أنفه. كان التعبير بالطبع محض مصادفة، لكنهـا أضحت موحيةً على الأقل كونها عرضت بالتزامن مع القصة المرافقة لها. هز بوش رأسه وكأنه غير مصدق، وتنهد قائلاً: «غير معقول. لا بد أنك تمزح!»

حينما وصلنا إلى جناحه، دعاني الحاكم للحاق به إلى الغرفة الخلفية. بقي لوغان في ردهة غرفة الجلوس، وكان يحضر لمكالمة هاتفية كان بوش سيتلقاها من أحد المؤيدين. أشار بوش إليّ أن أجلس وأسترخي في غرفته بينما كان يرد على المكالمة. لم أكن أعرف مـن هو المتصل؛ ولكن من نغمـة الحديث الدائر، كان باستطاعتـي الاستنتاج بأنه كان واحـداً مـن كبار المتبرعين، ولو أنه لم يكن من أصدقائـه القدامى. ونظراً لأن تعليقاتي حول الصورة في الصحيفة المحلية كانت ما تزال طرية في ذاكرته، فقد أثار بوش خلفية هذا الموضوع في تلك المكالمة.

سمعت بوش يقول: «يبدو أن وسائل الإعلام لن تتوقف عن الحديث حول هذه الإشاعات السخيفـة عـن الكوكايين». وتابع قائلاً: «هل تصدقني إذا قلت لك إنني لا أتذكر فيما إذا كنـت قد تعاطيت الكوكايين أم لا. لقد كنا نقيم بعض الحفلات الماجنة حينها، وأصدقك القول إنني لا أتذكر».

هــذا الكلام الذي لم أملــك إلا أن أسمعه أصابني بالصدمــة، وما يزال يلازمني إلى يومنــا هذا - ليــس بسبب ما كشفه أو ما خبأه عن الشاب جــورج بوش، بل بسبب ما قاله عن بوش كرجل أكبر سناً وكقائد سياسي، خصوصاً كما كشفت عنه تجاربي اللاحقة في العمل لديه.

أذكــر أننــي سألت نفسي: كيف يمكن أن يتم ذلك؟ كيــف يمكن لشخص أن ينسى أنه تعاطى مادة ممنوعة مثل الكوكايين؟ إنه أمر لا يُصَدّق.

أجريــت مقارنة بين ذاكرة بوش، أو غيابها وبين ذاكرتــي. عندما كنت شاباً صغيراً، كنت أعاني من مشكلة الإفراط في تناول الكحول في الحفلات أو في البلدة مع أصدقائي. كنت متواجداً لمرة أو مرتين بين مجموعة من الأشخاص الذين كانوا يدخنون الماريغوانا. ولكــن كان هناك دائماً حد رسمته بيني وبين المخــدرات. أقرب اللحظات التي اختبرتها مــع المخدر كانت الإمساك بلفافة ينبعث منهــا الدخان في يدي في منزل أحد الأصدقاء، حدقــت فيهــا لبعض الوقت كما لو أنني كنت تحت تأثير إغــراء تدخينها - وكان القصد مــن ذلك مجــرد محاولة مني لمداعبــة أصدقائي وليــس أي شيء آخــر - ومن ثم قمت بتمريرهــا إلى الشخص الواقف إلى جانبي، قائلاً: «شكراً ولكن؛ لا، شكراً». أو شيئاً من هــذا القبيل. بعــد أن تكرر الشيء نفسه مرتين، تبين لأصدقائي أن من غير المجدي حتى محاولة إغرائي بتدخينه.

ســواء قمــت بتدخين ملء قِدْرٍ مــن الماريغوانا أم لا، فهو ليس بــذي أهمية. المهم أنني أعــرف ماذا حدث؛ أي أنني أتذكر. وجدت من الصعوبــة بمكان، استيعاب كيف أن بوش يمكن أن يقول إنه ببساطة لا فكرة لديه البتة حول ما حدث في ماضيه الشخصي.

أنــا أعرف بوشــ، وأعرف أنــه يؤمن تماماً بما يقــول. إنه ليس ذلــك الشخص الذي يــوزع الكذب يمنة ويســرة، خصوصاً عندما يجري حديثاً خاصاً مــع أحد مؤيديه أو أحد أصدقائــه. ولذلــك فإننــي أصدق أنــه كان يعني ما قالــه في تلك المحادثــة الهاتفية حول الكوكايــين. كانت المــرة الأولى التي شعرت فيها أنني أشهد بوشــ وهو يحاول إقناع نفسه بشــيء ربما لم يكن صحيحاً، وأنه في أعمــاق نفسه، كان يعرف أن ذلك لم يكن صحيحاً.

وكان دافعه للقيام بذلك جد واضح: كان ذلك مفيداً من الناحية السياسية. هو بالتأكيد، ليس السياسي الوحيد الذي يلجأ إلى آلية الدفاع عن النفس عبر استعمال الذاكرة الضبابية، خصوصاً في ثقافتنا السياسية التي تتجه أكثر فأكثر نحو الشفافية حيث يطلع الناخبون على مصادر أكبر للأخبار أكثر من أي وقت مضى؛ كما أن كل شيء تقريباً يعتبر بالنسبة للبعض لعبة عادلة.

في السنين التي تلت ذلك، وبما أنني كنت أعمل قريباً جداً من الرئيس، توصلت إلى نتيجة مفادها أنه يدفع نفسه أحياناً إلى الاعتقاد بما يتناسب واحتياجاته في تلك اللحظة. وهذا شبيه بشاهد في قاعة المحكمة لا يريد أن يورط نفسه بأي موقف خاطئ، لكنه يخشى أن يحنث باليمين؛ ولذلك فهو يقول: «لست أذكر». فالشاهد يعلم علم اليقين أن أحداً لن يلج إلى داخل رأسه ليثبت أن ما قاله غير صحيح، ولذا فإن هذا يبدو نهجاً أقرب إلى السلامة منه إلى الكذب. على الخطى نفسها، يختار بوش اللجوء إلى الذاكرة الضبابية كوسيلة من وسائل الدفاع عن النفس ضد أي إحراج سياسي محتمل. وهو يعقلن هذا الموقف لدرجة أنه يجعله مقبولاً، وذلك لأنه لا يؤكد صراحة على أن ما قاله يمكن أن يكون كذباً. وإذا تبين له فيما بعد، أن عكس ما صرح به هو الصحيح، فإن بإمكانه حينئذ إقناع عقله عبر إنكار حصول أي كذب.

بعبارة أخرى، أن يكون الإنسان مراوغاً لا يعني أن يكون كاذباً بالنسبة إلى طريقة تفكير بوش. فالأولى مقبولة، في حين أن الثانية غير مقبولة. كنت شاهداً على حدوث ذلك في لحظات خاصة أخرى، ومع أشخاص كان يثق بهم، بالإضافة إلى مناسبات أخرى أثناء الإدلاء بتصريحات صحفية أو في المؤتمرات الصحفية.

خداع الذات هو جزء من الطبيعة البشرية، وهو سلوك نمارسه جميعاً من حين إلى آخر. لكن هذا النوع من الخداع بالنسبة للسياسيين يصبح أكثر تميزاً، وربما أكثر وضوحاً. لن يكون بوش أول سياسي أو آخر سياسي يخادع نفسه؛ لكن المدى الذي ذهب إليه في عملية خداع الذات تجاوز إطار القضايا الشخصية التي يمكن القول إنها قد تصبح خارج حدود السيطرة، والأنكى من ذلك أن اقتناعه بصدقية معتقداته الخادعة

للذات ترقى إلى مستوى السمة الشخصية التي تؤثر مباشرة في القضايا الكبرى التي لها علاقة بطبيعة الشخصية وأسلوب القيادة، وتنعكس على مسائل الحكم الحقيقية.

اللحظة الأخرى التي لا تنسى، تجلت في المرحلة الأخيرة من الحملة الانتخابية للرئاسة عندما تم الكشف عن أن بوش أدين بتهمة قيادة السيارة تحت تأثير الكحول خلال فترة الإجازة التي كانت العائلة تقضيها في كينيبانغبورت عندما كان في منتصف العشرينات، والسبب في الكشف عن هذه المعلومات يعود إلى أن الزخم الانتخابي كان لمصلحتنا في تلك الأيام الأخيرة، وذلك لأن بوش خرج في المقدمة بنتيجة المناظرات الرئاسية التي حصلت في شهر تشرين الأول، أكتوبر. تخطى بوش الآمال القليلة بشأنه خلال تلك المناظرات، بينما لم يستطع (غور) تحقيق الآمال الكبيرة المرجوة منه والمتمثلة في أنه سوف يطغى بسهولة على بوش.

كان أداء غور في المناظرة الأولى والذي تميز بكثير من التنهدات والمبالغة يصب في صالحنا مباشرة. فقد قمنا بتطوير رسالة مهمة للتقليل من شأن مصداقية غور، تتلخص في أنه مستعد لقول أو فعل أي شيء كي يتم انتخابه. لم يخيب غور آمالنا فيه، ذلك أن التصريحات التي كان يطلقها والأفعال التي كان يقوم بها غالباً ما كانت تثبت هذا الانطباع في عقول العديد من الناخبين. كما كانت تتمايز بشكل ممتاز عن واحدة من أهم الرسائل التي كنا نطلقها باتجاه الناخبين: بوش إنسان صادق ويمكن أن تثقوا به من أجل القيام بما هو صواب، وليس بما هو مناسب من الناحية السياسية.

الآن، وقبل أربعة أيام على الانتخابات، كان بوش قد انتهى من لقاء جماهيري في شيكاغو. كنت أسير صوب الحافلات المخصصة لنقل طاقم الصحفيين إلى طائرة الحملة الانتخابية عندما قالت لي كارن إن محطة محلية تابعة لشبكة فوكس نيوز في ولاية مينيسوتا سوف تبث خبراً عن بوش مفاده أنه تم توقيفه بتهمة القيادة تحت تأثير الكحول عندما كان في العشرينات من عمره.

عدت بذاكرتي مباشرة إلى ذلك الحديث الذي جرى بيني وبين كارن منذ سنة مضت عندما قالت إن الحاكم بوش يفضل أن يتجنب التركيز الإعلامي على إقرار قانون ضد

القيـادة تحت تأثير الكحول بسبب «شيء ما، له علاقـة بماضيه». فجأة، اكتسبت كلمات كارن معنى محدداً.

بعد انقضاء دقائق على حديثي مع كارن في شيكاغو، اقترب مني كارل كاميرون، كبير مراسلـي شبكة فوكس نيوز السياسيين والذي قام بتغطيـة الحملة الانتخابية كونه واحداً مـن الطاقم الصحفي المتنقل مشيراً إلى أنه سمع هـذه الأنباء أيضاً، من المحطة المحلية التابعة لشبكته على ما أعتقد. أبلغني بأنه سوف يبث هذا الخبر على الهواء الخبر أولاً في نشرة أخبار المساء بالاشتراك مع برت هيوم، هناك في واشنطن.

اتصلـت بـدان بارتلت، الـذي كان يشغـل منصب مدير الـردود السريعـة في حملتنا هنـاك في أوستين. كان مـن بين أهم مسؤوليات مدير الـردود السريعة المراقبة اللصيقة للمعارضـة، وإيجـاد طرق ووسائـل لوضعها في حال الدفاع مثل الإشـارة إلى أن الخصم يقول شيئاً، إلا أن تاريخه ممتلئ بعكس ما يقول. كما أن من بين الواجبات الرئيسة لمدير هذا المكتب القيام بتنسيق جهود الحملة الانتخابية بهدف إعداد رد سريع يتضمن الوتيرة الإخباريـة نفسـ على الهجمـات الموجهة إلى مرشحنـا، وإعداد خبر عاجـل بغية تدمير مصداقية الخصم. وإذا صدر الهجوم عن الخصم مباشرة، فإن الجهد المبذول من قبل مكتب الرد السريع يهدف إلى رد الضربة مباشرة وذلك لتجنب الوقوع في موقف دفاعي. أمـا إذا كانـت الأخبار مسيئة، فإن الرد يتضمن في العـادة محاولة نقل التركيز على هذا الخبر إلى مسار آخر في وسائل الإعلام ربما عبر إيجاد طريقة لوضعه ضمن إطار الحيل القـذرة التي تتبعها المعارضة. أخبرتـه أن جهودي لإقناع كاميرون بتأجيل بث هذا الخبر إلى حـين إعداد رد مـن أجل التوثيق ذهبـت أدراج الرياح. وبناء على ذلـك، اتصل دان بكاميرون وأعطاه ردنا الأولي.

إنهـا حقيقـة سياسيـة قديمـة. فالمرشح صاحـب الماضي المثـير للجـدل بحاجة إلى الإفصـاح عنه منذ البدايـة، وبشروطه هو، وإلا فإن خصومه يمكـن أن يختاروا التوقيت والأسلـوب المناسبـين للكشف عنه بطريقة محسوبة، وذلك بغيـة إيقاع الكم الأقصى من الضـرر السياسي. لهذا السبب فإن فرق الحملات الانتخابية الذكية تجري أبحاثاً وتقوم

بتحقيقات ليس فقط حول خصومها، بل على ذاتها وعلى مرشحيها أيضاً مستخدمة في ذلك مصادر المعلومات العامة، وكذلك تحقيقات سرية للكشف عن أسوأ ما في مرشحهم عبر الإنترنيت، وملفات الصحف القديمة، أو الوثائق العامة، لأن «الأشخاص الشريرين» في الطرف المقابل يمكن أن تقع عليها أيديهم أيضاً.

كان كل فرد من فريق بوش يدرك هذا المبدأ بطبيعة الحال. لم يدر في خلدي مطلقاً وجود سوى قلة من بين المستشارين الرئيسين لبوش ممن كانوا على إطلاع على الحكم الذي صدر ضد بوش بسبب قيادته السيارة تحت تأثير الكحول. قادني الحديث مع كارن هيوز قبل سنة إلى الاعتقاد أنها كانت على دراية بالموضوع بشكل عام، وأنها لم تكن ملمة بالتفاصيل. وقد استندت في استنتاجي هذا إلى معرفتي بكارن وضبابية كلماتها («شيء ما، يتعلق بماضيه»).

عندما شارفنا على الانتهاء من الفعالية المسائية الأخيرة، علم بوش أن عليه مواجهة الإعلام الذي يغذي هذا الجنون حول قصة القيادة تحت تأثير الكحول. كان لهذه القصة التي انفجرت في وجوهنا في المراحل الأخيرة من السباق أن تغير من مسار الحملة برمتها. فقد طفت على السطح من جديد جميع الإشاعات حول الأيام الماجنة التي انغمس فيها بوش في مرحلة شبابه الأول بطريقة مثيرة مترافقة بأدلة دامغة، محددة وموثقة.

أبلغ بوش أركان الصحافة المجتمعين الذين كانوا يغطون توقفه في ولاية ويسكينسون أن قصة القيادة تحت تأثير الكحول هي بالأساس صحيحة. قال بوش: «غالباً ما أقول إنني ارتكبت بعض الأخطاء في الماضي». وتابع قائلاً: «كنت من حين لآخر، أفرط في الشراب. في تلك الليلة أفرطت في الشراب، وتم إيقافي. اعترفت للشرطي أنني كنت ثملاً. دفعت الغرامة. وندمت على حصول تلك الحادثة. لقد تعلمت الدرس جيداً».

تابع القول إنه لم يعلن على الملأ عن توقيفه بسبب قيادته تحت تأثير الكحول من قبل لأنه لم يشأ أن تعلم ابنتاه أي شيء حول هذا الموضوع. فقد طلب إليهما بصفته أباً أن لا تقودا سيارة تحت تأثير الكحول لأنه لا يريد لهما أن يقوما بفعل ما فعله هو من قبل.

استمر بوش في الحديث عن التوقيت المشبوه لإذاعة هذا الخبر، متسائلاً فيما إذا كان لمثل هذا النشر دوافع سياسية. وكانت هذه محاولة لنقل مادة الحديث من الأفعال المشينة التي ارتكبها بوش إلى التركيز على سلوك المعارضة أملاً في يرتد الاشمئزاز الشعبي من شن الحملات السلبية على الديمقراطيين. وفي الواقع، اعترفت المراسلة التلفزيونية في ولاية مين التي كانت أول من سرّبت الخبر بأن المعلومات التي تلقتها حول هذا الموضوع كانت من أحد النشطاء الديمقراطيين، وكان مندوباً إلى المؤتمر الديمقراطي العام.

ما هو التأثير الذي أحدثته قصة القيادة تحت تأثير الكحول على نتائج الانتخابات سنة 2000، والتي كانت متقاربة بشكل مذهل؟ ليس من السهل تخمين ذلك. اعتقد كارل روف، رئيس التخطيط الإستراتيجي لحملة بوش الانتخابية أن ذلك الكشف كان مسؤولاً عن خسارة الجمهوريين في ولاية مين حيث انطلق منها هذا الخبر، بالإضافة إلى خسارة دعم لا يستهان به على الصعيد الوطني والذي أدى ببوش إلى خسارة الصوت الشعبي وأوصل الانتخابات إلى مرحلة التمديد. لقد أدى إخفاق حملة بوش الانتخابية في إعادة «الشرف والكرامة» إلى البيت الأبيض بسبب هذا الكشف ببعض المحافظين الاجتماعيين إلى النأي بأنفسهم عن هذا السباق بدلاً من التصويت لمرشح يعتقدون الآن أنه يعاني من كثير من العيوب والنقائص.

بالنسبة لي، لم يكن لقصة القيادة تحت تأثير الكحول تأثيراً كبيراً على موقفي من جورج بوش، أو من حملته الانتخابية. كنت سأسجل اسمي ضمن قائمة مؤيديه لأنني كنت أؤمن أن بإمكانه أن يمثل قوة توحيد تأخذ بيد الأمة باتجاه التغلب على انقساماتها الحزبية المرة.

لم أعتبر سوء معالجة قضية القيادة تحت تأثير الكحول جنحة خطيرة ارتكبها جورج بوش بل هفوة صغيرة تسببت بها دوافع مفهومة: ومنها الرغبة في تجنب أي إحراج سياسي حول مسألة شخصية لها علاقة بماضيه، والتردد الأبوي في استعراض حلقة بعيدة من ماضيه أمام ابنتيه المراهقتين العاطفيتين.

الأهم من كل ما تقدم، لم تكشف القصة شيئاً ملموساً يتعلق بقدرة بوش على ممارسة الحكم؛ ذلك أن هذه المخالفة حصلت منذ سنين عديدة، وامتنع بعدها بوش عن معاقرة الخمرة منذ أكثر من عشر سنوات. وعلى أي حال، لم تتضمن تلك الجريمة انتهاكاً لثقة الشعب. لا شك في أن القيادة تحت تأثير الكحول مسألة خطيرة يمكن أن تؤدي إلى عواقب مأساوية. لكنني لا أظن أن حادثة معزولة من القيادة تحت تأثير الكحول يجب أن تؤدي بشكل آلي إلى منع أي شخص من ممارسة مهمته في مجال الخدمة العامة، بعكس جرائم مثل الرشوة، أو الاختلاس، أو التزوير على سبيل المثال.

لكن هناك درساً سياسياً مهماً يمكن تطبيقه على قضايا حكومية أكثر أهمية خلال مدة رئاسته. فبينما تحدث بوش عن قضية القيادة تحت تأثير الكحول بجرأة وشجاعة، وأجاد في ما قام به، فقد كان ما فعله ليس سوى القليل الذي أتى متأخراً جداً، وبشروط الآخرين. فقد سمح لهذه القضية أن تتحول إلى لغط أعظم مما تستحقه نظراً إلى أنه لم يعالجها في وقت أبكر، وبشروطه هو. وكانت النتيجة أن تلك القضية عمقت الشكوك التي كانت تنتاب بعضهم عن قوة شخصيته ومقدرته المستقبلية على القيادة في موقع الرئاسة بشكل غير مسوغ.

لم تكن تلك المرة الأخيرة التي أساء فيها جورج بوش التصرف حيال ما يثار من لغط. لكن القضايا الآتية لها علاقة بالثقة الشعبية، وسوء في التعامل معها في الوقت المناسب بشكل مباشر، وبجرأة؛ وهذا سوف يؤدي إلى شكوك أعظم بكثير وإلى حرب حزبية أكثر تدميراً.

على أي حال، وصلت الانتخابات إلى نهايتها، وكان المرشحان متساويين كما يعلم الجميع، وأدت تلك الانتخابات إلى واحدة من أطول المعارك وأكثرها شراسة في التاريخ الأمريكي.

ذكرياتي حول إعادة عد الأوراق الانتخابية في ولاية فلوريدا، مثل ذكرياتي عن الحملة الانتخابية، هي أشبه بزوبعة – هذه المرة كانت زوبعة من التنقل بين مقاطعة وأخرى عبر

وسط وجنـوب شرق فلوريدا، للإشراف على الجهود المبذولة علـى أرض الواقع، والتأكد من أنها تساعد في وضع الرأي العام بصورة ما يجري، وصياغته بطريقة مُرْضية.

ليلـة الانتخابـات، كان بوش متقدمـاً علـى غـور بفارق يقـترب من ألفـيْ صوت من مجمـوع من أدلوا بأصواتهم والبالغ ستة ملايين ناخـب تقريباً. هذا الفارق الذي لا يكاد يذكـر، أدى بشـكل آلي إلى إعادة فرز للأصوات بموجب قانون ولايـة فلوريدا الانتخابي. كان مندوبـو فلوريدا الانتخابيـين البالغ عددهم خمساً وعشريـن مندوباً هم من سيقرر نتيجـة الانتخابات نظـراً لأن أياً من المرشحيْن لن يحصد الأصـوات اللازمة من دونهم. وبالإضافـة إلى العـد الآلي المتنقل من مقاطعـة إلى مقاطعة أخرى، قـرر القائمون على حملة غور أن يطالبوا بالعد اليدوي في كل صناديق الاقتراع في بعض المقاطعات المختارة؛ وهكذا، أخذت المعركة القانونية حول دستورية وعدالة عملية إعادة فرز أصوات الناخبين وقتاً أطول بكثير مما توقعه الجميع.

في صبيحـة ثاني يـوم من فترة الانتخاب الممدد، ذهبت لحضـور اجتماع إستراتيجية وسائـل الاتصـال لمناقشة الحرب الكلاميـة التي بدأت بين الحملتين. قـال دان بارتليت: «نحـن بحاجـة إلى عدد أكبر من الناطقين الميدانيين في فلوريـدا، هل هناك من يريد أن يتطـوع للقيام بذلـك؟» (إذ إنه بينما كانت حملة غور قد وزعـت أغلب ناطقيها مدفوعي الأجـر في المراكز الرئيسة علـى الصعيد الوطني، أو في مدينـة تالاهاسي، عاصمة ولاية فلوريدا، كان جزء من إستراتيجية اتصالاتنا يهدف إلى توزيع ناطقين مدفوعي الأجر في مقاطعات مختارة ذات أهمية خاصة بالنسبة لنا).

في الوقت الذي ارتفعت فيه اثنتان من الأيدي، فكّرتُ بيني وبين نفسي كم كنت منهكاً من السفر، وكم كنت متلهفاً ومتطلعاً إلى أخذ قسط مُستَحَقٍّ من الراحة. «لكن بضعة أيام إضافيـة أخرى على الطريق لن تشكل فارقاً كبـيراً»، هذا ما استنتجته في نهاية المطاف، وقمت برفع يدي أيضاً.

بحلـول منتصـف عصر ذلك اليـوم، كنا حفنة من الناطقين على مـتن طائرة خاصة أقلتنـا إلى حيـث تمركزنا في مناطق إستراتيجية مختلفة حـول فلوريدا. لم يكن قد تبقى

في حوزتـي إلا النزر اليسير من الثياب النظيفة نظـراً لأنه ومنذ نهاية الحملة، لم نتوقف عـن السفر، لكنني استطعت أن أصطحـب معي بعضاً مما يمكن ارتداؤه. أذكر أنني قلت لنفسـي: «علـيَّ أن أتحمل انقضاء نهايـة الأسبوع هذه فقط. سينتهـي كل شيء حينذاك بالتأكيـد». لكننـي لم أعـرف حينها أنني لن أعـود إلى أوستن إلا بعد ثلاثـة أسابيع، وأن ماراثـون إعـادة فرز الأصوات سيستغـرق ستة وثلاثين يوماً مسببـاً الفوضى والتذمر في غرف الأخبار في طول البلاد وعرضها، وقلقاً غير مسبوق عند الملايين من الناخبين.

بـدءاً مـن مقاطعة بينيلاس بالقـرب من خليج تامبـا، سافرت عبر الجـزء الأوسط مـن الولايـة، وصلت بعدهـا إلى مدينة كيسيمي قـرب أورلاندو في نهايـة الأسبوع الأول. حينهـا بـدأت الأمور تأخذ شكلاً مثيراً للاهتمام عندما بـدأ الفريق العامل في حملة غور باستهـداف مقاطعات بـروارد، وميامي- ديد، وبالم بيتش، من أجـل إجراء إعادة الفرز اليدوي للأصوات؛ وتعد جميع تلك المقاطعات معاقل للديمقراطيين.

أذكـر أنني انضممـت في مقاطعة بروارد إلى فريق تنظيمي مـن المتطوعين مكون من مستشاريـن لبـوب تافت حاكم ولايـة أوهايو. كانوا هناك للمساعدة مـن أجل التأكد من تواجـد متطوعـين من فريق بوش عند الطـاولات، ومن أن هـؤلاء المتطوعين يعرفون متى يعترضون على أوراق الاقتراع، ومتى لا يعترضون. قمنا بتنسيق جهودنا خارج مكتب رئيس الحزب الجمهوري في المقاطعة إيدي بوزولي الذي كان يساعد في قيادة جهود فريق بوش. كانـت عملية إعادة الفرز تتم حسب ما هو مطلوب مـن الناحية القانونية بسبب التقارب الشديد في نتائج الانتخابات. بقي جورج بوش في المقدمة. كان أي من المعسكرين يستطيع أن يطلـب فـرز الأصوات يدويـاً؛ إلا أن بـروارد، مثلها مثل باقي المقاطعـات يمكن لها أن تطلـب إعـادة فرز الأصـوات يدوياً فقط بعد إجـراء تصويت في مجلـس الناخبين التابع للمقاطعـة، والمكون عادة مـن قاضٍ من المقاطعة واثنين من مندوبـي المقاطعة. ويفترض بمجلس الناخبـين من الناحية التقنية أن يصوت لصالح إعادة فرز الأصوات يدوياً فقط بعد القيام بذلك بشكل أولي في نماذج من الدوائر الانتخابية، وأن يكون هنـاك سبب وجيه للاعتقاد بأن أخطاء خطرة قد وقعت لتعليل إصدار مثل هذا الحكم.

بدايةً، صوّتَ مجلس الناخبين في مقاطعة بروارد ضد إعطاء أمر بإعادة فرز الأصوات يدوياً. أقام، المتطوعون الذين أوفدهم الحاكم تافت، وبوزولي، وأنا احتفالاً صغيراً في ذلك اليوم، وذلك لاعتقادنا بأن النتيجة كانت نهائية، ولأننا كنا نعتقد أنه لن يكون هناك أي تغيير. تم إرسالي إلى مقاطعة ميامي- ديد؛ وعند وصولي إلى هناك، وجدت أن فريقاً موفداً من تافت قد وصل إلى هناك أيضاً. صوّتَ المجلس الانتخابي هناك أيضاً ضد إجراء إعادة فرز الأصوات يدوياً. واعتقدنا أن ذلك كان يمثل نصراً آخر. لكننا علمنا فيما بعد أن مجلس ناخبي مقاطعة بروارد غير من اتجاهه تحت ضغط مجموعة من المحامين الديمقراطيين تحت الاختبار المسجلين على قائمة حملة آل غور الانتخابية. فجأة، كان علينا التوجه إلى مدينة لوديرديل في مقاطعة بروارد.

انتقلت عملية إعادة فرز الأصوات إلى موقع أكبر، وهو مركز الأعاصير في مقاطعة بروارد. تم إحضار خمس عشرة أو عشرين طاولة طويلة إلى غرفة كبيرة الحجم بحيث يستطيع المتطوعون من الحزبين الجمهوري والديمقراطي الجلوس إلى هذه الطاولات والتدقيق في الأوراق الانتخابية بصورة مشتركة، الواحدة إثر الأخرى. علم مسؤولو المقاطعة أن أمامهم وقتاً محدداً كي يقوموا بمراجعة هذه الأوراق، ولهذا فقد كانوا يرغبون بإدخال أكبر عدد ممكن من الطاولات إلى تلك الغرفة. وإذا حدث واختلف متطوعو الحزب المعارض، الجالسون إلى إحدى الطاولات عن تقويم نية الناخب كما يظهر على ورقة الاقتراع، فإن هذه الورقة ستوضع جانباً من أجل أن تقرر المحكمة المكونة من ثلاثة أعضاء من المندوبين وضع هذه الورقة بواسطة الأغلبية. كان مجلس الناخبين مكوناً من اثنين من الديمقراطيين وجمهوري واحد (يمكنكم أن تعودوا بذاكرتكم إلى صورة المندوب الجمهوري بنظارته المتوضعة على رأسه، وعينيه الجاحظتين محدقاً في ورقة الاقتراع وهو يحملها باتجاه الضوء).

أعتقد أن الوقت كان قد اقترب من منتصف ليل أول يوم من أيام إعادة فرز الأوراق الانتخابية عندما اكتشفنا قضية تدعو إلى القلق - ومادة دسمة لقصة إخبارية. جاء إيد ماكنيللي المحامي الذي كان يعمل في إدارة بوش الأولى (وكذلك في إدارته الثانية)

إلى مقاطعــة بروارد للمساعدة في بعض القضايا القانونية. اقترب منا أحد المتطوعين في معسكـر بوش بعد أن توقفــت عملية إعادة الفرز في ذلك اليوم، وقــال: «يوجد شيء هنا، أعتقد أن عليكم أن تروه». مشى بنا باتجاه إحدى الطاولات التي كان يشرف عليها، وأشار إلى أرض الغرفة. كانت أعداد لا يستهان بها من مخلفات أوراق الاقتراع المُثقّبة (وتدعى: تشاد Chad) مبعثرة فوق أرض الغرفة.

وكما أصبح معروفاً لدى العالم في ذلك الشهر، ولأهداف انتخابية، أن مخلفات أوراق الاقـتراع المُثقّبة هي عبارة عن قطع صغيرة مستطيلــة الشكل من الورق تشبه قصاصات الـورق الملونة التي تنثر في المناسبات، وتتشكل عندما يحدث المرء ثقباً في بطاقة مخرمة. يمكـن أن تتخذ هذه المخلفــات أشكالاً مختلفــة؛ فمخلفات أوراق الاقـتراع المُعَلّقة تتصل بورقــة الاقتراع من واحدة من زواياها الأربع، والمخلفات المتأرجحة تتصل بورقة الاقتراع مــن زاويتين، أما المخلفات الثلاثية الأبعاد فهي متصلة بها من ثلاث زوايا. وهناك أيضاً المخلفات المنتفخة أو المنبعجة على شكل غمازة يظهر فيه بعض التثلم ربما تسبب به أحد الناخبـين الذيـن كانوا يحاولون الإدلاء بأصواتهـم، إلا أن المخلفات بقيت معلقة ومتصلة بالزوايــا الأربع. لم أعتقد يوماً أنني سأصبح خبيراً بمخلفات ورقة الاقتراع المثقبة، ولكن انتخابات سنة 2000 جعلت من ظاهرة المخلفات هذه قضية مهمة.

وبينمــا كنا نحدق في القطــع الورقية الصغيرة المبعثرة فوق أرضـ الغرفة، طلع علينا إيـد بفكـرة ذكية. قال: «يمكن اعتبار هــذه المخلفات دليلاً على وقــوع جريمة». فإذا كان الأشخاصـ المعنيون قد بالغوا في طريقــة إمساكهم بورقة الاقتراع، أو تعاملوا معها بشيء مــن اللا مبــالاة، أو - وهذا أسوأ بكثير - إذا تعمدوا تثقيب قطع من الأوراق بهدف تغيير نتائج الانتخابات، فإن ذلك يفسر وجود هذه المخلفات بكثرة على أرض الغرفة.

كان القــادة الديمقراطيــون المحليــون قــد غــادروا المكان في تلــك الليلــة. بحثنا عن المســؤول المحلــي عــن الانتخابات الــذي كان ما يزال موجــوداً في الوقت الــذي كانت فيه صناديــق الاقــتراع تسحب إلى مــكان آمن في غرفة خلفية لها نافــذة زجاجية كبيرة عند مدخلها الجانبي. حضر نائب العمدة لحراسة الغرفة. وبناءً على طلبنا، أمر المسؤول عن

الانتخابات بلم المخلفات المرمية على الأرض، وقام بوضعها في مغلف كتب عليه «دليل من مشهد الجريمة».

كان أفـراد حملتنـا ومؤيدونا قد تساءلـوا عن مصداقية إعادة فـرز الأوراق الانتخابية بطريقـة يدوية، باعتبار أن أوراق الاقتراع قد استخدمت مرة ثانية بعد أن تم تمريرها عبر الآلة مرتين. كانت حجتنا أن التلف والتمزق الناجمين عن الاحتكاك المزدوج يمكن أن يغيرا وجهة الصوت الانتخابي، أو يتسببا في سقوط المخلفات. ولدينا الآن دليل يدعم حجتنا.

بعـد التشاور مـع إيد، ذهبت إلى الصحفيين بهدوء صبيحـة اليوم الثاني كي أطلعهم على تطورات الليلة السابقة. سألتهم: «هل سمعتم بما حصل مساء أمس؟» عندما أجابوا بالنفـي، قمت بشرح مـا جرى. قلت: «استـولى مسؤولو الانتخابات علـى كمية كبيرة من المخلفات المتساقطة على الأرض في وقت متأخر من ليلة أمس». تابعت قائلاً: «يجب عليكم أن تسألـوا عـن مغلف، وضعوا تلك الأوراق فيه». كنت أعرف أنه في جو فلوريدا الانتخابي المحموم سنة 2000، سيتصدر الغلاف الممهور بعبارة «دليل من مشهد الجريمة» مختلف وسائل الإعلام.

دعوت إلى عقد مؤتمر صحفي بالتنسيق مع إيدي بوزولي. قام إيدي بعمل عظيم؛ كان يقف خارج المبنى الذي يحمل اسم «مركز الإعصار» بحروف واضحة، وهو يقول: «ضرب إعصـار مخلفات أوراق الاقتراع المثقبـة مقاطعة بروارد ليلة أمـس»، طارحاً أسئلة حول مصداقية عملية إعادة فرز الأصوات يدوياً برمتها.

بعـد يومين علـى ذلك، تم إيفـادي إلى مقاطعة بالم بيتش حيث كانـت عملية إعادة فـرز الأصوات يدوياً على وشك أن تبدأ هناك أيضاً. قمت بأخذ كيس بلاستيكي شفاف مملوء بكمية أكبر من المخلفات المتساقطة على الأرض من الليلة الثانية. رفض مسؤولو الانتخابات استلام كمية أخرى من المخلفات المتساقطة. لذا، فقد قمنا بذلك بأنفسنا، وكتبنا على الكيس عبارة «مخلفات أوراق الاقتراع المتساقطة من مقاطعة بروارد»، وكان عدد نتف الأوراق تلك يربو على المئة، وقد التقطناها من على السجاد والطاولات. رفعت

الكيس بيدي أمام الصحفيين عند وصولي إلى مدينة بالم بيتش، مثيراً أسئلة حول العملية من أساسها.

ظهر مارك راسيكوت، حاكم ولاية مونتانا، ومستشار بوش في برامج الأحد السياسة على شاشات التلفزيون في ذلك الأسبوع. كنت قد أرسلت له، بناء على طلب منه، الكيس الذي يحتوي على المخلفات المتساقطة. وصف محتويات الكيس بأنها «دليل واضح ودامغ» على «نعم مصداقية» عملية إعادة الفرز بطريقة يدوية.

شخصياً، كنت أعتبر عملية إعادة فرز الأصوات انتقائية، وغير عادلة، وأحياناً غير منطقية. فالسماح للمجالس الانتخابية التي تسيطر عليها غالبية ديمقراطية بتقرير مصير أوراق اقتراع متنازع عليها بالاستناد إلى ما تعتقد أنها كانت نية الناخب، لم يقنعني مطلقاً بأنه مسلك موضوعي. ففي مقاطعة بالم بيتش حيث كان المجلس الانتخابي يسابق الزمن لإكمال إعادة فرز الأصوات، كان كبير المحامين في حملتنا، جون بولتون (الذي أصبح فيما بعد المندوب الأمريكي الدائم في الأمم المتحدة في فترة إدارة بوش الثانية) وفريقه بمن في ذلك، مدعي عام ولاية فلوريدا مارك والاس الموجودين هناك قد ضبطوا المندوب الديمقراطي في المجلس وهو يوجه نواب العمدة لإحضار صناديق انتخابية محددة كي يتم إعادة فرز الأصوات الموجودة فيها. أين المشكلة؟ المشكلة في أنه كان قد تم الاتفاق على أن يتم اختيار الصناديق بطريقة عشوائية، إلا أن هذا المندوب كان يطلب إلى نواب العمدة إحضار صناديق كانت غالبية أصوات الناخبين فيها من الديمقراطيين - وبمن ثم كان هذا سيساعد في إضافة أصوات إضافية لآل غور.

بصراحة، أعتقد أن أركان حملة آل غور ارتكبوا خطأ استراتيجياً بسبب عدم دعوتهم إلى إجراء إعادة فرز الأوراق بصورة يدوية في كافة مقاطعات الولاية. كان من الصعب الاعتراض على إجراء مثل هذا الإجراء الذي لا يمكن وصفه إلا بالعادل.

على أي حال، وفرت لنا تلك المخلفات المتساقطة من أوراق الاقتراع المثقبة حججاً عظيمة لطرح تساؤلات حول انتقائية عملية فرز الأوراق بطريقة يدوية وذاتيتها. مع ذلك، استمرت عملية إعادة فرز أوراق الاقتراع لأسبوعين إضافيين. لم يشهد أحد مثل

ذلـك من قبل. بالتأكيد، لم يؤهلني أي شيء في خلفية حياتي السياسية كي أتوقع حدوث مثل هذا الأمر. أتذكر أنني عندما كنت في الصف الثالث الابتدائي، بقيت مستيقظاً حتى الساعة الثالثة والنصف صباحاً أتابع نتائج الانتخابات التي فازت فيها والدتي بمنصب المحافـظ بأكثر نتائـج الانتخابات تقارباً في تاريخ مدينة أوستن. كان ذلك يشكل خروجاً نـادراً عن المألوف بالنسبة لي. (فازت والدتي في عملية إعادة انتخابها بفارق هو الأكبر في تاريخ المدينة).

في اليوم الحادي والعشرين لمحنة إعادة فرز الأوراق، تم منحي إجازة أسافر فيها إلى المنـزل لقضاء عطلة نهاية الأسبوع. وفي الوقت الذي كنـت أنتظر اتصالاً يفيد بالحاجة إلى عودتـي إلى فلوريـدا، اتصل بـي آري فليشر، الذي كانت قد تمـت تسميته سكرتيراً صحفياً للمرحلة الانتقالية، من واشنطن وعرض علي منصب نائب السكرتير الصحفي للمرحلـة الانتقالية. عرض عليّ أن أكون نائبـه الأول إذا بقيت نتائج فلوريدا لصالحنا. قبلت العرض بسرعة.

وهكذا، فبدلاً من العودة إلى ولاية فلوريدا، توجهت إلى واشنطن لأبدأ العمل مع فريق المرحلـة الانتقالية. كان لدينا مقراً مؤقتاً تم تجهيزه سلفاً وضع بتصرفنا إلى حين إعلان فوز بوش بمنصب الرئاسة بصورة رسمية، وتخصيص مقر حكومي بالإضافة إلى التمويل اللازم من إدارة الخدمات العامة في واشنطن.

تحـول تركيـزي بسرعة إلى مساعـدة آري في الإدارة الصحفيـة ومعالجة العديد من القضايـا المتعلقـة بالمرحلـة الانتقالية. عندما صادقـتْ كاثرين هاريسـ أمينة سر ولاية فلوريدا على إعلان فوز بوش بولاية فلوريدا، كان ديك تشيني قد بدأ الإشراف على عملية انتقـال السلطة من مقر مؤقت قـرب منزله في مدينة ماكلين بولاية فيرجينيا، على تخوم واشنطـن. طلـب بشكل رسمي قيـام إدارة الخدمـات العامة بتسليم المفاتيـح إلى مكتب المرحلـة الانتقالية الحكومي قرب البيت الأبيض. لكـن إدارة الخدمات العامة التي كانت تحت سلطة البيت الأبيض، رفضت هذا الطلب. ولم يُسعِد هذا الرفض تشيني.

في الثـاني عشر من شهر كانـون الأول، ديسمبر، وبعد أن اتخذت المحكمة العليا قرارها المثير للجدل والقاضي بوضع نهاية لعملية إعادة فرز أوراق الاقتراع في ولاية فلوريدا، مبددة

بذلـك جميع الأسئلة حول النتائج، دعـت إدارة الخدمات العامة نائب الرئيس المنتخب إلى مناسبة صحفية في مكتب المرحلة الانتقالية. ولكن بما أنه كان ما يزال في فورة من الغضب بسبب الصفعة التـي تلقاها من قبل، طلب تشينـي من آري إرسال موظـف أدنى مرتبة - وكنـت أنـا ذلك الموظف - لاستـلام المفاتيح. كان الهـدف من ذلك إيصـال رسالة لإدارة الخدمات العامة.

لم تكـن لـديّ أدنى فكرة حـول طبيعة العمل الذي كنت سأقوم بـه. عندما وصلت إلى مكتـب المرحلة الانتقاليـة، تم اصطحابي في جولـة قصيرة، قمت بعدهـا بتسلم المفاتيح أمام حشد مـن الكاميرات التلفزيونية والثابتة. وبالرغم مـن أن الصحفيين المحتشدين كانـوا يتوقعون سماع كلمة مني، فإنني لم أقل سوى عبـارة: «شكراً لكم». أعتقد أن إدارة الخدمات العامة التقطت رسالة تشيني، وبدأ المسؤولون عنها منذ ذلك الحين القيام بكل ما يلزم لتعويض تشيني عن الإزعاج الذي تسببوا به له.

بعدها بأيام قليلة، كنت أقف في مكتبي الجديد وراء غرفة اللقاءات الصحفية — وهو مقـر خـالٍ إلا من اثنتين مـن الكراسي وجهـاز كومبيوتر. حدث كل ذلـك بسرعة كبيرة لدرجـة أنـه لم يتسنّ لي الوقت لاستيعـاب الحقيقة المدهشة أننـي الآن أعمل لدى رئيس الأمة الثالث والأربعين في الجناح الغربي من البيت الأبيض.

⌘ ⌘ ⌘

عمومـاً، قام بوش وأركان حملته بعمل جيد تمثـل في توضيح صورته أمام الرأي العام، والبدء في عملية تغيير صورة الحزب الجمهوري على الصعيد الوطني. تم انتخاب بوش بناء على خطة عمل واضحة - خفض الضرائب، وإصلاح التعليم، وتقوية الضمان الاجتماعي، وسياسـة دفاعية قوية، بالإضافة إلى تطوير القـوات المسلحة. كما تم انتخابه استناداً إلى صـورة شعبية واضحـة كنموذج مختلف مـن الجمهوريين - «محافظ عطـوف» قادر على فهـم احتياجـات ومصالح الطبقة الوسطـى، والطبقة العاملة، والطبقـة الفقيرة، ومهتم بتحقيقها، كما أنه جاهز للطلب إلى الحكومة التدخل لتحقيق ذلك إذا لزمت الحاجة.

وفي الوقـت الذي استلم بوش زمام السلطة - مدعوماً بشعور الارتياح الذي ساد الأمة بعـد الانتهاء من العملية الانتخابية الطويلة، وأيضاً بخطـاب غور الراقي الذي أعلن فيه

قبوله بقرار المحكمة – قطع بوش على نفسه عهداً بأنه سيقود الأمة إلى بداية جديدة بعد موسم ساده التهكم. كانت نيته على ما يبدو، أن يقوم بمد يده عبر الممر كما فعل في تكساس كي يؤسس لروابط من التعاون مع الديمقراطيين في الكونغرس، والأماكن الأخرى لتحقيق الأهداف التي يرنو إليها جميع الأمريكيين. وكانت الأيام الحافلة بالفضائح والمعارك الحزبية في واشنطن تشرف على نهايتها – أو هذا ما كنت أعتقده.

الأحداث التي وقعت في الشهور والسنين التي تلت، سوف تضع على المحك صدق نوايا بوش في إنهاء التجاوزات التي سببها عصر الصراعات الدائمة، وأيضاً عمق الالتزام الذي قطعه على نفسه في أن كل عضو من أعضاء إدارته سيكون ملتزماً بالمعايير الأخلاقية العالية.



5

الحملة الدائمة

بدأ التخطيط لمرحلة بوش الانتقالية بهدوء ومن دون ضجة قبل أكثر من سنة ونصف على موعد الانتخابات العامة. وقاد هذه المرحلة صديق عمر الرئيس الموثوق كلاي جونسون الـذي ساعدته خبرته في مجـال إدارة الأعمال جداً في القيام بهـذا الدور (تبوأ مناصب تنفيذيـة في شركات بـدءاً من شركة نيمان ماركوس وانتهاء بشركة فريتو لي). فقد شغل منصـب المدير التنفيذي للحاكم (وهذا المنصب يـوازي منصب رئيس الأركان) بعد أن انتقـل جو ألبو للعمل في إدارة الجهود المبذولة من أجل الانتخابات الرئاسية؛ وقبل ذلك، كان يشغل منصب مدير التعيينات خلال الفترة الأكبر من ولاية بوش كحاكم، مشرفاً على نحـو ثلاثة آلاف من التعيينات للمجالـس والمندوبين التي يقوم بها الحاكم. كان جونسون بارعـاً في القيام بتخطيط المرحلـة الانتقالية، وكان غير معروف بالنسبة لوسائل الإعلام ولعامة الناس، وكان له مساره الخاص البعيد عن مسار الحملة الانتخابية.

تبـين أن القـرار بشأن البدء بعملية التخطيط للمرحلـة الانتقالية في فترة مبكرة كان مفيـداً جـداً، خصوصـاً إذا أخذنا بعين الاعتبار الفـترة الانتخابية المـددة. ونظراً إلى أن التخطيـط الـذي قدّمه كلاي كان تفصيليـاً فقد استطاع بوش وفريقـه أن يقفوا على أرضـ صلبة، وينطلقوا إلى الفـوز بالرئاسة في وقت مبكر. (عمـل كلاي فيما بعد مديراً لموظفـي البيت الأبيض، ويشغل حالياً منصب نائب المدير لشؤون الإدارة في مكتب الإدارة والموازنة).

كان لأحد ملامح السياسة المعاصرة تأثير عميق على المرحلة الانتقالية، ربما من دون قصـدٍ أو وعيٍ من كلاي جونسـون كونه لم يكن له باعٌ في السياسية، ولم تكن له أي خلفية سياسية. أشير هنا إلى «الحملة الدائمة»، وهذه عبارة مختصرة تشير إلى الطريقة التي يعمل بها القادة السياسيون في هذه الأيام على امتداد 365 يوم في السنة، وسنة إثر أخرى

وذلـك بغية وضع إطار للدعـم الشعبي والسيطرة على مصادر هذا الدعم كوسيلة رئيسة للبقـاء في الحكـم. وبسبب القـوة التي تمثلها الحملـة الدائمة وحضورهـا الطاغي، فإن التنافـس علـى السلطة خلال سباق سنة 2000 لم ينتهِ بحفـل التنصيب، بل ولج ببساطة إلى حقبة جديدة - الحكومة.

لا أعتقـد أن أيـاً من كبـار مستشاري بوش قـام بتكريس جزء من وقتـه أثناء المرحلة الانتقاليـة لقراءة واستيعاب الدروس التـي يتضمنها كتاب 'الحملة الدائمة ومستقبلها'. أعلم أنني لم أقرأ ذلك الكتاب حينها. لكنهم لو قرؤوا هذا الكتاب، ربما كانوا اتخذوا على ضوء تلك القراءة خطوات تخفف من تأثير الحملة الدائمة، وتمنع حدوث بعض المشكلات التـي عصفت ببوش في لحظات حاسمة من فـترة رئاسته. بدلاً من ذلك، فقد استوطنت الحملـة الدائمة في البيـت الأبيض في عهد بوش منذ البداية، وكانت على درجة من القوة بحيث إنها ضمنت لعب دور رئيس في الإدارة.

صـدر كتاب «الحملة الدائمـة» في حزيران، يونيو سنة 2000، وقام بتحريره اثنان من الباحثين اللذين يحظيان بكثير من الاحترام، ويعملان في اثنين من مراكز التفكير النافذة في واشنطـن؛ وهذان المحرران هما نورمان أورنستايـن من معهد (إنتربرايز) ذي الميول المحافظـة، وتوماس مان من معهد بروكينغـز ذي الميول الليبرالية. يهدف هذا الكتاب في بعض أجزائه إلى المساعدة في إرشاد الرؤساء المنتخبـين المستقبليين وفرق عملهم أثناء التخطيط لاستلام السلطة في الفترة الانتقالية. هذا الكتاب يوضح من وجهة نظري أهم الظواهر الموجودة في واشنطن اليوم.

عندمـا تمـت صياغة عبـارة «الحملـة الدائمة» للمـرة الأولى (ربما كان بـات كادال أول مـن استعملهـا سنة 1976، وكان أحـد مساعدي كارتر) كما تشـرح مقدمة الكتاب، فإنهـا كانت تشـير إلى عملية ممارسة الحكم بطريقة تبني فيهـا الدعم الشعبي للإدارة وسياساتهـا، وتحافظ عليه. بهذا المعنى، تتحول الحمـلات السياسية الدائمة إلى وسيلة تستطيـع بواسطتهـا أي إدارة ممارسة تأثير دائم على الأمـة، طالما أن السياسات التي لا يفهمها الشعب أو يدعمها لا يمكن أن تستمر على المدى الطويل، أو يكون لها أي تأثير.

لكن المعنى الذي ترمي إليه عبارة «الحملة الدائمة»، والمبالغة في الطريقة التي تمارس فيها قد انحرفا إلى وجهةٍ مزعجة. فكما يشرح البروفسور هيو هيكلو المتخصص في الشأن الحكومي، في الفصل الأول من كتاب أورنستاين ومان فإن الحملة الدائمة كما تمارس اليوم هي «عملية مستمرة تهدف إلى السيطرة على مصادر الدعم الشعبي بحيث تشركه في عملية الحكم نفسها». بعبارة أخرى، لم يعد بالإمكان الآن التفريق بين شن الحملات وممارسة الحكم. إن الهدف من كتاب أورنستاين ومان، كما يلاحظ هيكلو، هو «شرح معنى الحملة الدائمة، واستيعاب كيف نشأت ولماذا، وتقويم نتائج قدرتنا على حكم أنفسنا بطريقة فاعلة، ولدراسة احتمال اتخاذ خطوات تهدف إلى التخفيف من آثارها الضارة».

إن فهم تأثير الحملة الدائمة على الحكم سواء في البيت الأبيض أو الكونغرس ضروري لاستيعاب كيف ضلت واشنطن طريقها، وكيف وقعت في شَرَكِ المشاحنات والحروب الحزبية الدائمة؛ وكيف، على وجه الخصوص، شردت إدارة جورج دبليو بوش بعيداً، وبقيت بعيدة جداً عن الدرب التي كان من المتوقع أن تسير عليها وذلك عبر المبالغة في استعمال أسلوب الحملة الدائمة وتكتيكاتها.

الحملة الدائمة هي مفهوم كان يمكن أن يثير حيرة وارتباك مؤسسي أمتنا. يلاحظ هيكلو أنهم عندما أسسوا نظامنا المبني على الديمقراطية التمثيلية كما هو منصوص عليه في دستورنا، فإنهم كانوا يتصورون نظاماً مثالياً للحكم يكون فيه المُشَرّعون الحياديون والمسؤولون التنفيذيون الذين يتمتعون بدرجة عالية من الذكاء قادرين على وضع سياسة متحررة من ضغوط مجموعات المصالح والولاءات الحزبية. كما افترضوا أن أعضاء الكونغرس يجب أن يكونوا مواطنين بعقلية رجال الدولة بحيث يخدمون بلادهم لعدة أشهر في السنة، ويقومون بالاهتمام بمزارعهم، أو أعمالهم، أو مهنهم بقية فترة السنة. كانوا يرون الأحزاب ضارة، وكانوا يأملون في أن لا تصبح الأحزاب مظهراً من مظاهر النظام الأمريكي (كلمة «حزب» ليس لها وجود في الدستور الأمريكي). كما تعمدوا التركيز على أن لا يتم اختيار أعضاء مجلس الشيوخ والرؤساء بواسطة الصوت الشعبي،

بـل بواسطـة نخبة من المشرعين في كل ولايـة بالإضافة إلى الهيئـة الانتخابية. ولو حدث أن أدى ذلـك إلى عزلهـم عن الرأي العـام، فسيكون هذا أفضل. اعتـبرت لغة الخطاب السائـدة في القرن الثامن عشـر في مجملها أن الناس هم «الغوغـاء»، أي أنهم مجموعة من الأفراد المحدودي المعـارف، والعاطفيين، والمهتمين بمصالحهم الخاصة؛ ومن ثمَّ، لا يمكـن الوثوق بقدراتهم على تقرير شؤون قضايا الدولـة العليا. وكان لفكرة إدارة أعمال الحكومة بطريقة تخدم المصالح الشخصية لهذه المجموعة من الغوغاء أن تثير الهلع لدى رجال مثل واشنطن، وجيفرسون، وماديسون، ومونرو، وآدامز.

أما في عصرنا الحالي بالطبع، فقد تغيرت اللعبة السياسية بشكل دراماتيكي. فالشعب أصبح منخرطاً بشكل أعمقَ، وأكثر مباشَرَةٍ في الشأن الحكومي من أي وقت مضى. ويعد هـذا أمراً جيداً في كثير من النواحي. الحكومة أضحت بالتأكيد أكثر استجابة لحاجات الشعـب مما كانت عليه في القرن الثامن عشر. لكن بعضـ الأساليب التي يفترض بأنها تعكـس رغبات «الشعب» في العمـل الحكومي (بغض النظر عن وضوحها) هي ملتبسة في أفضـل الأحوال. كلنا على علم بوجـود الكثير من المشكلات. تمارس مجموعات المصالح الحزبيـة الضيقة ومجموعات المصالح الخاصة الأخرى الضغط على الكونغرس لإصدار تشريعـات تصب في صالـح أعضائها، وليسـ في صالح المواطنين بشـكل عام. تستخدم استطلاعـات الـرأي ليسـ فقط من أجل قـراءة المزاج العـام للناخبـين وتوجيه القادة السياسيـين نحو الطريـق التي تؤدي إلى إيصال رسائلهم، بـل أيضاً، في بعض الأحيان، مـن أجـل تقرير السياسات التي سـوف يتبنونها. فالجمع الدائـم للتبرعات الذي يعتبر ضرورة في عصر يلعب فيه الإعلان التلفزيوني الباهظ التكاليف، والأشكال الأخرى من وسائـل الاتصال المكلفة دوراً مهماً في النجاح السياسـي، يوحد بين مجموعات المصالح القويـة والمتبرعين الأثرياء من جهة، وبين الأحزاب والسياسيين من جهة أخرى بطريقة غالباً ما تترك احتياجات المواطن الأمريكي العادي في العراء.

تركـز عملية الحكم بموجب هذا النظام الجديـد بشكل رئيس على «التحكم بمصادر الدعـم الشعبي»، كما كتب هيكلو؛ وذلك عن طريـق استخدام وسائل الإعلام الإخبارية،

والمنابـر السياسية، والمواقـع الإلكترونية الشهيرة، والإعلانات المدفوعـة الأجر، وبرامج الإذاعـة الحوارية، والمنظمات المحلية، والدعاية التـي تبثها مجموعات المصالح لاختلاق قصصـ تصـب في مصلحـة الشخصـ ذي الصلـة. تتحـول ممارسة الحكـم في عصر الحمـلات الدائمـة إلى نتاج للحملات بدلاً مـن أن يكون الأمر عكسـ ذلك. فمشروعات القوانين تكتب أحياناً ليس لتسويغ إنشاء نقاط للحديث تعزز من موقع الحزب الذي ينتمي إليـه ذلك الشخص فقـط، بل أيضاً لإرباك المعارضة بغية تحسـين العمليات الحكومية، أو لتحقيـق العدالة. المبادرات الرئاسيـة بدءاً ببرامج الرعاية الصحيـة وانتهاءً بالقيام بغـزوات خارجيـة يتم التخطيط لهـا، وتسميتهـا، وتوقيتها، والقيام بهـا في الوقت الذي تكون العين (وربما العينان) مركزة على موعد الانتخابات. كما يتم إقرار الميزانيات ليس فقـط من أجل توفير الحاجات الملحة للمواطنـين ووضعها في مقدمة الاهتمامات، بل من أجـل مكافأة الموالين السياسيين، ومعاقبة الخصوم، والفوز بأصوات الناخبين في المناطق والولايات الساخنة انتخابياً عندما يقترب شهر تشرين الثاني، نوفمبر.

إن اختراق السياسة للحكومة كان أحد مظاهر الديمقراطية منذ البداية. ولكن منذ النصـف الثاني من القرن العشريـن، أصبحت أكثر شهرة وأكثر انتشـاراً. كانت إدارة ريتشارد نيكسون - وهو أول رئيس بدأ بمأسسة العمليات السياسية الدائمة داخل البيت الأبيض - نموذجاً للعديد من السقطات التي نتجت عن الحملات الدائمة بقائمتها التي تحـوي أسماء الخصـوم، وسوء استخدامها للأموال العامـة (IRS)، ولوزارة العدل من أجل غايات سياسية، بالإضافة إلى الحيل القذرة المرتبطة بفضيحة ووترغيت التي أدت في النهاية إلى انهيار تلك الإدارة.

يمكـن للمبالغة في الارتهان لعقلية الحملات الدائمة أن يعرض الإدارة إلى نوع من الشلـل. فقـد أدت إلى انهيار إدارة نيكسون، وكادت تودي بـإدارة كلينتون إلى التهلكة بالرغـم مـن - أو ربمـا بسبـب - أن المراسل الإعلامـي لصحيفة واشنطـن بوست، هـوارد كورتز أجرى اتصالات مع «أبواق السلطة (spin doctors)، ومع الآلة الدعائية المُضَمّخـة بالزيت». وكما سأبين لاحقاً في هذا الكتـاب، فقد تسببت بأذى كبير للبيت

الأبيض في عهد بوش الذي اعتنق فكرة الحملات الدائمة وقام بمأسستها أكثر بكثير من أي عهد سبقه.

القوة الثانية التي تشكل البيئة السياسية هذه الأيام تكمن في ثقافة الفضائح التي لا تتوقف أبداً؛ وهي الثقافة التي ولدت من رحم الحملات الدائمة التي كانت جذورها تضرب في عمق أرض واشنطن. هذا الإرث هو امتداد لرئاسة نيكسون كما وصفه بوب ودوورد الذي كان أحد الصحفيين الشباب المتصفين بالعناد، وهو من كشف محاولات التضليل التي قام بها البيت الأبيض في عهد نيكسون. قدم ودوورد عرضاً موثقاً لتأثير ثقافة الفضائح على الرؤساء الذين أعقبوا نيكسون بدءاً بجيرالد فورد وانتهاء بكلينتون في كتابه المعنون: «الظل: Shadow».

وكما يشرح ودوورد، فقد أدت فضيحة ووترغيت إلى خلق حالٍ عميقة من عدم الثقة في البيت الأبيض، وإلى رأيٍ شديد التهكم حول السياسة برمتها. طرحت جملة من الأسئلة المباشرة على بساط البحث. هل من الممكن أن يتورط رئيس آخر في قضية جنائية؟ هل يقوم كل رئيس بالتخطيط بشكل سري خلف الأبواب المغلقة كما فعل نيكسون؟ برزت إلى الوجود صناعة مبنية على الفضائح من ذلك عمل محققي الكونغرس الجريئين، وصحفيي التحقيقات، والمدعين العامين من ذوي العزم، والمحققين الأخلاقيين. يقول ودوورد: «إن ممارسة الخداع والعرقلة التي يمارسها الرؤساء لا يمكن أن يتم غض الطرف عنها بعد الآن». إلا أن سلسلة التحقيقات التي لا تنتهي، لم تضع حداً للخداع في واشنطن، بل حولتها إلى شكل آخر من أشكال لعبة حرب متعمدة لها أدواتها على جانبيّ خط التماس بين الحزبين، وداخل الحكومة وخارجها.

يشير ودوورد إلى أنه من المثير للدهشة أن أحداً من الذين تعاقبوا على خلافة نيكسون لم يستطع «أن يستوعب بشكل كامل عمق عدم الثقة» الذي خلفه نيكسون وراءه. تم التغاضي عن تنامي الكثير من الجدل ذي المغزى، وغير ذي المغزى في هذه البيئة من الاستفسارات التي تناقص فيها حجم الثقة بدرجة كبيرة، والتي تحول بعضها إلى فضائح سيئة السمعة، ولازمَ المشهد لزمن طويل. كانت هناك فضيحة حجب تفاصيل الصفقة

كافة التي اعتُقِدَ أن فورد رفضها من أجل منح نيكسون العفو؛ وهناك أيضاً اللغط الذي دار حول بيرت لانس في عهد كارتر، وفضيحة إيران - كونترا ، ورفض ترشيح روبرت بورك في عهد ريغان، وتورط بوش الأب في فضيحة إيران- كونترا (داخل الأنشوطة أو خارجها)، وسلسلة الفضائح الأقل أهمية بدءاً من فضيحة باسبورت غيت وترشيح جون تاور، وانتهاء بالتورط المزعوم لابن بوش، نيل، في فضيحة قروض المدخرات. وأخيراً، هناك السلسلة التي لا نهاية لها من اللغط والفضائح التي حاصرت كلينتون بدءاً بوايت ووتر وانتهاء بلوينسكي.

ويختم ودوورد بالقول إن كل واحد من بين هؤلاء الرؤساء أخفق في استيعاب اثنين من الدروس الأساسية التي يمكن استخلاصها من فضيحة ووترغيت:

أولاً، إذا كانت هنالك أنشطة مشبوهة، قم بإعلان الحقائق مهما كان نوعها، في أول مناسبة، وبشكل كامل. ثانياً، لا تدعْ مجالاً للتحقيقات التي يمكن أن تفرض من أي جهة خارجية، والتي يمكن أن يديرها مدعون عامّون، أو رجال كونغرس أو صحفيون أن تتحول إلى حال دائمة وصلبة من الشكوك والحروب.

وبما أن أحداً لم يعرْ أياً من هذين الدرسين اهتماماً، وبما أن الفضائح المثيرة لكثير من اللغط جرفت في طريقها حياة العديد من ضحاياها، كان لا بد للشكوك المتزايدة والمعارك الحزبية التي نجمت عن ذلك من تقزيم موقع الرئاسة إلى درجة معينة. فقد صب الرؤساء الزيت على نار هذا اللغط بسبب اختيارهم عدم الوقوف في وجهها بشكل مباشر وواضح؛ وهم بذلك زادوا من سعير دائرة الانتقام والعقوبات، في الوقت الذي سعى قادة الكونغرس من الحزبين إلى جر الرأي العام إلى موقع يخدم مصالحهم. وكانت النتيجة ولادة ثقافة مدمرة قوامها سلسلة لا تنتهي من الفضائح.

تقودني تجربتي وانخراطي في العمل السياسي إلى الاستنتاج بأن الرؤساء والدوائر الصغرى المرتبطة بهم تعلموا في واقع الأمر بعضاً من الدروس الخاطئة. فقد تبنوا مقاربة تهكمية في تعاملهم مع ثقافة الفضائح. فقد أدى بهم الخوف من الإحراج السياسي على المدى القصير بشكل لا إرادي إلى محاولة وضع اليد على الحقيقة وإخفائها وتزييفها.

ارتـأى كبار مستشاري الرؤساء أن وظيفتهم تتمثل في حماية الرئيس، وجعل هذا الموضوع فوق أي اعتبار. ولذا، فقد قاموا ببناء جدار من الحماية حول المكتب البيضاوي، وتأكدوا من أن الرئيس معزول بما يكفي، ويفضل أن يكون غير مدرك للجانب الآخر، الأكثر مدعاة للنفـور في عـالم السياسة. وعندما يثـور اللغط، فإنهـم يقنعون الرئيسـ باتخاذ خططاً دفاعية. لكن لا بد لهذا الأسلوب أن يؤدي إلى وضع سمعة الرئيس على محك التحقيقات، ويسمـح لآلة الفضائـح أن تفرض الشـروط التي تحدد بموجبها مدة هـذا اللغط ومداه. وهكـذا، فـإن السؤال المركـزي يصبح على الشـكل الآتي: «ما الـذي كان الرئيس يعرفه، ومتى عرفه؟» لكن من المثير للسخرية أنهم بينما يحاولون حماية أنفسهم، يسبب الرؤساء الأذية لشرفهم وكرامتهم، وغالباً ما يضعون موقعهم الرئاسي في دائرة الخطر. الجواب علـى كل ما تقـدم، وكما سأبـين لاحقاً في هذا الكتـاب، يكمن في قيـادة رئاسية مسؤولة ومبدئية.

العنصـر الجوهـري الثالث في بيئة واشنطـن الحزبية المشبعة بالمـرارة، الذي يشكل جـزءاً لا يتجزأ من عملية الإفراط في ممارسة الحملة الدائمة، وثقافة الفضائح العميقة الجذور والذي يتجلى في الأسلوب الذي لا يعرف الرأفة، والمتمثل بشعار الفوز بأي ثمن، هو مـا يوجه العديد من السياسيين ومستشاريهـم في ممارسة الحكم بطريقة يضمنون فيها الدعم الشعبي ويسخرونه لخدمة مصالحهم - وهو ما يدعى بفلسفة السياسة كحرب.

كان لا بـد مـن ظهور الحملات الدائمـة وثقافة الفضائح من أن يـؤدي إلى استفحال العداوة بـين الحزبين. السبب الذي حدا بها للتحول إلى حـروب عقائدية (أيديولوجية) شاملة في عقد التسعينيات كان جملة من المفاصل التاريخية. حتى قبل فضيحة ووترغيت، كمـا حللها بشكل مقنـع، لاني ديفيس، المستشـار الخاص السابق للرئيسـ كلينتون، فقد ساعدت ثقافة الحروب التي وقعت في عقد الستينات في إطلاق هذا النوع من الثقافة.

في كتابـه الموسـوم «الفضيحة: Scandal»، يتحـدث ديفيس عـن المؤمنين الحقيقيين «باليمـين الجديد»، والذين بدؤوا يسيطرون على الحزب الجمهوري على المستوى الوطني في سنـة 1964. وكانوا يرون الليبراليين «أعداءً ثقافيـين خانوا القيم الأمريكية، ومن ثم يجب القضاء عليهم». شهدت الحقبة نفسها ظهور التطهيريين الأيديولوجيين من «اليسار

الجديـد». تبنى هؤلاء سياسات إصلاحيـة ثورية (راديكالية)، وزرعوا الخوف في الوسط الأمريكـي بالكلام الإنشائي عن الثورة، والـذي استخدموه للتعبير عن غضبهم بسبب ما كان يجري في فيتنام، والعلاقات العرقية، والثقافة السائدة بشكل عام. لكن طرفي النزاع مـن «اليمين الجديد» و«اليســار الجديد» ذهبا أبعدَ بكثيرٍ في تشددهـم الأيديولوجي من حاملي لوائيِّ المعايير المحافظة والليبرالية التقليديين. وكما كتب ديفيس:

كانـت النتيجة أنـه بحلول نهاية عقد الستينات، ومع نهايـة الانتخابات الرئاسية سنة 1972، كان الحزبان تحت خطر أن يتم السيطرة عليهما من قبل التطهيريين العقائديين الأيديولوجيـين الذين شخصنوا خلافاتهـم السياسية ضمن إطار مـن الكراهية والنقد اللاذع. تم إنشاء مقبرة خطيرة جديدة في الثقافة السياسية الأمريكية. فبالنسبة لليمين الجديد ولليسار الجديد، لم يعد كافياً أن تهزم خصومك السياسيين وتنتقد سياساتهم، أضحى الآن من الضروري أن تقوم بتدمير المعارضة، وأن تصف سياساتها بالشريرة.

كانت دوامـة الهجوم والانتقام المتجذرة في الكم الهائل مـن اللغط والفضائح البادي للعيـان، والذي أعقب فضيحة ووترغيت يمثـل أيضاً لحظات مفصلية إضافية، كما يشير ديفيـس. لقد كانت عملية تمزيق بيرت لانـس إرباً إرباً، وهو مدير الموازنة في عهد كارتر، تمثل جزئياً انتقام الجمهوريين رداً على فضيحة ووترغيت. ومثلت هزيمة المرشح روبرت بورك لمنصب قاضٍ في المحكمة العليا بسبب الهجمات السلبية والتسريبات انتصاراً كبيراً للديمقراطيين. عاد الجمهوريون وهم يصبون جامَّ غضبهم على زمن رئاسة كلينتون. لم تكن هناك أي مؤشرات على توقف مثل هذه الماحكات.

يركـز ديفيس الذي ينتمي إلى الحزب الديمقراطي على حادثة بورك التي أطلق عليها وصـف الحادثـة الرئيسة التي أشعلت أكثر مظاهر ثقافة الفضائـح وسياسة «أمسكت بك متلبسـاً» فظاعةً. لم تكن القضية تتعلق بمسألـة ما إذا كانت هناك أسباب وجيهة للوقوف ضد تعيين بورك في أعلى محكمة في بلادنا. أعرب ليبراليون وخبراء في القانون الدستوري عن قلق فلسفي مشروع، وأثاروا أسئلة حول ما إذا كانت مزاجية بورك تؤهله لشغل منصب قاضٍ في المحكمة العليا؛ وكانت في مجملها نقاط وجيهـة تستوجب نقاشاً عقلانياً حولها.

لكـن، كما يشـير ديفيس، تجـاوزت التكتيكات التـي استخدمت لاستبعـاده كل الخطوط. فالتضليـل الإعلامـي، والاتهامات المزيفـة، والتسريبات التي تخـدم المصالح الذاتية من أجل مكاسب سياسية – وهي جميعها جزء من الجانب المبتذل من عالم السياسة في يومنا هذا – أدت دوراً كبيراً في خسارة ترشيح بورك. فالليبراليون الذين قادوا الجهود من أجل منع هذا الترشيح، ربما حاولوا تعليل تكتيكاتهم بالقول إنها كانت ضرورية، وأنها ببساطة تمثـل قواعـد اللعبة في واشنطن – عقلية السياسة كحرب. لكـن المحافظين كانوا يتميزون من الغيظ، لن ينسوا الطريقة الماكرة التي أسقط فيها الليبراليون بورك، حتى أنهم نحتوا فعلاً جديداً يرمز مصدره إلى إستراتيجية الهجوم الماكر أسموه «البوّركة Borking».

بالعـودة إلى الماضـي، أعتقد أن انتخابـات الرئاسة سنة 1988 كانـت تشكل منعطفاً مهمـاً. فانـا لا أذكر أن حملة وطدت العزم على إسقـاط مرشح كما حاولت حملة المرشح جورج هيربرت ووكر بوش القيام به. اعتقد مستشاروه الإستراتيجيون أنه، وفي الوقت الذي كان مرشحهـم متخلفاً جداً عن خصمه في استطلاعات الرأي، ليس بالإمكان الفوز عبر إتبـاع مناظرة شريفة حول القضايا الأساسية. قاموا بـدلاً من ذلك بتطوير إستراتيجية محسوبة تتمثل في أن يقوموا بهجوم يركز على المناحي السلبية عند خصمهم، لا علاقة له بتقـديم صورة بنّاءة لمرشحهم، بل بفعل كل ما كان ممكناً لتشويه صورة خصمهم مايكل دوكاكيـس. كانت تلك الحملة، وبالاستنـاد إلى كل المعايير الموضوعية، مليئة بالمغالطات، وتشويـه الصورة، وكل مـا يمثل الحضيض في السياسة، متهمـة دوكاكيس بكل ما يتخيله المـرء بدءاً من منح إجازات خـارج السجن لمجرمين خطرين، وانتهاءً بكره التعهد بالولاء (الإشـارة هنا إلى أنه كان غير وطني). لقد كانت هذه الحملة كما عبر عنها كل من بيتر وتـوم ماثيـوز غولدمان في كتابهمـا الموسوم «السعي نحو الرئاسـة: The Quest for the Presidency» بمثابـة «تقطيـع أوصالٍ منظم لمايكل دوكاكيس»، مبنـيٍ على «إستراتيجية الأرض المحروقة».

كان بوشـ الأب يؤمـن بالتأكيد بالمدنية والشـرف. ويشهد سجلـه وسلوكه الشخصي بذلـك؛ وهـو من أشرف وأنبـل من التقيتهم في حياتـي. لكنه أثناء حملـة انتخابات سنة

1988، أذعن كلياً لبعض مستشاريه، ومن بينهم روجر إيليس والمرحوم لي أتواتير اللذين كان مصممين على الفوز بأي ثمن (ضمن معايير القانون). أنا واثق من أن الكثير من بين المحافظين عدوا ذلك جزءاً من اللعبة، وأنه كان ضرورياً للوصول إلى الخاتمة الصحيحة. لكن الدم الذي سال على الرصيف في نهاية معركة لئيمة في الشارع السياسي، ومن طرف واحد بين بوش ودوكاكيس سال أيضاً في ممرات الكونغرس. كانت دوافع اللغط والفضائح التي أحاطت بالبيت الأبيض في عهد الرئيس الحادي والأربعين تعود جزئياً إلى الرغبة في معاقبته جراء ما سمح به أثناء حملته الانتخابية. فقد تم تبني قواعد جديدة تنظم ممارسة «السياسة كحرب» بين الديمقراطيين والجمهوريين على حد سواء.

بحلول سنة 1992، شعر كلينتون ومستشاروه بأنهم تعلموا الدرس من حملة سنة 1988: قم بالرد على كل هجوم يوجه ضدك، واجهْ محاولات تشويه الصورة والمغالطات حول سجلك بإتباع الأساليب نفسها ضد الخصم، استخدم قواعد اللعبة التي يستخدمها الخصم نفسها؛ ولكن قم بذلك بشكل أفضل. اشتهرت حملة الآلة الحزبية لكلينتون منذ بداية حملة سنة 1992 بأساليبها التي تنزع نحو الهجومية ودفع الخصم إلى الوراء، وبطريقتها الذكية، وأحياناً غير الذكية في إرهاب الصحفيين، وقدرتها الفائقة على اللف والدوران، وسرعة ردودها على الاتهامات. لقد حوّلَ الفيلم الوثائقي المثير للإعجاب بعنوان «غرفة العمليات الحربية: The War Room» مناصريْ كلينتون وهما جورج ستيفانوبولوس وجيمس كارفيل إلى نجمين إعلاميين، وهو يظهر للعالم كيف أن فريقاً بارعاً ذا عقل بارد يدير حملة انتخابية، يستطيع الإمساك بمفاتيح الأخبار، ويساعد في بلورة آراء ملايين من الناس وتوجيهها حيث يشاء.

أي حزب من الحزبين يتحمل القدر الأكبر من اللوم لنشوء فلسفة «السياسة كحرب»؟ هذا سؤال في غاية الأهمية ويتطلب مساحة كتاب مطولة للإجابة عليه. هناك شيء واحد مؤكد: وهو أن فلسفة السياسة كحرب كانت تتطور بالتدريج على مدى عقود، وأن القادة المنتخبين في كلا الحزبين يتساوون في تحمل المسؤولية.

هنــاك من يضــع المسؤولية الرئيســة على عتبات وسائـل الإعلام. لكننــي لا أتفق مع هــذا الرأي. صحيــح أن وسائل الإعلام لهــا مشكلاتها، وأكثرها لفتــاً للأنظار يكمن في مشاركتها في تأجيج المعارك العقائدية (الأيديولوجية) نظراً لتعطشها الدائم إلى تصيد أشخاص أو قصص تقتات عليها. لكن قادتنــا المنتخبين يملكون مفاتيح أعلى السلطات، ويتحملون من ثم المسؤولية الأكبر عنها، وأظن أن هذا ما يريده ويتوقعه معظم الأمريكيين منهم القيام به. بدلاً من ذلك، اختار أغلبهم السير في طريق ممارسة «السياسة كحرب» المدمرة، وذلك لتحقيق أهدافهم السياسية المباشرة والقصيرة المدى.

في مرحلــة رئاســة كلينتــون، والعقلية التــي قادها نيــوت غينغريتشــ، التي تحكمت بالحــزب الجمهوري، تفاقمــت الحملات الدائمة، وثقافة الفضائــح التي لا نهاية لها في الأفــق، والسياســة كحرب كما لم تتفاقم في أي وقت مضــى. وأفرز كل ذلك حرباً حزبية شاملــة. ليس عليّ سوى القيام بالإشــارة إلى بعض الأحداث المخجلة في تلك الحقبة كي أذكركم بالأسباب التــي أدت إلى تشويش المواطنين، وشعورهم بالازدراء، ووقف التقدم باتجــاه مواجهــة مشكلاتنا الوطنية، وتمريــغ سمعة واشنطن في الوحــل: فينس فوستر، ووايــت ووتــر، وترافيل غيــت، وفايل غيت، وإعاقــة غينغريتش لأعمــال الحكومة، وباولا جونــز، ومونيكا لوينسكي، و«الكلــب الذي هز ذيله»، والعفو الممنوح لمــارك ريتش. يا لها مــن قائمة من الإرباكات على الصعيد الوطني - بعضها موثق، وبعضها الآخر غير موثق - سبّبَ في تأجيجها عاملان: يتمثل الأول في غياب عنصر الصراحة والصدق من البيت الأبيضــ، ويتمثــل العامل الثــاني في التصميــم ذي المبعث الحزبي على تدمــير الأعداء السياسيين بأي ثمن!

بحلــول انتخابات سنة 2000، أصبحت الحمــلات الدائمة وكل السلبيات المرتبطة بها تمثــل واقعاً راهناً بالنسبة لفريق كلينتــون، والكونغرس، وواشنطن. أصبح البيت الأبيض في عهــد كلينتون يمثل هــذا الأسلوب في الحكم عبر الحملات التــي لا تنتهي، والتي تمت مأسستهــا بطريقــة لم يسبــق لها مثيل. كانــت هي الطريقــة المقبولة للقيــام بالأنشطة. استوعــب أغلــب الأشخاص العاملــين في السلك الحكومي والحملات فكــرة أن الإمساك

بالخيوط السياسية جزء مهم من الأداء الوظيفي - خصوصاً في مناخ تسوده الحرب الحزبية. لم يعيروا إلا النذر اليسير من الاهتمام لتأثيره الإجمالي على السياسة الوطنية باستثناء اعتصار الأيدي بين الحين والآخر تعبيراً عن الشكوى، والتنهدات غير المجدية حنيناً إلى الأيام الخوالي.

تواطأت وسائل الإعلام الوطنية مع هذا التوجه بحيث انقضّت المحطات الإخبارية التي تبث على مدار الساعة على كل فضيحة، وعلى كل صراع، بغض النظر عن أهميته أو عدمها وذلك لملء أوقات البث على الهواء، وتحريك القِدْرِ المحشو باللغط لجذب اهتمام المشاهدين. وأصبحت الأخبار السياسية تماثل تغطية الأحداث الرياضية التي تتناول «ألعاب الأسبوع» المسلية، والتحليل الفوري، والتركيز الدائم على الفائزين والخاسرين، وعلى الأبطال وكبوش الفداء. كما لم يلتزم العديد من النقاد بالتحليل الموضوعي للأحداث؛ بل قاموا بتشجيع أحد الطرفين، وأطلقوا أصوات الاستهجان ضد الطرف الآخر.

وعندما اندلعت الحرب الحزبية على هذا النطاق الواسع، كانت النتائج مدمرة جداً مسببة أضراراً لا تُمْحى لخطابنا السياسي الوطني. أضحت الهجمات السلبية الشرسة، وتزييف الحقائق، وحركات اللف والدوران، والشائعات التي لا أساس لها من الصحة، وإطلاق المعلومات المضللة سائدة في أوساطنا. تأصّلت ثقافة عناوين الأخبار، ولسع السياط الكلامية التي تحظى بتغطية واسعة في وسائل إعلامنا في تلك الأرض اليباب. لم يعد يُلقى أي بالٍ يذكر للتوضيحات، كما أن المعلومات التي يتقدم بها الطرف الآخر يضرب بها عرض الحائط، أو لا تحظى بأي اهتمام؛ وتتعرض القضايا المعقدة إلى تبسيط مبتذل في الغالب ضمن سياق الغالب والمغلوب، كما تتصور بمنطق الأبيض مقابل الأسود. ويسود في غالب الأحيان الجانب الذي يدير بفاعلية أحداث القصة، ويتم وضعه في موقع الهجوم - بغض النظر عن وجود فوارق واهية أحياناً، وتجاهل الحقائق الدامغة. فالخداع يلقي بالحقيقة جانباً.

أعتقد أن معظم الذين انخرطوا في تلك الطرق الملتوية من طرفي النزاع الحزبي، بمن فيهم القادة المنتخبون، هم أشخاص طيبون بالأساس، إلا أنهم وقعوا فريسة للطبيعة

المدمـرة للعبة في واشنطن. ولكن بما أن عقلية المناورة أصبحت تمارس على نطاق أوسع، وأضحـت أكثر قبولاً، فـإن ثقافة جديدة بـدأت تتطور كنتيجة للحـرب الحزبية الشاملة – ثقافة الخداع.

صن تزو، هو ضابط صيني قديم عُرِفَ بوثيقته العسكرية الموسومة: «فن الحرب: The Art of War» كتبهـا قبل عدة قرون قبل ولادة السيد المسيح. إنها واحدة من أقدم الكتب التي تتناول الإستراتيجية العسكرية، وأكثرها شهرة في العالم. وكان لها أيضاً تأثير عارم على عمل القيادة والحملات السياسية بسبب الرؤى الإستراتيجية التي تطرحها.

لم أعد أذكر اسم ذلك الإستراتيجي المتخصص في الشؤون السياسية الذي نصحني بقراءة هذا الكتاب منذ عدة سنين، لكن مقطعاً ذا صلة من الكتاب يشير إلى أن «الحروب جميعهـا مبنية على فن الخداع». يتابع هذا الكتاب مناقشة الطرق العديدة التي تستخدم الخداع عند التحضير لخوض المعركة، وهي طرق تشبه مثيلاتها المتبعة عند القيام بحملة انتخابيـة بغية الفوز بمنصـب، أو من أجل ممارسة السلطة عندمـا يتبوأ المرء المنصب. حتـى أن صن تزو يشير إلى أن الإستراتيجيـة العسكرية الفعَّالة تتضمن ليس فقط خداع العـدو، بل أفراد جيش القائد نفسـه أيضاً، بحيث يدفعهم إلى إطاعة الأوامر من دون أن تكون لديهم المعرفة الكاملة بالمقاصد الحقيقية لقائدهم.

تهـدف الحرب حرفياً إلى تدمير الأعداء. ربما كان من المنطقي استخدام الخداع في هـذا السياق، طالما أن إلحاق الأذى بالعلاقـات ليس سوى ثمن بسيط يتعين على المرء أن يدفعـه إذا تحـول الصراع من أجـل البقاء إلى مسألة حياة أو مـوت. في السياسة، هناك أمثلـة محـدودة وغير ذات شـأن يمكن أن يكون الخـداع فيها مقبولا؛ علـى سبيل المثال، عندمـا يزعم أركان إحدى الحملات أن حملتهم أكـثر نشاطاً مما هي عليه في الواقع مع بدايـة العملية، فإنهم بذلك يعطون انطباعاً خادعـاً لأركان الحملة المضادة يدفعهم إلى زيـادة الإنفاق والموارد في وقت مبكـر. لكن ممارسة إستراتيجية الخداع على نطاق واسع يشمل السياسة والحكم، فإنها خطوة مبالغ فيها.

لسوء الحظ، أصبحت مقاربة صن تزو المعيار المتبع في عالم السياسة؛ ذلك أن الخداع يعد في هذه الأيام ضرورياً لإلحاق الهزيمة بأركان الحملة المضادة، وللوصول إلى الحكم أيضاً. اخترق هذا الأسلوب الذي يطلق عليه وصف «كل شيء مسموح به» عالم الحملات السياسية، وعَبرَ بشكلٍ طاغٍ إلى ضفة الحكم، خصوصاً عندما تكون الغنائم كبيرة. أصبحت واشنطن نتيجة لذلك، مرتعاً خصباً للخداع، وحقلاً تُغتالُ فيه الحقيقة.

كونوا على ثقة من أن ممارسة الحكم لا بد لها من أن تحتوي على عناصر عدائية. سوف يكون الناس والمجموعات دوماً على خلاف حول مسألة الاستخدام الصحيح لمصادر الحكم المحدودة. لكن، هل يجب أن تكون الحكومة مطية للحملات الدائمة بهدف السيطرة على الرأي العام بدلاً من أن تركز قدر الإمكان على النقاشات العقلانية، والمداولات، والأخذ بمبدأ الحلول الوسط؟ هل يجب أن تستند إلى مقولة الحرب الشاملة، والخداع، أم تتجذر في مستوى راقٍ من المصارحة، والشفافية، والصدق، والبحث عن الحقيقة؟ لكن الروح الحربية هي في الغالب السائدة في السياسة هذه الأيام.

لعب كلينتون وأركان فريقه اللعبة بحرفية عالية. فقد أظهروا مرونة فيها بعض التهور، ومقدرة على التحمل والتحكم في المعركة السياسية للحصول على الجائزة الكبرى، وأيضاً في الهجمات المعاكسة التي قاموا بشنها. ولكن في النهاية، أدت الأخطاء الفادحة التي ارتكبها بيل كلينتون إلى إضعافه، لكنها لم توجه ضربة قاصمة لرئاسته. لماذا؟

لأن لكلينتون شخصية مغناطيسية، ولأنه يتمتع بشخصية مميزة (كاريزما) استثنائية، وبمقدرة نادرة على فرض جاذبيته على العديد من الأمريكيين، ونيل تقديرهم العالي - سواء كان هذا مبنياً على أساس مبدئي أو على البراغماتية السياسية - وذلك لممارسته الحكم باتجاه أقرب إلى الوسط. فقد نجح على جبهة السياسة، في حشد دعم الجمهوريين، وتفعيل سياسات تهم الوسط الأمريكي، بدءاً بنظام الخدمة الاجتماعية وانتهاء بتقليص الدين. لقد استوعب كلينتون أن خطة العمل الناجحة يمكن أن تغطي على الأخطاء الشخصية، والأحقاد الحزبية. عرف فريقه أن أعظم عامل إقناع في الفريق هو كلينتون نفسه، كما عرف هذا الفريق كيف يمارس لعبة الحملات الدائمة في

واشنطـن أفضل مـن أي إدارة سبقتها في البيت الأبيض. لكـن التزامه المفرط بالقواعد الحديثـة الحالية - التي يشاركه فيها الجمهوريون من أتباع غينغريتش - أدى بالأمة إلى دفع ثمنٍ غالٍ.

لسـوء الطالع، تعلمت إدارة بوش القادمة إلى البيـت الأبيض بعض الدروس الخاطئة التـي استخلصتهـا من مراقبـة البيت الأبيض في عهـد كلينتون. ففي الوقـت الذي كانوا يخططـون لقيام النظام الجديد في واشنطـن، لم يفعلوا ما من شأنه إحداث أي تغيير في الواقـع الراهن. وبدلاً من أن ينطلقوا بتفكيرهم خـارج نطاق بوتقة الحملة الدائمة، فقد قبلوا بالقواعد الجديدة للعبة، وركزوا على الكيفية التي سيمارسونها بشكل أفضل، وليس على الكيفية التي يمكن لهم عبرها تغيير تلك اللعبة إلى لعبة أخرى تخدم مصالح الشعب الأمريكي بصورة أفضل.

مـن المثير للسخريـة، أن لغة خطاب حملة بوش كانت قد هدفـت إلى النأي به عن كل التجاوزات التي مارستها حملة كلينتون الدائمة، وأسلوبها في ممارسة الحكم. كان المعنـى الضمني لكلمات بوش يؤكد على أنه سيضع حداً للمناورات السياسية الدائمة، والشـروخ الحزبيـة العميقة التـي تسببت بها. وبالرغـم من أن واشنطـن لم تستطع الحصـول على ما يكفي من الحملة الدائمة، فقـد كان الناخبون على ما يبدو، تواقين للتحرك خارج إطارها.

ركـز بوش خلال حملتـه الانتخابية على هـذه الناحية العاطفية. فهـو سيعمل على «تغيـير النغمـة في واشنطن». وسوف يكون «مَوَحّـداً، لا مُفَرّقاً». سـوف «يعيد الشرف والكرامـة إلى البيت الأبيضـ». وسوف يمارس الحكم استنـاداً إلى كل ما هو صحيح، وليس إلى ما تخرج به استطلاعات الرأي. باختصار، سوف يبدل الروح التهكمية التي سـادت عقد التسعينـات بعصر جديد من النفحـة الحضارية، والشـرف، والأمل. لن تكون هناك بعد الآن أي حملات دائمة، أو على الأقل سيتم محو تجاوزاتها من الوجود، مرة وإلى الأبد.

لكـن الحقيقة أثبتت أنها مختلفـة تماماً. فبدلاً من تحقيق ما تقـدم، قام فريق بوش بتقليـد بعض أسوأ سمات عهد كلينتون في البيـت الأبيض؛ ولم يكتفِ بذلك، بل ذهب بها إلى أبعاد أكثر عمقاً.

لم يجـارِ بوشـ كلينتـون في جبهـة السياسة. على العكـس تماماً - كان شعـار الإدارة الجديـدة هـو: «أي شيء إلا كلينتون» عندمـا كان الأمر يتعلق بالسياسـات. تباهت إدارة بوش بأنها كانت تركز على الأفكار، وليس على اللعب بكرات صغيرة مع أفكار قيّمة ولكنها بالأساس ليسـت بذي قيمة تذكر كأفكار سياسية بالنسبـة إلى البيت الأبيض مثل تقديم ألبسة موحدة في المدارس، أو ملاحقة الآباء المنهوكي القوى.

لكـن مظهراً أساسياً من مظاهر رئاسة كلينتون تم تبنيه من قبل جورج بوش وفريقه، تمثـل في الانتشار غير المسبوق للحملة الدائمة بكل أساليبها. وبالعودة إلى ما حدث، فإن مـن الواضـح أن البيت الأبيض في عهد بوشـ قد تمت تهيئته كي يبـاري، بل يتجاوز هذا الأسلوب في الحكم، بالرغم من أنه أراد أن يتم ذلك على طريقته الخاصة.

الدليـل الأكـثر وضوحـاً على قيـام البيت الأبيض في عهـد بوش بتبني مبـدأ الحملة الدائمة يتمثل في العملية السياسية الشاملة التي وضعت موضع التطبيق منذ اليوم الأول. تبـوأ كارل روف مركـزاً ذا تأثير هائل داخل البيت الأبيض منذ بداية العهد. وقد ازدادت قوة هذا المركز بسبب التأثير الذي أضفته عليه شخصية روف القوية، بالإضافة إلى قربه الشديد من الرئيس. كان واحداً من فريق يضم أهم ثلاثة لاعبين - مع كارن هيوز وآندي كارد - بالإضافـة إلى الرئيس نفسه؛ هذا الفريق هو الذي حدد معالم الطريق الذي سار عليه البيت الأبيض في عهد بوش.

تعرفـت على كارل للمـرة الأولى سنة 1992 عندما كنت أديـر حملة لمنصب عضو في مجلس الشيوخ في ولاية تكساس؛ قامت هذه الحملة باستئجار خدمات شركته الاستشارية السياسيـة للقيـام بتوجيه الرسائـل. لم أتحدث إليه كثيراً خلال تلـك الفترة؛ فقد كانت لـه انشغالاته الكثـيرة أيضاً مع كثير من العملاء الآخريـن، وكان عمله معنا يقتصر على

مسألة توجيه الرسائل. لكن روف كان يؤسس لنفسه منذ ذلك الحين موقع المرشد الروحي للحزب الجمهوري في ولاية تكساس.

قبل ذلك بسنتين، وتحديداً في سنة 1990، عندما كنت أعمل لصالح المرشح لمنصب حاكم ولاية تكساس الذي خسر الانتخابات حينها بفارق ضئيل، كان اثنان من موكلي روف اللذان كان اسماهما على بطاقة الولاية، وهما كاي بيلي هتشنسون وريك بيري قد فازا في الانتخابات لمنصبيْ أمين الخزانة، والمندوب الزراعي على التوالي، وقد منح هذا الفوز روف بعضاً من شهرته المبكرة كنجم سياسي صاعد في سماء الولاية.

بُعيْد انتهاء الحملة الانتخابية لمجلس شيوخ الولاية التي خسرناها بفارق ضئيل جداً أمام عضو المجلس المتخندق في موقعه، عدت إلى أوستن للتأمل في خطوتي المقبلة. كان لديّ متسع كافٍ من الوقت كي أتطوع لمساعدة حملة هتشنسون الوليدة للوصول على مجلس الشيوخ في واشنطن. كانت تلك انتخابات خاصة للحلول مكان لويد بينتسين الذي أصبح وزيراً للخزانة. كانت هتشنسون ستتنافس مع بوب كروغر الذي كان يشغل سابقاً منصب مندوب السكك الحديدية في تكساس، والذي كان الحاكم قد عينه في هذا المنصب إلى أن يتم انتخاب البديل. كانت الحملة القليلة الخبرة تنطلق من مكتب روف في البداية؛ وكنت أساعد عبر إجراء اتصالات أحث فيها الناس على دعم الرحلة التي تزمع هتشنسون القيام بها إلى عشرين بلدة ومدينة في الولاية على امتداد الأيام الأربعة اللاحقة.

عند اقتراب موعد قيام هتشنسون برحلتها، سألني مدير حملتها إذا كان بإمكاني السفر معها في اليوم الأول فقط. في ذلك الحين، كان روف قد أعطى اسمي لبعض المخططين الإستراتيجيين في مجال الاتصالات في واشنطن العاصمة الذين كان يبحثون عن إحدى المواهب التي يمكن أن تساعد أحد موكليهم وهي الرابطة الأمريكية لإصلاح الضرر في الدعاوى القضائية التي أقامتها من أجل جهود الإصلاح في تكساس. لكن فكرة السفر برفقة من قد يصبح عضواً في مجلس الشيوخ الأمريكي بدت لي تجربة جيدة؛ وهكذا، قررت، ووافقت بسرعة.

تحول السفر لمدة يوم واحد إلى سفر استغرق أربعة أيام على متن طائرة صغيرة برفقة هتشنسون وزوجها راي. كانت الرحلة ممتعة جداً، وعرضت عليّ في نهايتها وظيفة في الحملة مدفوعةَ الأجر. ولكن في الوقت نفسه، كانت وظيفة أخرى قد عرضت عليّ للعمل في مجال الدعاوى القضائية من أجل جهود الإصلاح. ولكن بما أنني كنت قد انتهيت للتو من العمل في إحدى الحملات الانتخابية، لم أكن متأكداً من أنني أرغب في الانتقال إلى العمل في سباق تنافسي آخر، لذلك قررت قبول العرض بالعمل في وظيفة إصلاح الدعاوى القضائية. وما كنت لأحصل على هذه الوظيفة لو لم يقم روف بترشيحي لشغلها.

أصبح روف القوة الضاغطة في سياسة ولاية تكساس. وقد اعده الكثيرون من المراقبين السياسيين في الولاية منافساً شديداً يمكن أن يكون أحياناً قاسياً وعديم الرحمة يعمل ضمن نطاق عقلية «لا تأخذ معك أي مساجين».

بقيت على اتصال مع كارل بشكل متقطع على امتداد السنوات اللاحقة. قامت شركته سنة 1994 ببعض الأعمال لصالح عملية انتخاب والدتي لمندوبية السكك الحديدية (التي نظمت صناعة الزيت والغاز في ولاية تكساس)، وهي الحملة الأولى التي قمت بإدارتها على مستوى الولاية. ولكن في تلك السنة، كان جهده منصباً على حملة انتخاب بوش لمنصب حاكم ولاية تكساس. كانت ولاية تكساس حينها تميل باتجاه الحزب الجمهوري، وقد قام روف بهندسة النصر الكاسح الذي حققه الجمهوريون في كل مكاتب الولاية في سنة 1998.

أذكر تلك الليلة الانتخابية جيداً. كانت والدتي تخوض واحدة من أكثر المعارك الانتخابية تقارباً، واعتبر الكثير من النقاد أن احتمال فوزها أمام منافسها ضئيل للغاية. لكننا حققنا المفاجأة، وكانت لنا يدٌ في تحقيق انتصار الجمهوريين الكاسح. كان كل واحد من المرشحين الجمهوريين يقيم حفل انتصاره الخاص في الفندق الذي يقع في وسط مدينة أوستن نفسه. كانت غرفتنا على بعد خطوات من قاعة الاحتفالات التي يقيم فيها أركان حملة بوش حفل انتصارهم.

في وقت لاحق من تلك الأمسية، وبينما بدأت معالم فوز والدتي تتضح أيضاً، ظهر روف في الحفلة التي كانت تقيمها. كنت أجلس في منطقة معزولة إلى اليمين من الباب حيث كنا جهزنا طاولات ووضعنا عليها أجهزة الحاسوب لمراقبة نتائج الفرز كما ترد إلينا. قال روف بصوت ملؤه الحيوية: «أود أن أهنئ الشخص الذي يعود إليه الفضل في هذا الانتصار - وها هو!»، قال ذلك وهو يستدير إلى جهة اليمين حيث كنت أقف وأشار إليّ: «ما كان لها أن تحرز هذا الانتصار لولاك. لقد قمتَ بعمل رائع يا صديقي».

كان هذا مديحاً مُسكِراً في نشوته بالنسبة إلى شاب في السادسة والعشرين من عمره. وهاهو أهم مخطط استراتيجي سياسي جمهوري في ولاية تكساس - وصانع الملوك الجديد في سياسة ولاية تكساس - يذهب بعيداً في عبارات الإعلان عن مصداقية موقعي. تصافحنا وتعانقنا، ثم قلت له: «لم أكن أعلم أنني أنا من كنتَ تقصده بكلامك. إن كلماتك تعني الكثير بالنسبة لي. وأنا أقدر لك ذلك جداً».

كان روف يبحث عن استقطاب سياسيين جدد من الشباب مثلي في ولاية تكساس. فإذا كنت تبغي الحصول على وظيفة سياسية في سياسات الحزب الجمهوري، فما عليك سوى التواصل مع روف الذي كان على رأس قائمة من يتوجب عليك أن تقوم بزيارتهم. ولكن بالرغم من جدول أعماله المزدحم، كان من الكرم بحيث إنه لم يبخل بتقديم النصح ومد يد المساعدة.

اعد العديد من المساعدين الشباب في ولاية تكساس أنفسهم من أتباع روف ومدرسته السياسية. لم ينتابني مثل هذا الشعور قط. فلطالما اعتبرت نفسي مساعداً أرقب إلى أن أكون مساعداً مستقلاً، غير مرتبط بالضرورة بأي مخطِّط استراتيجي أو معسكر داخل الحزب الجمهوري في ولاية تكساس. لكنني كنت أعرف أن روف هو صانع الملوك في سياسات الحزب الجمهوري في تكساس، ولذا فقد قدرت عالياً دعمه لي، ورحبت بهذا الدعم.

بعد انضمامي إلى فريق بوش سنة 1999، كنت أرى روف بين الحين والآخر في أحد اجتماعات كبار الموظفين في مكتب الحاكم. وبحلول الوقت الذي انضممت فيه إلى الحملة

بعد عدة أشهر، أصبحت أراه غالباً في أروقة المركز الرئيس لحملتنا وسط مدينة أوستن، خصوصاً بعد أن أصبحت في منصب السكرتير الصحفي المتنقل. وعندما لا أكون مسافراً، كنت أحضر اجتماع الرسائل اليومية لمساعدي المرشح الرئيسن التي كان يحضرها أيضاً كارل الذي كان ينضم إلى قافلة الحملة. وقد تعرفت أكثر إلى كارل بعد أن انضممت معه إلى كبار أعضاء أركان البيت الأبيض.

سوف أتذكر دائماً، وبكثير من الود كيف كان كارل يرمي بنكاته المرحة الخفيفة التي تخفف من عناء الحياة المتطلبة التي كانت تستنزفنا داخل البيت الأبيض. كان يمتلك في جانبٍ من شخصيته نوعاً من الحماقة المحببة التي كانت ترفع من معنوياتنا خصوصاً أثناء التوترات التي تصاحب الحملات الانتخابية والمتمثلة في الانتقال من فندق إلى آخر وهو ما كان يجعلنا نشعر وكأننا في «يوم الخنزير الخارج من جحره: Groundhog Day».

مع اقتراب نهاية حملة الانتخابات في سنة 2004، على سبيل المثال، اعتاد كارل أن يرفع من وتيرة الحماس في نفوس زملائه من فريق بوش المسافرين في الحافلات الصغيرة عندما كان يقودنا في إنشاد أغانٍ مشهورة كانت رائجة في مؤتمر الحزب الجمهوري في نيويورك في شهر آب، أغسطس من تلك السنة. كان يبدأ بالصياح: «أربع سنوات أخرى، يا أمريكة، أربع سنوات أخرى، يا أمريكة»، أو ينشد أنشودة أخرى، وكانت هي المفضلة لدينا: «غَيِّرْ وجهتكَ، غَيِّرْ وجهتك! Flip-flop, flip flop!» (ربما تتذكرون الخُفَّيْن الزَّجْراجيْن اللذين يلبسان على الشاطئ، واللذين كان يلوح بهما أعضاء المؤتمر للإشارة إلى مواقف جون كيري المتأرجحة حول العديد من القضايا). كنت أنشد وراءه مباشرة، ثم ينضم إلينا الآخرون أحياناً. أظن أن سائقنا التطوعي، وكان من مؤيدينا المحليين، كان يتساءل فيما إذا كان كارل قد قضى أياماً كثيرة على طرقات السفر، أو أنه كان يحتاج للهرب من أشعة الشمس. لا بد أن الكثيرين من النظّارة كانوا يتساءلون، «هل حقاً هذا هو العبقري السياسي الشهير نفسه؟»

أذكر أنني في انتخابات سنة 2000، كنت أقضي بعض الوقت في مكتب كارل في مركز الحملة الانتخابية. كان عدد من المساعدين الآخرين في مكتبه أيضاً أو بالقرب من مكتبه.

كان كارل يتفحص أجهزة الهاتف، ويتابع الرسائل الإلكترونية، ويتلف الأرقام الواردة من مقاطعات فلوريدا. كانت قد استفزته قبل ذلك الطرق التي أعلنت فيها الشبكات فوز غور في فلوريدا قبل أن تغير تقاريرها. كان كارل يجول في أنحاء المركز الرئيس كلها قائلاً إن الدوائر الانتخابية المحافظة في أطراف فلوريدا ما يزال الناخبون يدلون بأصواتهم فيها، وأن التقارب في أماكن أخرى جعل من توقعات هذه الشبكات سابقة لأوانها. والآن، وبعد أن غيرت هذه الشبكات من مواقفها بدا كارل متشجعاً وأكثر إصراراً كما لو أن إرادته وحسب، كانت هي التي تقلب الموازين لصالحنا بطريقة سحرية.

بعد الساعة الواحدة صباحاً بقليل، كانت فوكس نيوز أول شبكة تعلن عن فوز بوش بولاية فلوريدا، ومن ثم فوزه بالانتخابات العامة. كان ذلك تطوراً مثيراً. لكنني، مثل الآخرين، التزمت جانب الصمت؛ ذلك أنني كنت غير متأكد من ذلك، وكنت أنتظر لأرى فيما إذا كان كارل بنظرته الثاقبة التي لا تخطئ الهدف موافقاً على ما أوردته تلك الشبكة. ولكن بعد دقائق من قضم الأظافر، لحقت الشبكات الأخرى بشبكة فوكس نيوز قالبة بذلك توقعاتها السابقة. لم يكن بالإمكان احتواء فورة الحماس التي أعقبت ذلك. أطلقنا الكثير من صيحات الابتهاج، ورفعنا أذرعنا، وتلاقت أكفنا في الهواء. قاد روف أركان الحملة الذين بقيوا معه في مركز الحملة الانتخابية في مسيرة جاب بها شارع الكونغرس في مدينة أوستن على البوابة الرئيسة لمبنى برلمان الولاية. كان من المفترض أن بوش سيطل من هناك، إلا أن النتائج التي وردت متأخرةً أدت بالشبكات إلى تغيير أخبارها من جديد معلنة أن النتائج متقاربة لدرجة أن أحداً لا يستطيع الآن التكهن بها، وأدى هذا بغور إلى إلغاء الاتصال الذي كان يزمع إجراءه للقيام بتهنئة بوش.

من دون شك، يعتبر كارل واحداً من أذكى المواهب السياسية في عصرنا هذا، بفضل طاقته التي لا حدود لها، وبفضل حماسه، ومعرفته العميقة بالتاريخ ورؤيته النفاذة التي يلج فيها إلى عقول الناخبين. إنه مفكر استراتيجي حاد الذكاء، واستراتيجي بارع، وشرس، ومراوغ. كارل يعيش السياسة، ويأكلها، ويتنفسها، ويعشق كل ما تأتي به، خصوصاً روح

المنافسة والمعارك الكلامية. يعتبر السياسة رياضة عنيفة، ويستمتع بالحروب الحزبية؛ وله سمعة بأنه عديم الرحمة عندما يكون مديراً، وربما لا تساوره أي أوهام، كما أن ما كان يثير انتباهي هو أنه ذلك الشخص المستعد، وهو في خضم المعركة، إلى أن يدفع بالأمور إلى أقصى ما هو مسموح به أخلاقياً وقانونياً.

يحب كارل أن يقحم نفسه في كل شيء، فهو يستمتع بصياغة السياسة كما يستمتع بالتخطيط السياسي الاستراتيجي. ينظر إلى الحكم والسياسة على أساس أنهما يرتبطان ببعضهما بعضاً ارتباطاً وثيقاً، وقد تبوأ موقعاً مهماً في قلب كل منهما في البيت الأبيض أثناء حكم بوش.

بعد تسميته مستشاراً للرئيس قبل أسابيع من حفل التنصيب، كلف روف بمسؤولية الإشراف على السياسات والإستراتيجية السياسية، وترأس أربعة مكاتب تهدف إلى تحقيق هدف رئيس واحد: تشكيل مصادر الرأي العام، والسيطرة عليها؛ تماماً كما كان الأمر عليه إبان الحملة الانتخابية، وذلك للمساعدة في تسويق خطط بوش وسياساته. كان لكل واحد من هذه المكاتب أهميته الخاصة، وبما أن تلك المكاتب قد وضعت جميعها تحت إشراف روف، فقد شكلت بمجملها غرفة عمليات هائلة، وفائقة القوة قادت ما يشبه الجهد المبذول في الحملة الانتخابية نفسها وذلك لتقوية موقف الرئيس أمام الرأي العام، والذي كانت تقاس درجة قوته عبر استطلاعات الرأي. كانت هذه المكاتب تقوم غالباً بواجبها على أكمل وجه.

عمل مكتب المبادرات الإستراتيجية بشكل رئيس ككتيبة تخطيط استراتيجي بعيد المدى. لم يكن لهذا المكتب وجود في الإدارات السابقة. ينبئني حدسي بأن هذا المكتب قام ببناء وتأسيس وتفعيل عدد من الفعاليات الموازية التي قامت بها مجموعات من العاملين السابقين في البيت الأبيض في عهود سابقة؛ لكن تأسيس هذا المكتب بشكله الحالي هو نتاج عظيم أبدعه روف نفسه. كان هذا المكتب يستشرف المستقبل لأسابيع وأشهر قادمة، ويخطط لما سيركز الرئيس عليه أمام الرأي العام فيما يتعلق بخططه وسياساته. بالإضافة إلى ذلك، فقد بقي مهتماً وفاعلاً في عمليات البيت الأبيض اليومية

موفـدأ عاملين في البيت الأبيض لحضور معظم الاجتماعـات الرئيسة. كان مهتماً بشكل رتيـب أيضاً بإجراء الأبحاث، ومراقبة بيانات استطلاعـات الرأي، وتنسيق الاجتماعات الرئيسة المتعلقة بالشؤون الإستراتيجية، والقيام يومياً بأداء دور حيوي في مساعدة الرئيس على ترتيب سياساته (أجندته).

قـام مكتب الشـؤون السياسيـة بتنسيق طيف واسع مـن المناسبـات والنشاطات ذات الطابع السياسي، مبقياً على اتصال مباشر مع اللجنة الوطنية للحزب الجمهوري، وكذلك مـع الزعمـاء الجمهوريين، والنشطاء في الولايـات، والجماعات على امتـداد البلاد. كان ذلـك المكتب مسـؤولاً كذلك عن إعداد أوراق تتضمن معلومـات سياسية مفصلة لرحلات بوشـ إلى مختلـف الولايـات والأقاليم المحلية، بمـا في ذلك عرض كامل عـن الولاية التي سيزورهـا، يشمل المناخ السياسي السائد، والسمـات السكانية، والقضايا المهمة، والنتائج الأخيرة للانتخابات، والسوق الإعلامية، ومندوبي الكونغرس، وقادة الولاية، وقادة الحزب الجمهـوري ، وملخص عن الزيـارات السابقة لبوش وأعضاء حكومته لهذه الولاية أو تلك. كان ذلك المكتب في حقيقة الأمر يجهز فعلياً رزمة من المعلومات توفر للرئيس عرضاً فورياً للسيـاق السياسي حول أي شيء يريـد أن يقوله أو يفعله خلال الزيارة، وهذا ما يجعل من الأسهل بالنسبة إليه توجيه الرسالة التي ينوي إلقاءها في موقع خاص بشكل مناسب.

عمـل مكتب الارتبـاط العام بشكل لصيـق مع الدوائـر الانتخابيـة الرئيسة، وكذلك بالتعاون مع مجموعات المصالح العامة، بدءاً من المؤسسات التجارية مثل غرفة التجارة، وانتهـاء بمجموعـات مثل مجموعة الحق في الحيـاة، والمنظمات والقـادة الأمريكيين من أصول إفريقية. كان العاملون في هذا المكتب يكلفون بالاتصال مع دوائر انتخابية مختلفة - مجموعـات رجال الأعمـال، والمنظمات الاجتماعية المحافظـة، والقادة الأمريكيين من أصول إسبانية، والعديد من الأفراد والمجموعات الأخرى. ساعد مكتب الارتباط العام في تجييشـ هذه الدوائر الانتخابية بقدر ما اقتضت الحاجة وذلك لتسويق الأولويات المهمة، وترتيب اجتماعاتها مع الرئيس. كان من بعض مهامه أيضاً تحييد بعض المجموعات التي تحـاول أن تثني إحدى المنظمات المؤثـرة عن القيام باعتراض علني على إحدى المبادرات

التـي يمكـن أن تثـير الهلع في نفوسـ أعضائها. مثـال على ذلـك، القيام بإقنـاع إحدى المجموعـات التي تمثل كبار السن بـأن لا تعترض علناً على الحسابات التقاعدية الخاصة أو الشخصية للعمال الشباب أثناء النقاش حول الضمان الاجتماعي الذي تم سنة 2005، بحجة أن الإصلاحات المستقبلية لن تؤثر سلباً على الأشخاص المتقاعدين حالياً.

أما مكتب العلاقات بين الجهات الحكومية فقد ركز على الولايات والمسؤولين المحليين. كان يقـوم بالتنسيـق الكامـل مـع المحافظـين، ومندوبي المقاطعـات، وحـكام الولايات، ومسؤولـين آخرين في الولايات حول السياسة، واللقـاءات الرئاسية في واشنطن، وترتيب الزيارات إلى المناطق المحلية.

كان يرأسـ كل مكتـب مـن المكاتب الآنفـة الذكر طيلـة الفترة التي قضاهـا بوش في منصبـه، شخص مشهود له بالبراعة السياسية الهائلة، وسعة الأفق. وكان يعمل لدى كل مـن هؤلاء طاقم عمل نشِط، وأفراد واعدون ممن يتوقع لهم مستقبل ناجح؛ وهؤلاء كانوا يساعـدون في تطوير مختلف الاستراتيجيات والواجبـات والمبادرات، والعمل على وضعها موضـع التنفيذ. وكان مديـر كل مكتب من هذه المكاتب يقدم تقريـره إلى روف مباشرة، حيث كان يعمل تحت إمرته، وبموجب توجيهاته.

سـاعـد وجود هذه المكاتـب السياسية الأربعة ذات النفوذ والتأثير القويين داخل البيت الأبيضـ - أغلـب هذه المكاتب كان موجوداً قبل رئاسة بوشـ - على تدعيم مكانة الحملة الدائمة في الأفق السياسي الوطني. وتعزز مفهوم «السياسة كحرب» عبر المقاربة الحزبية الحادة لفكرتيْ شن الحملة، والحكم التي مارسها روف وبَشَّرَ بها.

كان روف يميـل باتجـاه مقاربة كل شيء بمنظـور وجهة النظـر السياسية، خصوصاً فيمـا يتعلق بالدوائر الانتخابيـة الرئيسة. فقد اكتشف أن الناخبين منقسمون بشكل أكثر حـدة بسبب اعتبارات حزبية أكثر مـن أي وقت مضى في تاريخنا الحديث. وشعر أنه من الضرورة بمكان الإبقاء على قاعدة الحزب المكونة من المحافظين على الصُّعُدِ الاقتصادية، والاجتماعية والسياسة الخارجية في حال من الرضا والدعم الكامل للرئيس. يرى روف أن امتلاك قاعدة دعم صلبة قوامها المحافظون، وعدم تحييد المؤمنين بمبادئ الحزب سوف

يوفـران للرئيس فرصة التواصل مع المستقلـين، وتغيير آراء الناخبين من الديمقراطيين، وذلك بهدف الإبقاء على أغلبية في البلاد بنسبة 50 بالمائة زائد واحد على الأقل.

تتميـز إستراتيجية «الخمسين بالمائة زائداً واحداً» التي تهدف إلى الاهتمام بمصالح العقائيـين الأيديولوجيين التطهيريـين الذين يركزون بشكل مبالغ فيه على قضية واحدة، أو بمصالـح دوائـر انتخابيـة ذات مصالح حزبية ضيقـة، عن الإستراتيجيـة السياسية للأغلبيـة العريضـة المتمثلـة في ممارسة الحكم بشكل متـوازن من الوسـط. على سبيل المثـال، أرضـى بوش المحافظين الاجتماعيين عـبر تبنيه بقوة لفقرة مـن تعديل دستوري يقضي بمنع زواج المثليين الجنسيين في الوقت الذي كنا نتوجه نحو يوم الانتخابات العامة سنـة 2004؛ وفي مناسبة أخرى، عاد بوش بطريقة مثيرة إلى واشنطن في منتصف الليل مـن مزرعته في كروفورد لتوقيع قانون فيـدرالي يحيل بموجبه مسألة تقرير مصير تيري شيافو إلى المحاكم الفيدرالية، وهو بذلك قام بتوريط الحكومة الفيدرالية بقضية جدلية تبتُّ فيها الولايات في العادة. وكان قرار بوش سنة 2001 المتمثل في تقليص دور الحكومة الفيدراليـة في البحوث التي تتعلق بالخلايا الجذعيـة الجنينية، وممارسته لحق النقض «الفيتـو» فيمـا بعد للتشريع الـذي يهدف إلى التوسـع في مثل هذه البحوث، قـد هدّأ من روع المحافظـين الاجتماعيين، تماماً كما فعل دعمه للتشريع الذي يهدف إلى فرض حظر جزئي على حالات الإجهاض.

كانـت كل خطـوة يخطوها باتجاه اليمين تحظـى بتغطية واسعة مـن وسائل الإعلام، وتساهـم في خلـق رؤية شعبية حـول إدارة بوش. وبغض النظر عن المزايـا التي تتمتع بها هـذه القضايـا، فإن قيام بوش بالتركيـز عليها أدى إلى تشكيل صـورة عن الرئيس الذي يركز على قضايا جامدة أيديولوجياً خيطت لصالح جماعات مثل «مناصري الحياة» ذوي النفـوذ القوي داخل دوائر انتخابية ينحصر اهتمامها في قضية واحدة فقط، بدلاً من أن يركـز على مواجهـة أولويات أكثر إلحاحـاً تهم الشريحة العريضـة في الوسط (الوسط، ويمين الوسط، ويسار الوسط) مثل الاقتصاد، والرعاية الصحية، والطاقة، والبيئة.

كانت لروف اليد الطولى في وضع هذه القضايا في مقدمة أولويات خطط بوش العامة. تلـك كانـت صرخة من الأيـام الغابرة في الماضـي البعيد عندما كان بوشـ حاكماً لولاية

تكساس، وكان حينها يمارس الحكم بشكل متوازن ممسكاً بالعصا من وسطها، ومتجنباً المبالغة في التأكيد على المسائل الخلافية التي تثيرها قضية واحدة بمفردها، أو دوائر انتخابية محافظة اجتماعياً، أو أي من المسائل التي تؤدي إلى انقسامات تدفع الناس إلى مواجهات فيما بينهم.

تتميز واشنطن عن تكساس بأن بيئتها السياسية مختلفة جداً إبان حكم بوش لهذه الأخيرة. فهناك مطالب أكثر يطرحها الأيديولوجيون التطهيريون الذين يمثلون منظمات القواعد الحزبية، والأمر نفسه بالنسبة لقادة الرأي الذين لهم نفوذ قوي في الدوائر الانتخابية نفسها. كان بوش وروف يعيان هذه الحقيقة جيداً. استطاع بوش أن يمرر بحرية أكبر السياسات الوسطية حول الهجرة والتعليم الحكومي وتغطية نفقات الوصفات الصادرة عن الرعاية الطبية، عبر إرضاء المحافظين الاجتماعيين (بواسطة المبادرات التي تم ذكرها آنفاً)، والموافقة على إجراء تخفيض كبير على نسبة الضرائب (وهو ما أسعد القاعدة الاقتصادية)، واتخاذ موقف متشدد في مقاربته لمسألة الأمن القومي (وهو ما أسعد الصقور).

أدت هذه الإستراتيجية الغاية المرجوة منها في المرحلة الأولى من ولاية بوش، وساعدت في إعادة انتخابه. ولكن العيوب والنقائص بدأت تتكشف مع بداية المرحلة الثانية لحكم بوش، في الوقت الذي بدأت سياسة بوش في العراق تشل إدارته. عندما بدأت الأمور تتهاوى في العراق، تبين لكل من بوش وروف أنه من المستحيل سياسياً بالنسبة له الظهور بمظهر المتراجع عن رؤيته بشأن عراق حر وديمقراطي قيد أنملة. كانا يعلمان أنه لو فعل ذلك، فسيظهر أمام قاعدته ضعيفاً، وستبدأ صورته بالتصدع. تحت مظلة إستراتيجية هذه القاعدة، فإن حلاً وسطاً يحظى بدعم قادة الكونغرس من الحزبين الجمهوري والديمقراطي كان بالأساس خارج نطاق التداول، ولم يحظَ بأي تفكير جدي. كانت مسألة المبالغة في محاباة المحافظين الاجتماعيين، بالإضافة إلى مشكلات بوش، وضعف تأييد الرأي العام له، عوامل زادت من إحساسهما بالإحباط.

أن يكون لدى بوش مُخطط بعيد المدى استراتيجي وسياسي بارع، ومناور عظيم يمسك بتلابيب مصادر الدعم الشعبي مثل روف يعمل في البيت الأبيض لا يشكل بالضرورة مشكلة

بحـد ذاتها، إلا أنـه يتحول إلى مشكلة عندما تسيطر الإستراتيجيـة السياسية على مقدرات الأمـور بشكل طاغٍ، ويصبح الحكـم مجرد مطية للحملات الانتخابية. وعندما يكون المخطط الاستراتيجـي بمثل مهـارة وشخصية وقدرات كارل روف، فإن مـن السهولة بمكان، حصول ذلـك. كان يجـب أن يكون منخرطاً في كل شيء، إن لم أقـل مسيطراً على أي شيء، وعلى كل شيء يمكن أن يؤثر في زيادة معدل التأييد لبوش. كان يعمل أحياناً بهدوء، ومن وراء الستار. كان يقحـم نفسه أحياناً في بعض الاجتماعات. بشكل عام، كانت آراؤه حول معظم القرارات السياسيـة والإستراتيجية خصوصاً أثناء الحملات لتسويق السياسات بين الجماهير تحظى بثقل واحترام كبيرين.

لم يكـن روف يدعى إلى اجتماعات مجلس الأمن القومـي الحربية بشكل خاص. كان مـن الواضح أن تواجد شخص مثير للجدل مثـل روف في هذه الاجتماعات سيوفر للنقاد مجـالاً رحبـاً للتصيد؛ إلا أن استثنـاءه من الحضور بدا في حد ذاتـه وكأنه يثير علامات استفهام بشأن عدم الإحساس بقلق مماثل حول ما إذا كانت السياسة قد أثرت سلباً على اعتبارات صنع السياسة التي كان روف يُنَظِّر لها عبر الدور الذي كان يلعبه.

كانـت شخصيـة روف الطاغية داخـل إدارة بوش، وتأثـيره الملموس علـى السياسة، والإستراتيجيـة، والاتصالات السياسية، والرسالة التـي يبغي إيصالها، تتعاظم من دون حسيـب أو رقيـب خصوصاً بعد أن تركـت كارن هيوز، صاحبة الشخصيـة القوية، وأحد الأعضاء الرئيسين في ترويكا مستشاري بوش منصبها.

كانـت كارن تمثـل العنصر الثاني مـن عناصر التأثير الذي نشـط في بداية عهد هذه الإدارة. كانـت هـي الأخرى مساعدة بوش الموثوقة منذ أمـد طويل في تكساس. كان بوش يستمـع إلى نصائحها وطروحاتها، وكان يأخذ بها عادة. أتذكر حديثاً دار بيننا في الأيام الأولى عندمـا كنـت مسافراً معه مـن دون كارن. سألنـي عن رأيي في العمـل معها. قال خـلال تلـك المحادثة إنّ «كارن غالباً ما تكون على صواب. ليس دائماً، ولكنها على صواب معظـم الوقت». كانت ثقة الرئيس بكارن، وقربها منـه، بالإضافة إلى شخصيتها الطيعة (الديناميكيـة)، وتفكيرهـا الاستراتيجي اللمـاح، وقدرتها على استيعـاب آراء القاعدة

العريضة من الشعب الأمريكي أسباباً جعلت منها مثل روف، لاعباً أساسياً في كل مظاهر الحيـاة في البيـت الأبيض، بما في ذلك توجيـه سياسته. وبالطبـع، كان دورها المتمثل في الإشـراف على جهاز الاتصالات الضخم في البيت الأبيض، والذي يلعب في سياسة هذه الأيام دوراً أكثر أهمية في مجال الحملة الدائمة، مهماً جداً في حد ذاته.

تعـود تجربتي الأولى مـع كارن إلى بداية عقـد التسعينات عندما كانـت تشغل منصب المدير التنفيذي للحزب الجمهوري في ولاية تكساس. كانت تبحث عن شخص لشغل منصب المدير المالي للإشراف على جمع التبرعات لصالح المنظمة. وبالرغم من أنني لم أكن مهتماً للعمـل في حـزب الولاية، كما أن خبرتي لم تكن في مجال جمع التبرعات، فقد تشجعت على اقتحام هذا المجال، فتم اقتراح اسمي لها كناشط سياسي واعد. بالنسبة لشاب في الثالثة والعشرين من عمره، كان هذا العرض يمثل فرصة للتأسيس لطريقي المهني.

لم تعرضـ عليّ تلك الوظيفـة، ولم يكن هذا ليحزنني لأن العمـل لصالح حزب الولاية أو أي منظمـة حزبيـة معروفة لم يكـن يشكل هدفاً بحد ذاته بالنسبـة لي. بعد ذلك بمدة وجيـزة، انطلقت صـوب شلالات ويشيتا في تكساس لإدارة حملتـي الخاصة - السباق إلى مجلس شيوخ ولاية تكساس لصالح رجل سوف يصبح فيما بعد صديقاً لي هو توم هيوود.

لم أتعـرف بـكارن حقيقة إلا عندما التقيت بها سنة 1998 مـن أجل الوظيفة الشاغرة التـي كانت تبحث عن من يشغلها في مكتب اتصالات الحاكم بوش. أعجبتني جداً قدراتها العالية كخبيرة اتصالات، كما أحببت فيها النَّفَسَ القيادي وشخصيتها الممتلئة بالحيوية.

أشرفـت كارن على تدريبي في مجـال الاتصالات. وقد كنت أمتلـك أرضية صلبة من الخـبرة في هذا المجال كبداية، كوني نشأت في كنف والدة احتلت دائرة الضوء السياسية المحلية، وكوني أصبحت فيما بعد مديراً لإحدى الحملات وناطقاً باسم حملاتها الناجحة على مستوى الولاية. الدور الأخير الذي قمت به لفت انتباه كارن. فبعد أن استلمت عملي، لاحظـتُ أنهـا تتابع عن كثب مـا كان الناطقون باسم بوش يقولونـه. وعندما كانت تشعر أن مـا صـرح به هؤلاء الناطقون كان يمكـن أن يطرح بشكل أقوى، وأكـثر حذراً، وأفضل تعبـيراً عما يعكس طريقة بوش وأسلوبه، كانت تلفت نظر الناطقين باسم بوش إلى ذلك.

كانــت تــرى أن وظيفتها تكمن في التأكد مــن أن الناطقين باسم بوش يلتزمون بأسلوبها وأسلــوب بوش في مجــال الاتصالات. لقد كانا يمثلان نمطاً واحــداً. شحذتُ مهاراتي في مجال الاتصالات تحت إشرافها.

لكــن قــوة كارن في مجــال الاتصالات كانــت بطريقــة أو بأخرى مصــدر ضعف لها. فبالرغــم مــن أنها كانت محبوبة علــى نطاق واســع، كان العديد مــن العاملين في مجال الإعــلام يــرون أنها متحمسة أحيانــاً أكثر مما يجب في ولائها لبوش. كانــت أحياناً تبالغ في إظهار انضباطها كموظفة اتصالات تعمل لديه - فهي جاهزة دائماً لتلقي الرسائل أو إرسالها، وتؤكد دائماً على الإيجابيات، وتقلل من أهمية السلبيات، وتظهر بمظهر الحامي لبوش، ومن النادر أن تتراجع قيد أنملة، هذا إن تراجعت. لكن هذه الطريقة هي بالضبط ما أراده كل من بوش وكارن. ونظراً لأن كارن أتت من الوسط الإعلامي، فقد كانت تعرف أن وسائــل الإعــلام تميل دائماً باتجــاه البحث عن الأضواء، واللغــط، وخصوصاً في تلك البيئــة الوطنيــة المملوءه بروح المنافســة والجوائز القيّمة. لم تكن راغبــة في إعطائهم أي شيء يمكن أن يفيدوا منه. فمراقبة بث الرسائل كانت تتطلب انضباطاً شديداً من وجهة نظر كل من بوش وكارن. وكان الناطقون الرسميون الذين يصعب سحب المعلومات منهم مثل كارن، يحظون بتقدير عالٍ.

كانت كارن بحكم عملها كمستشارة للرئيس مسؤولة مبدئياً عن أربعة مكاتب، أضيف إليها لاحقاً مكتب خامس (مكتب الاتصالات العالمية). كان مكتب الاتصالات مسؤولاً عن التخطيــط الاستراتيجــي للاتصالات، وكان يضــع في حسابه التخطيــط لأسبوع أو اثنين إلى الأمــام، وكان مســؤولاً أيضاً عن الإستراتيجية الإجماليــة. كان المكتبَ المركزيَّ الذي يقــوم بتنسيق رسالة بوش التي تغطي البيت الأبيض والإدارة بمجملها. وكان أيضاً المكتبَ المســؤول عن التحقق مــن أن صورة اليوم تعــزز الرسالة، كما صورة بوشــ التي أردنا أن نرسمهــا. أشير هنا إلى الصــورة الفعلية الفوتوغرافية التي خططنا بعناية كي ينتهي بها المطاف إلى تصدر صحف اليوم الثاني، أو العرض في نشرات الأخبار المسائية - وتتفاوت بــين صورة يصافح فيها بوش الجنود إذا كان الموضوع يتنــاول استعدادات عسكرية وبين

صـورة للمشهد الاحتفالي المرتب بعناية والذي يظهر بوش متحدثاً أمام تمثال الحرية في ذكري الحادي عشر من أيلول، سبتمبر. كان فريق ريغان يتقن فن هذه الصنعة المسرحية بشـكل كامـل، أما الشخص الموكل بهذه المهمة في فريق بوشـ، وهو سكوت سفورزا، الذي كان يشغل منصب نائب مدير الاتصالات، فقد ذهب بهذا الفن إلى آفاق أعلى.

كان مكتـب السكرتـير الصحفي يعمل على مـدار الساعة مركزاً بشـكل أساسي على السلـك الصحفـي في البيت الأبيض، وفي البـلاد كلها؛ وكان يعالـج العلاقات الإعلامية اليوميـة مع أعضاء ذلك السلك، ويـدلي بتصريحات يومية كونه الناطـق الرئيس باسم البيـت الأبيض. وكان هناك تنسيـق كامل مع عاملين آخرين في مجـال الاتصالات، لكن السكرتـير الصحفـي كان لديه كم كبـير من الاستقـلال الذاتي مكنه مـن إدارة المكتب بالطريقـة التـي رآها مناسبة. عندمـا استلمت منصب السكرتـير الصحفي، كان دوري يتمثل في أن أقدم آراء الرئيس وقراراته وسياساته بأمانة، وأن أتبناها علناً، وأدافع عنها أمام وسائل الإعلام الوطنية.

أما مكتب الشؤون الإعلامية فقد ركز على وسائل الإعلام المحلية على امتداد الولايات المتحدة، وعلى العلاقات مـع وسائل الإعلام اليومية. كان فريق الشؤون الإعلامية يجيب علـى تساؤلات من منافـذ وسائل الإعلام المحلية، ويساعـد في تنسيق هذه المنافذ عندما كان الرئيس يسافر إلى مناطقها المعنية، كما كان مسؤولاً عن تنسيق المقابلات الإعلامية للرئيس مع الصحفيين المحليين.

كان مكتب خطابات الرئيس مسؤولاً عن تحضير عدد لا يحصى من خطابات الرئيس وملاحظاته. ولعبـت عملية كتابة الخطابات دوراً حاسمـاً في توجيه العملية السياسية. كانـت المسـودات الأولى لهـذه الخطابـات تـوزع إلى كل المكاتب ذات الصلـة في البيت الأبيض، بما في ذلك مكتب كبار مستشاري الرئيس، وعدد محدد من مستشاري الرئيس للشـؤون السياسية. كانت للرئيس الكلمة الفصل، ولكن لو أراد أحد المستشارين التأثير في العمليـة السياسيـة، فإن عملية كتابـة الخطابات كانت ستكون واحـدة من الوسائل للقيام بذلك.

بالإضافـة إلى قدراتهـا الكبيرة في مجـال الاتصالات، كانـت كارن تتمتع بشخصية قوية، واستيعاب حماسي لـلآراء السياسية التقليدية السائدة عند القاعدة العريضة في أمريكـة، بالإضافة إلى تفهمها للمنحى الذي تأخـذه الغالبية العريضة في مركز الوسط حـول أي قضية. هاتان السمتـان أفاد منهما بوش بشكل كبير. فقـد كان لكارن حضوراً قويـاً فرضـ نفسه داخل البيت الأبيضـ. لم تتهيب يوماً طرح أفكارهـا بمنتهى القوة في الاجتماعات، أو الذهاب مباشرة إلى الرئيس والالتقاء به على انفراد. كانت تعرف جيداً كيـف تتواصـل مع الأمريكيين العاديـين، بحيث إنها ساعدت الرئيسـ في أن يقوم بشرح سياساته وقراراته، والتأسيس لتناغم صحيح معهم.

قامـت كارن بدور لا يقل أهمية عما سبق ذكـره: فقد شكلت ثقلاً موازياً لا يستهان به لكارل روف. كانت له مواقف متشددة حول ما يجب القيام به. والأمر كان كذلك بالنسبة لـكارن. وبينما كانت أفكار كارل تتركز بشكل رئيس حـول القاعدة المحافظة، كان تركيز كارن ينصـب على الأمريكيين العاديين الذين يتجهون نحو طيف الوسط السياسي. كانت خلافاتهما حول السياسة أقل مما كانت عليه حول الأسلوب، والرسالة، وصياغة السياسة، والتأكيـد علـى البعد الشعبي. عمل الاثنان معاً بشكل جيـد، إلا أنهما لم يترددا في إظهار خلافاتهمـا حتـى أمام الرئيس نفسه. وهـذا ما كان متوقعاً من شخصـين قويي الإرادة، ومعتدين أيما اعتداد بنفسيهما، ويملكان قدراً لا يستهان به من المعرفة، ويتمتعان الدرجة بنفسها من الثقة التي منحها الرئيس لكليهما.

العضـو الثالـث في ترويكا البيت الأبيضـ كان آندي كارد، الموظـف الحكومي الذي لا يـكل ولا يمـل، والـذي أحضر معه سنـوات من الخـبرة إلى موقعه لرئيسـاً لأركان البيت الأبيضـ. بُنِيَ مجال نفوذه علـى أساسيْن متينيْن: مركزه، وقربه من الرئيس، بالرغم من أنـه كان يمهد الطريـق للرئيس. كان أقل حباً للسيطرة، وعباراتـه أكثر لطفاً من كل من كارن وكارل. كان دوره يتركـز على القيام بدور الوسيـط النزيه بين أركان موظفي البيت الأبيضـ، والتأكـد من أن كل الآراء كانـت تحظى بما تستحقه من الإصغـاء والانتباه، في الوقـت الذي كان يطرح آراءه بشكل خاص على الرئيس عندما كانت هناك حاجة لذلك،

أو عندمـا كان يـرى ذلك مناسباً، وهذا يحـدث عادة عندما تستغـرق العملية السياسية الوقت الكافي كي تأخذ مداها.

استوعب آندي الكيفية التي يعمل بها كل من البيت الأبيض وواشنطن وذلك لأنه سبق لـه أن عمل في خدمة ريغـان ووالد الرئيس الحالي. أدرك أيضـاً الثقة غير محدودة التي وضعهـا بوش في كل من كارل وكارن، ومـدى التقدير الذي يكنه لآرائهما. عمل آندي على أن تأخـذ العمليـة السياسية مجراها، وأن يشعر موظفو البيـت الأبيض بأنهم ضمن هذه العملية. أدار باقتدار أهم سلعة بالنسبة للرئيس من حيث قيمتها - وقته - وذلك بالتأكد مـن أن النـاس قابلوا الرئيس فقط عندما شعروا أنهـم بحاجة لذلك. وأكثر ما كان لافتاً للنظـر أن آنـدي أدار وأشرف على البيت الأبيض تماماً كما كان بوش يفضل - أي بحزم، وانضبـاط، وتركيز، وتخطيط مبني على التفكير والتركيز. أبقى آندي الإدارة مغلقة على نفسها متى أراد له بوش أن يقوم بذلك بطريقة جعلت المعلومات ترشح لقلة قليلة ومختارة من المسؤولين.

التقيـت بآندي في قافلـة الحملة سنـة 2000. وكان هذا اللقـاء إذا لم تخنّي الذاكرة قبـل مؤتمر الحزب الجمهـوري الذي طلب إليه الإشراف عليه. بـدا شخصاً ودوداً جداً، ولطيفـاً، وفي ملامحه مسحة مـن كبرياء، لكنني في واقع الأمر لم أتعرف عليه كما يجب، إلا عندما بدأنا العمل معاً في البيت الأبيض.

مـع اقتراب نهاية المرحلة الانتقاليـة، وقبل حفل التنصيب بوقت قليل، جمع آندي كل الموظفـين الذين سيعملون في الجناح الغربي مـن البيت الأبيض. لم يسبق للعديد منهم، مثلي أنا، أن عملوا في البيت الأبيض قبلاً. أصغينا بانتباه بينما كان يتحدث عما يمكن أن نتوقعـه ومـا يتوقعه هو منا. تحدث عن العمل بشرف في ذلك المكان. كما أكد على أهمية العمل معاً بروح الفريق. نحن هنا جميعاً كي نقوم على خدمة الرئيس. تحدث عن أهمية فضيلـة التواضـع، وعن أهميـة أن لا نسمح لوظيفتنـا هذه أن تتسـل إلى داخل رؤوسنا، وتـدع الغرور يتملكنا. تحدث أيضاً عن كثافـة حجم العمل هنـاك. وأعلمنا أن مدة العمل في الجناح الغربي لا تتجاوز في العادة مدة سنتين. طلب إلينا «أن نتذكر متى يجب علينا

أن نـترك العمـل». ذكر لنا مثالاً لذلك: جون سنونو رئيـس أركان البيت الأبيض في عهد الرئيـس بوش الأب، والذي أخفق في تذكر موعد تركه للعمـل مما اضطر رئيسه إلى أن يفرض عليه ذلك.

لم يكـن من السهـل تقدير ما كان يقوله آنـذاك، ولكن بعد أن بـدأت العمل في البيت الأبيض، استطعـت استيعاب تنبيهاته بشكل أفضل بكثير. يمكـن للمرء أن يكون مرتاحاً جداً داخل الفقاعة. وعندما يحصل ذلك، يصبح منظور المرء عقيماً، وتستنزف طاقاته. يمكن أن يستهلك المرء ذاته. يحتاج الرئيس إلى التغيير، وإلى منظورات، ورؤى، وطاقات جديـدة في طاقم عمله. ولهذا فإن الاستـدارة إلى الخلف تصبح مهمة؛ وإذا كان توقيتها صحيحاً، تصبح عملية مفيدة جداً.

بالطبـع، لم يكـن روف وهيـوز وكارد الأشخاص الوحيدين مـن ذوي النفوذ في البيت الأبيض في عهد بوش. فقد كان هناك اثنان من المستشارين المشهورين منذ البداية، وهما مستشارة الأمن القومي كونداليزا رايس، ونائب الرئيس ديك تشيني.

رايس التي أشرفت على بوش في قضايا السياسة الخارجية كانت الشخص الذي اعتمد عليه بوش عندما كان الأمر يتعلق بقضايا الأمن القومي التي بدأت أثناء الحملة الرئاسية. ولمـا كان بوش غير ملم كثيراً بالشؤون الخارجية، فقد اعتمد على فريق من العيار الثقيل ممـن لهم باع طويل في مجال السياسة الخارجية لمساعدتـه في صياغة سياسة تعتمد في توجههـا على مبادئـه كالحرية والقوة العسكرية الضاربة وحريـة التجارة. ترأست رايس ذلـك الفريق الـذي سميَّ آنذاك بفريـق الفُلكانيين؛ وضم هذا الفريـق ريتشارد آرميتاج (الصديـق المقرب من كولن بـاول)، وبول وولفويتز، وستيف هادلي (وهما من أتباع ديك تشينـي)، وريتشارد بيرل، وبوب بلاكويل، وبوب زوليك (أحد أتباع جيمس بيكر)، ودوف زاكيـم. كان جورج شولتز غالباً ما يدعى للاستمـاع إلى نصائحه، وعندما أصبح تشيني هـو المرشح لمنصب نائب الرئيس، انضم بـدوره إلى ذلك الفريق. نسب اسم هذا الفريق إلى تمثـال فلكان المهيب، وهو إله النـار والآلات المعدنية عند الرومان، وهو من العلامات المميزة لموطن رايس في مدينة برمنغهام في ولاية ألاباما. طوّرَ بوش علاقة قوية مع رايس، وكان يثـق بأحكامها، وسرعة بديهتها ورؤاها. ومثلما كانت نظرة بوش متطابقة تماماً مع

أسلـوب هيوز في أدائهـا في مجال الاتصالات، كذلك كان الأمر بين بوش ورايس في مجال الشؤون الخارجية.

أراد الرئيسـ منذ البداية انضمام نائب الرئيسـ وفريقه إلى عمليات البيت الأبيض. كان تشيني وكبار مستشاريه يشكلون جزءاً لا يتجزأ من فريق العمل. كان بوش يقدر عالياً خـبرة تشيني ومعرفته، خصوصاً في مجال الأمـن القومي وكان دائماً يطلب مشورته. في الوقـت نفسه، كانت لتشينـي ومستشاريه بالأساس، عملياتهـم الخاصة بهم، كما سأبين فيما بعد في هذا الكتاب.

كانت تربط بوش بتشيني علاقة وثيقة - وبالأساس، خاصة. كان تشيني يفضل تقديم مشورتـه للرئيسـ في جلسات مغلقة. كان يدعـى مع كبار مستشاريـه للمشاركة في جميع الاجتماعات الرئاسية التي يتـم فيها عرض للسياسة الخارجية، واجتماعات الرئيس مع قـادة الدول، واجتماعـات الكونغرس، ومـا إلى ذلك. بطبيعة الحـال، كان لتشيني تأثير كبير في مجـال السياسة الخارجية. وكان يبدي اهتماماً خاصـاً بمسائل تتعلق بالسياسة الاقتصاديـة، على الأخصـ، بمسألتي الضرائـب والطاقة. أبدى بوشـ لتشيني احتراماً كبـيراً عندمـا كلفه القيام بمهمة محددة وهي ترؤس لجنـة الطاقة في المرحلة الأولى من حكم هذه الإدارة، كما كلفه بترؤس ما أطلق عليها عملية الكلاب المدربة على صيد الطيور مهمتهـا إقناع قادة الكونغرسـ ببرنامج التنصت على المكالمـات الهاتفية الذي طُرِح بعد أحـداث الحادي عشر مـن أيلول. كما اعتمد بوش على مقـدرة تشيني في صياغة ما كان بوش يعتبرهـا سياسات ضرورية لها علاقة بالأمن القومـي حول مسائل مثل المحتجزين من مقاتلي القاعدة.

لكـن الترويـكا المكونة مـن روف، وهيـوز، وكارد - وعلـى الأخصـ، روف - هي التي قـادت الحملة الدائمة داخـل البيت الأبيضـ متماهية في ذلك مع عقليـة المناورة المبنية علـى الخطط السياسيـة والاتصالات التي استخدمها سلف بوشـ، والتي تسببت في نفور الكثـير من الأمريكيين. كان ذلك يتم عبر الإعداد لحملات في غاية التنظيم بغية تشكيل مصادر للدعم الشعبي الذي يراد له أن يصب في مصلحة بوش، مثل الدفع باتجاه خفض الضرائب، وإصلاح التعليم، وتسويق الحرب على العراق.

كانت الترويكا وتركيبة البيت الأبيض مطية جيدة لبوش، أقلّه في بداية رئاسته. وإذ أعلن تشيني في بداية سنة 2001 أن «أيام غرف الحرب والحملة الدائمة قد ولت إلى غير رجعة»، فإن الحقيقة كانت في مكان آخر. فقد تمت إعادة هيكلة الحملة الدائمة، كما تم وضع تعريف جديد لها، وتوسعت بحيث إنها أصبحت ملائمة للبيت الأبيض في عهد بوش. ثبت أن طرائق وأساليب الحملة الدائمة ناجحة جداً عندما استطاع البيت الأبيض في بداية عهد بوش تسويق اثنين من الموضوعات التي تشكل أولوية قصوى للشعب الأمريكي، وتمريرهما عبر الكونغرس. أسهمت النجاحات الأولى التي تحققت في بداية عهد بوش إلى خلق جو من الإحساس بأنها إدارة لا تقهر، وهي بذلك جعلت هذه الإدارة في موقف ضعيف أمام الأخطاء التي ارتكبت، والتي أدت إلى إلحاق أذى كبير برئاسة بوش.



6

الأيام الأولى

الأشهر الستة الأولى التي تلت استلام بوش لمقاليد الحكم في العشرين من كانون الثاني، يناير سنة 2001 كانت حاسمة في التعريف ببوش وإدارته. تبين لبوش وكبار مستشاريه أهمية تحقيق بعض الانتصارات عبر التوقيع على بعض قرارات تتعلق بسياسة الإدارة مثل خفض الضرائب وإصلاح التعليم. كما أراد أركان حكمه تصويره على أنه القائد القوي القادر على توحيد الشعب الأمريكي، وأنه يملك الثقل الضروري في مجال السياسة الخارجية (وهذه الأخيرة كانت مصدر قلق حول قدرة قيادة بوش).

في الوقت نفسه، كانت نغمة الأداء التي أطلقتها هذه الإدارة ذات أهمية قصوى. كانت الأغلبية الساحقة من الأمريكيين تتوق إلى أن يستعيد الخطاب السياسي الوطني حضاريته. فقد أرهقها الإفراط في النزوع إلى الحروب الحزبية التي سادت عقد التسعينات، وكانت مستعدة للانتقال إلى مرحلة ما بعد فضائح كلينتون الشخصية، وأنهكها تمديد مدة الانتخابات سنة 2000. ولكن لم يكن مؤكداً أن واشنطن كانت مستعدة للاستجابة إلى الدعوة للعمل بشكل جماعي في جو يسوده التعاون الحزبي.

اكتشف بوش أثناء الحملة المزاج العام لغالبية الأمريكيين الذين كانوا في موقع الوسط السياسي، أو يميلون باتجاهه. حث الأمريكيين على وضع حد «السياسة الغضب»، والبدء في «انطلاقة جديدة بعد عصر من التهكم». قال بوش إنه ليس على واشنطن أن تكون «منطقة سياسة الصفر، أي سياسة الغالب والمغلوب».

الآن، وفي مستهل رئاسته، بدا لي أن بوش ملتزم بتطبيق هذه التوجهات. ففي الخطاب الذي ألقاه في حفل تنصيبه، عاد بوش إلى موضوع الحملات:

أمريكة في أفضل أحوالها، هي أهل للوفاء بالتزاماتها بالمبادئ وتضع نصب عينيها القيم المدنية. يتطلب المجتمع المدني من كل فرد من بيننا الإرادة الطيبة، والاحترام،

والتعامـل العادل فيمـا بيننا، والتسامح. يبـدو أن بعضهم من بيننا مؤمن بـأن سياستنا يمكـن أن تكون ضيقة الأفـق، لأن مردود مداولتنا في زمن السلم يبدو غير ذي شأن. لكن المـردود بالنسبـة لأمريكة ليس قليل القيمة أبداً ... يجب أن نكون على مستوى ما نشترك جميعـاً فيـه. المدنية ليست تكتيـكاً، ولا عاطفة. إنها الخيار الحر لـروح الثقة مقابل روح التهكـم، وروح الجماعـة مقابل الفوضى. إن هذا الالتزام، إذا مـا حافظنا عليه، سيكون الطريق إلى الإنجاز الذي نحققه جميعاً.

لا أحـد في البيـت الأبيض، بمن فيهم أنا، كان ساذجاً لدرجـة أنه لم يكن يعي صعوبة وضـع حـد للحروب الحزبيـة العميقة الجـذور في واشنطن في الأيـام الأولى تلك. لكنني كنت أؤمن بأن بوش كانت لديه الإرادة كي يقوم ببذل جهد جماعي ومنظم للارتقاء فوق المناوشات الحزبية المدمرة والانحرافات التي تتسبب فيها آلة الضجيج في واشنطن. لسوء الحـظ، جرت الأمور عكس المبتغـى. وعندما أنظر ورائي وأتذكر ما كان يجري في الغرف المغلقة خلف الأداء العلني للبيت الأبيض خلال تلك الأشهر الأولى من عمر الإدارة، فإني أتوصل إلى فهم أفضل لبعض العوامل التي أسهمت فيما بعد في انحراف رئاسة بوش عن خطها المرسوم.

كانـت الأسابيع القليلة الأولى تعج بالنشاط الفوضوي. كان كل شيء يتم دفعة واحدة. انتقلـت إلى شقتـي الصغيرة في مركز المدينـة في منتصف الطريق بـين مبنى الكابيتول والبيـت الأبيض بعد حفل التنصيب في نهاية الأسبوع. كانت متطلبات الانتقال إلى البيت الأبيضـ كنائـب للسكرتير الصحفي مـن الكثافة بحيث إنها لم تـترك لي سوى قليل من الوقـت للاستمتـاع بالاحتفالات التي كانـت تجري. كنت كما الكثيرون غـيري، قد أنهيت للتوحزم أمتعتي من المكتب الانتقالي في اليوم السابق. اقترح علينا جو هاغن، نائب رئيس أركان البيت الأبيض الجديد لشؤون العمليات الانتظار حتى مساء يوم الأحد قبل الدخول إلى مكاتبنـا الجديدة في الجناح الغربي وذلك كـي نفسح المجال لإكمال أعمال التنظيف والترتيـب. عندما وطئت قدمي عتبـة المبنى وأنا أحمل لوازمـي الشخصية التي كنت قد وضعتها في علبة، شعرت بأن تلك اللحظة ستفتح أمامي بالتأكيد باب النجاح. سوف تكون

هنــاك العديد مــن اللحظات المشابهة خلال الأسابيع الأولى مــن ولاية بوش، بما في ذلك اللحظة التي قفلت فيها عائداً بسيارتي إلى المنزل بعد يوم عمل طويل في الجناح الغربي، آخـذاً الطريق الشرقي باتجـاه الجانب العشبي الجنوبي من البيـت الأبيض. نظرت إلى يساري، وهناك كان البيت الأبيض - قصر الشعب - يلمع تحت الأشعة الصفراء الناعمة المنبثقــة مــن طوفان من الإضــاءة التي تشق عتمة ليل واشنطــن. لا يمكن لهذا المنظر أن يشيخ أبداً.

أسرعنــا نحث الخطى يوم الاثنين، وهو أول يوم عمل كامل لنا. استيقظت في الخامسة صباحــاً، وشرعــت في قــراءة صحيفتــيّ النيويورك تايمــز والواشنطن بوســت وهما أكثر صحيفتين تمليان توجّهَ وسائل الإعلام الوطنية، وتصيغان عناوين الأخبار. انطلقت بعدها باتجــاه البيــت الأبيض حيث وصلت قبــل السابعة صباحاً. عقدت عــدة اجتماعات مبكرة مــن أجل مناقشــة القضايا الصحفية المطروحة في ذلك اليــوم بالإضافة إلى إستراتيجية الرسالــة، وأعقب ذلك اجتماع السكرتير الصحفي الصباحي مع جمهرة من الصحفيين. تلا ذلك العرض الصحفي لفترة ما بعد الظهر، وهما الجلستان العلنيتان اللتان ستصبحان محــور نشاطــي اليومي في الدور الجديد الذي أقوم به. تحولــت دورة العمل بسرعة إلى ما يشبه الروتين، إلا أنها لم تكن يوماً أقل تطلباً - أو مثيرة للملل أبداً.

منــذ البداية، كان موضوع العراق يلــوح في خلفية المشهد. في يوم الاثنين ذاك، ذكرت النيويــورك تايمز نقــلاً عن تقريــر استخباراتي محلي جديد وذلك علــى صدر صفحتها الأولى أن العــراق يعيد بناء المصانع «التي كانــت الولايات المتحدة تشكك دائماً أنها تنتج أسلحــة كيميائية وبيولوجية، استناداً إلى ما ذكــره مسؤولون كبار في الحكومة». وأطلقت التايمــز على ذلك التقرير امتحاناً أولياً لتعهد بوش «بأنه سيتخذ موقفاً أكثر تشدداً» من صدام حسين مما قام به سلفه المباشر.

بقــي العــراق على رأســ القضايا التي ركزت عليهــا كل مــن الإدارة ووسائل الإعلام في الأشهــر التي تلت استــلام بوش للرئاسة. وضع مجلس الأمن القومي العراق على رأس أولوياتــه في عملية صياغــة سياسته. أما بشأن اليوم الأول، ونظــراً إلى أنه لم يكن قد تم حتى ذلــك الحين وضع سياسة محددة وصارمة حول هذا الموضوع، فقد أبلغنا الصحافة

أن الرئيس يتوقع من صدام حسين أن يلتزم باتفاقه مع الأمم المتحدة القاضي بعدم قيام نظامه بإنتاج أسلحة دمار شامل.

أصـدر الرئيس بوش في اليوم نفسه مذكـرة وجهها إلى مدير وكالـة التنمية الدولية الأمريكيـة طالباً منه إعادة تفعيل ما يسمـى سياسة مكسيكو- سيتي. هذه السياسة التي أقرهـا في البدايـة رونالد ريغان تقول إن أي منظمة غـير حكومية تتلقى الدعم المالي من وكالـة التنمية الدولية الأمريكيـة لا يمكن أن تمول أو تسوق لعمليـات الإجهاض كطريقة مـن طرائق التخطيط العائلـي، باستثناء حالات الاغتصاب، وسفـاح القربى، وما يمكن أن يعرض حيـاة الأم إلى الخطـر. كانت تلك إشارة مبكرة إلى قاعـدة بوش الاجتماعية المحافظة توحي بأن إدارته ملتزمة بقوة بالقضايا التي تهم هذه القاعدة المحافظة.

وكمـا كان مخططاً، فقد ركز بوش علناً على إصلاح التعليم منذ الأسبوع الأول. بدأنا عمليـة الإطـلاق يوم الثلاثـاء مركزين على العناصـر الرئيسة للمبادرة بمـا في ذلك ما يتوجب علـى الولايات فعله لتطوير أنظمة امتحاناتها السنويـة لقياس مدى التقدم الذي أحرزه الطلبة، وكذلك مدى المرونة المتزايدة التي وفرتها عملية إنفاق الأموال الاتحادية، وشـروط تقديم المساعـدات الإضافية للمدارس ذات الدخل المتـدني، ومبدأ تقديم خيار الدراسة للطلبة الذين يعتبرون بحكم الراسبين.

تم التركيـز بشـكل كبـير على إظهـار أن الرئيس يمد يـده إلى أعضـاء الكونغرس الديمقراطيـين والجمهوريين على حد سـواء. كان الكونغرس منقسماً بشكل حاد، لكن مجلـس الكونغرسـ كان يسيطـر عليهما الجمهوريـون، وكان مجلس الشيـوخ منقسماً بنسبة خمسين مقابل خمسـين، ولكن نائب الرئيس تشيني كان يملك الصوت المرجح، ممـا منح الجمهوريين السيطـرة على المجلس بالرغم مـن اتفاقهم مع الديمقراطيين علـى تقاسم السلطة. أما في مجلس النواب، فإن الانقسام كان على الشكل الآتي: 221 نائبـاً جمهورياً مقابـل 211 نائب ديمقراطي، إضافة إلى اثنـين من المستقلين. (نظراً إلى وفـاة عدد لا يستهان به مـن النواب واستقالة آخرين، فقـد كانت الأعداد تتفاوت قليلاً في الأشهر اللاحقة).

في الأسابيع الأولى من ولايته، عقد بوش سلسلة من الاجتماعات مع قادة الحزبين لمناقشة أهم الأولويات المتعلقة بالسياسة الداخلية بما في ذلك التعليم، وإلغاء الضرائب، ومبادرته التي تستند إلى الإيمان، وقانون حقوق المرضى - وهي أولويات أطلق عليها بوش وصف «القضايا الساخنة جداً على رأس القائمة». قمنا بتسجيل نقطة لصالحنا تتمثل في جذب الانتباه إلى حقيقة أننا مددنا يد التعاون إلى كلا الحزبين.

أول رحلة لي مع الرئيس بوش بعد انضمامي إلى أركان البيت الأبيض كانت إلى خلوة لأعضاء مجلس النواب من الحزب الديمقراطي، عقدت في منتجع يقع خارج مدينة بيتسبيرغ مباشرة في أول عطلة نهاية أسبوع من شهر شباط، فبراير. وقد سبق لبوش حضور خلوة أعضاء مجلس الشيوخ من الديمقراطيين. لم يحضر كلينتون أبداً خلوات الجمهوريين، ومن ثم فإن خطوة بوش حظيت باهتمام وسائل الإعلام، واستحقت الثناء من القادة الديمقراطيين وذلك لتخطيها الحواجز الحزبية. ولم تكن تلك الخلوة مفتوحة أمام الصحافة.

بدأ الرئيس إبداء ملحوظاته في تلك الخلوة بالقول: «سوف أبذل كل ما بوسعي من أجل تغيير نغمة الحوار في واشنطن. آمل أن يختلف الناس بطريقة مقبولة. أحد الأشياء التي صممت على تحقيقها هي القول: هذا هو موقفي، وأود أن أسمع رأيكم أيضاً. سوف يتطلب التعاون بين الحزبين أكثر من مجرد كلمات نلقيها من أجل التسويق لسياسة علاقات عامة جيدة - وأنا واثق من أننا هنا جميعاً من أجل القيام بذلك».

ثم أضاف قائلاً: «خضت انتخابات الرئاسة بناء على خطة عمل (أجندة). أنا هنا اليوم لأن هذا ما أريد أن أتحدث معكم بشأنه. أؤمن بأن فعل الشيء الصحيح يتمثل في القيام بفعل ما قلت إنك سوف تفعله» أثناء الحملة الانتخابية. أردف موضحاً أنه مصمم أن يثبت أن هذا التوقع في غير محله بالقول: «إن ما يتوقعه بعضهم هو أن شيئاً لن يحدث بسبب قرب موعد الانتخابات». وتابع: «أحد أسباب قدومي إليكم في هذا المكان هو لأقول لكم من أنا، وما هي أجندتي، ولأستمع إلى ما ترغبون في قوله».

تلقـى بعد ذلك عدداً من الأسئلة. قال له عضو مجلس النواب العجوز تشارلي رانغل عـن مدينة نيويورك، والذي يتمتع بقدر واسع من الاحترام بصوت أجش لكنه آسر: «أيها السيد الرئيس، أنت شخص جيد!» أقرَّ بعدها أن بوش «أظهر الكثير من الشجاعة» بزيارته إلى تلك الخلوة لمد يد التعاون إلى الديمقراطيين، وتساءل فيما إذا كان بوش سوف يحث قـادة حزبه أيضاً على العمل معاً عبر جانبيّ المجلس. أجاب بوش أنه «ملتزم بحمل هذه الرسالة الحضارية نفسها إلى قيادة الحزب الجمهوري».

بعـد عـدة سنين، كنت أسمـع رانغل عضو الأقليـة في لجنة الطـرق والوسائل، القوية النفـوذ يعـبر أكثر من مرة عـن تقديره للرئيس بسبـب دعوته قادة الحزبـين إلى البيت الأبيض - وكانـت تعقب ذلك شـكاوى تفيد بأن بيـل توماس، رئيـس اللجنة من الحزب الجمهـوري، لا يفعل الشيء نفسه، وذلك بعدم إفساحـه المجال بما يكفي لأعضاء اللجنة من الحزب الديمقراطي للاشتراك في المداولات داخل اللجنة.

أمـا الخلوة، فقد كانـت اجتماعاً ودياً، ولكن كان من الصعوبـة بمكان القول فيما إذا كان الديمقراطيـون منفتحـين حقيقةً على الجهود المبذولة من أجـل التعاون الحزبي، أو أنهـم كانوا مقتنعـين بصدق توجه بوش. بعضهم كان ما يـزال منزعجاً من قضية إعادة فـرز الأصوات في ولايـة فلوريدا، بما في ذلك التحدث إلى المؤتمرات الحزبية للأمريكيين السود. قاموا بممارسة الضغط على بوش من أجل إجراء إصلاحات انتخابية مستخدمين نـبرة تنم عن توتر واضح. ولكن رغبة يشوبهـا الشك برزت من بين صفوف قادة الحزب الديمقراطي، وغالبية المجتمعين، للتأكد من أن الرئيس سوف يحكم انطلاقاً من مصالح القاعـدة العريضـة، أي من الوسط، ويأخـذ بعين الاعتبار مخـاوف الديمقراطيين. كان التخطيط لأغلب الأشهر الستة الأولى قد تم مسبقاً من قبل كبار مستشاري الرئيس، وتم ذلك بطريقة المدرب البارع الذي يخطط (لدزينة) من مباريات كرة القدم مسبقاً. وتعد السيطرة على مقادير (الأجندة) في واشنطن وسيلة للتركيز على الصورة الرئيسة، حتى عندما يكون المرء يرد على الأخبار اليومية، ويجيب على ما هو غير متوقع. فهم روف هذه المعادلـة جيداً، وعليه، فقد استطاع قيادة جهود التخطيـط الاستراتيجي مستنداً إلى ما

كان قـد زوده به عدد من كبار المساعدين في البيت الأبيض، خصوصاً كارن هيوز، وآندي كارد، وكوندوليزا رايس.

إحـدى الطـرق التي حاولنا فيها إطـلاق هذه (الأجندة) كانت عـبر الحصول على «موضـوع الأسبوع»، الذي تتركـز حوله أغلب عناصر النشاطـات العامة التي يتضمنها جـدول أعمـال الرئيسـ. فكان يكرسـ أسبوعاً من أجـل موضوع التعليـم، يزور خلاله المدارسـ، ويتحـدث إلى مجموعـات من الآبـاء والمدرسـين. كان يمضـي أسبوعاً آخر يركـز فيه على موضوع خفض الضرائب، ويجتمع مع «عائلات الضرائب» وصغار رجال الأعمال متحدثاً إليهـم باستفاضة عن الفوائد التي سيجنونها بموجب خطته لتخفيض الضرائـب، تمامـاً كمـا كان يفعل أثنـاء حملته الانتخابيـة. وكان يركـز في أسبوع آخر علـى قضايا الدفاع، ويقـوم بزيارته الأولى إلى إحدى القواعـد العسكرية، وهي قاعدة فـورت ستيـوارت في ولاية جورجيا للتحدث عن مبادرته من أجـل مشروع إسكان أفضل لأفـراد القوات المسلحة، وكان يتبع ذلك باختلاق مناسبة لتسويق فكرة تطوير القدرات العسكريـة من أجل مواجهـة التهديدات الجديدة في عصر ما بعد الحرب الباردة، وهو ما كان يشكل أولوية في السياسة الخارجية طيلة مدة الحملة الانتخابية.

تلك كانت جزءاً من خطتنا المرسومة بدقة كي ندفع بالرئيس للبدء في انطلاقة سريعة، ولتقديمه كقائد قوي مصمم على الوفاء بوعوده التي أطلقها إبان حملته الانتخابية، وعلى تنفيذ الخطط المرسومة.

منـذ الأيـام الأولى مـن عملي، أصبحتُ جـزءاً من العمليـات السياسيـة والتشريعية وعمليـات وسائـل الاتصـالات في البيـت الأبيضـ. كانـت لي حصتي مـن الاجتماعات: اجتماعـات الإستراتيجيـة التشريعية لمناقشة المبـادرات المهمة؛ اجتماعـات يومية حول موضـوع الاتصالات بإدارة كارن هيوز؛ اجتماعات مـع رئيس المباشر، آري فليشر، وذلك قبل بدء الاجتماع مع كبار الموظفين، والجمهرة الصباحية، ولقاءات فترة ما بعد الظهر؛ والاجتماعات التي تعقد مرتين أسبوعياً لتنسيق مواعيد المناسبات العامة التي سيحضرها الرئيس؛ واجتماعات رسم السياسات حول موضوعات محلية محددة بما في ذلك مشروع

قانــون حقوق المرضــى، ومشروع قانون إصــلاح تمويل الحمــلات الانتخابية، والمشكلات العرقية، والبيئة، والرعاية الطبية، وأبحاث الخلايا الجذعية، والتعليم.

تقاسمــت مع زميلتي كلير بوكان المسؤوليات بحســب الموضوعات. تولت كلير القضايا الاقتصادية، وأخذت أنا على عاتقي أغلب الموضوعات المحلية الأخرى؛ بينما تولى المكتب الصحفي لمجلس الأمن القومي شؤون السياسة الخارجية. كنا نتأكد من أننا قمنا بتغطية جميــع الموضوعات للسكرتير الصحفي عبر تحضير النقاط التــي يريد التحدث بشأنها، ومساعدته في أن يكون مطلعاً أول بأول على الموضوعات كافة وذلك لتجنب وقوع أي مفاجآت في قاعــة اللقاءات الصحفية. عندما كنت أنوب عــن آري، كان عليّ القيام بالتركيز على موضوعــات أكثر شمولية. كنت أحياناً أشارك أيضــاً في الاجتماعات الرئاسية مكان آري بما في ذلك اجتماعات الكونغرس، واجتماعات عرض السياسات.

بالإضافــة إلى قيامه بالتواصل مع أعضــاء الكونغرس من الحزبين، فقد قام الرئيس بالتواصــل مــع كبــار زعماء العــالم. كانت تلــك محاولة لإظهــار الرئيس بمظهــر المهتم «بالدبلوماسيــة الشخصية» الهادفة إلى تقويــة تحالفاتنا في الخارج. كان من المهم إبراز مقــدرة بوش علــى التأسيس لعلاقات شخصيــة قوية مع الحلفاء، آخذيــن بعين الاعتبار خبرته المحدودة في مجال السياسة الخارجية.

كانــت واجباتي كنائــب للسكرتير الصحفي تتضمن أيضــاً مرافقة الرئيس في رحلات رئاسية مختارة. كلما سافر الرئيس إلى وجهة ما، كان يرافقه بيت أبيض افتراضي يتكون مــن مستشاريــن، وموظفي دعم، وعملاء سريين للحماية، وأفــراد من الجيش. تمد وكالة الاتصــالات في البيت الأبيض (WHCA)، وهي ذراع للمكتــب العسكري في البيت الأبيض خطوط اتصالات آمنة، وأخرى غير آمنة في الغرف التي يحتلها الرئيس، ومواقع الموظفين المرافقــين في المواقــع التي تجري فيها المناسبــات، وكذلك في مكاتــب الموظفين والأجنحة الرئاسيــة في الفنادق التي ينزل فيها الرئيس، وتقيم مراكز توثيق صحفية تتضمن منصة مــن أجل أي تصريحات أو مقابلات محتملة، كما تهيــئ مكتباً صحفياً تضع فيه مجموعة من أجهزة الكومبيوتر وخطوط الاتصالات الهاتفية. يسافر السكرتير الصحفي عادة على

مــتن الطائرة الرئاسية (Air Force One) بينما يسافر واحد من نائبيْه، كلير أو أنا، على مــتن طائــرة الصحفيين المؤَجّرة المرافقة. أما في الرحــلات الخارجية، فإن الناطق باسم مجلس الأمن القومي يرافقه أيضاً مع بقية أفراد السلك الصحفي التابع للبيت الأبيض.

أول رحلة لنا إلى الخارج كانت لمدة يوم واحد توجهنا فيها إلى مدينة سان كريستوبال في المكسيك في شباط، فبراير، حيث شارك الرئيس في سلسلة من النشاطات والاجتماعات مع الرئيســ فينسينت فوكس. وكان من المفارقة التــي تستشرف المستقبل أن المؤتمر الصحفي المشــترك الأول الــذي عقده الرئيس مــع أحد زعماء العالم، وكان ذلــك في مزرعة الرئيس فوكســ، طغت عليه أسئلة حول العراق. كانت الطائرات الحربية البريطانية والأمريكية قد قصفــت لتوها عــدداً من مواقع الرادار والدفاعات الجوية بمــا في ذلك مواقع حول بغداد. كان تنفيــذ هــذه المهمة يتطلب موافقة من الرئيس لأن هــذه المواقع تقع خارج منطقة حظر الطــيران في العــراق التي فرضناها بالتعــاون مع البريطانيين. كان ذلــك رداً على الجهود العراقية المكثفة من أجل محاولة إسقاط لطائراتنا داخل منطقة حظر الطيران، بما في ذلك إطــلاق صواريخ أرض- جو. وكان ذلك أول عمــل عسكري ذي شأن يوافق الرئيس الجديد علــى القيــام به. وصف بوش هذا الــرد «بالمهمة الروتينية» لتعزيــز منطقة حظر الطيران، ولتذكير صدام حسين أن عليه الالتزام بالاتفاقات التي وقعها بعد حرب الخليج.

بعد انتهاء الزيارة، قفل آري عائداً إلى واشنطن مع بعض الموظفين لقضاء عطلة نهاية الأسبــوع. وكانــت هذه بداية لسلسلة مــن رحلات قمت بها على متن الطائــرة الرئاسية، وتضمنــت جولة رافقني فيها رئيس طاقم المضيفــين في الطائرة - وكانت لحظة أخرى لا تنســى، ذكّرتني باللحظة التي ابتسمت فيها الحياة لي عندما ولجت إلى داخل المعمعة في البيت الأبيض.

حضــر الرئيس والسيدة بوش حفــل إقامة النصب التذكاري الوطني في أوكلاهوما في اليوم الثاني، وكان يوم الاثنين قبل العودة إلى واشنطن. ما زلت أذكر بوضوح تجوالي في ذلــك المتحف التفاعلــي الذي أقيم تخليداً لذكرى التفجــير الرهيب لمبنى مورا الاتحادي سنــة 1995 الذي قــام به تيموثي ماكفي. كانت صالة الشــرف، وهي واحدة من محطات

الجولـة، غرفة مظلمة كان الناس يسمعون فيها تسجيـلاً لجلسة استماع في إحدى غرف الاجتماعات قطعتها فجأة أصوات انفجارات قوية. وحالما تعود الإضاءة إلى الغرفة، فإنك تلحظ فوراً صوراً لمئة وثمانية ستين شخص فقدوا حياتهم في ذلك التفجير.

في وقـت لاحق من شهر شباط، فبراير، استضاف الرئيسـ طوني بلير رئيس وزراء بريطانيا العظمى في منتجع كامب ديفيد. كان العراق على جدول أعمال الاجتماع، وأثار فضـول الصحفيين الذين غطوا المؤتمر الصحفي الذي عقد أثناء الزيارة. تحدث بوش وبلـير عن ضرورة إعادة النظـر في العقوبات المفروضة على العراق عبر الأمم المتحدة. كانـت الفكرة تقضي بأن يتم فرض مـا اصطلحنا عليه بمصطلح العقوبات الذكية التي تهـدف إلى كبـح لجام النظام مـن دون إيذاء الشعـب العراقي وذلـك بتشديد الرقابة علـى البضائـع التي يمكـن أن تستخـدم لأهداف عسكريـة، ومنع النظـام الحاكم من الحصـول علـى تمويل سري وغـير قانوني من تهريـب النفط. ردد بوش مـا قاله بلير: «إن أي تغيـير في العقوبـات لا يجب أن يؤدي بحال من الأحـوال إلى أي تشجيع أو تقوية لصـدام حسين. عليه أن يفهم أننا سوف نقـوم بمراقبته عن كثب، وإذا تحققنا من أنه يقوم بتطوير أسلحة دمار شامل، فسوف نقوم باتخاذ الإجراءات المناسبة. وإذا ثبت أنه يهدد جيرانه، فسوف نقوم باتخاذ الإجراءات المناسبة». كان صدام يُعتبرُ «مشكلة» وليس «خطراً رهيباً تزداد حدته» في الأيام الأولى تلك. كان الحديث يتركز آنذاك حول ما إذا كان يطور أسلحة دمار شامل، وليس حول أنه يقوم بتطويرها.

المسؤولية الأخرى التي كانت منوطة بي في الأشهر الأولى هي أنه كان يطلب إليّ أحيانا التواجـد في مقابلات صحفية لكبـار المسؤولين. في بداية شهر شبـاط، فبراير، حضرت بعضـ المقابلات التي قمنا بترتيبها لرئيسـ أركان البيت الأبيض آندي كارد. ففي مقابلة مـع وكالـة الأسوشيتد برس لخص آنـدي بإيجاز شديد آراءه حول ثـلاث من المسؤوليات الجوهريـة المناطة بموظفي البيـت الأبيض: الإشراف على «العنايـة بالرئيس وإطعامه»، والتأكـد مـن عملية صياغـة السياسة بشكل منضبـط، وإدارة عملية الترويـج لسياسات الرئيسـ وتسويقها. كان آندي يستوعب جيـداً الصورة الكلية. عرف آندي، شأنه في ذلك شأن كارل روف، وكارن هيوز، والرئيس نفسه، أن تسويق السياسة وبيعها – وهذه طريقة

أخـرى لتوصيف الحملات الدائمـة - عامل مهم في تنفيذ ما هو مرسوم، ومقياساً رئيساً من مقاييس قوة الرئيس ونجاحه.

أشرف كارل روف على عملية التخطيط الاستراتيجي داخل البيت الأبيض فيما يتعلق بترويج السياسة وتسويقها. أسس روف لاجتماعات «إستراتيجية» دورية مستخدماً عبارة مشتقـة ليس، كما قد يظن بعضهم، من عبـارة قالها في واقع الأمر بوش نفسه، ولكن من عبارة ساخرة في برنامج Saturday Night Live قالها ويل فيريل الذي كان يقلد بوش في ميله إلى «تشويه اللغة الإنجليزية» (أي تحدث مثل بوش نفسه).

ركزت اجتماعات «الإستراتيجية» علـى التخطيط والإستراتيجية الطويليْ الأجل لمدد تـتراوح بين أسابيع وأشهر قادمة. كان مكتـب روف للمبادرات الإستراتيجية يساعد على تنسيـق الجهود بما في ذلك تحضـير المواد وإجراء الأبحاث من أجـل معرفة كيف تعامل البيـت الأبيض في العهود السابقة مع تحديات مشابهـة. كان النجاح الانتخابي هو الغاية القصوى - كسب المزيد من المقاعد للجمهوريين في الكونغرس سنة 2002، وإعادة انتخاب جورج بوش للرئاسة سنة 2004.

الحاضـرون في اجتماعات الإستراتيجية هـم روف، وكارن هيوز، وآندي كارد، ونائب رئيس أركان البيت الأبيض للشؤون السياسية جوش بولتين، وسكرتير أركان البيت الأبيض هارييت مايرز ، ومستشارة السياسة المحلية مارغريت لامونتين، ومستشارة الأمن القومي كوندوليـزا رايس، ومستشـار الاقتصاد الوطني لاري ليندسـي، ومستشارة نائب الرئيس مـاري ماتالين، وضابط الارتباط لشؤون التشريع نيك كاليو. كان لنواب كبار المستشارين هؤلاء اجتماعاتهم الإستراتيجية الدورية الخاصة بهم. كانت القضايا التي تحتل الأولوية في اجتماعـات الإستراتيجية ترشح عبر سياسـة البيت الأبيض، ووسائل الاتصالات فيه، ومـن الأقسام التشريعية بحيث كان بالإمكان مناقشة الأفكار وتطويرها من أجل طرحها للنقاش في جلسات مقبلة. هكذا أصبحت ملماً بصياغـة الإستراتيجية، وذلك لأن كارن هيـوز كانـت تسألنا جميعاً في الاجتماعـات التي كنا نجريها في فريـق الاتصالات بشكل منتظم عن مواد وأفكار جديدة.

كانت كارن هيوز بصفتها مستشارة للرئيس، مسؤولة عن إدارة رسالة الرئيس، والإشراف على كل اتصالاته. كان دورها الرئيس يتمثل في المساعدة على تعميم الرسالة وتنفيذها في كل أرجاء البيت الأبيض، والإدارة بشكل عام. كما قامت بدور المستشار بالنسبة إلى معظم القرارات المهمة التي اتخذت على مستوى كبار الموظفين، ومن قبل الرئيس نفسه.

وهكذا فقد تداخلت السياسة مع المناورات السياسية بعمق في نسيج البيت الأبيض في عهد بوش. رأى أغلبنا ممن سبق له العمل في مجال العمل السياسي سواء لمدة قصيرة أم طويلة أن هذا أمر طبيعي، لا يشوبه أي شر أو فساد. رأينا أن الرئيس كان أكثر انفتاحاً وأكثر وضوحاً، وصدقاً من سلفه، محقاً بشأن مواقفه من القضايا المطروحة، كما كنا على اقتناع بأن آراءه متطابقة مع آراء معظم الأمريكيين. كنا نرى أن أنه لا يوجد تناقض بين هذه الافتراضات وبين وجود عملية سياسية كبيرة تُحضّرُ داخل البيت الأبيض، ومكرسة لإطلاق (أجندة) عامة. إنها مجرد جزء من اللعبة السياسية، وهي مهمة لا بد من القيام بها؛ ويسعدنا ويشرفنا أن نشارك في صنعها.

ولكن عندما يخطو المرء خارج عتبة المعمعة في البيت الأبيض، ويعود بنظره إلى الماضي بمنظور الحاضر، تصبح من السهولة بمكان رؤية أن ما كنا نقوم به لا يختلف في كثير أو قليل مع ما كان يقوم به سلفنا المباشر. كانت لدينا، تماماً كإدارة كلينتون، هيكلية دقيقة لإدارة الحملة داخل البيت الأبيض، وهي التي حددت وجهتنا في معظم ما كنا نقوم به. كنا نركز دوماً على الطريقة التي نسيطر فيها على (أجندتنا)، ونصيغ الحبكة الإعلامية، ونبني الدعم الشعبي لسياساتنا - وهو بالضبط ما سعى إليه زعماء الحزب الديمقراطي في واشنطن. كان بوش قد قطع على نفسه عهداً بأنه سوف يغير من مسار الأمور في واشنطن. ولكن كيف له أن يقوم بالتغيير إذا كانت إدارته تمارس اللعبة نفسها، وبالشروط نفسها؟ لم أستطع تبيان التناقض في ذلك الوقت، والأمر نفسه كان بالنسبة إلى معظم زملائي باعتقادي.

إلا أن النظام كان فاعلاً - أقلّهُ في الشهور الأولى من عمر الإدارة. فقد ساعدنا على تمرير مشروع الرئيس في تخفيض الضرائب بحلول نهاية أيار، مايو. وقد ارتأينا أن كماً

كبيراً من الفائض المتوقع في الميزانية والبالغ 5,6 تريليون دولاراً (بما في ذلك مبلغ 2,6 تريليون دولاراً مخصصة للضمان الاجتماعي) يجب أن تعاد لدافعي الضرائب. وهذا برأينا سوف يؤدي إلى زيادة معدل النمو، وتوفير فرص العمل، ويخرج الاقتصاد (الذي وصفته بعض التقارير الاقتصادية في وقت لاحق، بالركود) من عجلة انحداره.

قام بوش بزيارة ست وعشرين ولاية خلال المئة يوم الأولى من رئاسته، وركزت العديد من هذه الزيارات على حث الجمهور كي يقوم بالضغط على الكونغرس من أجل أن يتحرك. كانت هناك الكثير من حملات التشكيك من قبل وسائل الإعلام، وفي بداية الأمر، لم يحظَ بوش بكثير من الدعم في استطلاعات الرأي. لكن الجهد المبذول في الحملة أثبت فاعليته ونجاحه بشكل لافت. فالرزمة التي تم تمريرها لم تكن تغطي كل ما أراد بوش تحقيقه، ولكنه حصل على معظم ما كان يصبو إليه: خفضٌ للضرائب بمعدل 1,35 تريليون دولار على مدى السنين العشر القادمة، وهو مبلغ أقل بمعدل 1,6 تريليون دولار مما كان يطمح إليه. تلقى بوش بعضاً من الدعم من كلا الحزبين، بما في ذلك الدعم الذي حصل عليه من اثني عشر من الديمقراطيين في مجلس الشيوخ.

كان مشروع قانون التعليم الذي أطلق عليه بوش وصف «لا أطفال من دون تعليم» (NCLB) نقطة إيجابية لصالح حملة الإدارة. ونظراً إلى أن مشروع القرار هذا، يهدف إلى ردم هوة التحصيل بين مدارس المناطق ذات الأداء العالي المستوى وبين مدارس المناطق ذات الأداء الأقل مستوى، فقد تم تمريره في مجلسي النواب والشيوخ في أعقاب جهد منظم بشكل جيد، مترافق بدعم شعبي. وبعد أن تمت تسوية الخلافات حول عدد كبير من التفاصيل، بما في ذلك بعض الجدل الحزبي حول مسائل تتعلق بمستويات التمويل (خصوصاً في مجلس الشيوخ الذي كان سيسيطر عليه الديمقراطيون لاحقاً)، وبعد الاتفاق بين أعضاء لجنة المؤتمر، فقد تم إقرار مشروع القانون هذا، وتمت المصادقة عليه، فأصبح نافذاً اعتباراً من كانون الثاني، يناير، سنة 2002.

كان هناك الكثير من المطبات على طريق الإدارة في الأشهر الأولى من عمرها.

فقـد قرر السيناتور جيم جيفوردس عن ولاية فيرمونت وهو جمهوري معتدل منذ مدة طويلـة، أن يفجر الحـزب في الوقت الذي تقرر عرض تشريع خفض الضرائب للموافقة في نهايـة شهر أيار، مايو؛ ذلك أنه أصبح مستقلاً، وقدم دعمه للديمقراطيين موفراً لهم بذلك فرصة السيطرة على مجلس الشيوخ، ومهيئاً الأرضية للسيناتور توم داشل عن ولاية جنوب داكوتا كي يصبح رئيساً للأغلبية في مجلس الشيوخ.

سببت مدة الستين يومـاً المخصصة للمراجعة التنظيمية لأنظمة عهد كلينتون، والتي كانت ستدخل حيز التنفيذ، بعض المشكلات في الكيفية التي تم استقبالها من قبل الشعب؛ حينما تم رفض بعض قواعدها، أو إضعافها، ذلك أن بعض النقاد استغلوا هذه القرارات لتصوير بوش كمعادٍ للبيئة، أو كشخص يهتم بمصالح الشركات على حساب حماية أفراد الشعب الأمريكي.

أمـا حملـة الرئيس في مجـال الطاقة، التي قادهـا نائب الرئيس ديـك تشيني، فقد عقـدت سلسلـة من الاجتماعات مع مجموعـة من غير أصحاب المصالـح الذين أبقيت أسماؤهـم طـي الكتمان. وأعطت هذه اللفتة انطباعاً أولياً عـن هذه الإدارة بأنها ميالة نحـو السريـة، وعززت صـورة البيـت الأبيض في عهد بوش باعتباره مطيـة لأصحاب المصالح من الشركات.

وكمـا هي الحال بالنسبـة إلى أي إدارة جديدة، كان هناك نوع من الخلل الذي فرض علينـا تغيـير إجراءاتنا. على سبيـل المثال، حصلت عـدة تسريبـات إلى وسائل الإعلام حـول المناقشـات بشـأن إستراتيجية رسالـة البيت الأبيض - وهذا ما أثـار حنق بوش، وكارد، وروف، وهيـوز. ولكي تُمْنَـعَ أي تسريبات مشابهة في المستقبل، أعيدت جدولة عدة اجتماعـات للتخطيط في مجال الإستراتيجية. فالاجتماع الذي كان يعقد مرتين أسبوعياً حـول رسالـة البيـت الأبيض تحـول إلى اجتمـاع عام يعرض فيـه البرنامج العـام، ونوع الموضوعات بدلاً من القيام بمناقشات علنية، ومداولات بشأن الأفكار. فقد تم تجيير هذه القـرارات الإستراتيجية إلى اجتماعـات يحضرها عدد أقل من المشاركين، وتقتصر على كبار المستشارين.

مع حلول فصل الصيف، بدا وكأننا نعاني بعض المشكلات في تحديد رسالة الصورة الشاملة كي نلج بها إلى الناس في وسط هذه الضوضاء الإعلامية. كنا نكافح من أجل إقرار تشريع ذي أولوية عالية مثل مشروع قانون يتعلق بحقوق المرضى، والمبادرة المرتكزة إلى العقائد. بدأت الانتقادات لعمليات البيت الأبيض في مجالَي التشريع والاتصالات تطفو على السطح. كانت هناك الكثير من المناقشات داخل البيت الأبيض حول كيفية الخروج بطرق جديدة نركز فيها على أهم أولوياتنا بحيث تحذو وسائل الإعلام حذونا، وبحيث لا نقع في مطب الخوض في قضايا «الكرة الصغيرة»، أو نتعامل بمنطق ردة الفعل على (أجندات) الآخرين.

أما بالنسبة لي شخصياً، فقد كنت بدأت بالاستقرار في حياتي الجديدة، والتعود على مناخ عمليات البيت الأبيض الداخلية، والسفر مع الرئيس، والتعامل مع وسائل الإعلام الوطنية. في شهر نيسان، أبريل، كان عليّ أن أقف أمام ثلة ملؤها الحيوية من السلك الصحفي، والتي كانت تغطي أول أزمة لعهد بوش في البيت الأبيض في مجال السياسة الخارجية - أتحدث هنا عن عملية الهبوط الاضطراري البطولية في الأراضي الصينية لطائرة استطلاع أمريكية من نوع EP-3 Aries بعد اصطدامها في الجو مع مقاتلة صينية أرسلت لاعتراضها (وكانت نتيجة هذا الاصطدام سقوط الطائرة الصينية ومقتل قائدها). كان رجالنا، أعضاء طاقم الطائرة محتجزين في الصين في تلك الأثناء. نجح الرئيس وفريقه من أعضاء مجلس الأمن القومي في وضع نهاية سعيدة للموضوع من دون الحاجة إلى أي تصعيد في الأزمة، بما في ذلك عودة طاقمها من العسكريين. كان عليّ أيضاً الترتيب للقاء الصحفي الحيّ صبيحة اليوم الذي اتخذ فيه الرئيس قراره المثير للجدل حول البحوث في مجال الخلايا الجذعية، والذي أعلنه في الرسالة الأولى له وقت الذروة بصفته رئيساً من مدينة كروفورد في بداية شهر آب، أغسطس. كانت مثل تلك اللحظات بمثابة تعميد بالنار بالنسبة لي ناطق باسم الرئاسة، منحتني بعض الثقة المبكرة في قدرتي على التعامل مع تحديات مشابهة في المستقبل عند الضرورة.

كان التركيـز في الفترة الأولى مـن رئاسة بوش على الأهـداف (الأجندة) الداخلية؛ إلا أن الرئيس بـدأ بإثبات وجوده على صعيد جبهة السياسـة الخارجية أيضاً. كان يدفع باتجـاه سياسة الدفاع الصاروخي، التي ستؤدي في نهايـة المطاف إلى انسحاب الولايات المتحدة من معاهدة وقف إنتاج الصورايخ المضادة للصورايخ الباليستية المبرمة مع روسيا (ABM). كانت عملية تطوير القدرات العسكرية تشكل أولوية قصوى بالنسبة لبوش، وبدأ وزير دفاعه دونالد رمسفيلد بالدفع باتجاه وضعها حيز التنفيذ. وجه بوش خطابه الرئيس الأول في مجـال السياسة الخارجية في أوروبا عند توقفه في وارسو حيث حثّ على ضرورة نشر الحرية في العالم أجمع. ركز بشكل كبير أيضاً على موضوع الدبلوماسية الشخصية، حيث أسس لعلاقات شخصية متينة مع زعماء العالم من أجل تقوية تحالفاتنا.

كمـا أوضح بوش وفريقه من أعضاء مجلس الأمـن القومي أننا مصممون على اتخاذ مقاربـة أكـثر صرامة في التعامل مع صدام حسين ونظامه المارق، بالرغم من أن أحداً لم يكن يتوقع أن أزمة في تلك المنطقة كانت وشيكة. مع ذلك، كان بوش ومستشاروه يرسلون إشـارات واضحـة إلى صدام تفيد بأن عملاً عسكرياً قاسيـاً واردٌ إذا تجاوز ذلك النظام حـدوده، ولـن يكون ذلك العمل العسكـري مجرد ردٍ بالمثل. وفي الوقـت الذي تزايد القلق داخـل الإدارة من التـآكل التدريجي والمستمـر في نظام العقوبات الـذي اعتُمِد في العقد الماضي، قامت روسيا بنقض مشروع قرار العقوبات الذكية على العراق والذي تقدمت به الولايات المتحدة إلى مجلس الأمن في صيف 2001.

لم تخـلُ الأشهر السبعة الأولى من عمـر الإدارة الأمريكية من عمليات الشد والجذب السياسـي. كنـت متأكداً من أن واشنطن ليسـت تكساس. كانت الثقـة معدومة بين قادة الحزبـين في الكونغرس. وكانت ذكريـات المواجهات الماضية كثيرة، كما كان انعدام الثقة عميقـاً بينهما. كانـت مرارة نتائج انتخابات سنة 2000 ما تـزال تحوم فوق رؤوس بعض الديمقراطيين. وكان الشك حول مسألة ما إذا كان الرئيس صادقاً في الشعار الذي رفعه في أنه سيكون «موحداً لا مفرّقاً» أمراً شائعاً؛ كما أن بعض الليبراليين شككوا في أن عبارة

«المحافظ ذي القلب الرحيم» ليست أكثر من تناقض عديم المعنى. لكننا في إدارة بوش، كنا نستمتع بنجاحاتنا التي تجاوزت الحدود الحزبية في مجالَي قانون خفض الضرائب، وقانون «لا أطفال من دون تعليم» لدرجة أننا كنا متفائلين بإمكان توحيد الأمة وراء مجموعة أهداف (أجندة) يتبناها بفخر معظم الأمريكيين؛ إن لم أقل كلهم.

ولكن بعد ذلك، جاء اليوم الذي تغير فيه كل شيء.



7

الحادي عشر من أيلول ووقف إطلاق النار بين الحزبين

لن أنسى أبداً مثل معظم الأمريكيين، أين كنت في صباح الحادي عشر من أيلول، سبتمبر سنة 2001؛ فقد استقر في ذاكرتي إلى الأبد. كنت مسافراً مع الرئيس عندما كان يُحَضِّر للحديث عن إصلاحات في سلك التعليم، وعن مبادرته حول مهارة القراءة على وجه الخصوص، وذلك في إحدى المدارس الابتدائية في مدينة ساراسوتا بولاية فلوريدا. كانت هذه الفعالية جزءاً من رحلة لمدة يومين تهدف إلى حث الكونغرس على إقرار رزمة التعليم التي اقترحها بوش. كان السكرتير الصحفي آري فليتشر يرافق الرئيس على متن طائرة الرئاسة، بينما كنت مسافراً في صحبة مجموعة أكبر من الصحفيين المرافقين للرئيس في طائرة مُستأجَرة.

شارك الرئيس في مناسبة تعليمية في مدرسة ابتدائية في مدينة جاكسونفيل، بولاية فلوريدا، في اليوم السابق؛ أما نحن فقد قضينا ليلتنا في منتجع «كولوني بيتش» في ساراسوتا (والذي كان سيغلق بسبب انتهاء الموسم في اليوم الثاني لمغادرتنا ذلك المنتجع).

كانت حافلات الصحافة التي تقل مجموعة كبيرة من صحفيي البيت الأبيض قد غادرت قبل نصف ساعة من انطلاق موكب الرئيس، من ثم كان بمقدور هؤلاء الصحفيين أن يحضروا مواقعهم قبل وصول الرئيس إلى مدرسة «إيما بوكر» الابتدائية. وكما هي العادة، فقد جهزت الشبكات غرفة للبث تتضمن كل ما تحتاجه من أجهزة البث بما في ذلك تدوين ملاحظات الرئيس على شاشات التلفزيون. تمت إقامة مركز للتوثيق يستوعب أفراد الطاقم الصحفي كافة، بحيث أصبح بمقدور الصحفيين كتابة الأخبار وإرسالها، وتلقي التصريحات، وكذلك تركيب منصة لإلقاء التصريحات بواسطة

السكرتير الصحفي أو موظفين آخرين في الإدارة. وعلى مسافة قريبة من ذلك المكان، أقيم مكتب صحفي تابع للبيت الأبيض.

بعد الوصول إلى المدرسة، والتحقق من غرفة البث، ومركز التوثيق، والمكتب الصحفي (في هذه الحال، كانت جميعها موجودة في أحد الصفوف الدراسية)، ذهبت إلى مكتبة المدرسة حيث كان من المقرر أن يتحدث فيها الرئيس بعد أن يقوم بزيارة إلى أحد الصفوف الدراسية. كانت كاميرا الشبكات، وطواقم الصوت، ومحطات وسائل الإعلام المحلية موجودة في الأمكنة المخصصة لها على منصة الصحافة وراء المقاعد التي وضعت من أجل أعضاء الجمهور الذي يتضمن إداريي مدارس، ومعلمين، وأولياء أمور. وقد خصصت مقاعد في الخلف لصحفيي البيت الأبيض. جلست بين جودي كين الصحفية في صحيفة «يو. إس.إي. تودي» وبين دافيد سانغر من صحيفة نيويورك تايمز.

كنا نتحدث في العموميات عندما رن جهاز تلقي الاتصال الخاص بي. قرأت الرسالة. كان برايان برافو، وهو مساعد شاب في المكتب الصحفي، أول من أورد هذا الخبر العاجل في الوقت نفسه الذي كان يُبَثُّ نحو الساعة الثامنة وخمسين دقيقة من صباح ذلك اليوم: اصطدمت إحدى الطائرات بمركز التجارة العالمي. تساءلت كيف يمكن لحادث غريب مثل هذا أن يقع. هل كانت طائرة صغيرة ربما تعرض ربانها إلى نوبة قلبية، وفقد السيطرة على طائرته؟ هل حدث خلل كبير في أنظمة المراقبة الجوية. بدا الوضع غامضاً جداً.

صحتُ قائلاً: «هذا مريع».

سألت جودي: «ماذا؟»

قلت: «أذاعت وكالة الأسوشيتد برس أن طائرة اصطدمت بمركز التجارة العالمي». وكان إحساس جودي وديفيد بالصدمة لا يقل عن إحساسي بها.

تحركنا بسرعة إلى مركز التوثيق لمشاهدة الحدث على شاشة التلفزيون. انضم إلينا معظم الصحفيين المرافقين لنا في رحلتنا، وكان الآخرون من بينهم موجودين سلفاً في تلك الغرفة. كنا نراقب المشهد بانتباه عميق محاولين فهم حقيقة ما جرى، عندما صاح أحد الصحفيين فجأة: «هناك طائرة ثانية اصطدمت بالبرج الآخر!»

أظننـي لمحت بطـرف عيني انفجاراً آخـر في الوقت الذي كنت أتحـدث إلى أحدهم، لكنني اعتقدت أن ذلك الانفجار ثانوي.

سألتـه: «هـل أنت متأكد؟» كان الآخـرون يتساءلون فيمـا إذا كان قد وقع انفجار جديد أيضاً.

أعيـد بـث المشهد نفسه بعـد لحظات قليلة، ورأينـا جميعاً اصطـدام الطائرة الثانية بالبرج الثاني. سرت قشعريرة في ذراعيّ وفي ظهري. بدأت فكرة قيام أحدهم بالاعتداء علـى أمريكة بطريقـة (دراماتيكية) ومميتة بالتسلل إلى مساحـة شعوري. التفت معظم الصحفيـين في تلـك اللحظة صوبي ونظروا إليّ، حيث كنـت أقف في المنطقة الخلفية من مركز التوثيق الصغير. كانت تلك ردة فعل طبيعية من قبلهم. كان ذلك حدثاً عظيماً. ما الذي يسمعه البيت الأبيض، وما الذي يقوله؟ لكنهم كانوا يعرفون جميعاً أن عليّ الخروج للتأكد مما حدث.

قلـت: «سوف أعـود بعد قليل». كان لا بد لي من اقتفاء أثر كبـار المسؤولين المسافرين معنـا ذلك اليوم، والاطلاع منهم على ما يعرفونه حول الموضوع. وبينما كنت أخطو خارج مركـز التوثيق، رآني أحد موظفينا المتقدمين وقال قبـل أن يسمع سؤالي: «اتبعني. سوف أرافقـك إلى المعقـل». كانت تلك غرفـة خاصة أقيمت كغرفة عمليـات هادئة تحتوي على هواتـف آمنة وأخرى غير آمنة كي تكـون بتصرفنا أثناء زيارة الرئيس. في هذه المناسبة، كان معقـل الرئيس شبيهاً بمعقل كبـار الموظفين. كان ملاصقاً للغرفة الدراسية التي كان الرئيس يراقب فيها تلامذة الصف الثاني الابتدائي وهم يأخذون درساً في القراءة، وكان هـو يشاركهم هذا الدرس. وكانت الطريق الوحيدة للولوج إلى ذلك المعقل هي عبر غرفة الصف الصغيرة تلك.

وبينما كنت اقترب مع الموظف المتقدم من غرفة الصف، كان الجمع الصحفي قد بدأ المغـادرة. فقد انتهوا للتو من عملية تصوير الرئيـس وهو يقرأ أمام تلامذة الصف، ولذا فإنهم الآن يُقتادون إلى الخارج، كما هي العادة بعد انتهاء عمليات تصوير من هذا النوع.

ولكن قبل دقيقة من حصول ذلك، قام جمع الصحفيين بتصوير آندي كارد وهو يتجه إلى الرئيس، ويهمس في أذنه قائلاً: «لقد ضربت طائرة ثانية البرج الثاني. أمريكة تتعرض لهجوم» وقد أعيد بث تلك اللقطة عدداً لا يحصى من المرات.

وبينما كنا نلج إلى غرفة الصف، سأل بعض أعضاء الجمع الصحفي عن معرفتي بحادث اصطدام الطائرة في نيويورك؛ فهم لم يكونوا قد سمعوا بحادثة الطائرة الثانية بعد.

أخبرتهم بأننا «شاهدنا للتو طائرة ثانية تصطدم بالبرج الثاني؛ هذا كل ما أعرفه». مراسلة محطة أخبار ABC لم تسمعني جيداً على ما يبدو، فسألتني: «هل قلت إن هناك طائرة ثانية؟»

أجبتها: «نعم، ضربت طائرة ثانية البرج الثاني. هذا كل ما أعرفه».

قادني بعدها الموظف المتقدم إلى معقل الموظفين، وكان على يساري. وبينما كنت أدخل إلى غرفة الصف، وأمشي صوب الجهة الخلفية نحو المعقل، نظرت إلى الرئيس الذي كان يجلس في كرسي الأستاذ أمام التلامذة. كان أحد التلامذة يقرأ أمام الرئيس، لكن كان من الواضح أن عقل الرئيس كان حيث وقع الهجوم. لم ألمح أبداً مثل ذلك التعبير البارد على وجهه من قبل. قرأت في عينيه أنه كان على يقين أننا نمر في حال حرب.

انضممت إلى فريق الموظفين المسافرين في المعقل. بعد بضع دقائق، دخل الرئيس وشاهد البرجين على شاشة التلفزيون وهما يحترقان. ثم جلس وتلقى بعض المكالمات الهاتفية طالباً معلومات أكثر عن الحادث. أذكر أنه طلب إلى أحدهم إغلاق جهاز التلفزيون. (يحب بوش عادة أن يكون الجو المحيط به خالياً من كل ما يمكن أن يشتت تفكيره). كان آري فليشر موجوداً هناك، وكذلك دان بارليت، وآندي كارد، وكارل روف، وديبورا لوار، عضو مجلس الأمن القومي، ومديرة غرفة المواقع في البيت الأبيض.

تحدث بوش مع نائب الرئيس عبر أحد الخطوط الهاتفية الآمنة، ومع مدير مكتب التحقيقات الفيدرالية روبرت موللر (الذي لم يكن قد مضى على استلامه للمنصب

أكـثر من أسبوع)، ومع باتاكي، حاكم ولاية نيويورك. أخبر كلٌ من تشيني وموللر الرئيس بالمعلومات التي لديهما بشأن الموضوع، والتي كما خمنت حينها، لم تكن أكثر من المعلومات التي كانت متوافرة لدينا في حينه. طلب الرئيس من الحاكم باتاكي إبلاغ سكان نيويورك أن الحكومة الفيدرالية ستبذل كل ما بوسعها للمساعدة في الرد على هذا الهجوم.

بعـد إجراء تلك المكالمات، أمسـك الرئيس برزمة مـن الأوراق الصفراء، وبدأ يخط بعض الملاحظات حول ما يجب أن يصرح به قبل مغادرة المدرسة. تجمهر كبار الموظفين المتواجديـن في تلـك الرحلة حـول الرئيسـ. كان برنامج الزيارة موزعـاً على مرحلتين: التوقف في إحدى الغرف الدراسية، ثم إبداء بعض الملاحظات حول التعليم لجمهور من الحاضريـن لا يتجاوز الثلاثين شخصـاً مجتمعين في المكتبة. أمـا الخطة الآن فتقتضي قيـام الرئيسـ بإلقاء تصريح مقتضب حول ما حدث في نيويـورك، وإعلام الحاضرين، وكذلـك وسائل الإعلام أن عليـه العودة إلى واشنطن حالاً للإطـلاع على مجريات هذه المأسـاة. وقفت إلى جانـب الرئيس من جهة، ووقف دان بالقرب منه، أما آري فقد جلس معه إلى الطاولة.

أشار الرئيس إلى أنه ليس بحاجة إلى بيان رسمي معد سلفاً. هو الآن يتحدث بصوت عـالٍ، وهو يكتب مقاطـع مما سيلقيه في الوقـت الـذي كان كارد وآري يزودانه بالأفكار. قـال الرئيس: «وقعت اليوم مأساةٌ وطنية، فقد اصطدمت طائرتان ببرجيّ مركز التجارة العالمي في هجوم إرهابي على بلادنا»

اعترض دان قائلاً: «لسنا متأكدين من أن ذلك كان هجوماً إرهابياً».

قـال بوشـ: «إنه كذلـك بالتأكيد، مـاذا تظنه إذاً؟» أنـا وآري وافقنـا الرئيس أن من الواضح أنه هجوم إرهابي.

أجـاب دان: «ما أريد قوله هو أننـا لم نتأكد من أي شيء بعد. فنحن لا نعرف من هو المسؤول».

قلـت مقدماً أسهامي المتواضـع: «إذاً، قل فقط هجوم إرهابي علـى ما يبدو». أضاف الرئيس هذه الكلمة الإضافية.

اتجـه الرئيس برفقة الموظفين بعد ذلك مباشـرة إلى المكتبة لإلقاء كلمته المختصرة. وفي واحـدة مـن محطات تلك الكلمة، خرج عن النص المكتـوب ليتوعد بأنه سوف يلاحق «هؤلاء الأشخاص» قبل القول «إن الإرهاب ضد بلادنا لن يمر من دون عقاب»؛ وهو بذلك كان يـردد العبـارات نفسها التي استعملها والـده بعد غزو العراق للكويـت. رأى جمعٌ أن تعليقـات الرئيس الأولى كانت عادية جداً، وأنهـا لم تكن قوية، أو توفر الاطمئنان للشعب كمـا كان يجب أن تكـون. لكنه استرد موقعه بسرعة وظهر بمظهـر المتشدد، كما أضحت أقواله وأفعاله مبعث اطمئنان في الأيام التي تلت تلك الحادثة.

بينمـا كان الرئيس يضع اللمسات الأخيرة على خطابـه، نظر آري إليّ. كنا نقف وراء الستائـر التي كانت تستخدم دائمـاً كطوق مضروب حول الرئيسـ لحمايته. سألني: «ألا تعتقد أنه يجب أن ترافقنا إلى واشنطن؟»

أجبتـه: «لا أظن ذلك، فأنا ضابـط الارتباط الوحيد بين البيـت الأبيض وبين السلك الصحفـي. لذا، أظـن أنه من الأفضـل أن أبقى معهم لأزودهم بالمعلومـات التي يمكنني الحصول عليها».

بعد عدة دقائق، غادر الرئيس متوجهاً إلى واشنطن.

عـدت إلى مركز التوثيق، وهنـاك أبلغني المساعد الصحفي هـاري وولف أن مراسلي الأخبـار جاهزون للبث الحي من ساحـة المدرسة. مشيت إلى الخارج، وذكرت لهم بشكل واضـح أسماء الأشخاص الذين تحدث الرئيس إليهـم، وما قاله لهم؛ وذلك لأنني أعتقد أنه من الأفضل في وقت الأزمات إعطاء المعلومات والوقائع بأسرع وقت ممكن للصحافة، وهذا ما حاولت القيام به.

وبينمـا كنت أقفـل عائداً إلى مكتـب التوثيق، هرولـت نانسي هارميـير، المخرجة في شبكـة فوكسـ نيوز، نحوي. كنـت أعرف نانسي جيـداً. فقد غطـت أنشطة حملتنا الانتخابيـة. قالـت نانسـي: «يـا سكوت، يقـول زملاؤنـا في واشنطن إن مبنـى المكتب التنفيذي قد ضُرِبَ أيضاً».

سألتها وأنا في حالٍ من الذهول: «مبنى المكتب التنفيذي؟»

أجابت: «نعم، يقولون إن سحابة من الدخان تخرج منه. هل سمعت أي شيء عن هذا الأمر؟»

شعرت بأن الضرب يقترب مني أكثر فأكثر؛ فأخي الأكبر، مارك، وهو عضو في مجلس مستشاري الرئيس للشؤون الاقتصادية، وكبير مستشاريه لشؤون السياسة الصحية، كان يعمل في مبنى المكتب التنفيذي. كما أن العديد من الزملاء الذين تربطني بهم معرفة جيدة كانوا يعملون هناك أيضاً، بمن فيهم أصدقاء مقربون. مرة أخرى، شعرت بقشعريرة تسري في كافة أنحاء جسدي.

قلت: «لم أسمع بأي شيء من هذا القبيل».

قفلت عائداً إلى مكتب التوثيق فوراً لأرى ماذا يمكنني القيام به على شاشة التلفزيون. كانت التقارير الواردة تؤكد أن مبنى البنتاغون قد تم ضربه. أكدت نانسي بعد ذلك مباشرة أن بعضاً من زملائها أكدوا أنهم شاهدوا الدخان يتصاعد من مبنى البنتاغون، لكنهم اعتقدوا أن ذلك الدخان كان ينبعث من مبنى المكتب التنفيذي، وأنه كان من الكثافة بحيث إنه حجب عنهم رؤية مبنى البنتاغون. كان من الصعب التصديق بأن مبنى وزارة الدفاع يمكن أن يقصف من قبل الإرهابيين. انتابني شعور بالألم الشديد، بالرغم من أن ذلك ترافقَ مع إحساسٍ ببعض الارتياح بعد أن علمت أن مبنى المكتب التنفيذي لم يكن هو المستهدف في الهجوم.

فكرت كثيراً بوالدتي في تلك اللحظة لأنني كنت أعلم أنها جد قلقة (كنت ما أزال غير متزوج حينها). كانت في مدينة أوستن، وكانت تشغل منصب مراقب النفقات في ولاية تكساس. خطوت إلى الخارج، واتصلت بمكتبها من هاتفي المحمول. ونظراً لأن إحساسي بالأزمة كان طاغياً، لم أتوقف حتى للسؤال فيما إذا كانت موجودة في المكتب. فقط، قمت بالطلب إلى مُساعدتيّها نورا ألفورادو وليزا رايت أن «تقولا لوالدتي إنني بخير، وإنني مع الرئيس في فلوريدا، وإنني أحبها وسوف أتصل بها مساء اليوم».

عدت بعد ذلك إلى العمل. عانيت من بعض المشكلات في محاولاتي الاتصال بكلير بوكان في البيت الأبيض؛ وكلير هذه، هي زميلتي التي تشغل موقع النائب الآخر للسكرتير

الصحفـي. أذكر أن محاولتي الاتصال بها استغرق بعض الوقت لأن شبكة الاتصالات في واشنطـن كانت مضغوطة أكثر مما ينبغي. ولكن عندمـا استطعت أخيراً الاتصال معها، استمـرت كلير بتزويدي بكل ما لديها من معلومـات، وذلك كي أستطيع إبلاغ الصحفيين بالمعلومـات المتوافرة لدى البيت الأبيض. كمـا زودني آري بالمعلومات المتوافرة لديه، وبما فعلـه الرئيس وهم في طريقهم إلى واشنطن مستخدمين ممـراً غير مباشر للوصول إلى البيت الأبيض، بما في ذلك التوقف في قاعدتين جويتين. كان رجال الأمن السريون قلقين مـن أن يكون الرئيس نفسه مستهدفاً. علمت فيما بعد أن آندي كارد ونائب الرئيس اتفقا مـع رجال الأمـن السريين على أن الرئيس لا يجب عليه الآن العـودة إلى واشنطن إلى أن ينجلي الغبار عن مدى هذا التهديد.

لم أكـن على اطلاع على شيء من هذا في حينه؛ ولكن تم إخلاء معظم الموظفين ممن لا تستدعـي طبيعـة وظيفتهم التواجد في البيـت الأبيض في أوقات كهـذه. كان على كلير المُرابَطة في غرفة المواقف، كونها كبيرة الناطقين الصحفيين في البيت الأبيض وذلك من أجل القيام بواجب الاتصالات المنوطة بالمكتب.

بعـد انقضاء فـترة ما بعد الظهر، عدت إلى منتجع كولـوني مع بعض الموظفين الذين بقوا إلى جانبي في فلوريدا، بمن فيهم كيللي غانون، مديرة الصحافة المتقدمة، والمساعد في مكتـب السفريات، جو بيلي، بالإضافة إلى هاري وولف، وأعضاء من السلك الصحفي في البيـت الأبيض الذين تم الطلب إليهم البقـاء معنا. كان مكتب السفريات التابع للبيت الأبيض مسؤولاً عن تنسيق الاحتياجات المتعلقة بالتنقل مثل تأمين الحافلات والطائرات، وحجـز أماكـن الإقامة للسلـك الصحفي. كان هـذا المكتب غير معروف نسبيـاً بالنسبة للجمهـور قبـل حادثة ترافيل غيت، وهـي واحدة من سلسلة من الحـوادث المثيرة للجدل التي تورط فيها البيت الأبيض في عهد كلينتون.

كان بو أول من أبلغني أنه ليس بالإمكان تأمين عودة السلك الصحفي – ومن ثم أنا – إلى واشنطن في تلك الأمسية. كان من المعروف أن نورم مينيتا، وزير النقل قد أمر بعدم

إعطاء الموافقة على إقلاع أي طائرة مدنية، ومنع كل الرحلات غير المصرح بها. وضعت أعداد من الطائرات الحربية في حال استنفار من أجل الدفاع عن الأجواء وتقديم الدعم في حال الضرورة. بقيت على اتصال بكلير حتى مساء ذلك اليوم. استمعت في تلك الليلة من غرفتي في منتجع كولوني إلى الكلمة التي وجهها الرئيس إلى الأمة من المكتب البيضاوي. بدا في تلك الإطلالة أكثر ثقة بنفسه، وأكثر قوة في تلك الليلة مقارنة بما ظهر عليه في بداية ذلك اليوم.

توجهت في صباح اليوم الثاني إلى مركز التوثيق الصحفي في منتجع كولوني، وأقمت مركزاً في المكتب الصحفي التابع للبيت الأبيض. كان ذلك في الغرفة نفسها المحاطة بستائر زرقاء كبيرة. تابع بووزملاؤه في مكتب السفريات المحاولة لتأمين عودة الصحفيين إلى البيت الأبيض. ولما استطعنا أخيراً الحصول على إذن لطائرة الصحفيين المستأجرة للإقلاع من مطار ساراسوتا والهبوط في قاعدة أندرو الجوية فإن الشركة رفضت السماح لطائرتها بالطيران في ظل هذه الظروف.

أبلغنا الصحفيين أننا سنبذل قصارى جهدنا، ولكن علينا الآن إبلاغهم بأننا لن نستطيع تأمين عودتهم إلى منازلهم على متن طائرة الصحفيين المستأجرة.

بحلول ذلك الوقت، كان أحد صحفيي الشبكة الإعلامية قلقاً بسبب أنه لن يكون بمقدوره العودة إلى واشنطن لتغطية الحدث الأكبر في فترة رئاسة بوش، وأنه الآن يشعر بالخجل أو الحرج في التعبير عن إحساسه بالإحباط. ونظراً لكونه صحفياً متمرساً، فقد كان يرغب في أن يكون في قلب الأحداث. كان يزعجه أن يرى زملاءه من الشبكة الإعلامية نفسها الذين بقوا في واشنطن ينقلون الأخبار والتقارير من خارج البيت الأبيض، وهم يقفون في المنطقة نفسها التي كان هو ينقل منها الأخبار، والمعروفة باسم «منطقة شاطئ الحصى»، وحيث يقع في الخلفية مشهد نورث بورتيكو المهيب، في الوقت الذي هو عالق هنا في مدينة ساراسوتا.

خرج ذلك الصحفي من بين جموع الصحفيين وتوجه إليّ أمامهم مشيراً بإصبعه وهو يقول: «بربك يا سكوت! أنت نائب مساعد الرئيس. ولديك القدرة على تأمين طائرة عسكرية تقلنا إلى واشنطن. هذا غير معقول!»

أزعجتني قليلاً وقاحة ذلك الصحفي. قلت له بالمقابل: «إن الجيش لديه أولويات أهم منك في الوقت الحاضر». كان ردي الحاسم والسريع كافياً لإسكاته، في الوقت الذي خيم الصمت على بقية الموجودين في الغرفة.

شعرت بالاستياء قليلاً كوني عنَّفتُ ذلك الصحفي أمام زملائه، إلا أن واحداً من مخرجي إحدى الشبكات اقترب مني لاحقاً وقال لي: «أريد فقط أن أقول لك إنك كنت محقاً في ما فعلته. فما قاله كان خروجاً على قواعد السلوك، وكنت محقاً بوضعه في حجمه الطبيعي».

أعربت له عن تقديري لما قاله. فلم تسعدني قط شكوى ذلك الصحفي العلنية أمام جميع أفراد المجموعة. فالجميع كان يشاطره ذلك الإحساس بالإحباط الناجم عن كوننا جميعاً بعيدين عن موقع الحدث؛ ولم يكن عليه إلقاء اللوم عليّ أمام جميع من كنت أعمل معهم.

بحلول عصر ذلك اليوم، استطاع مكتب السفريات تأمين ثلاث حافلات لنقل حشد الصحفيين إلى واشنطن، العاصمة. كانت الرحلة ستستغرق ست عشرة ساعة. دعتني كيلي غانون إلى الركوب معها في سيارة فورد إكسبيديشن، والتي ستوصلنا إلى واشنطن في وقت أسرع. قلت لها إن ذلك سيكون عظيماً، «ولكنني إذا ذهبت معك، فسيرافقنا مساعدي هاري». كان هاري وولف يبذل جهداً جباراً، مقدماً لنا الدعم ليومين من دون توقف وسط هذه المأساة.

حينئذ تذكرنا، أنا وكيلي، العميل السري للشؤون الصحفية. فمنذ أن حاول جون هينكلي اغتيال الرئيس رونالد ريغان بعد أن شق طريقه باتجاه منطقة الصحفيين خارج فندق هيلتون في واشنطن، قامت الشرطة السرية بوضع عميل لها بين الصحفيين. قالت كيلي: «يجب أن نسأله إذا كان يود مرافقتنا في طريق العودة».

قلت لها بنَفَسٍ من روح الدعابة: «نعم، إذا أردنا الوصول بسرعة، فلن يضيرنا وجوده معنا». كنت أفكر في أن شارته سوف تساعدنا بالتأكيد إذا طلبت منا شرطة الطرقات

السريعة التوقف للتحقق من هوياتنا. أما بو، فلم يكن بمقدورنا مساعدته؛ وهكذا فقد كان عليه أن يبقى مع مجموعة الصحفيين الآخرين.

حال وصول الحافلات، والتأكد من أن كل شيء كان على ما يرام، انطلقنا في سيارة الإكسبيديشن. كانت الساعة الثالثة بعد الظهر. قررنا تناوب قيادة السيارة على أساس أربع ساعات لكل منا، والعودة بأسرع ما يمكن. كان العميل السري هو الأكثر وزناً بيننا. ربما كان ذلك يعود إلى ثقل شارته!

في مكان ما، إلى الجنوب من حدود كارولينا الشمالية، استيقظت من غفوة قصيرة في المقعد الخلفي ونظرت إلى يميني عبر نافذة السيارة. كنا نتجاوز شاحنة كبيرة تحمل حاوية، وكان يتدلى من وسط الحاوية علم كبير لأمريكة. كنت حينها نصف مستيقظ، لكن شعوراً بالفخار غمرني في تلك اللحظة. كان واحداً من بين العديد من الأعلام التي نصبت على السيارات، والشاحنات، وأمام البيوت، وفي الصفوف الدراسية، والمكاتب، وواجهات المحال التجارية في طول البلاد وعرضها. كل ما كان يفرق بين الأمريكيين لم تعد له في تلك اللحظة قيمة. كنا نقف صفاً واحداً، وكنا أمة موحدة.

لن يعود بيت بوش الأبيض الذي وصلت إليه صباح ذلك اليوم كما كان عليه أبداً. كان يتم استدعاء أسلافنا الذين عملوا في البيت الأبيض في وقت الأزمات. الآن، جاء دورنا لمواجهة هذا التحدي. لقد كانت مسؤولية لم يتصور أحد من بيننا أنه سيواجهها عندما باشرنا عملنا هناك قبل ثمانية أشهر.

تم وضع كل المخططات الدقيقة لمرحلة فصل الخريف التي خرجنا بها بعد الاجتماعات حول «الإستراتيجية» جانباً. تحولت أولوياتنا من التركيز على القضايا الداخلية إلى مجال السياسة الخارجية، أو قضايا الأمن القومي. أصبحت رئاسة بوش الآن رئاسة لزمن الحرب. كنا ما نزال ندفع بالأولويات المحلية التي لها أهمية خاصة، خصوصاً ما يتعلق منها بالإجراءات الضرورية للإنعاش الاقتصادي، وقانون «لا أطفال من دون تعليم»؛ إلا أن حماية الوطن، والانتصار في الحرب ضد الإرهاب أصبحا يشكلان الآن أولويتنا القصوى.

كانـت الأيـام الأولى التـي أعقبت هذه الهجمـات لافتة. أذكـر أنني كنـت جالساً في الكاتدرائيـة الوطنيـة في واشنطن أثناء الصـلاة لراحة نفس القتلى يـوم الجمعة وذلك بعـد ثلاثـة أيام على وقـوع الهجمات. كانـت الملاحظات التـي أطلقها الرئيـس عاطفية ومطمئنة. فقد أشاد بكرم عمال الإنقاذ، ولطفهم، وشجاعتهم الذي «فاق كل التوقعات»، كمـا أشاد بالمتبرعين بالدم، وبـالآلاف الآخرين الذين بذلوا الجهد وقدموا ما استطاعوه مـن المساعدة. ركز على الشخصية الأمريكية التي اكتشفت ذاتها عبر «أفعال سامية من التضحية». تحدث بوش بعدها عن شعورنا بالوحدة الوطنية:

أظهـر الأمريكيون عبر هـذه الأفعال، كمـا في العديد من الأمثلة الأخـرى المشابهة، التزامـاً عميقـاً ببعضهم بعضاً، ومحبة كبـيرة لبلادنا. نشعر اليوم بمـا سمّاه فرانكلين روزفلت الشجاعة الحميمة المنبثقة من الوحدة الوطنية. إنها وحدة بين المعتقدات كافة، ومختلف الخلفيات.

فقـد وحّـدت الأحزاب السياسيـة في مجلسـي الكونغرس. وتتجلـى الآن في الصلوات والشموع المضاءة، والأعلام الأمريكية التي ترفع بكل فخار، وبنَفَسٍ من التحدي.

إن وحدتنـا هي قرابـة نشعر بها في أوقـات الحزن، وتتمثل في تصميمنـا العنيد على الانتصار على أعدائنا. وهذه الوحدة ضد الإرهاب تمتد إلى أرجاء العالم كافة.

عصـر ذلك اليوم في مدينـة نيويورك، كان الرئيس يمسك بقـرن الثور وهو يقف إلى جانـب رجل الإطفاء النيويوركي بـوب بيكويث، موجهاً حديثه إلى جموع من عمال الإنقاذ الذيـن لم يكلوا أو يملوا من العمل في النقطـة صفر من مكان وقوع الحادث. عندما صاح أحدهـم أنـه لا يستطيع سماع الرئيـس، أجاب بوش في واحدة من أكثر لحظات رئاسته تميـزاً ولفتاً للنظر: «ولكن أنا أسمعك. كل العـالم يسمعك. والأشخاص الين حطموا هذا المكان سوف يسمعون منا جميعاً في القريب العاجل».

في العشريـن من شهر أيلول، سبتمبر، أذكر جيـداً أنني كنت أشاهد التاريخ على بعد أمتار قليلة من المنصة التي كان الرئيس يخاطب من عليها جلسة مشتركة لمجلسي النواب والشيـوخ. حذر في ذلك الخطاب نظام طالبان في أفغانسـتـان، وأوضح أننا سنلاحق من

دون هـوادة الشبكـة الإرهابية المتمثلـة بالقاعدة إلى أن نفككها ونهزمهـا، كما أعلن عن إنشاء مكتب للأمـن الداخلي تابع للبيت الأبيض برئاسة حاكم فيرجينيا توم ريدج. ذكّر بوشـ أن الحملـة ضـد الإرهابيين ستكون طويلـة، وسوف يتم خوضها علـى عدة جبهات – الاستخباراتية، والدبلوماسية، والعسكرية، والمالية، وعبر فرض القانون. وستتضمن بعض هـذه الأفعال تحـركات عسكرية مثـيرة و(دراماتيكية) واضحة، بينمـا ستتضمن بعضها الآخر أعمالاً سرية غير مرئية. أوضح بوش أن «على كل أمة في كل بقعة من العالم أن تتخـذ قرارها: إما أنتم معنـا، أو مع الإرهابيين. اعتباراً من هذا اليوم، أي بلد يستمر في إيواء الإرهابيين أو يقدم لهم الدعم سوف تعده الولايات المتحدة نظاماً معادياً لها».

كمـا أعطـى أوامـره إلى القوات المسلحـة بأن تكون علـى أهبة الاستعـداد. بعد مرور أسبوعـين على ذلـك، أخطرتنا الوحـدات العسكرية التـي طلب إليها الاستعـداد للقتال في أفغانستـان، بأنهـا جاهزة للقيـام بالمهمة. بـادرت وحداتنا العسكريـة بالهجوم على أفغانستـان بمساعدة مـن بريطانيا العظمى، وبدعم من تحالـف دولي عريض وصل إلى أكثر من تسعين دولة.

اتخذت الإدارة إجراءات أيضاً داخل الولايات المتحدة. ففي أعقاب الهجمات مباشرة، لم تكـن هنـاك أولويات أكثر أهمية من جهـود الاستجابة للحدث والتعـافي من تأثيراته، ومساعـدة نيويـورك على إعـادة بناء نفسهـا. كانت سلامـة الطيران المدني لهـا أولوية قصـوى، فاتخذت عدداً من الخطوات بدءاً من تفحص المسافرين، بما في ذلك الاتفاقية النهائية بشأن اتخاذ إجراءات ذات طابع فيدرالي تتعلق بعرض المسافرين على الشاشات بإشـراف إدارة سلامـة النقل الجديدة. تحرك الكونغرس أيضـاً بعد عدة أسابيع لإقرار القانون الوطني، مقدماً بذلك دعماً قانونياً لاستنباط عدد من الوسائل الجديدة لمكافحة الإرهـاب؛ تحـول بعضها فيما بعد إلى قوانين مثيرة للجـدل، عندما أثيرت تساؤلات حول الخـرق المحتمل للحريات المدنية. وقـد أزيلت الجدران التي كانت تمنع مكتب التحقيقات الفيـدرالي، ووكالة المخابرات المركزية من المشاركـة في المعلومات الاستخباراتية، وجرى اتخـاذ بعض الخطوات لتقويـة أجهزة المخابـرات وتجميعها والمشاركة فيمـا بينها. كان أكـثر ما يلفت النظر حينها هو تقليص عدد من كان يسمح لهم بدخول الولايات المتحدة.

وجهت هجمات الحادي عشر من أيلول ضربة موجعة للاقتصاد الذي كان يشهد تراجعاً بالأساس، وبدأ يدخل، كما كنا سنعلم لاحقاً، في حال من الركود منذ شهر آذار، مارس (استناداً إلى المكتب الوطني للبحوث الاقتصادية، وهو الحَكَمُ الرسمي في دوائر الأعمال). كانت المساعدة ضرورية من أجل استقرار صناعة الطائرات مالياً. قمنا في الكونغرس بالدفع باتجاه رزمة حوافز اقتصادية لمساعدة العمال الذين فقدوا وظائفهم، وتسريع تنفيذ قانون خفض الضرائب الذي سبق أن أُقِرَّ في بداية السنة، وأشاع جواً من الارتياح بين الأمريكيين من أصحاب الدخل المتوسط، والمحدود. إلا أنه بينما وافق مجلس النواب على تمرير الرزمة بسرعة، فإن مجلس الشيوخ الذي كان يسيطر عليه الديمقراطيون رفض منح الموافقة. ولم يكن من الممكن تمرير نسخة مخففة من رزمة الحوافز هذه في الكونغرس إلا في السنة اللاحقة.

بالعودة إلى المرحلة التي أعقبت أحداث الحادي عشر من أيلول، هناك حادثة كان لها في رأيي تأثيرٌ هائلٌ على الرئيس بوش، واستحوذت على تفكيره؛ ويبدو أن الكثير من الناس قد نسوا الموضوع برمته - وأعني بها الهجمات بالجمرة الخبيثة

أكثر ما كان يثير القلق في داخل البيت الأبيض والدوائر الاستخباراتية في الأيام والأسابيع التي أعقبت هجمات الحادي عشر من أيلول، هو احتمال وقوع موجة جديدة من الهجمات. فقد ازدادت حدة هذا القلق عندما تناهى إلى سمع البيت الأبيض صباح الرابع من شهر تشرين الأول، أكتوبر، أن شخصاً من فلوريدا يعاني من استنشاق جرعة مميتة من الجمرة الخبيثة.

يومها، كانت هناك إشارات تلمح إلى أن الحادثة يمكن أن تكون معزولة، وليست نتاجاً لعمل إرهابي. إلا أن مراكز مراقبة انتشار الأوبئة ومكتب التحقيقات الفيدرالي بدأا التحقيق بشأن هذا الموضوع بسرعة. في اليوم الثاني، توفي بوب ستيفنز، ضحية حادثة الجمرة الخبيثة في فلوريدا. كانت هناك آثار للجمرة الخبيثة في المبنى الذي يقع فيه مكتبه في مدينة بوكا راتون في اليوم السابع من شهر تشرين الأول، أكتوبر، وهو ما دفع بالمسؤولين إلى إخلائه، والبدء في فحص العاملين في ذلك المبنى. (في وقت أبكر

مـن ذلك اليوم، أعلن الرئيس في خطاب موجه إلى الأمة بدء عملية الحرية الثابتة، وهي التسميـة التـي أطلقت علـى الحملة العسكرية لإزاحـة حكم طالبان مـن السلطة، وجلب إرهابيي القاعدة في أفغانستان إلى العدالة.) ولم يتم التأكد من مصدر الجمرة الخبيثة التي أدت إلى وفاة بوب ستيفنز.

كانـت إحـدى المهمات الموكلـة إليّ في البيت الأبيض بعد هجمات الحـادي عشر من أيلول، المساعدة في إبقاء آري فليشر محاطاً بآخر المستجدات حول هذا التهديد الإرهابي المحتمل بشن حرب جرثومية. بقيت على اتصال مع نظرائي في وزارة الصحة والخدمات الإنسانية؛ وبدأت العمل مع ليزا غوردون- هاغرتي، وهي موظفة حكومية في غاية الذكاء، وتعمـل من دون كلـل أو ملل في وحدة مقاومـة الإرهاب في مجلس الأمـن القومي برئاسة ريتشـارد كلارك. كانـت ليـزا ضابـط الارتباط مع مجلـس الأمن القومي حـول موضوع الهجمات بالجمرة الخبيثة.

بعـد وفاة ستيفنز بعدة أيام، بـدأت الرسائل الملوثة بالجمرة الخبيثة تظهر في كل من واشنطن ونيويورك؛ بما في ذلك رسالة أرسلت إلى مكاتب شبكة NBC الإخبارية، وأخرى إلى مكتب توم داشل، رئيس الأغلبية في مجلس الشيوخ. كانت الرسالة الموجهة إلى داشل تحتـوي علـى كمية من البكتيريـا القاتلة، وأدى ذلـك إلى ازدياد المخـاوف في واشنطن، وغيرها من المناطق.

بـدأت تقارير تطفو علـى السطح، وتنتشر في كل مكان، مـن أن مسحوقاً أبيض كانت النـاس تخشى أن يكون بـودرة الجمرة الخبيثة، آخذٌ في الانتشار. تبين بعد ذلك أن أغلب هـذه التقارير كانت إنذارات كاذبة. لكن الخطر المحـدق بالبلاد كان حقيقياً. ولم يمضِ وقـت طويـل قبل أن تبـدأ الصحافة بالتساؤل عمـا إذا كان من الممكـن أن تكون مصادر الجمـرة الخبيثة إحدى الحكومات الأجنبية. لم تكـن التقارير التي ترد إلينا بشكل سري حينهـا تشـير إلى تـورط أي جهة أجنبية مـن وراء البحار. ولكن بينمـا كان كل من آري، والمستشـار الجديد لشـؤون الأمن الوطني تـوم ريدج يدليـان بتصريحاتهما الأولى حول الموضوع، لم يكن بالإمكان نفي أي احتمال بشكل نهائي.

بقيـت قضية الجمـرة الخبيثة مصدراً لقلـق متزايد. بدأنا نتسـاءل متى يمكن لهذه الموجـة أن تتوقف. فقد توفي كل من توماس موريسـ جونيور وجوزيف كيرسين، العاملان في مكتـب للبريـد في منطقة تقـع إلى الشمال الشرقي من مدينـة واشنطن في وقت لاحق مـن شهر أكتوبر بعـد استنشاقهما للجمرة الخبيثة. كما تبين فيمـا بعد أن مكتب البريد التابـع للبيت الأبيض ملـوث هو الآخر بآثار الجمـرة الخبيثة. أذكر جيـداً أن كل البريد الـوارد إلى البيـت الأبيض ولشهور عدة بعدهـا، كان يتأخر بسبـب فحصه والتحقق من نسبة الإشعاعات فيه.

في وسـط التقارير التي كانت تـرد إلينا، ومعظمها كان كاذباً، تلقيـت اتصالاً هاتفياً نحـو الساعة التاسعة من مساء يوم الثالـث والعشرين من شهر تشرين الأول، أكتوبر من بيـل بيرس، وهـو مسؤول في وزارة الصحة والخدمات الإنسانيـة، وكان مسؤول العلاقات العامـة أيضاً، يحذرني من احتمال وجود حالة من الحمـى الصفراء في مدينة أورلاندو، بولاية فلوريدا. فقد دخل رجل إلى مستشفى محلي وقد تم الحجز عليه احتياطياً للاشتباه بأنـه يعاني من أعراض هذا المرض القاتـل. كان بإمكاننا فقط تصور مدى الرعب الذي سيتسبب به لو أن هذه الأعراض كانت صحيحة.

أعلمـت آري بالقصـة، وانتظرت بقلق لأسمع معلومات إضافيـة من بيل بيرس حول الموضـوع. حصلت عليها في وقـت لاحق من تلك الليلة. كانت إنذاراً كاذباً آخر. فالرجل لم يكـن يعاني من أعراض الحمى الصفراء بل من مرض الزهري. سألت بيل: «مرض الزهـري؟ كيـف يمكن لهـم أن يخلطوا بين الحمـى الصفراء والزهـري؟» لم يحر بيل جواباً، ولكن انتابنا شعور بالارتياح.

صعدت إلى مكتب آري مباشرة بعد إنهاء المكالمة، وقلت له: «حسنٌ. لدي أخبار طيبة؛ فالرجـل في فلوريـدا لا يعاني من الحمـى الصفراء. لكـن هناك أنباء سيئـة بالنسبة له – فهو يعاني من مرض الزهري.

وكمـا ذكر آري فيمـا بعد في مذكراته بعنـوان «الاكتـواء: Taking heat» فقد أجاب بصيحـة ملؤها الفـرح: «نعم! إنه مرض الزهـري! هو مصاب بمرض الزهري». ذهبنا جميعاً إلى بيوتنا، ونحن نشعر بشيء من الارتياح في تلك الليلة.

لكن مصدر الهجمات بالجمرة الخبيثة بقي غير مؤكد. تلقينا معلومات بعد يومين عن الجمرة الخبيثة التي وجدت في رسالة موجهة إلى داشل. كشف التحليل أنها من النوع نفسه الذي أرسل إلى الآخرين، ولكنها أكثر تطوراً. انهمك الآلاف من عملاء مكتب التحقيقات الفدرالي في التحقيقات حول عمليات اختطاف الطائرات في الحادي عشر من أيلول، وحول الهجمات بالجمرة الخبيثة - متتبعين لأي دليل، ومجرين مقابلات مع أصدقاء وجيران أولئك الذين تعرضوا للجمرة الخبيثة، محاولين التوصل إلى مصدرها.

أتذكر أيضاً الإحساس بالإحباط الذي عانى منه آري بسبب تقرير إخباري غير دقيق بثته شبكة أخبار ABC مساء السادس والعشرين من شهر تشرين الأول، أكتوبر، وهذه قصة أخرى نشرها في مذكراته التي أشرت إليها آنفاً. فطالما أن أحداً لا يستطع نفي ضلوع أي مصدر بشكل رسمي، فإن وسائل الإعلام راحت تبحث في كل الاحتمالات. فقد ذكر برايان روس وهو صحفي مرموق في قسم التحقيقات التابع لشبكة أخبار ABC في مقدمة النشرة الإخبارية للشبكة المذكورة في تلك الليلة أنه علم من «ثلاثة مصادر وثيقة الاطلاع، ولكنها منفصلة» أن الاختبارات الأولى كشفت عن وجود مادة البينتونايت Bentonite الكيميائية المضافة إلى الجمرة الخبيثة، وأن الدولة الوحيدة المعروفة بأنها استخدمت هذه المادة لإنتاج الأسلحة البيولوجية هي العراق؛ وأضاف روس أن مادة البينتونايت هي «ماركة مسجلة باسم برنامج صدام حسين لإنتاج الأسلحة البيولوجية». أوضح بيتر جينينغز أن بعضهم قد يستنتج أن هذه مجرد «قنبلة دخانية» لربط الهجمات بالجمرة الخبيثة بالعراق.

ذكرت شبكة ABC أن آري «أنكر بأقوى العبارات» أن تلك المادة هي البينتونايت. لكن جينينغز تحدث أيضاً عن «الجدل المتفاقم بين أركان الإدارة حول ملاحقة صدام حسين».

تابع آري القصة من دون كلل أو ملل، و«استمر في التنقيب داخل شبكة ABC للتأكد من أن المسؤولين فيها سوف يقومون بتصحيح هذه القصة» بعد أيام من بثها لها. تراجعت شبكة ABC عن تقريرها السابق في الحادي والثلاثين من شهر تشرين الأول، أكتوبر، قائلة «إن التحاليل الكيميائية اللاحقة» نفت وجود مادة البينتونايت في الجمرة الخبيثة

بالرغـم من أنها كانت تحتوي على مادة السيليكا Silica التي لا تعد ماركة مسجلة باسم برنامـج أي بلـد بعينه». لكن الشبكـة رفضت التراجع عن تقريرهـا السابق بشكل كامل، وهـذا مـا أصابنا جميعاً بالإحبـاط، وليس آري فقط؛ لأننا كنـا حريصين على الحصول على معلومات دقيقة لتقديمها إلى الناس. ربما كانت تلك إشارة أولى واضحة من وسائل الإعـلام الوطنية تقوم فيهـا بالتركيز على نزاع ضمني مع العـراق على حساب الحقائق المهمة حول الضرورة الحقيقية التي تفرض قيام حرب.

مـع حلـول شهر تشرين الثـاني، نوفمبر، تم تأكيـد وقوع ست عشـرة إصابة بالجمرة الخبيثـة. فلقـد توفيت امـرأة من نيويورك، واسمهـا كاثي نغويان في نهايـة شهر تشرين الأول، أكتوبـر، جـراء إصابتهـا بالجمـرة الخبيثة. تأكد لمكتـب التحقيق الفيـدرالي أن المغلفـات المرسلة إلى محطـة NBC، والرسائل المرسلة إلى مكتب داشـل، بالإضافة إلى تلـك التـي اكتشفت في فلوريدا مرسلة من علبة البريد نفسهـا في مدينة ترينتون في ولاية نيو جيرسي؛ وبدأ عملاؤه محاولة تعقب الشخص الذي من المحتمل أن يكون قد بعث بهذه الرسائل من علبة البريد تلك. لكن لم يكن من الممكن الجزم فيما إذا كان المصدر محلياً أو أجنبياً.

لم يوجـه اتهـام بالقتـل بواسطة الجمرة الخبيثـة إلى أحد حتـى الآن بالرغم من أن العديـد من المسؤولين عـن تنفيذ القانون كانوا يعتقدون أن المصـدر محلي. تم ذكر اسم أحد الأشخاص المشتبه بهم علناً؛ إلا أن اتهاماً لم يوجه له أبداً.

لا يجـوز التقليل من تأثير الهجمات بالجمرة الخبيثـة على سياسة صنع القرار داخل البيت الأبيض في عهد بوش. بعد حدوث تلك الهجمات مباشرة، قاد نائب الرئيس تشيني، ووزيـر الصحة والخدمات الإنسانيـة تومي ثومبسون الجهود من أجـل إقرار قانون حول برنامـج لقاح ضد الحمى الصفراء يطال جميع الأمريكيين على أمل التقليل من تأثير أي هجوم بالأسلحة البيولوجية يستخدم الحمى الصفراء. وبينما تم تلقيح معظم المستجيبين الأوائل، بالإضافة إلى العاملين في المستشفيات في نهاية المطاف - أي أولئك الذين يمكن أن يكونوا أول من يتعرض لخطر انتشار الحمى الصفراء - فإن الخطة الأكثر طموحاً لم

تبصر النور أبداً. كما دفعنا باتجاه إقرار تمويل مشروع قانون يدعى مشروع الدرع الواقي مــن الأسلحــة البيولوجية، والــذي كان يهدف إلى تطوير لقاح، وتخزينــه من أجل حماية الأمريكيين في حال حدوث هجمات بالأسلحة البيولوجية.

أعلـم أن تفكـير بوش قد تأثر كثيراً بهجمات الجمــرة الخبيثة. كان مصمماً على منع قيام أي هجوم إرهابي آخر، وعلى تحدي أي نظام يعتقد أنه يسعى للحصول على أسلحة دمار شامل. وفي الوقت الذي ستكون خططه من أجل تحقيق هذه الأهداف موضع تساؤل، فإن قلقه بشأن هذه الموضوعات كان صادقاً.

في عطلة عيد الميلاد، وبعد انقضاء مدة قليلة على تراجع قصص الجمرة الخبيثة عن عناوين الصحف، سافرت إلى موطني الأصلي في أوستن لقضاء بعض الوقت مع عائلتي. أثنــاء ركوبــي الطائرة، نظــرت إلى المقعد الــذي سأجلس فيه فوجدت ما بــدا وكأنه آثار مسحــوق أبيض على طرف المقعد. توقفت للحظة عابــرة، وهززت رأسي وخاطبت نفسي قائــلاً: «لا بد أنك تمزح! فمن بين كل المقاعــد على متن هذه الطائرة، لا أختار سوى هذا المقعــد الذي توجد عليه آثار مسحــوق أبيض». أخذت نَفَساً عميقاً، ونفضت هذا المسحوق على الأرض، ثم جلست في مقعدي يغمرني شعور بالسعادة كوني ذاهب للقاء عائلتي.

تساءلــت فيما بعــد عما قد كان من الممكن أن يحدث لــو أن شخصاً آخر هو من اكتشف ذلك المسحوق. ربما كان موعد إقلاع الطائرة قد تأخر، أو ربما ألغيت الرحلة من أجل فحص هــذا المسحوق، ورُكِنَت الطائرة جانباً. كانت لي نظريــة شخصية حول مصدر هذا التلوث؛ إذ ربمــا كان هــذا المسحوق من بقايا نوع من الفطائر المحلاة كان أحد المسافرين يتناوله في رحلة سابقة على متن هذه الطائرة - وهو نوع من الفطائر يكون مسحوق السكر فوقه.

※ ※ ※

كانت الوحدة التي شهدتها واشنطن في الأشهر القليلة التي أعقبت هجمات الحادي عشر من أيلول تغييراً رحّبَ به الجميع. فقد كانت العواطف الجياشة التي وحدت الجميع شيئــاً لم تألفه واشنطن منذ عقود. هل كان سينتهي المطــاف بالسياسة كعقلية حربية، وبتجــاوزات عصر الحمــلات الدائمة إلى إظهار تأثيرات جانبيــة إيجابية لهذه المأساة الوطنية غير المسبوقة؟

كلا، لم يكـن هذا ليحـدث. فالقوى التي حولـت واشنطن على مدى عقـود ثلاثة إلى سلسلـة مـن الحـروب الحزبية كانت أقـوى بكثير. وكانت هـذه القوى تعمـل على جانبي خطوط التماس التي تفصل بين الحزبين.

بـدأت أولى مظاهر التصدع في واجهة جدار هذه الكياسة تظهر مع بداية شهر كانون الثـاني، يناير سنة 2002. فقد صـرح كارل روف في اجتماع صحفي علني للجنة الوطنية التابعـة للحـزب الجمهوري في مدينة أوستن بولاية تكساس أن الحزب قرر أن يجعل من قيادة بوش للحرب ضد الإرهاب الموضوع الرئيس من أجل استعادة السيطرة على مجلسي النواب والشيوخ في الانتخابات النصفية القادمة.

كان روف أول مسـؤول في الإدارة يجعـل من موضوع الحرب شأنـاً حزبياً علنياً، وكان هـذا تحولاً لافتـاً في نغمته عن التأكيد المستمـر من قبل بوش على ضـرورة قيام الوحدة الحزبيـة من أجل مواجهة الإرهـاب الإسلامي المتطرف وإلحـاق الهزيمة به. قال روف: «بإمكاننـا الخروج إلى الشعـب الأمريكي بهذه القضية المتعلقـة بكسب الحرب. بإمكاننا الخروج إلى البلاد حاملين لواء هذه القضية لأن الناس يثقون أن الحزب الجمهوري قادر على حماية القدرة العسكرية الأمريكية وتقويتها، وبالنتيجة حماية أمريكة».

في ذلـك الوقت، أظهـرت استطلاعات الـرأي العام تقدم الحـزب الجمهوري بفارق كبـير (38 نقطة بحسب استطلاع غالـوب)، باعتباره الحزب الأكثر وثوقـاً بالنسبة إلى الأمريكيـين في تعامله مع قضية الإرهاب، كمـا كان يتمتع بتفوق أكبر في القضايا المتعلقة بالسياسـة الدفاعية. ولكن بينما كان كلا الحزبين يمكن أن يَفيدا من هذه الميزة الكبيرة لتحقيـق مكاسب سياسية في الانتخابات، فإن صراحة روف حول هذه الإستراتيجية أثارة حنق الديمقراطيين المشككين الذين أدانوا روف لمحاولته تسييس الحرب.

بـدأ الرئيـس بعد ذلك مباشـرة بشن حملة علنيـة جديدة لصالـح مرشحي الحزب الجمهـوري لانتخابـات الكونغرس، حتى ضد الديمقراطيين القائمـين على رأس عملهم، مذكـراً بطريقته في إدارة الحرب، بالتعاون مع زعمـاء الحزب الجمهوري الآخرين. لقد حافـظ على علاقات جيدة مع أعضاء الكونغرس في ولاية تكساس عندما كان حاكماً لها،

وذلك لأنه رفض أن يشن حملات انتخابية ضد أحد منهم، حتى لو كان ينتمي إلى الحزب المعارض. ولذلك فقد أدت أفعال بوش إلى إثارة القلق في صفوف الديمقراطيين.

انتهت في شهر أيار، مايو، الفترة القصيرة من السلم الحزبي الذي أسست له هجمات الحادي عشر من أيلول إلى الأبد.

انطلقت الجولة الجديدة من الحرب بين الحزبين بسبب كشف مرعب بثته شبكة أخبار CBS. ففي نشرتها الإخبارية المسائية في الخامس عشر من شهر أيار، مايو، سنة 2002 التي استندت فيه إلى معلومات تلقتها من مصدر لم تشأ الإفصاح عنه، نقلت هذه الشبكة بطريقة مثيرة أن الرئيس تلقى معلومات استخباراتية في شهر آب، أغسطس، سنة 2001 «نبهته بشكل لا يقبل التأويل إلى احتمال وقوع هجوم على الولايات المتحدة بواسطة طائرات مختطفة».

تابع مراسل هذه الشبكة ديفيد مارتن تقريره قائلاً: «إن المعلومات الاستخباراتية اليومية التي يتلقاها الرئيس ترد إليه كل صباح، وغالباً ما يعرضها عليه مدير وكالة المخابرات المركزية بنفسه. وقد حذرت هذه التقارير قبل أسابيع من وقوع هجمات الحادي عشر من أيلول أن الهجمات التي سيشنها بن لادن قد تتضمن اختطاف طائرات أمريكية».

أثار هذا التقرير الكثير من الأسئلة. هل كان التقرير يلمح إلى أن الرئيس تلقى معلومات كان عليه أن يتصرف بموجبها؟ هل كانت تلك المعلومات مجرد علامة تحذير محتمل، مثل الكثير من المعلومات الأخرى التي لم يتم التحقق منها؟ أم هل كانت توحي بأشياء أخرى؛ فربما كانت معلومات استخباراتية غير محددة تعود إلى سنوات سابقة؟

لم تتم الإجابة على أي من تلك الأسئلة حينها، إلا أن ذلك لم يعنِ إلا القليل بالنسبة إلى زعماء الحزب الديمقراطي في الكونغرس. فقد رأوا في ذلك التقرير فرصة لمهاجمة القضية التي تذرع بها الرئيس - والمتمثلة في قيادته الحرب ضد الإرهاب - والحد من شعبيته المتنامية قبل خوض الانتخابات النصفية في شهر تشرين الثاني، نوفمبر الثاني.

في صباح اليوم الثاني لبث التقرير في شبكة CBS أعلن توم داشل رئيس الأغلبية في مجلس الشيوخ أنه «قلق جداً» مما سمعه من «أن الرئيس تلقى تحذيراً في شهر آب، أغسطس، من وجود تهديد بخطف طائرات» من قبل القاعدة. طلب تسليم نسخة من التقرير الاستخباراتي المقدم للرئيس إلى محققين من الكونغرس من دون أي تأخير.

أما ريتشارد غيبهارت، رئيس الأغلبية في مجلس النواب، وهو نائب ديمقراطي عن ولاية ميسوري فقد استحضر فضيحة ووترغيت قائلاً: «أعتقد أن ما يجب علينا الآن القيام به هو الاطلاع على المعلومات التي كانت بحوزة الرئيس والبيت الأبيض والمتعلقة بالأحداث التي أوصلت البلاد إلى الحادي عشر من أيلول، ومتى حصلا عليها، وما الذي قاما به بشأن هذه المعلومات في حينه».

لكن أكثر من أثار حنق البيت الأبيض والجمهوريين كانت السيناتور هيلاري كلينتون، العضو في مجلس الشيوخ عن الحزب الديمقراطي.

وبينما أكدت السيناتور كلينتون إنها لا تحاول تصيد أحد بعينه في هذه المسألة؛ بل تحاول فقط، البحث عن أجوبة؛ فقد نهضت من مقعدها في المجلس لتعلن «أننا اطلعنا اليوم على شيء كنا يجب أن نطلع عليه منذ ثمانية أشهر على الأقل: أن الرئيس بوش أحيط علماً السنة الماضية قبل وقوع هجمات الحادي عشر من أيلول باحتمال وجود مؤامرة من القاعدة لخطف طائرة مدنية أمريكية». وأتبعت هذا الإعلان برفع نسخة من الصفحة الأولى لإحدى الصحف الشعبية وهي صحيفة نيويورك بوست، وكانت تحمل العنوان المثير الآتي: «بوش كان يعرف» وتحت هذا العنوان المثير كان هناك عنوان فرعي أقل إثارة: «قنبلة الحادي عشر من أيلول».

سألت كلينتون: «ماذا كان يعرف الرئيس؟»

كان ذلك التلميح واضحاً: أن الرئيس توفرت لديه معلومات كان من الممكن أن يستخدمها لمنع وقوع الهجمات في الحادي عشر من أيلول، ومع ذلك، فهو لم يفعل شيئاً.

شعـرت أنا وزملائي في البيت الأبيض بحنق شديد. فقد بدا ذلك الهجوم المدوي على الرئيس بمثابة إيذان باستئناف للحرب البشعة بين الحزبين، والتي حددت معالم واشنطن وثقافتهـا السائدة في عقـد التسعينات من القرن العشريـن. فالسياسة كحرب، والتلميح إلى العودة إلى سياسة الفضائح، والإشارة الفظيعة إلى احتمال أن يكون الرئيس قد تعمد إهمال واجبه تجاه سلامة الأمة - كان يراد لها أن تصب في صالح نتائج انتخابات تشرين الثاني، نوفمبر، القادمة.

جميـع العناصر المعهودة للبدء في شن هذه الحـرب الحزبية كانت متوافرة. فالقصة المتداولة، والاتهامات الحزبية التي تلت تلك القصة ساهمت في إذكاء اللغط الذي قامت وسائـل الإعـلام بتغطيته. كان عنوان هذه القصة يتكرر علـى امتداد أيام عدة، وقد عاد هذا العنوان إلى الواجهة من جديد، حتى بعد انقضاء سنتين عليه، وذلك عندما أصبحت المعلومـة ذات السرية العالية التي كان التقرير اليومي المقدم للرئيس يتضمنها في متناول يـد الجمهور، وكذلك في متنـاول يد لجنة الحادي عشر من أيلـول المكلفة بالتحقيق فيما حدث بالفعل.

في اليوم الثاني، تصدرت هذه القصة الصفحة الأولى من صحيفة نيويورك تايمز:

بعـد أشهر من الدعم اللا محـدود للأسلوب الذي يتبعه الرئيـس بوش في حربه ضد الإرهـاب، فإن زعماء ديمقراطيين في الكونغرس غـيروا مسارهم اليوم وطالبوا بالكشف الكامـل عـن كل مـا أحيط به السيـد بوش في الصيـف الماضي من معلومـات حول خطر قيـام الإرهابيـين بخطف طائرات. كما دعوا إلى إجراء تحقيق علني شامل حول ما كانت الحكومة على اطلاع عليه قبل الحادي عشر من أيلول. ... لأول مرة منذ الحادي عشر من أيلـول، تحولت الوحدة بين الحزبين حـول الطريقة التي أدار بها السيد بوش الحرب ضد الإرهاب، إلى أسئلة حادة، وإلى اتهامات، وإشارات بالبنان لتحديد المسؤوليات. ... وقال الديمقراطيون الذين كانوا مترددين حتى الآن في تناول سياسة السيد بوش بالانتقاد، إن من واجبهم الحصول على المعلومات المطلوبة.

بدت ملاحظات كلينتون بالنسبة للبيت الأبيض ومناصريه خطوة محسوبة للإمساك بخيوط الحبكة فيما يخص من يتحمل اللوم بشأن هجمات الحادي عشر من أيلول، ملقية باللوم على عتبة باب الشخص الذي يقبع حالياً في المكتب البيضاوي. هل كانت تحاول حماية إرث زوجها عبر نقل اللوم بسبب التغاضي عن التقارير الاستخباراتية حول بن لادن، من زوجها إلى خليفته؟ أشار البيت الأبيض إلى أن السناتور هيلاري كلينتون لم تكلف نفسها عن الاتصال بأحد لتتأكد من الحقائق وراء عناوين تلك الصحف قبل إلقاء كلمتها.

بالنسبة لنا، كانت الطريقة الماكرة التي اتبعها زعماء الحزب الديمقراطي لشيطنة الرئيس وإدارته قد تجاوزت الحدود. فقد اعترض الجمهوريون بشدة على ذلك، وبادروا إلى القيام بهجوم معاكس شرس بقيادة البيت الأبيض. على إثر ذلك، تراجع الزعماء أنفسهم من الحزب الديمقراطي عن تلميحاتهم الأولى وعن إلقائهم اللوم جزافاً، خصوصاً عندما تكشّفَ لهم أن تسرعهم في اختلاق قصةٍ مستغلين فيها مأساة مروعة كالتي حدثت يمكن أن ترتد عليهم في أعين الناس. ولكن قبل أن يسحبوا اتهاماتهم، طغت تلك القصة على الأخبار الصادرة من واشنطن لعدة أيام، وبدأ بعضهم مثل السيناتور كلينتون محاولة التخفيف من لهيب وسائل الإعلام التي وجدت في تصريحاتها مادة جنونية، عبر خلق دعم لفكرة تشكيل لجنة مستقلة للتحقيق في هجمات الحادي عشر من أيلول. قاوم البيت الأبيض الفكرة في البداية، وكانت حجته أن لجان مجلسي النواب والشيوخ هي من يجب أن تتولى التحقيق المطلوب.

ردت الإدارة على ذلك الهجوم بالمثل. وصف نائب الرئيس تشيني اقتراحات الديمقراطيين بمحاولة «صب الزيت على النار»، وأعلن الرئيس بوش أنه «لو كان لدينا أدنى شك على الإطلاق في أن الإرهابيين على وشك القيام بهجمات على بلادنا، لكنا بذلنا كل ما في وسعنا للدفاع عن أمريكة». وفي إشارة منه إلى التلاشي المتسارع لروح الوحدة الحزبية، أضاف قائلاً: «وأنا متأكد من أن الرئيس كلينتون كان سيقوم بنفس ما قمنا به. أي رئيس آخر كان سيفعل الشيء نفسه».

هـل يجب إلقاء اللوم على جهة ما، في هـذا المقام؟ ربما. من السذاجة أن لا يتصور المـرء أن الديمقراطيـين كانوا يحاولـون عبر ذلك تحقيق مكاسـب انتخابية وذلك قبل أشهـر قليلـة علـى موعد الانتخابـات النصفيـة للكونغرس. ولكن سيكون مـن الخطأ الافتراض بأن اتهاماتهم التي فاقت الحدود، وإشاراتهم ذات الدوافع الحزبية لم يكن لهـا ما يسوغهـا وأن الديمقراطيين وحدهم كانوا مسؤولين عـن انهيار التعاون الحزبي في أعقـاب هجمات الحادي عشر من أيلـول. فقد كان الديمقراطيون يردون، ولو بشكل جزئي، على محاولات الجمهوريين جني مكاسب سياسية من الجهود التي يبذلها الرئيس لشن الحرب على الإرهابيين.

لو كان الحذاء في القدم الأخرى —أي لو كان الرئيس ينتمي إلى الحزب الديمقراطي أثناء وقوع هجمات الحادي عشر من أيلول— هل كان الجمهوريون سيتخذون الموقف نفسه الناري منه؟ ربما. فاتهامات الجمهوريين للرئيس كلينتون بأنه كان «يهز ذيل الكلب» سنة 1998 عبر شن هجمـات جوية على العراق لحرف الأنظار عن فضيحة مونيكا لوينسكي، كانـت لهـا الدوافع الحزبيـة نفسهـا. فالمشكلة في واشنطـن متأصلة، وتتجـاوز الأخطاء الشخصية التي يرتكبها أي شخص يعمل في السياسة.

في الحقيقـة، كان لا بـد لروح الوحـدة بين الحزبين مـن الانهيار بسبـب أن الشكوك وانعـدام الثقـة بـين الحزبـين وقادتهما في واشنطـن أصبحـت متجذرة في عمـق المناخ التدمـيري الـذي ساد في العقد السابق. ويبقى أن إلقاء اللوم على حزب بعينه، أو التلميح إلى أن زعمـاء أو أشخاصـاً بعينهم هم فقط المسؤولون عن هـذا الانقسام، يجعل الأمور تـزداد سوءاً، ويدفعنا إلى تجاهـل الأسباب الحقيقية التي أوصلتنـا إلى هذا المستوى في خطابنا السياسي على المستوى الوطني.

❋ ❋ ❋

أصبـح الوصـول إلى الحقيقة بعيداً عن هذا القنص الحزبـي الذي لا نهاية له يزداد صعوبة بالنسبة للأمريكيين العاديين. فالحزبيون في واشنطن من الطرفين أصبحوا أكثر دهـاء في استعمـال الوسائل التي يغيبـون فيها الحقيقة عبر خلطهـا بالحقائق الجزئية،

واللـف والـدوران السياسـي، والتضليل، وتزييف الحقائـق، وغياب أي شـكل من أشكال الصـدق الفكري. كمـا أن وسائل الإعلام أيضاً تركز علـى الفائزين والخاسرين في آخر المناوشـات في الحمـلات والحمـلات المضادة بـدلاً من قيامهـا بالتركيز علـى القضايا الجوهرية، وتأثيرها على حياة المواطنين الأمريكيين.

لكـن الإمساك بالأسباب التي أدت إلى الانقسام في واشنطن، وإلى تسيد روح الحرب الحزبية وثقافة الخداع التي تنتجها ليس بالمهمة الصعبة. ففي اللحظة التي يتبين للناس أن المشكلـة في واشنطـن لا تكمـن في أحـد الحزبـين أو في قادتهما، بل في مـا يعاني منه الحزبـان وقادتهمـا؛ عندها نستطيع البـدء في عملية التحرك إلى مـا وراء هذه المشكلة، ونضـع مـن جديد واشنطن علـى الطريق الصحيح مـن أجل مواجهة أكـبر تحدٍ تواجهه الأمة - ولتجنب بعض أكثر العواقب سوءاً؛ وهي العواقب الناجمة عن العداوات السياسية والحرب الكلامية في أيامنا هذه.

يلقـي بعض المراقبين السياسيـين - وخصوصاً الديمقراطيين - اللوم على كارل روف بسبـب الكثير من التجـاوزات التي طبعت حقبة الحملات الدائمـة. فكارل ممارس قوي وموهـوب للحـروب السياسية المعاصرة. لكن كارل روف ليس هـو المشكلة. فلم يكن كارل روف هو من أسس لهذه التجاوزات التي تمارس في الحملات الدائمة. كل ما عليكم القيام بـه هو العودة إلى الـوراء، والتمعن في طبيعة الحملات التـي كان يديرها أشخاص أمثال لي أتواتـر وجيمسـ كارفيل، ومن تسيدوا هذا النوع من الحمـلات السياسية سابقاً لتروا كيـف كانت الأمور تجري حينهـا. أستطيع القول إن التجاوزات التي مورست في الحملات الدائمة هي التي أدت إلى ظهور أشخاص مثل كارل روف.

ولكن لم يحظَ مساعد سياسي بهذا القدر من التأثير داخل البيت الأبيض مثلما حظي بـه روف. فبحكم موقعه مستشاراً كبيراً يشرف على الشؤون السياسية والإستراتيجية، كان روف يسيطـر علـى مركز السلطة ذي النفوذ الأقوى في البيت الأبيض. كانت هناك مراكز سلطة أخرى ذات نفوذ، لكن أياً منها لم يكن له مستوى النفوذ نفسه على طريقة الحكـم في البيت الأبيض، وتقرير شكل سياسته، وعملياتـه مثل ما كان لروف. وبعكس

كارن هيوز التي كان هدفها يتركز على مساعدة الرئيس في صياغة رسالته بطريقة تحظى بقبول الأمريكيين العاديين، وخصوصاً المتموضعين منهم في وسط الطيف السياسي، وبعكس آندي كارد رئيس أركان البيت الأبيض الذي كان وسيطاً نزيهاً بين وجهات النظر السياسية المتباينة، فقد كان كارل روف لاعباً مركزياً لا يمكن وصفه بالحيادي فيما يتعلق بآرائه السياسية أو العقائدية.

بكل بساطة ووضوح، كان دور روف ينحصر في مجال المناورات السياسية؛ وهو ما يفسر المكائد التي كانت تحاك داخل البيت الأبيض ونتائجها، سواء كانت هذه النتائج مفيدة أم ضارة.

أما فيما يتعلق بالحقيقة وراء شعار «بوش كان يعرف»، فإن كشف حقيقة ما جرى في الأشهر التي سبقت وقوع هجمات الحادي عشر من أيلول، سيستغرق بدوره أشهراً عديدة. فقد تم الكشف سنة 2004 أن تصريحات الرئيس اليومية كانت تستند إلى التقارير الاستخباراتية نفسها التي كان الرئيس كلينتون يتلقاها في التسعينات. لسوء الطالع، أدت ردة الفعل الأولية الصادرة عن البيت الأبيض في عهد بوش على المطالب التي طرحها منتقدوه الحزبيين في الكونغرس وأماكن أخرى، والمتعلقة بتشكيل لجنة مستقلة، إلى عاصفة ملتهبة من الغضب. كانت تلك إشارة أولى إلى أن إدارة بوش لم تتقبل بشكل كافٍ فكرة الحاجة إلى ممارسة الشفافية في إدارة القضايا العامة.

لم يكن الرئيس بوش وكبار مستشاريه متحمسين يوماً لتحقيقات تقوم بها جهات محايدة. كانوا مقاومين للانفتاح، وكانوا يؤمنون أن التحقيقات تعني المراقبة اللصيقة لأمور يفضلون أن تبقى بعيدة عن الأعين. وهذا لا يعني بأي حال من الأحوال أن ما قاموا به كان بالضرورة تجاوزاً للقوانين؛ بل يعني أن بعض ما قاموا به بشكل سري قد لا يبدو جيداً لو اطلع عليه الرأي العام، وقد يشكل إحراجاً للرئيس.

لم تكن سياسة الستائر المغلقة، أو الأبواب المقفلة أبداً سياسةً جيدة في مجال العمل الحكومي، إلا إذا كانت تتعلق بقضايا جوهرية تمس الأمن القومي. فالسرية تشجع الناس

علـى القيام بأفعال لا يتمنون أن يطلـع عليها الآخرون. فالانفتاح مسألة جوهرية بالنسبة إلى موضوع المحاسبة.

لم تخضع إدارة بوش إلى مبدأ المحاسبة الحقيقية، ويعود ذلك بشكل رئيس إلى أن بوش نفسـه لم يمارس الانفتـاح، أو العمل الحكومي في وضح النهار. فقد بـدأ إيمانه بضرورة ممارسة السرية والعمل خلف الأبواب المغلقة يترجم إلى ممارسة فعلية منذ أن بدأ اللغط يطفو على السطح. لكن السرية انتهت إلى تأجيل عواقب ممارستها، وليس إلى وضع حدٍ لهـا. فمقاومة الانفتاح في زمن يسوده اللغط يؤدي إلى هزيمة للذات في عصر الإنترنيت، والفضاءات المفتوحة، وعمليات التمحيص الشديدة التي تقوم بها وسائل الإعلام.

عـرف آنـدي كارد عبر خبرتـه في العمل لدى إدارتـين سابقتـين أن التحقيقات لا بد أن تجـرف في طريقهـا ضحايـا من بين العاملـين في تلـك الإدارات. كان مبـدأ المراقبة مطلبـاً دائماً للبيـت الأبيض، فكلما كانت هناك مراقبة أكـثر، كان ذلك أفضل. ولكن لو أخذنـا الطبيعة الحزبية لواشنطن بعين الاعتبار، فسنجـد أنه حالما تخرج قصة ما، إلى العلـن؛ فإن من الصعوبة بمكان، إعادتها إلى المكان الـذي انطلقت منه. وبالرغم من أن البيـت الأبيضـ في عهد بوش لم تكن لديـه الرغبة يوماً في أن يقود حملـة هدفها البحث عـن الحقيقة، بشكل لا لبسـ فيه، فقد وصلت تلـك الإدارة إلى الاقتناع بأن تحقيقاً حول الأحداث التي أدت إلى وقوع المأساة الناجمة عن هجمات الحادي عشر من أيلول هو أمر لا بـد منـه. وهكذا تمت ولادة لجنـة التحقيق في أسباب وقوع هجمـات الحادي عشر من أيلول في شهر تشرين الثاني، نوفمبر، سنة 2002؛ وكانت هذه اللجنة ترجمة لجهد حزبي مشترك يتجاوز الحروب السياسية، ويتطلع إلى كشف الحقيقة.



8

الترويج للحرب

يوم الاثنين الواقع في السادس عشر من أيلول، سبتمبر، كنت برفقة الرئيس في رحلة لمدة يوم واحد إلى مدينة دافينبورت، في ولاية أيوا. كان يخطط لإلقاء كلمة يحث فيها مجلس الشيوخ للموافقة على الميزانية التي تتضمن تمويلاً كاملاً للأولويات المهمة في الوقت الذي تقلصت النفقات المالية في مجالات أخرى. كنت بصفتي نائباً للسكرتير الصحفي أحل محل آري فليشر الذي قرر أن يأخذ استراحة من العرض الرئاسي المسافر براً.

وبينما كانت «رسالة اليوم» التي تلاها تتركز حول ضبط النفقات المالية، فقد استمر الرئيس في الحديث عن العراق مردداً ما قاله من قبل في خطابه الموجه إلى الجمعية العامة للأمم المتحدة في نيويورك منذ أيام مضت. كان خطابه في الأمم المتحدة مؤشراً على بداية جهد تبذله الإدارة بعناية وتخطيط دقيقين في حملة تصعيدٍ تهدف إلى كسب الرأي العام في مواجهة عسكرية محتملة. عرض الرئيس الخطوط العريضة للقضية التي أثارها ضد نظام صدام حسين - قمعه الوحشي لأبناء شعبه، تجاهله الخادع والمدبر لقرارات مجلس الأمن الدولي التابع للأمم المتحدة المطالبة بإزالة الأسلحة البيولوجية والكيميائية لديه، واهتمامه بتطوير أسلحة نووية، ودعمه للإرهاب. أكد بوش أن هذه الأفعال جعلت من نظام صدام حسين «خطراً جدياً ومتزايداً» لا يمكن تجاهله بعد الآن في عالم ما بعد الحادي عشر من أيلول. ثم أوضح بشكل لا يقبل التأويل نواياه المتأصلة في سياسة سبق له أن حدد ملامحها قبل أشهر عدة:

سوف تعمل بلادي بالتعاون مع مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة لمواجهة هذا التحدي المشترك. إذا أظهر النظام العراقي تحدياً لنا مرة أخرى، فسوف يتحرك العالم بثبات وبشكل حاسم لمحاسبة العراق على أفعاله. سوف نعمل بالتعاون مع مجلس الأمن

مـن أجل إصـدار القرارات الضرورية. ولكن لا يجوز أن يساور أحد الشك بنوايا الولايات المتحـدة. سوف يتم تطبيـق قرارات مجلس الأمن – وإلا فسـوف تتخذ إجراءات لا يمكن تجنب عواقبها. والنظام الذي فقد شرعيته سوف يفقد سلطته.

في هـذا البيـت الأبيض الذي كان يتباهـى أن أهم رسالة له هـي الانضباط، أسهم خطـاب بوشـ في التأسيس لنقاشـ يدور حول «تعريـف الأمريكيـين بالأخطار المحدقة بهـم» (كما وصفنـا حملتنا التـي روجت للحرب). استخـدم الرئيس بوشـ وفريقه في مجلس الأمن القومي، بالإضافة إلى كبار مستشاريه منبر الأمم المتحدة لإبراز خطورة هـذا التهديد، وضـرورة مجابهته. ربما كانوا يعلمون أن الضغط الدولي لن ينجح في أن يفرضـ على صدام حسين أن يظهر براءته من هذه التهم باختياره، وهو ما دعا تشيني إلى الاعتقـاد بـأن طريق الأمم المتحدة غير مُجدٍ. المرة الوحيـدة التي التزم بها صدام كانـت إثر الهزيمـة العسكرية المدوية التـي مني بها في حرب الخليـج سنة 1991. لكن الغالبيـة رأت أن من الضروري إقناع الناس أن الجهـود الدبلوماسية قد استنفذت قبل شـن الحرب. من هنا أتى الإنذار الذي وجهه بوش – إما أن تتصرف الأمم المتحدة من دون أي تسويـف، ومـن دون تسامح مع أي خدع جديدة من قبـل النظام العراقي، أو أن الولايات المتحدة سوف تقود حملة عسكرية بالطريقة التي يفهمها.

كان مناخ الرأي العام ميالاً إلى موقف البيت الأبيض، طالما أن هجمات الحادي عشر مـن أيلول بقيت حيـة في ذاكرة الأمريكيـين. قبل أسبوع من ذلـك الخطاب، وفي خطاب ألقـاه في جزيرة إيلليس، احتفل الرئيس بالذكرى الأولى لهجمات الحادي عشر من أيلول بطريقة استعراضية رائعة حيث كان تمثال الحرية إلى أحد جانبيه، وكان العلم الأمريكي يرفـرف إلى الجانـب الآخر. تحدث الرئيس عن الاستجابة إلى نـداء التاريخ الذي يدعو إلى نشر الحرية، ولمّح إلى موضوع العراق قائلاً: «لن نسمح لأي إرهابي أو طاغية بتهديد الحضـارة بأسلحة الدمار الشامل. الآن أو في المستقبـل، سيعيش الأمريكيون أحراراً من دون خـوف، ولـن يكونوا أبداً تحت رحمة أي مؤامرة أو أي سلطة». بطبيعة الحال، لم يكن كل الأمريكيـين يدعمـون فكرة المواجهة مع العراق. ارتفعت نسبـة مؤيدي إسقاط صدام

حسين بالوسائل العسكرية إلى مستوى 74 بالمائة سنة 2001. ولكن مع نهاية صيف 2002، وبالتزامن مع القلق الذي عبر عنه حلفاء الولايات المتحدة، والمحللون العسكريون بشأن كلفة الغزو من ناحية القوة العسكرية والأموال، فقد انخفض هذا الدعم إلى مستوى أغلبية طفيفة استناداً إلى استطلاع غالوب الذي مولته صحيفة «يو. إس. إي تودي». ولكن ثمانية من بين كل عشرة أمريكيين كانوا يعتقدون أن نظام صدام حسين كان يدعم المنظمات الإرهابية التي تخطط لمهاجمة أمريكة، وكان تسعة من أصل عشرة من الأمريكيين يعتقدون أنه يمتلك أسلحة دمار شامل، أو أنه يعمل على تطويرها. كما كانت الأغلبية من المستطلعة آراؤهم يعتقدون – خطأ – أن صدام حسين متورط في هجمات الحادي عشر من أيلول.

وفرت العناصر الأخرى في المعادلة السياسية أيضاً قوة أكبر في يد الرئيس. فقد انخفض معدل التأييد الشعبي الذي يحظى به الرئيس من النسبة التي لم يسبق لها مثيل والتي بلغت 90 بالمائة بعد هجمات الحادي عشر من أيلول مباشرة، ولكن تلك النسبة كانت ما تزال مرتفعة، حيث راوحت في منتصف الستينيات. كانت آلة الحملة التابعة لبوش تتكون من فريق من المستشارين في شؤون الأمن القومي المؤهلين تأهيلاً عالياً، وكان أهم هؤلاء تشيني، وباول، ورمسفيلد، ورايس؛ ولحظ جميع هؤلاء أن مواقعهم قد تعززت بفضل النجاح الأولي السريع الذي تحقق في أفغانستان.

الأكثر من ذلك، ونظراً لأن انتخابات الكونغرس النصفية كانت على بعد شهرين فقط، فقد تعرض أعضاء الكونغرس، وخصوصاً أولئك الذين يمثلون دوائر انتخابية معتدلة أو ميالة قليلاً إلى المحافظين، لضغوط شديدة بسبب وقوفهم في وجه فريق الرئيس المتشدد خصوصاً في مرحلة ما بعد هجمات الحادي عشر من أيلول. وبالنسبة إلى بعض الديمقراطيين على الأقل، بمن فيهم أولئك الذين لديهم طموحات مستقبلية في الترشح للرئاسة، كان الوقوف ضد جهود البيت الأبيض والرئيس بوش لمواجهة صدام حسين يمثل خطراً أكبر بكثير على مستقبلهم السياسي من خطر مسايرته في مقاربة هذا الموضوع؛

خصوصـاً في بيئة يدعـم فيها الأمريكيون القلقون من احتمـال حصول هجمات جديدة، مقاربة أكثر تشدداً بالنسبة إلى الموضوعات المتعلقة بالأمن القومي.

وهكـذا كانت الرياح تجري بما تشتهي سفن بوش وفريقه الذي بدأ بشن حملته لإقناع الأمريكيـين أن الحرب على العراق مسألة حتمية وضرورية. كانت اللمسات الأخيرة لهذا المخطـط قد تمت بعناية كبيرة خلال فصل الصيف؛ والآن، في أيلول سنة 2001، أضحى الوقـت مناسباً لوضعه موضع التنفيذ. (وكما عبر عن ذلك آندي كارد في حديث أدلى به إلى صحيفـة نيويـورك تايمز، «من وجهة النظر الترويجيـة، فأنت لا تعرض بضاعتك في شهـر آب، أغسطسـ».) ولكن في اليوم الذي بدأ الرئيس بوش رحلته إلى ولاية أيوا، كانت آلة إدارته المُشَحَّمَةُ بشكل جيد تتحرك بصوت مسموع.

نشرت صحيفة (وول ستريت جورنال) صباح ذلك اليوم، حديثاً لكبير مستشاري بوش الاقتصاديـين لاري ليندسي يعرض فيه رأياً تحليلياً لكلفـة الحرب المحتملة على العراق: ما بين مائة إلى مائتي بليون دولاراً. أضاف قائلاً إن هذه التكلفة لن يكون لها سوى تأثير طفيـف على اقتصاد الولايـات المتحدة طالما أنهـا لن تشكل سوى نسبـة تتراوح بين 1و2 بالمائة من الناتج الإجمالي الأمريكي المحلي.

اطلعت على الخبر بعد ولوجي إلى مكتبي مباشرة، بما أن هذه الصحيفة هي واحدة من الصحـف التي طلب آري إليّ أن أطلع عليها كجزء من النظام الذي يؤسس له، والمتضمن التأكد من أن كل شخص في الفريق الصحفي قد قرأ واحدة من كبريات الصحف الوطنية مطلـع كل صباح. كان هذا جـزءاً من شبكة إنذار مبكر يساعـد السكرتير الصحفي (أو نائبـه) في معرفة القضايا التي عليه مناقشتها مع كبار الموظفين في الاجتماع الصباحي، بطريقة تجعله ملماً بكل الموضوعات خلال فترة اللقاء الصحفي.

كانـت الأرقام التي ذكرهـا ليندسي مثيرة للدهشـة. وهي مثيرة للسخريـة نوعاً ما. بالعودة إلى تلك الأرقام من منظور أيامنا هذه، وبعد مرور خمس سنوات على بدء الحرب على العراق، فإن هذه الأرقام تبدو متدنية بشكل واضح (بالرغم من أن ليندسي افترض أن هـذه الكلفـة ستكون لحـرب تمتد لفترة أقصـر). ولكن في ذلك الحـين، عندما توقع

العديد - خصوصاً من أركان الإدارة - حرباً سريعة وسهلة نسبياً، تعقبها مرحلة انتقالية سلسة نوعاً ما، تمولها عائدات العراق من النفط بدرجة كبيرة، ربما كانوا تحت تأثير نوع من المخدرات.

لكـن خطأ ليندسي الأكبر لم يكن في حجم الأرقام التي اختار أن يذكرها. كان مجرد ذكـر أرقامٍ يعـد في حد ذاته خطأ كبيراً. فالحديث عن الكلفة المحتملة لحربٍ ما تزال في عهـدة المستقبل لم يكن جزءاً من المخطط المرسـوم للحرب، خصوصاً عندما كان البيت الأبيض في المراحـل الأولى الحاسمـة من بناء قاعـدة عريضة من الدعـم الشعبي لهذا المخطط. في الواقع، لم تكن أيٌّ من النتائج غير السارة لهذه الحرب - الخسائر البشرية، والآثار الاقتصادية، والمخاطر الجيوبوليتيكية، والارتدادات الدبلوماسية - جزءاً من هذه الرسالة. فقد كنا آنئذٍ في مرحلة التجييش لصالح الحملة، تماماً كما كنا عندما جالَ بوش في طول البلاد وعرضها وهو يقود حملة من أجل خفض الضرائب وإصلاح التعليم. كانت المرحلـة الأولى تلك، تهدف إلى إقناع الرأي العام أن التهديد جِديٌّ، ويحتاج إلى مواجهة مـن دون أي تأخـير. وهكذا فقد كانت الإشـارة إلى أي كلف بشريـة أو مالية محتملة، أو مناقشتها تصب في مصلحة منتقدينا، أو المعارضين للحرب.

خرق ليندسي القاعدة الأولى لرسالة البيت الأبيض في عهد بوش والتي تتضمن ضرورة الانضبـاط: لا تقم بـأي تصريح إخباري من دون الحصول علـى إذن بذلك. أدى الخرق الـذي قام به ليندسـي إلى جعل فكرة الترويج للحرب أكثر صعوبة. وكون هذا الخرق أتى في اليـوم نفسه الـذي ركز فيه بوش على أهميـة خفض النفقات الماليـة، فإنه قدم أيضاً للديمقراطيين حجةً لاتهام رسالة الرئيس بالنفاق.

حالمـا قرأت الصحيفة، عرفت أن أحداً في البيـت الأبيض لن يكون سعيداً، وأكثر من سيكون منزعجاً من هذه القصة هو الرئيس نفسه. قمت بلفت انتباه زملائي الآخرين في فريـق والاتصالات، وتأكدت من أن كبار الموظفين الآخرين بمن فيهم آندي كارد قد اطلع على هذا الخبر أيضاً.

أكـدت مجموعـة الصحفيين على مـتن الطائرة الرئاسيـة المتجهة إلى ولايـة أيوا أن التقديـرات التي أعطاهـا لاري استحوذت على اهتمام كبير من قبـل وسائل الإعلام. لم أبـدِ أي اهتمام بالأسئلة المثارة حول هذا الموضــوع، وعبرت عن ذلك بقولي إن من المبكر طـرح توقعات حول طبيعـة القرار الذي سيتخـذه الرئيس، لكنني فهمـت أن القصة يتم تداولها كخبر مهم في واشنطن. كنت أعرف أن الصحفيين يريدون معرفة ما يريد الرئيس قوله لو كان بإمكانهم ذلك. فكان لا بد لي من أقوم بلفت نظره إلى ذلك.

كان برنامـج بوش قبـل أن يدلي بخطابه في أيوا يتضمن جولة في مصانع سيرز التي كانـت ستشكل الستارة الخلفية لخطابه، ولكن لم يكـن ضمن برنامجه تلقي أي أسئلة. لكننـي علمـت أثناء الرحلة باتجـاه دافينبورت من المدير المتقدم برايـان مونتغمري أن مجمـع الصحافـة سيكون على بعـد عدة أمتار فقـط أثناء الرحلة. فـكان لا بد لي من ألفت نظر الرئيس إلى موضوع القصة وأتأكد من أنه مستعد للإجابة في حال أراد أحد الصحفيين توجيه سؤال إليه.

أوقفـت الرئيسـ في إحدى الزوايـا الصغيرة المنعزلة خارج المنطقـة الصناعية. قلت لـه: «سيادة الرئيس، يجب أن أتحـدث إليك». حدق بي بوش بشيء من نفاذ الصبر. كان اهتمامه منصباً على الجولة، وكما دائماً، كان يحب أن يلتزم بالجدول المقرر له.

سألني: «ماذا لديك؟»

قلـت: «سيـدي، لا تتضمن الجولة أي خطـة لتلقي أسئلة هذا الصبـاح. ربما يجب أن تعرف أنهم قد يحاولون أن يسألوك عن تصريحات لاري ليندسي في صحيفة وول ستريت جورنال الصادرة هذا اليوم».

سأل الرئيس: «ما الذي صرح به؟»

أجبته: «قال إن كلفة الحرب على العراق ستبلغ ما بين مائة ومائتي بليون دولار».

بـدا عليه الانزعاج بشكل واضح؛ وأدار رأســه جانباً وهو يتمتم بضع كلمات. فقد كان متضايقاً جداً، كما توقعت.

سأل الرئيس بشكل محدد وهو يحدق في وجهي: «لماذا قال ذلك؟»

قلت: «لا أعرف؛ فقد كان يتحدث إلى أحد الصحفيين، وأعتقد أن هذا التصريح أفلت من لسانه في معرض جوابه على أحد الأسئلة. وقد سبق لي أن قلت للصحافة إن الوقت مبكر للقيام بأي توقعات حول طبيعة القرار الذي سيتخذه الرئيس».

سأل الرئيس: «هل قام أحد بالتحدث إليه؟»

قلت: «نعم يا سيدي. من المفترض أن آندي قد قام بذلك».

تابع بوش بنبرة صوت أخذت بالارتفاع: «هذا غير مقبول. لا يجوز له التحدث في هذا الأمر. قم بإعلامهم أنني لا أنوي الإجابة على أي من أسئلتهم»؛ وكان يقصد بذلك الصحفيين.

أجبته: «لقد قمت بذلك بالفعل». عند هذه النقطة، خرج بوش من المنطقة المنعزلة ليبدأ جولته. وكنت خلفه مباشرة.

تمكن الرئيس من تجنب أي أسئلة كان يمكن أن تطرح حول تصريحات لاري غير المسؤولة في ذلك الصباح. وبعد انقضاء أربعة أشهر على تلك الحادثة، ترك لاري منصبه؛ فقد «استقال» من عمله في الإدارة كجزء من عملية إعادة تشكيل فريق الرئيس الاقتصادي (ذلك أن تصريحاته حول كلفة الحرب لم تساعده).

لاري الذي يعتبر خبيراً اقتصادياً رفيع المستوى قام بخرق مبدأ أساسي للبيت الأبيض في عهد بوش: وهو أن الرئيس لا يريد أن يتقدم عليه أي شخص. فوظيفته هي أنه هو من يصنع الأخبار، وليس أي شخص آخر - إلا إذا مُنِحَ إذناً بموجب الخطة المرسومة. أما أن يقوم شخص بصنع الأخبار خارج إطار الرسالة فإن ذلك يجعل من الجريمة مضاعفة، كما يجعلها تقترب من الوضع الذي يجعلها من الأخطاء التي لا يمكن غفرانها، خصوصاً في تلك المرحلة الأولى الحاسمة التي كنا قد بدأنا في حملة الترويج الكبيرة لهذه الحرب.

عبر موقعي ناطقاً باسم البيت الأبيض، كنت أقدر الحاجة إلى إيصال رسالة واضحة ومرسومة. ففي عالم تسوده نشاطات الدوائر الإخبارية على مدار الأربع والعشرين ساعة

يومياً، تقوم وسائل الإعلام بإمطار مشاهديها بآلاف من الرسائل التنافسية التي تبثها مترافقة مع صور وكلمات لا تحصى. أما فرص الحصول على فكرة واحدة واضحة ضمن هذا الخليط المتنافر من الرسائل فهي ضئيلة للغاية. ولكن عندما يكون منبر التصريحات الهدارة في البيت الأبيض تحت تصرفك، وكذلك البوق الإعلامي الرئاسي الهائل، فسيكون من الأسهل عليك إطلاق رسالتك، وتغطية أفكارك إعلامياً. مع كل ذلك، فمن الضروري أن تكون الرسالة متناسقة، ويعاد بثها المرة تلو المرة إذا كان لأي مفهوم أن يستقر في أذهان الناس، ويتم استيعابه بالشكل الصحيح. إذا كانت أي إدارة تأمل في التواصل مع الناس بشكل مؤثر، فعليها أن تقوم بتطوير رسائل بسيطة، ومباشرة ترتبط بمصالح الناس، وبمخاوفهم واحتياجاتهم. عليها بعد ذلك إيجاد الوسائل المختلفة لتأهيل هذه الرسائل كي تصبح قابلة للنشر في وسائل الإعلام حيث يتم توجيهها نحو الوجهة المقصودة المتمثلة في الرأي العام؛ وإلا فإن ما يريد الرئيس قوله سوف يصبح هباء منثوراً، ويضيع في الأثير، ومعه، ستضيع فرصة الرئيس في صنع الأحداث، والتأثير في المجتمع، و(الأمل في) إحداث تغيير إيجابي في حياة الناس.

هكذا، وبشكل عام، فهمت واحترمت ليس فقط تأكيد إدارة بوش على الاستمرار في الخط المرسوم المراد للرسالة أن تسلكه، وإنما دعمت هذا التوجه، وساهمت في صنعه ونشره جزءاً من الوظيفة المنوطة بي. ولكنني اليوم، وأنا أنظر إلى الوراء مستذكراً الحملة التي قمنا بشنها من أجل الترويج للحرب على العراق للشعب الأمريكي - وهي حملة شاركت فيها شخصياً، بالرغم من أن دوري لم يكن محورياً في صنعها - فإنني أرى بوضوح الجانب المظلم من تطبيق أساليب الحملات الحديثة على قضايا ذات ثقل تاريخي خطر. ساعدني استذكار تلك الفترة على بلورة فهمي للحملة الدائمة، بما في ذلك التجاوزات المدمرة التي ترافقها؛ وكذلك استيعاب كيف أن واشنطن، في حال الحرب الحزبية التي تمر بها حالياً، تمارس سياسة الخداع على ضفتي الحزبين. هذه الصورة ليست جميلة أبداً.

الأغلبية الساحقة من قادتنا المنتخبين أناس طيبون؛ إلا أنهم يقعون فريسة للجهود التي لا تنتهي من أجل السيطرة على الرأي العام وإخضاعه لمصالحهم. إنهم يتورطون

في سياسة الخداع من أجل الإبقاء على مصالحهم سواء كان ذلك بقصد أو من دون قصد (أعتقد في حقيقة الأمر، أن هذا الخداع هو في معظم الأحوال غير مقصود، أو لا شعوري). إنه جزء من الدعاية السياسية الهادفة إلى تسويق قضاياهم.

تباشر بعد ذلك وسائل الإعلام عملها. تقوم الصحافة عبر تركيزها على تغطية الصراعات، واللغط، وشخصيات الفائزين والخاسرين، والحملة الدائمة، بتضخيم النقاط التي تشكل محور الحديث حول أحد الحزبين أو كليهما؛ ومن ثم فهي تقوم بنشر الأضاليل، وأنصاف الحقائق، وأحياناً الأكاذيب المفضوحة من أجل احتلال دائرة الضوء، وإيجاد شخص يمكن أن يكون صيداً لها. كما أنها عبر المبالغة في التأكيد على الصراعات واللغط، والإقلال من قيمة القضايا الصعبة والمهمة، والهبوط بها إلى مستوى الأبيض مقابل الأسود، واقتباس ما يناسبها بصورة مجتزأة، فإن وسائل الإعلام تفاقم المشكلة، ومن ثم، يصبح من شبه المستحيل حتى على القادة ذي النوايا الحسنة، تصحيح أو توضيح سوء التفاهم، أو الإيغال في التبسيط الذي يسود النقاش السياسي. وأخيراً، يصبح من الصعب أكثر فأكثر على الرأي العام استيعاب الحقائق الأكثر أهمية وسط هذا الكم من الصراع، واللغط، والسلبية. يعتقد بعض الحزبيين أن مثل هذه الأجواء مناسبة أكثر لأنهم يستطيعون القيام بمناوراتهم بشكل أفضل في بيئة مسيسة تسييساً عالياً كهذه البيئة، ومن ثم تحقيق أهدافهم التي يصبون إليها. لكن القوة التدميرية لهذه الحرب الحزبية التي لا هوادة فيها هي التي كوّنت أفكاري في المرحلة الآتية.

انهمك بوش وأركانه في البيت الأبيض في خريف سنة 2002 في التخطيط لحملة منظمة بعناية لتشكيل مصادر التأييد الشعبي والسيطرة عليها واستغلالها لمصلحتنا. قمنا بالشيء نفسه تقريباً بالنسبة إلى قضايا أخرى - مثل قضيتي خفض الضرائب والتعليم، ونجحنا في ذلك إلى حد بعيد. لكن الحرب ضد العراق كانت شيئاً آخر. فلو نحّينا جانباً التكلفة الإنسانية التي لا يمكن تعويضها، والثمن المادي الباهظ لهذه الحرب، فقد أدى قرار الحرب ضد العراق، والطريقة التي اتبعناها في الترويج لهذه الحرب إلى مزيد من الاستقطاب، وإلى حرب حزبية أكثر ضراوة. أدى غياب الصدق والصراحة في حملتنا للترويج للحرب إلى جملة من ردود الفعل قام بها خصومنا، وتسببت بشكل

أو بآخـر في زيادة الأضاليـل والتعتيم على الحقيقة. كما أدت الموجة الجديدة من الخداع إلى إلقـاء ظلال كثيفـة من التعتيم التي حجبت عن الناس رؤيـة الحقائق الثابتة والمهمة والحاسمة التي عليهم استيعابها بغية تجنب مشكلات مشابهة في المستقبل.

ضمن هذه المعمعة، كانت وسائل الإعلام تلعب دوراً مشاركا وتحريضياً. كان تركيزها الرئيس ينصب في اتجاه تغطية الحملات التي تروج للحرب، بدلاً من القيام بطرح أسئلة قاسيـة تبحث عن إجابات عن السبب المنطقـي وراء الترويج لهذه الحرب، أو سبر أغوار الحقائـق وراء هـذه الحرب. كان البيـت الأبيض يعلم أن وسائل الإعـلام الوطنية سوف تقـوم بتغطية شاملة لوجهة نظـره حول الحرب حتى لو كان الدليـل الملموس الداعي إلى شنهـا واهيـاً. كان يمكن أن تُطرَحَ بعض الأسئلة؛ إلا أن البيت الأبيض كان يتمتع بأكبر منصـة دعائيـة، خصوصاً عندما كان الأمر يتعلق بمسألـة تستحوذ على كثير من الإثارة واللغـط كالحـرب. يميل الرأي العـام إلى تصديق ما يسمعه من البيـت الأبيض، أو ترك فسحـة له كي يثبت حسن نواياه، إلى أن تثبت وسائل الإعلام المتربصة أن هذه المعلومات غير موثوقة.

ولكـن في هذه الحـال، سوف لن تقوم وسائـل الإعلام بأداء دور كلـب الحراسة، ولن تظهـر سوى نـزر القليل من التركيز على الحقيقة وتوخي الدقـة؛ بل سيكون همها الأكبر التحقـق من نجاح حملة الترويج للحرب. هل ربح الرئيس الجدل الدائر أم خسره؟ كيف كان رد الديمقراطيـين؟ ما طبيعـة العوامل الانتخابية للحملة؟ مـاذا بينت استطلاعات الـرأي؟ أما الحقيقـة - بشأن الطبيعة الحقيقية للتهديد الـذي كان صدام حسين يمثله، والطريقـة المثلى لمجابهة هذا التهديد، والمخاطر المحتملة الناجمة عن الصراع العسكري - فلـم يكـن أحد يكترث لها كثيراً؛ وقد استمر ذلك علـى الأقل، إلى ما بعد حصول بوش على الدعم الضـروري للبدء بشن الحرب، لأن الدعم الشعبي لقواتنا المسلحة حينها بدأ يفيق على الأذى المحتمل الذي يمكن أن تتعرض قواتنا له.

كانـت هناك استثنـاءات. فقد طرحت مجموعـة من الصحفيين أسئلـة قاسية حول منطـق الإدارة الرئيسـ الذي دفعهـا لشن الحرب، وركزت هـذه الأسئلة في مجملها على

ضرورة الحرب، وكذلـك على الحقائق المرتبطة بها. لكن هؤلاء لم يكن بمقدورهم تغيير مسار تركيز وسائل الإعلام الرئيس في الوقت الذي كانت الحملة من أجل الترويج للحرب في أوجها، أو إبطاء زخم مسيرة بوش المصمم على المضي في سعيه نحو الحرب.

***

في المرحلة التي سبقت الحرب،كنت أشغل منصب نائب السكرتير الصحفي في البيت الأبيض. لم يكن دوري يتركز حول موضوع العراق، أو حتى بذل أي جهد من أجل الترويج لمثـل هذه الحرب. قضيت جل وقتي في التركيز على مسائل لا علاقة لها بموضوع العراق. لكنني كنـت أحياناً أحل مـكان آري فليشر، ومن ثم كنت أشـارك في حملة الترويج لشن الحرب، أو القيام بتجييش الرأي العام، والتحكم بميوله بطريقة تخدم مصالحنا.

كنـت، مثلي مثل الكثير من الأمريكيين، غـير متأكد من ضرورة شن الحرب، والنزوع نحـو مبـدأ الضربـة الوقائية الـذي كان يستخدم من أجـل دفعنا للقيـام بالحرب. كنت أتساءل عن السبب الذي يحدونا للتحرك بسرعة نحو المواجهة. لكنني كنت أثق بالرئيس وصناع السياسة في فريق الأمن القومي التابع له. لقد حازوا على ما يشبه الوسام العالمي لقيامهـم برد سريع ومدروس على هجمات الحادي عشر من أيلول، والمتمثل خصوصاً في الحـرب على أفغانستان. الآن، كان معظمهم يعتقد أن العراق يمثل تهديداً جدياً، وهو ما أدى دوراً كبـيراً في رغبتـي بدعم قـرار مواجهة صدام حسين عسكريـاً، حتى لو لم يمثل ذلـك الموقف بالضرورة تماهياً مطلقاً مع هذا القـرار. فهم في واقع الأمر يمتلكون جميع مفاتيح المعلومات الاستخباراتية والشخصية عن صدام حسين ونظام حكمه. أما أنا، فلم تكن لدي مثل هذه المعلومات. وهكذا، ومثل معظم الأمريكيين، كنت أميل إلى حسن الظن بهم، إلى أن يثبتوا أنهم غير جديرين بحسن ظننا بهم.

لم تبـدأ حملـة الترويج لشـن الحرب بشـكل جـدي إلا في خريف سنـة 2002. ولكن الرئيـس، كمـا علمت فيما بعد، كان قـد اتخذ قراره بمواجهة النظـام العراقي قبل ذلك بعـدة أشهر. رأى كل من تشيني، ورمسفيلد، وولفويتز أن هجمات الحادي عشر من أيلول

كانت فرصة لملاحقة صدام حسين، وضرب نظامه، ووضع حد له كتهديد لأمريكة، وجعل منطقة الشرق الأوسط أكثر أمناً. أعطى بوش موافقته على ذلك.

كما ذكر بوش لبوب وودوارد في مقابلة أجراها معه في أواخر سنة 2003، فقد شعر أن على الولايات المتحدة أن تهتم بموضوع أفغانستان أولاً - أي إسقاط نظام طالبان، والسيطرة على الملاذ الآمن للقاعدة. كانت مقاربة بوش تعتمد منطق «الأولويات»؛ لأن العراق لم يغب أبداً عن بال بوش، أو فريق مجلس الأمن القومي التابع له جزءاً من نظرته الشمولية حول الحرب على الإرهاب.

أما متى، ولماذا اتخذ بوش قراره لشن الحرب على العراق فإنهما أهم سؤالين يجب البحث عن إجابة عليهما كي نفهم الطريقة التي استخدمتها إدارته للترويج لفكرة الحرب بين أفراد الشعب الأمريكي.

كانت السياسة الخارجية الأمريكية تنظر إلى صدام حسين نظرة يشوبها الازدراء. فقد رأوا فيه قوة مزعزعة للاستقرار في الشرق الأوسط، وهي منطقة تحتوي على احتياطات نفطية هائلة تمثل مصالح أمنية وطنية للولايات المتحدة. اتخذ فريق بوش إجراءات ضد النظام العراقي أشد قسوة من الإجراءات المتخذة في عهد إدارة كلينتون، حتى قبل وقوع أحداث الحادي عشر من أيلول. ولهذا السبب كانت الإدارة تدفع باتجاه فرض عقوبات ذكية على النظام العراقي عبر الأمم المتحدة، والتحرك باتجاه القيام بضربات عسكرية موجعة عند الضرورة كي لا يخرج صدام عن الخط المرسوم له، وربما لإضعاف نظامه بشكل قاتل.

ولكن بعد أحداث الحادي عشر من أيلول، أبدى بوش وفريقه اهتماماً أكبر بموضوع العراق. فقد وصلوا إلى استنتاج مفاده أن الحرب على الإرهاب هي حرب شاملة يجب شنها على عدة جبهات عسكرية وغير عسكرية - بما في ذلك من الناحية الضمنية، غزو العراق. ولهذا السبب تنحى بوش برمسفيلد جانباً، وتحدث معه على انفراد في أواخر شهر تشرين الثاني، نوفمبر سنة 2001، كما أكد ذلك الكاتب وودوارد في حديثه

مـع الرئيس، ووجهه إلى ضرورة تحديث خطط البنتاغون الحربية حول العراق. حرص الرئيس على التأكد من أن تبقى هذه المبادرة طي الكتمان، وأن يطلع عليها فقط عدد قليل جداً من الناس الموثوقين الذين لا يمكن أن يفشوا هذه الخطة. لكن هذا يعني في واقع الأمر أن بوش اتخذ فعلاً قراره بشن الحرب - حتى لو أقنع نفسه أن هذه الحرب يمكن تجنبها. كان مقتنعاً في قرارة نفسه أن القرار بشأن موضوع العراق، كما في الموضوعات الأخرى، لن يكون نهائياً وحاسماً إلا عندما يعطي أمره النهائي بشن الحرب. ولكنني كما علمت لاحقاً، وبعد أن استعرضت في ذاكرتي مجريات ما حدث حينها، كانت الحرب واقعة لا محالة إذا أخذنا بعين الاعتبار التحضيرات التي كان يعد لها الرئيس منذ البداية.

دائماً ما كان الرئيس بوش يُنظَرُ إليه كقائد بالفطرة، وليس كقائد ذي فكر منهجي. فهو ليس الشخص الذي يتأمل بعمق في الخيارات السياسية المتاحة - بما في ذلك خوض مناقشات مستفيضة حولها - قبل اتخاذ القرار الذي يراه مناسباً. بدلاً من ذلك، فإن خياراته مبنية على مشاعره وعلى معتقداته التي يؤمن بها إيماناً عميقاً. هكذا تكونت الفكرة بشأن العراق.

يؤمن بوش إيماناً عميقاً بأن جميع الشعوب لها حق إلهي في العيش بحرية. لم أره في حياتي يتحدث عن موضوع آخر بمثل هذه الحرارة، في العلن وفي السر. يُعرَفُ عنه اقتناعه وبشكل لا يرقى إليه الشك، مقته الشديد للطواغيت أمثال صدام حسين، كما يعرف عنه قناعته الراسخ بأن الطغاة لن يتخلوا أبداً عن رغبتهم بامتلاك أشد أنواع الأسلحة فتكاً في العالم. كان صدام بالنسبة لبوش، شخصاً لفظه العالم بسبب جرائمه ضد الإنسانية. كان هذا سبباً كافياً ليضع العراق على شاشة رادار الرئيس منذ بداية عهده في البيت الأبيض.

يؤمن بوش أيضاً أن من واجب أمريكة استعمال قوتها لقيادة العالم بأسره إلى مستقبل أفضل، وأكثر أمناً. كما يؤمن أن القائد يجب أن يفكر ويتحرك بشجاعة من أجل تحقيق مُثُلِه العليا. ولهذا السبب كان بوش يؤمن أن من المهم بالنسبة إلى مستشاريه أن يفكروا

بالقيام بأفعال محددة ذات أهداف إستراتيجية أكبر - تتيح لهم أن يكونوا جزءاً من الصورة الشاملة التي توضح ما تبغي هذه الإدارة تحقيقه.

أخيراً، كان بوش متخوفاً بشكل حقيقي، من احتمال أن يقوم الإرهابيون بضرب أمريكة من جديد. وقد زادت الهجمات بالجمرة الخبيثة من حدة هذه المخاوف. كان بوش يعني ما يقول عندما أكد أن لن ينسى أبداً درس الحادي عشر من أيلول. كان مصمماً على التحرك قبل أن تتحول مخاطر الهجوم من احتمالٍ إلى واقع.

كانت نتيجة تَجمّعِ هذه المعتقدات كلها في بيئة ما بعد الحادي عشر من أيلول قد تجلت في أهم قرار اتخذه بوش خلال مدة رئاسته. فقد زال بسرعةٍ الخطُ الفاصلُ بين الرغبة الموجودة سلفاً عند أعضاء فريق مجلس الأمن القومي في إسقاط صدام، وبين التأكيد الجديد على ضرورة التحرك ضد تهديدات حقيقية ومتزايدة قبل استفحالها.

هل قامت مستشارة بوش لشؤون الأمن القومي كوندي رايس بدراسة تقويمية شاملة لأسلوب بوش الصعب المراس في القيادة، أو بتقدير لأهمية الحاجة إلى ضبط إيقاع معتقداته الجامحة، وإبقائها تحت السيطرة؟ سنترك الحكم على ذلك للمؤرخين؛ ولكن، بصفة عامة، كان مستشارو بوش السياسيين للشؤون الخارجية مطية لأفكاره، لم يفعلوا إلا أقل القليل لكي يشككوا في جدواها، أو يدفعوه إلى إعادة التفكير بما فيه الكفاية كي يعيد النظر في العواقب المحتملة قبل التحرك إلى الأمام. وفي اللحظة التي يقرر بوش إطلاق مشروع ووضعه موضع التنفيذ، كان من النادر أن تطرح تساؤلات حول جدوى أو مصداقية هذا المشروع. هذا ما كان بوش يتوقعه، وهو ما كان يتأكد من أن كبار مستشاريه يعرفونه حق المعرفة. كانت إستراتيجية تنفيذ إحدى السياسات مفتوحة للمناقشة والمداولات، ولكن سياسة ليّ الذراع كانت غير مسموح بها، كما لم يكن من المسموح الوصول إلى استنتاجات مخالفة حول السياسة المتبعة بعد أن يكون قد تم إقرارها ووضعها حيز التنفيذ.

هذا كان بالتأكيد ما حصل بشأن العراق. كان بوش مستعداً لتغيير النظام الحاكم، وكان هذا يعني بكل المعايير، نشوب حرب. وكان السؤال ليس حول ما إذا كانت الحرب ستقع؛ بل، بكل بساطة، متى وكيف.

بالرغـم من أنني لم أنتبه إلى ذلك حينما أطلقنا حملتنا للترويج للحرب، فإن ما دفع ببوشـ نحو المواجهـة العسكرية أكثر من أي شـيء آخر، كانت الرؤيـة الطموحة والمثالية التـي سادت البـلاد في المرحلة التي أعقبـت هجمات الحادي عشر من أيلـول، المتضمنة تغيـير بنيـة الشرق الأوسط عبر نشر الحريـة فيه. كانت هذه الرؤيـة متجذرة في فلسفة الديمقراطيـة بالإكراه، ومبنية على الاعتقاد بأن العـراق جاهز للتحول من الديكتاتورية إلى رمز من رموز الحرية وذلك عن طريق استخدام القوة، ومستندة إلى ما يشبه اليقين بأن هذا التغيير ممكن التحقيق بأبخس الأثمان. كان الانطباع عن العراقيين بأنهم أناس عصريون، يتطلعون إلى الأمام، ويتوقون للحرية؛ إلا أنهم غير قادرين على تحقيقها تحت ظـل نظام صـدام حسين الديكتاتوري الوحشي. كان الرئيسـ وفريق القيادة العامل لديه يؤمنـون أن النصـر في العـراق يمكن أن يتم بشـكل حاسم وسريـع، وأن الشعب العراقي سوف يرحب بالحرية ويعانقها.

اعتقد الرئيس ومستشاروه أنه بمجرد أن تنطلق الديمقراطية في العراق، فإنها ستكون نموذجاً يحتذى بالنسبة للمصلحين الآخرين التواقين إلى الحرية في الشرق الأوسط. كما اعتقدوا أن التأثير الإيجابي لعامل الدومينو هذا، يمكن أن يحدث تأثيراً في إيران المجاورة التـي تضم مثل العراق نخبة كبيرة من المواطنـين المتعلمين الذين يتطلعون إلى المستقبل، خصوصـاً من الجيل الشـاب. كانت أفغانستـان تقترب حينها من تخـوم الديمقراطية؛ وهـي جارة لإيران وتقع على حدودها من طرف، كمـا العراق الذي يقع في الطرف الآخر مـن حدودهـا. سوف يكون العراق الحر مصـدر إلهام وتشجيـع للإيرانيين الإصلاحيين للانتفاضـ ضـد حكومتهم وتغييرها؛ كمـا أن العراق الحر وإيران الحـرة سوف يزيلان مصدريـن رئيسين من مصـادر التهديد للسـلام والاستقرار في قلب الشـرق الأوسط - كطرفـين في «محـور الشر» كما أكد بوشـ في خطابه حول حال الاتحـاد في كانون الثاني، ينايـر، سنة 2002. سيـؤدي ذلك من ثم إلى خفض التوتر الدولي بشكل كبير، ويعزز قوة واحـدة من المصالح الأمنية الوطنية الرئيسة الأمريكية عبر ضمان استقرار طويل الأجل لوضـع الاحتياط النفطـي الهائل الموجود في منطقة الشرق الأوسـط. وكما يحب الرئيس بوش أن يردد دائماً القول إن الدول الحرة هي دول مسالمة لا تتحارب فيما بينها. وهكذا،

فـإن استقدام الحرية إلى الشـرق الأوسط سيكون بمنزلة خطـوة عظيمة نحو بناء عالم أكثر سلاماً في القرن الحادي والعشرين.

كان الرئيس يؤمن دائماً بضرورة نشر الحرية والديمقراطية في كل أرجاء العالم، بما في ذلـك منطقـة الشرق الأوسط؛ كما عبر عن التزامه بهـذه الرؤية في وقت سابق وذلك في كلمـة ألقاهـا في وارسـو في حزيران، يونيو سنة 2001. في ذلـك الحين، لم يكن هناك أي تفكير جدي بشأن القيام بغزو عسكري على نطاق واسع من أجل فرض هذا النوع من التفكير بالإكراه. إلا أن أحداث الحادي عشر من أيلول أدت به إلى التركيز على وضع هذه الرؤيـة موضـع التطبيق على العراق. وكان اعتقاد بوش بضـرورة نشر الحرية على نطاق العـالم أحد الأسبـاب التي حدت به إلى تبني قرار حول النـزاع الإسرائيلي- الفلسطيني يتم بموجبه إنشاء دولة فلسطينية حرة - وهي خطوة أخرى تساهم إيجابياً في بناء شرق أوسط أكثر حرية وأكثر استقراراً، تتضاءل فيه إلى حد بعيد فرص تصدير الإرهاب. وقد أصبح العراق الحر يشكل بالنسبة لبوش أولوية بعد الحادي عشر من أيلول لأنه كان يشكل مشروعاً أكثر قابلية للتحقيق من إيجاد حل للصراع الإسرائيلي- الفلسطيني.

أعـود بذاكرتـي إلى حديـث دار بيني وبين الرئيسـ في المكتب البيضـاوي بعد سنتين مـن ذلـك عندما كنت أشغل منصب السكرتير الصحفـي. في ذلك الوقت، كانت القصة المتداولـة في وسائل الإعـلام تتلخص في أن نتيجة الحرب في العـراق ستحدد مسار إرثه أكـثر من أي شيء آخـر. سألت بوش عن هذا الموضوع. فأجـاب بسرعة وحزم: «كلا. إن الحـرب على الإرهاب هي التي سوف تحدد إرثي، كما أن موقع العراق في هذه الحرب هو مـا سيحدد إرثي». كانت رؤيتـه العظيمة حول شرق أوسط حر تعطـي أملاً وتوفر فرصة لسكان منطقة لم تحظَ بأيٍّ منهما إلا بالكاد. هذه الحرب بدورها سوف تقضي على قدرة الإرهابيـين من الإسلاميين المتطرفين علـى التحريض على الكراهية والعنف، وعلى جمع متطوعـين من طبقات اجتماعية متدنية وفقيرة وغير متعلمـة من أبناء هذه المنطقة. كل ذلك كان يعني بالنسبة له تحقيق النصر في الحرب على الإرهاب، وهو ما سيوفر الفرصة لبوش لتبوء موقع راسخ في التاريخ.

كان يشـارك الرئيسَ حلمَهُ في قيام شرق أوسط ديمقراطي عـددٌ من كبار المسؤولين في إدارتـه مثل نائب وزير الدفاع بول وولفويتز ومؤيديه من المفكرين غير المحافظين. أما بالنسبة لديك تشيني ودونالد رمسفيلد فقد كان ينتابني شعور بأن اهتمامهما الرئيس كان ينصب على ضرورة إزالة التهديد الذي يتعرض له السلم الإقليمي والدولي، وعلى تحقيق أمن اقتصادي أكبر؛ ولم يكن نابعاً من الإيمان برؤية بوش لعالم تسوده الحرية التي سوف تؤدي حكماً إلى التغيير. لكنهما لم يبديا أي اعتراض على تلك الرؤية الديمقراطية، طالما أنهـا ترسخ التزام الرئيس بتنظيم حملة عسكرية كانا يؤيـدان شنها لأسباب أخرى؛ لذا فقد كانا سعيدين بالانضمام إلى هذا الفريق.

ولكـن الرئيسـ وأعضاء آخريـن في إدارته لم يولوا هذه الرؤيـة التغييرية للمنطقة في مرحلـة التعبئة النفسية لهذه الحرب الكثير مـن الاهتمام. فقد ركزوا بدلاً من ذلك على التهديـد الذي تمثله أسلحة الدمار الشامل، وعلى العلاقة المحتملة بين العراق والإرهاب. وكمـا صرح بـول وولفويتز لمجلـة Vanity Fair في شهر أيار، مايو سنـة 2003 فإن بوش وفريـق الأمن القومي في إدارته «استقروا حول موضـوع يتفق عليه الجميع، ويتمثل في أن أسلحة الدمار الشامل هي السبب الجوهري في شن هذه الحرب». وتابع وولفويتز قائلاً:

كانـت هناك دائماً ثلاثة مخاطـر يمثلها العراق. تتمحور الأولى حـول أسلحة الدمار الشامـل، والثانيـة حول دعم الإرهاب؛ أمـا الثالثة فتتمثل بالمعاملـة الوحشية التي يعاني منهـا مواطنـو العراق من قبـل النظام. ... أظـن في الحقيقة أن بإمكانـك إضافة خطر رابع يتجسد في العلاقة الوثيقة بين الأولى والثانية. فالمخاطرة الثالثة تشكل في حد ذاتها كمـا أظن أنني ذكرت سابقاً، سبباً لمـد يد المساعدة إلى العراقيين، ولكنه ليس إلى درجة تعريض حياة أبنائنا الأمريكيين إلى الخطر، وبالتأكيد ليس إلى المدى الذي ذهبنا إليه.

كمـا اعترف أن «ربط العراق بالإرهاب كان أكثر الموضوعات التي جرت حولها الكثير من الخلافات داخل الإدارة».

وهكـذا فقد كان القرار القاضي بالتقليل مـن أهمية الرؤية الديمقراطية لبوش دافعاً لشـن الحرب بالأساس خياراً له علاقة بترويج الحرب. لم أتأكد إلا بعد مرور وقت طويل

على استلامي مهمة السكرتير الصحفي، من أن الحلم حول شرق أوسط ديمقراطي كان في واقع الأمر أكثر الدوافع قوة عند الرئيس بوش في قراره شن الحرب. كنت أسمع الرئيس يكـرر مرة تلو الأخرى، وبكثير من الحماس، الحديث عن فضائل الحرية أثناء محادثاته الخاصة مع زعماء العالم، وكذلك خلال أحاديث عابرة كنا نتبادلها بشكل غير رسمي.

يتوق جميع الرؤساء إلى بلوغ العَظَمَة؛ إلا أن قليلاً من هؤلاء يبلغها فعلاً. وكما سمعت بوش يقـول ذات مرة إن الرئيس في زمن الحرب هو الذي يملـك فرصة في بلوغ العَظَمة، ويعـود ذلك جزئيـاً إلى أن الاضطرابات ذات الأبعاد التاريخية توفر فرصة لإحداث تغير تحولي؛ وهو التغير الذي كان بوش يحلم في تحقيقه. رأى بوش في العراق فرصته السانحة لصنـع إرث مـن العظمة. كان بوشـ يعتقد، وقد أسكرتـه قوة أمريكة التـي لا تقاوم، أن التحـول الناجح في العراق سوف يمثل المفصل الرئيس لتحقيـق حلمه بشأن شرقٍ أوسطٍ ينعم بالحرية.

لكـن مشكلـةً برزت هنا؛ وهذه المشكلـة أصبحت بالنسبة لي في غايـة الوضوح عندما استحضرتها من ذاكرتي - فقد نشأت هوة بين الهدف الأسمى والأغلى على قلب الرئيس مـن جهة، وبين التعليـل العلني لشن هذه الحرب من جهة أخـرى. لقد كان الرئيس بوش ومستشاروه يعلمون أن الشعب الأمريكي لن يقدم بالتأكيد الدعم لحرب تُشَنّ بشكل رئيس من أجل تحقيق هدف طَموحٍ يتمثل بإحداث تغيير في الشرق الأوسط.

كان هنـاك دائمـاً نزوع قـوي نحـو الانعزالية في أمريكـة، وكانت هنـاك مقاومة بين صفـوف الأمريكيـين لفكـرة إرسـال وحدات عسكريـة إلى ميادين القتـال، إلا في حال الضرورة القصوى. يفهم معظم المواطنين الأمريكيين اليوم أن وضعنا كوننا قوةً عظمى، والـذي تحقق بفضـل ثرواتنا العظيمـة، ونفوذنا العالمـي، وقوتنا العسكريـة، ودورنا أننا أعظـم ديمقراطيـة في العالم، يفرض على الولايات المتحدة أن تلعـب دوراً قيادياً مسؤولاً في العـالم. ولكـن، ومن المنطلق نفسه، نحـن أمة محبة للسلام، وليسـت لدينا طموحات للقيـام بغـزو العـالم، أو في أن نصبـح قوة إمبرياليـة. بدلاً من ذلك، نتـوق إلى الحفاظ علـى مصالحنا في الداخل الأمريكـي، وتبادل المصالح التجاريـة والتنافس بشكل سلمي مـع الأمم الأخرى، واستعمال قوتنا العسكرية ليس مـن أجل «إصلاح» الأمم الأخرى، بل

مـن أجل حماية مصالحنا ومصالح أقرب حلفائنا إلينا عندما تتعرض هذه المصالح إلى تهديد مباشر.

كانـت فكرة تغيير الشـرق الأوسط بالقـوة تتعارض مع مبدأ التواضـع الموعود، وكان مـن الصعوبـة بمكان على بوش وأركان إدارته القيـام بالترويج لهذه الفكـرة بين أفراد الشعـب الأمريكي. كانـت تلك ستؤدي إلى إثارة جميع أنـواع النقاشات التي لن يكون من السهـل الفـوز بها - والتي حـازت على كمٍ أكبر من الاهتمـام في أعقاب شن الحرب على العـراق. هـل كان من الواقعي التفكير بتحويل بلد مثل العـراق يحكمه نظام متخندق من الدكتاتورية إلى الديمقراطية عن طريق استخدام القوة العسكرية بشكل رئيس؟ هل كان شعب العراق ومؤسساته المدنية جاهزين بشكل كامل لدعم فكرة قيامهم بحكم أنفسهم؟ مـا أشكال التدخـل والتواجد العسكري المطلوبـين للمحافظة على الاستقـرار أثناء قيام اضطرابـات حكوميـة أو شعبية؟ ما الدور الـذي يتوقع أن تلعبه الأصوليـة الإسلامية في النظـام الجديد؟ ماذا عن التوترات العرقية والدينيـة المزمنة المتوضعة تحت السطح في هذا البلد الذي تفرض فيه رقابة محكمة؟ وكيف يمكن لنا أن نتأكد أن الحكومة الجديدة المنتخبـة ديمقراطياً في العراق ستكون موالية للأمريكيـين، وأنها مستعدة للعيش بسلام مع جارتها (وحليفة أمريكة) إسرائيل؟ لم يكن من السهل أبداً توجيه تلك الأسئلة، وذلك لأنها تتطلب عناية واهتماماً، وتخطيطاً دقيقاً.

لـذا، وبدلاً من فتح باب صنـدوق الشرور هذا على مصراعيه، اختارت الإدارة طريقاً آخـر - فقـد آثرت عدم استخـدام سياسة الخداع المكشوف؛ بل اختـارت تعمية الحقيقة عـبر إخفاء السبب الحقيقـي الذي دعاها لاختيار طريق الحـرب، والتأكيد على اختلاق حججٍ أقـل شأناً كان يمكن أن تتم معالجتها بطرق أخرى (مثل استخدام وسائل الضغط الدبلوماسيـة المكثفة)؛ وذلك في محاولـة منها جعل التهديد الناجم عـن أسلحة الدمار الشامـل، وعلاقة العراق بالإرهاب يظهران كواقـع شبه مؤكد، وأقل إثارة للتساؤلات مما كانتـا عليه في الواقـع، وتجاهل لبعض التحذيـرات الحاسمة من قبـل أجهزة المخابرات وعدم الاكتراث بها، والتقليل من شأن الأدلة التي تشير إلى الاتجاه المعاكس مستخدمة في

ذلك أسلوب التلميح والإشارات الضمنية لتشجيع الأمريكيين على تصديق ما تقدمه لهم من معلومات غير واضحة وربما كانت مزيفة (مثل امتلاك صدام حسين لبرنامج أسلحة نووية نشيط)، أو معلومات أخرى مكررة بشكل سمج، أو خاطئة تماماً (مثل الإشارة إلى أن صدام حسين كانت له علاقة عملية بالقاعدة).

عندما تقرر المشاركة في حملة انتخابية، فإنك تهدف إلى استخدام أقوى حججك. وهذا يشبه إلى حد ما، الإستراتيجية التي يتبعها المحامي في قاعة المحكمة. فهو لا يكترث بمسألة الاعتراف بنقاط الضعف في القضية التي يدافع عنها، أو الحجج المضادة الصحيحة التي يثيرها خصومه ضد حججه؛ فهو يترك هذه المهمة للمحامين الذين يمثلون الطرف الآخر. يركز بدلاً من ذلك بشكل مطلق على أكثر حججه إقناعاً ولو أدى ذلك إلى تقديم صورة من جانب واحد للقضية. هذه هي وظيفته. أما مهمة البحث عن الحقيقة المطلقة فتترك في عهدة أشخاص آخرين - القاضي وهيئة المحلفين.

تلك كانت الروحية التي قاربت فيها إدارة بوش الحملة للترويج للحرب. كان الهدف هو الفوز بالمناقشات الدائرة حول هذه القضية، ومن ثم دفع الكونغرس والشعب الأمريكي إلى تأييد قرار الإدارة بمواجهة صدام. ولتحقيق هذا الهدف، فقد تراجعت أهمية الصدق والصراحة حول الحرب المحتملة - أهدافها الأكثر شمولية، وكلفتها المحتملة، والمخاطر المتوقعة الناجمة عنها - إلى المرتبة الثانية.

❋ ❋ ❋

في معرض تأسيسه لقاعدة يوسع عبرها دائرة الحرب على الإرهاب خارج حدود أفغانستان، ويفرض الديمقراطية في العراق، قام بوش بتحديد الخطوط العريضة لمبدأ جديد يتعلق بمفهوم الحرب الوقائية وذلك ضمن كلمة ألقاها في إحدى حفلات التخرج في مدينة ويست بوينت، أوائل شهر حزيران، يونيو. كنت أرافقه في تلك الرحلة. وكان من ضمن ما قاله بوش:

تكمن أشد مظاهر الخطر على الحرية في التقاطع الخطر بين الراديكالية وبين التكنولوجيا. عندما تنتشر الأسلحة الكيميائية، والبيولوجية، والنووية؛ إضافة إلى

تكنولوجيــا الصواريــخ الباليستيــة - عندما يحدث هــذا، يمكن حتى للــدول الضعيفة أو المجموعــات الصغيرة أن تضع يدهــا على مصادر قوة كارثية تستطيــع بواسطتها ضرب الأمم العظيمة. ولقد عبر أعداؤنا عن هذه النوايا، وتم ضبطهم وهم يحاولون اقتناء تلك الأسلحــة الرهيبــة. هم يسعــون إلى امتلاك القدرة التي تمكنهم مــن ابتزازنا، أو إلحاق الأذى بنا، أو بأصدقائنا - ولكننا سنقف في وجوههم بكل ما نملك من قوة.

اعتمــدت أمريكة في سياستها الدفاعية، ولمدة طويلة مــن القرن الماضي على مبدأيّ الــردع والاحتواء. وما تزال هذه الاستراتيجيــات موضع التطبيق في بعض الحالات. لكن التهديــدات الجديدة يجــب مواجهتها أيضاً بأفــكار جديدة. فقوة الــردع - أي التهديد بالقيــام بــرد فعــل هائل ضــد الدول الأخــرى - لا قيمــة لها أمــام الشبــكات الإرهابية المتخفيــة التــي لا تدافع عن دول أو شعــوب. لم تعد سياسة الاحتــواء ذات جدوى عندما يكــون باستطاعة حكام ديكتاتوريــين غير متزنين تثبيت هذه الأسلحة على الصواريخ، أو إيصالها بشكل سري إلى حلفائهم الإرهابيين.

لا يمكننا الدفاع عن أمريكة أو عن أصدقائنا عبر التمنيات. كما أننا لا نستطيع الوثوق بوعود الطغاة الذيــن يوقعون على معاهدات حظر انتشار الأسلحة النووية بيد، ويخرقون هــذه المعاهدات باليد الأخــرى. ولو آثرنا الانتظار إلى أن تتحول هذه التهديدات إلى واقع ملموس، فإن هذا يعني أن الوقت قد فات.

الدفاع عن الوطن، والدفاعات الصاروخية هي جزء من خطة أمنية أكثر قوة، وتشكل أولويــة جوهرية بالنسبة لأمريكة. مــع ذلك، فمن غير الممكن كسب الحرب على الإرهاب بالوسائل الدفاعية. يجب أن نأخذ المعركة إلى أرض العدو، كي نخرب مخططاته، ونواجه أســوأ تهديداتــه قبل أن تظهر على السطح. الممر الوحيد الــذي سيؤدي بنا إلى الأمان في العالم الذي ولجناه، هو الإمساك بزمام المبادرة. وهذه الأمة سوف تتحرك.

وصفــت صحيفة نيويورك تايمز هذا الخطاب بأنــه «خطاب شديد اللهجة يبدو وكأنه يهــدف إلى إعــداد الأمريكيين لحرب محتملة ضد العــراق». وبالفعل، هذا ما كان يهدف

إليـه. وفي الوقـت الذي كنا قـد بدأنا نبحث عن مصادر للحصول علـى دعم الرأي العام واستمالتـه لصالحنا كي نمـرر قانونيّ خفض الضرائب وإصـلاح التعليم في الكونغرس، ونقوم فيما بعد بالشيء نفسه بالنسبة إلى إصلاح نظام الضمان الاجتماعي، فقد وجدنا أنفسنا نستعد للترويج لمواجهة عسكرية في العراق.

أضحى مبدأ الضربة الوقائية حجر الزاوية في إستراتيجية الأمن القومي التي يتبناها البيـت الأبيض، والتي كان سيتـم الإعلان عنها بين منتصف شهـر أيلول وآخره من تلك السنة. يرفع بوش الآن من احتمالات اللجوء إلى استخدام الضربات الوقائية، وهي خطوة كان مـن الممكـن جداً اعتبارها راديكالية لو قام بها قبل هجمات الحادي عشر من أيلول. أوضـح هذا المبـدأ بشكل لا يرقى إليه الشك أنه بينما تتحرك الولايات المتحدة دائماً وفق خطـوات مدروسة، وتزن عواقب أي فعل قبل الإقدام عليه، إلا أنها لن تتردد في استخدام القـوة عنـد الاقتضاء كإجراء وقائـي ليس فقط ضد تهديد «وشيك"، بـل ضد أي تهديد «خطير ومتزايد» إذا دعت الحاجة إلى ذلك. كان هذا المبدأ يستند إلى فرضية أن انتظار التهديـد كي يصبح وشيـكاً قبل القيام بأي فعل تجاهه يعنـي أن استجابتنا لهذا التهديد ستكـون متأخرة جداً. هذا المبدأ الجديد الـذي أضحى جزءاً من الإستراتيجية الجديدة لأمننـا القومي كان يهدف جزئياً وبشكل واضـح إلى تمهيد الطريق لإزاحة صدام حسين عن الحكم بالقوة.

في صيـف سنة 2002، وضع مساعـدو بوش الخطوط العريضـة لإستراتيجيةٍ تهدف إلى تنظيم دقيق للحملة القادمة التي تهدف إلى الترويج للحرب. لا أذكر أن أحداً اعترض علـى هذه الخطة؛ فقد حصلت على دعم كامل من جميع أفراد فريق السياسة الخارجية في إدارة بوش وكبار مستشاريه. في حقبة الحملات الدائمة، كان الأمر يتعلق دائماً بحشد الرأي العام لصالح الرئيس.

بطبيعـة الحـال، لم أنظر إلى المسألـة من هذه الزاويـة حينها. فقد كنـت أنظر إليها كغالبيةِ، إن لم أقل جميعِ من كانت لهم علاقة بالموضوع، على أنها مجرد واحدة من الطرق المتبعـة للدفع بجـدول أعمالنا العام باتجـاه وضعه موضع التطبيـق – لأنها ببساطة تعبر

عـن الطريقة التي تمارس فيها واشنطن الحكم. لم أكلـف نفسي عناء التوقف للتفكير في عواقـب هذه الحملة التي هدفنا عن طرايقهـا إلى التحكم بمفاتيح النقاشات العامة حول هذا الموضوع؛ ذلك أنه عندما تكون في خضم العمل اليومي المكثف في البيت الأبيض، فإنك تركـز فقط على الفـوز بالمعارك اليومية؛ وهو ما يجعل من محاولتك التراجع، والنظر إلى المسألة برمتها عبر منظور واضح يساعدك في استيعاب المعنى الأشمل لكل ما كان يحدث، أمراً في غاية الصعوبة.

في كتـاب «الحملة الدائمة: Permanent Campaign»، يتحدث المؤلف هيو هيكلو عن خطورة مثل هذه المقاربة:

يمكن أن يكون الأمن والازدهار خادعين، لكن الضغوط الناجمة عن زمن الحرب تقطر في عمـق كل منهما الأخطار الناجمـة عن الدمج بين الحمـلات السياسية وبين ممارسة الحكـم. فالحمـلات الدعائية التـي تمولها الحكومـة تتزايد في ظل الحـرب الشاملة في العصـر الحديث. لكن من الكارثـي الخلط بين الحملات الدعائية وبين حقائق الحملات التي تجيّر لشن الحروب. إن الإخفاق في ممارسة الحكم على أساس حقائق الأمور بأفضل تجلياتهـا هو المعبر الأكيـد باتجاه الكارثة التي لا مخرج منهـا للحاكم والمحكوم على حد سـواء. يشـير التاريخ إلى أن السبب الرئيس في كـون الديمقراطيات الغربية كانت تحكم بشـكل أفضل خلال الحرب العالمية الثانية من طريقة الحكم التي كان يمارسها أعداؤها يعـود إلى أن قادة هذه الديمقراطيـات كانوا يضعون حقائق الحرب أمام شعوبهم، وليس بسبـب أنهـم كانوا يمارسون الحمـلات الدعائية كـي يرفعوا من معنويـات شعوبهم؛ في الوقـت الذي كان الديكتاتوريـون الفاشيون يقعون في فخ تصديق الحملات الدعائية التي كانـوا هم يروجون لهـا بين شعوبهم، فقد أطلـع قادة أمثال روزفلـت وتشرشل - حتى لو كان ذلـك يتم بطـرق تغلب عليها صفـة العموميات - مواطنيهم علـى حقائق مؤلمة حول الوضع الذي كانوا يمرون به. ففي أول تقرير حول الحرب وجهه إلى الأمة في شهر كانون الأول، ديسمـبر سنـة 1941 على سبيل المثـال، لم يكتف الرئيس روزفلـت بإخبار الشعب «أن الأخبـار سيئة حتى الآن». بل أضاف قائلاً: «هذه الحرب لن تكون فقط طويلة، وإنما

ستكون صعبة». وسيكون هناك عجز في الموارد: «سوف يتوجب علينا التخلي عن كثير من الضروريات نهائياً». ذكر روزفلت إنه لن يقول للشعب أن هناك الكثير من التضحيات التي يتوجب تقديمها مستقبلاً بل سيكون بانتظار هذا الشعب «شرف» المعاناة.

أما اليوم، فإن الأخطاء القاتلة التي ارتكبتها هذه الإدارة بادية للعيان؛ ذلك أن فريق بوش خَلَطَ بين حملات الدعاية السياسية وبين حقائق حملات الترويج للحرب. فنحن نسلط القسط الأكبر من اهتمامنا على خلق حالٍ من الهلع والطوارئ حول التهديد الذي يمثله صدام حسين بدلاً من ممارسة الحكم بناء على حقائق الأمور.

حالما اتخذ بوش قراره بشن الحرب على العراق، بوشر بوضع حجر الأساس للبدء في حملة شعبية واسعة لهذه الغاية. وكان مبدأ الحرب الوقائية جزءاً لا يتجزأ من هذا الجهد المركز؛ وكذلك بالنسبة إلى الارتفاع المتزايد في وتيرة التصعيد الكلامي بدءاً من أواخر سنة 2001، مروراً بسنة 2002. كان التصعيد الكلامي الذي مارسناه ضد صدام حسين قبل هجمات الحادي عشر من أيلول يركز على تحذيره من مغبة محاولاته لتطوير أسلحة الدمار الشامل، بينما كانت السياسة تركز على احتوائه عبر فرض مزيد من العقوبات. وبعد عدة أسابيع على وقوع هجمات الحادي عشر من أيلول، استمر المستشارون في الحديث عن ضرورة قيام صدام حسين بالسماح للمفتشين الدوليين بالعودة إلى العراق. حتى أن نائب الرئيس ديك تشيني صرح لتيم راسيت في برنامج «واجه الصحافة Meet the Press» في السادس عشر من شهر أيلول سنة 2001 أن «صدام حسين الآن هو في عنق الزجاجة»، واعترف بعدم وجود أي دليل يربط صدام حسين بهجمات الحادي عشر من أيلول. ولكن، بحلول نهاية تشرين الثاني، نوفمبر، لم يستبعد الرئيس احتمال اتخاذ إجراء عسكري ضد العراق؛ وكان يقول إن العراق سوف يحاسب إذا ثبت أنه يطور أسلحة دمار شامل. عندما ظهر تشيني ثانية في برنامج 'واجه الصحافة' في أوائل شهر كانون الأول، ديسمبر، أثار احتمال أن يكون العراق متورطاً في هجمات الحادي عشر من أيلول مستشهداً بتقرير - تم إسقاطه من التداول فيما بعد - يذكر أن أحد كبار ضباط الاستخبارات العراقية التقى في شهر نيسان، أبريل

سنة 2001 بمحمد عطا، وهو قائد مجموعة خاطفي الطائرات التي ضربت البرجين في الحادي عشر من أيلول. والآن، يقول تشيني بشكل لا يقبل الشك، إن صدام «يحث الخطى باتجاه تطوير أنواع أخرى من أسلحة الدمار الشامل» منذ سنة 1998.

أحياناً، كانت وسائل الإعلام تذكي نار الفتنة. قبل أن أشير إلى أحد الإرهابيين المتورطين في تفجيرات مركز التجارة العالمي سنة 1993، كمثال على ما أقول، قال تيم راسل في المقابلة نفسها التي أجراها مع تشيني في شهر كانون الأول، ديسمبر: «ما نعرفه هو أن العراق يؤوي الإرهابيين». ثم سأل تشيني: «إذا كانوا يؤوون الإرهابيين، فلماذا لا نخرج إلى هناك وننال منهم؟»

في الأشهر الأولى من سنة 2002، استمر التأسيس لهذه الحرب؛ ومع حلول شهر شباط، فبراير، لمحت كوندي رايس إلى الحاجة إلى القيام برد حاسم على نظام مثل النظام العراقي الذي يسعى للحصول على أسلحة دمار شامل. وفي محاولة منه للحصول على شيء من المصداقية، كان تشيني يؤكد أن العراق «يمتلك برنامجاً نشيطاً لتطوير أسلحة الدمار الشامل»، وأننا «نعرف أن صدام يعمل بنشاط وكد، وبأقصى ما يستطيع من جهد لتعزيز قدراته»، وأنه يرفع من وتيرة «الاتصالات والروابط» بين العراق والإرهابيين. كما أشار تشيني إلى أنه إذا «استدعت الحاجة إلى عمل عسكري»، فإن الرأي العام سوف يدعم هذا التوجه.

أوفد الرئيس نائبه تشيني إلى الشرق الأوسط «للتشاور مع الأصدقاء والحلفاء» في المنطقة بشأن العراق. قبل عودة تشيني من المنطقة، أكد بوش أن العراق «بلد يمتلك أسلحة الدمار الشامل. هذا بلد يحكمه شخص على استعداد لقتل أبناء بلده بالأسلحة الكيماوئية؛ وهو شخص لا يسمح للمفتشين بالدخول إلى بلاده، لأن لديه ما يخفيه. لكن المرحلة الأولى من المواجهة معه ستكون عبر التشاور مع حلفائنا وأصدقائنا، وهذا ما سنقوم به بالضبط».

بعد لقائه ببوش فور عودته، قال تشيني إن القادة الذين التقى بهم «لا يقلون عنا قلقاً بعد أن اطلعوا على ما قام به [صدام] من أجل تطوير الأسلحة الكيماوئية والبيولوجية،

وسعيـه لامتـلاك الأسلحـة النووية؛ ونحـن جميعاً نعـرف الماضي القريب حـين لجأ إلى استخدام الأسلحة الكيماوئية». أضاف تشيني قائلاً:

إذا لم تكونـوا قـد اطلعتم علـى الحقائق، فإن تحقيقـاً مروعاً ينشر هـذا الأسبوع في مجلـة «نيويوركـر New Yorker» حول استخدام صدام للأسلحـة الكيماوية سنة 1988 ضد الأكراد. إذا كان التحقيق الصحفي المنشور دقيقاً – وقد طلبت إجراء تحقيق لتأكيد صحـة المعلومـات الواردة فيه، إذا كان بإمكاننا الحصول على ذلك – فقد شن حملة على الأكراد لمدة استغرقت سبعة عشر شهراً، وقام بقصف مئتي قرية؛ وقد أدى هذا القصف إلى إزهـاق أرواح آلاف مؤلفة من العراقيين. ليس هذا هو الشخص الذي نريد أن نراقبه وهو يطور أسلحة أكثر فتكاً – مثل الأسلحة النووية.

لكنـه أضاف لاحقاً: «عندمـا نقول إننا بصدد القيام بفعل مـا، فنحن نعني ما نقول؛ إننـا مصممون على خوض الحرب ضد الإرهاب. هـذه ليست إستراتيجية قصيرة الأمد بالنسبـة لنا؛ نحـن نعرف أن التاريخ يدعونـا للقيام بالتحرك، ولن نضيـع هذه الفرصة لجعل العالم أكثر أمناً، وأكثر حرية».

بعد عدة أيام، دفع تشيني الأمور باتجاه تصعيد أكبر عبر استحضاره لسيناريو شديد الخطـورة حول شخص مجنون يسعى لامتلاك أسلحـة نووية. فقد صرح تشيني لبرنامج Late Edition في محطـة CNN: «هذا شخص شرير جداً، كما قال الرئيس؛ وهو يسعى بشكل دؤوب لامتلاك أسلحة نووية الآن، ونعتقد أن هذا شيء يدعو إلى القلق بالنسبة لنا ولكل سكان المنطقة».

امتـد النقاشـ الحامي حول العراق بما في ذلك إصدار بيانـات صريحة جعلت الأمور تبـدو أقرب إلى التأكيد، إلى موعد بدء الحملـة الانتخابية في الخريف حيث تم تضخيمه إلى درجـة عاليـة وثابتة. في أواخر شهر آب، أغسطس سنة 2002، وفي خطاب ألقاه أمام مؤتمـر قدامى المحاربـين في الخارج في مدينـة ناشفيل، قال تشينـي: «ببساطة نقول، لا يخامرنا الشك بأن صدام حسين يمتلك الآن أسلحة دمار شامل، وما من شك في أنه يقوم بتحريكها الآن لاستخدامها ضد أصدقائنا، وضد حلفائنا، وضدنا».

العلاقـة بـين نائب الرئيسـ تشيني وبـين الرئيس بوش كانـت دائماً علاقـة يكتنفها الغموضـ إلى حد مـا. لكنها علاقة حميمـة. فالاثنان يقضيان أوقاتـاً طويلة معاً، وتبقى أغلـب الأحاديث بينهما طي الكتمان. لكـن من الواضح أنه وبالعودة إلى سنة 2002، كان بوشـ علـى علم باللغة القويـة التي كان تشينـي يستخدمها ضد العـراق. كان باستطاعة تشينـي استخـدام لغة أقوى من اللغة التـي كان الرئيس يستخدمها. فأثنـاء حملة إعادة انتخـاب الرئيسـ سنة 2004 على سبيل المثال، كان تشيني يؤدي دور الكلب المهاجم الذي يلاحـق كـيري بلغة أكثر هجوميـة من لغة الرئيسـ نفسه. بالعـودة إلى الماضي، يبدو لي واضحاً الآن أن بعضاً من الخطة نفسها قد استخدم في الحملة ضد العراق.

لكـن اللغة القوية التي استخدمها تشينـي يمكن أن تكون بسبب أن نائب الرئيس غير قـادر علـى الالتزام بالخـط المرسوم من قبـل رسالة البيـت الأبيض. فأحيانـاً، لا يكون باستطاعتـه ضبـط نفسـه وهو يعبر بشكل فج عـن آرائه الثابتة أو حتـى عجرفته - التي تسبـب الضـرر للرئيس. تلك كانت روحيـة اللغة التي استخدمهـا في خطابه أمام مؤتمر قدامـى المحاربـين في الخـارج عندما أكد تشيني بشـكل أساسي أن عـودة مفتشي الأمم المتحدة إلى العراق ستكون عديمة الجدوى وحتى مضللة. وهكذا كانت المسألة عندما قال تشيني قبل الغزو مباشـرة: «باعتقادي أننا في الحقيقة سوف نستقبل هناك كمحررين». لم يكـن مـا صرح به ضمن الخطة؛ ذلـك أن هذا النوع من التصريحـات ساعد في رسم صورة زاهية لعراق لمرحلة ما بعد الغزو تسببت فيما بعد بالأذى للرئيس.

وبينما كان الرئيس يحضّر لشرح قضية الحرب على العراق في الأمم المتحدة، أشارت كونـدي رايس إلى موضوع التهديـد النووي القادم من العراق بعبـارات واضحة جداً في شهـر أيلول سنـة 2002: «تكمن المشكلة هنا في أن الشكوك ستحـوم دائماً حول السرعة التـي يستطيع بها [صـدام] امتلاك أسلحة نووية. ولكننا لا نريد أن يتحول دخان القنبلة إلى سحابة فطرية».

كانت اللغة الخطابية عالية النبرة في حملتنا للترويج للحرب مستمرة بوتيرة متصاعدة وأكـثر جديـة؛ وأصبح التهديد النووي الـذي يمثله العراق بالإضافـة إلى صلته بالقاعدة

موضوعـاً مركزياً بشكل متزايـد في النقاشات حول هذه القضية، وهو ما ساعد على خلق إحساس بالحاجة الملحة للتعامل مع هذا الخطر الداهم والمتفاقم القادم من العراق.

اتفـق الرئيس في الرأي مـع مستشاريه أن من المهم إظهـار الرئيس وقد استنفد كل الخيـارات الدبلوماسيـة، بعكس الـرأي الذي عبر عنه تشيني المتضمـن أن طريق الأمم المتحـدة عديمـة الجدوى. فقد كان السعي باتجاه إصدار قـرار جديد من الأمم المتحدة يقضـي بدعوة صدام إلى إثبـات براءته، والسمـاح للمفتشين بالعـودة إلى العراق أمراً حاسمـاً في بنـاء الدعم الشعبي لخطوتـه اللاحقة. كان الموضوع الأهـم بالنسبة للشعب الأمريكي هو الحصول على دعم قوي من الحزبين في الكونغرس. وكان هذا كله جزءاً من الحملة. كان من الممكن للأمريكيين أن يدعموا فكرة الحرب في حال تكون لديهم اقتناع بأن بوش استنفد جميع الخيـارات الدبلوماسية، وبأن الكونغرس بجناحيه الديمقراطي والجمهوري قد منحه الدعم القوي المطلوب.

ساهـم الجهد المبذول مـن قبل البيت الأبيض الذي قاده تشيني من أجل تأمين لقاح ضد الحمى الصفراء لكل الشعب الأمريكي، والذي تم الدفع به علناً في الأسابيع الأخيرة مـن سنـة 2002 في تأجيج جو الخوف من أسلحة الدمار الشامـل التي يمتلكها العراق. يبـدو لي أن مـن السخرية الإشـارة إلى أن توقيته كان محسوباً بدقـة، لكنه لم يؤد إلى إرباك حملة الترويج للحرب.

نظراً لأنني كنت أشغل في ذلك الوقت منصب نائب السكرتير الصحفي، لم يكن ينظر إليّ باعتبـاري جزءاً لا يتجزأ من هذه الحملـة، كما أنني لم أكن أُخْطَرُ بكل الخطط التي تروج للحرب. ولكنني كنت أقوم أحياناً ببعض الأدوار التي تهيئ للحرب.

استضاف بوش اجتماعاً لحكام الولايات من الجمهوريين في البيت الأبيض يوم الجمعة الواقع في العشرين من شهر أيلول، أي في الأسبوع نفسه الذي كان بوش قد قام فيه بزيارة ولاية أيوا، وهو أيضاً الأسبوع نفسه الذي صدرت فيه تصريحات لاري ليندسي حول الكلفة المحتملـة للحرب . كان حكام الولايات قد وصلـوا إلى واشنطن في الليلة السابقة لحضور

حفل الاستقبال السنوي الذي تقيمه رابطتهم في خريف كل سنة من أجل جمع التبرعات. وبينما التقى آري بجمهرة من الصحفيين في الصباح، فقد قمت بتمثيله في الاجتماع الآخر. ونظراً لأن وسائل الإعلام لم تدعَ إلى ذلك الاجتماع، فإن الرئيس بوش - وكان قد مضى على تركه منصب الحاكم سنتين - كان صريحاً جداً مع زملائه السابقين الذين هم الآن أصدقاؤه الموثوقون، وحلفاؤه السياسيون. تركزت محلوظاته على أمن البلاد، خصوصاً حول العراق. وكانت صراحة بوش بشأن ما ينوي القيام به في مقاربته للشأن العراقي بيّنةً.

تحدث الرئيس عن اعتقال رمزي ابن الشيبة من قبل السلطات الباكستانية قبل تسعة أيام. كان ابن الشيبة على رأس قائمة تضم أكثر خمسة إرهابيين مطلوبين من قبل مكتب التحقيقات الفيدرالي لدوره في التخطيط لهجمات الحادي عشر من أيلول، وهجمات إرهابية أخرى. قال بوش: «سوف نعتقلهم الواحد وراء الآخر؛ أما بالنسبة لابن لادن، فمكانه غير معروف لدينا، لكن سلطته قد ضعفت إلى حد كبير».

ثم تحول بعد ذلك إلى موضوع العراق قائلاً: «من المهم أن تعرفوا أن العراق هو امتداد للحرب على الإرهاب؛ بدأنا في المداولات التي تجري في المحافل الدولية بتوجيه الاتهام إلى المذنب. المجتمع الدولي يكره المخاطرة، لكنني أؤكد لكم أنني سوف أبقى صامداً». قال بوش إنه يحاول إقناع قادة العالم لبناء شبكة دعم لهذه الحرب، منبهاً إلى أنه تحدث إلى الرئيس الروسي بوتين صباح ذلك اليوم.

انتقل بوش بعد ذلك إلى الحديث عن الموضوع المفضل بالنسبة إليه، تحدث عن «أهمية نشر الحرية، والحرية الفردية في كل أنحاء العالم». وذكر أن لديه أملاً كبيراً في أن تكون المرحلة الانتقالية في العراق سلمية: «أؤمن بأن تغيير النظام الحاكم يمكن أن يحدث إذا كان لدينا تفتيش فعال. أما صدام حسين فهو شخص معرض لأن يكون رأسه موضوعاً على طبق كبير» إذا مورس عليه ما يكفي من الضغط الخارجي.

أضاف بوش، مبدياً احتقاره العميق لصدام: «إنه رجل متوحش، وقبيح، وبغيض لا بد له من أن يترك مكانه. وهو شخص عصابي أيضاً؛ فقد قام بقتل حراسه الأمنيين

مؤخـراً، أفضل أن يمضي بســلام؛ لكن لو حدث وأطلقتُ القـوات العسكرية من عقالها، فإني أعدكم بأن الأمر سيتم بسرعة وحسم».

قام بوش بتحذير الحكام من مغبة الوقوع في المصيدة التي يمكن أن تنصبها المعارضة قائــلاً: «لا تتورطـوا في الجدال الذي يوحـي بأنه لا يوجد من يملأ الفـراغ الذي سيتركه صــدام؛ كما أن خطتنا تتضمن التأكيد بأنه لن يكون هناك قطع في إمدادات النفط، فقد قمنا بدراسة كل الخيارات التي تؤمن الإبقاء على تدفق النفط».

أكـد بوش «أن استخدام القوة العسكرية هو خياري الأخير؛ نبوءتي هي ما يلي. اكتبوا مـا سأقول. العـراق وأفغانستان سوف يقودان ذلك الجزء مـن العالم إلى الديمقراطية. سوف يكونان بمثابة وسيطيْن لتغيير الشرق الأوسط والعالم بأسره».

أول ســؤال تلقــاه من الحــكام الحاضرين كان حـول التعليقات التي صــدرت مؤخراً عــن وزيــرة العدل الألمانية التي قارنت بوشــ بهتلر. كانت ألمانيا على بعـد أيام قليلة من الانتخابــات العامــة. وبالرغم مــن أن المستشار الألماني شرودر وعـد الرئيس بأنه سوف لــن يقـف في وجه خطط بوشــ، أو يقوم هو أو مجلس وزرائه بما يمكــن أن يعرقلها، فقد خطــب في إحـدى المناسبات العامة معلناً أن معارضته للحــرب على العراق هي جزء من إستراتيجية حزبه للفوز في الانتخابات.

أجــاب بوشــ بتهذيب: «لا يمكننــي أن أنحـدر إلى مستوى هذه القــذارة» (كونه قورن بهتلــر). مــا أثار غضب بوش أكثر مــن أي شيء آخر هو أن زعيماً دوليــاً تراجع علناً عن التأكيـدات التي قطعها على نفسه في جلسة خاصة، وكان أحياناً يذكر شرودر كمثال على ذلــك. فلو أن بوش قطـع على نفسه عهداً أمام زعيم أجنبــي، يستطيع ذلك الزعيم أخذ هذا الوعد معه إلى المصرف - كان بوش يتوقع الشيء ذاته بالمقابل.

عندما سئل عن موضوع تجييش الرأي العام لصالح الحرب، قال بوش: «هناك قضية يجــب أن يتم شرحهــا، وسوف أشرحهــا للشعب الأمريكــي. العراق يشــكل تهديداً يجب التعامــل معــه بطريقة عقلانية. إذا كان لا بد لنا أن نتحــرك، فإن خياراتي في الواقع هي ثلاثة: الأول، أن يقوم أحد بقتله [أي صدام حسين]، والثاني أن ينتفض الشعب [العراقي]

للإطاحة به، والثالث هو العمل العسكري».

سأل أحد الحكام عن توقيت التحرك العسكري؛ فأجاب بوش: «إذا قررنا القيام بتحرك عسكري، فسيكون ذلك في أسرع وقت ممكن. ربما استغرق اتخاذ القرار في الأمم المتحدة بعض الوقت. هذا وقت خطر بالنسبة لنا [على الجبهة السياسية]. ينتابني القلق من أن الزمن سوف يفقد خطابي أمام الأمم المتحدة بريقه»، ثم أكد على ضرورة الدفع بهذه القضية إلى الأمام كي لا تفقد الزخم الذي اكتسبته خلال الفترة الماضية. كما لاحظ أن هذه المهمة تهدف إلى إزاحة صدام وتغيير نظامه مؤكداً أن ابنيّ صدام وكبار مساعديه سوف تتم إزاحتهم أيضاً.

بعد ذلك ببضع دقائق، قال بوش: «لو وضع صدام يده على الأسلحة النووية، فسيغير العالم. وإذا فعل ذلك خلال مدة رئاستي، فسأكون قد أخفقت».

في معرض إجابته على سؤال آخر، علق بوش قائلاً: «لا يوجد خطر أكبر من السماح لصدام حسين تطوير أسلحة دمار شامل. سوف نواجهه. المسألة الآن لا تتعلق بالتفتيش؛ إنها تتعلق بأسلحة الدمار الشامل، وبنزع سلاح النظام الذي يمتلكها. التفتيش هو وسيلة من أجل غاية. إنه شخص شرير. رأيت بنفسي شريط فيديو لصدام وهو يطلق النار من مسدسه على شخص لم تكن تعجبه سياساته. لقد قتل صهريْه».

ختم الرئيس ذلك الاجتماع بالقول: «إن إعطاء الأمر للوحدات العسكرية بالتحرك هو قرار صعب. لكنني أؤكد لكم أنه إذا كان لا بد لنا من الذهاب [إلى العراق]، فإننا سنكون حازمين وسريعين، وستكون المواجهة عنيفة، ولذلك فإن على الوحدات العسكرية أن تتحرك بسرعة. خلال حرب الخليج، احتاج الأمر إلى قيام عشر طلعات جوية لتدمير هدفين فقط. باستطاعتنا الآن القيام بطلعة جوية واحدة لتدمير هدفين. إذا قررنا القيام بشن الحرب، فإننا سوف نستعمل كل القوة العسكرية التي يملكها الجيش الأمريكي. الآن، إذا كان المشهد يشير إلى أنه يفقد سيطرته على زمام السلطة، فأنا واثق من أنه آيل إلى السقوط. فكما تعرفون، أنا مؤمن بقوة الحرية». كما أكد على أهمية أن «يتحدث القائد بوضوح»، وأن يكون «حازماً، وذا مصداقية، وقوياً، وفعالاً». وأعقب ذلك بالتعبير

عـن اقتناعـه «أن الحرية هي مبدأ إنساني. فنحن نؤمن بأن كل فرد في العالم له أهميته، وليس فقط المواطن الأمريكي».

بعـد انتهـاء الاجتماع، ومـن على المنـبر الصحفي المنصـوب خارج المدخـل الرئيس للجناح الغربي، وصف جون رولاند، حاكم ولاية كنيتيكيت الذي كان يشغل حينها منصب رئيس رابطـة الحكام الجمهوريين ذلـك الاجتماع بأنه كان «من القلـب إلى القلب» حول العـراق. لكن ذلك الاجتمـاع كان أيضاً مهرجانـاً صاخباً حـول الإستراتيجية ضم قائد الحملة وبعضاً من الأعضاء المهمين في فريقه - وهم حفنة من السياسيين المحليين الذين بمقدورهم القيام بدور حاسم في جمع الدعم الشعبي لقرار الغزو.

في منتصـف شهـر تشرين الأول، أكتوبـر، ألقى بوش خطاباً رئيسـاً حدد فيه معالم التهديـد في كل مـن ولايتيْ سينسيناتي وأوهايو. وفي وقت لاحـق من الشهر نفسه، وافق الكونغرسـس بأغلبية ساحقة، وبطريقة فيها الكثير من التضامن الحزبي، قراراً مشتركاً مـن كلا الحزبين أطلق بموجبه يد الرئيس للقيام بعمـل عسكري ضد العراق. زاد هذا الدعـم الهائل من الكونغرس من موقفنا أمام الأمريكيين، وأقنع العديد منهم بضرورة استخـدام القـوة العسكرية ضد العراق. ونظراً لأن الكونغرسـس وقف وراء الرئيس بهذه القوة، فلا بد أنه يسير في الاتجاه الصحيح.

في منتصـف شهر تشرين الثـاني، نوفمبر سنة 2002، قبل بـدء النقاش حول العراق الجديد في الأمم المتحدة بوقت قصير، تزوج سَلَفي آري فليشر، وأخذ إجازة شهر العسل. استلمت مهامه طيلة فترة غيابه. بعد يومين، أقر مجلس الأمن قراراً يحمل الرقم 1441، وقضى هذا القرار بإعطاء صدام حسين «فرصة أخيرة» لإثبات براءته من دون شروط وإلا فإنـه «سيتحمل العواقب الوخيمـة». بقيت ولمدة اثني عشر يوماً في واجهة الحملة الدعائية السياسية التي تحضر للبدء في المواجهة العسكرية - كنت فيها أجري المقابلات الصحفية، وأحضر الاجتماعات الرئاسية، وأشارك في بعض المناقشات على مستوى عالٍ.

أُنشِئَـت مجموعـة العراق التابعـة للبيت الأبيض صيف سنـة 2002 لتنسيق عملية الترويـج للحرب بين أفراد الشعب الأمريكي. وقـد استمرت في العمل كمجموعة وسائل الاتصـال الإستراتيجيـة بعـد أن أزاح الغـزو نظام صـدام حسين عـن السلطة، وكنت

أشـارك في اجتماعاتهـا بعد أن عينـت في منصب السكرتير الصحفـي للبيت الأبيض. حضـرت عدة اجتماعات لهـذه المجموعة عندما كنت نائباً للسكرتير الصحفي بدلاً من سلفـي حينمـا لم يكن بمقدوره حضور تلـك الاجتماعات - بما في ذلـك، في فترة شهر تشرين الثاني، نوفمبر.

أشار بعض المنتقدين إلى أن خططاً شريرة تتم مناقشتها في اجتماعات تلك المجموعة بهـدف تضليـل الجمهور بشـكل متعمد. لم يكـن الأمر كذلـك. كانت هنـاك العديد من المناقشـات حول كيفية ترتيـب الأهداف والأفكار، وجعل روايتنـا للقصة مؤثرة؛ ولكن لم تكـن هنـاك أي مؤامرة تتعمـد تضليل الرأي العـام. على العكس من ذلـك، كانت هناك مناقشـات صريحة حـول استراتيجيات وسائل الاتصـال وإيصال الرسائـل ترتكز على أرضية الأساليب المألوفة في الحملات الدائمة.

في ذلـك الاجتمـاع الـذي حضرته في شهـر تشرين الثـاني، نوفمبر، الـذي عقد بعد مـدة قصيرة على صـدور القرار الجديد لـلأمم المتحدة، تركـزت المناقشة حول واحدة مـن الرسائل الرئيسة التـي أردنا إيصالهـا إلى الشعب الأمريكي حينهـا - الحاجة إلى استخـدام سياسة عدم التساهل تجاه النظام العراقي، وعدم القبول بأي نوع من التمويه أو الخـداع من قبل صدام حسين. فقد دعا قـرار الأمم المتحدة إلى التعاون الكامل وغير المشـروط، والالتزام بالقرارات الدولية؛ وكان علـيّ أن أؤكد على روحية هذه الرسالة من علـى المنصة، وهي رسالة كان الرئيس قد أكد عليهـا خلال اجتماعه مع أمين عام الأمم المتحدة كوفي عنان، والذي حضرته حينها.

بالرغم من أن حدسي كان يقول لي إننا ذاهبون إلى الحرب، فإنني لم أستوعب حينها أن رسائلنـا كانـت تظهر بوضوح وذكاء كـم كان بوش مصمماً على تغيـير النظام وذلك منـذ الأيـام الأولى لقراره مواجهة العـراق؛ فقد كانت الكلمة التـي ألقاها من على منبر الأمم المتحـدة في شهر أيلول بمنزلـة إنذار- فإما تقوم الأمم المتحدة بنزع أسلحة صدام حسـين، أو أن الولايات المتحدة ستقوم بذلـك. كانت رسالة عدم التساهل مؤشراً إضافياً علـى تصميم الرئيس على الإطاحـة بالنظام بالقوة. لم يكن بمقدور صدام إثبات براءته

بصـورة كلّيّـةً. فقد كانـت سلطته تستنـد إلى وحشيته، وإلى قدرته علـى تصوير النظام بأنـه أقوى مما هو عليه من أجل إخافة شعبه وكذلك إخافة أعدائه المحتملين مثل إيران. أعطـت كل من سياسة عـدم التساهل وقرار «الفرصة الأخـيرة» الجديد بوش الكثير من المساحة من أجل المناورة، وحجةً كبيرةً لسياسته المتضمنة فرض تغيير النظام بالقوة.

بطبيعـة الحال، سهّل صدام حسـين نسبياً على إدارة بوش القول إنها لا تملك خياراً آخـر سوى القيام بغزو العـراق. فبالرغم من السماح لمفتشـي الأسلحة التابعين للأمم المتحـدة بالعودة إلى العـراق، فإنهم منعوا من زيارة بعض المواقع، وكانت التسجيلات التي قدمت لهم غير كاملة، وغير دقيقة؛ وقد ذكر المفتشون أنفسهم أن مهمتهم في ظل هـذه الظروف سوف تستغـرق شهوراً قبل أن يكون بمقدورهـم التأكد من أن صدام قد التـزم/أو لم يلتزم بقـرارات الأمم المتحدة. وقد توصل معظـم الأشخاص الذين كانوا يراقبون ما يجري عن كثب إلى الاستنتاج بأن «صدام يمارس حيله القديمة نفسها. من الواضح أن لديه ما يخفيه. لقد مُنِحَ الفرصة الأخيرة. وحان وقت التحرك». وهكذا فقد بدأنا بالتحرك.

أدار الرئيس بوش الأزمة بطريقة ضمنت بشكل كلي تقريباً أن استخدام القوة سيكون الخيـار الوحيد الممكن. قام بذلـك وفي جعبته التحذير الذي أطلقه في الكلمة التي ألقاها في الأمم المتحـدة في شهـر أيلول، بالإضافـة إلى إعطاء الأوامر بزيـادة الأسلحة وعديد القوات العسكرية في المنطقة، والتي لا يمكن لها ولأسباب لوجستية (أمور خدمية) البقاء في تلـك المنطقة لأجـل غير مسمى من دون أن يتـم استخدامها. إنه أمـر مثير للسخرية حقـاً؛ ذلـك أن أهم القواعد التي يتوجـب على السكرتير الصحفـي إتباعها هي: لا تقيد يـديّ الرئيسـ أبداً إذا لم تقتضِ الضرورة القصوى ذلك. وهذا يعني أنه لا يجوز لك أبداً أن تدلي بتصريح يمكن أن يحد من حرية الرئيس في تغيير المسار، أو القيام بخيار محدد في المستقبل. ولكن في المرحلة التي كان يتم الإعداد للحرب، سمح مستشارو الرئيس ليديّ هـذا الأخير أن تقيدا، وبذلـك فقد وضعوا بوش في موقع جعل مـن مسألة تجنب الحرب أكثر صعوبة من القيام بشنها.

حقق الرئيس ومستشاروه عدة مكاسب عبر خلق هذا الدعم الهائل للحرب. فقد جعل مهمة خصومه السياسيين صعبة إلى درجة استثنائية، واضعاً جميع من عارضوا شن الحرب في موقع من يجادل ضد قضية تحولت إلى ما يشبه الأمر الواقع. أوقع صدام حسين في ما يشبه المصيدة، وأوضح أنه لم يعد مقبولاً بعد الآن استمرار هذا الدكتاتور بالمماطلة، والتلاعب بالمفتشين. كما أجبر دولاً أخرى - من بينها روسيا وفرنسا التي كانت تنحاز أحياناً إلى جانب العراق - على اتخاذ قرارات صعبة بشأن السماح بغزوٍ تقوده الولايات المتحدة من أجل وضع حد لتهديد واضح ووشيك يمثله نظام صدام حسين.

الأهم من هذا وذاك، فقد أحبط البيت الأبيض جميع المداولات والمناقشات حول الأهداف الأساسية والخطط الطويلة المدى لهذا الغزو. استطاع الرئيس ومستشاروه تجنب النقاش حول المسائل الكبرى المتعلقة بما يمكن أن يحدث مستقبلاً نتيجة لهذا الغزو، وذلك عبر الدفع بمسألة أسلحة الدمار الشامل إلى الواجهة، ومن ثم تراجع الحديث عن الموضوع الأكثر أهمية، والمتعلق بمستقبل الشرق الأوسط باعتباره مجرد تهديد طارئ على المدى القصير تجب معالجته الآن. فمن الذي سيتولى الحكم في العراق؟ وما الذي ستكون عليه ردة الفعل في المنطقة على هذا الغزو؟ وكم يلزم الولايات المتحدة من الوقت للبقاء في العراق؟ وأخيراً وليس آخراً، كيف سيتم حل التوترات بين التجمعات العرقية والدينية في البلاد؟

لم تظهر سوى قلة قليلة من هذه الأسئلة على شاشة الرادار الوطنية أثناء الإعداد لهذه الحرب. لكن كل هذه الأسئلة كانت ستلاحق الرئيس والأمة بأسرها من جديد في السنين اللاحقة عندما أصبح من الواضح أن المنطق الذي طرحه الرئيس لتعليل لجوئه إلى الحرب -التهديد الذي تشكله أسلحة الدمار الشامل، وعلاقة العراق بالإرهاب- كان أقل من مقنع. إن الخداع وغياب الصدق اللذين تميزت بهما الحملة التي شنتها هذه الإدارة للترويج للحرب سيقوضان إلى حد كبير صدقية المرحلة الثانية من رئاسة بوش برمتها.



عندما كان بوش بصدد اتخاذ قراره للسعي إلى تغيير النظام الحاكم في العراق، فقد كان من الواضح أن فريق الأمن القومي لديه لم يقم بما يكفي للتخفيف من حدة اندفاعه في اتخاذ هذا القرار، ولمساعدته في الاستيعاب الكامل لمحتوى هذا الصندوق المملوء باللهب الذي كان يفتحه، والمخاطر الناجمة عن ذلك. أنا أعرف الرئيس جيداً؛ ولذلك فأنا واثق من أنه لو قام أحد بإعطائه البلورة السحرية بحيث يمكنه عبرها استكشاف الكلف الحقيقية للحرب - أكثر من أربعة آلاف من الجنود قتلوا، وثلاثين ألفاً جرحوا، وعشرات الآلاف من المدنيين العراقيين الأبرياء قتلوا - لما اتخذ أبداً القرار بشن الحرب بغض النظر عما يمكن أن يقوله، أو يشعر أن عليه قوله علناً في هذه الأيام.

وبالرغم من أن أحداً لا يملك مثل هذه البلورة السحرية، فقد كان من السهولة بمكان إعداد دراسة متأنية تتضمن فهماً شاملاً لظروف وتاريخ العراق ومنطقة الشرق الأوسط وأخذها بعين الاعتبار في عملية اتخاذ القرار. كانت مسؤولية تقديم مثل هذه الدراسة تقع على عاتق مستشاري الرئيس الذين أخفقوا إخفاقاً ذريعاً في القيام بذلك. كان وزير الخارجية كولن باول الوحيد من بين جميع مستشاريه الذي أثار شكوكاً حول الحكمة من هذه الحرب. أما بقية أعضاء فريق السياسة الخارجية فقد كانوا منهمكين في مسألة تغيير النظام الحاكم، أو مهتمين على ما يبدو بالتكيف مع غرائز الرئيس وأفكاره بدلاً من طرح تساؤلات بشأنها، أو إعطائه دروساً حول المنطقة، كما كانت الحال بالنسبة لكوندي رايس.

أما المشكلة الأساسية الأكبر فقد تجلت في الطريقة التي قرر فيها مستشارو بوش متابعة الحملة السياسية الدعائية لترويج الحرب بين الأمريكيين. كان كل ذلك جزءاً من الطريقة التي كان البيت الأبيض يمارس نشاطه بها، وكان ذلك هو الأسلوب المتبع في واشنطن؛ ويبدو أن أحداً لم يكن يرى أي مشكلة في استعمال هذه المقاربة في قضية خطيرة مثل القيام بعملية شن الحرب. كان يمكن لحملةٍ تروج للحرب أن تكون مقبولة أكثر لو ترافقت مع درجة عالية من الصدق والصراحة؛ لكن الأمر لم يكن كذلك. كانت أغلب الحجج التي سيقت مدققة بعناية ويمكن إثباتها - وبالتحديد تلك الحجج التي طرحت

عبر ملحوظات أبداها الرئيس، أو منتديات كتلك التي قدم فيها باول عرضه في مجلس الأمن في شهر شباط، فبراير سنة 2003. ولكن في الوقت الذي تصاعدت وتيرة الحملة، فقد تم التقليل من شأن التحذيرات ذات المصداقية، أو أنها ركنت جانباً. تم تجاهل المعلومات الاستخباراتية المضادة، وكانت تعامل بكثير من عدم الاكتراث. كانت الأدلة المستندة إلى مصادر موثوقة من الوسط الاستخباراتي تضاف إلى معلومات استخباراتية أقل مصداقية. فقد تمت إضافة التهديد النووي إلى تهديدات الأسلحة البيولوجية والكيميائية لخلق إحساس متعاظم بالخطر الداهم، وضرورة مجابهته. أعطيت مسألة دعم الإرهاب ثقلاً أكبر عبر اللعب على الوتر المخادع الزاعم بوجود علاقة بين القاعدة والعراق. عندما وضعت هذه كلها في سلة واحدة، أصبحت القضية تمثل «خطراً كبيراً ومتزايداً» لا بد من مواجهته بصورة عاجلة.

اعتقد بعض مستشاري بوش، آخذين تاريخ صدام بعين الاعتبار، أن من الحصافة توقع الأسوأ؛ أما بعضهم الآخر، مثل تشيني، ورمسفيلد، وولفويتز، فقد كانوا يسعون بشكل واضح لتنفيذ أهدافهم الخاصة بهم.

ربما كانت أهداف تشيني الشخصية هي الأكثر أهمية بين كل تلك الأهداف، آخذين بعين الاعتبار علاقته الوثيقة بالرئيس، وتأثيره عليه. وهي أيضاً الأجندة التي ربما بقيت طي الكتمان بسبب شخصية تشيني، ونزوعه نحو السرية. ربما كان دافعه هو إكمال المهمة التي بدأها عندما كان وزيراً للدفاع سنة 1991، عندما هزمت الولايات المتحدة صدام حسين، ودفعت بقواته خارج الكويت؛ إلا أنها لم تتقدم حينها نحو بغداد لوضع نهاية لنظام حكمه. كان تشيني أيضاً مرتبطاً ارتباطاً عميقاً بالسياسة الاقتصادية ومسائل الطاقة. من الممكن أنه كان ينظر إلى مسألة إزاحة صدام حسين على أساس أنها فرصة توفر لأمريكا ممارسة تأثير أكبر على احتياطيات العراق من النفط، وهو ما يشكل فائدة لأمننا الاقتصادي والقومي.

على أي حال، عندما تقوم شخصيات لها ثقلها مثل تشيني ورمسفيلد وولفويتز بالسعي لتحقيق أهدافها وخططهما عن طريق الدفع بها إلى الرئيس بغية تنفيذها، فإن

تلك مشكلة واضحة. كان على كوندي رايس، مستشارة الأمن القومي، بصفتها المستشارة الأعلى للرئيس للشؤون الخارجية مواجهة أولئك المستشارين الأكثر خبرة والشديدي التمسك بآرائهم بدلاً من إفساح الطريق أمامهم. لكن تجاربي ومن قم اللاحقه مع كوندي ساقتني إلى الاعتقاد أن أكثر ما كان يهمها هو معرفة موقف الرئيس، ومن ثم تنفيذ رغباته في الوقت الذي تبذل جهداً سطحياً لمساعدته على استيعاب الاعتبارات والنتائج المحتملة كافة.

ما تقدم، يقودنا إلى سؤال مهم أثاره المنتقدون يتعلق بالرئيس نفسه. هل الرئيس غافل من الناحية الفكرية، أو كما يؤكد بعضهم، هل هو غبي فعلاً؟ يبدو الاتهام الأخير بالنسبة لي انعكاساً محزناً للمناخ السياسي السائد اليوم الفارق بالأوصاف السلبية التي يطلقها بعضهم على خصومهم، والنبرة العالية للكلام العاطفي الذي يستحوذ على اهتمام أكبر من الاهتمام الذي يناله الخطاب المتعقل والمتمدن. إن بوش يمتلك من الذكاء ما يكفي لكي يكون رئيساً. ولكن أسلوبه في القيادة، كما ذكرت آنفاً، يعتمد على حسه الفطري أكثر من اعتماده على النقاش الفكري المعمق. يتركز فضوله الفكري على معرفة ما هو بحاجة إليه كي يقوم بتحديد سياساته، وتبنيها، والدفاع عنها. يقر بوش بحماسة بأهمية الدور الذي يلعبه الترويج للسياسات وتسويقها في عملية ممارسة الحكم هذه الأيام. وهكذا فإن مثل هذه المقاربة تبدو مفهومة إلى حد ما. ولكن كان على مستشاريه أن يقروا كم هي مؤذية قيادته الفطرية، وفضوله الفكري المحدود عندما تصل الأمور إلى حد اتخاذ قرارات مصيرية؛ وعلى ضوء المعطيات الموجودة حالياً، أصبح من المنطقي وضع إشارات استفهام حول قدرته على المحاكمة العقلية. من المؤسف قيام بعضهم بتصويره كشخص يعوزه الذكاء، ولكن هذه الصورة هي نتاج لأخطائه – التي كان من الممكن منع وقوعها لو أن معتقداته خضعت للتمحيص بشكل صحيح، وخضعت لانتقادات من كبار مستشاريه. فقد سمح كبار مستشاري بوش، وبالأخص من أعضاء فريق الأمن القومي، له بأن يكون في هذا الوضع الذي هو فيه هذه الأيام. وكانت نتيجة ذلك أن مصداقيته تفتتت إلى شظايا، وتضرر موقعه على ما يبدو، إلى درجة لا يمكن إصلاحها.

تتحمل عقلية الحملة الدائمة بعض اللوم. فأثناء مدة هذه الحملة، كانت الأولوية تتمثل في الحاجة إلى حشد الدعم الشعبي عبر تقديم أقوى عرض ممكن لقضيتك؛ بغض النظر عن كون قضية الحرب والسلام هذه مقاربة صادقة من الناحية الفكرية أم لا. الانضباط في توجيه الرسالة كان يعني تجنب السلوك القويم - على سبيل المثال، المراوغة في عملية رفض الأسئلة الموجهة إليك على أساس أنها مجرد «توقعات»، طالما أن قرار المضي في طريق الحرب ما يزال قيد الدرس. في جو واشنطن المعبأ حزبياً، تعد الصراحة نوعاً من المخاطرة؛ إذ يمكن للنقاد أن يلووا الكلمات ويوجهونها حيث يشاءون، وحيثما تقتضي مصلحتهم، ضاربين عرض الحائط بالإستراتيجية المخطط لها بشكل جيد.

في النهاية، يتحمل بوش بالطبع المسؤولية الكاملة عن غزو العراق. فهو من اتخذ قرار الغزو، وهو الذي وقّعَ على إستراتيجية الترويج للحرب التي لا يمكن وصفها بالصادقة أو الصريحة. يجب التعامل مع موضوع خطر كموضوع الحرب بانفتاح واستقامة. وهذا أقل ما يستحقه الشعب الأمريكي، وكذلك وحداتنا المقاتلة.

كان الجدل الدائر حول الكيفية التي استطاع بها بوش جر الأمة إلى الحرب على وشك أن ينفجر. وكانت الحرب الحزبية المبنية على حال دائمة من الارتياب على وشك أن تندلع. فقد سبق وبُذِلَ الكثير من الجهد للترويج للحرب، وتم عرض الخطط التفصيلية لإسقاط نظام صدام حسين. لكن في المقابل لم يبذل جهداً موازياً، ولم تهدر طاقات وموارد من أجل الاستثمار في التخطيط لفترة ما بعد سقوط النظام، وبدء عهد الاحتلال. كان التخطيط والإعداد غير الكافيين واضحين وضوح الشمس في أعقاب هذا الغزو بعد أن طغى التمرد على المشهد، واغتنم الإرهابيون الفرصة ليتسببوا في أذى كبير للقوات الأمريكية، فقد ارتفع عدد الضحايا، وبدأ الشعب العراقي يعاني من دوامة عنف لا نهاية لها.

وقد تحولت الحرب إلى معضلة شكلت تحدياً متزايداً للإدارة. فبعد أن قام بخلق جو من الارتياب الذي أدى إلى تفاقم الحرب الحزبية، لم يعد بمقدور البيت الأبيض دعوة الحزب الآخر لتقديم الدعم له في الوقت الذي كان بأمس الحاجة إلى مثل هذا الدعم - من أجل الحرب، وكذلك من أجل قواتنا التي لبت نداء الواجب لخوضها. كانت الأسئلة

حـول الخداع بشأن قضية الحرب تحوم فوق رؤوس الجميـع. أما الحقيقة فقد كانت بين ناريْ سياسة الحزبين المتصارعيْن.

ولكن، ونحن نلج إلى شهر أيار، مايو سنة 2003، حين انتهى الجزء الأول من الحرب بنجـاح، وحـين وقف الرئيس مزهواً أمـام الشعب الأمريكي، لم يكـن باستطاعتي، وأنا داخـل تلك المعمعة، استشراف الحروب السياسيـة القادمة. كما لم يكن يدور في خلدي أن فرصـة العمـر سوف تكـون في متناول يدي، وأنهـا ستضعني في الخطـوط الأمامية للمعارك القادمة.



9

تَبَوُّء منصب السكرتير الصحفي في البيت الأبيض

كانت المكالمة الهاتفية التي تلقيتها في عطلة نهاية الأسبوع تلك، منزلة مفاجأة بالنسبة لي. فقد اتصل بي آري إلى منزلي لإبلاغي أنه سيعلن يوم الاثنين الواقع في التاسع عشر من مايو، أيار سنة 2003 استقالته من منصب السكرتير الصحفي بحيث تصبح الاستقالة نافذة اعتباراً من منتصف شهر، تموز، يوليو. كان تعليله لهذه الخطوة غير قابل للبس: قد أُكرِهَ على القيام بذلك.

قبل ذلك بأشهر قليلة، بادر آري في واحد من أحاديثنا العابرة إلى القول إن في نيته الاستمرار في عمله لبعض الوقت. حينها، كان يبدو مليئاً بالحيوية ومتحمساً للقيام بهذه الوظيفة. أعلم أنه كان يستمتع بالفعل بإجراء المقابلات الصحفية ومناوشة الصحفيين تحت أنوار مصابيح الأنوار الساطعة. لكنه كان يشغل هذا المنصب أثناء وقوع أحداث الحادي عشر من أيلول، والحرب في أفغانستان، وما بدا حينها أن الحرب في العراق قد وصلت إلى نهايتها الناجحة. فقد أعلن الرئيس قبل ذلك بأسبوعين، من على متن سفينة « يو. س. س. لينكولن» قبالة ساحل سان دييغو، وهو يقف أمام لافتةً كتب عليها: «أنجزت المهمة» «أن العمليات العسكرية الكبرى في العراق قد انتهت؛ وأن الولايات المتحدة وحلفاءنا قد أحرزوا النصر». وكان آري قد عانى الكثير من الضغوط أثناء تأديته مهمة كبير الناطقين باسم الإدارة في أوقات عصيبة.

كان آري أيضاً قد تزوج حديثاً، إذ عقد قرانه في شهر تشرين الثاني، نوفمبر السابق. لم يكن بمقدوري تفهم ذلك في حينه؛ إلا أنني، وفي السنين التي تلت، استطعت أن أستوعب كيف تتراكم الضغوطات اليومية المستمرة، وتفعل فعلها في السكرتير الصحفي. فنحن

جميعــاً لدينــا كمٌ محدودٌ من المرات التــي نستطيع فيها إعادة شحــن طاقاتنا. وقد استنفد آري كل طاقاته.

ذكــر آري في تلك المكالمة أنه أوصى بــأن أحل مكانه. قلت له إنه خدم الرئيس بامتدار كبير وإننا سنفتقده، كما عبرت لآري عن عميق امتناني له.

بعــد أن أنهينــا المكالمة، بــدأ يتكون لدي إحساســ بأنني ربما سأُقحَــمُ قريباً في دائرة الضــوء نفسها التي احتلها آري. طبعاً لم أكن حينها متأكداً؛ لكنني شعرت بأنني أظهرت ولائــي الكامــل لبوش. كنت موضع ثقتــه؛ وكانت علاقتنا قوية. برهنــتُ أنني كنت أعرف الأسلوب الذي يرغب الرئيس في ممارسته، وأن لدي تفهماً عميقاً للطريقة التي كان يفكر فيها، والمبادئ التي كانت قراراته تنبثق منها - لهذه الأسباب مجتمعة

اعتقــدت كارن هيــوز أنني خلف جيد لآري بخبرته في واشنطــن. كما أنني أظهرت أن بإمكاني تنفيذ ما أرادني الرئيس القيام به سواء على المنصة أم خارجها. فقد كنت أحل محــل آري بشــكل ممتــاز في العديد من المناسبــات؛ وعندما كان في إجــازة لمناسبة عقد قرانه، استلمت جميع مسؤولياته، وأجريت العديد من اللقاءات الصحفية لمدة طويلة.

كما أظهرت أنني أحسن التصرف في حالات الأزمات والمآسي؛ وكان آخرها يوم السبت الواقع في الأول من شباط، فبراير سنة 2003. فقد كان آري خارج المدينة في عطلة نهاية الأسبوع، عندما انفجر المكوك الفضائي، كولومبيا عند دخوله إلى الغلاف الجوي وتسبب في قتــل سبعة من رواد الفضاء الشجعان كانوا على متنه. في أوقات كتلك، كنت أعرف أن من المهم بشكل خاص تزويد الصحفيين بالحقائق والمعلومات من أجل التاريخ وذلك لكي يكون باستطاعتهم نقل الأخبار إلى الشعب الأمريكي بشكل كامل ودقيق.

بعــد تلقــي المكالمة الهاتفية مــن غرفة الموقع في ذلــك الصباح، توجهــت مباشرة إلى المكتــب. كنــت هناك من أجل مقابلة الرئيس الذي كان قــد عاد مباشرة من كامب ديفيد لتوجيــه خطــاب إلى الأمة، وكنــت أتبع خطواته كظلــه مدوناً الملحوظات بــكل عناية. لن أنســى أبــداً وقــوفي في المكتب البيضــاوي في الوقت الــذي كان يتحدث هاتفيــاً إلى أفراد

أسر رواد الفضاء الذين كانوا مجتمعين في قاعة المؤتمرات في مركز كينيدي للفضاء. لم يكن باستطاعة أي منا تخيل المعاناة التي كانوا يمرون بها؛ لكننا كنا نعلم أن ما كانوا يعانونه أبعد من الألم. كل ما كان باستطاعتي فعله هو الصلاة لأجلهم بطريقتي الأكثر شخصية والأكثر خصوصية، مثلي في ذلك، مثل الكثيرين في تلك القاعة وفي طول البلاد وعرضها.

قدم الرئيس إلى أفراد عائلات رواد الفضاء أصدق عزائه وصلواته، واصفاً ذلك اليوم بأنه «يوم مأساوي لأمريكة». بعد انتهاء المكالمة، كان على الرئيس الخروج من المكتب البيضاوي إلى جناحه الخاص لفترة وجيزة جداً. فقد آلمه جداً التحدث إلى العائلات وكان يحتاج إلى ثوانٍ قليلة ليستجمع قواه قبل التوجه إلى حيث سيتحدث إلى الصحفيين حول هذه المأساة في قاعة روزفلت المجاورة.

عصر ذلك اليوم، وبعد أن وجه الرئيس خطاباً إلى الأمة، انضممت إلى جمع من الصحفيين وقمت بتزويد الصحافة بحقائق ومعلومات عن نشاط الرئيس في ذلك اليوم. وتماماً كما حدث في الحادي عشر من أيلول، كل ما استطعت أن أفكر به هو: لماذا؟ - لماذا كان على ذلك أن يحصل؟ وكم كنت أفضل أن لا أحمل عبء التعامل مع مسائل كهذه. لكن كانت هذه حقائق الحياة في البيت الأبيض: فقد كان علينا دائماً أن نكون على أهبة الاستعداد لنتوقع كل ما هو غير متوقع.

بدا وكأن كل شيء كان يحدث بسرعة بعد أن أعلن آري عن ترك منصبه. وبحلول منتصف الأسبوع وتحديداً في التاسع عشر من شهر أيار، مايو، قابلت رئيس أركان البيت الأبيض آندي كارد لمناقشة التوقعات من قبل الجانبين. يوم الأحد، تحدثت إلى الرئيس. كان الرئيس قد استضاف حليفه الحميم، رئيس الوزراء الياباني كويزومي في منزله في كروفورد يومي الخميس والجمعة، وأمضى بعدها عطلة نهاية الأسبوع هناك. أثناء رحلة العودة على متن الطائرة الرئاسية، عرض عليّ المنصب بصورة رسمية.

قال الرئيس: «أخبرت الجميع أنه لا حاجة بي إلى البحث عن أي شخص آخر؛ فنحن لدينا الشخص المناسب بحسب رأيي».

أجبـت: «هذا شرف لي يا سيدي. سأبذل كل ما بوسعي كي أخدمك وأخدم بلادي بشكل مُرْضٍ».

وافـق الرئيس على كلامي، وقال: «يجـب أن تشعر أن هذا تشريف لك. إذ ليس هناك العديـد من النـاسـ الذين يمكن لهم القـول إنهم شغلوا منصـب السكرتير الصحفي في البيت الأبيض. إنها أخوية محدودة العدد».

كان ذلـك الأسبـوع دوامـة بالنسبـة لي. فقـد تغير مجـرى حياتي بسرعـة؛ ذلك أن الواجبـات اليومية التي كان يتعين عليّ القيام بها لم تترك لي سوى القليل من الوقت لكي أدع كل شـيء آخر جانباً وبشـكل كامل، ولكي أتأمل في كل الاعتبارات الضرورية والبعيدة المدى، والتي يتعين عليّ استقصاءها. كنا، الرئيس وأنا، نعرف بعضنا جيداً. كنت أعرف ما كان الرئيس يتوقعه، كما كنت أعرف متطلبات الوظيفة، وكنت أعرف كيف كان يريدني أن أقوم بها. ولكن كان عليّ التأكد من أمرين اثنين.

الأمـر الأول يتعلق بحرية التواصل مع بوش. وعندما تحدثـت إلى الرئيس بشأن ذلك طمأننـي قائلاً: «بالتأكيد؛ فأنا أعرف أنك تحتاج إلى ذلك من أجل القيام بعملك. سوف يكون بإمكانك التواصل معي في أي وقت تحتاج لرؤيتي».

أما الأمر الثاني فيتعلق بحرية حضور الاجتماعات المهمة. أردت التأكد من أنني سوف أكـون حاضراً في جميع اللقـاءات الرئاسية - بدءاً من اللقـاءات الصحفية حول سياسة الحكومة وانتهاء بالاجتماعات مع قادة العالم - والتي كان آري يحضرها. لن تكون هناك أي مشكلـة حول هذا الأمر أيضاً، هذا ما قاله الرئيس. فكرت في أن أذهب أبعد من ذلك عبر طلب حضور اثنين من الاجتماعات اللذين لم تتم دعوة آري إلى حضورهما. ربما كان علـيّ أن أطلب، لكننـي لم أفعل، ذلك أنني قررت بيني وبين نفسـي أن ذلك يمكن أن يتم طلبه بشكل أكثر فعالية بالتدريج عبر آندي أو عبر قنوات أخرى.

كنـت أعرف ماذا يريد الرئيس عندمـا كان الأمر يتعلق بالسكرتير الصحفي. فهو لم يكـن يريد من الناطق باسمه أن يخرج عن سيـاق النقاط التي عليه التحدث عنها، أو أن يكون في قلب الأحداث من دون مسوغ أو بشكل غير متوقع. ويعود ذلك جزئياً إلى كون بوش

يفضـل أن يعلـن الخبر بالتوقيت المناسب له، مـن دون أن يعطي وسائل الإعلام صلاحية ضبـط إيقـاع خططه. ويعود السبـب في ذلك جزئياً إلى أن بوش لم يكـن يثق بالصحافة الأمريكية التي كان يعتقد بأنها تحمل في طياتها تحاملاً ليبرالياً ضد الجمهوريين. وبحكم أنه يعرف أن على السكرتير الصحفي التعامل مع الصحافة بشكل وثيق على امتداد اليوم، فقـد أراد له الرئيس أن يكون علـى اطلاع على المعلومات الضرورية؛ إلا أن مفهومه لما هو «ضروري»، لا يترك للسكرتير الصحفي سوى مجال محدود جزئياً للحركة.

في المراحـل الأولى من رئاستـه، وفي تعليق تناقله الطاقم الصحفـي العامل في البيت الأبيض قلـل الرئيس من شـأن آري من دون قصـد بالقول إن هناك أوقاتـاً سوف يقول لآري فيهـا إنه لن يطلعـه على بعض الأمور. وأضاف، عندما يحصـل شيء كهذا، فإنه لا يتوقع من آري أن يحتج على ذلك. في نهاية المطاف حذا العديد من كبار مستشاري الرئيس حذوه في هذا الأمر.

لكـن كل شـيء كان يحدث بسرعـة، ولم يكن لدي إلا القليل مـن الوقت للنظر في هذا العرض الوظيفي من وجهة نظر أنانيـة – أي التأمل فيما إذا كانت هذه الوظيفة مناسبة لي. فقد قطعت على نفسي عهداً منذ مدة طويلة بالالتزام بخدمة بوش. وكانت ردة فعلي الأولى، كشخـص يؤمن إيمانـاً راسخاً بالعمل في مجال الخدمـة العامة، أن هذا العرض الأخـير المقدم لي للعمـل بصفة كبير الناطقين باسم البيـت الأبيض، ليس مجرد فرصة شخصية عظيمة، بل هو واجب لا بد لي من القيام به. كما كنت أؤمن دائماً بأن الله يفتح أبوابـاً لحكمة يعلمها هو. شعـرت بأن هذا ما يحدث الآن بالضبـط. فأنا لم أخطط يوماً للسـير في طريق يؤدي بـي إلى أن أصبـح السكرتير الصحفي للبيـت الأبيض. وما فعلته ببساطـة هو أنني ولجـت الأبواب التي فتحـت لي، وهذه الأبواب أوصلتنـي الآن إلى هذه اللحظـة. ويمكن أن يكون السبب وراء دعوتـي لولوج عتبة هذا الباب تحديداً خارج نطاق قدرتي على الاستيعاب؛ إلا أن إيماني بالله وبتدبيره كان لا يساورني الشك فيه.

لكن الطبيعة البشريـة تقتضي أن يطرح المرء تساؤلات؛ وفي حقيقة الأمر يفرض علي إيمـاني القيام بذلك. وعندما توفر لدي الوقـت لالتقاط أنفاسي مباشرة بعد قبولي تبوء

هـذا المنصب، أضحت تحفظاتـي حول خوض هذه التجربة من الجدية بحيث إنني أجّلتُ الإعلان رسمياً قبولي لهذا المنصب إلى وقت متأخر من شهر حزيران، يونيو. كانت حجتي في ذلك هي أنني كنت بحاجة إلى الوقت لتحضير نفسي لهذا المنصب بهدوء، وبعيداً عن الأضواء. وعندما ظهر نبأ تعييني في منصب السكرتير الصحفي إلى العلن، فقد تلاشت هـذه الفرصـة. لكنني اغتنمت هـذه الفسحة من الوقـت للتشاور مع بعضٍ من أكثر من أثـق بهم من المستشاريـن - أستاذي السياسي، ووالدتي، وأخي الأكبر مارك، الذي يتمتع بكثـير مـن الحكمة، (والذي كان يتميز بالمنطق العام بالرغـم من موقعه المزدوج بوصفه حامـلاً لشهادة الدكتوراه وكطبيباً) بالإضافة إلى أحـدث عضو في دائرتي المغلقة وأعني بها خطيبتي جيل (كنت قد طلبت يدها في نهاية شهر آذار، مارس).

شجعوني جميعاً على قبول هذا العرض الذي وصفوه بالفرصة العظيمة. كما نصحوني بالاستمـرار في هذا الموقع لسنتين كبداية، وذلك للتأكـد من مجرى الأمور؛ وفي أي حال، فإن هذه التجربة ستكون مفيدة لي بشكل استثنائي.

لكـن ذلك لم يخفف من شكوكـي. كنت أتساءل فيما إذا كنت أرغـب، في واقع الأمر، في أن أكـون في دائـرة الضـوء في واشنطن التي تعج بالقبح والخِسّـة. ونظراً لأنني نشأت في كنـف أمٍّ انخرطتْ في العمـل السياسي، فلم أكن ألقِ بالاً أبداً للإحساس بالمرارة الذي يتغلغـل في لغـة الخطـاب، وبالتحديد، في واشنطن. هـل كنت حقيقةً، أرغـب في أن أضع نفســي - والآن، جيل - تحت المجهـر السياسي؟ لم أكن لأعير الإهانات والتنابذ بالألقاب أي اهتمام أكبر من الاهتمام بالسهام التي كانت تطلق باتجاه والدتي عندما كنت صبياً. ربما علمتني تجربة الصبا تلك، أن لا أنزعج على الإطلاق من أسوأ أشكال التهجم المبني علـى الكراهيـة، أو المنبثق من روح خسيسة. ولكن هل يستحـق الأمر كل هذا العناء؟ كان شيء ما، حول هذه الحال، يعتصرني من الداخل.

كان الســؤال الكبـير يتمحور فيمـا إذا كنت سأتمتع بقـدْرٍ وافر مـن الحرية والمرونة والتسهيـلات التـي ستساعدني في القيـام بعملي بشـكل مُرْضٍ، وفي أن أكـون السكرتير الصحفي الذي أملت أن أكونه. هل سأكون مؤتمناً على السبب الحقيقي وراء كل قرار مهم

تتخـذه الإدارة؟ هـل سيسمح لي في أن أكون شاهداً على التداخـل بين الضغط السياسي والمصلحـة القوميـة التي تساعد في صياغة القـرارات السياسية - أم أننـي سأُزَوَّدُ فقط بالمنتـج النهائي، ويطلب إليّ القيام بتسويقـه تدريجياً؟ هل سيكون بإمكاني القيام بشكل دائـم بالمساهمة في صياغة الرسالة التي تريـد الإدارة توجيهها، والتأثير في وجهتها نحو الشفافية والصدق، أم أنني سأُترَكُ في الظلمة أحياناً؟

لم يكـن حينها من السهل علي شرح كل تلك الهواجس للأشخاص الذي لجأت إليهم من أجل إسداء النصح الشخصي. كان من المتوقع أن تكون عشتَ هذه التجارب بنفسك في البيـت الأبيضـ في عهد بوش. الآن فقط أضحى باستطاعتـي تقدير كل ذلك والتأكد مـن أنه كان علي بذل جهد أكبر لتغييره حينهـا - ليس بالتدريج بعد أن بدأت العمل، بل قبل أن أوافق على قبول العرض.

لقـد تمـت طمأنتي إلى أنـه سيكون بمقـدوري ممارسة حريـة التواصل مـع الرئيس والاطـلاع علـى معظم الاجتماعات الرئاسيـة، وكان هذا يعني أنني سأكـون شاهداً على صياغـة العديد من السياسات التي يتوقع مني أن أقوم بالدفاع عنها. وكانت هذه معاملة معياريـة للسكرتـير الصحفي للبيت الأبيضـ، وكانت غاية في الأهميـة. فلكي يكون عمل السكرتير الصحفي فعالاً، عليه أن يكون مطلعاً على مجريات الأمور.

لكـن كان من الواضح أن قيوداً ستكون مفروضة على حرية التواصل تلك. فتماماً مثل آري، سوف لن أدعى إلى بعض المناقشات الحساسة المتعلقة باتخاذ القرارات، خصوصاً تلك الاجتماعات التي تعقد على نطاق ضيق، وغير رسمي، والتي كان بوش يرغب أن تبقى المعلومـات حولها في أضيق نطاق ممكن، ومقتصرة علـى أقل عدد ممكن من الأشخاص - ولا يتـم الإعلان عنهـا إلا في مراحل لاحقة. فقد كان السكرتـير الصحفي يستثنى من حضور اجتماعات «التخطيط الاستراتيجي». ولم يكن بوش يشعر أن السكرتير الصحفي يجب أن يدعى بشكل منتظم إلى اجتماعات مجلس الأمن القومي. كما استثني السكرتير الصحفي من حضور «اجتماعات الاتصالات» اليومية التي كانت تتم في المكتب البيضاوي وتضـم كلاً من الرئيس، ونائب الرئيس، وآندي كارد، وكارل روف، وكوندي رايس، وكارن هيوز (وفيما بعد، دان بارتليت).

كانت هناك بعض الطرائق للتحايل على بعض هذه الإقصاءات التي لم تكن من بينها ما تم ذكره آنفاً، بالرغم من أنني بذلت بعض الجهد كي يتم ضمي إلى تلك الاجتماعات. كان ذلـك يعنـي أحياناً ظهورك في اجتماع لم تتم دعوتك إليـه بالأساس. كان من الممكن في أحيان أخـرى الحصول على معلومات كاملة وفي الوقت المناسب من أشخاص حضروا الاجتمـاع. وفي بعضـ الأحيان، كان بإمـكاني التوجه مباشرة إلى الرئيسـ الذي كان إما يخـبرني بما أردت معرفته بنفسه، أو إذا اقتضت الضرورة، القيام بإجراء مكالمة هاتفية أتحـدث فيهـا إلى المستشار ذي الصلـة. كانت هذه الطرائق الالتفافيـة تساعدني بشكل دائم تقريباً في الحصول على المعلومات التي أحتاجها.

كنـت أشعر أيضـاً أنني أتمتع بميزة إضافية لم يكن آري يتمتع بها في مسألة الحصول علـى المعلومات. فقد كانت علاقتـي بالرئيس أكثر قدماً نظراً لأننـا ذوو جذور تكساسية . شعـرت بـأن الجميع في دائرة الرئيسـ الضيقة كان ينظـر إلي باستحسان وثقة – ربما أكـثر مما كان آري يتمتع بهما. علـى سبيل المثال، عندما علمت كوندي رايس أن آري كان يطلـع على ملحوظات استلت من اتصـالات الرئيس بقادة الدول، قامت فوراً بسحب هذه الصلاحيـة منـه. (كان البديل بالنسبة لي يكمن في التواجـد في المكتب البيضاوي خلال إجـراء هذه المكالمـات الهاتفية المهمة والاستماع إلى ما كان يـدور حينها بشكل مباشر). كان انطباعـي أن كارن هيوز اعتبرت أن آري لم يكن أحياناً منضبطاً بما فيه الكفاية وهو على المنصة في قاعة اللقاءات الصحفية. على سبيل المثال، في إحدى اللقاءات الصحفية المصغرة، أثار آري زوبعة نارية عندما أشار إلى أن محاولة البيت الأبيض في عهد كلينتون تحقيـق سلام شامل في الشرق الأوسط أدت في واقـع الأمر إلى تصعيد في العنف هناك. كنـت ألج إلى المكتب البيضاوي عندما سمعت كارن وهـي تشكو آري إلى الرئيس بحضور كوندي. وقد أجبر آري على التراجع عن تصريحه ذاك في وقت لاحق من اليوم نفسه.

ولكن، وكما بدأت تتضح الأمور أمامي شيئاً فشيئاً، فإن ما كان مدعاة للانزعاج أكثر من مسألة القيود المفروضة على حرية السكرتير الصحفي في الوصول إلى المعلومات، هو ذلـك الجو من السرية داخـل الإدارة الذي يتجلى في الموقف السلبـي من وسائل الإعلام الوطنية، وما ينتج عن هذه العقلية من دعم محدود للسكرتير الصحفي.

على سبيـل المثال، كان الرئيس يرغب في حفظ المعلومات ضمن نطاق البيت الأبيض. كانت اجتماعات منتظمة تعقد بين الرئيس ونائب الرئيس، أو بينه وبين آندي كارد أو كارل روف، وهـذه الاجتماعات كان لها طابع سري. وهذا أمر مفهوم - فعندما يجتمع الرئيس مـع مستشاريه المقربين، فإنهم يرغبون بالتحدث بكامـل الحرية والصراحة؛ وأي طرف ثالـث، حتى لـو كان عضواً موثوقاً في الفريـق، يمكن أن يحد من هـذه الحرية. لكن هذا الباب المغلق في البيت الأبيض في عهد بوش كان مدعاة للقلق قليلاً. فلقد كان لتشيني من السلطة والتأثير أكثر مما كان لأي نائب رئيس في تاريخ الولايات المتحدة، ولا يعرف أحد بالضبـط كيف استطاع أن يوسع دائرة نفوذه تلك. وبسبب أنه لم يكن بمقدوري الاقتراب من طريقة تفكيره، أو إدراك الطرائق التي يقدم فيها نصائحه إلى الرئيس، فقد ترك كل ذلك ثقباً أسود كبيراً في إدراكي لما يحصل داخل الإدارة. ولقد حصل الشيء ذاته عندما لم أُحَـطْ علماً بصنـع القرارات ذات الصلة، والتي اتخذت في لقـاءات ثنائية، أو لقاءات لمجموعـة صغيرة محـددة. إن البقاء في العتمة هو وضع غير مريـح البتةً بالنسبة إلى أي سكرتير صحفي.

بشكل عام، تكون لدي اقتناع بأن إدارة بوش لم تقدم سوى الحد الأدنى من الدعم لدور السكرتـير الصحفي. كانت هناك قلة قليلة فقط من بـين كبار مستشاري الرئيس الذين أيدوا فكرة أن يكون السكرتير الصحفي على اطلاع بالتغيرات في مجريات السياسة التي تجـري خلف الكواليس والأسباب وراء هـذه التغيرات. الأسوأ من ذلك كله، فحتى بعد أن يكـون السكرتـير الصحفي قد أحيط علماً بواحد من التطـورات المهمة، وتلقى التفاصيل حـول هذا الحدث من أحـد كبار المستشارين، فإنه سيجد نفسـه متورطاً في لعبة الأسئلة العشرين. لا يجوز لمن تم تكليفه بإطلاع الصحافة والجمهور على الحقائق أن يفرض عليه خوض غمار مثل هذه الألعاب المثيرة للإحباط.

كان الإحبـاط الذي عانى منه آري بسبب صعوبة الحصول على المعلومات واحداً من الأسباب التي جعلته يحترق مهنياً في وقت أقرب مما توقعت. فموقع السكرتير الصحفي، مثلـه مثل أي موقع رفيع المستـوى في البيت الأبيض، هو وظيفة قاسية، ومستهلكة للوقت

بشـكل لا يصـدق. هناك الكثير من التحديـات التي يجب مواجهتها يوميـاً من دون أن يتعين عليك أن تمضي وقتاً غير محدود في محاولة منك للسيطرة على مجريات الأمور، أو تحـاول أن تلحق بالحدث في الوقت الذي تكون عقارب الساعة تتحرك، ويكون هناك بث حي بوجود الكاميرا والصحفيين في انتظارك بعد لحظات. ولا يجب على أي سكرتير صحفي أن ينتابه القلق من أن تكون الصحافة قد اكتشفت ما حدث داخل البيت الأبيض قبل أن يقوم هو بالإعلان عن ذلك.

مـع مضي الوقت، بـدأت أتبين أن السبب الذي جعل الآخريـن يتعاملون مع السكرتير الصحفـي بهـذه الطريقة لا علاقـة له بالشخص الـذي يتبوأ هذا الموقـع، بل هو متجذر في انعـدام الثقة بوسائل الإعلام الوطنية؛ ذلك أنـه لا الرئيس، ولا الغالبية الساحقة من مستشاريه في الدائرة الضيقة تعاملوا يوماً باحترام كبير مع وسائل الإعلام الوطنية بمن في ذلـك طاقم الصحفيـين العامل في البيت الأبيض. أشار آنـدي كارد ذات مرة إلى أنه يـرى في وسائل الإعلام العاملة في واشنطـن مجموعة «مصالح خاصة» أخرى يتعين على البيـت الأبيض أن يتعامل معها كما يتعامل مع قوى الضغـط أو المؤسسات التجارية. هذه الملاحظة كانت مذهلة وموحية في آن.

كان بوشـ شأنـه شأن العديد من الرؤساء، يعد الصحافـة بغيضة، أو شراً لا بد منه. فالصحفيـون شرذمـة من الوسطـاء يقفون بينه وبـين الشعب الأمريكي؛ وهـم غالباً ما يبالغـون في تنقية أو ترشيـح رسائله الواضحة التي يوجهها إلى الشعب، ويعملون أحياناً علـى تخريب صـورة إدارته أو إضعـاف روابطها مع المواطنين. عـززت الشكاوى من قبل المحافظـين، على امتداد عقـود من الزمن، مـن «وسائل الإعلام الليبراليـة» والتي تعود إلى المرحلـة التـي وجه فيهـا سبيرو أغنيو نقـداً عنيفاً ضد من وصفهم «بنـواب السلبية المتأنقـين» فرضية أن الصحافـة لن تترك أبداً أي رئيس جمهـوري مرتاح البال. وبسبب هذا الشحن العاطفي ضد الصحافة، لم تعتقد الغالبية العظمى من فريق بوش في البيت الأبيضـ بضرورة تزويد وسائل الإعلام بالكثير من المعلومات اللهم إلا القليل، القليل من البيانات المنتقاة بعناية كي تدعم موقف الرئيس، ولا توفر للمعارضة أي منصة لانتقاده.

غالباً ما أواجَهُ إلى يومنا هذا، بأسئلة حول نقد «وسائل الإعلام الليبرالية». هل هذا صحيح؟ هل أن سبب المشكلة في واشنطن يعود جزئياً إلى حقيقة أن الصحفيين ذوي الميول اليسارية هم في حقيقة الأمر في حال حرب مع السياسيين المحافظين في محاولة منهم لإسقاطهم؟

جوابي على مثل هذه الأسئلة هو نفسه دائماً. ربما كان صحيحاً أن أغلب الصحفيين، والكتاب والإعلاميين العاملين في التلفزيون ليبراليون من الزاوية الشخصية، أو أنهم ينزعون باتجاه اليسار، ويميلون نحو التصويت للديمقراطيين. تؤكد صحة ذلك الاستبيانات واستطلاعات الرأي بين العاملين في وسائل الإعلام؛ إلا أن هذا الميل باتجاه اليسار ربما أصبح أقل وضوحاً في السنين الأخيرة، مع بروز تنوع أكثر اتساعاً في مصادر الأخبار بما في ذلك فوكس نيوز التي تسلط الضوء على شعبية آراء المحافظين ومن ثم حيويتها التجارية. الأهم من ذلك، كل ما شاهدته بصفتي سكرتيراً صحفياً، ومراقباً منذ مدة طويلة للمشهد السياسي ووسائل الإعلام، يشير إلى أن أي محاباة ليبرالية ليس لها سوى تأثير محدود في الطريقة التي تصل فيها المعلومة إلى الجمهور الأمريكي.

فالغالبية العظمى من الصحفيين - بمن فيهم أولئك العاملون في الطاقم الصحفي للبيت الأبيض - هم أناس شرفاء؛ عقولهم منفتحة ومهنيون. يبذلون كل ما بوسعهم لتقديم كل جوانب القصص التي ينقلونها، وهم بالتأكيد لا يتعاملون مع المعلومات أو البيانات الصادرة عن إدارة محافظة بقسوة مفرطة، أو تشكيك مبالغ فيه. وحتى عندما تنساب بعض المحاباة هنا أو هناك، فإنني على يقين من أن الجمهور يراها على حقيقتها. ولم نكن في إدارة بوش نعاني من أي صعوبة في إيصال كل الرسائل التي أردنا نقلها إلى الشعب الأمريكي.

وحقاً أقول إن طاقم الصحافة الوطنية ربما أظهر الكثير من المراعاة للبيت الأبيض وللإدارة فيما يتعلق بأهم قرار كان على الأمة مواجهته خلال سني وجودي في واشنطن، وأعني به شن الحرب على العراق. لكن انهيار منطق الإدارة حول أسباب شن هذه الحرب، الذي أضحى جلياً بعد أشهر على شنها، لا يجوز أبداً أن يشكل مفاجأة

لأحـد. كان من حق الشعب أن يكـون أكثر اطلاعاً قبل هذه الوقائع، على أشكال الالتباس والشكـوك والتوضيحات كافة التي كانت المخابـرات تخفيها حول نظام صدام حسين. لم تفعـل الحكومـة إلا القليل، القليل لتوضيح هذه الالتباسـات للشعب؛ وكان على الصحافة أن تركـز على هذا الضعف، لكنها لم تفعـل ذلك لأن تركيزها كان في مكان آخر - تغطية المسيرة باتجاه الحرب، بدلاً من التركيز على ضرورة تلك الحرب.

في هـذه الحـال، لم ترتقِ «الصحافة الليبرالية» إلى مستـوى السمعة التي كانت تتمتع بها. ولو فعلت، لكانت قدمت خدمة أفضل للأمة.

سوف أخطو خطوة أخرى إلى الأمام في هذا السياق. إنني أميل إلى الاعتقاد أنه يجب اعتبـار وسائل الإعلام ذات التوجه الليبرالي في الولايات المتحدة أمراً إيجابياً. فعندما أعـود بالذاكرة إلى العديد من الإدارات الرئاسيـة الماضية - إدارتَيْ بوش الأب والابن، وبيـل كلينتون، ورونالد ريغان، وجيمي كارتر، وجيرالد فورد - فإنني أشاهد سلسلة من القـادة المحافظين والوسطيين الذين هم إما على يمـين الوسط، أو على يساره؛ والذين نهجـوا سياسات صممت لإرضاء السواد الأعظـم من الناخبين الأمريكيين المنتمين إلى الطبقـة الوسطى. جميع هؤلاء الرؤساء كانوا علـى الأقل معتدلين فيما يتعلق بالسياسة الاقتصاديـة، وكان توجههـم ينحو بشكل عام باتجـاه تأييد رجال الأعمـال، كما كانوا ضمـن الخط العام حول معظـم القضايا الأخرى بدءاً من السياسـة الخارجية، مروراً بالتعليـم، وانتهاء بقضايا البيئـة. كما كان قادة الكونغرس الذيـن تعاونوا معهم بشكل عام، ضمن التوجه نفسه - سواء كانوا محافظين أم وسطيين. ولم يكن هناك ليبراليون متطرفون على امتداد السنين الأربعين الأخيرة يحتلون أي مواقع ذات سلطات كبيرة في السياسة الأمريكية.

ضمن هذه الظروف، يمكن لوسائل الإعلام التي ينظر إليها عموماً على أنها ليبرالية أو تنـزع نحو اليسـار أن تؤدي دوراً مهماً ومفيداً. يمكن لهـا أن تدافع عن مصالح الناس وقضاياهـم التي تنتزع اعترافاً قصـير المدى من السياسيـين المحافظين الذين يسيرون ضمـن الاتجـاه السائد: مثـل الأقليات العرقيـة، والنسـاء، والطبقة العاملـة، والفقراء،

والمحرومـين. وكمـا يقول المثل السائد، فالصحفي الليبرالي يجـب أن يتبنى مبدأ «إراحة المعذبـين وتعذيـب المرتاحـين»، في معرض إبرازه لقضايـا يمكن لولاه أن يتـم إهمالها أو تجاهلهـا، وفضحـه للأخطـاء، ومساعدتـه لأولئك الذيـن يعملون في مجـالي الحكومة والتجارة في أن يتصرفوا بأمانة.

أكـثر من ذلك، فأنـا أرحب بوسائل الإعلام التي تعتمـد التشكيك وتبدي عدم الثقة. وكلما أمعنت في ذلك، أضحت الأمور أفضل - طالما أنها تتصرف بأمانة وعدالة. فأولئك القابعون في سدة السلطة يتوجب عليهم بشكل دائم، أن يبذلوا كل ما بوسعهم كي يكسبوا ثقـة من يحكمـون. يجب أن يكونوا أمام تحدٍ دائم لإثبـات أن ما يقومون به هو الصواب، ولإثبـات أنهم جديرون بالثقة، ولإثبات أنهم خاضعون للمحاسبة. هذه هي الطريقة التي يمكـن لنا بواسطتها الحصول على الحقائق المهمـة، وأحياناً الصعبة. ففي مجتمع اليوم المبنـي على المعلومات، سيدفع أي صحفـي أو وسيلة إعلام ثمناً باهظاً إذا تجاوز حدوده. فقد راقبت عن كثب كيف يمكن لشيء كهذا أن يحدث عندما ترك أحدهم في محطة CBS News الإخباريـة لتحامله المسبق أن يلوث تغطيته لأحد الموضوعات (وتحديداً الفضيحة المتعلقة بالوثائق المزورة التي استخدمها دان راثر لاتهام بوش بتلقيه معاملة خاصة أثناء خدمته في سلك الحرس الوطني). فقد جلبت حفنة من العاملين في مجال الأخبار الذين استماتوا في محاولتهم إسقاط الرئيس المصيبة على رؤوس أصحابها أنفسهم.

لـذا، لا أتفـق مع أولئك الذين ينـددون «بوسائل الإعلام الليبراليـة». إذ لا مشكلة لي مـع أي صحفي ليبرالي يؤدي وظيفته بروح مهنيـة، وكنت بالتأكيد سعيداً بالتعامل معهم بصفتـي سكرتيراً صحفياً للبيت الأبيض. المشكلة الحقيقيـة في وسائل الإعلام تكمن في مبالغتهـا في الترويج للغـط، وأيضاً مبالغتها في التركيز على من هـو الرابح في واشنطن ومـن هو الخاسر فيهـا، وبحثها الدائم عمن يمكن لها أن تهاجمـه. تتسبب هذه العادات السيئة في ضياع الحقائق الأكبر التي تهم المواطن في خضم هذا الخليط.

أغلب العاملين في البيت الأبيض في عهد بوش، لا يشاطرونني الرأي بشأن فوائد وجود وسائل إعلام ليبرالية التوجه. كما أظن أن القلق بشأن التحامل الليبرالي يساعد في فهم

ميل فريق بوش لبناء جدران لعزل وسائل الإعلام عنها. ولسوء الحظ، كان السكرتير الصحفي يجد نفسه أحياناً خارج هذه الجدران أيضاً.

بالرغم من كل هذه السلبيات، قبلت نصائح أفراد الدائرة الذين استشرتهم بشأن قبول منصب السكرتير الصحفي. فقد كانت لي دائماً حرية الوصول إلى الرئيس الذي كان منفتحاً عليّ بشكل مُرْضٍ. كما شعرت بأن علاقاتي مع بقية أفراد الدائرة الداخلية كانت من المتانة بحيث إنه كان باستطاعتي التغلب على بعض العقبات الإضافية في وجه حسن أدائي لعملي. كنت أعتقد أن باستطاعتي العمل تدريجياً لإزالة العديد من العقبات التي شعرت أنه لا مسوغ لها. ولو كانت هذه العقبات هي المشكلة الوحيدة التي واجهتني في أدائي لهذه المهمة، لاتخذت الأمور منحى آخر تماماً.

إلا أنه وبحلول يوم الثلاثاء الواقع في الخامس عشر من شهر تموز، يوليو، وهو اليوم الذي استلمت فيه منصبي رسمياً كسكرتير صحفي للبيت الأبيض، بدأت أتبين مدى صعوبة محاولة مساعدة الرئيس في تجاوز التحدي الأكبر الذي يواجهه - ألا وهو إعادة الاعتبار لمصداقيته التي كانت تتهاوى، وكذلك رأي الناس بأدائه.

أضحت الشكوك حول أسلحة الدمار الشامل في العراق أقوى من أي محاولة للتغطية عليها ليس فقط خارج نطاق الإدارة، بل داخلها أيضاً. مع ذلك، كان العديد من بيننا بمن فينا الرئيس نفسه يتعلق بحبال آمال زائفة، أدرك متأخراً صعوبة تحقيقها، أنه في الوقت المناسب فإن فريق التفتيش الذي تقوده الولايات المتحدة بمصادر تمويله الواسعة وكثرة أفراده سيكتشف أسلحة صدام - وهي الأسلحة التي كنا نعرف أنه يمتلكها - المخبأة داخل عنابر أو مدفونة تحت رمال الصحراء العراقية. لم يكن باستطاعة المخابرات أن تكون أكثر بعداً عن هذا الهدف. لا بد أن يكون صدام قد خبأ على الأقل بعضاً من أسلحة الدمار الشامل في مكان ما، في العراق. أيٌّ كشف في هذا الصدد سوف يكون مفيداً. كان هذا هو الأمل الكاذب الذي حدا بالرئيس كي ينبري للإعلان أننا وجدنا أسلحة على شكل مَخبريْن بيولوجيين متنقلين للأسلحة - لم ينقضِ سوى القليل من الوقت قبل أن تعلن المخابرات أن هذين المخبرين ليسا مخبرا أسلحة على الإطلاق.

بـدأت شكوكـي الخاصة تزداد، وتتخذ شـكلاً أكثر وضوحاً وذلك قبـل أسبوعين من اعتلائـي منصــة التصريحــات في قاعة اللقــاءات الصحفية. أذكر جيــداً تلك اللحظة الفاصلــة في تطـوري النفسي - هـي لحظة قلبت فيهــا الطاولات حيث تلقـى السكرتير الصحفي رؤية قيّمة من أحد الصحفيين.

في أحـد الأيــام، أطلت آن كومبتـون، وهي مراسلة مخضرمة ومحترمــة تقوم بتغطية أخبــار البيـت الأبيض لصالح إذاعة ABC News، برأسهــا إلى داخل المكتب الذي كنت أشغلـه بصفتي نائباً للسكرتير الصحفي، والذي كان يقع خلف المنصة في قاعة اللقاءات الصحفيــة، مباشرة أسفـل المنحدر حيث يتوضع مكتب السكرتـير الصحفي. ونظراً لأن المكتـب الصحفي السفلي كان متصلاً بشكل مريح بقاعــة اللقاءات الصحفية والأكشاك المتصلــة حيث كان الصحفيون التواقون إلى السبق الصحفي يعملون، فقد كانوا غالباً ما يمرون بي وبمساعِدتي الزميلة كلير بوكان، للحصول على تعليق أو معلومة. وكانت المواقع الرسميــة للصحافة – وهي عبارة عن ردهة فيها عدد مــن المكاتب الصغيرة التي هيئت من أجل مراسلي الشبكات والصحفيين الذين يستخدمون وسائل الاتصال السلكي، وكان يشغـل كلاً من هــذه المكاتب من اثنــين إلى أربعة من الصحفيين خلال أيــام العمل؛ كما كان هنــاك قبو يشغله صحفيون يعملـون في محطات الكابل، أو الإذاعة أو وسائل الإعلام المطبوعــة، وقاعة اللقاءات الصحفية نفسها في الأسفـل (لم يتم إعادة ترتيبها منذ مدة طويلــة) حيث يقبع طواقم التصوير وفنيو الصوت الذين يعملون لصالـح الشبكات ضيقة ولا تتمتع بأي قدر من الخصوصية؛ لذلك كان مكتبي مكاناً أفضل لتبادل الأحاديث.

كان دائمــاً مــن دواعي سروري التحدث إلى آن. بدت سعيدة جــداً بالدور الذي تؤديه كونها صحفية. كانت عضواً في الطاقم الصحفي في الحادي عشر من أيلول، وقامت بنقل مباشـر وحي لنشاط الرئيسـ في ذلك اليوم بدءاً من مغادرته لمدينــة ساراسوتا في ولاية فلوريدا على متن الطائرة الرئاسية، وانتهاء بعودته إلى واشنطن مساء اليوم نفسه.

في ذلــك اليوم مــن شهر حزيران، يونيــو، دخلت آن إلى مكتبــي لتسألني عن موضوع يتعلــق بالحــرب في العراق التي كانت قــد دخلت شهرها الثالث. ومــع الإعلان عن انتهاء

العمليــات العسكرية الكبرى، فقد بدأت قــوات التحالف تقوم بعمليات تمشيط، بعد ذلك الانتصار العسكري السهــل والسريع على جيوش صدام حسين. لكن الدكتاتور نفسه كان مــا يــزال طليقاً، كما تعرضــت كميات كبيرة مــن الأسلحة والذخائر التــي لم تكن عليها أي حراسة، للنهب والسلــب بعد وقوع الغزو، وبدأ العسكريون الأمريكيون يلاحظون وقوع هجمــات مفاجئة سريعة ومزعجة تتزايد يوماً بعد يوم تقوم بها مجموعات من المتمردين العراقيــين الذين تــزداد أعدادهــم باستمرار، خصوصــاً في المنطقة التــي تدعى المثلث السنــي. بــدأ التفاؤل الكبــير -وحتى الاحتفالي- يتراجــع أمام القلق بشــأن الاحتمالات المستقبلية حول العراق.

وعندمــا بدأ الحديث ينحو باتجاه موضوع أسلحة الدمار الشامل، كنت أكرر الموقف الثابت للبيت الأبيض في ذلك الوقت، والذي كنت أتفق فيه معه: «إننا واثقون أن أسلحة الدمــار الشامل سوف يتــم اكتشافها في النهاية. فالمفتشون مــا زالوا في المراحل الأولى من عملهم».

كانــت ردة فعل آن غايةً في الوضوح. فقد أكدت بكل ثقة «أنهم لن يجدوا أي أسلحة. ولــو كانت هــذه الأسلحة موجــودة فعلاً، لكانــوا اكتشفوها قبــل الآن». تحدثت بأسلوب مملــوء بالثقة باعتبــار أنها صحفية عملــت في واشنطن لفترة طويلة كانــت كافية لكي تتوقع طبيعة نهاية هذه القصة.

شعــرت بالاضطراب لبرهــة وجيزة؛ ولكن بعــد أن غادرت آن مكتبــي، أخذت معها هــذه الحقيقة الصعبة التي واجهتنــي بها. فقد وجدتني أكرر في داخل رأسي من جديد وبسرعــة، النقاشات المنطقية التــي كنا نؤكدها على امتداد أيام حــول اقتناعنا بوجود أسلحــة دمار شامــل عند صدام، بالرغم من أن كشفها هــو في غاية الصعوبة - وكانت هــذه النقاشات تركز على تاريخه الذي يؤكد على امتلاكه لها واستعمالها، وعلى سجله المتلئ بخداع مفتشي الأمم المتحدة والاستهانة بذكائهم، وعلى التقارير المتماسكة التي قدمهــا محللون استخباراتيون ليس فقط من بيننا بل مــن بين حلفائنا أيضاً. كنا نذكر أنفسنــا بأن فريــق التفتيش على الأسلحــة الذي كان يطلق عليه وصــف مجموعة مسح

العراق، والذي كان يرأسه ديفيد كاي كان ما يزال يجوب في أميال من الوثائق الحكومية العراقيـة، ويقوم بترجمتها من اللغـة العربية، ويبحث في مواقع مكشوفة من البلاد بعد تلقـي معلومات حول عنابر تحـت الأرض ومواقع دفن محتملة لهـذه الأسلحة المراوغة. كان صـدام حسـين حاكماً مراوغاً ممتلئـاً بنَفَس التحـدي، وكان يتلاعب بالمفتشين في الصحراء على امتداد سنوات.

لجملةِ هذه الأسباب، كانت الشكوك ما زالت تنتابنا بشأن وجود هذه الأسلحة. وكانت هـذه النقاشات نفسها التي استمر بعضهـم منا في طرحها في الأشهر اللاحقة - بالرغم من أننا بدأنا في نهاية المطاف بالتأكيد على وجود «برامج» لأسلحة الدمار الشامل بدلاً من وجود أسلحة الدمار الشامل، في الوقت الذي بدأ فيه عدد متزايد من الناس خارج دائرة البيت الأبيض يعتقدون أن المسوغ الرئيس للغزو خرج بشكل فج عن مساره الأصلي.

لكـن كلمـات آن كومبتون كانت تطـاردني في أعماق داخلي. وكانـت تجول في خاطري عندما قمت برفقة كارن هيوز ، المستشارة السابقة للرئيس، بزيارة مكتبي الجديد، وذلك في اليوم الأول لاستلامي منصب السكرتير الصحفي للبيت الأبيض.

التقيـت بـكارن بالمصادفة بعد وقت قليـل من انتهائي من لقائـي الصحفي الأول في منصبي الجديد. قالت وابتسامة تعلو وجهها: «استمعت إلى جانب من تصريحك؛ كيف كان شعورك؟»

أجبت: «أظن أن الأمر مر بسلاسة، بشكل عام». كنا قد تورطنا في اللغط الذي سببته الكلمـات السـت عشرة التي تلفـظ بها الرئيس في خطابه حول حـال الاتحاد - تبين فيما بعد أنه لا أساس له - من أن العراق حاول الحصول على مواد لصنع الأسلحة النووية من أفريقيا. في ظل هذه الظروف، ونظراً لأن الطاقم الصحفي في البيت الأبيض أضحى أكثر جـرأة في تحديه للبيت الأبيض، تبين لي أنه لن يكـون هناك مرحلة شهر عسل للسكرتير الصحفـي الجديد. لكـن الصحفيين المجتمعـين في البيت الأبيض أبـدوا بعض التساهل تجاهي في اليوم الأول لاستلامي المنصب الجديد. فقد كانوا يعرفون أن لديهم الكثير من الفرص للقيام بهجمات لفظية عليّ في الأشهر اللاحقة.

عقبت كارن قائلة: «بدوتَ مرتاحاً هناك من على المنصة».

قلـت: «شكراً لك. لم تسنح لنا الفرصة للتحـدث إلى بعضنا بعضاً منذ مدة. إذا كان لديك القليل من الوقت، فإنني أود القيام بزيارتك وسماع آراءك حول هذه الوظيفة».

قالت: «بالتأكيد، فباستطاعتي أن أنزل إليك في مكتبك بعد قليل».

كانت كارن قد استقالت من موقعها كمستشارة للرئيس منذ أكثر من سنة، أي في شهر حزيـران، يونيو، سنة 2002 بسبب الإنهاك الشديد الـذي ألمّ بها جراء قضائها ساعات عمـل لا عـدّ لها في البيـت الأبيض، وبسبـب توقها لقضـاء وقت أطول مـع زوجها وابنها المراهـق، روبرت. كانت مـا تزال تعمل بدوام جزئـي مستشارةً للرئيسـ، ولخليفتها دان بارتليـت ، وبعض كبار موظفي البيت الأبيض، حيث كانت تأتي إلى واشنطن مرة كل عدة أسابيـع للمشاركة في مناقشات الصورة العامة للإستراتيجية. ومع قرار الرئيس ترشحه لإعادة انتخابه، فقد بدأنا نراها في أغلب الأحيان.

جلسنـا إلى طاولة المؤتمرات المستديرة في مكتبي، قـرب المدفأة. خارج النافذة، كان المدخـل في نهاية الممر المـؤدي إلى المدخل الرئيس للجناح الغربي، حيـث كان أحد أفراد المارينـز يحرسه ببذلته الزرقاء. كانت أربع شاشات تلفزيونية من حجم ثلاثة عشر إنش تومض بصمـت على أحد الجدران، مبرمجة بشكل نمطي على ثلاث من محطات الكابل الإخبارية بالإضافة إلى محطة C-Span، ما عدا بعض أيام العمل في عطلة نهاية الأسبوع عند بـث برنامج رياضي بعنـوان Texas Longhorns على محطـة C-Span، أو على أي محطة أخرى تبث بعض البرامج الخفيفة. إزاء جدار آخر، كانت تقبع أريكة مريحة تحت صـور كبـيرة للرئيس - واحدة منها له وهـو يزور إحدى الوحـدات العسكرية، وأخرى في احتفـال لإحياء ذكرى أحداث الحـادي عشر من أيلول، وصورة ثالثـة يشارك فيها والده الضحك في أول لحظة ولجا فيها عتبة المكتب البيضاوي بصفتيْ الرئيس والرئيس السابق يوم حفل توليه المنصب سنة 2001.

قامـت كارن مباشرة بتوجيه أهم نصائحها لي. كانت تلك النصيحة تتعلق بمسألة المصداقيـة. قالـت: «إن أهم ما يجب عليك القيام بـه في رأيي، هو التأكد من احتفاظ

الرئيس بمصداقيته أمام الشعب الأمريكي، فهي واحدة من أعظم مظاهر قوته. الشعب يثق به؛ ولذلك يجب أن تبقى نسبة مؤيديه بسبب صدقه وجدارته بالثقة عالية جداً في استطلاعات الرأي.

وتابعت قائلة: «أظن أن لديك فرصة حقيقية كي تكون سكرتيراً صحفياً مؤثراً للغاية. فالصحافة تحبك. وهم يعرفون أن بإمكانهم الوثوق بك، وإذا أحسنت إدارة عملك بالشكل الذي أنت قادر على القيام به، فسيذكرك التاريخ على أنك مايك ماكري آخر».

كان هذا بمثابة إطراء مُرْضٍ ذي نَفَسٍ حزبي. فمايك ماكري كان السكرتير الصحفي لبيل كلينتون، والذي بقي في هذا المنصب أكثر من أي شخص آخر. أكثر من ذلك، فقد استطاع أن يبني لنفسه سمعة شخصية قوية ويحافظ عليها مستنداً في ذلك إلى مصداقيته بين صحفيي البيت الأبيض، وفي دوائر واشنطن بالرغم من أنه كان يقوم بعمله في وقت كان التأييد للرئيس على الصعيد الشخصي، وما أثير حول سمعته فيما يتعلق بأمانته يتناقص بسبب ما كشف عن مغامراته الخاصة.

لكن امتناني لكلمات لكارن كان يشوبه القلق. ذلك أنه لم يكن بوسعي نسيان تعليقات آن كومبتون قبل أسبوعين. ولم يحدث أي شيء منذ ذلك الوقت يمكن أن يؤدي إلى تحسين الأمور. وكما تكشفت الأمور شيئاً فشيئاً، فإن المنطق الرئيس الذي سوغنا خوض الحرب ضد العراق على أساسه يمكن أن يكون خاطئاً كلياً. كنت أعلم أنه سوف يكون من الصعوبة بمكان إزالة التوتر الناجم عن ذلك، أو تخفيف المشاحنات التي ستحصل في قاعة اللقاءات الصحفية. فاللغط الناجم عن الكلمات الست عشرة كان مؤشراً أولياً، وسوف يستمر تأثيره مستقبلاً. وهكذا وجدتني أرى، وبشيء من الحزن، أن آري انسحب في الوقت المناسب - حتى أنني مازحته حول هذه النقطة. قلت له: «لقد اخترت الرحيل في الوقت المناسب».

لم تكن الكارثة قد ظهرت بعدُ في الأفق. فعلى المدى القصير، كانت غالبية الناس تنظر إلى الانتقادات المتصاعدة للرئيس ككتلة كبيرة من الملح. فقد كانت الانتخابات تلوح في الأفق، وكان الناخبون يعرفون أن لغة الخطاب الرنانة ستكون أكثر حرارة. عندما يحس

الناخبـون أن هجمـات كهذه ليست أكثر مـن محاولة حزبية لتمريـغ الخصم في الوحل، فإنهم يميلون إلى عدم الخضوع لتأثير مثل هذه الهجمات محجمين عن إطلاق أي أحكام إلى أن يتحققـوا مـن صحة الانتقـادات. كما أن الكثيريـن من الأمريكيـين الذين بدؤوا يتقبلـون فكرة أنه لن يتـم العثور على أسلحة الدمار الشامـل في العراق، كانوا ما يزالون علـى موقفهم الداعم بقوة للحرب - على الأقل حتى الوقت الحاضر. كانوا يقولون بشيء مـن اللا مبـالاة: «لقد خدع صدام بوش؛ وماذا في ذلك؟ لقد خدع الجميع أيضاً. وهذا لا يغير حقيقة أنه كان قاتلاً متوحشاً ودكتاتوراً. إنه لأمر حسن أن يتم التخلص منه».

لكن العوامل التي صبت في صالحنا على المدى القصير لم تكن كذلك على المدى الطويل. فاستطلاعـات الـرأي المؤيدة لنا حجبت الرؤية عن بصائرنـا. فقد افترضنا أن صبر الناس علـى الرئيس، وعلى الحرب سـوف يستمر ما دمنا مستمرين في إظهـار أننا نحرز تقدماً في مسألـة تحقيق الديمقراطية في العراق. لكن الأعـداد المتزايدة باطراد من القتلى والجرحى في صفوف الجنود الأمريكيين كانت تثبت كم كنا على خطأ. لقد أدى نجاحنا في الوصول إلى ما وصلنا إليه بسبب احتكارنا للتأييد الشعبي واستخدامه لصالحنا - وتجلى ذلك في حملتنا الدعائيـة السياسية لتسويق الحـرب - إلى جَعْلِنا نفترض أن المقاربة نفسها سوف تستمر في خدمـة مصالحنا، وستساعدنا في التغلب على أي تحديـات مستقبلية. لقد كان من الصعب، ونحـن على أعتاب حملة إعـادة الانتخاب، تغيير النهج الذي سرنا عليـه بسبب ابتعادنا منذ البدايـة عـن ممارسة مقاربة واضحة وصريحـة في تحضيرنا للحرب، سـواء أكان ذلك عن قصد أو عن غير قصد.

كان الخطأ الأكبر الذي ارتكبته باعتباري سكرتيراً صحفياً يتجسد في عجزي عن الوقوف في وجـه هـذا النوع من التفكير المتجـذر في البيت الأبيض في عهد بوش. ولكـن عندما أعود بالذاكرة إلى الوراء، يتبين لي أنه كان من الصعوبة بمكان بالنسبة لي القيام بذلك. فالأوراق التـي كان عليّ أن ألعبهـا كانت مكشوفة حتى قبل أن أقبل القيام بهذه الوظيفة، وهذا يعني أن النتيجـة غير المرضية لسنوات عملي كسكرتير صحفـي كان مقدراً لها أن تكون كذلك، وذلك منـذ اللحظة التي خطوت فيها تلك الخطوة باتجـاه المنصة للمرة الأولى في صباح ذلك اليوم من شهر تموز، يوليو.

ومهما يكن نوع تلك القوة المؤثرة خلف الطبيعة القتالية والسرية والباطنية للبيت الأبيض في عهد بوش، فإن بناءها كان قد أسس له بقوة في الوقت الذي طلب إلي أن أكون السكرتير الصحفي. وكان بإمكاني التأكد حينها أنه من غير الممكن أن تتغير بشكل ملحوظ أثناء مدة توليتي لهذا المنصب، خصوصاً وأن حملة إعادة الانتخاب كانت على الأبواب. لم يكن ذلك هو الوقت المناسب بالنسبة إلى أي شخص للقيام بإجراء أي تغييرات على واقع الحال. وفي النهاية، قررت قبول المنصب بسبب المحبة التي أكنها للرئيس، والالتزام بالخدمة العامة، وبسبب اقتناعي بأن هذه هي فرصة العمر بالنسبة لي.

ونظراً إلى أنني كنت قد استسلمت للقيود والصعوبات المتلازمة مع طبيعة منصب السكرتير الصحفي في البيت الأبيض في عهد بوش، فقد ساورتني الشكوك بأن هناك ثمناً لا بد من دفعه. وفي الوقت الذي لم أكن أعرف بالضبط ما هو هذا الثمن، فإنه لم يدر في خلدي أن هذا الثمن سيكون باهظاً جداً. كما أنني لم أتوقع أن تكون بعض الدروس المستقاة من هذا المنصب الجديد مؤلمة بهذا الشكل.



10

الإنكار

كانت هوية عميلة المخابرات المركزية الأمريكية قد تسربت قبل أيام وأسابيع من استلامي منصبي الجديد سكرتيراً صحفياً للبيت الأبيض في الخامس عشر من شهر تموز، يوليو، سنة 2003. بعد سنتين على حدوث ذلك، بدأت أعرف من كان متورطاً في عملية التسريب تلك؛ وبعد انقضاء تسعة أشهر على ذلك التاريخ، اطلعت على المعلومات الصادرة عن تقويم الاستخبارات الوطنية التي تم الكشف عن سريتها - في الوقت نفسه، كانت وسائل الإعلام الإخبارية تكشف عن هذا الموضوع للعالم أجمع.

من الصعب على كل من ليس ملماً بطبيعة الحياة في واشنطن، أن يستوعب العالم المنغلق للبيت الأبيض في عهد بوش. لكن كبار مستشاري الرئيس كانوا يعتقدون أن هناك أسباباً وجيهة تستدعي إبقاء طبيعة الحملة ضد جو ويلسون طي الكتمان. فالرئيس ومن حوله كانوا متفقين على أنه من الضروري في بيئة مثل بيئة الحملة الدائمة في واشنطن، إبقاء الرئيس دائماً محصناً ضد الجانب المقيت للسياسة، أو أي سقطات محتملة ناجمة عنها. وعليه أن يبقى مترفعاً عن أي مشاجرة، وغير متورط في أي مشاحنات عدائية مكشوفة بين مستشاريه. وقد تعمد أن لا يعرف إلا أقل القليل عن التكتيكات التي يستخدمونها.

لهذا السبب، فإن السؤال الشهير الذي طرحه هوارد بيكر في حقبة ووترغيت: «ماذا كان الرئيس يعرف، وما الذي فعله حيال ذلك؟» لا يدخل في السياق المتصل بالحكم على السلوك الأخلاقي لإدارة بوش، أو في حقيقة الأمر، لأي إدارة حديثة أخرى سبقتها. فقد انتبه أفراد طاقم البيت الأبيض إلى أهمية حماية الرؤساء من معرفة ما قد يجرّمهم. في ظل هذه الظروف، يمكن أن لا تكون حقيقة أن الرئيس «لم يكن يعلم» دفاعاً ذا معنى، بل مجرد حقيقة مؤسفة أخرى حول الكيفية التي تتم فيها الأمور في واشنطن.

في شهر حزيران، يونيو، سنة 2003، بدأت الحملة للنيل من مصداقية جو ويلسون منتقداً لاستخدام البيت الأبيض المخابرات لدعم فكرة شن الحرب. وكما تمت الإشارة سابقاً، كان نيكولاس كريستوف قد نشر تعليقاً في صحيفة نيويورك تايمز أشار فيه إلى مصدر لم يكشف عن هويته (تبين لاحقاً أنه جو ويلسون) يتهم فيه إدارة بوش بتجاهل الدليل الذي يضع بعض ادعاءاتها حول أسلحة الدمار الشامل العراقية محل تساؤل. كما نشر والتر بينكوس، وهو صحفي كان يعمل لمدة طويلة في صحيفة واشنطن بوست رواية لاحقة لتقصي الحقائق، قدم فيها تفاصيل تتناقض مع المقالة الأحادية الجانب عن النيجر، والتي نشرها كريستوف، في الوقت الذي استمر في التشكيك بمصداقية الإدارة حول الموضوع الأشمل المتعلق بالتقارير الاستخباراتية قبل الحرب.

في أوائل شهر حزيران، وفي الوقت الذي كان ما يزال يجري تحريات عن مضمون ما كتبه كريستوف، اتصل بينكوس بكاثي مارتن المشرفة على مكتب اتصالات نائب الرئيس. ذهبت مارتن إلى سكووتر ليبي لمناقشة ما كان بينكوس يتحسسه من معلومات. كان نائب الرئيس وليبي يُصَعّدان بهدوء حملتهما لمجابهة مزاعم الموفد إلى النيجر المجهول الهوية؛ وكانت رواية بينكوس فرصة ثمينة لهما للقيام بذلك. أملى نائب الرئيس على ليبي النقاط التي عليه التحدث حولها، وهو بدوره استخدمها عندما كان يجيب على أسئلة بينكوس.

في الثاني عشر من شهر حزيران، يونيو، سنة 2003، تحت عنوان «وكالة المخابرات المركزية لا توافق على الشكوك المثارة حول البيانات بشأن العراق»، نشر بينكوس أنه بينما فندت البعثة التي أوفدتها وكالة المخابرات المركزية إلى النيجر المزاعم بشأن مسألة اليورانيوم والتي استخدمها الرئيس في خطابه حول حال الاتحاد، فإن هذه المعلومات لم تصل أبداً إلى المسؤولين في البيت الأبيض. وبدلاً من ذلك، أخفقت وكالة المخابرات المركزية «في إطلاع أي جهة على ما كانت تعرفه»، ومن ثم فقد ساعدت في «إبقاء رواية اليورانيوم حية» إلى حين إلقاء البرادعي تقريره في مجلس الأمن الدولي. كتب بينكوس أن وكالة المخابرات المركزية.

لم تذكر تفاصيل كان قد تضمنها تقرير السفير السابق، أو تكشف عن هويته مصدراً للمعلومات، وهو ما كان سيدعم مصداقية ما اكتشفه، وذلك في تقاريرها الاستخباراتية التـي تتقاسمهـا مع منظمـات حكومية أخرى. بـدلاً من ذلك، لم تذكـر وكالة المخابرات المركزية سوى أن المسؤولين في حكومة النيجر أنكروا أن تكون صفقة مثل هذه قد عقدت، كما ذكر أحد كبار المسؤولين في الإدارة.

ذكَّـرَ «أحـد كبار المسؤولين في وكالـة المخابرات المركزية» لم يشـأ الإفصاح عن هويته بينكوس بأن التقرير الاستخباراتي بشأن اليورانيوم «لم يكن سوى واحد من العوامل التي أدت إلى شن الحرب. كانت هناك أسباباً أخرى عديدة». لكن «أحد كبار المحللين في وكالة المخابـرات المركزية» أشار إلى أن مسألة اليورانيوم برمتها من الزاوية الأشمل، «تدل على وجود مشكلات أكبر» فيما يتعلق بالاستخبارات حول برامج الأسلحة الكيميائية والبيولوجية والنوويـة في العـراق، بالإضافة إلى ما نسب عن علاقته بالقاعدة. أشار هذا المحلل أنه في معرض التمهيد لشن الحرب على العراق «تم إهمال معلومات لا تتفق مع أهداف الإدارة، كما لم يتم التدقيق بشكل جدي في معلومات أخرى [تتفق] مع موقف الإدارة».

صـب عمود الرأي الذي كتبه بينكوس الزيت على نـار اللغط المتزايد. حتى وهو يشير إلى أن البيت الأبيض لا يتحمل أي مسؤولية فيما يتعلق بالمزاعم بشأن النيجر، فإنه كرس الاعتقـاد الذي بـدأ بالانتشـار أن مزاعم الإدارة حـول أسلحة الدمـار الشامل العراقية استنـدت إلى معلومات استخباراتية مزيفة، بـل وأسوأ من ذلك، فقد تعمدت الإفراط في مبالغتها حول هذه المسألة من أجل تضليل الأمة التي ساقتها إلى الحرب.

في هذا الجو من اللغط المتزايد - ومع عدم اكتشاف أي أسلحة دمار شامل في العراق - فـإن مصدر المعلومات المجهول الهوية الذي أشار إليه كريستوف، وهو جو ويلسون، قرر الخروج إلى العلن.

في الأحـد الواقـع في السادس من شهر تموز، يوليو، نشر ويلسون في أحد أعمدة الرأي في صحيفـة نيويورك تايمز مقـالاً بعنوان: «ما الذي لم أعثر عليـه في إفريقيا». اتهم فيه

بشكل لا لبس فيه الإدارة في أنها استغلت المخابرات حول برنامج الأسلحة النووية في العراق لتسويغ العمل العسكري الذي قامت به وذلك عبر المبالغة أو الإفراط في توصيف هذا التهديد.

بعد إجرائه العديد من اللقاءات مع مسؤولين حكوميين حاليين وسابقين، ومع أشخاص لهم علاقة بتجارة اليورانيوم في النيجر، كتب ويلسون في صحيفة التايمز ما يلي: «لم يستغرقني الكثير من الوقت قبل أن أصل إلى الاستنتاج أن من المشكوك فيه جداً أن تكون قد تمت أي صفقة في هذا الشأن على الإطلاق». كما ذهب إلى أبعد من ذلك عندما عبر «عن الثقة المطلقة» بأن المعلومات التي «قدمها قد تم إيصالها إلى المسؤولين المعنيين في حكومتنا».

وفي معرض تساؤله عن الكيفية التي وظفت فيها «قيادتنا السياسية» هذه المعلومات قال ويلسون أنه «إذا كانت المعلومات قد تم تجاهلها لأنها لم تُرْضِ بعض أصحاب الآراء المسبقة الصنع حول العراق، فإن من المنطقي القول إننا خضنا الحرب بناء على ادعاءات زائفة».

في ذلك اليوم نفسه، وأثناء مقابلة مع مقدمة برنامج «واجه الصحافة» أندريا ميتشيل، أكد ويلسون أنه «مقتنع تماما» بأن مكتب نائب الرئيس تلقى «إجابة محددة جداً» مبنية على نتائج رحلته لأن هذا هو «الإجراء العملياتي المعياري» في حال إثارة مثل هذا السؤال من قبل مكتب رفيع المستوى كمكتب نائب الرئيس.

وفي معرض إبداء قناعته أن الإدارة كانت تعرف بشكل لا يقبل التأويل بأن المعلومات حول مسألة اليورانيوم كانت خاطئة، إذا كان الأمر يتعلق بالنيجر تحديداً، فإن ويلسون أشار إلى أن هذه الإدارة استخدمت هذا الموضوع بطريقة انتقائية بشكل يتماشى مع تقارير استخباراتية أخرى وذلك «لدعم قرارها» خوض الحرب، وهو القرار الذي كان قد تم اتخاذه سلفاً، وأن استخدام موضوع أسلحة الدمار الشامل لم يكن سوى ذريعة استخدمت «كغطاء» لأسباب أخرى كانت هي الدافع لغزو العراق.

حَوّلَ أداء ويلسون بقعة الضوء باتجاه الاتهام الذي وجهه كريستوف ومنتقدون آخرون من أن إدارة بوش قد ضللت عن عمد الشعب الأمريكي. كما أثار ذلك حنق نائب الرئيس؛

وزود وسائل الإعلام الوطنية بمادة دسمة للغط، بما في ذلك شخصية براقة تجيد فن الكلام، وجاهزة كي تلقي اتهامات تفجيرية في وجه كبار المسؤولين.

كان توقيت هجوم ويلسون سيئاً بالنسبة لإدارة بوش. فقد كان ضمن برنامج الرئيس القيام بجولة دبلوماسية مهمة إلى إفريقيا (من المفارقة أنها القارة التي انطلق منها اللغط حول مسألة اليورانيوم). أكثر من ذلك، كان النصف الأول من شهر تموز، يوليو، المرحلة الانتقالية لنقل صلاحيات آري فليشر لي كسكرتير صحفي للبيت الأبيض. ولكننا كنا نعرف جميعاً أنه ليس بمقدور الرئيس دائماً اختيار كيف ومتى يتعامل مع مثل هذه الأمور. في بعض الأحيان، تفرض عليه الأحداث التي تقع خارج سيطرته مواجهتها في أوقات غير مناسبة. وكان هذا واحد من تلك الأوقات غير المناسبة.

وحيث إن الرئيس كان سيغادر واشنطن صباح الاثنين ذاك، فلم يكن هناك من مجال إلا إلى لقاء صحفي واحد في البيت الأبيض، على شكل حوار بعيداً عن أعين الكاميرا. إلا أن مقالة ويلسون المتزامنة مع أسئلة ملحة طرحتها الصحافة صبيحة ذلك اليوم، ستدفع بالبيت الأبيض إلى الاعتراف بارتكاب خطأ جسيم - وهو شيء نادر الحدوث بالنسبة إلى أي إدارة، خصوصاً بالنسبة إلى إدارة بوش.

حاول آري فليشر خلال الدردشة مع الصحفيين بعد أن زوده مكتب نائب الرئيس بنقاط الرد، تصوير مقالة ويلسون على أنها لم تقدم ما هو جديد باستثناء الكشف عن هوية المندوب الذي أوفد إلى النيجر. كما خالف فليشر فكرة أن تشيني وآخرين في الإدارة كانوا قد أحيطوا بالمعلومات التي عاد بها ويلسون. قال فليشر: «لم يطلب مكتب نائب الرئيس منه القيام بمهمة في النيجر؛ ولم يتم إعلام مكتب نائب الرئيس عن مهمته، كما أنه لم يكن على اطلاع على مهمة السيد ويلسون» إلا بعد أن تم نشرها في وسائل الإعلام مؤخراً.

لكن فليشر فجّرَ قنبلة صغيرة من غير قصد: «لقد اعترفنا منذ مدة طويلة - وهذا ليس خبراً جديداً لأننا قلناه مراراً وتكراراً - أن المعلومات التي وردت حول «الكعكة الصفراء» تبين أنها في الواقع معلومات خاطئة». ما قاله فليشر كان أبعد ما يكون عن وصفه « بمعلومات قديمة» بالنسبة لأولئك الذين يتابعون هذه القضية عن كثب.

صحيح أنه ومنذ الخطاب حول حال الاتحاد في شهر كانون الثاني، يناير، اعترفت وكالة المخابرات المركزية علناً أن التقرير الاستخباراتي حول قضية النيجر استند إلى معلومات غير صحيحة ومضللة. لكن فليشر يبدو الآن وكأنه يشير وللمرة الأولى أن كلمات الرئيس الست عشرة في خطابه حول حال الاتحاد استندت بشكل رئيس إلى وثائق النيجر. حتى تلك اللحظة، كان البيت الأبيض يصر على أن الرئيس استخدم لغة التعميم بشكل متعمد بحيث تتضمن دولاً إفريقية أخرى بالإضافة إلى النيجر.

التقط الصحفيون هذا الخيط الرفيع، وأمطروا فليشر بوابل من الأسئلة. وبعد تلقيه للعديد من أسئلة من الصحفيين وعلى رأسهم الصحفي المخضرم ديفيد سانغر من صحيفة نيويورك تايمز، انسحب فليشر بهدوء قائلاً إنه سوف يصدر بياناً يتضمن «الإجابة الدقيقة حول التصريح بإطاره العام فيما يتعلق بالخطاب» في وقت لاحق من ذلك اليوم. كان اعترافه بأن ما قاله الرئيس كان خطأ عد بحد ذاته خبراً مهماً، وكان لا بد من مناقشته من قبل كبار المستشارين، وموافقة الرئيس عليه.

جرت الكثير من المناقشات طيلة ذلك اليوم بين مستشاري الرئيس حول الاعتراف بما كان واضحاً أو إنكاره. كانت كوندوليزا رايس مستشارة الأمن القومي من بين أكثر المتحمسين للإقرار بهذا الخطأ، وقد وافق الآخرون على وجهة نظرها. أعلن البيت الأبيض بعدها أن «هناك تقريراً آخر يشير إلى أن العراق حاول الحصول على اليورانيوم من إفريقيا؛ إلا أن هذه المعلومات غير تفصيلية وغير محددة لدرجة تجعلنا متأكدين أن محاولات مثل هذه قد تمت بالفعل». لم يكن تقويم الاستخبارات الوطنية حول أسلحة الدمار الشامل في العراق قد نزعت عنه السرية رسمياً بعد، ولم يكن قد وضع بعد قيد التداول العام (بالرغم من أنه، كما علمت لاحقاً، تم نزع صفة السرية عنه بشكل سري كي يطلع عليه نائب الرئيس). وبالرغم من أن دولتين إفريقيتين أخريين قد تم ذكرهما في تقويم الاستخبارات الوطنية على أنهما مصدران محتملان لتزويد العراق باليورانيوم، فإن التقرير الاستخباراتي المحدد والمفصل والوحيد المتعلق بالمحاولات العراقية للحصول على اليورانيوم من إفريقيا كان يشير فقط إلى النيجر، وكان واضحاً أن هذا هو المستند الرئيس الذي انبثقت منه كلمات الرئيس الست عشرة.

نُسِبَ إلى «مسؤولين كبار «بعد حصولهم على إذن من الرئيس أنهم يدققون في مسألة التراجع هذه. نشر والتر بينكوس في صحيفة واشنطن بوست خبراً بعنوان «البيت الأبيض يتراجع عن مزاعمه بشأن المشتريات العراقية»، وتضمن هذا الخبر الاقتباس الآتي: «بعد أن اطلعنا على ما بتنا نعرفه الآن، فإن الإشارة إلى محاولة العراق الحصول على اليورانيوم من إفريقيا، كان يجب أن لا تكون ضمن الخطاب الذي ألقي عن حال الاتحاد». نقلت صحيفة نيويورك تايمز أيضاً تصريحاً لمسؤول كبير قوله: «لم يكن بإمكاننا إثبات ذلك، ويمكن أن نكون في واقع الأمر على خطأ».

كان هذا هو الاعتراف العلني الأول بأنه كان على الرئيس أن لا يذكر شيئاً عن المزاعم بشأن اليورانيوم في خطابه عن حال الاتحاد، وأن المعلومات التي بنيت عليها تلك المزاعم كانت ناقصة وغير دقيقة. الجميع في البيت الأبيض كان يأمل أن يساعد هذا الاعتراف في وضع الكلمات الست عشرة وراء ظهورنا. لكن الحقيقة كانت عكس ذلك.

كان من المفترض بي كوني نائباً للسكرتير الصحفي أن أكون ضمن الطاقم الصحفي الموسع التابع للبيت الأبيض المرافق للرئيس في رحلته إلى إفريقيا على متن طائرة مستأجرة. ولكن بما أن آري كان على وشك ترك منصبه، قررت بدلاً من ذلك أن أقوم ببعض التحضيرات لوظيفتي الجديدة. وهكذا، فبينما بدأ اللغط يزداد اتقاداً، والرئيس في طريقه إلى إفريقيا، منحت نفسي إجازة قصيرة لتصفية ذهني وللحصول على نصائح من بعض أسلافي الذين شغلوا هذا الموقع في الإدارات السابقة، وتلقي آراء من كبار المديرين في مجلس الأمن القومي حول أولوياتهم فيما يتعلق بالسياسة الخارجية. ونظراً إلى أن خلفيتي المهنية كانت بالأساس في مجال الاتصالات والعمل السياسي في ولاية تكساس وليس في مجال السياسة الخارجية فقد كنت أرغب في التعرف عن كثب على أكثر المناطق أهمية في الخارج، مولياً أهمية استثنائية لأكثرها سخونة.

كنت على علاقة وطيدة بكوندي رايس وبنائبها ستيفن هادلي؛ ذلك أن الاجتماعات تساعد في التأسيس لعلاقات جيدة، وكذلك لتقويتها مع العاملين في مجلس الأمن القومي الذين كنت أستطيع الاعتماد على خبراتهم وقت الحاجة.

ثبت لي أن محاولاتي لتعليم ذاتي آتت أُكُلَها. ولكن في الوقت نفسه، كان اللغط الناجم عن موضوع النيجر الذي وصل إلى مستوى مقلق، قد بدأ بالاتساع. ففي واشنطن، لا يكفي أبداً أن تعترف بالخطأ. فالصحافة تنتقل بعدها إلى إثارة أسئلة مرتبطة بهذا الخطأ: كيف حدث هذا الخطأ؟ من كان المسؤول عن هذا الخطأ؟ ما هي عواقب هذا الخطأ؟ لا تتوقف هذه الأسئلة حتى يشعر وحش وسائل الإعلام المتضور جوعاً بالرضا في أنه اصطاد كل الحقائق.

وحالما انتشر الخبر في أرجاء المعمورة، كان فريق طوني بلير يستشيط غضباً بشكل سري من البيت الأبيض. كانت الحكومة البريطانية - التي قدمت دعماً هائلاً لبوش في العراق - تؤكد على صحة المزاعم بشأن قضية النيجر، قائلة إن استخباراتها كانت تستند إلى معلومات لا علاقة لها بالوثائق المزورة. وهذا ما جعل من تراجع البيت الأبيض إحراجاً شديداً يمكن أن يدفع الصحافة إلى القيام بهجوم لاذع على رئيس الوزراء طوني بلير في المدى القريب.

أبقى الديمقراطيون على هذا اللغط في حال من الغليان حيث طالبوا بفتح تحقيق في الكونغرس حول هذه المسألة. سأل كارل ليفن العضو الممثل للأقلية في لجنة القوات المسلحة كيف أصبحت المزاعم المزيفة حول اليورانيوم جزءاً من القضية التي دفعت باتجاه الحرب، كما أشار تيد كينيدي إلى أن ذلك كان «خداعاً مقصوداً». وسواءً كانت هذه الانتقادات تمثل تعبيراً عن قلق مشروع، أو أنها كانت مجرد مطية لمكاسب سياسية فإن هذه الجهود التي بذلوها لزيادة الشكوك حول البيت الأبيض كانت تمثل جزءاً طبيعياً من الحرب الحزبية المستمرة التي وعد الرئيس بوش بوضع نهاية لها. والآن، فالطريق التي اختارها الرئيس لتسويق الحرب للشعب الأمريكي، وتردده في مناقشة كيف تمت هذه المسألة برمتها بانفتاح وبصورة مباشرة، أظهرا بما لا يقبل الشك أنه لن يلتزم بالوعد الذي قطعه.

غطى اللغط حول قضية اليورانيوم على رحلة بوش إلى إفريقيا، بما في ذلك جهوده لزيادة تمويل الإغاثة بمعدل ثلاثة أضعاف من أجل محاربة مرض نقص المناعة المكتسبة،

والملاريا، وإعطاء الأفارقة الأمل عبر تشجيع التنمية. كان كل ذلك مؤشراً على ما يحمله المستقبل، ذلك أن إدارة بوش ستجد أن اللغط المستمر حول العراق سوف يلقي بظلاله على إنجازاتها كلها.

※※※

رد البيت الأبيض بهجوم معاكس ضد منتقديه في وسائل الإعلام والكونغرس على عدة جبهات. ففي معرض محاولة البيت الأبيض الدفاع عن نفسه ضد الاتهامات التي كيلت له بممارسة سوء الأمانة، والتي أطلقها عليه جو ويلسون، قاد نائب الرئيس تشيني وأركانه حملة البيت الأبيض للنيل من مصداقية جو ويلسون نفسه. فمن الزاوية الأشمل، حاول البيت الأبيض تمرير فكرة أن التقرير الاستخباراتي قد تم «طبخه» عبر إظهار أن وكالة المخابرات المركزية هي من أطلقته وأفسحت له الطريق نحو الظهور. فمعظم المراقبين - من منتقدي الحرب والمؤيدين لها، من ديمقراطيين وجمهوريين - اتفقوا على فرضية أن صدام كان يمتلك برنامج أسلحة دمار شامل. فقط الآن، وبعد ظهور الحقائق، فإن قيام بعض كبار المنتقدين، بالنأي بأنفسهم عما كانوا يعتقدون به سابقاً، واستخدامهم اللهجة الحزبية في هجومهم، اضطرنا إلى القيام بهذا الهجوم المعاكس.

لكن هذا الموقف لم يغلق الباب أمام السؤال الذي فرض نفسه على بساط البحث: كيف، ولماذا أخفقت استخباراتنا بهذا الشكل المريع حول العراق؟ وكيف للمزاعم حول صفقة النيجر التي اتضح أن لا مصداقية لها الآن، أن تحوّل الخطاب حول حال الاتحاد إلى أكثر الخطابات المدعاة للتدقيق على مدار السنة؟

في لقائها الصحفي مع فريق الصحفيين على متن طائرة الرئاسة المتوجهة إلى أوغندا في الحادي عشر من شهر تموز، يوليو، أمطرت كوندوليزا رايس بوابل من الأسئلة - بلغ عددها أربعين سؤالاً - حول «الكلمات الست عشرة» المشؤومة. وبينما نبهت أن البريطانيين ما زالوا متشبثين بموقفهم بشأن المزاعم حول صفقة اليورانيوم، وأن تقويم الاستخبارات الوطنية أشار إلى جهود بذلت «للحصول على الكعكة الصفراء من أكثر من دولة إفريقية»، وليس فقط من النيجر، أضافت رايس قائلة: «إن لنا معايير ذات مستوى

أعلـى لتضمينــه في خطابات الرئيس. فنحــن لا نتسبب في أن يكـون الرئيس شاهداً على نفسه. ولهذا السبب، نقوم بإرسالها من أجل تدقيقها».

سئلت رايس: هل صحيح أن وكالة المخابرات المركزية عبرت عن شكوكها حول المزاعم بشأن صفقة النيجـر للبيت الأبيض قبل الخطاب حول حال الاتحاد؟ أجابت رايس: «لقد قامـت الوكالة بتدقيق الخطاب من ألفه إلى يائــه؛ ولو قالت الوكالة، أو مديرها، احذفوا هـذا المقطع من الخطـاب، فسيتم حذفه من الخطاب؛ كان هذا الجزء سيختفي من دون أي مناقشــة. ومــا قلناه لاحقاً، هو أننا لو كنا نعرف حينها ما نعرفه الآن من أن بعضاً من وثائق صفقة النيجر مزورة بشكل واضح، ما كنا وضعنا هذه الجزئية في خطاب الرئيس». (اكتشفــت رايس بعد عــدة أيام على ذلك، أن مجلس الأمن القومي الذي تديره قد تحمل المسؤولية الرئيسة عن هذا الخطأ).

هــل كانت رايس تحمّل وكالة المخابـرات المركزية وزر الخطأ المتعلق بالنيجر؟ وذلك كــي تقوم بنقله بعض الصحف بعد ذلك اللقاء الصحفي - وهي محقة في ذلك. أنكرت رايســ أن يكون هذا هــو السبب. لكن وبعض مضي عدة ساعــات على ذلك، علّقَ جورج تينيــت، مدير وكالة المخابــرات المركزية اللوم على هذا الإخفــاق الاستخباراتي - بناء على طلب من البيت الأبيض. قال تينيت مظهراً ولاءه الذي سيساعد في إزاحة المسؤولية عن كاهل الرئيس ومَن حوله: «أتحمل المسؤولية عن عملية الموافقة التي أعطتها الوكالة التي أديرها».

هــل كان مــن الممكن رفع غطاء السرية عــن الجزئية المتعلقة «بالكعكــة الصفراء» في تقــويم الاستخبــارات الوطنية الصادر في شهــر تشرين الأول، أكتوبــر، وذلك كي يتمكن الشعــب الأمريكي من أن يحكم بنفسه حول ما إذا كانت الإدارة قد بالغت بشأنه؟ أجابت رايســ عن هذا السؤال، وكانت بذلك تعكس وجهة السياسة المعلنة، أن البيت الأبيض «لم يشــأ محاولــة الدخول في أي نوع من أنــواع رفع السرية بشكل انتقائــي، لكننا ننظر في ما يمكن أن يتوافر بين أيدينا». لم تكن رايس مطلعة حينها على حقيقة أن الرئيس بوش كان قــد وافــق على «رفع السرية بشــكل انتقائي» عن أجزاء من تقــويم الاستخبارات الوطنية

بشكل يمكن نائب الرئيس أو كبير مساعديه سكوتر ليبي من استخدامها لشرح موقف الإدارة إلى عدد من الصحفيين المختارين بشكل انتقائي.

لم تعجب قادة الجمهوريين في الكونغرس مشاهدة ذريعة الرئيس لشن الحرب يتهاوى في الوقت الذي يقترب موعد موسم الانتخابات سنة 2004. بعضهم رأى في تنطح تينيت لتحمل المسؤولية مسوغاً لكي ينئوا بأنفسهم - وبالرئيس الجمهوري - عن تحمل أي لوم بشأن ذلك. هاجم بات روبرتس، رئيس لجنة الاستخبارات في مجلس الشيوخ تينيت بشدة، وقد وصفته صحيفة نيويورك تايمز بأنه «قلق بسبب المعالجة القذرة جداً للمسألة منذ البداية من قبل وكالة المخابرات المركزية». كما عبر روبرتس عن استيائه من «حملة التسريبات الصحفية التي تقوم بها وكالة المخابرات المركزية في محاولة منها للنيل من مصداقية الرئيس"؛ وهي إشارة إلى مسؤولين في وكالة المخابرات المركزية يدافعون عن أنفسهم بشأن التقارير الاستخباراتية حول أسلحة الدمار الشامل العراقية عبر تلميحهم إلى أن صانعي السياسة قد حذفت بشكل انتقائي بعض ما جاء في التقارير الاستخباراتية بهدف جعل قضية الحرب أكثر قبولاً.

هذا الشجار كان سيجعل وكالة المخابرات المركزية التي تتمتع بحماية ذاتية تتنحى جانباً منتظرة بهدوء أخذ الثأر من البيت الأبيض. وكان من الممكن للانتخابات التي تلوح في الأفق أن تمثل بداية جيدة.

أحبت الصحافة هذا النوع من الشجار. هناك القليل من الأشياء التي يستمتع بها الصحفيون أكثر من تغطيتهم للغط الناجم عن الشجار الداخلي بين أفرقاء الإدارة، والفرصة التي يوفرها هذا الشجار للثرثرة وتصفية الحسابات ومكايد الأبواب الخلفية. وخلال أيام، ستكون هناك صدمة أخرى من قبل وسائل الإعلام تساعد في زيادة كثافة التغطية أكثر فأكثر.

هذه المرة، لم يكن أعضاء «الصحافة الليبرالية» هم من فجّر القنبلة، بل المعلق، والناقد، والصحفي المحافظ المعروف، الماكر، ذو الحاجبين الشبيهين بصرصارَين، روبرت نوفاك. ففي الرابع عشر من شهر تموز، يوليو، سنة 2003 وفي مقالة له بعنوان:

«مهمـة في النيجـر»، قـدم نوفـاك تحقيقاً عـن الكيفية التي رتبـت فيها مهمـة ويلسون، والاستنتاجـات التـي توصلت إليها. قبـل نهاية المقالة بقليل، تم الكشـف عن سرٍ كان من السهولة بمكان أن لا يوليه القارئ الاهتمام الكافي؛ لكن هذا السر بدأ يتدحرج ككرة الثلج باتجـاه التحقيق الذي تعهـدت وزارة العدل بإجرائه. كشف نوفـاك أن «ويلسون لم يعمل أبـداً لصالـح وكالة المخابرات المركزية، بل زوجته فاليري بليـم، التي تعمل بصفة عميلة للوكالـة في مجـال أسلحة الدمـار الشامل. ذكـر لي اثنان من كبار المسؤولـين في الإدارة أن زوجـة ويلسون هـي من اقترح إيفاده إلى النيجر للتحقيـق في تقرير إيطالي [حول بيع الكعكة الصفراء]».

كانـت الغاية من ذكر اسم زوجة ويلسون بالطبـع، أن تلغى من التداول فكرة أن نائب الرئيـس تشينـي هـو من قام بترتيب مهمـة ويلسـون إلى النيجر بشكل أو بآخـر. كما أن حقيقـة أن زوجـة ويلسون متورطة، تحمـل في طياتها نفحة من محابـاة الأقارب، وهو ما يوحـي بشعـور غامضـ أن في المهمة ما يدعـو إلى الريبة – كمـا لو أن ويلسـون قد أوفد مـن قبل زوجته «في رحلة ترفيهية» وهنـا أقتبس العبارة من خربشات على هامشٍ نسخته الخاصـة مـن العمود الذي كتبه ويلسون بخـط يد نائب الرئيس تشينـي نفسه، وليس أي شخص آخر.

لكـن ما سبّـبَ الانفجار الذي أحدثتـه مقالة نوفاك لم يكن الاتهـام باحتمال محاباة الأقـارب؛ بـل لأن اسم فالـيري بليم قد ظهر للمـرة الأولى في الصحافـة وبجانبه عبارة «عميلـة الوكالـة». لقد ساهم كشـف نوفاك عن موقع بليم بشكل غـير مقصود في تحويل اللغط الدائر حول قضية النيجر إلى فضيحة شاملة.

يعتـبر الكشف المتعمد لهوية العميلـة السرية في وكالة المخابرات المركزية (وهي بليم، بالرغـم مـن أن لغطاً حصل فيما بعد، حول هذه النقطة في الصحافة) لشخص يعمل في الصحافة مثلاً، ولا صلاحية لديه لمعرفته، بمنزلة جنحة. من الواضح أن نوفاك لم يقدر خطـورة الإعـلان عن هوية بليم. بعـد مضي عدة أشهر على هذا الإعـلان، عندما بدأت وزارة العـدل التحقيـق في هذا التسريـب، كتب نوفاك أن الناطق باسـم وكالة المخابرات

المركزية بيل هارلو طلب أن لا يستخدم اسم بليم في العمود الصحفي لنوفاك لأنه وبينما «ربما لن يطلب منها أبداً القيام بمهمة خارجية مجدداً...فإن الإفصاح عن هويتها وارتباطها بالوكالة قد يتسبب في مشكلات لها لو قررت السفر إلى الخارج». وقد أثار هذا الطلب دهشة نوفاك باعتباره حجةً غير مقنعةٍ لحجب معلومات ذات صلة عن الشعب. دافع نوفاك عن ما قام به عبر التأكيد على أن هارلو لم يشر إلى أن بليم «أو أي شخص آخر سيكون عرضة للخطر»، وأنه علم باسم بليم (وليس بهويتها السرية) من دخول اسم زوجها إلى المرجع الشهير Who's Who in America.

ولكن من أين حصل نوفاك على المعلومات حول دور بليم في وكالة المخابرات المركزية في المقام الأول؟ قد تمر سنوات قبل أن يرى الجواب النور. ففي عموده الصحفي، عزا نوفاك ذلك إلى «اثنين من كبار المسؤولين في الإدارة».

كانت تلك إشارة تردد صداها في رواية نقلها مات كوبر في مجلة تايم، ونشرت بعد ثلاثة أيام من نشرها في العمود الصحفي لنوفاك في السابع عشر من شهر تموز، يوليو، سنة 2003. كتب كوبر أن «بعض المسؤولين الحكوميين» تحدثوا لمجلة تايم عن «زوجة ويلسون، فاليري بليم»، وتساءل عن دوافع الإدارة حول نشر قصة فاليري بليم: «هل أعلنت إدارة بوش الحرب على سفير سابق قام بمهمة تقصي حقائق للتأكد من اهتمام العراق باليورانيوم الإفريقي؟ ربما». كما استشهد كوبر بجو ويلسون الذي لم يكن لديه أدنى شك حول ما تقوم به الإدارة. أكد ويلسون أن «هذه وظيفة قذرة».

سواء كان ذلك إعلان حرب، أو وظيفة قذرة، أو هجوم علاقات عامة، تناثر أدراج الرياح، فقد اعتبرت وكالة المخابرات المركزية تسريب اسم فاليري بليم مسألة خطيرة. بعد مضي أسبوعين، وبحلول نهاية شهر تموز، يوليو، ذكرت وكالة المخابرات المركزية في رسالة لم يفصح عن مضمونها موجهة إلى القسم الجنائي في وزارة العدل «أن خرقاً محتملاً للقانون الجنائي يتعلق بالإفصاح غير المسموح به عن معلومات سرية قد حصل»، كما أعلمت وزارة العدل أن مكتب الأمن التابع لها، أي الوكالة، يحقق في القضية.

وفي الوقت الذي كانت إدارة بوش تتصدى للهجمات بشأن أساليبها الهجومية (المزاعم بشأن قضية النيجر، وحقن الرأي العام بمعلومات استخباراتية قبل بداية الحرب) فإنه يتعين عليها قريباً الإجابة عن أسئلة حول أساليبها الدفاعية - تسريب هوية فاليري بليم في مسعى منها لصد هجوم زوجها على هذه الإدارة.

في خضم كل هذا - في الخامس عشر من شهر تموز، يوليو، بعد يوم فقط على نشر عمود نوفاك الصحفي - ومن دون أن يكون لدي اطلاع على التسريبات، أو أن أكون متورطاً في الجهود المبذولة للنيل من مصداقية ويلسون، تسلمت من آري فليشر منصب السكرتير الصحفي للبيت الأبيض. ولو كنت أتوقع شهر عسل في هذا المنصب، لعلمت بسرعة أن الأمر سوف يكون عكس ذلك.

***

في اليوم الثاني لاستلامي منصب السكرتير الصحفي، عقد المستشار الرئاسي دان بارتليت، وهو زميلي التكساسي، المسؤول عن مجمل اتصالات البيت الأبيض اجتماع تخطيط مهم للعاملين تحت إمرته. كان الهدف من ذلك الاجتماع التأكد من أن فريق الاتصالات في البيت الأبيض يركز بشكل كامل على الحاجة إلى «كسب كل دائرة إخبارية»، والتأكد من أننا نساهم في «الخطة الإستراتيجية الأشمل» خلال الجهد المبذول في حملة إعادة الانتخاب القادمة. ولقد صدر هذا التوجيه بشكل مباشر عن الاجتماع حول الإستراتيجية المعقود في البيت الأبيض الذي كان قد عقد في تلك المرحلة.

كانت اللغط الدائر حول الكلمات الست عشرة ما يزال يلبد أجواءنا أثناء عقد هذا الاجتماع. وقد اعترفنا لتوّنا أن المزاعم حول قضية اليورانيوم ربما كانت باطلة، ووجدنا أنفسنا محشورين في محاولتنا الدفاع عن ما لا يمكن الدفاع عنه - وهو موقع ليس مناسباً للرئيس أو لطاقمه في البيت الأبيض الانحشار فيه.

كنا بحاجة إلى إعادة تركيز النقاش على الإطار الاستراتيجي الأعم - الصورة الكبيرة للأمن القومي الذي كان الرئيس يركز عليه من دون هوادة أثناء حملة إعادة الانتخاب، وذلك ضد خصمه السيناتور جون كيري.

حدد بارتليت في ذلك الاجتماع الخطوط العريضة الرسالة التي ستقودنا إلى الفوز: إن الواجب الأهم الذي يشغل بال الرئيس في عالم ما بعد الحادي عشر من أيلول، هو حماية الشعب الأمريكي من الإرهابيين والأنظمة المارقة. الطريقة التي نضمن فيها الفوز في حربنا ضد الإرهاب هي أن نبقى في حال الهجوم، وأن نضع حداً لهذه التهديدات عبر مواجهتها. ويعتبر الشرق الأوسط الأكثر سلاماً والأكثر تحرراً والأكثر استقراراً، مفتاحاً لأمن بلدنا وأمانه. تتركز مهمتنا في إبقاء تركيزنا منصباً على أمننا القومي، وتحديداً الحرب على الإرهاب؛ هذه الحرب سوف تكون الموضوع المركزي في حملة إعادة انتخاب الرئيس.

في هذا السياق، لم تعد الحرب في العراق مسوغة وحسب، بل ضرورة. كان نظام صدام حسين يشكل تهديداً قبل الغزو، سواء كان يمتلك أسلحة دمار شامل، أم لا. نحن الآن بصدد استئصال القاعدة، وكنا نخوض حرباً شاملة ضد الإرهاب في كل من أفغانستان والعراق.

خلال الأسابيع العشرة اللاحقة، كان يتم استغلال كل فرصة مهمة في برنامج الرئيس للتركيز على هذه الرسالة. كان الجمهوريون في الكونغرس، والحلفاء في وسائل الإعلام مثل كتاب الأعمدة الصحفية المحافظين ومقدمي البرامج الحوارية الإذاعية يُضَمّون إلى هذه الجهود، ويزودون بأغلفة تتضمن موضوعات الحديث التي يتوجب طرحها بهدف مساعدتهم على إيصال هذه الرسالة كلما أمكنهم ذلك. كان يتم تزويد أفراد الطاقم بموضوعات الحديث اليومية، وكانت الردود السريعة على دوائر الأخبار نفسها، وضد أي هجوم أو أي مواقف صحفية سلبية تشكل أولوية قصوى - وهو جهد قاده بارتليت أثناء حملة سنة 2000.

كانت هذه الحملة قد حزمت أمرها لجهة أخذ زمام المبادرة وشن هجوم إعلامي بغية وضع كل الخيوط في أيدينا واستثمارها لصالحنا. لكن اللغط الدائر حول الكلمات الست عشرة يرفض أن يختفي. كيف أمكن للزعم الخاطئ حول مسألة اليورانيوم في إفريقيا أن يجد طريقه إلى خطاب الرئيس حول حال الاتحاد؟ إذا كانت وكالة المخابرات المركزية

بإمـرة تينيـت هي المسؤولـة، ألا يجب أن يتحمـل تينيت بعض المسؤوليـة؟ وإذا لم يتحمل المسؤوليـة، فمـن سيتحملها إذاً؟ كانت هـذه الأسئلة ترد في معظم الحـوارات واللقاءات الصحفيـة. وبمرور الأيام، أصبـح من الواضح بما لا يدع مجالاً للشك أن التعامل الجدي مع هذه الأسئلة يجب أن يكون حاسماً - وكلما كان ذلك أسرع، كان أفضل.

في نهايـة المطـاف، أخـذ كل من آنـدي كارد، رئيـس أركان البيـت الأبيض، ودان بارتليـت، المستشـار الرئاسي علـى عاتقيهما معالجة هذه الأزمة - تـولى آندي مهمة توجيـه الجميع في البيـت الأبيض لتزويده بكل ما تسعفهم الذاكـرة وبالوثائق المتعلقة بأصل المزاعم بشأن قضية اليورانيوم والكيفية التي تمت فيها معالجتها؛ أما دان فقد تولى مهمة تنظيم المعلومات وتهيئة عرض واضح ومباشر يظهر الكيفية التي وقع فيها هذا الخطأ الفظيع.

بالنسبة لأشخاص مكلفين بمعالجة مسألة الاتصالات لصالح منظمة معقدة مثل البيت الأبيض مثل دان ومثلي، فإن التوتر بيننا وبين «زبائننا» في وسائل الإعلام الإخبارية يشكل جزءاً رئيساً من توصيف الوظيفة التي يقوم بها كل منا. وعندما يكون المسؤولون بدءاً من الرئيـس نفسه، يشعـرون بالأمان في الأدوار التي يؤدونها، وملتزمـين بالشفافية الكاملة، فـإن هذا التوتـر سيزول تلقائياً. فنحن مسموح لنا تشاطـر المعلومات بشيء من الحرية، كمـا أننا قادرون عادة على التغلب على المقاومة لمبدأ الشفافية التي يقوم بها عادة أولئك الذيـن يميلون نحو الحذر الشديـد، ويفضلون السرية (على الأخصـ، المحامون، وبعض كبـار المستشاريـن). ولكن عندما يختـار قادتنا نبذ الشفافية، ويقيمـون حواجز في وجه الكشـف الكامل عن الحقيقة، فإن التوتر سيزداد. وهو ما يجعل من مهمتنا شيئاً لا يطاق إلى حد كبير. الأهم من ذلك، يمكن لهذا أن يقلل في نهاية المطاف من شأن الإدارة، ومن الرئيس نفسه.

في أغلـب المنظمات، بمـا فيها إدارة بوش، هنـاك أشخـاص يميلون نحو الاتجاهين في مثل هذه المسائل - فهناك من يفضل الكشف عن الحقائق، وهناك من يرفض هذا المبدأ. كما يعتبر فن إدارة لعبة شد الحبال بين الجهتين المختلفتين جزءاً من الوظيفة التي نقوم

بها. وفي عالم اليوم الذي تتحرك فيه دائرة الأخبار على مدى أربع وعشرين ساعة يومياً، فإن ضغط الوقت يزيد من تعقيد هذا التحدي كثيراً.

السرعة مرغوبة دائماً عندما تدلي بمعلومات، لكن الحصول على الحقائق كلها يمكن أن يستغرق بعض الوقت. عندما تكون المعلومات ناقصة، فإن وسائل الإعلام ستملأ هذا الفراغ بلغة إنشائية حزبية مثيرة للعواطف تؤجج الصراع واللغط والسلبية، وفي أغلب الأحيان - سواء عن قصد أو من دون قصد - تجمح نحو استنتاجات تبسيطية يغلب عليه منطق الأبيض مقابل الأسود الذي يحدد مسار القصة قبل الكشف عن الحقيقة بكاملها.

القصة وراء اللغط الذي أثارته الكلمات الست عشرة كانت معقدة؛ ونظراً لأننا في البيت الأبيض، كنا بطيئين قليلاً في الحصول على المعلومات بشكل جماعي وتشاطرها فيما بيننا، فقد استمرت هذه القصة في الاشتعال على امتداد الأسبوع الثاني الذي مضى على استلامي منصب السكرتير الصحفي. في الثامن عشر من شهر تموز، يوليو، وبعد يومين من الاجتماع الذي عقدناه حول الاتصالات، قام بارتليت بتزويد الصحفيين ببعض الحقائق حول خلفية هذا اللغط. وتزامن ذلك مع نزع غطاء السرية بشكل رسمي والإعلان عنه عبر قنوات وكالة المخابرات المركزية عن جزء من تقويم الاستخبارات الوطنية الصادر في شهر تشرين الأول، أكتوبر بما في ذلك فقرات تتعلق بمحاولات العراق الحصول على اليورانيوم من إفريقيا. إلا أن تحقيقنا الداخلي لم يكن جاهزاً في ذلك الوقت، ولذلك فإن الحقائق القليلة التي أعلن عنها دان، لم تُرْضِ وسائل الإعلام.

على امتداد الأيام اللاحقة تم الكشف عن وثائق أكثر، وبدأت القصة الكاملة حول المزاعم بشأن اليورانيوم تتوضح بالتدريج. ففي الحادي والعشرين من شهر تموز، يوليو، تم عقد اجتماع ليلي متأخر بين مجموعة مختارة من كبار المستشارين في مكتب آندي كارد لمناقشة إستراتيجية الاتصالات التي علينا إتباعها لمعالجة هذا الموضوع. وقد حضر الاجتماع كل من كارد وبارتليت وكوندي رايس ونائبها ستيف هادلي ومستشار البيت الأبيض ألبيرتو غونزاليز وسكرتيرة أركان البيت الأبيض هارييت ميرز وأنا.

كان أحد موضوعات المناقشة تفصيلاً صغيراً تحول إلى قصة نقلها ريتشارد ستيفينسون، مراسل صحيفة نيويورك تايمز في البيت الأبيض قبل ثمانية أيام. استناداً إلى تلك القصة، تم إسقاط جزئية الزعم بأن «صدام حسين حاول شراء 550 طناً من اليورانيوم الخام من النيجر» من الخطاب الذي ألقاه الرئيس في سينسيناتي وذلك في السابع من شهر تشرين الأول، أكتوبر، سنة 2002. وذكرت القصة أن مدير وكالة المخابرات المركزية، جورج تينيت، حذر شخصياً ستيف هادلي نائب مستشارة الأمن القومي أن هذا الزعم لا يمكن إثباته بأي دليل استخباراتي مادي. إذا كان هذا صحيحاً، فإنه يقودنا إلى السؤال الآتي: كيف لزعم اعتبر مهلهلاً تم إسقاطه من خطاب في سينسيناتي أن يتبوأ موقعاً في أهم رسالة يوجهها الرئيس إلى الشعب الأمريكي، ألا وهي خطابه عن حال الاتحاد؟

كثيرون ممن ليسوا داخل الدائرة، لا يعرفون شيئاً عن ستيف هادلي، أما بالنسبة لنا، نحن العاملين معه، نعرف أنه شخص شريف. وكان سلوكه في تلك الليلة تأكيداً على تلك الحقيقة.

أكد هادلي على حصول ذلك الحديث بينه وبين تينيت. لكنه، وبعد ثلاثة أشهر، عندما كانت اللمسات الأخيرة توضع على الخطاب حول حال الاتحاد، كان قد نسي ما يتعلق بهذا الموضوع. وعندما عاد بذاكرته إلى الوراء، اعترف بأنه كان عليه أن يتذكر ذلك الحديث مع تينيت وتحذيراته حول المزاعم بشأن قضية النيجر. قال ستيف: «أنا مسؤول عن حجب هذه الحقائق، وفي هذه الحال، أعترف بأنني أفسدت كل شيء. أظن أن الحل الوحيد هو أن أقدم استقالتي».

كان هادلي في غاية الانزعاج وهو يرى أن تينيت قد تم تقديمه ككبش فداء، طالما أنه كان يعرف أن الخطأ خطؤه هو، ولا أحد سواه. كانت المشاجرات والاتهامات المتبادلة داخل أروقة الإدارة بين مختلف الوكالات والهيئات من بين الأشياء القليلة التي كانت تزعج بشكل جلي مسلك هادلي الهادئ، والوقور، والمتزن. وكان طرحه لفكرة تقديم استقالته

محاولــة إيثاريــة منه لرفع الحيف عن اسم شخص شعر بأنــه تلقى كماً غير منصف من اللوم، وتحمل المسؤولية عن خطأ غير مقصود ظهرت نتائجه أمام العالم برمته.

وبينمــا كنــت جالساً أتأمل ما قاله هــادلي، فقد تم رفض عرضــه الاستقالة كلياً من كل الحاضريــن. كان هــادلي أحد أكــثر أعضاء الفريق موالاة لبوشــ، وأكثر المستشارين أهميــة، وكان خطــؤه أبعد مــا يكون عن الإطــار الجرمي. لكننا مع ذلــك، اتفقنا على أن مقاربــة قوامها المصارحة، والاستقامة، والأمانة هي في غاية الأهمية في الوقت الحاضر. وكان كل مــن بارتليت وهــادلي الأكثر اطلاعاً وبشكل مباشر مــن أي عضو آخر في البيت الأبيض علــى عملية إعداد الخطاب والحقائق المتعلقة بهــذه القضية، أفضل الحاضرين الذين يمكن لهما إطلاع العالم بأسره على ما حصل، ولماذا حصل ذلك. وبإمكان هادلي فقــط توضيح هذا السجل المتعلق بتحديد مسؤولية إقحــام هذه الكلمات الست عشرة في خطاب الرئيس.

في اليــوم الثاني، أطلع كل من بارتليت وهــادلي الصحفيين في قاعة روزفلت في البيت الأبيضــ على الكيفية التــي سمح فيها للكلمات الست عشــرة بالظهور في خطاب الرئيس حــول حال الاتحــاد. كان بارتليــت بصفته مديراً للاتصــالات في البيــت الأبيض مشرفاً علــى عملية كتابة الخطابات. وبصفته الشخص رقم اثنين في مجلس الأمن القومي، كان هــادلي المسؤول عن الموافقة على محتوى الحقائق المذكورة في الخطابات في مجال عمله. وبعــد أن اعــترف بأن تينيت طلب إليــه سابقاً عدم تضمين المزاعم حــول صفقة النيجر، فقــد أوضح هادلي للصحفيين المجتمعــين أنه «أخفق» في تحمــل مسؤولياته بشأن تدقيق الخطــاب: «الحقيقــة هي أنه بالإشــارة إلى مذكرة وكالة المخابــرات المركزية المؤرخة في يومي الخامس والسادس من شهر تشرين الأول، أكتوبر، وإلى المكالمة الهاتفية التي جرت بيني وبين تينيت، مدير وكالة المخابرات المركزية ، أقر بأنه كان عليّ أن أتذكر عند حلول وقت إلقاء الخطاب حول حال الاتحاد، أن لغطاً كان يدور حول قضية اليورانيوم».

استمر اللقاء الصحفي الذي عقده بارتليت وهادلي لمدة ساعة وثلاث وعشرين دقيقة. أتصــور أن ستيــف اعتقد أنه كان أطول من ذلك. لكــن ذلك اللقاء حقق غرضنا في وضع الكلمات الست عشرة وراء ظهورنا.

مـع ذلـك، لم تكن هذه سوى واحـدة من المعارك التـي واجهناها في البيـت الأبيض. فالسـؤال الأشمـل حول التقاريـر الاستخباراتية في المرحلة التـي سبقت الحرب كانت ما تـزال تحوم فوق رؤوسنا. لمـاذا ارتكبت إدارة بوش، ومعها العديـد من الخبراء الواسعي الإطـلاع مـن كثير من دول العـالم هذا الخطأ الفـادح حول حقيقة وضـع أسلحة الدمار الشامـل لصدام حسين وبرنامـج أسلحة الدمار الشامل الذي يتبناه؟ أكثر من ذلك، كان الصـراع الجديـد قد بدأ يتصاعد حـول التسريـب الواضح لهوية فالـيري بليم من قبل مسؤولين في الإدارة بهدف تقويض سمعة جو ويلسون.

⁂

في السادس عشر مـن شهر أيلول، سبتمبر، أعلمت وكالـة المخابرات المركزية وزارة العـدل بأمر استكمال تحقيقاتها بشأن الإفصاح عـن اسم فاليري بليم ووضعها السري، وطلبـت أن يقوم مكتب التحقيقات الفيدرالي «بالمبادرة إلى إجراء تحقيق حول الموضوع». نصحـت وزارة العـدل وكالة المخابـرات المركزيـة في التاسع والعشرين مـن شهر أيلول، سبتمـبر، سنـة 2003 أن يقوم قسـم مكافحة التجسس فيها بدعم فكـرة طلب التحقيق. وكان المضمـون الواضح هو وجود أسبـاب وجيهة للاعتقاد أن جريمة ما، قد ارتكبت عبر تسريب اسم بليم. وكان سيتم إعلام البيت الأبيض حول قرار وزارة العدل في وقت لاحق من ذلك اليوم.

الفضيحـة المصنوعـة خصيصاً علـى قياس واشنطـن اكتمل نموهـا. وقد تمت هذه الفضيحـة علـى وقع حملة إعـادة انتخاب الرئيـس. زادت الروح الحزبيـة من حدة هذا اللغـط، حتى عبر إطلاق تسمية على هـذه القصة. فنحن في البيت الأبيض أطلقنا عليها ببساطـة وصف: «التحقيق حول التسريب»، بينمـا أطلق عليها منتقدونا وصف «بليمغيت» في محاولة منهم لجعلها تبدو شريرة بالدرجة نفسها لأكثر الفضائح شهرة على الإطلاق. ربما كان أكثر الأسئلة حول التسريب سخونة يدور حول ما إذا كان كارل روف – وهو أكثر مستشاري بوش إثارة للجدل – متورطاً في هذه القضية.

أول سؤال تم توجيهه إليّ كان بالتحديد حول ما إذا كان روف متورطاً، وذلك في اللقاء الصحفي الذي جرى في السادس عشر من أيلول، سبتمبر سنة 2003. راسل مخيبر رئيس

تحريـر صحيفة الـرأي: Corporate Crime reporter، وهو أحـد مساعدي رالف نادر، وأحـد منتقدي البيت الأبيض الليبراليين، طرح سؤالاً محدداً. أتى هذا السؤال من حيث لا أشعـر، لكن ذلك كان طبيعياً كونه أتى من مخيبر، الفظ، والذي لا يهتم عادة بالأخبار اليوميـة. كان يهتـم بالأخبار المفخخة التي تساعده بـكل بساطة في التسبب بأكبر كم من الأذى لإدارة لا ينظر إليها باحترام.

قـال مخيبر: «بالنسبة لموضـوع نوفاك – ويلسون، قال نوفـاك في وقت سابق من هذه السنـة – واقتبسـ مما قـال – إن مصادر حكوميـة مجهولة أبلغته أن زوجـة ويلسون هي عميلة لوكالة المخابرات المركزية الأمريكية. الآن، من الواضح أن حرق غطاء عميل لوكالة المخابـرات المركزية هو جريمة فيدرالية. يعتقد ويلسـون أن الشخص الذي فعل ذلك هو كارل روف. نسـب إليه قوله في كلمة ألقاها الشهر الماضي [في المنتدى العام الذي عقد في الثـاني عشر من شهر آب، أغسطس، في إحدى ضواحـي سياتل] «في المحصلة، من المهم جداً بالنسبة إلي التأكد فيما إذا كان باستطاعتنا رؤية كارل روف يساق مكبل اليدين إلى خارج البيت الأبيض». هل كان كارل روف هو من أخبر...»

لم أكـن مستعداً لتلقي مثل هذا السؤال بمعنى أنني لم أكن قد تحدثت إلى روف حول هـذا الموضـوع، بعد؛ لكن السـؤال صيغ بطريقة منفـرة عاطفياً عبر إشارتـه لروف أنه «حرق غطاء عميل لوكالة المخابرات المركزية» عن سابق تصور وتصميم، وهذه الطريقة جعلتني أقاطع مخيبر بثقة: «لم أسمع هذا. هذا الكلام هو منتهى السخف». تابع مخيبر متسائـلاً فيمـا إذا كان روف قـد أفصـح عن اسم بليـم لنوفاك؛ ومن جديـد قلت: «إن هـذا القـول سخيف تماماً». وكان هـذا هو الموقف الذي تبنيتـه في الوقت الذي استمرت الفضيحة بالتصاعد.

رأيـت روف بعـد اللقاء الصحفـي في قاعة روزفلت بمدة وجيزة وتحدثـت إليه بهدوء قـرب البـاب المـؤدي إلى الرواق الفاصـل بين قاعة روزفلـت والمنطقة التـي يتواجد فيها مكتبي. أردت التأكد أنني لم أقل ما لا يجب أن يقال. كان روف يعرف نوفاك معرفة جيدة منـذ سنوات وكان يتحدث إليه بين الحين والآخـر، وبالطبع كان معروفاً بآرائه السياسية

الصارمــة. لكنه كان يعرف بالتأكيد أن تسريب معلومــات سرية تتعلق بالأمن القومي هو تجاوز لكل الخطوط.

قلــت لــروف: «سئلت في قاعة اللقاءات الصحفية اليوم عــن التعليق الذي أدلى به جو ويلســون، والذي ذكــر فيه أنه يرغب برؤيتك تقاد خارج البيت الأبيض مكبل اليدين. فقد سألني أحد الصحفيين فيما إذا كنت أنت أحد مصادر المعلومات لنوفاك، أو أنك أنت من «حــرق الغطاء» من على زوجة ويلسون. لقد قلــتُ إن هذا في منتهى السخف. أنت لم تكن احد مصادر المعلومات لنوفاك، أليس كذلك؟»

«بالضبط».

قلت: «أردت فقط أن أتأكد».

قال روف: «أنت محق».

كانــت المرة الثانية التي أدقــق فيها مع روف يوم السبت الواقع في السابع والعشرين مــن شهــر أيلول، سبتمــبر، 2003. كان مايــك آلان، مراسل صحيفــة واشنطن بوست في البيــت الأبيضــ الممتلــئ بالحيويــة، في الثلاثينــات من عمــره، والــذي غطى حملة الانتخابات الرئاسية سنة 2000، يعمل على جزئية تتعلق بالتحقيق في تسريب المعلومات بالاشــتراك مع الصحفية المخضرمة دانا بريست التي كانت تقوم بتغطية قضايا تتعلق بالاستخبارات لصالح صحيفة البوست.

استنــاداً إلى مايك، فقد أخبرهما أحد كبار المسؤولين أن اثنين من كبار المسؤولين في البيت الأبيض سبق لهما أن تحدثا إلى ستة من الصحفيين على الأقل حول زوجة ويلسون. لم يعرف مايك أسماء جميع المساعدين الذين زُعِمَ أنهم متورطون في فضيحة التسريب، لكنــه بالاشــتراك مع بريست ارتأيــا أن مصدرهما لم تكن تعــوزه المصداقية، ولهذا فقد قررا الاستمرار في تقصي هذه القصة.

كنت في كامب ديفيد في ذلك اليوم، حيث كان الرئيس يجتمع مع الرئيس بوتين ويعتزم عقــد لقــاء صحفي يلقي فيــه كل منهما بياناً ثم يتلقيــان عدداً محدوداً مــن الأسئلة من

الصحفيين المرافقين لهما. اتصل روف بمساعدتي التي أثق بها كثيراً، كلير بوكان ليبلغها أنه تلقى رسالة بالبريد الإلكتروني من مايك يسأله فيه عن القصة.

كان فحوى القصة التي نشرتها البوست واضحاً تماماً: أن البيت الأبيض كشف عن هوية بليم للنيل من مصداقية جو ويلسون، أو لمعاقبته. كانت القصة تضع تسريب هويتها على أعتاب البيت الأبيض محملة إياه مسؤولية التسريب. قبل ذلك، كانت القصة تركز فقط على «اثنين من كبار المسؤولين في الإدارة» حسب رواية نوفاك. لكن البوست تنشر الآن أن اثنين من كبار المساعدين في البيت الأبيض تحديداً هما من كشف عن هويتها للعديد من الصحفيين، ملمحة بذلك إلى إمكان وجود جهد منظم من قبل البيت الأبيض لكشف الدور الذي قامت به بليم، وعلاقتها برحلة زوجها إلى النيجر.

تحدثت كلير إلى روف قبل عودتي إلى البيت الأبيض في حافلات الموظفين. وصلت إلى مكتبي بعد الواحدة من بعد الظهر بقليل، وبعد برهة وجيزة، تلقيت منها تقريراً عن ما جرى.

أعلمتني أن روف قال لها من تلقاء نفسه إن نوفاك اتصل به بشأن بليم. وهو لم يؤكد أن لبليم علاقة مع وكالة المخابرات المركزية لأنه لم يكن يعرف شيئاً عن هذا الموضوع.

أجبت بشيء من الدهشة: «كارل تحدث إلى نوفاك؟»

قالت كلير إنه فعل ذلك. أصبت بصدمة لأن روف لم يذكر لي شيئاً عن هذا الاتصال عندما تحدثنا إلى بعضنا بعضاً في المرة الأولى. ناقشت مع كلير كيف أن هذا يتفق مع ما قلته سابقاً في قاعة اللقاءات الصحفية يوم السادس عشر من شهر أيلول، سبتمبر. فقد كان ما ذكرته حينها يتطابق مع ما قاله كارل لكلير الآن: فهو لم يكن أحد مصادر نوفاك لأنه لم يكن باستطاعته تأكيد ما لم يكن يعرفه.

شعرت أنه كان على روف أن يكشف لي عن هذا الحديث مع نوفاك سابقاً؛ لذا قررت الاتصال به. كرر على مسامعي ما كان قد أخبر كلير به في وقت سابق من ذلك اليوم: «لقد قال [أي نوفاك] إنه سمع أن زوجة ويلسون عملت مع وكالة المخابرات المركزية. أجبته

بأنني لا أستطيع تأكيد هذا الخبر لأنني لم أكن أعرف». بعدها، وحيث كنت أعلم إلى أين سيتجـه مسار القصة في المقال الذي سينشر في صحيفة البوست، سألت كارل سؤالاً غير قابـل للبس أو التأويل: «هل كانت لك علاقة بهذا الموضـوع بأي شكل من الأشكال؟» كنت أشير بوضوح إلى مسألة تسريب هوية فاليري بليم - وهي معلومات كان يعتقد أنها سرية - إلى أي صحفي.

أجاب كارل بشكل حاسم، «كلا؛ اسمع، لم أكن أعرف شيئاً عن زوجته بالمرة».

لم يكـن هناك أي ذكـر حينها لمحادثة هاتفية أجراها كارل في الحادي عشر من شهر تمـوز، يوليـو، مع أحدث مراسلي مجلة تايم في البيت الأبيض آنذاك، واسمه مات كوبر، هـذه المحادثـة بقيت طي الكتمـان باعتبارها «سـراً استثنائياً مضاعفـاً» (وهذه العبارة الذكيـة هي لكوبـر وليست لي). لمدة سنتـين إضافيتين تقريباً. حينهـا فقط، وعندما تم إعلان الأمر على الملأ، وأبلغت به أنا أيضاً، علمت أن روف كشف عن هوية بليم إلى كوبر أثناء تلك المحادثة.

أعطتني عبارة «كلا» غير القابلة للتأويل التي قالها لي روف التأكيد الذي كنت أحتاجه للدفاع عن زميل عضو في فريق بوش، وزميل تكساسي عرفته منذ أكثر من عشر سنوات، كان من دون شك، هدفاً رئيساً لأكثر منتقدينا الحزبيين شراسة.

بحلول صباح يوم الاثنين الواقع في التاسع والعشرين من شهر أيلول، سبتمبر، كان جو ويلسون ضيفاً على برنامج 'صباح الخير يا أمريكا' في محطة ABC، وفيه تراجع ويلسون عـن تأكيداته السابقة بأن روف كان مسـؤولاً عن تسريب هوية زوجته. إلا أن ويلسون أكد أيضاً خلال تلك المقابلة أنه يعتقد أن روف «في الحد الأدنى، تغاضى عن هذا التسريب».

دققت مع روف في ذلك اليوم كي أؤكد أنه لم يسرب اسم بليم، أو يتغاضى عن تسريب اسمهـا. أكد لي أن ذلك صحيح. وكان ذلك آخر مرة أتحدث فيها مع كارل، أو أسمع منه عن أي شيء يتعلق بموضوع التسريب.



عندمـا كنـت أسير باتجـاه المكتب البيضاوي صبـاح يوم التاسـع والعشرين من شهر أيلول، سبتمبر، كان يمكن أن يكون كأي يوم عادي آخر في البيت الأبيض.

كما كنت أفعل غالباً، قابلت الرئيس في الصباح قبل اللقاء مع الصحفيين في ذلك اليوم. كانت مقابلتي للرئيس مناسبة لأطلع على أفكاره حول الكيفية التي سأرد بها على واحد من الموضوعات المحددة، ولأتأكد من أنني أطلعه بشكل كامل على ما يدور في خلد الصحفيين، أو فقط لأتأكد من أن أسلوبي حيال معالجة أي موضوع يتوافق مع رؤيته. كانت الفرصة سانحة للقـاء به في المكتب البيضاوي بعد الساعة السابعة صباحاً بقليل، وقبل الاجتماع اليومي مع كبـار المسؤولين الساعة السابعة والنصف. في الأوقات الأخرى عادة ما كانت هذه اللقاءات تتـم بعـد أن يكون قد استمـع إلى العرض من المخابرات ومكتب التحقيقـات الفيدرالي، أو عندمـا يكـون في طريقه إلى خارج المكتب البيضاوي متوجهـاً إلى غرفة المؤتمرات من أجل القيام بمكالمة خاصة، أو من أجل اجتماع مع مجلس الأمن القومي.

لكـن هذا اليوم ليسـ كبقية الأيـام في البيت الأبيضـ. فقد كانت سحابـة الفضيحة الداكنة ترمي بظلالها علينا في صباح هذا اليوم المتأخر من شهر أيلول.

ألقيـت التحية وأنا ألج إلى المكتب البيضـاوي، متخطياً الأرائك عبر الختم الرئاسي الأزرق في وسـط السجادة ذات اللون البيج الفاتح: «صبـاح الخير سيدي الرئيس». كان مكتبـه متوضعـاً أمام ثلاث نوافـذ طولية تتدلى منها ستائر من الجـوخ الطويل الذهبي اللـون يمكـن لها أن تحجب طلقات الرصاصـ إلا أنها لا تحجب نـور الشمس الذي يملأ المكتـب. كان المكتـب الأنيـق مصنوعـاً من أخشـاب انتزعت مـن السفينـة البريطانية HMS Resolute وهـي سفينـة استكشافية للأبحاث في المناطق القطبيـة انتشلها يوماً أحـد صيادي الحيتـان الأمريكيون. وقد استخدم هذا المكتب كل قادة الجيش تقريباً لأن البريطانيـين، وكلفتةِ تقديرٍ من قبلهم، قدمـوه للرئيس روذرفورد هيس. كان آندي كارد يقف إلى يسار الرئيس.

قال الرئيس بأسلوب لطيف: «مرحباً يا سكوت. ماذا في جعبة الصحافة هذا اليوم؟»

قلـت، وأنـا أعرف أن سؤاله كان شكليـاً كونه مثلنا جميعاً يعرف جيـداً أن ما سأقوله هـو موضوع الساعة: «التقارير الصـادرة حول التحقيق الذي قامت به وزارة العدل بشأن تسريـب اسـم فاليري بليم . أريـد التحدث إليك بشـأن هذا الموضوع قبـل الاشتباك مع الصحفيين».

قـال الرئيس بتلقائية: «ليس كارل من فعلها»، وكان يعني بهذا كبير مستشاريه، وكبير مخططيـه الاستراتيجيين كارل روف. كلمة «فعلهـا» كانت تعني بوضوح الكشف عن هوية بليم للصحفيين. كان ما يزال يمسك بذراعي الكرسي الذي يجلس عليه وظهره إلى الوراء خلف مكتبه. كان يبدو في مزاج جيد.

بدأت القول، وأنا غير مدرك أن الرئيس ما زال لديه ما يريد قوله: «أعرف ...».

تابع الرئيس قائلاً: «أخبرني انه لم يفعلها»، قاطعاً عليّ جملتي من منتصفها.

كان قد مضى شهران على نشر نوفاك لمقالته معلناً عن اسم بليم، ومستشهداً «باثنين من كبار المسؤولين» كمصدر للتسريب. كان روف قد أنكر لتوه أمامي أن يكون هو من قام بعملية تسريب هوية بليم، وعلمت الآن أنه أبلغ الرئيس أنه غير متورط في ذلك.

حدق الرئيس بعد ذلك في آندي الذي رفع ذراعيه فوق مستوى خصره وكان يشير إلى الرئيس وهو يخفضهما نحو الأسفل أن يهدأ ويتوقف عن الكلام بشأن ما سيصبح بسرعة موضوعاً حساساً.

قـال الرئيسـ وهـو ينظر إلى آنـدي بشيء من الضيـق في صوته: «ما الأمـر؟ هذا ما أخبرني به كارل».

قـال آنـدي: «أعلم ذلك؛ لكن ينبغي أن لا تتحـدث إلى أي شخص حول هذا الموضوع، ولا حتى معي». كان آندي دائماً في غاية الحذر. في ذلك الصباح نشرت صحيفة واشنطن بوست خبراً مفاده أن وزارة العدل فتحت تحقيقاً جنائياً بشأن الكشف عن هوية بليم.

شعـر آنـدي أن أول، وأهم مسؤولياتـه رئيساً لأركان البيت الأبيض، حماية الرئيس، ووقتـه، وسمعتـه، وإرثه. لقد خـدم في إدارتين قبل هـذه الإدارة، وكان يعرف كيف يمكن

للفضائح أن تحطم أصحابها في واشنطن. كان آندي يرى أن حماية الرئيس تتطلب أحياناً الوقوف بينه وبين كبار المساعدين الآخرين بمن فيهم كبير الناطقين باسمه.

لكن الرئيس وأنا، كانت تربطنا علاقة فريدة من نوعها بدأت في الولاية التي نشأنا فيها وهي موطننا، تكساس. لذا، لم يأبه الرئيس بالجهد الذكي الذي حاول آندي أن يبذله كي يمنعه من أن يتحدث معي حول ما قاله كارل. ظهرت على وجهه بعض أمارات الضيق الإضافية في الوقت الذي تمتم بعبارة: «لا بأس؛ أياً يكن الأمر»، وهو ينظر إلى الأمام بعيداً عني وعن آندي. كان هذا التعبير يظهر على وجه الرئيس من حين إلى آخر عندما كان أحد أركان البيت الأبيض يحاول أن يملي عليه ما يجب عليه أن يفعله أو لا يفعله.

تابعت قائلاً، وأنا أنظر باتجاه الرئيس: «تحدثت إلى كارل أيضاً. قال لي الشيء نفسه».

سأل الرئيس: «هل تظن الصحافة أنه هو من فعلها؟»

أجبت: «سبق وأن أخبرت الصحافة أنه ليس هو من فعلها. لكنني متأكد أنهم سيسألونني عن الموضوع ذاته اليوم». ذكرت له القصة التي نشرتها صحيفة واشنطن بوست يوم الأحد، والتي أشارت فيها إلى أن اثنين من كبار المسؤولين في البيت الأبيض اتصلا على الأقل بستة من الصحفيين في واشنطن بغية الكشف عن هوية بليم وموقعها الحالي في وكالة المخابرات المركزية.

لم أشأ التطرق أكثر إلى حديث الرئيس مع كارل، وكان يعود ذلك جزئياً إلى القلق الذي كان ظاهراً حينها على آندي. لكنني افترضت عبر تعليقاته أنه سأل كارل سابقاً في ذلك الصباح فيما إذا كان واحداً من هذين المصدرين أم لا. كان الموضوع ما يزال طرياً في ذهنه، وشعرت بالثقة في دفاعي عن كارل طالما أن الرئيس نفسه قد تلقى تطمينات منه. وكان انطباعي حينها أن آندي كان على اطلاع كامل بما قاله كارل للرئيس.

حينها، نظرت إلى آندي وسألت: «هل نعلم عن أي شيء آخر يتعلق بالتحقيق؟»

أجاب آندي أنه لم يسمع بأي جديد حول الموضوع؛ وعلى حد علمه، نحن بانتظار سماع شيء من قبل وزارة العدل.

كانـت تلـك المناقشـة في المكتب البيضـاوي في ذلك الصبـاح - وهو اليـوم الذي كنا سنُخطَـرُ فيه بـأن تحقيقاً بالفعل سيتـم لاحقاً - لحظة كان سيتذكرهـا آندي وهو يدلي بشهادتـه أمـام المدعـين العامين، وكنـت سأتذكرها أنا، تحـت القسم، أمـام هيئة كبار المحلفـين الفيدراليـين. حولتُ المناقشة بعدها باتجـاه المقاربة التي كنـت أخطط للقيام بهـا في حواري مع فريـق الصحفيين المتجمعين في البيت الأبيضـ في وقت لاحق من ذلك الصباح، وفي اللقاء الصحفي بعد ظهر اليوم نفسه. فقد كان الرد الرئيس للبيت الأبيض علـى هذا الهياج الإعلامي المتكاثر في الجو سيكون مني. كان الرئيس مرتبطاً بمناسبتين عامتـين ضمن برنامج البيت الأبيض في ذلـك اليوم، لكنه لم يكن في نيته تلقي أسئلة من الصحفيين حول أي من هاتين المناسبتين. فلم يكن أحد من أركان البيت الأبيض يرى أيَّ فائدة يمكن جنيها لو قام بذلك، طالما أن الصحفيين سيركزون بشكل كامل على التحقيق في قضية التسريب.

قلت للرئيس: «أنوي القول إنك تعتقد أن أي تسريب لمعلومات سرية يجب أن يدقق فيه ويتابـع إلى أقصى مدى ممكـن، وأن وزارة العدل هي الجهة المناسبة لتقصي هذا الأمر. لا أخطط يا سيادة الرئيس الذهاب أبعد من ذلك».

أجـاب الرئيسـ: «نعـم، أظن أن هـذا صحيح. اعتقد أنهـا مسألة خطـيرة، وآمل أن يكتشفوا الشخص الذي فعلها».

وتوجهـت نحـو آندي قائلاً: «يا آنـدي، أنوي كذلك أن أقول إنـه لم يرقَ إلى مسامعنا شـيء يشير إلى تورط البيـت الأبيض خارج ما قرأناه عن هذا الموضوع في الصحف، هل توافقني الرأي؟»

أجاب آندي: «لا أعرف شيئاً». وأضاف: «آخر مرة سمعت آل فيها، أكد لي أنه لم يسمع بالأمر أيضاً». كان يشير هنا إلى آل غونزاليز، مستشار البيت الأبيض، وأحد أنصار بوش القدامى من تكساس. كنا جميعاً نتحدث بلسان واحد.

تفـوه الرئيس ببضع كلمات تشجيع بينما كنت أتوجـه إلى خارج المكتب. كنت أعلم أن اللقاء مع الصحفيين سيكون عاصفاً. كانت هذه أول فضيحة كبرى تعصف بالبيت الأبيض

في عهد بوش، وكان جمع الصحفيين يستعد للهجوم. كان الرئيس يتحضر للبدء في حملة إعـادة انتخابه في السنة اللاحقـة، ورأى الديمقراطيون الفرصة سانحة كي يحشرونا في موقـف دفاعي، ويكيلوا ضربة موجعة لفرص الرئيس في إعادة انتخابه. كنت في قلب هذه العاصفة التي يتزايد أوارها - وكنت خط الدفاع الأول عن البيت الأبيض.

بعـد مضي شهرين على تبوئي منصـب السكرتير الصحفي في البيـت الأبيض، كنت علـى وشك الولوج إلى أول امتحان لي في قاعة اللقاءات الصحفية. كان الكثير من التوتر التقليـدي يجري بين الصحافة والسكرتير الصحفي اليوم. نصف الوقت الذي يمر أثناء اللقـاء اليومي مع الصحفيين المتواجدين في البيت الأبيـض ينقضي وهم يحاولون إيجاد ثغرة ولو صغيرة في ما يقوله السكرتير الصحفي وذلك كي يسجلوا عليه أي خطأ أو تناقض يمكـن أن يقـع فيه - وهي لحظة «أمسكتُ بك متلبّسـاً». إن هذا طقس لا بد أن يمر به أي سكرتـير صحفـي، وهو أسلوب يحاول عـبره الصحفيون إحداث ثقـب في الجدار عندما يزودون بمعلومات منتقاة بعناية تتلى عليهم على الملأ.

كان لـدي تصـور جيد عما سوف أواجهـه، وهو ما وفر لي فرصة تهيئـة نفسي للقاء. العديد من زملائي في البيت الأبيض سوف يراقبون عن كثب أدائي في اللقاء الصحفي هذا اليوم، وسيكون أحد أسباب ذلك التحقق من كيفية أدائي لهذه المهمة تحت الضغط.

كان هنـاك نحو خمسة وثمانين سـؤالاً خلال الحوارات غير الرسمية مع الصحفيين صبـاح ذلـك اليوم بعيداً عـن عدسة الكامـيرا؛ سبعون من هذه الأسئلـة تمحورت حول التحقيق بشأن قضية التسريب. تحدث الصحفيون، الواحد منهم تلو الآخر وهم يطلقون سهـام أسئلتهـم، ولم يكـن ذلك يثير فيَّ أي إحساسـ بالضيـق. أردت أن أتأكد من أنني أشعـر بالراحة وأنا أتلقى أسئلة محددة سوف تطرح علي من قبل الصحافة بما في ذلك ما ستطرحه خلال اللقاء الصحفي بعد الظهر. تركت عن قصد مني لهذه الحوارات أن تأخذ وقتاً أطول بمعدل خمس عشرة دقيقة من المعتاد. وقد أكدت هذه الحوارات على ما كنـت أعرفه: سوف يكون هناك هياج مجنون في قاعة اللقاءات الصحفية يتمحور بشكل كلي تقريباً حول تسريب هوية فاليري بليم.

منذ أن استشهد نوفاك «باثنين من كبار المسؤولين في الإدارة» نشرا معلومات عن هويـة بليم، افترضت وسائل الإعـلام أن مسؤولي البيت الأبيض هـم المسؤولون عن هذا التسريب.

كان كارل روف الـذي يعتـبره منتقـدو البيت الأبيض مانعة الصواعـق، والعقل المدبر الميكيافيللـي النزعـة للرئيس، هـو المشتبه به ضمن التخمينـات في طاحونة الشائعات في واشنطن. تم استحضار اسمه مراراً من قبل الصحفيين خلال الحوارات التي حصلت في ذلـك اليـوم، واللقاء الصحفي الذي حصل فيما بعـد. وفي كل مرة، كنت أرفض فكرة أن يكون متورطاً في ما جرى.

ينتهـي اللقاء الصحفـي عادة عندما يقول المراسل السلكـي الجالس في الصف الأول سواء من وكالة رويترز أو الأسوشيتدبرس، أيهما يكون قد غطى ما يجري في البيت الأبيض مـدة أطول: «شكراً». ولذا، فإن مـدة اللقاء الصحفي يمكن أن تتراوح بين عشرين دقيقة كحـد أدنى، ومعـدل وسطي يتراوح بين ثلاثـين وخمس وثلاثين دقيقـة، ويمكن أن يصل إلى مـا بين خمس وأربعين دقيقة، وخمس وخمسين دقيقة كحد أقصى. وكان اللقاء اليوم قـد أخذ مداه الزمني الأقصى. في أغلب الأيـام، يشير سجل اللقاءات الرسمي في البيت الأبيض، والذي يوضع في متناول الأيدي بعد ظهر كل يوم إلى طرح نحو عشرة موضوعات في ذلك اللقاء. أما اليوم، فهناك فقط موضوعان: التحقيق بشأن التسريب، والعراق.

لم تعـطِ الصحافـة أو أنا، السجالات داخل قاعة اللقـاءات الصحفية بعداً شخصياً. فقـد كنا نؤدي عملنـا فقط. كان واجبي مساعدة الرئيسـ في تسويق مخططات وتوضيح آرائه وسياساتـه بأمانة ودقة، وبالطريقة التي يفضلها. أما مهمة الصحافة فتتلخص في نقـل أخبـار الرئيس وإدارتـه، وتحميلنا المسؤولية عـن قراراته وسياساتـه، والتدقيق في طريقتـه في الحكم، وكذلك طريقة أركانه ومستشاريه. وعادة ما يكون الصحفيون الذين يغطون ما يجري في البيت الأبيض من بين الأفضل في مجال عملهم.

وهكـذا، فبعـد ظهر يـوم الاثنـين ذاك، ولم يكـن قد مضـى على استلامـي منصب السكرتـير الصحفي سوى أقل من ثلاثة أشهر، كنت مستعداً لخوض معركة كلامية. كان

هناك حشد صحفي كبير في قاعة اللقاءات الصحفية. بعض «الثابتين» (من المصورين) كانوا جاهزين لالتقاط صورة أو اثنتين تتناسب والعناوين التي ستتصدر الصفحات الأولى التي ستطبع في صحف البلاد صبيحة اليوم الثاني؛ وإذا استطاعت الصحافة أن تحشرني في زاوية، فستكون الصورة غير مرضية. تمت تهيئة الكاميرات المحمولة العائدة إلى عدة شبكات لأربعة أو خمسة من المصورين وتثبيتها على أعمدة ثلاثية القوائم على بعد ثلاثة أو أربعة أقدام إلى يساري، بالإضافة إلى كاميرا تدور بشكل مستمر بين الداخل والخارج خلف كتفي الأيسر. كانت شبكات الكبل تتهيأ للبث المباشر على الهواء وذلك بهدف تغطية واحد من الأخبار الرئيسة في ذلك اليوم: البيت الأبيض قيد التحقيق بسبب ما نقل عن تسريب معلومات سرية عن مسؤول سري - وهذه تشكل جناية محتملة إذا حدثت بشكل مقصود ومتعمد.

أحسست بأنني جاهز تماماً. الجلسة الإعدادية التي كانت بمثابة «منصة قتل»، والتي تدربت عليها قبل عقد اللقاء الصحفي كانت مفيدة جداً (وهي بمثابة لقاء صحفي تمثيلي غير رسمي مع كل من نائبة السكرتير الصحفي ومساعدتها، وهو ما منحني فرصة التدرب على الإجابة على أسئلة وضبط إيقاع إجاباتي). كان كل من كارد وغونزاليز قد أكدا لي سلفاً أن أحداً في البيت الأبيض غير متورط في الكشف عن هوية بليم.

وبما أن الموضوع طرح في الحوارات الصباحية مع الصحفيين، فقد قمت بزيارة للرئيس قبل عقد اللقاء الصحفي للتأكد من موافقته على قولي في معرض إجابتي عن أسئلة تتعلق باحتمال أن يقوم بطرد أي شخص يثبت تورطه في تسريب معلومات سرية، وخصوصاً تسريب اسم فاليري بليم. أخبرته بأنني أنوي القول إن أي شخص متورط في هذا الأمر لن يبقى في طاقم الإدارة.

وافق الرئيس على ما قلته، وأضاف بحزم: «سأطرد كل من يثبت تورطه في ذلك». لقد حصلت على موافقته الكاملة وغير المشروطة. سألني فيما إذا كنت قد حثثت الصحفيين على التقدم للإدلاء بأي معلومات إذا كانوا يعرفون الأشخاص الذين تسببوا في التسريب. قلت له إنني سأذكر لهم هذا الطلب. قال: «حسنٌ؛ أظن أن عليك فعل ذلك». كنت أشعر

بالأدرينالـين ينسكب في عروقي وأنا أعطي الإشارة لجوش ديكارد، وهو أحد مساعديَّ في الفريـق الصحفي الذيـن يبذلون جهوداً كبيرة ولا يدفع لهم سوى القليل كي ينبه إلى أننا سنبـدأ بعد دقيقتين، بحيث تستطيع شبكات الأخبار التهيئة لنقل حي ومباشر في اللحظة التي ألج إلى قاعة اللقاءات الصحفية.

عندمـا يرى الزوار قاعـة اللقاءات في البيـت الأبيض، يقولون عـادة «إنها تبدو أكبر علـى شاشة التلفزيون». إنها مكان ضيق وقذر، خصوصاً في الأيام التي تكون فيها معظم المقاعد الثمانية والأربعـين مشغولة، ويكون صحفيون آخرون واقفين في الممرات الضيقة. سـوف تشاهد تحت الأنـوار المبهرة العديد من (الميكروفونـات) وهي تتدلى من السقف، وكذلـك المصورين الثابتين، وفرق مصوري الشبكات متلاصقين إلى جانب بعضهم بعضاً لدرجـة أنهم يكادون يتسببون في انهيار المنصـة؛ في هذا المشهد، لك أن تتخيل الحصول على مقعد مريح.

رفضت بحدة التلميحات التي تضمنتها الأسئلة، وتحديت الصحفيين أن يقوموا بتقديم أي معلومـات تشير إلى أن عاملين في البيت الأبيض مسؤولون عن عملية التسريب. كررت التأكيـد أن الرئيـس يتوقع من كل العاملـين في إدارته أن يلتزمـوا بأعلى معايير الأخلاق المهنية والسلوكية، وأن أحداً لم تمنح له صلاحية تسريب اسم زوجة ويلسون.

حاول تيري موران، المراسل الرئيس لشبكة ABC News في البيت الأبيض أن يحشرني في الموضـوع الذي كنت قد أكدت عليه في الحوارات التي جرت صبيحة ذلك اليوم ومفاده أن الرئيس متأكد من أن كارل روف لا علاقة له بالتسريب. كانت صورة لقائي مع الرئيس مـا تزال حيـة في ذاكرتي، ولكن من دون قصد مني، غفلـت أن أذكر، في معرض إجابتي علـى السـؤال، الأسباب التي حدت بالرئيـس إلى عدم توجيه البيـت الأبيض إلى تقصي الأمـر وكشـف جذور هذا اللغـط، أو عدم إظهـار أي اهتمام في معرفة مـا إذا كان كبير مستشاريه متورطاً. وهو ما أدى في الحال إلى التساؤل: كيف «علم» الرئيس بذلك؟

كان مـن الأسهـل إهمـال ما جـرى لاحقـاً بالكلية، لـو تم طرحه أثنـاء الحوارات الصباحية. ففـي اللقاء الصحفي المنقول بواسطة (عدسـات التصوير)، «تراقصت

حـول السـؤال» قبل أن أكرر جملـة أستخدمها أحيانـاً: «لسنا متعوديـن على مناقشة الأحاديث التي تجري بين الرئيس وكبار مستشاريه».

في جوابي على سؤال طرحته دانا باش من محطة CNN حول السبب الذي دعا الرئيس إلى عـدم اعتبـار المسألـة موضوعاً أخلاقياً نظـراً إلى أنه ألزم نفسه حـين كان مرشحاً بإعـادة فرض معايير الشـرف والقيم الأخلاقيـة إلى البيت الأبيض، قلـت: «لقد أرسى الرئيس معايـير أخلاقية عالية المستوى وطلب من الأشخاص العاملين في إدارته الالتزام بهـا. لقد أوضح بشكل غـير قابل للبس لجميع العاملين في إدارته أنه يتوقع منهم الالتزام بأعلـى معايير السلوك الأخلاقي. ولوثبت أن أحداً في هذه الإدارة أياً كان موقعه، متورطٌ في هذه المسألة، فإنه لن يستمر في العمل ضمن إدارته».

تم ترداد هذه الكلمات الأخيرة كثيراً في وسائل الإعلام على امتداد السنوات اللاحقه خصوصاً بعد أن ظهرت إلى الضوء معلومات مهمة. كنت واثقاً كل الثقة في ما قلته بسبب أننـي حـزت على موافقـة الرئيس على قـول ذلك، وبسبـب أن التزامـه بمعايير الشرف والاستقامة، وهو الالتزام الذي كان غالباً ما يردده، محفور في ذهني.

عندمـا أعلن عـن ترشحه للرئاسة سنة 1999، قال بوش: «سـوف نثبت أن السياسة، بعـد حقبة تم فيها تمريغ المثل والقيم العليا بالوحل، يمكن أن تكون أسمى وأفضل. سوف نمنح بلادنا فرصة لبداية جديدة بعد موسم من التشكيك بالقيم».

في الثاني والعشرين من شهر كانون الثاني، يناير، سنة 2001، اليوم الأول لنا في البيت الأبيـض، ذكّرنـا الرئيس جميعاً نحـن العاملين في إدارته، وذلك في احتفـال أداء القسم العلني لكبـار أركان العاملين في البيت الأبيض، بضرورة الالتزام «بالمعايير السامية التي تعد من متطلبات المناصب العليا» وتجنب «حتى مجرد السماح بظهور المشكلات».

كان التزامه بالمثـل الأخلاقية العليا قد جعل العديد منا، نحن العاملين معه، فخورين بتلبيـة النـداء كي ننضـم إلى فريقه. كنـا نؤمن بأن هـذا الرئيس ملتزم بشـكل لا يقبل المساومـة، بأشياء أفضل ممـا رآه الأمريكيون من أسلافه من القـادة المنتخبين. كما أنه بنى سمعته جزئياً على أساس أنه يقول ما يعني، ويفعل ما يقول.

الآن، وبعــد سنتين ونصف على انتخابه، بدأ الســؤال يدور في أذهان الناس، حول ما إذا كانت هذه الإدارة ما تزال ملتزمة بهذه المعايير الأخلاقية السامية.

انتهــى اللقاء الصحفي بعد خمس وأربعين دقيقــة على بدايته. كان الوقت مناسباً كي أبــدأ بتخفيض نسبة الأدرينالين في دمي بعد هذه الجلســة المشحونة، وأستمتع باللحظة. كانت ردة الفعل المتمثلة في الملحوظات التي تم إبداؤها بعد اللقاء الصحفي من قبل نوابي ومساعديَّ إيجابية جداً.

كانت النسخة الرسمية المكتوبة التي أصدرها البيت الأبيض للقاء الصحفي ذاك تبلغ اثنتان وثلاثون صفحــة. الصفحات الأربع والعشرون الأولى كانت مكرسة للتحقيق بشأن التسريــب. أكثر من مائة وعشرة أسئلة على امتداد ثلاث وثلاثين دقيقة ونصف الدقيقة مرت قبل أن نناقش في موضوعات لا علاقة لها بالتحقيق حول التسريب.

تلقيــت الكثير من العنــاق عصر ذلك اليوم تعبيراً عن السعــادة بالطريقة التي أدرت فيهــا اللقــاء تحت كثير مــن الضغط. تلقيــت المديح مــن زملائي في البيــت الأبيض وفي الإدارة، وحتى من عدد من الصحفيين المتواجدين في البيت الأبيض. حتى أن بيل بلانت، وهو صحفي ساخر مخضرم يعمل مراسلاً لصالح شبكة CBS News في البيت الأبيض، قال لي: «شاهدت الكثيرين ممن شغلوا منصب السكرتير الصحفي في مواقف صعبة. لم يكن ما حدث اليوم سهلاً أبداً. أريد فقط أن أقول إنك قمت بعمل جيد».

عندمــا التقيــت بالرئيس في وقت لاحق مــن ذلك اليوم، قال كالآخريــن: «قمت بعمل جيد، اليوم». عبرت له عن تقديري لرأي من دون أن أعرف أنه بالفعل شاهد أي جزء من اللقاء، أو أنه ببساطة أُعلِمَ عن فحواه بواسطة زملائي من كبار الموظفين.

لا أعرف إذا كان هذا أفضل أداء قمت به في غرفة اللقاءات الصحفية، لكنني شعرت بالارتيــاح لما قمت بــه، وحتى أن شعوري أصبح أفضل بعــد أن تلقيت طائفة من العبارات اللطيفــة علــى امتداد ذلــك اليوم. أظهرت أنني علــى الأقل جاهز لأقوم بمــا عليّ القيام بــه للمساعــدة في توجيه دفة سفينــة البيت الأبيض في عهد بوش التــي تمخر عباب المياه المضطربــة في بحر حملة إعادة انتخابه. كانت نشــرات الأخبار لليلة الثانية على التوالي،

تبث في عناوينها الرئيسة قصة التسريب؛ تماماً كما كانت تفعل برامج الصباح الحوارية والصحف في اليوم الثاني.

لن تكون تلك، المرة الأخيرة. وكالحرب التي تقبع في جذور الفضيحة، فهي لن تختفي في أي وقت قريب.



11

الرهان على الرئاسة

كانت حلقة التسريب مجرد نتاج جانبي لأكثر قرارات بوش أهمية، وأكثر الموضوعات هيمنة على الساحة في واشنطن في الوقت الذي استلمتُ منصب السكرتير الصحفي للبيت الأبيض: ألا وهي الحرب على العراق. الكثير من مظاهر هذه الحرب سوف تؤثر في ما تبقى من الفترة الأولى لرئاسة بوش، وخصوصاً مع اقتراب يوم الانتخاب.

على امتداد النصف الثاني من سنة 2003، وصولاً إلى سنة 2004، حيث أضحى احتلال العراق أكثر إثارة للجدل، اكتشف الديمقراطيون مدخلاً للنيل من مصداقية بوش، وحكمه على الأشياء، بل حتى كفاءته. هل بالغ الرئيس وفريقه، أو حرّفوا التقارير الاستخباراتية حول أسلحة الدمار الشامل كي يضللوا الأمة عن سابق تصور وتصميم، ويجروها إلى الحرب؟ كيف للحرب التي شنت على العراق أن تكون جزءاً من الحرب ضد الإرهاب طالما أن العراق لم تكن له علاقة بأحداث الحادي عشر من أيلول، ولم تكن له أي صلة بالقاعدة؟ لماذا اندفع بوش باتجاه الحرب من دون أن تكون بحوزته أي خطة للانتصار في السلام؟ كيف أخطأت الإدارة في حساباتها بشأن قوة المتمردين بهذا الشكل الفاضح؟ فإما أن يكون بوش ومستشاروه قد قلبوا الحقائق (وفي هذه الحال، فإنهم أقل من أن يتصفوا بالصدق)، أو أن يكونوا أخفقوا في تبيان الحقيقة في الوقت الذي كانوا على عجلة من أمرهم لإسقاط صدام حسين (وفي هذه الحال، فإنهم أقل من أن يتصفوا بالأهلية).

في كلتا الحالين، بدا الرئيس هشاً. وقد شكّل هذا تغيراً حقيقياً من المرحلة التي أعقبت انتخابات الكونغرس النصفية عندما كان بوش يحلق عالياً في استطلاعات الرأي لدرجة أن العديد من الخبراء توقعوا أن عملية إعادة الانتخاب ستكون رحلة سهلة.

كانت وسائل الإعلام في واشنطن قد دبت فيها الحياة وعاد إليها الزخم والنشاط بسبب احتمال أن المنازلة السياسية ستكون ساخنة. ومع البدء في طرح تساؤلات حول

مصداقيــة الرئيس، والحرب التي تزداد وتيرة كلفتهــا، بالإضافة إلى موضوع الانتعاش الاقتصادي الذي ما زال ينتظر منه أن يؤدي إلى خلق وظائف جديدة، فقد بدأت شعبيته تتهــاوى، كمــا أن عدد الأمريكيين الذيــن لا ينظرون إليه بثقة يزداد مــع الأيام. وقد أثّر ذلــك بدوره في التغطيــة الإعلامية، وهو ما يحــدث عادة أثناء الحملــة الدائمة. عندما يكــون موقــع الرئيس عالياً في استطلاعات الــرأي، فإنه يصور من قبــل وسائل الإعلام علــى أنه مستأسد؛ وعندما يكون موقعه منخفضاً، أو يميل نحو الانخفاض، فإنه يتعرض للهجــوم مــن وسائل الإعلام. في حال جــورج دبليو بوش، كان لوسائــل الإعلام أكثر من حجــة لتغيير نبرتهــا تماشياً مع الرأي العــام. ولأن وسائل الإعــلام أخفقت في أن تكون مشككــة بمــا فيه الكفاية، أو جازمــة في المدة التي سبقت الحــرب، فإنها تبحث الآن عن وسيلــة لمعالجة هــذا التقصير عبر الوقــوف في وجه رئيس ذي وضع هشــ بطريقة فيها الكثير من العدوانية.

بقــي بوش، ومعه نحن، أعضاء فريقه واثقين. بقينــا محافظين على كبريائنا المتنمر الــذي انطلقنا به مــن البيت الأبيض، مدججــين بآلة حملة انتخابية هائلــة يقودها كارل روف الشهــير الذي لا يهاب شيئاً، وبقاعدة من الجمهوريــين الممتلئين حيوية، وشبكة من المؤيديــن على امتداد البلاد من معلقين في قنوات الكبــل الإخبارية، والنقاد الصحفيين، ومضيفــي البرامج الحواريــة الإذاعية الذيــن كان بالإمكان الاعتماد عليهــم للدفاع عن الرئيــس. أجرينا كل الحسابــات السياسية ضمن سياق إستراتيجيــة الحملة الإجمالية، والتــي كانت محسوبة بطريقة تضمن فيها أن موضــوع الأمن القومي - خصوصاً الحرب على الإرهاب، وهي نقطة القوة عند بوش - سيبقى محور المناظرات العلنية.

أكثر من ذلك، فحتى عندما كانت شعبية بوش الشخصية تتراجع، تذَكّر بوش وأعضاء فريقه المثل القديم القائل: «ليس بإمكانك أن تهزم شخصاً موجوداً باستخدامك شخصاً غير موجود». كان بوش ما يزال «موجوداً»، وكان ما يزال «شخصاً» ذا حضور هائل، بينما لم يكــن الديمقراطيون قــد اتفقوا بعد على مرشح لانتخابات سنــة 2004 - أي «شخص موجــود» له نقاط ضعفه وهشاشته الخاصة بــه. حالما تمت تسمية المنافس الديمقراطي، بــدأ كارل روف بتوجيــه هجومه عليه، مجريــاً مقارنات مناسبة للرئيــس، وغير مناسبة

للمتحدي. وكما تبين للجميع حينها، فإن أحداً لم يكن باستطاعته القيام بأفضل مما قام به روف.

علـى الرئيس أن يتخذ موقفاً متصلباً بشـأن الحرب على العراق. ولن يكون هناك أي تراجع من قبله حول فكرة ضرورة الحرب. لن يكون هناك أي تخمين ثانٍ حول الحرب في العراق. لن تكون هناك أي شكوك بشأن النتيجة النهائية للحرب.

لم يعـد لمسألتيّ تغيير نبرة الخطاب وإنهـاء الحرب الحزبية في واشنطن أي أهمية أو اعتبـار. لقد حان الوقت بالنسبـة للمنافس بوش الذي تحركه الدوافع السياسية كي يقف بثبـات، ويوضح بما لا يقبـل الشك الخيار الذي يواجهه الشعـب الأمريكي في الانتخابات القادمة. فرئاسته كانت على المحك، وإرثه كان في خطر. ولهذا فهو سيراهن على كل هذا بما يجري في العراق.

عنـد العودة بالذاكرة إلى هـذه المسألة، يمكن القول إن تلك كانـت الحقبة الحاسمة بالنسبة لرئاسة بوش. وكشفت الكثير عن شخصيته قائداً.

***

كنـت بصفتي السكرتـير الصحفي أشـارك بانتظـام في معظم اجتماعـات الرئيس الأساسيـة: مثـل المداولات حول السياسـة المتبعة، والتواصل مـع الكونغرس، واجتماعات الحكومـة، وزيارات رؤساء الدول. وكموالٍ من ولاية تكساس، كنت عضواً موثوقاً في فريق كبـار مستشاري الرئيس، وكنت غالباً ما أجتمع به مع مجموعة منتقاة من أقرب المقربين ومن بينهم كارد، وروف، ورايس، وبارتليت.

كانـت اللقـاءات مع رؤسـاء الدول تضـم عادة وفـوداً صغيرة الحجـم، متساوية في العـدد وتمثل كلاً من الفريقـين. كان وفد الرئيس يتكون عادة مـن السفير الأمريكي في الدولـة المعنية، ومستشار الأمن القومي، ووزيـر الخارجية (أو أحد نوابه أو مساعديه) ، ومديـر مجلس الأمن القومي للمنطقـة التي أتى منها الوفد الضيف، ورئيس أركان نائب الرئيس، أو المسؤول عن الأمن القومي في المنطقة (إذا لم يكن تشيني نفسه) ، والسكرتير

الصحفـي. كان وزير الدفـاع يحضر أحيانـاً، أيضاً. في المكتب البيضـاوي، كان كل من الرئيس وضيفه الأجنبي يجلس على كرسي موشى باللونين الأزرق الفاتح والذهبي قرب المدفـأة. كان وفدنـا يجلس في العـادة إلى اليسار من بوش، وعادة مـا يكون ثلاثة منهم يجلسـون على أريكة واحدة، ويلي ذلك اثنـان أو ثلاثة يجلسون على كراسي. وكان الوفد الضيف يجلس في الطرف المقابل من الغرفة بالترتيب نفسه.

كانـت رؤيـة بوش الإستراتيجية بشـأن تغيير الشـرق الأوسط عبر إقامـة عراق حر وديمقراطي واحدة من الموضوعات التي أكد عليها في كل لقاء له مع رؤساء الدول. وكانت تلـك اللقاءات، في المرحلـة الأولى من تسلمـي لمنصبي سكرتيراً صحفيـاً، توحي لي بأن تفكـير بوش بالتغيـير الديمقراطي كان هو السبب الرئيس والمحـرك لغزونا للعراق. فقد كان الغـزو يمثـل مهمة ذات أبعاد إستراتيجية أكبر بكثير مـن تلك التي كان يتم التركيز عليهـا علناً وتتمثل في إزالة «خطر كبـير وداهم» قادم من العراق. وبينما كانت احتمالات اكتشـاف أسلحة دمار شامل في العراق تتهاوى، فإن الحلـم المتمثل بتغيير المنطقة أصبح الجزئية الأكثر أهمية في خطاب الرئيس - وخطابي.

قبـل يوم واحد مـن استلامي منصب السكرتـير الصحفي، حضـرت اللقاء الذي تم بـين الرئيس والأمين العـام للأمم المتحدة كوفي أنان في المكتـب البيضاوي. بدأ الاجتماع بمناقشـة حول رحلـة الرئيس الأخـيرة إلى إفريقيـا، والدعم غير المسبـوق الذي قدمته الولايات المتحدة للقارة المنكوبة بما في ذلك أدوية لمعالجة مرض الإيدز، وتوسيع التجارة، ومحاربـة الجوع، ودعم الجهود التـي تبذلها القارة عبر قوات حفـظ السلام في المناطق التي تشهد نزاعات وحروب أهلية.

انتقل الحديث بعدها حول العراق، وكان موضوعاً مغلفاً بالتوتر. فقد حث أنان بوش قبل الغزو، أن لا يقوم بتحرك إلا بدعم من الأمم المتحدة، وهي نصيحة رفضها بوش. كان بوشـ يعتبر أنان قائداً ضعيفاً، يختصر في شخصـه الهيئة العديمة الفاعلية التي يمثلهـا. وكان أنان، الدبلوماسي اللطيـف، الذي لا يأبه كثيراً للأضواء غير موحٍ بالثقة البتـة، لبوش الحـازم، والفاعل، والمهتم بالنتائج. ومع ذلـك فقد كانت علاقتهما ودية ومبنية على الاحترام المتبادل.

شكـر الرئيس أنان لإيفـاده ممثله الشخصي سيرجيو فيـيرا دو ميلو الذي يتمتع بقدر واسع من الاحترام للمساعدة في مرحلة التحول في العراق. فقد شعر بوش وفريق السياسة الخارجية لديه أن من المهم أن يكون هناك وجود للأمم المتحدة في بغداد. فكلما كان هناك وجـود أكـبر للأمم المتحدة ودول أخـرى في العراق - بما في ذلك الـدول التي عارضت في البـدء القرار الأولي لشن الحرب - كان الحمل أخف على كاهل الولايات المتحدة. بطبيعة الحال، كان هذا الموقف يشكل تناقضاً بشكل أو بآخر، إذا أخذنا بعين الاعتبار رغبة الرئيس بشـن حرب استباقية مـن دون موافقة واضحة من الأمم المتحـدة (بالرغم من أنه اعتبر قـرار مجلس الأمن رقم 1441 بمثابـة إعطاء ضوء أخضر له كي يقـوم بذلك). من هنا، يمكـن فهم تشجيع بوش الخجول لتواجد الأمم المتحـدة في العراق، وكياسته الدبلوماسية الدائمة مع أنان وبعض القادة المشككين الآخرين، في السر وفي العلن.

لسـوء الحـظ، قتـل فييرا دو ميلـو بطريقـة مأساويـة في التاسع عشر مـن شهر آب، أغسطس، سنة 2003 بتفجير إرهابي استهدف فندق القناة في بغداد الذي كان يستخدم مركـزاً محلياً للأمم المتحدة منذ سنة 1991. وقتل معـه في هذا التفجير واحد وعشرون من أفراد طاقم الأمم المتحدة. وبنتيجة ذلك، قلصت الأمم المتحدة انخراطها وحضورها في بغداد في المستقبل المنظور.

أكد بوش في حديثه مع أنان على رأيه أن عراقاً ديمقراطياً وحراً، يمثل قاعدة أساسية للسلام في الشرق الأوسط. اعترف بأن الحال هناك تتجه نحو الصعوبات، إلا أنه أكد أن التحالـف يسيطر تدريجياً على الموقف. قال إنه شعر أن بول بريمر يقوم «بعمل رائع» عبر إشرافه على الفترة الأولى من مرحلة التحول الديمقراطي الذي يشهده العراق. أكد أنان علـى الحاجة إلى إظهار أن «هناك ضـوء في نهاية النفق» لسلطة التحالف الانتقالية التي يقودهـا بريمر، كما وصف المجلس العراقي الحاكـم الذي كان قد أعلن عنه مؤخراً، وهو عبـارة عن هيئة تمثيلية موسعة، تم تعيينه من قبـل سلطة التحالف الانتقالية، «بالخطوة الإيجابيـة جداً» باتجـاه وضع العراق على الطريق نحو السيـادة. لقد تحولت الموضوعات التـي يطرحها بوش بالنسبة لي إلى أمور مألوفـة يوماً بعد يوم، وأنـا أحضر لقاءاته مع زعماء العالم في دوري الجديد سكرتيراً صحفياً.

في اليـوم الأول لاستلامـي منصبـي الجديـد، كان الرئيـس يستقبـل رئيـس الوزراء التشيكـي فلاديمير شبديلا. بدأ الرئيس اللقاء بشكر رئيـس الوزراء على «الدعم القوي الـذي أبداه في وجـه الانتقادات العنيفة» بشأن العراق، وأعلمـه أن إدارته لن تنسى «هذه القيـادة القويـة». علمت فيما بعد، أن هذا هو أسلـوب الرئيس؛ فقد كان يميل إلى الحكم علـى شخصية «وقوة» زعيم أي دولة عبر دعمه لقرار غزو العراق. وكان (شبديلا) شأنه في ذلك شأن بعض القادة الذين عاشوا تحت ظل الحكم الشيوعي، يشاطرون حماسة بوش للحرية، ولهذا فقد وقفوا بقوة إلى جانبه في الحرب على العراق.

قـال شبديلا إنه يعتقد أن ما تفعله الولايات المتحـدة في العراق «يهدف إلى المساعدة في جلب السلام والاستقرار» لمنطقة الشرق الأوسط. أجاب بوش قائلاً: «لقد أثرتَ نقطة مهمة جداً. فمن المهم أن نبقي في أذهاننا الصورة الكبرى المتمثلة برؤيتنا. فالموقف الذي اتخذنـاه في العراق سوف يجلب السلام والاستقرار. إنني أؤمن فعلاً أن عراقاً حراً وآمناً سوف تكون له تداعياته الطويلة المدى [على الشرق الأوسط]. فالحرية قوة.

في أواخـر شهر تشرين الأول، أكتوبر، سنة 2003، قام الرئيس بزيارة إلى كانبيرة في أستراليـا، بعد انتهاء مؤتمـر القمة الاقتصادية لمنطقة آسيا المطلـة على المحيط الهادي الـذي عقد في بانكوك تايلندة؛ وبعد أن توقف في كل مـن اليابان وسنغافورة وإندونيسيا. التقـى بوشـ برئيس الـوزراء الأسترالي جـون هوارد الـذي كان بوش يعـده حليفاً جيداً وصديقاً. حضرت الاجتماع في غرفة مجلس الوزراء داخل مبنى البرلمان.

كان هوارد، بالرغم من الانقسام الشديد بين الأستراليين، يقف بقوة وراء قرار بوش للإطاحة بصدام حسين، واستطاع إقناع البرلمان الأسترالي بضرورة إرسال قوات لدعم الغزو والاحتلال الذين قادتهما الولايات المتحدة. ناقش كل من بوش وهوارد كما درجت عليـه العادة في لقاءاتهما، عدداً من القضايا الملحة، بما في ذلك العراق، وعملية التغيير في الشرق الأوسط.

قـال بوش لهوارد: «أشكرك على موقفك الحازم، وعلى صداقتك. من المهم أن يمتلك المـرء الشجاعـة للقيـام بما هو صـواب. هذا بالضبط، مـا قمتَ به يا جـون. سوف يغير العراق خريطة الشرق الأوسط. وسوف تتغير إيران» بسبب ما نقوم به في العراق.

في وقت لاحق في ذلك الاجتماع، سأل أحد مستشاري هوارد الرئيس بوش إذا كان يعتقد أن الثقافة الإسلامية يمكن أن تتبنى الديمقراطية.

أجاب بوش: «أظن أن ذلك سيحدث بمرور الوقت، وأعتقد أن العراق هو المكان المناسب» الذي سيجعل ذلك ممكناً. «سوف يتحول إلى دولة حرة وديمقراطية» مثله مثل «التحول الذي تشهده» كل من تركيا والبحرين.

أضاف بوش قائلاً: «أؤمن أن الحرية هي أعمق الآمال في قلب كل إنسان. وأظن أن هناك عدداً كافياً من القادة المسلمين الملتزمين بمبدأ الحرية وذلك لقيادة الدول الإسلامية في ذلك الاتجاه. أعتقد أن ذلك سوف يحدث».

في أوائل شهر تشرين الثاني، نوفمبر، استقبل الرئيس بوش رئيس وزراء سيريلانكا، رانيل ويكريميسينغ في البيت الأبيض. بدأ الرئيس بشكر رئيس الوزراء على «موقفه القوي» حيال العراق في آخر اجتماع عقدته الجمعية العامة للأمم المتحدة في أيلول، سبتمبر. أكد رانيل أن الولايات المتحدة «لم يكن لها خيار سوى التدخل» عسكرياً، وهو ما أدى إلى توجيه انتقادات شديدة له في وسائل الإعلام في بلاده. أكد بوش أن «القرارات التي اتخذتُها كانت استجابة للمخاوف الأمنية في أمريكة. كما أؤمن أيضاً أن المجتمعات الحرة هي مجتمعات مسالمة». أضاف أن الطريقة التي تعامل فيها مع صدام حسين جعلت دولاً مارقة أخرى مثل كوريا الشمالية تعرف كم أن الولايات المتحدة جادة في مواجهة التحديات. وقال بوش: «بعد خمسين سنة من الآن، سوف يقول الناس «شكراً» على ما نفعله في العراق. لقد وقفتم بصلابة في وجوه منتقديكم. أؤكد لكم أمراً واحداً: إن العراق الحر والآمن سوف يساعد في التوصل إلى سلام في الشرق الأوسط».

كان الثبات والشهرة التي تميزت بهما لغة الرئيس الطنانة، لافتة في لقاءاته مع قادة الدول الأجنبية. لقد أقنعني ذلك بصدق عاطفته تجاه فكرة زرع الديمقراطية بصورة قسرية كطريقة لإحلال السلام في الشرق الأوسط. يمكن للمرء أن يتساءل حول الحكمة من هذه الخطة أو فاعليتها، ولكن ليس حول صدقية رؤيته الشخصية التي قادت إليها.

في ذلك الوقت، كانت من القوة والأمل بحيث إنني بدأت أؤمن بها أيضاً، وهو ما ساعد على قمع كل التشكيك الذي كان بداخلي حول القرار الأصلي.

⌘ ⌘ ⌘

كان التواصل مع الشعب الأمريكي حيال الوضع في العراق أكثر صعوبة. فبعد أن تم تسويق فكرة ضرورة الحرب عبر فكرة أن صدام كان يشكل تهديداً مباشراً ومتزايداً للمنطقة، وللولايات المتحدة، وللعالم، فإن الشعب ووسائل الإعلام كانت تزداد شكوكهم بشكل مطرد بعد انقضاء فصل الصيف من دون العثور على أسلحة الدمار الشامل. لذلك انتابنا شعور بالارتياح في نهاية شهر تموز، يوليو، وفره لنا نبأ مقتل نجليّ الدكتاتور صدام عديمَي الرحمة والمكروهَين، عدي وقصي حسين؛ وأدى ذلك إلى تحولٍ في اهتمام وسائل الإعلام لبرهة قصيرة. لقد جاء هذا النبأ مناسباً لتوقيت المؤتمر الصحفي الذي يعقده الرئيس عادة في منتصف الصيف؛ وهو حدث يتم عادة في نهاية شهر تموز، يوليو، أي مباشرة قبل أن يتوجه الرئيس وبعض أفراد طاقمه إلى كروفورد في ولاية تكساس لقضاء شهر آب، أغسطس، هناك. وكان ذلك سيكون المؤتمر الصحفي الرسمي الأول الذي يعقده بوش بعد الغزو.

كان من الصعب علينا دائماً، نحن أعضاء فريقه من المستشارين تقويم النبرة التي يستخدمها الرئيس عند مناقشته للوضع العراقي بشكل دقيق. لم نكن نريد له أن يظهر أي نوع من التشاؤم بالطبع، لكننا لم نكن نريد له أن يبدو منفصلاً عن الواقع المؤلم على الأرض، والذي تنقله وسائل الإعلام يومياً. ومع تغير الأحداث في العراق بشكل يومي وغير متوقع، ومع وقوع هجمات متكررة ضد القوات الأمريكية - بالرغم من إعلان الرئيس في شهر أيار، مايو، أن العمليات العسكرية الكبرى قد انتهت - فقد كانت هذه طريقاً لم يكن من السهل سلوكها.

ومع التحضير للمؤتمر الصحفي لشهر تموز، يوليو، اتفقنا أن على بوش قبول المسؤولية عن «الكلمات الست عشرة» الخاطئة في خطابه حول حال الاتحاد. سوف يحتل هذا القبول العناوين الرئيسة في وسائل الإعلام، طالما أنه يشكل خبراً بحد ذاتها. لكننا

كنـــا نأمل أيضاً في لفت الانتباه إلى تطورات أكثر إيجابية في الأسابيع الأخيرة في العراق. كان الرئيســ يفضل لقاء صحفياً أقل رسمية قبل عقد المؤتمر الصحفي. كنت قد أعددت بمساعدة من نوابــي، أسئلة، واقترحت أجوبة عليها كي يستطيع بوش مراجعتها في الليلة التي سبقت المؤتمر الصحفي. كان دان بارتليت، مدير الاتصالات يرغب في أن يقوم بوش بالتركيــز على نقــاط الرسالة الأشمل، وأن يعمل مع فريق كتابــة الخطابات لإعداد كلمة الافتتــاح. عادة ما تكون هنــاك جلستان في اليوم الذي يعقد فيــه المؤتمر الصحفي حيث نتفحصــ الأسئلة التي يحتمــل أن توجه إلى الرئيس. الجلسة الأولى كانت تعقد في المكتب البيضــاوي مباشــرة بعد وصول الرئيســ، أو بعد لقائه الصباحي مــع أجهزة المخابرات. تكـون الجلســة الأولى أقصــر من الثانية في العــادة، وكانت تتراوح بـين عشرين وثلاثين دقيقــة. بينما الثانيــة التي تكون أقرب إلى الموعد المقرر للمؤتمــر الصحفي عادةً، وتعقد في المكتــب البيضاوي فتتراوح بين ثلاثين وخمســ وأربعين دقيقة. كان كل من آندي كارد، وكونــدي رايســ، وكارل روف يحضــرون عادة، واحدة مــن هاتين الجلستــين على الأقل. كان بوشــ يجلس إلى مكتبه في جلسات «منصـــة القتل» هذه بينما نوجه نحن إليه الأسئلة الصعبــة أو القاتلــة. كان بوش يحب أن يخلق جواً من المرح في هذه الجلسات، ساخراً من بعضــ الأسئلة بأجوبة مرحة لا يمكن له أن يتفوه بها علناً. كانت مناسبة له كي يسترخي، ويركز تفكيره، بالطريقة نفسها التي يقوم بها لاعب رياضي يشارك في البطولات العالمية، حيث يقوم بعملية استرخاء قبل البدء بالمباراة الحاسمة.

عندمــا تبدأ اللعبة، يكون الرئيس جاهزاً. يحقــق إصابات دقيقة، على كل الأهداف التي يصوب عليها، الواحد تلو الآخر. أشار إلى التقدم الذي نحرزه في العراق في الوقت الذي اعترف أننا نواجه صعوبات هناك داعياً إلى التحلي بالصبر. قال إن أغلب مناطق العــراق تشهد قدراً أكبر من الســلام بالرغم من أن «فلول نظام صدام حسين بالتعاون مع الإرهابيين والمجرمين» ما تزال «تقوم بمحاولة أخيرة «لترويع الشعب العراقي والحد من عزيمة قوى التحالف».

أكـد الرئيســ أن «قيــام عراق حر وآمــن يعد مسألــة حاسمة بالنسبــة للاستقرار في الشرق الأوسط، وأن شرقــاً أوسط مستقلاً يشكل مسألة حاسمة لأمن الشعب الأمريكي.

إن نجـاح عراق حر سوف يثبت لدول أخـرى في المنطقة أن الازدهار والكرامة الوطنية لا تتوافـران إلا عبر حكومـة ومؤسسات حرة تمثل الشعب. لا يمكـن لأي من هذا أن يتحقق في ظـل الديكتاتورية والقهر و...دعم الإرهاب. وفي الوقت الذي تتقدم الحرية في الشرق الأوسـط، فإن احتمالات أن تقوم هذه المجتمعات بتفريخ عقائد الكراهية وإنتاج مجندين لصالح الإرهاب ستتلاشى بدرجة كبيرة».

ألمح بوش إلى مقتل عدي وقصي قائلاً: «في الوقت الذي رُفِعَ غطاء الخوف عن الشعب العراقـي، وفي الوقت الذي يستعيد العراقيون ثقتهـم بأن النظام السابق قد ولّى إلى غير رجعة، فإننا نتطلع إلى الحصول على المزيد من التعاون في بحثنا عن الحقيقة في العراق». كمـا عبر عن ثقته بأن الحقيقـة حول أسلحة الدمار الشامل ستؤكد على مصداقية قراره بشـأن خوض الحرب في العـراق: «نعرف أن صدام حسين أنتج وامتلـك أسلحة كيميائية وبيولوجيـة، وأنه استخدم الأسلحة الكيميائية. نحن نعرف ذلك. كما أمضى سنوات وهو يخفـي أسلحة الدمار الشامل هذه عن أعـين العالم. لدينا الآن فريق من المحققين الذين يبذلون أقصى جهودهم من أجل كشف الحقيقة».

تنـاول بوشـ أيضاً بعض القضايا الأخـرى التي تهم الأمريكيـين. متذكراً بأن هزيمة حملـة إعادة انتخـاب والده يعود بشـكل رئيسـ إلى لا مبالاته الواضحـة بمعاناة الشعب الاقتصاديـة («إنـه الاقتصاد يا غبي»)، وواضعاً في ذهنـه الانتقادات الحالية للانتعاش الاقتصـادي على حساب «فقدان الوظائف»، أكد بوشـ على إنجازات إدارته الاقتصادية المتمثلـة بالدعـم الإضافي الذي يتلقـاه دافعو الضرائـب، وأصحاب الأعمـال الصغيرة. وللمرة الأولى، أشار إلى ضرورة الانفتاح على فكرة التعديل الدستوري لمنع الزواج المثلي، وهو موضوع ساخن بالنسبة للقادة المسيحيين المحافظين.

شعرنـا أن الرئيس قام بهذه المهمة بشكل جيـد. ولكن عندما تشتَمُّ الصحافة في لعبة واشنطـن أن سياسيـاً في موقع الدفاع، فإن انعطافاً حاداً مـن نوع خاص في قواعد اللعبة يطـل برأسـه: إذ لا يمكـن التفريق في هذه الحال بـين الحكام والفريـق المنافس. ركزت عناويـن الأخبار التي صـدرت بعد المؤتمر الصحفي على مصداقيـة بواش التي تتراجع،

ومشـيرة إلى إنكاره للاتهامات بشـأن مبالغته في تسويق قضية الحرب على العراق. وكما يقـول المثل القديم المأثور، عندما تكون في موقع الدفاع، فإنك تخسر - وتلك كانت البقعة غير المريحة التي وجد بوش نفسه محصوراً داخلها.

أتبعت محطة NBC News تغطيتها للمؤتمر الصحفي بآخر استطلاع للرأي العام، يظهـر أن معدل الدعـم للرئيس تراجع من نسبة 71 بالمائـة في نيسان، أبريل، إلى 56 بالمائة الآن. في الوقت الذي ازدادت نسبة المعارضين له من 23 بالمائة إلى 38 بالمائة عن الفـترة نفسهـا. من ناحية أخرى، كان ما يزال يحظى بدعـم قوي فيما يتعلق بالحرب علـى الإرهاب، حيث ظهـر أن 66 بالمائة ما يزالون يدعمون الطريقـة التي يعالج فيها هـذه المسألة. كما عبر 56 بالمائة عن اعتقادهم بأن هجوم الديمقراطيين على بوش له «دوافع سياسية».

مع ذلك، لم تكن الميول الشعبية مُرْضية. فلو استمرت المشكلات في العراق بالتصاعد - خصوصـاً لـو استمرت الكُلَـف البشرية والماليـة في الارتفاع، وبـدأت الدوافع الرئيسة الحقيقيـة لشن الحرب تتكشف - فلن تكون المسألة سوى مسألة وقت قبل أن يبدأ الشعب الأمريكـي في التراجـع عـن تأييد الحرب بشكل جماعـي، جارفاً في طريقـه الإدارة التي وضعت مصداقيتها على المحك بِرهانها على هذه الحرب.

✻ ✻ ✻

خـلال فصـل الصيف ذاك، لم نكن قد فقدنا بعدُ الأملَ في الكشف عن أسلحة الدمار الشامـل. قـام ديفيد كاي، وهو عالم يتمتع بقدر كبير مـن الاحترام، ومفتش له باع طويل في مجـال الأسلحة، بتقـديم التأكيد لنا سراً وعلناً أن هنـاك كل الأسباب التي تؤكد على الدليـل اللعـين أن سعي صدام للحصول علـى أسلحة الدمار الشامل سـوف يتم الكشف عنـه في نهاية المطاف. قـاد كاي مجموعة المسح في العراق التي تتكون من أكثر من 1400 شخصـ في مهمة تقصي حقائق شكلها البنتاغـون بالتعاون مع وكالة المخابرات المركزية للبحـث عـن أسلحة الدمار الشامل في العراق. استناداً إلى مـا تم إعلامنا به، شعرنا أنه وبالرغم من أن إمكان أن يكون الكشف عن مخزون ضخم غير وارد، فإن كميات صغيرة

مـن الأسلحة الكيميائية والبيولوجية مـا زال من الممكن الكشف عنها، تزامناً مع الكشف عـن الدليـل على وجود برامج بحثيـة لتطوير أسلحة الدمار الشامـل. لو حدث شيء مثل هذا، فسيؤدي، وبدرجة كبيرة، إلى إضعاف حدة هجوم الديمقراطيين الذين يؤكدون أن إدارة بوش بالغـت في التركيز على التهديد، أو أنها تعمـدت تضليل الشعب الأمريكي كي تتمكن من تسويق الحرب.

أعطانـا تفـاؤل كاي جرعة من الراحـة في البيت الأبيض - وكانـت راحة زائفة، كما تبـين لاحقـاً. ولكن في الوقـت نفسه، سمحت لنا الجهـود المستمرة التـي كان يبذلها في العـراق بالتغطية على (الحجج) التـي ساقتها المخابرات من أجـل تسويغ الحرب. كان مـا يـزال بإمكاننا تأجيل - أو حتى تجنب - الخوض في مسألة الإقرار بأي آراء حاسمة حـول الدافـع الذي قاد إلى الحرب، وما ساعدنا في ذلـك، كان استمرار مجموعة المسح في العـراق في القيـام بمهمتها؛ بالرغم من أنه كان يعوزنا الدليـل الذي يدعم ما أقنعنا أنفسنا بكل ثقة، بالإيمان به.

في أوائل شهر تشرين الأول، أكتوبر، نشر كاي تقريراً داخلياً بشأن التقدم في التحقيق. حـذر من أنه ما يزال من المبكر الوصول إلى استنتاجات نهائية. اكتشفت مجموعة المسح «عشـرات من البرامج المتعلقة بنشاطات حول أسلحـة الدمار الشامل»، لكنها لم تجد أي أسلحـة دمار شامل. تلقفنا التقرير بسرعة كدليل على أن هذا يشكل خرقاً مادياً من قبل صـدام حسين للقـرار 1441، الذي منحه فرصة أخرى وأخـيرة للالتزام بمطالب الأمم المتحـدة بشأن نـزع الأسلحة، أو مواجهـة عواقب وخيمة. أظهر التقريـر أن الرئيس كان محقـاً بشـأن «إزالة الخطر الـذي كان نظامه يمثله بالنسبة للعالم» كمـا قال كولن باول. انتقلـت نقطة الارتـكاز التي كنا نستند إليها من أسلحة الدمار الشامل إلى برامج أسلحة الدمـار الشامل، بالرغـم من أنه لو سئلنا حول هـذا الموضوع، لأجبنا بأننـا مقتنعون أن أسلحة الدمار الشامل لا بد وأن تظهر في النهاية.

استغـل منتقدو الحـرب والديمقراطيون تقرير كاي لطرح إمـكان أن تكون الإدارة في أدنـى الأحوال، قد افتعلت التهديد بأسلحة الدمار الشامل في العراق. وقد ضغطت دايان

سويـر علـى الرئيس للتحدث حول هذا الموضـوع أثناء مقابلة معـه في البيت الأبيض بعد شهريـن وذلـك في شهر كانون الأول، ديسمـبر، سنة 2003. سألت سويـر الرئيس، وهي تستشهـد باستطلاع للرأي يفيـد أن نسبة 50 بالمائة من الأمريكيـين يعتقدون أن الإدارة بالغـت في مسألة الدليل في مرحلة إعدادها للحـرب، فيما إذا كان يعتقد أن إدارته كانت مخطئة أو مُضَلَّلة.

رفض بوش أن يبتلع الطعم. قال إن أجهزة المخابرات كانت دقيقة وأنه «لم يكن هناك شك في أن صدام حسين كان يشكل خطراً». حاولت سوير محاصرته قائلة إنه قبل الحرب، كان هـو وآخـرون من إدارته، قد أكدوا أنه ما مـن شك في أن صدام حسين يمتلك أسلحة دمـار شامل. في معرض إجابته، انتقل الرئيسـ إلى تأكيده الذي غالباً ما يلوذ به من أنه قام بالعمل الصائب بغض النظر عن وجود أسلحة الدمار الشامل، أو عدم وجودها. قال: «كان صدام حسين يمثل خطراً، والعالم الآن في وضع أفضل بعد أن تخلصنا منه».

ألحّـتْ سوير من جديد، مركزة على التمييز بـين أسلحة الدمار الشامل، وبين برامج أسلحـة الدمار الشامل. وأشارت إلى أن الإدارة سبـق لها التأكيد أن «هناك أسلحة دمار شامل، وليس على إمكان أن باستطاعته التحرك نحو امتلاك هذه الأسلحة».

كان جواب بوش موحياً، أكثر مما تأملتُ فيه حينها. سأل بوش: «حسنٌ؛ ما هو الفرق؟» في المحصلـة، لو كان صدام حسين يمتلك أسلحة دمـار شامل، كان ما زال يشكل خطراً. رفض بوش القول فيما إذا كان باستطاعة إدارته أن تكون أكثر دقة في تحديدها للأسباب الحقيقيـة للحرب، ونفى الانتقادات التـي تتهمها بأنه ضللت الشعـب الأمريكي. أكد من جديـد أن الجميـع اطلعوا علـى تقرير المخابرات نفسـه، وخرجوا بالانطبـاع نفسه - أن صدام حسين كان يمثل تهديداً، وأنه كانت هناك حاجة للتعامل مع هذا التهديد.

حظيـت أجوبـة الرئيسـ بكـمٍّ لا بأس بـه من الاهتمـام الإعلامـي، والنقـد من قبل الديمقراطيـين، لظ بعضهـم أن المسـوغ كان أن النظـام العراقي شكل تهديـداً مباشراً وهـو ما استدعـى عملاً استباقياً. لكن هذا لم يكن له تأثير سلبـي على الرأي العام طيلة الوقـت. قبل وقت قصير من إجراء المقابلة مع سويـر، كانت قواتنا قد ألقت القبض على

صـدام حسين حيـث سحبته من «حفرة العنكبوت» التي كان يختبـئ فيها. وفرت لنا هذه الأخبار الجيدة زخماً مؤقتاً اتسويغ الحرب. مع ذلك، فإن الرواية بشأن المبالغة والخداع المتعمدين كانت قد ترسخت، على الأقل منذ أن ظهر اللغط بشأن الكلمات الست عشرة.

كان انعـدام الصراحـة من جانبنا، والبطء في القيام بأي شـيء من شأنه مواجهة المشكلة، حتى لو تمثل ذلك بإجراء تحقيق حول السبب الذي أدى بنا إلى الوقوع في هذا الخطأ، هو ما أدى إلى تكريسه. كان الرئيس محقاً في قوله (من المفترض) أن الجميع كانت لديه المعلومات الاستخباراتية نفسها التي تدفعه إلى التأكد والاعتقاد بأن صدام كان يمثـل خطراً. لكنه هـو من دفع البلاد بسرعة باتجاه الحرب استناداً إلى الطريقة التي رتـب فيها مستشاروه هذه المعلومات الاستخباراتية كـي تبدو أكثر خطورة، وأكثر إلحاحاً مما كانت عليه في واقع الأمر.

وبسبـب استمرارنا في عدم الصدق والصراحة حول قضية الحرب، كان الرئيس يورط نفسـه أكثر فأكثر، ويتسبب في المزيد من إثـارة الشبهات، ويزيد من أوار الحرب الحزبية. وقـد وفر كل ذلك الفرصة لبعض المنتقدين والحزبيـين الديمقراطيين للقيام بطرح أسئلة يلمحـون عبرها إلى عملية تضليـل متعمد قام بها فريق بوش من صانعي السياسات طوَّعوا عبرها التقارير الاستخباراتية لتسويق الحرب. ولكن بما أننا آثرنا تجنب الخوض في مناقشة هذا الأمر، أو التدقيق الشامل في حقيقة كيف حدث كل هذا، لم يكن أمامنا من خيار سوى القيام بهجوم معاكس نطرح فيه علامات استفهام (وليس تفنيدات) حول أمانتهم وعدالة مواقفهم من هذه القضية. وهكذا بدأ أوار الحرب الحزبية يستعر من جديد.

يمكـن في هذا المضمار اتهام وسائل الإعلام بأنهـا بالغت في التركيز على هذا اللغط الـذي سمح للطرف الآخر بالقيام بهجوم ماكر علينا بغيـة استحواذه على اهتمام كبير. لكـن سياسـة اللف والـدوران والمراوغة التي اتبعناهـا أدت إلى بقاء العديـد من الأسئلة المعلقـة في الهـواء من دون إجابة، وهو ما عرَّضَ الإدارة إلى الكثير من الانتقاد المتزايد. كانـت سردية يمكـن تغيير مسارها فقط عـبر الصراحة والاستعـداد لتحمل بعض الألم

السياسـي على المدى القصير عن طريق الاعتراف بأخطائنا. أدركنا في وقت متأخر أننا أضعنا فرصتنا في وضع حد لهذه السرية مرة وإلى الأبد. لكي يتم ذلك، كان على الرئيس أن يقـوم بتحقيـق شامـل حول تسويق الحـرب، متقبـلاً المسؤولية بشكل جلـي؛ ومن ثم، محاسبـة كبار المسؤولين عن هذه القضية. بدلاً من ذلك، اختار الرئيس المضي في طريق كانت لا بد أن تؤدي إلى استحقاق أكبر يدفع ثمنه من رصيد مصداقيته وإرثه.

أدى هـذا النهـج في شهر كانون الثاني، يناير، سنـة 2004 إلى تراجع كبير في معركة كسـب الرأي العام. استقال ديفيد كاي مـن منصبه كرئيس لمجموعة المسح في العراق في ذلـك الشهر، وأقر في شهادة له أمام الكونغرس بعدم وجود أي أكوام من أسلحة الدمار الشامـل. قال كاي «تبين أننا كنا مخطئين جميعاً، ربمـا من وجهة نظري». دعا كاي مثله مثـل قادة الديمقراطيين المعروفـين إلى تشكيل لجنة تحقيق مستقلـة من خارج المؤسسة حـول الإخفاق الواضـح للاستخبارات الأمريكية. لكـن كاي قال إنه لا يعتقـد أن الإدارة مارسـت الضغط على المخابرات مـن أجل تضخيم التهديد الذي يشكله النظام العراقي. (في صيـف سنـة 2004، توصلت لجنة المخابرات في مجلس الشيـوخ إلى الاستنتاج ذاته، مؤكدة أن صانعي السياسات تم تضليلهم بواسطة معلومات استخباراتية خاطئة، وواضعة بذلك حداً لأي تساؤل حول الكيفية التي استغل فيها صانعو السياسات المخابرات).

كان بوش ومستشـاروه يخشون التحقيقات المستقلة من خارج الإدارة. ولكن في الوقت الذي تصاعد الزخم حول إجراء تحقيق مستقل آخر، تبين لنا إيجابيات التحرك بسرعة، وبشروطنـا. أعلن بوش بعدها مباشرة، إنشـاء لجنة مستقلة من الحزبـين للتحقيق في مسألـة تقرير أجهزة مخابراتنا حول أسلحة الدمـار الشامل بما في ذلك، في العراق. تم تعيـين أعضـاء هذه اللجنة من قبل الرئيس، كما تم تحديد مجـال عملها من قبل فريقه. ولكـن صلاحية هـذه اللجنة لن تتضمن النظـر في الكيفية التي استخدمـت فيها أجهزة الاستخبـارات لتسويق فكرة الحرب. هذا ما أراد بوش وكبار مستشاريه أن يتجنبوه خوفاً من أن تكون نتائج مثل هذا التحقيق مدمرة سياسياً في الحد الأدنى - خصوصاً في السنة الانتخابيـة. كانـوا مستعدين للسماح بـأن تصبح الأمـور أكثر تسييسـاً، وبعضهم عدها

معركـة يمكن أن تنتهي بالتعـادل، أو أن تستخدم لتنشيط القاعدة الحزبية، كما اعتقدوا أن الكلفة السياسية على المدى القصير يمكن أن تكون في حدها الأدنى.

لم يكـن بوش يأبه كثيراً أو قليلاً للكيفية التي تم فيها الترويج للحرب. فالمهم بالنسبة إليـه كان يتمثل في شيئين اثنين: سياسة الحكومة والنجاح في تطبيقها. يميل الناس عادة باتجـاه التسامح إذا كانـت النتائج تدعو إلى التفاؤل. إذا كانـت السياسة صحيحة، وإذا كان من الممكن في بعد تعليل تسويق هذه السياسة، عندها لن يكون الفرق بين الاثنتين ذا بـال. بهذا المعنى، كان النجاح في الحكـم بالنسبة إلى العقلية التي تحكم واشنطن، يعني كسب الرأي العام والحصول على نتائج إيجابية.

يبـدو الرئيسـ حتى هذا اليـوم غير آبه بعدم وجـود أي ارتباط بـين المنطق الرئيس، المسـوغ لشن الحـرب، وبين الدافع وراءها، كما أنه لم يبـدِ أي اكتراث للكيفية التي رتبت فيها هذه القضية. فالسياسة هي الأصح، وسيحكم التاريخ لها بذلك، عندما يتبوأ العراق الحر موقعه الثابت، ويبدأ الشرق الأوسط بالتحول أكثر فأكثر باتجاه الديمقراطية.

وقد تشبث بوش بهذا الاعتقاد أثناء مقابلة له مع تيم راسيت في محطة NBC News في برنامـج: «واجـه الصحافة» في أوائل شهر شباط، فبراير، سنـة 2004. سأله مضيف البرنامـج: «في ضـوء الإخفاق في العثور على أسلحة الدمار الشامل، هل تعتقد أن الحرب في العراق كانت حرباً اختيارية، أم أنها حرب أملتها الضرورة؟»

أجابـه بوش: «هـذا سؤال لافت للنظر. أرجـو أن تدقق في هذا الأمـر أكثر قليلاً. هل كانت حرباً اختيارية، أم حرب أملتها الضرورة؟ لقد كانت حملة أملتها الضرورة. لم يكن لدينا أي خيار آخر في رأيي، خصوصاً عندما ندقق في التقارير الاستخباراتية التي دققت فيها، كانت تؤكد أن ذلك الشخص كان يمثل تهديداً.

اذكـر أنني تحدثت إلى الرئيس حول هـذا السؤال بعد المقابلة. كانت تبدو على محياه أارات الاستغراب، وسألني عن الغرض الذي كان راسيت يرمي إليه عبر هذا السؤال.

وهـذا بدوره، أثـار استغرابي. فبالتأكيد كان على بوش التفكـير ملياً وقبل شهور عدة على القيام بالغزو، بأن التمييز بين حرب ضرورية لا يمكن تجنبها، وبين حرب كان يمكن

للولايـات المتحـدة أن تتجنبها لكنها اختارت أن تشنها هـو مسألة في منتهى الوضوح. من الواضـح أن ذلـك لم يكن جلياً بالنسبة لبوش، كمـا أن فريقه في مجلس الأمن القومي لم يشـأ أن يتأكـد من ذلك. فهو مـن رسم معالم السياسة في وقت مبكـر، قام بعدها فريقه برسـم الخريطـة التي يستطيع عبرها تسويق هذه السياسـة. يدهشني اليوم ذلك كدليل علـى غيـاب حس الفضـول لديه، ومقاومته الضـارة للتفكير؛ وهو مـا كان على فريقه أن يملأه بصورة أفضل مما قام به.

يمكـن أن يقول أكـثر المراقبين حيادية أنه في سنـة 2003، لم تكن هناك حاجة ملحة لمواجهة هذا التهديد الذي كان يمثله صدام حسين بغزو شامل، ومن هذا المنظور، لم تكن الحرب ضرورية. لكن هذا سؤال لا يبدو أن الرئيس راغب في الرد عليه.

⌘ ⌘ ⌘

جلسـت من دون حراك وبوجه جامـد كالصخر في القاعة الشرقيـة الأنيقة في البيت الأبيضـ، بـاذلاً أقصـى جهد ممكن كـي لا يبدو عليّ القلـق أمام حشد مـن الصحفيين المجتمعين. مع ذلك، كنت أشعر أن عضلات جسدي تتشنج وأنا أستمع إلى جواب الرئيس المرتبك على سؤال مباشر وواضح.

كان ذلـك بحلول نهايـة مؤتمر وقت الذروة في شهر نيسـان، أبريل، سنة 2004. كان الرئيسـ قد دعا جون ديكرسـون، وهو مراسل مجلة تايم في البيـت الأبيض ليطرح عليه سـؤالاً. ونظـراً إلى أن ديكرسون قـام بتغطية نشاطات بوش منـذ انتخابات سنة 2000، فقد أصبح وجهه مألوفاً ومريحاً. ونظراً لكونه يكره المخاطر، كان الرئيس يتردد في دعوة صحفيين لا يعرفهم كي يطرحوا أسئلتهم عليه، وكان يفضل بدلاً من ذلك الالتزام بقائمة من صحفيين توجد علامات بجانب أسمائهم على جدول المقاعد المتوضعة قبالة المنصة. كانـت القائمة تضم دائماً أشهر الصحفيين من الشبكات الإعلامية المعروفة، والخدمات السلكيـة، والصحـف، بالإضافـة إلى صحفي واحد علـى الأقل لصالـح إحدى محطات الراديو، وآخر لصالح إحدى المجلات الإخبارية.

كانـت ميزة هـذه المقاربة تكمـن في أن الأسئلة التـي يوجهها المراسلـون الإعلاميون المعروفـون تركـز بشكل متوقع علـى العناوين الرئيسـة التي ظهرت خـلال الأسبوع. من النـادر أن يتـم طرح أي سؤال لا نكون قد أعددنا الرئيسـ للإجابة عليه مسبقاً. لم يسبق للرئيس أن أطيح به في اللعبة التي يمارسها، أو شعر أنه غير قادر إما على الاحتماء بآرائه الفلسفيـة، أو إيجاد طريقـة للتشبث بمجموعة من مواد الحديث التي يمكن أن يقرأ منها وهو يغط في النوم.

في تلـك الليلـة، كنـت قد وضعـت إشارة حـول اسم مراسـل جديد لإحـدى المجلات الإخبارية، وكان مرد ذلك يعود بشكل رئيس إلى أن ديكرسون دعي لطرح سؤال منذ مدة قصيرة. لكنني كنت أعرف أن أسئلته الذكية لها سحرها الخاص الذي قد يلقي بالرئيس خـارج المخطط المرسوم. كان يمكن أن تفرض النتيجة تغييراً في التغطية الإخبارية لليوم اللاحـق يختلف عمـا أملنا أن يتم التركيز عليه، أو حتى - وهـذا أسوأ - التسبب في خلق أخبـار فعليـة. ففي أحد المؤتمـرات الصحفية على سبيل المثال، سـال ديكرسون الرئيس حول ما إذا كان يعتقد أن المسلمين يعبدون الإله نفسه الذي يعبده المسيحيون. وفي مؤتمر آخـر، سأل فيمـا إذا كان يتفق في الرأي مع «كثيرين» من مؤيديـه أن المثلية الجنسية هي شـيء لا أخلاقي. كانـت الموضوعات الاجتماعيـة المثيرة للجدل بعيدة جـداً عن المنطقة التـي يشعر الرئيس فيهـا بالارتياح، كي لا يتسبب في إثارة تعليقات كثيرة من قبل الناس. عندما أجاب الرئيس بالقول، نعم، المسلمون يعبدون الإله نفسه كالمسيحيين، أصيب بعض القـادة الإنجيليـين بالذعر. وعندما أجاب على سؤال حول المثليـة الجنسية عبر الإشارة إلى ضرورة التسامح مع كل الأفراد، كانت ملاحظته الأولى أننا «كلنا آثمون»، وهو ما أدى ببعضـ منتقديه من اليسار إلى اعتبار ما قاله سقطـة (لأن بوش كان يلمح إلى أن المثلية الجنسية إثم).

لكـن ديكرسـون كانـت لديه طريقـة مسالمـة، ومبسطة، وجـد واقعية بعكسـ طريقة الرئيسـ، وهو ما جعـل بوش منحازاً إليه. فقد كان سؤاله عادة يرد قبل آخر سؤال؛ وكان سؤاله يوحي بالبساطة إنما بشكل مخادع.

بـادر الصحفـي ذو الشعـر المصفـف بعنايـة إلى القـول في الوقت الـذي كان يلتقط الميكرفـون اللاسلكي: «شكـراً سيادة الرئيس». نهض بعدها واقفـاً كي يطرح سؤاله: «في الحملـة الانتخابيـة الماضية سئلتَ عن أكبر خطأ قمت بـه في حياتك، وكنت تحب أن ترد بدعابة أن أكبر خطأ كان مقايضة لاعب البيسبول سامي سوسا. لا بد أنك تعود بالذاكرة إلى مـا قبـل الحادي عشر من أيلول للتدبر في الأخطـاء التي يمكن أن تكون قد قمت بها. بعد الحادي عشر من أيلول، ما هي أكبر أخطائك، ماذا تقول عنها، وما هي الدروس التي تعلمتها منها؟»

بـدأ الرئيس الإجابـة بتعليق مرح: «كنت أتمنى لو أنك أعطيتنـي هذا السؤال مكتوباً قبـل مدة كافية، كي أستطيع تهيئة جواب مناسب لـه». ضحك الصحفيون الموجودون في القاعة. «أنا متأكد يا جون من أن المؤرخين سوف يعودون بذاكرتهم إلى الماضي ويقولون، يـا إلهـي، كان يمكن له أن يقوم بما قام به بشكل أفضل لو اتبع هذه الطريقة أو تلك. أنت تعـرف أننـي - أنا متأكد من أن فكرة ما، ستجول في خاطـري وأنا هنا وسط هذا المؤتمر الصحفي، بوجود كل هذا الضغط، محاولاً أن أخرج عليك بجواب على سؤالك. لكن هذه الفكرة لم تصل بعد». أعقبَتْ جوابَه هذا مدة طويلة من الصمت الثقيل.

هـل أحسستم يوماً بثوانٍ مرت ببطء الدقائـق؟ عبرت مئات من الأفكار دماغي بينما كان ذلـك الصمت الرهيب يلـف المكان بإحراج لا مثيل له. وجدتني أتساءل: بالله عليك، يـا سيـدي. إنه ليس بالسـؤال الصعب! فقط قل شيئاً من مثل: «أنـا متأكد من أنني قمت بكثـير من الأخطاء، وأن التاريخ سيحكم عليها. ولكن لـدي عمل أقوم به، وبعضهم يريد مني العودة إلى الماضي (يمكنك استعمال عبارتك المفضلة: «التحديق في السرة»)، أؤمن بضـرورة أن ننظـر دائمـاً إلى الأمام، واضعـين في أذهاننا الأهداف المهمـة التي نحاول تحقيقها. هذا ما يتوقعه مني الشعب الأمريكي القيام به، وهذا ما أنوي القيام به».

تململ الصحفيون المجتمعـون بشيء من الضيق في مقاعدهـم بينما استمر الصمت يلـف المكان. عندمـا يتلعثم امـرؤ في العلن، يشعر جميـع الحاضرين بالضيـق. لا يوجد أمريكـي واحد يرغب في رؤية رئيسنا في هـذا الموقف المحرج، أو وهو يشعر بالارتباك من

علـى منصة وطنية كهذه. مع ذلك، هذا ما كنا نشاهده الآن. وبينما استمر الرئيس بوش في تعذيـب ذاتـه باحثاً عن جواب، بـدأت بتفريغ نفسي. لماذا لم نطـرح عليه هذا السؤال في الجلسـة التدريبيـة قبل ذلك؟ استخدمنـا هذا السؤال قبل ذلك مـن دون أن نستعمل عبـارة «بعـد الحادي عشر من أيلول» بالتحديد. إنه سـؤال جد واضح – ما الذي دهاني؟ ولكـن حينها وخزني رد فعل معاكـس. انتظر لحظة! نحن نتحدث هنا عن رئيس الولايات المتحدة! ما كان له أن يصل إلى رئاسة الولايات المتحدة من دون أن تكون له قدرة الإجابة علـى سؤال في غايـة البساطة. لقد تحدثنا عن الأخطاء؛ وتحدثنـا عن الحادي عشر من أيلـول. وتحدثنا عن غـزو العراق. لماذا لم يكن باستطاعته استحضار أي من تلك النقاط التي أثرناها؟ في كل تلك المدة التي كانت هذه المناظرة تدور في رأسي، استمر الرئيس في التلعثـم بينمـا كان بودي أن أصرخ بيأس كي ألقمه الجواب. استمر التلعثم للحظات بدت حينها أطول من ذلك بكثير.

أخيراً، خرج الرئيس علينا بجواب غير مترابط، وغير متناسق، وغير مقنع البتة على سؤال ديكرسون:

كنـت سأغزو أفغانستان بالطريقـة نفسها التي غزونا فيها أفغانستان. حتى لو عرفـت حينها مـا أعرفه اليوم عن وجود مخـازن لأسلحة الدمـار الشامل، لكنت طلبـت إلى زعماء العالم مواجهة صـدام حسين. أود لفت أنظاركم إلى أنني أؤمن بأننـا سنكتشـف الحقيقـة حول الأسلحـة. ولهذا السبـب أرسلنـا إلى هناك بعثة مستقلـة. أتطلع إلى سماع الحقيقة حول أماكـن وجودها. من الممكن أنها ما تزال هنـاك. ويمكن أن تكون مخبـأة، تماماً مثل الخمسين طناً مـن غاز الأعصاب في مدجنة لتربية الديوك الرومية.

أحـد الأشيـاء التي تحدث عنها تشـارلي ديلفر [أحد مفتشـي الأسلحة التابع لـلأمم المتحدة] أنه فوجئ بمستوى الرعب الذي وجده بين الناس الذين يتوقع أن يعرفوا مكان وجود الأسلحة، وخوفهم من الحديث عنها لأنهم لا يريدون التعرض للقتـل. هناك رعب ما يـزال معششاً في أرواح بعض النـاس في العراق. فهم قلقون من احتمال تعرضهم للقتل ولذلك، فإنهم لن يتكلموا.

لكـن الأمـور ستنتهـي إلى استقـرار يا جـون. سـوف نكتشـف الحقيقة حول الأسلحـة في وقت ما، من المستقبـل. ولكن حقيقة أنه كانت لديه المقدرة على صنع هذه الأسلحة يقلقني اليوم، بالنسبة نفسها التي كانت ستقلقني حينها. إنه شخص خطـر. إنـه شخص بالحقيقة - ليس بحوزته فقط أسلحة دمـار شامل - السبب الذي يدعوني إلى قول ذلك بثقة هو أنه قام باستعمالها. وليس في ذهني أي مجال للشـك أنه كان بوده لو استطاع أن يتسبـب في الأذى لأمريكة، أو دفع أموال لبعض الناس كي يتسببوا في الأذى لأمريكة، أو تدريب بعض الناس كي يتسببوا في الأذى لأمريكة لأنه كان يكرهنا.

آمـل أننـي - لا أريد أن أبـدو وكأنني لم ارتكب أي أخطاء. أنـا متأكد من أنني ارتكبت بعضها. أنا لم - لقد حشرتني في الزاوية هنا، وربما لست سريعاً في المشي كما يجب، في محاولتي للخروج بالجواب المناسب*.

وفي محاولـة يائسة منه للخروج من هـذا المأزق، التفت حوله، وعلامات الارتياح تبدو واضحة على محياه، طالباً الاستماع إلى سؤال آخر قائلاً: «نعم يا آن؟»

كانـت مراقبة بوش وهو يتخبط في الإجابـة على سؤال بسيط، كما شعرت أنا وكل من كان موجـوداً في الغرفـة، توحي بأنـه لا يستطيع الفكاك مما ظـن أن الصحافة ما زالت مصـرة على انتزاعه منه: وهـو الاعتراف بعد مرور سنة على ظهـور الحقيقة، أن قراره بشـن الحـرب على العـراق كان خطأ. لذلـك، وبسبب عـدم رغبته في القيـام بمثل هذا الاعـتراف، تحول جوابه إلى تعليل آخر للغزو بالرغـم من أن هذا كان بالضبط عكس ما سأله ديكرسون.

وبينمـا كنا نخطو خارج القاعة الشرقية بعد انتهاء المؤتمر الصحفي محاولين اللحاق بالرئيس بسرعة، تبادلت مع بارتليت حديثاً هامساً. كان الرأي بيننا مشترك في أن إجابة الرئيس على سؤال ديكرسون لم تكن موفقة.

كان الرئيـس بانتظارنا داخل المدخل الرئيس المـؤدي إلى غرفة الطعام الرسمية غير المضـاءة، وكانـت ربطة عنقـه منحلـة الآن. الضوء الوحيـد الذي دخـل إلى الغرفة كان

ينبعث من الشقوق الناجمة عن الأبواب المواربة، ومن الفتحتين اللتين تؤديان إلى الغرفة الحمراء المضاءة بإضاءة خافتة، وأيضاً من الفتحة الموجودة في غرفة طعام العائلة القديمة المجاورة.

كنا، دان وأنا نعرف ما هي الخطوة الثانية. إنها وقت نوم الرئيس؛ ولم يكن حينها معنياً بسماع تحليل نقدي عميق لأدائه مباشرة بعد خروجه من طنجرة الضغط الإعلامية. ولذلك بدأنا بإطناب الرئيس على استعماله للنبرة الصحيحة، وتمرير رسالته بشأن ما قامت به حكومته قبل الحادي عشر من أيلول من أجل محاربة الإرهاب، وما قامت به أيضاً بشأن العراق. ثم قام دان بالتطرق ببراعة إلى الجواب المرتبك للرئيس رداً على سؤال ديكرسون. كان علينا إثارة هذا الموضوع ضمن الوقت القليل الذي نعرف أنه كان لدينا من أجل لفت انتباه الرئيس.

قال بوش: «نعم، أنا أعرف. كنت أفكر طوال الوقت حول ما أرادوا أن ينتزعوه مني - القول بأن حربنا في العراق كانت خطأ. ولست مستعداً للإقرار بهذا. لقد كان القرار الصائب». كانت نبرته واثقة أكثر مما ينبغي، وهادئة، وغير نزقة. سمعته يؤكد هذا الموقف الحازم من صوابية قراره حتى في أحاديث عادية. شعر بكثير من الرضا عن أدائه في تلك الأمسية بالرغم من تعثره في الإجابة على سؤال ديكرسون.

قلت له: «شعرت أنك كنت على السكة الصحيحة عندما ذكرتَ كيف يمكن للمؤرخين أن يحكموا على قرارك عندما ينظرون إلى الماضي. كل ما كان يجب أن تضيفه هو أنك تخطط للتركيز على المستقبل».

وافق بوش قائلاً: «نعم، أنت محق. حسنٌ يا شباب، شكراً على ما قمتم به من عمل جيد»؛ اتجه بعدها نحو الزاوية بطريقته السريعة ليلحق برئيس الخدم الذي كان يوقف له المصعد إلى مسكنه الخاص في الطابق العلوي، وتبعه أحد العملاء السريين.

كانت هناك العديد من المناسبات الأخرى خاصة وعلنية دافع فيها الرئيس عن أهم قرار اتخذته إدارته. ولكن قليلاً من تلك المناسبات ستبقى في الذاكرة بالوضوح نفسه لتلك التي حدثت مساء البارحة. لقد أصبحت رمزاً لقائد غير قادر على الاعتراف أنه

أخطـأ ـ2 التقدير، وغير راغب ـ2 النضـوج ـ2 منصبه عبر تعلمه من أخطائه - لقد كان عناده أقوى من أن يسمح له بالتغير أو النضوج.

سمحـت لي معرفتـي الشخصية بجـورج بوش باستنتـاج بعض الأسبـاب التي تحول بينـه وبين الاعتراف بارتكاب خطأ جسيـم. أحد الأسباب كان خوفه من أن يبدو ضعيفاً؛ فالمسـؤول الأكثر ثقة بنفسه لا يتردد ـ2 الاعـتراف بإخفاقه، وـ2 الثقة بقدرة الناس على مسامحة أولئك الذين يطلبون التكفير عن أخطائهم ويظهرون جاهزيتهم للتغيير.

هنـاك سبـب آخر يتمثـل ـ2 الألم الشخصي الذي لا بـد وأن يعاني منه لـو كان عليه الاعـتراف أن الحـرب ضد صدام ربما كانت غير ضرورية. لقـد كان ذلك صعباً على أيٍّ كان، أقلهم الرئيس، مواجهة فكرة أن قراره كان خاطئاً.

لـو اختار إصـدار بيان صادق حـول الحقائق لكان أجدى له - مـن مثل «نحن نعرف أن صـدام لم يكـن يمثل ذلك التهديد الـذي كنا نعتقده. ومع ذلـك، كانت الحرب عادلة ومسوغه. كان صدام ديكتاتوراً متوحشاً، ارتكب العديد من الجرائم ضد الإنسانية. كانت أمامه فرصة كي يتغير، إلا أنه اختار المواجهة. المهم الآن، هو أن نتابع العمل سوية والسير ـ2 طريق نحو الأمام نجمع عليها باتجاه نهاية ناجحة - نهاية نتفق عليها جميعاً. هذه هي الطريقة التي نستطيع بواسطتها، نحن ـ2 داخل الوطن، خدمة قواتنا المسلحة التي تقاتل خارج الحدود، واحترام التضحيات التي قدمها العديد منهم وما يزالون يقدمونها».

ولكـن بوش ليس ذلك الشخص الذي ينظر إلى الخلـف بعد أن يكون قد اتخذ قراره. فبدلاً من أن يعاني من أي إحساس بالذنب أو الألم، اختار بوش أن لا يسير باتجاه التشكيك فيمـا قام به، أو اتخاذ القـرار الصعب بإجراء مراجعة للذات وتقـويم صادق لما قام به. وبـدلاً من النظر إلى الخلف، اختار النظـر إلى الأمام مركزاً على تحديات المستقبل بدلاً مـن الندم على الماضي. كان هذا الأمر صحيحـاً بشكل خاص عندما تعلق بقرار لا يمكن العودة عنه، وله عواقبه الخاصة، مثل قرار الحرب ـ2 العراق.

ولكن بين الحين والآخر، لم يكن هنـاك مفر لبوش من مواجهة هذه الشكوك. كان يؤمن بـأن واحدة من أهـم مسؤولياته بوصفه رئيساً ـ2 زمن الحرب عيادة الجرحى والتخفيف

مـن معاناة أسـر القتلى. كان يفعـل ذلك غالباً سـواء في واشنطن أم خـلال تنقلاته في البلاد. كنت ألازمه كظله في تلك المناسبات.

زار الجرحـى في مركـز «والتر ريـد آرمي» الطبي عـدداً من المـرات. كان من الملهب للمشاعـر الاطلاع عن كثب على معنويات وشجاعة أولئـك الذين قدموا تضحيات جسام - بـدءاً من الذين عانوا من جروح رضية في رؤوسهـم وانتهاء بمن فقدوا أطرافهم. أراد معظمهـم العـودة إلى العراق والانضمام مجـدداً إلى رفاقهم بالرغم مـن أن إصاباتهم كانـت تقف حائلاً دون تحقيق رغباتهم. من المحمود أن التقدم الطبي الحديث قادر على إنقـاذ حيـاة أعداد أكبر ممـا كان عليه الأمر في الحـروب الماضية. إحـدى أكثر الصور التـي رسخت في ذاكرتي التقطت أثناء واحدة من زيارات الرئيس إلى مركز «والتر ريد». كان يتنقـل بين غرفة وأخرى، وهو يعود الجنود المصابـين. دخلت إلى إحدى هذه الغرف قبله مباشرة ووقفت في الممر. كانت الإنارة في الغرفة ضعيفة. كانت أم شابة من تكساس وابنهـا البالغ من العمر سبـع سنوات جالسين بجانب الـزوج والأب. كان يجلس في مقعد متحـرك من دون حـراك. كان رأسه مغطـى بالشاش الأبيض وبضمادة مـن أعلى رأسه نـزولاً باتجـاه عينيه. وكان واضحـاً أنه لم يكن يعي مـا يجري من حولـه؛ كانت الإصابة الدماغية التي يعاني منها شديدة.

دخـل الرئيسـ إلى الغرفة بعدي مباشرة. مشى باتجـاه الأم وعانقها، ثم وضع يده علـى كتف الصبي وقال له: «والـدك رجل شجاع جداً». عند انتهـاء الزيارة القصيرة تلـك، التفـت بوش إلى الجنـدي ووضع يده بلطـف على الكرسي المتحـرك، ثم انحنى وقبّل أعلى رأسه قبل أن يهمس في أذنه: «ليباركك الرب». استدار بعدها ومشى باتجاه الباب في طريقه إلى الخارج. رفع يده اليمنى وهو ينظر إلى الأمام، ومسح دمعة طفرت مـن عينه. في تلك اللحظة، كان بإمكاني رؤيـة الشك في عينيه وإدراكه استحالة تغيير النتائج الناجمة عن قراره.

رأيـت الرئيسـ مرات عديدة يدخل إلى الغرفـة أو إلى المنطقة التي تجتمع فيها عائلة أحـد المصابـين. كان يعانق الأم أو الزوجة. كان يرافقهم بحضـور الآباء والأولاد ويستمع

إليهم وهم يروون قصصاً عن أحبائهم. غالباً ما كانت تلتفت إحدى الأمهات إلى الرئيس وتقول، «إنهِ المهمة. وتأكد من أن ابني لم يمت سدى».

كانــت هذه الزيــارات ذات أثر في زيادة عــزم الرئيس على إنهاء المهمــة بنجاح - أي التقــدم نحو الأمام. وهكذا، تحول التشكيك العابر في نهاية المطاف، إلى سبب آخر يزيد من تصميمه الذي لا يتزعزع على متابعة ما بدأه.

بالإضافة إلى ذلك، كان هناك سبب آخر دفع بوش إلى تجنب الإقرار بالأخطاء ألا وهو تصميمه على الفوز باللعبة السياسية بأي ثمن. لم يكن بوش مستعداً لمنح وسائل الإعلام التابعــة للمؤسسة السياسيــة في واشنطن أي شيء يمكن للنقــاد أن يستخدمونه لتدميره وتدمــير جهوده التــي يبذلها من أجل إعــادة انتخابه. كان يعرف أنــه في المناخ السياسي الــدارج هــذه الأيام، لو حــدث واعترف بارتكاب خطــأ حول موضوع لــه عواقبه الخاصة مثــل قرار خوض الحرب، فــإن منتقديه الحزبيين سوف ينتهزون هــذه الفرصة لتمزيقه إربــاً إرباً. ربما لم يكن مخطئاً حول هــذه النقطة، لكنني أؤمن أن اختيار مبدأ الصراحة والصدق كان يمكن أن يساعده في التكفير عن هذا الخطأ، والارتقاء فوق الروح الحزبية، وجمــع قادة الحزبــين بهدف الاتفاق على إجماع حول العراق. ربمــا لا يكون هذا الإجماع مطابقــاً لأهداف بوشــ، أو للطريقة التي يفضلها من أجل تحقيق نتائج ناجحة، لكنه كان سيخدم بلادنا وأولئك الذين طلب إليهم الدفاع عنها بصورة أفضل بكثير.

أخيراً، كان هناك إصرار بوش على استمرار الالتزام بقاعدته الانتخابية. وكان القلق الــذي ســاوره من تكرار أخطاء والــده السياسية، يثير الخوف لديه مــن أن تبدأ قاعدته المحافظــة بالتصــدع لو ظهــر وكأنه يتراجع عــن التزاماته في العــراق. كان بوش وروف يعتقــدان أن القاعــدة تريد قائــداً قوياً وحاسماً وثابتــاً بشأن آرائــه ومعتقداته أكثر من أي شــيء آخر. وطالمــا أن التشبث بالقاعدة الانتخابية والمحافظــة على قوة الزخم فيها يشكلان ضــرورة مطلقة من وجهة نظرهما، فإن تردد بوش في الإقرار بالخطأ كان على الأقل مفهوماً - ولو أنه لم يكن حكيماً.

بالنسبـة إلى بوش ومستشاريه (وعلى الأخص، كارل روف)، فإن الانفتاح والصراحة في مثـل هذه الظروف يعنيان فتح باب المتاعـب. وربما كانوا محقين في ذلك – على المدى القصـير. أما على المدى الطويـل، فإن عجز الرئيس عن مواجهـة واقع قراراته الخاصة كمـا حدث في تلك اللحظة المربكة في المؤتمـر الصحفي، سيتحول إلى حاجز يكبر حجمه باطـراد بينه وبين الشعب الأمريكي. وسيؤدي أيضـاً إلى تدمير أي فرصة متبقية للتعاون الحزبـي، وإلى استعـار أوار الحـرب الحزبية التي ستشـل واشنطن والنظـام السياسي الأمريكي – وهذا كله سيحدث بينما كان بإمكان أولادنا وبناتنا العسكريين الذين يقاتلون خارج الحدود الحصول على عكس ذلك من واشنطن.

ولكـن في شهـر أيـار، مايو، سنـة 2004، كان بوش وروف يركزان علـى المكاسب على المـدى القصير – أي الانتخابات التي كانت ستجري في الخريف. قطع الرئيس وعداً على نفسـه بإنجاز ما أخفـق والده في إنجازه، أي الفوز بولاية ثانيـة. وكان هذا يعني أن عليه العمل بشكل مستمر ضمن إطار الحملة الانتخابية: لا تشرح شيئاً، ولا تعتذر عن شيء، ولا تنسحب من أي مواجهة. لسوء الحظ، كانت لهذه الإستراتيجية مثالبها وآثارها السلبية، لا تَعد بذاكرتك إلى الماضي، لا تُعد النظر في أي شيء، ولا تقبل بالحلول الوسط؛ خصوصاً إذا كان الأمر يتعلق بالعراق.

كان خطـأ بوش الخطـر الأول يتمثل في الإسراع باتجاه مواجهـة عسكرية مع العراق. لقد حرفت رئاسته عن مسارها وأساءت إلى حد كبير إلى نظرة الاحترام التي كان الناس يرمقونـه بهـا. وكان خطؤه الخطر الثاني يتمثـل في تعاميه عن خطئـه الأول، وفي رفضه المحافظـة على روحية الثنائيـة الحزبية خلال زمن الحرب، ورفضـه أيضاً تغيير مساره عندما تطلبت الأحداث ذلك.

أتصـور أن آرائـي حول العراق تحولـت بشكل متزامن مـع آراء معظم الأمريكيين. فقبل الغزو، لم أكن متأكداً من ضرورة شن حرب استباقية جديدة. العديد من الناس يحبـذون فكـرة الذهاب إلى الحرب. بالطبع إذا هوجمنـا، علينا الرد بحزم. الأمر في العـراق كان مختلفـاً. فلـم يكن هناك هجـوم وشيك، ولم يعرف عن العـراق أن له أي

علاقـة بالهجوم على أمريكة (باستثناء إطلاق النـار على طائراتنا في منطقة الحظر الجوي)، ولم يكن التهديد ملحاً.

لكـن أحداث الحـادي عشر من شهر أيلـول أثرت على طريقة تفكيرنـا بشكل عميق. كان الإحساس بالصدمـة والغضب الذي مررنا به قد جعل العديـد منا يأخذ على نفسه عهـداً بالانتقـام ممـن قامـوا بتنفيذ هـذه الهجمات بـأي طريقة ممكنـة. كان نجاحنا العسكـري السريع في قلـب نظام حكم طالبان في أفغانستان قد عـزز من الدعم الشعبي للرئيس ولإدارته. وكانت الثقـة في بوش ومستشاريه الذين نجحـوا في هذا الامتحان في أعلى مستوى لها، ومن ثم فقد مال الناس إلى تأييد رؤيتهم السياسية.

كنـت جزءاً من هـذا الميل. فكوني موالياً مـن تكساس، لحق بالرئيس إلى واشنطن يحدوني أمل كبير، ويغمرني شعور بالود الشخصي تجاهه، ونظراً لكوني أفتخر بعضويتي في فريقه، كنت جاهزاً لمنحه هو ومستشاريه للشؤون الخارجية الذين يتمتعون بالكثير من الخـبرة كل الثقة فيما يتعلق بالعراق. لكن، لسوء الحـظ، أظهرت التطورات اللاحقة أن رغبتنا في منح الثقة لحكمة بوش وفريقه لم تكن في محلها.

ربما ما تزال آرائي اليوم في مسار آراء معظم الأمريكيين. وبالرغم من أنني أجبرت علـى الاستنتاج بأنه لم يكن علينا أبداً الإسـراع في المبادرة إلى الحرب في المقام الأول، فقـد كنـت أتمنى أن ننجح في هذه الحرب. لكن يجب الاتفـاق على وضع تعريف لعبارة النجـاح بواسطـة إجماع بين قـادة الحزبين الذين يركـزون على القيام بمـا هو أفضل للأمـة. مـن الواضح أن قواتنـا المسلحة موجودة هناك منذ مـدة طويلة، وهي مطالبة، كمـا عائلات أفراد هذه القوات، بأن تتحمل أكثر ما يمكن لها تحمله بكثير. يجب علينا إيجـاد طريقـة - اليوم قبل الغد - لتقليص عدد قواتنـا هنـاك بصورة ملحوظة في قلب العراق بحيث تستطيع قواتنا التركيز على نشاط الإرهابيين، وعلى الانتشار السريع من أجـل مساعدة العراقيين عنـد الضرورة. القلق الذي ينتابني هو نـوع القلق نفسه الذي ينتـاب معظـم الأمريكيين. ما هي نهايـة اللعبة؟ أين الضوء في نهايـة النفق؟ إذا كانت هنـاك حاجة إلى مساعدة خارجية أكبر، فإن علينا بناء نوع أشمل وأكبر من التحالف،

ربمـا يكون ذلك تحت مظلة الأمم المتحـدة، ربما عبر تحالف مع القوى الإقليمية بحيث تتحمل الدول الأخرى جزءاً من هذا العبء.

هل يمكن لمثل هذا الحل أن يتحقق في هذا الوقت المتأخر، مع فقدان الكثير من الأرواح وهـدر الكثير من الأموال؟ آمل أن يتم ذلـك. إلا أنه من المحزن أن شيئاً من هذا ربما لن يحدث أبداً في عهد هذا الرئيس. فقد تضررت مصداقيته في كل من أمريكة وحول العالم بسبب رفضه الحديث بصدق عن حربه، وعن كلف هذه الحرب. كل ما يستطيع فعله الآن هو تجهيز ملف هذه الأزمة، وتسليمه إلى خَلفه.

لم يكن للأمر أن يصل إلى هذا الحد؛ فحتى بعد وقوع الخطأ الأول المتمثل في الإسراع بالتوجه إلى الحرب في العراق، لم تكن الحال قد وصلت إلى وضع ميئوس منه بعد. ولكن أحداً من دائرة الرئيس الضيقة - بمن فيهم أنا - لم يكن يمتلك من الحكمة أو الشجاعة المقدار الكافي كي يحثه ليكون أكثر انفتاحاً وصدقاً مع الشعب الأمريكي.

بدلاً من ذلك، فعلى امتداد سنتي 2003 و2004، وبينما كانت الأخبار السيئة ترد من العـراق، كان الرئيس وكبـار مستشاريه متشبثين بالاعتقاد أن الحرب التي ارتهن رئاسته لها سوف تصل إلى نهاية سعيدة. وفي الوقت الذي كانت الأخبار السيئة ترشح ببطء من العراق قبل أن تتحول إلى سيل جارف، كان الرئيس يصر على آرائه.

في شهـر أيـار، مايو، سنــة 2004، ظهـرت إلى العلن الصور المريعة مـن سجن أبو غريـب ملطخة بالعار الكثير مـن الأمريكيين، ومسببة إحساسـاً بالغثيان في كل أنحاء العـالم وهو مـا أدى إلى إلحاق أضرار كبيرة بجهودنا الراميـة إلى كسب قلوب وعقول شعوب العالم الإسلامي.

وفي الوقت الذي ازدادت أعداد القتلى والجرحى في صفوف الجيش الأمريكي إلى درجة أبعد بكثير مما كان متوقعاً (وصل عدد القتلى إلى ألف من الجنود قبل الانتخابات بفترة قريبـة)، كنت أراقـب الرئيس وهو يمسك بالرقم المؤلم بقوة وبشـكل شخصي أثناء تلك

الزيارات الخاصة التي كان يقوم بها إلى المستشفيات، واللقاءات التي يجريها مع عائلات المصابين. وبالطريقة نفسها التي تحولت فيها الحرب في فيتنام إلى هاجس بالنسبة إلى إدارتين متلاحقتين منذ أربعة عقود، تحول العراق إلى هاجس بالنسبة إلى مؤسسة رئاسة جورج بوش، وإلى جورج بوش شخصياً. كنت أرى المرة تلو الأخرى كيف كان منظر جندي محارب يعاني من جراح خطيرة في المعركة، أو صورة زوجة، أو ابن جندي شاب يعرفان أنه لن يعود إليهما أبداً، يسبب لبوش ألماً شخصياً وحزناً عميقين. لكن ردة الفعل التي لا يمكن لبوش أن يسمح لنفسه أن يشعر بها، كانت التشكيك في نفسه وصحة دوافعه. كانت اللحظات المؤلمة التي قضاها محاولاً التخفيف من حدة آلام من فقدوا أحباءهم في العراق - الخسائر التي وقعت تسبب بها في النهاية، قرار بوش بالذهاب إلى الحرب - تزيد من تصميمه على إثبات أن خياره المتمثل في القيام بغزو العراق كان الخيار الصحيح، وأن تضحياتهم قد تمت من أجل هدف نبيل.

كانت هناك لحظات من الأمل ممزوجة باليأس. كان نقل السيادة بشكل رسمي إلى حكومة عراقية انتقالية في الثامن والعشرين من شهر حزيران، يونيو، سنة 2004 عاملاً مساعداً في تعويم معنويات الشعب الأمريكي. وكان هذا النقل بمثابة ترجمة عاطفية لمنطق بوش في غزو العراق - ألا وهو نشر الديمقراطية في الشرق الأوسط - وزاد في الأمل أنه بالرغم من الزيادة في معدل الخسائر، فإن الحرب في العراق سوف تثبت أنها حرب عادلة ومعللة في أعين المؤرخين.

وبينما انطلقت الحملة الانتخابية سنة 2004، ومعها الجو الحزبي المتشنج الذي أضحى نموذجاً للسنة الانتخابية بالمعيار الوطني، اتخذت بعض القضايا مواقعها تحت الضوء، بما في ذلك الاقتصاد، ولجنة التحقيق بشأن أحداث الحادي عشر من أيلول، والجدل العنيف الدائر حول خدمة بوش في الحرس الوطني في سبعينيات القرن الماضي، والنقاش حول خطة بوش لتقديم تغطية للوصفات الطبية للمسنين المستفيدين من الرعاية الصحية.

لكـن ثلاثاً مـن القضايا الجوهرية في قلب الحـوار الدائر بشأن العـراق استمرت في ملاحقة بوش ورئاسته: هل كان المنطق الذي استند إليه بوش في شنه الحرب على العراق مضلـلاً بشـكل متعمد؟ هـل كان قرار الحرب على العـراق صحيحـاً، أو يستحق كل هذا العنـاء؟ هل كانت معالجـة الإدارة للوضع علـى الأرض مقنعة أو مرضيـة؟ كانت معركة الحملـة الدائمة للسيطرة على الرأي العام، وصياغةِ سرديةٍ تصب في مصلحتنا حول كل واحدة من هذه الموضوعات الثلاثة ستلعب دوراً حاسماً في تقرير نتائج الانتخابات.



12

حريق في الأجمة

في غضــون ذلــك، وفي الوقــت الذي بــدأت الأسبــاب الحقيقية لحربنــا في العراق تتكشف بشكل تدريجي في ضوء السباق نحو الرئاسة، والذي بدأ يلوح في الأفق استمرت إحدى حلقات الدراما العراقية في التكشف - وهي قصة الكشف عن هوية فاليري بليم عميلــة وكالة المخابرات المركزية كجزء من المعركة الحزبية المتصاعدة بين إدارة بوش ومنتقديه في الكابيتول هيل في وسائل الإعلام. لقد كانت حكاية طويلة بدأت تنال مني شخصياً بشكل متصاعد.

يــوم الثلاثاء الواقع في الثلاثين من شهر أيلــول، سبتمبر، 2003، وهو اليوم الذي تلا تأكيدي بشكل واضح أن كارل روف لم يسرب أي معلومات سرية أمنية - شخصية فاليري بليم - كان يوم سفر. لم يكن هناك أي لقاء صحفي في البيت الأبيض؛ كانت هناك حوار علــى متن الطائرة الرئاسية في طريقها إلى قاعدة سان أندروز الجوية، حيث مقر أفضل طائرة معروفة في العالم في شيكاغو.

كان الرئيســ يتخذ الوضعية المعتادة الخاصة للتصوير في حفل غداء أقامه مع تشيني مــن أجــل جمع التبرعات استعــداداً لتمويل حملة إعادة الانتخاب لسنــة 2004 التي تلوح في الأفــق. التقى بعدهــا بمجموعة من كبار رجال الأعمال المحليــين وذلك بهدف تسليط الضوء على القضايا الاقتصادية الملحة، وخلق فرص للعمل.

نحــو الساعة الثامنــة والنصف من مساء الليلة السابقة، أعلمــت وزارة العدل مستشار البيــت الأبيضــ آل غونزاليــز أن المسؤولين هنــاك فتحوا تحقيقاً جنائيــاً حول تسريب هوية فالــيري بليم. بناء على طلب آل، ستقوم الوزارة بإرســال خطاب رسمي حول هذا الموضوع يوم الثلاثاء. سأل آل فيما إذا كان البيت الأبيض بحاجة إلى إعلام العاملين فيه مساء ذلك اليوم، أو الانتظار حتى صباح اليوم الثاني. أفادت وزارة العدل أن الصباح موعد مناسب.

منذ أن انتشر نبأ إجراء التحقيق الجنائي في الأيام القليلة الماضية، كنت على تواصل مستمر مع آل ومع نائبه ديفيد ليتش، بما في ذلك صبيحة ذلك اليوم قبل أن أغادر البيت الأبيض برفقة الرئيس. أردت التأكد من أنني على تواصل على مدار الساعة مع وزارة العدل، كما كنت بحاجة إلى نصيحة من آل حول كيفية الإجابة على أسئلة الصحافة عن الموضوع.

أبلغ آل جميع كبار الموظفين بموضوع التحقيق قبل الساعة السابعة والنصف بوقت قليل أثناء اجتماعنا اليومي بينما كنا جميعاً جالسين في المقاعد الجلدية المخصصة لنا حول طاولة المؤتمرات المصنوعة من الخشب، والممتدة على طول قاعة روزفلت. وجّهَنا إلى ضرورة أن يقوم كل منا بإعلام أفراد الطاقم العاملين لديه المحافظة «على المواد كلها التي يمكن أن تكون لها علاقة بموضوع» التسريب، وقال إن «الرئيس وجّهَ إلى ضرورة التعاون بشكل كامل مع هذا التحقيق». قال آل أيضاً إن مذكرة سوف تعمم بواسطة البريد الإلكتروني على العاملين في البيت الأبيض كلهم نحو الساعة الثامنة والنصف تتضمن تعليمات محددة.

أوضح آندي كارد أن الرئيس أراد أن يصل إلى حقيقة هذه المسألة، وأن على العاملين في البيت الأبيض أن يدلوا بالمعلومات ذات الصلة إلى وزارة العدل. كان صمت مطبق يلف القاعة بينما أنصت جميع من فيها بعناية إلى ما كان يقوله كل من آل وآندي.

تحدثت إلى الرئيس حول هذا التطور الجديد في قضية التسريب صباح ذلك اليوم في المكتب البيضاوي، كما تحدثنا حوله أيضاً في الرحلة الجوية القصيرة على متن طائرة الهيلوكبتر البحرية الرئاسية من المنطقة العشبية الجنوبية في البيت الأبيض إلى قاعدة أندروز الجوية. اتفقنا، الرئيس، ودان بارتليت، وأنا، على وجوب أن يدلي الرئيس بتعليق حول التحقيق، خصوصاً وأننا أُخطِرنا الآن رسمياً بشأنه.

أثناء الحوارات التي جرت في الطائرة الرئاسية، أحطت طاقم الصحفيين علماً بالمذكرة التي وجهتها وزارة العدل إلى آل. كنت قد تحدثت مسبقاً إلى بعض الصحفيين

صبيحة ذلك اليوم قبل مغادرتي البيت الأبيض وكان الجميع قد تسلموا نسخاً من المذكرة التي أرسلها آل إلى كل العاملين.

الطاقم الصحفي هو عبارة عن مجموعة صغيرة من الصحفيين الذين يغطون تحركات الرئيس عندما لا تكون هناك أمكنة كافية لجميع الصحفيين، أو عندما تتطلب عوامل لوجستية ذلك. هناك في العادة خمسة عشر من الصحفيين في الطاقم، ويمثل هذا عدد المقاعد المخصصة لهم في الطائرة الرئاسية. يجلسون عادة في الجزء الخلفي الأيسر من الطائرة وراء القسم المخصص للعملاء السريين مباشرة. توجد ثلاث نقاط مخصصة للخدمات الطباعية السلكية، بما في ذلك وكالة الأسوشيتد برس، ووكالة رويترز، ووكالة أخبار بلومبيرغ. هناك أيضاً نقطة مخصصة للمشرف على الطباعة الذي ينتمي عادة إلى إحدى الصحف الكبرى التي تعمل على تحقيق سبق صحفي. توجد نقطة مخصصة لمراسل إحدى الإذاعات، وأخرى مخصصة لصحفي في مجلة إخبارية (من تايم، أو نيوزويك، أو يو. إس. نيوز، أو ناشونال جورنال)؛ وهناك نقطة مخصصة لأحد مراسلي النقل المباشر أو لأحد المخرجين، واثنتان للشبكة التي يتبع لها المصور ومهندس الصوت؛ أما النقاط الأخرى فهي مخصصة لمصوري الكاميرات الثابتة. كل ما يقومون بتغطيته يجب أن يتم الإطلاع عليه في أقرب وقت ممكن من قبل الطاقم الأكبر في البيت الأبيض.

استناداً إلى ما اتفقت بشأنه مع الرئيس في وقت مبكر من صباح ذلك اليوم، أنهيت تعليقاتي الافتتاحية الموجهة إلى الطاقم الصحفي المرافق بالقول: «إن الرئيس يريد الوصول إلى حقيقة هذه المسألة مثله مثل أي شخص آخر، وهو يؤمن بضرورة متابعة الموضوع حتى نهايته، كما قلت لكم بالأمس. كان الرئيس يعبر دائماً عن قلقه بشأن تسريب المعلومات السرية، وهو فعل يعتبره الرئيس مسألة خطيرة ويجب أن ينظر إليها بمنتهى الجدية. يتوقع الرئيس من كل فرد في هذه الإدارة أن يلتزم بأعلى معايير السلوك المهني». أضفت قائلاً إن الرئيس يؤمن «أن أي شخص لديه معلومات تفيد هذا التحقيق، يجب عليه التقدم بها إلى وزارة العدل».

بعـد انتهاء الرئيسـ من الاجتماع في شيكاغو، تمت مرافقـة العصبة الصعبة المراس المكونة من مجموعة صحفيي البيت الأبيض، والصحفيين الذين يمثلون الصحافة المحلية إلى غرفـة صغـيرة حيث كان سيجري فيهـا نقاش حول طاولة مستديـرة. جلس الرئيس في الوسـط، محاطاً بكبـار رجال الأعمال المحليـين، وإلى جواره كان العمـدة ديلي الذي نشـأت بينهما علاقة جيدة تطورت على مدار الأيام. بـدأ الرئيس بالإدلاء بتعليقات حول الاقتصـاد. ثم قال إنه سيتلقى سـؤالاً أو اثنين. كنت قد رشحت له اثنين من الصحفيين، وأحطته علماً بالأسئلة التي يحتمل أن يطرحاها عليه.

حصـل ديب ريكمان، الصحفـي الذي يغطي أخبـار البيت الأبيض لوكالـة أسوشيتد برسـ على الفرصـة الأولى. سأل الرئيس: «هل تعتقـد أن وزارة العدل يمكن لها أن تقوم بتحقيـق حيادي، آخذين بعين الاعتبار المضمونات السياسية لتسريب معلومات عن وكالة المخابرات المركزية، ولماذا لا يكون محقق خاص أفضل لهذه المهمة؟»

أجـاب الرئيس: «هنـاك تسريب للكثير مـن المعلومات السريـة في واشنطن. إذا كان هنـاك تسريب من قبل أشخاص يعملـون في إدارتي، فإنني أريد أن أعرف من هم هؤلاء. وإذا كان ذلك الشخص قد خالف القانون، فسيتم التعامل معه بالشكل المناسب». أضاف أنـه يثـق في خبرة المسؤولـين في وزارة العدل المنتدبين لمتابعة هـذه التحقيقات، وأنه وجّهَ إدارته إلى التعاون معهم بشكل كامل.

نادى الرئيس بعدها على بوب كيمبر؛ بما أننا كنا في المدينة التي تصدر منها الصحيفة التـي يعمل بهـا. غطى بوب أخبار البيت الأبيض لصالح صحيفـة شيكاغو تريبيون، كما قام بتغطية أخبار الرئيس منذ انتخابات سنة 2000. قال الرئيس: «نعم، دعوني أتذكر، كيمـبر - هـو من شيكاغو، أين أنت؟ هل أنت من مشجعي فريـق «كابس» أو فريق «وايت سوكسـ»؟» أعقب هذا السؤال ضحك في الغرفة. أضاف الرئيس: «انتظر لحظة. لا يبدو هذا عادلاً، أليس كذلك؟»

كيمـبر الذي لم تردعه هذه الوخزات غير المؤذية مـن الرئيس، قال: «أُخبرنا بالأمس أن كارل روف ليس له دور فيها...»

قاطعه الرئيس قائلاً: «نعم».

تابع كيمبر قائلاً: «هل تحدثت إلى كارل، وهل تثق به؟»

قـال الرئيسـن: «لا اعرف أن أحداً في إدارتي قد سرب معلومـات سرية. ولو حدث وقام أي شخص بتسريب معلومات سرية، فإني أريد أن أعرف ذلك، وسوف نتخذ الإجراء المناسب».

انتهـت المهمة. لقد أوضح الرئيسـن بما لا يدع مجالاً للشك أنه ينظر إلى هذا التحقيق بمنتهى الجدية، وأنه يكره تسريب المعلومات السرية، وأنه يرغب في الوصول إلى الحقيقة حـول هذا الموضوع. كما أوضح أن أي شخص في إدارته سيطرد من عمله فيما لو ثبت أنه المسؤول عن هذا التسريب.

لَمّحَـتِ الحـوارات التي جرت في البيـت الأبيض صباح اليوم الثـاني إلى أن الصحافة بدأت تشير بأصابعها إلى شخص جديد تحوم حوله الشبهات في قضية التسريب هو رئيس أركان نائب الرئيس، سكوتر ليبي.

هكـذا بـدأت القصة. بينما كنت علـى وشك الانتهاء من هـذه المحادثة، قال لي جون روبرتس كبير مراسلي محطة CBS News في البيت الأبيض: «سؤال أخير. قلتَ منذ مدة بشـكل قاطـع إنك تلقيت تأكيدات من كارل روف أنــه لا علاقة له البتة بهذا الموضوع. هل تلقيت منذ ذلك الحين، تأكيدات مشابهة من رئيس أركان نائب الرئيس؟»

أجبتـه، وأنـا أهم بمغادرة المنصة: «يا جون، لن أستـدرج إلى التدقيق في كل الأسماء – فقـد أوضحـت ذلك مؤخراً – لن أُستدرَجَ إلى الدخـول في قائمة لمناقشة اسم كل عضو في إدارة البيت الأبيض».

ناشدني روبرتس بشيء من التهكم الذي أثار بعض الضحك: «إنه اسم واحد فقط».

تابعـت: «كان هناك اتهام وحيد ومحدد. وقد قمـت بالإجابة عنه في حينه. لكنني لن أستدرج إلى الدخول في قائمة أسماء من على هذه المنصة».

قـال روبرتس: «لكنها قائمة قصيرة»، مثيراً بذلـك ضحكاً أكثر، في الوقت الذي كنت أخطو خارج الباب المتحرك باتجاه مكتب الصحافة.

لم يكـن لـدي الكثير من الوقت كي أقوم بإجراء تقويم نقـدي لتلك المحادثة مع أركان فريقـي في ذلك الصباح. فقـد كان الرئيس الكولومبـي، أوريبي، سيلتقـي بالرئيس بعد مـدة وجيزة. ولمـا كنت أعرف أهميـة الالتزام بالوقـت بالنسبة للرئيـس، قمت بالتقاط دفترملحوظاتـي، وأخـبرت أركان فريقي أننا سنتحـدث أكثر قبل اللقـاء الصحفي؛ ثم مشيـت مسافة نحو عشرين قدماً باتجاه المكتب البيضاوي من أجل الانضمام إلى اجتماع مجلس الأمن القومي قبل اللقاء مع الرئيس وقبل اجتماعه مع أوريبي.

بعـد دخولي إلى منطقة المكتب البيضاوي مباشـرة، صادفت سكوتر ليبي في طريقي. كان غالبـاً مـا يمثل نائب الرئيس في اجتماعات الرئيس مع قـادة الدول عندما لا يحضر تشيني، وكنا غالباً ما نجلس إلى جانب بعضنا بعضاً. ولما كنا قد وصلنا باكراً، سألته فيما إذا كان بإمـكاني التحدث إليه لبرهة. خرجنا سويـة عائدين باتجاه المدخل الذي يوصل بين منطقة الموظفين المشرفين على المكتب البيضاوي وبين منطقة الانتظار في الرواق.

قلـت: «يجـب أن تعرف أن الصحافة بدأت تطرح أسئلة أكـثر، حولك، وفيما إذا كنت أنت من سرب اسم فاليري بليم».

أصغى سكوتر باهتمام. تابعتُ قائلاً: «قلت لهم إنني لن أستدرج إلى الدخول إلى قائمة بأسماء موظفي البيت الأبيض، لأجيب فيما إذا كان أي موظف متورطاً في التسريب. أريد منـك أن تعرف لمـاذا. طالما أن هناك تحقيـق وشيك، لا أستطيع أن أضـع نفسي في هذا الموضع. أريد أن تعلم أنني لا أحاول أن أتركك تتعرض لسهامهم».

عـبر سكوتـر عن تقديره لإعلامي إيـاه قبل وقت كاف؛ ولكنه أضـاف شيئاً آخر. كان يبـدو مرتاحاً لموقفي بالرغم من أنه لا يشعر هـو، أو أي شخص آخر مكانه بالسعادة من هـذا الموقـف. لكنني شعـرت أنني قمت على الأقـل بفعل ما كان عليّ فعلـه للتأكد من أنه حصل على هذه المعلومة مني، وليس عبر وسائل الإعلام.

كان صباح يوم السبت الواقع في الرابع من شهر تشرين الأول، أكتوبر، مريحاً بالنسبة لي. انتابنـي هـذا الشعور وأنـا أخطو باتجاه غرفـة الجلوس في شقتـي ذات غرفة النوم الوحيدة وسط المدينة، لأقرأ صحيفتيّ نيويورك تايمز وواشنطن بوست. لم أكن قد حلقت

ذقني أو استحممت بعد؛ كوني نمت حتى الساعة السابعة صباحاً أي بعد ساعتين على موعد استيقاظي في أيام العمل العادية، وكنت أفكر في النزول إلى قاعة الرياضة البدنية في الطابق السفلي. كنت في العادة أحاول الاستمتاع صبيحة كل يوم سبت في المنزل، اللهم إلا إذا اضطررت للذهاب إلى المكتب. كنت أذهب إلى المكتب عادة بعد ظهر أيام الأحد لأنجز بعض الأعمال قبل بداية الأسبوع. بطبيعة الحال، ونظراً لأنني أعيش داخل دائرة من الأخبار على مدار أربع وعشرين ساعة يومياً، كنت دائماً تحت الطلب، وكنت أعمل من منزلي أيام عطلة نهاية الأسبوع حتى لو لم أضطر للذهاب إلى المكتب.

وصلتني مكالمة من آندي كارد نحو الساعة الثامنة والنصف صباحاً. قال: «تحدث الرئيس ونائبه إلى بعضهما بعضاً هذا الصباح. وهما يريدان منك أن تعطي الصحافة التأكيدات نفسها حول سكوتر كما فعلت حول روف».

لا أشرب القهوة في العادة. أشرب الكولا التي لا تحتوي على سعرات حرارية كي ينتظم معدل الكافيين الصباحي في دمي. كنت ما أزال أرتشف الكولا، إلا أن ما قاله آندي أزعجني أكثر مما فعله بي الشراب.

قلت: «حسنٌ». وما قلته لم يكن مؤشراً على رفضي الغريزي للقيام بما طلب مني أن أقوم به. أخبرته بأنني سأتجه إلى المكتب، وسأتحدث إليه أكثر بعد أن أصل إلى هناك.

وبعد أن استحممت وارتديت ثيابي استعداداً للتوجه إلى البيت الأبيض، تساءلت عن السبب الذي دعا سكوتر إلى عدم التحدث إلي أولاً، لو كانت له مشكلة مع المقاربة التي اتبعتها. استناداً إلى تعليقات آندي، كان من الواضح بالنسبة لي أن سكوتر طلب إلى نائب الرئيس شخصياً أن يوجهني إلى القيام علناً بإنكار تورطه في القضية. والآن، وبحكم أن التحقيق على الأبواب، لم ترق لي فكرة الإشارة إلى أركان البيت الأبيض والدفاع عنهم فرداً تلو الآخر. في وقت سابق من الأسبوع، تحدثت إلى كل من آل وديفيد؛ وقد نصحاني بشدة بعدم القيام بأي تعليق جديد حول قضايا تتعلق بالتحقيق، بما في ذلك أسماء الأفراد. وفي الأمس القريب، أبلغت الصحافة أنني لن أقوم بذلك. وكنت أعلم أنني إذا فتحت الباب لواحد من هؤلاء، فسيكون من المستحيل عليّ في واقع الأمر إغلاقه

فيما بعد، إذا بدأت أسماء متورطين آخرين بالظهور إلى العلن. وستتساءل الصحافة عن السبب الذي دعاني إلى سؤال سكوتر عن احتمال تورطه، ولماذا لم يسأل البيت الأبيض موظفيه كلهم السؤال نفسه.

لكنه كان أمراً أتى من فوق. نتيجة لذلك، كنت على وشك تجاوز الخط الذي رسمته لنفسي علناً حالما بدأ التحقيق يأخذ مجراه مع بداية الأسبوع.

بعد أن وضعت حقيبتي في المكتب، توجهت مباشرة إلى مكتب آندي. كان يقف أمام مكتب مساعده في ردهة الانتظار التي يتقاسمها مكتبه مع نائبه في الجانب المقابل.

عرفت عن طريق تعليقات آندي المتشنجة على الهاتف أن ما كان يقوله لم يكن قابلاً للنقاش، كما أنني لم أكن أتوقع منه تزويدي بأي معلومات إضافية حول الحوار الهاتفي الذي دار بين الرئيس ونائبه.

لا أعرف إلى اليوم، شيئاً عما دار بين الاثنين؛ لكنني على ثقة عبر معرفتي بالرئيس، وعبر أحاديثي السابقة معه، أنه لم يكن يعرف شيئاً عن ليبي، أو روف، أو أي شخص آخر قد يكون متورطاً في الكشف عن هوية بليم للصحفيين. لم يكن للرئيس أن يقوم بتضليلي عمداً. وبينما أتمنى أن أقول الشيء نفسه بالنسبة لنائب الرئيس، فإنني أقول وبكل بساطة إنني لست متأكداً من ذلك. فالمعلومات التي ستصبح علنية عن طريق إجراءات قانونية في المستقبل ستطرح تساؤلات حول أفعال نائب الرئيس التي لم يعلن عنها أبداً.

أعلمت آندي أنني سأتلو بشأن سكوتر التصريح نفسه الذي تلوته حول كارل، فيما لو تلقيت التأكيدات نفسها من سكوتر. سألني آندي عن نوع التصريح الذي تلوته بشأن كارل، فأخبرته أنني قلت إنه ليس متورطاً في قضية تسريب هوية بليم، كما أنه لا يوافق على مثل هذا التسريب. كما قلت لآندي إنني عندما أتحدث إلى سكوتر، فسأدعو بعض الصحفيين وذلك للتأكد من أنهم سينشرون ذلك.

عندما عدت إلى مكتبي طلبت إلى عامل الهاتف في البيت الأبيض أن يبحث عن سكوتر ويصلني به. وجرياً على عادته، فقد كان مسافراً مع تشيني الذي كان يمضي عطلة نهاية الأسبوع في منزله بمدينة جاكسون هول في ولاية وايومينغ.

كانـت المكالمة قصـيرة. لم يكن سكوتر كثـير الكلام بالأصل. كان يعلـم السبب الذي دعـاني إلى الاتصال به، بما أنه هو من أثار المسألة التي تم توجيهي إلى التحدث بشأنها. سألته: «هل كانت لك أي علاقة بعملية التسريب؟»

أجاب سكوتر: «كلا، قطعياً».

قلـت: «حسنٌ؛ أنوي إعلام الصحفيين أنـك لم تفشِ بالمعلومات السرية، ولا يمكن لك أن تتغاضى عن شيء كهذا. هل هذا صحيح؟»

أجـاب: «نعـم». تحدثنا بعدها عن أسمـاء الصحفيين الذين أخطـط للاتصال بهم. وضع سكوتر السماعة، وبدأت في التحضير لمهمة لم أكن راغباً فيها.

دعوت صحفياً من مجلة نيوزويك سمعت أنه يعمل على قصة حول سكوتر، وصحفياً من وكالة الأسوشيتد برس، وآخر من صحيفة نيويورك تايمز. في اليوم نفسه، التقيت مصادفة بمراسـل صحيفة واشنطن بوست مايك آلان خارج مبنى البيت الأبيض، ودعوته إلى ذلك اللقاء؛ وهو ما جعل عدد الصحفيين أربعة يمثلون أربعاً من كبريات وسائل الإعلام — وهو عـدد كبير يساهـم في نشر الخبر على نطاق واسع خصوصـاً وأن هذا الخبر سيتم تناقله عـبر خط وكالة الأسوشيتد برس. أخبرت الجميـع أن سكوتر أكد لي أنه «لم يقم بتسريب المعلومـات السريـة، وأنه لا يتغاضى عن فعل كهذا»، وتأكدت مـن أن المسؤول عن اللقاءات الصحفية المناوب في ذلك اليوم على علم بذلك كي لا يفاجأ هو الآخر فيما لو اتصلت بعض وسائل الإعلام كي تحصل على الخبر بقصد المنافسة مع الصحف الأخرى.

بالتأكيـد، كان الخبر يبث على الشريط الإخباري لوكالـة الأسوشيتد برس جزءاً من موضوع أكبر يتعلق بالتحقيق في قضية التسريب. كنت سعيداً بالطريقة التي تمت معالجة هـذه المسألـة بهذا الشكل. كان ذلك يعني أنني نجحـت في تضمين دفاعي «الرسمي» عن سكوتر من دون أن ألفت الكثير من الانتباه إلى هذا النوع من الدفاع.

علمت بعد فترة وجيزة من شان ماكورماك، وهو أحد نوابي الآخرين، وكبير الناطقين باسم مجلس الأمن القومي، أن إليوت أبرامز وهو أحد كبار أعضاء مجلس الأمن القومي قـد أنكر أي تورط له في قضيـة التسريب في حديث له مع أحد الصحفيين الذي اتصل به

مباشرة بناء على «شائعات». من المحزن أن هذا هو الأسلوب المتبع من قبل بعض النشطاء الحزبيين الأقل تشكيكاً في واشنطن عند وقوع أي فضيحة: أطلقْ شائعة في وسائل الإعلام، وانتظرْ لترى إن كان سيكون لها التأثير المطلوب. لم تكن هناك أي معلومات بالمرة تشير إلى تورط أبرامز في مسألة التسريب هذه، لكنه كان ينظر إليه باعتباره كبير الصقور من غير المحافظين في مجال السياسة الخارجية، وكان مؤيداً لتغيير النظام في العراق. كان قد حصل على عفو من الرئيس بوش الأب عندما أدين مرتين بتهمة حجب معلومات عن الكونغرس في فضيحة إيران- كونترا السيئة الذكر. لهذه الأسباب، كان يعد دائماً هدفاً سهلاً لكل المزاعم غير الموثقة.

بالنسبة لي، كان إليوت خبيراً متعاقداً في شؤون السياسة الخارجية، وزميلاً لم يبخل بمد يد المساعدة لي وخصوصاً في ذلك اليوم. اتصلت به وحصلت منه على التأكيدات نفسها؛ فكرت أنه من الأفضل قيامي بإيصال إنكاره هو الآخر، إلى الصحفيين أنفسهم الذين تحدثت إليهم بشأن سكوتر، بما أن إليوت كان قد تحدث لي عن هذا الموضوع لتوه. من الأفضل التصريح عن هذا الموضوع دفعة واحدة وفي الحال، وذلك في الدائرة الإخبارية نفسها بدلاً من إعطاء تصريح لجهة ما، اليوم؛ ولجهة أخرى، غداً، وهكذا. وبناء عليه، فقد طلبت لقاء الصحفيين من جديد.

ازداد شعوري بالإحباط لأن هذا كان عكس ما أردت له أن يتم. كنت أضع نفسي في قلب التحقيق عبر الدفاع عن أشخاص ضد رغبتي، وعكس النصائح التي قدمها لي مستشار البيت الأبيض.

عادت موضوعات الأسئلة الصحفية في الأسبوع الآتي لتحتل المساحة الواسعة المعتادة في الحوارات واللقاءات الصحفية، إلا أن التحقيق في قضية التسريب بقيت في قلب الدائرة. كان المساعدون في البيت الأبيض بمن فيهم أنا، كل على طريقته، يبحثون في سجلاتهم الإلكترونية، ومراسلاتهم، وقوائم الاتصالات الهاتفية التي أجروها، ومفكراتهم، الملحوظات التي دونوها؛ ومن ثم، ينسخون كل ما من شأنه أن يصب في خانة طلب وزارة العدل من الوثائق حول الموضوع.

يوم الاثنين، وفي معرض ردي على أحد الأسئلة، أكدت في اللقاء الصحفي أنني تحدثت إلى كل مــن كارل، وسكوتر، وإليوت، وأن كلاً منهم بدوره أنكر أي تورط في قضية تسريب هوية فاليري بليم. وكما توقعت، فقد تساءل الصحفيون عن سبب سؤالي هؤلاء الأشخاص الثلاثــة بالتحديد، ولماذا لم يطلب الرئيس من أركان البيت الأبيض الآخرين الإجابة عن الســؤال نفســه. قمت ببعض التراقص اللغوي في معرض جوابــي على هذه الأسئلة، نظراً لعلمي أنني لم أكن مخولاً للحديث عن كل جوانب القصة.

أدركت متأخراً أنــه كان على الرئيس أن يخالف رأي مستشاريه ويطلب إجراء تحقيق داخلي لتقرير من يمكن أن يكون في دائرة الشبهة من بين أركان البيت الأبيض. كان عليه أيضاً إعطاء الأوامر بتزويد الرأي العام بأكبر كم ممكن من المعلومات حالما يتم التوصل إليها، وذلك لكي لا تحتل الفضيحة عالماً مستقلاً بحد ذاته. لكنه اختار أن لا يقوم بذلك، ربمــا لأنه كان يشعر أن بقاءه بعيداً عن مجريــات القصة سوف يحصنه ويحميه ضد أي ضــرر سياسي محتمل. ولكن بــدلاً من أن يكون الأمر كذلك، احتلــت القصة حيزاً أكبر، وعاشــت فترة أطول، وهو ما ساعد في إذكاء روح التشكيك، وتسعير أوار الحرب الحزبية التي تعهد أن يشفي واشنطن منها.

شاطرني دان بارتليت فيما بعد، الرأي بأن ديفيد أدينغتون مستشار نائب الرئيس عبر عن قلقه بعد أن علم أنني برأت ساحة سكوتر علناً. حذر أدينغتون بارتليت بصورة محددة أنه ما كان عليّ القيام بالحديث علناً عن التحقيق، أو مناقشة ما قام به، أو لم يقم به أي شخص. أجاب بارتليت، «إن رئيسك هو من طلب إلينا القيام بذلك». لويت شفتاي لبرهة قصيرة بينما كنت أنا وبارتليت نهز برأسينا. ولقد انتابنا نوع من الشك.

كان يُنظــر إلى أدينغتــون بصفــة عامــة كواحــد من أكــثر المسؤولين سريــة في البيت الأبيض. وبمرور الوقت، تبين لي أنه واحد مــن أكثر الناس رغبة في تقديم المساعدة لي. كان يتقاســم المعلومات معي ويبادر بإســداء النصح لي بصفة سرية كي لا يزل لساني في اللقاءات الصحفية بصفتي السكرتير الصحفي. أكثر ما كان يثير اهتمامي هو الحصول علــى الصــورة الكاملة عندما أبحث عن معلومات عند أحــد الزملاء. لم يكن ذلك سهلاً

علـى الـدوام في مكان مثل البيـت الأبيض حيث لم يكـن بعضهم يبـدي أي اهتمام يذكر بالصحافـة، أو ينظر إليها «كمجموعة ضغط» أخرى. لكن ديفيد كان متفهماً لحاجتي في أن أكون على اطلاع على مجريات الأمور كي أكون فاعلاً ودقيقاً في عملي. فلو علم بشيء، كان يشعر أن عليه تقديم المساعدة، لم يكن بحاجة إلى التلقين ليتقاسمها مع أحد، أو إلى لعبة العشرين سؤالاً كي يستنتج ضرورتها.

ولكن، لسوء الحظ، لم يكن أحد يستمع إلى نصائح أدينغتون، أو يأبه لها على ما يبدو، خصوصـاً من قبل أولئك الذين كانوا يدفعـون بي أكثر فأكثر، باتجاه الجحيم الذي كنت ألج إليه من دون وعي مني.

※ ※ ※

في اللقـاء الصحفـي الذي عقدته في العاشر من شهر تشريـن الأول، أكتوبر، أدليت بآخر تعليق لي حول التأكيدات التي قدمها كل من روف وليبي. فبعد وقت قصير، سيبدأ عمـلاء من مكتب التحقيقات الفيـدرالي، ووزارة العدل بدء التحقيـق مع المسؤولين في البيت الأبيض.

تحدثت إلى كل من آل وديفيد حول وضعي الشخصي بعد أن اتصل بي مكتب التحقيق الفيـدرالي. قـال لي ديفيد بعـد أن ذكّرني بأنه لا هـو، ولا آل يعـدان نفسيهما محامين شخصيين بالنسبة لي: «لا تستطيع في هذا اللقاء أن تتحدث بطريقة تشبه طريقة حديثك بصفتـك ناطقـاً رسمياً باسم البيـت الأبيض. لا بد مـن أن تجيب علـى الأسئلة بانفتاح وبصـورة كليـة، وهذا بعكس الأسلـوب الذي تتبعه في وظيفتك حيـث لا تقدم هناك سوى النزر القليل من المعلومات بوصفك ناطقاً صحفياً. ليس عليك أن تتطوع بتقديم معلومات أكثر مما يطلبون في أسئلتهم؛ ولكن عليك أن تكون صريحاً، وأن تستجيب لما قد يسألونك عنـه». هذه النصيحـة لم تأتِ مثل مفاجـأة بالنسبة لي؛ لكنها ساعدتنـي في تعزيز هذه الأفكار بشكل مسبق.

كان آل وديفيـد قد اقترحا أن يقوم أحدهم مـن مكتبهما بحضور أي مناقشات يمكن أن تطرح بيني وبين مكتب التحقيقات الفيدرالي. تبين لي أن ذلك ستكون طريقة مناسبة

أيضـاً بالنسبـة إليهم كي يبقوا علـى اطلاع على مجريات التحقيـق، وأن يكون بإمكانهم إطـلاع الرئيس على أي مستجدات. مع ذلك، كان من دواعي سروري قبول العرض الذي تقدما به.

تم أول لقـاء بيني وبين عمـلاء مكتب التحقيقات الفيدرالي بعد عـدة أيام في إحدى غرف المؤتمرات في الطابق الثاني كان مكتب المستشار قد وفرها في مبنى مكتب أيزنهاور التنفيذي في محيط البيت الأبيض، مقابل المشى التنفيذي الغربي الذي يؤدي إلى مدخل الموظفـين في الجناح الغربي. كان الضوء يدخـل إلى تلك الغرفة ذات السقف العالي من نوافـذ كبـيرة في أحد جوانبها. ولم يكـن يوجد في الغرفة سوى طاولـة مؤتمرات خشبية كبيرة تحيط بها كراسي جلدية.

أدار النقاشـ جـون إيكيـنرود، العميل الخاص المسـؤول عن التحقيـق لصالح مكتب التحقيقات الفيدرالي منذ اليوم الأول. انضم إليه لاحقاً اثنان عميلان آخران أُجلسا إلى جانب الطاولة التي تواجه الباب؛ كنت في الطرف الآخر في مواجهة النافذة من خلفهم.

كان قد تم تزويدهم بنسخ من كل الوثائق الموجودة في ملفاتي والتي كنت قد سلمتها إلى مكتـب المستشار في الأسبوع الثاني من شهر تشرين الأول، أكتوبر. أذكر رسالة إلكترونية كنت قـد استلمتها من صديقة لمساعدتي الشخصية كارمن إنغويل. كانت صديقة كارمن قـد حضرت درساً أو محاضرة في جامعة كاليفورنيا منذ عدة سنوات لجو ويلسون، قالت إن ويلسـون ذكر خلالها، أن زوجته تعمل لصالـح وكالة المخابرات المركزية. لم تكن لدي أي فكرة حول ما إذا كانت هذه القصة صحيحة أم لا.

كان التحقيـق مـا يزال في مراحله الأولى، وبدا أن العمـلاء كانوا يركزون على معرفة كيف تصرف البيت الأبيض بما في ذلك، فريق مكتب الاتصالات في البيت الأبيض، وكيف تعامل مع وسائل الإعلام.

كان تيـد أوليوت، المحامي الثلاثيني، الذكي، والبارع، ، والعامل في مكتب المستشار في البيـت الأبيض يصغي في الوقت الذي كنت أجيب على الأسئلة. كنت أعرف تيد قليلاً عن طريق العمل معه حول قضايا أخرى، وكان دائماً يُظهر أنه منفتح ومستعد لمد يد المساعدة.

كان هــو وزميله راؤول يانس قد كلفا بحضور جلسات التحقيق ﮐ مكتب المستشار. تعرفت إلى تيد بصورة أفضل خلال تلك المرحلة، وكنت أظن أن آل وديفيد لم يكن باستطاعتهما اختيــار من هم أفضل من هذين الشخصين لهذه المهمة المثيرة للجدل، والتي يتم تسليط الضوء عليها بشكل كبير.

بعـد اللقاء الأول مع محققي مكتـب التحقيقات الفيدرالي، أذكر أنني قلت لتيد ونحن نسير خارج الرواق المؤدي إلى مبنى المكتب التنفيذي عائدين إلى الجناح الغربي: «فوجئت بأنهـم لم يسألوني أي أسئلة ملموسة عما يمكـن أن أكون أعرفه، مثل محادثاتي مع روف وليبي». ﮐ الاجتماع الثاني الذي أظن أنه حصل بعد أسبوعين، كانت الأسئلة تتمحور حول ما يمكن أن أعرفه. ولم يستغرق أي من اللقاءين أكثر من ساعة واحدة لكل منهما.

ﮐ الثلاثين من شهر كانون الأول، ديسمبر، سنة 2003، عقد جيم كومي، نائب المدعي العــام مؤتمراً صحفياً ﮐ وزارة العدل. أعلن أن المدعي العام جون آشكروفت أعفى نفسه مــن التحقيق ليتجنـب أي شكل من أشكال صراع المصالح. صـرح كومي بعدها أنه سمّى مدعٍ خاص للإشراف على التحقيق ﮐ التسريب - وهو باتريك فيتزجيرالد من شيكاغو. كان فيتزجيرالـد ينظـر إليه بكثـير من التقدير بصفتـه مدعياً عاماً للولايـات المتحدة، والذي كان يعرف عنه الالتزام بالقانون، وعدم التأثر بالسياسة.

لم يكـن كومي ليتحدث ﮐ الأسباب التي حدت بـه إلى تعيين المستشار الخاص عدا قوله إن «جملة من الحقائق» تراكمت على امتداد الأشهر القليلة الماضية أدت إلى اتخاذ مثل هذا القرار. أضاف: «لا نريد أن يعرف الناس الذين يهمنا أمرهم أننا مهتمون بأمرهم. كما أننا لا نريد أن نشوه سمعة من يمكن أن يكون بريئاً، أو من يمكن أن لا يوجه إليه أي اتهام».

اتصل بي رون روس نائب رئيس وحدة مكافحة التجسس ﮐ وزارة العدل الذي يرأسه جــون ديــون لترتيب موعد للقاء الفريــق المشرف على التحقيق قبل أيــام من استدعائي للمثول أمام هيئة المحلفين الكبرى. سألني هذه المرة فيما إذا كنت أنوي القدوم بمفردي مــن دون مرافقة أحــد من مكتب المستشــار. أوضح لي أنهم يفضلــون التحدث إلي على انفــراد. وافقــت. لم يتغير الموقف بالنسبــة لي إلا بنسبة ضئيلة، بالرغـم من أنني كنت

ممتنــاً لسمــاع أي ملاحظة كان يمكن لتيــد أن يبديها لي. شككــت في أن فريق التحقيق أراد أن يبقــي المعلومات على أكبر نطاق ممكن من السرية في الوقت الذي كانوا يتابعون الاستماع إلى شهادتي أمام هيئة المحلفين الكبرى.

قبــل ذلــك، عندما علمت أن استجوابــي سيتمحور حول تبرئتــي العلنية لكل من روف وليبي وأبرامز، فقد استشرت زوجة شقيقي ستيفاني ماكليلان التي كانت مساعدة مدعي المقاطعــة في مقاطعة سان جوزيــه، كما استشرت شقيقي دادلي، الذي كان يعمل كاتباً في مكتب قاضٍ فيدرالي في مدينة أوستن.

كانــت وجهة نظر ستيفاني أن أقــوم بتوكيل محامٍ في هذه القضيــة، بالرغم من أنني قلــت لها إنني لا أعرف شيئاً عن التسريب الحقيقي، وأن دوري كان مقتصراً على الدفاع عن البيت الأبيض، وعن عدد محدود من المسؤولين بعد أن حدث ما حدث. لكنها أوضحت بحدسهــا أنه لا يمكن للمرء أن يعرف بشكل مؤكد كيف يمكن للكلمات التي تم التلفظ بها أن تُــؤوّلَ، أو – وهــذا أسوأ – تُحرّف، خصوصاً ضمــن سياق تحقيق سياسي مسلطة عليه الأضواء، يتم أثناء حملة انتخابية.

لم يلــزم دادلي نفســه بتقــديم أي نصح محدد لي؛ إلا أنه نصحنــي بصفته شقيقي، وأيضــاً بصفته محامياً مطلعاً على مجريات الأمور بتوكيل محامٍ. ولقد سألته فيما بعد، بعضــ الأسئلة الأساسيــة المهمة. ربما كان هــو وتوأمه برادلي، وشقيقنــا الأكبر، مارك يضايقوننــي في صغري، لكننا الآن مقربون جداً من بعضنا بعضاً كما ينبغي أن يكون كل الأشقاء. كان من المطمئن والمشجع بالنسبة لي معرفة أن باستطاعتي اللجوء إليه عندما أشعر بالضغوط تزداد من حولي.

كان الزمــلاء من حولي يعتقــدون أن من الجنون عدم توكيل محــامٍ. قالت لي نائبتي كلير بوكان وهي صديقة عزيزة، وقفت دائماً إلى جانبي: «عليك أن توكل محامياً».

إلا أنني، وعلى العكس من كثير من زملائي قررت أن لا أوكل محامياً. سأقول الحقيقة للمحققــين – أي مــا أعرفــه، وما أتذكــره. ومع عدم وجــود أي شيء أخفيــه، ومع الأخذ بالاعتبار أن ما يربطني بالقضية أتى بعد حدوث عملية التسريب، شعرت بالارتياح كوني

اتخذت هذا القرار. (لست ألمح هنا إلى أن زملائي كان لديهم ما يخفونه، وأنا هنا أعبر فقط عن مشاعري الخاصة حول قراري).

وهكذا في عصر ذلك اليوم البارد، كنت في مكتب وحدة مكافحة التجسس المتوضع في أحد الطوابق العليا من مبنى وزارة العدل، على بعد عدة أحياء من البيت الأبيض.

كانت الغرفة التي التقينا فيها مظلمة نوعاً ما. كانت الطاولة طويلة. رأيت عملاء مكتب التحقيقات الفيدرالية الذين قابلوني في المرة السابقة. عرّف رون روس عن نفسه، كما عرّفني على الآخرين المتواجدين في الغرفة. جلست إلى منتصف الطاولة مقابل عملاء مكتب التحقيقات الفيدرالي، كما فعلت في اللقاءات السابقة في مبنى المكتب التنفيذي. جلس أعضاء فريق المدعين عبر الطاولة أيضاً إلى اليمين مني. لكن فيتزجيرالد لم يكن في الغرفة.

وبينما كانت اللقاءات السابقة مباشِرةً، وبعيدة عن أي توتر، بدأ هذا اللقاء بشكل مختلف. روس الذي لفت نظري لكونه مدعٍ جاد ومهني، سألني لماذا برّأت ساحة روف وليبي. ثم طلب توضيحاً عن سبب عدم ذكري في اللقاء الأول أن كارل سبق له أن تحدث إلى نوفاك. فوجئت نوعاً ما، ونظرت إلى أحد عملاء مكتب التحقيق الفيدرالي وقلت: «أخبرتك بكل شيء عندما سألتني في اللقاء الثاني. لم تسأل عن هذا الموضوع في اللقاء الأول». لم يعلق العميل بشيء. قلت في نفسي: حسنٌ، يريدون الظهور بمظهر القساة كي يتأكدوا من أنني قلت لهم كل شيء أعرفه، أو أستطيع تذكره، وكي يتأكدوا أن تحقيقهم أوغل في العمق في محاولةٍ منهم معرفة الحقيقة.

بعد عدة دقائق، دخل بيتر زيدنبيرغ، الذي يشغل منصب المدعي من وحدة الاستقامة العامة إلى الغرفة. عرَّفَ عن نفسه، وبدا شخصاً ودوداً. لم يستغرق الأمر وقتاً طويلاً قبل أن ينال ثقتي واحترامي للروح المهنية والودية التي أظهرها.

لعب دور الشرطي الطيب مقابل روس، الشرطي الشرير موضحاً أنهم يحاولون فقط تبيان الحقيقة. قال إنه شاهد في العديد من المرات كيف يمكن أن تكون ذاكرة الشاهد ضبابية عندما يُطلب إليه تذكر أشياء حدثت منذ أسابيع، أو أشهر، وأنهم

فقـط يريـدون التأكد مـن أنهم تحدثوا إليّ قبـل مثولي أمام هيئـة المحلفين الكبرى. توقعت خلال تعليقاته، أنه كان يراقب المناقشات الأولية عبر ما تبين أنها نافذة يكشف زجاجهـا عـن جانب واحد فقط، وهـي النافذة التي كانت على يمينـي، مثل تلك التي يشاهدها المرء في مسلسل (Law and Order).

لم يستمـر اللقـاء أطول من ذلـك، عدت بعدهـا إلى البيت الأبيض لأستأنف القيام بواجباتـي سكرتيراً صحفيـاً. مع ذلك، تساءلت عن سر مقاربتهـم المتشددة في البداية. شعـرت بشيء من عدم الاستقرار كوني كنـت متعاوناً معهم ومنفتحاً عليهم بشكل كامل. أتصـور أنهم استخدموا هذا التكتيـك لمحاولة هز أعصاب مـن يستجوبونهم للتأكد من صدق ما يقولونه. لكن الطريقة التي آلت إليها الأمور أراحتني، وشعرت أنهم اطمأنوا إلى أنه لم يكن لدي ما أخفيه.

كان شريـط مثولي أمام هيئة محلفين فيدرالية كبرى يدور أمامي. وكما خمنت، فإن هذا الإحساس انتاب زملائي أيضاً، لقد ضغط هذا الشريط على عقلي بسبب المضمونات الخطـيرة التي تتصف بهـا طبيعة التحقيق. ولقد توقف العاملـون في البيت الأبيض عن الحديـث مع بعضهم بعضـاً حول أي شيء محـدد يتعلق بالتحقيـق في التسريب، بما في ذلـك احتمال أن يكـون أي منهم قد تم استجوابه، أو احتمـال أن يكون أياً منهم قد وكل أحـد المحامين (كما في حال كل التحقيقات التي يتم تسليط الأضواء عليها في واشنطن، فقـد وكل جميع المسؤولين الذين مثلوا أمام هيئـة المحلفين الكبرى محامين وذلك زيادة منهم في الحذر، حتى لو كانوا يعرفون أنهم غير متورطين)؛ وكان هذا هو الشيء الوحيد تقريباً الذي سمعته من زملائي عندما كانوا متجهين للمثول أمام هيئة المحلفين الكبرى، طالمـا أن الصحافة كانت محتشدة خارج غرفة هيئـة المحلفين الكبرى بشكل يومي، وأن زملائي لم يرغبوا في أن أسمع بهذا الأمر من صحفي. بالإضافة إلى ذلك، كان الصمت يلفنا جميعاً، فقد كنا نشعر بالقلق يخيم فوق رؤوسنا.

تساءلـت مـن دون أن ينتابني التوتر: هل كانت نصيحـة ستيفاني في محلها؟ هل كان علـيّ أن أتكل على نصيحة محامٍ؟ عندمـا توافق على العمل لدى رئيس الولايات المتحدة، لا يخطـر ببالك، كجزء من توصيف وظيفتك، أنك ستستجوَبُ من قبل مكتب التحقيقات

الفيدراليــة، أو تــدلي بشهادتك أمــام هيئة محلفين كبرى تحت تهديــد تعرضك للاتهام بحنث في اليمين.

قيــل إن هيئــة المحلفين الكبرى بدأت بالاستمــاع إلى الشهــادات في نهاية شهر كانون الثــاني، ينايــر، سنــة 2004. استُدعيتُ للمثول أمــام المحلفين بعد ظهر يــوم الجمعة في السادس من شهر شباط، فبراير.

التقيــت بروس وأحد العملاء خــارج الرواق في ردهة بالطابق العلوي في مبنى المحكمة الفيدرالية في بريتيمان قرب مبنى الكابيتول في شارع بنسلفانيا. كان الطقس عصر ذلك اليــوم غائمــاً وبارداً، بالرغم من أن ذلــك متوقع في واشنطن في تلــك الفترة من السنة. وكان هناك رذاذ خفيف من المطر بين الحين والآخر.

أبلغــوني بأنهم سوف يكونون مستعدين لمقابلتي قريباً جداً، وأن عليّ أن أتماسك. كان كلاهما ودوداً عصر ذلك اليوم. جلست على كرسي في الرواق الفارغ، والسيئ الإضاءة.

مشيــت باتجــاه غرفة هيئة المحلفــين الكبرى عبر قاعــة ضيقة وصغــيرة. ولجت إلى الغرفــة غير ملــم بما يمكن أن أتوقعه. طلب إلي الجلوس علــى كرسي خشبي قرب الباب عنــد طرف طاولــة لها شكل حرف L. كان فريق المدعــين إلى يميني في مواجهة المحلفين الذين كانوا يجلسون كما في مقاعد في مسرح في مواجهتنا، ومن فوقنا.

خمنت أن هناك ما بين خمسة وثلاثين إلى أربعين من المحلفين موجودون. وكان كاتب الاختزال عبر الممر يدون كل الأسئلة وأجوبتي عليها.

كان زيدنبــيرغ، المدعــي العام لوحــدة الاستقامة هو مــن قام بتوجيــه الأسئلة. وكان مــن الصعــب معرفة من كان موجوداً حينهــا لأن موضع الكرسي التي كنــت أجلس عليها لم يسمــح لي بذلــك، بالإضافة إلى أنه لم يجــرِ أي تعريف بالحضور. ربمــا كان باتريك فيتزجيرالــد، وهــو الشخص الذي أحسست أني أعرفه عبر اهتمــام الصحافة به، ولكن لم أكــن قد التقيت بعدُ بــه، موجوداً، لكنني لم أره، فقد كان تركيزي منصباً على الإجابة على الأسئلة.

التفتُّ قليلاً باتجاه اليسار، وذلك كي يكون بإمكاني رؤية المحلفين ولو بشكل جزئي، في الوقت الذي كنت أنظر إلى زيدنبيرغ. أول ما سألني كان حول صحة ما قيل إنني لم أقم بتوكيل محامٍ. أوضحت بأنني لم أوكل محامياً ولكنني تحدثت إلى شقيقي دادلي عدداً من المرات حول الموضوع.

طرح علي بعدها سلسلة من الأسئلة أمام هيئة المحلفين الكبرى، سبق لي أن أجبت على معظمها في لقاءات سابقة، بما في ذلك جرد لأحاديثي مع كارل وسكوتر، والتأكيدات التي قدماها لي بأنهما غير متورطيْن بقضية تسريب هوية بليم.

لكن كانت هناك بعض الأسئلة التي لم يطرحوها علي من قبل. سألني زيدنبيرغ فيما إذا كنت قد أبلغت كوندي رايس أن عليها القول إن كارل ليست له علاقة قبل أن تظهر على أحد البرامج الحوارية يوم الأحد في الثامن والعشرين من شهر أيلول، سبتمبر سنة 2003. (لم تتحدث رايس عن هذا الموضوع علناً في أي من هذه البرامج الحوارية).

فكرت ملياً. أذكر أنني تحدثت إلى كوندي يوم السبت ذاك – وهو يوم السبت نفسه الذي اتصلت فيه بروف بعد أن علمت أنه تحدث إلى نوفاك، وأكد لي حينها أنه لا علاقة له بموضوع تسريب معلومات سرية – كما أفعل عادة مع المسؤولين في الإدارة قبل أن يظهروا في برامج الأحد الحوارية. وكان هذا الإجراء نوعاً من تهيئتهم للإجابة عن أسئلة مشابهة، والتأكد من أن الجميع «يقرؤون مننفسها الصفحة»؛ علمنا أن المقالة التي ظهرت في عدد الأحد في صحيفة واشنطن بوست سوف تثير أسئلة عن احتمال تورط البيت الأبيض في التسريب. هل أمليت على كوندي ما يجب أن تقوله حول كارل روف؟

قلت، ربما أكون قد فعلت، لكنني لا أستطيع تأكيد ذلك. أوضحت بأنني ربما أحطتها بما صرحت به أمام الصحافة، وأنني ربما اقترحت عليها الإشارة إلى ما قلته من دون أن تتطرق إليه هي بنفسها.

أصبت بصدمة عندما طرح علي السؤال الثاني. سأل زيدنبيرغ إذا كان صحيحاً أن الرئيس أبلغني في المكتب البيضاوي أن كارل روف أخبره بأنه غير متورط في القضية؟

كانــت تلك هي المرة الأولى التي أُســأَلُ فيها عن أي شيء عرفه الرئيس أو قاله. وطالما أن الرئيســ لم يتــم سؤاله بعد، عرفت أن آندي هو من أطلــع المحققين على ذلك في مناسبة سابقــة. وعبر معرفتي أن الرئيســ يفضل أن تبقى أحاديثه الخاصة طي الكتمان، ترددت للحظة. لكن المسألة هنا مختلفة. كنت أعرف أن الصدق هو الخيار الوحيد. وبالرغم من اختناق صوتي، تمكنت من التأكيد أن الرئيس قال ذلك بالفعل.

استكمــل زيدنبيرغ استجوابه، وسأل المحلفين إذا كانــت لديهم أي أسئلة. فقط امرأة مــن أصول إفريقية كانت تجلس في آخر الغرفــة في الصف الأول كان لديها سؤال. طلبت إلي تعريف ما تعنيه لي عبارات «الخلفية»، و«الخلفية البعيدة»، و «ليس للنشر».

أجبــت بالقول إن العبــارات المذكورة تعني أشياء مختلفة قليــلاً لمختلف الناس. قلت «إن عبــارة «خلفيــة» تعني لي أن صحفياً يمكن له أن يقتبس مما قلتِه من دون أن يذكركِ بالاســم. عادة ما يتفق الصحفي والمصدر على الكيفية التي ينسب فيها الخبر: «مسؤول رفيــع في البيت الأبيضــ»، أو «مسؤول رفيــع في الإدارة»؛ ولو أراد المصــدر أن يكون أكثر بعداً، ربما يمكن استخدام عبارة «مسؤول في الحزب الجمهوري». أما بالنسبة إلى عبارة «الخلفيــة البعيدة»، فإن معظم الصحفيين يعتبرونهــا معلومات يمكن لهم استعمالها في تقاريرهــم من دون أن يتمكنوا مــن الإشارة مطلقاً إلى المصدر بشــكل مباشر. وأخيراً، عبــارة «ليس للنشــر» تعني بالنسبة لي أن الصحفي لا يستطيــع استعمال المعلومات التي بحوزته في تقاريره بأي شكل من الأشكال».

انتهــت الجلسة في غضون ساعة. شكرني روس وأحــد العملاء، وهما يسيران بجانبي وأنــا عائد باتجاه الرواق. قــالا إنني بينما أنا حر من الناحيــة القانونية للتحدث حول ما جرى معي، فإنهما يفضلان أن تبقى شهادتي أمام هيئة المحلفين الكبرى سرية.

وبينمــا كنت أتجــه نحو الدرج، كانت هنــاك صحافية تقف في الردهــة، وقد عرفتني وتبعتنــي أثنــاء نزولي على الدرج. قدمــت نفسها لي بصفتها مخرجــة في محطة CBS، وسألتني عن مكان وجود محاميَّ. نظرت خلفي وداعبتها بالقول: «لا أدري. ألم تريه هناك

ِّفي الخلف؟» بعد أن تلفتت حولها لبضع ثوانٍ، قلت لها إنني لم أوكل محامياً. أعربت عن دهشتها من ذلك لأن جميع من رأتهم يدخلون إلى هناك، كانوا برفقة محامين.

تجمع عدد آخر من الصحفيين خارج مبنى المحكمة وهم يحاولون الاحتماء من المطر الخفيف الذي كان يتساقط ذلك اليوم. رسمت ابتسامة لا مبالية، وأنا أقف لتلقي بعض الأسئلة. وقبل صعودي إلى سيارتي، قلت: «أنا سعيد بالقيام بدوري في التعاون الكامل مع التحقيق كما وجهنا الرئيس».

استمر التحقيق لأشهر من دون أن يتسبب ذلك في انحراف حقيقي عن سكة الحملة الناجحة لإعادة الانتخاب. مع ذلك، لم يكن العاملون في البيت الأبيض يتحدثون إلى بعضهم بعضاً حول هذه المسألة. كان مكتب المستشار قد وضع حظراً منذ مدة طويلة على الجميع بعدم التحدث علناً حول هذا الموضوع بمن فيهم أنا. كانوا قد أنفقوا سراً مبالغ كبيرة على المحامين، وأهدروا ما يكفي من الوقت وهم يجيبون على أسئلة المحققين، ولذلك لم يشأ أحد منهم القيام بأي شيء يمكن أن يكلفنا مصاريف أكثر، أو أن تتلف أكثر، مواعيدنا التي تلفت فعلاً.

أتصور أن بعضهم قد انزلق أحياناً، ووجدوا أنفسهم يشتكون من الساعات التي قضوها أمام هيئة المحلفين الكبرى، أو يثرثرون حول «من يمكن أن يكون قد فعلها». في بعض المناسبات، حتى الرئيس نفسه، لم يملك إلا أن يتحدث عن الموضوع. أذكر أنني سمعته في المكتب البيضاوي، أو على متن طائرة الرئاسة يشكو من أنه قد يضطر إلى توكيل محامٍ، ومن احتمال أن يتم استجوابه.

قابل باتريك فيتزجيرالد الرئيس، وبعض أعضاء فريقه لمدة سبعين دقيقة تقريباً في المكتب البيضاوي في نهاية شهر حزيران، يونيو، سنة 2004 بحضور «القاذف» كما كان الرئيس يطلق على محاميه الخاص، جيم شارب. أدلى آل غونزاليز بشهادته أمام هيئة المحلفين الكبرى قبل أيام من ذلك؛ كما تمت مقابلة نائب الرئيس في أوائل شهر حزيران، يونيو، سنة 2004. ليست لدي أي معلومات بشان طبيعة الأجوبة التي قدمها الاثنان للمدعين.

مَثُلَ كارل روف أمـام هيئة المحلفين الكبرى في الخامس عشر من شهر تشرين الأول، أكتوبـر، سنـة 2004. وقد أدى مثوله أمام المحلفين قبل أسابيع من إجراء الانتخابات إلى قيـام الديمقراطيين باستغـلال هذه الفرصة لإطـلاق الاتهامات صـوب الرئيس. كانت حملة كيري التي تبحث عن مساحة لها في هذه المرحلة المتأخرة من الحملة الانتخابية قد دعـت روف والبيت الأبيض «إلى الكشف عن دورهما في هـذه الفعلة الشنعاء». وكان هذا المثول الوحيد الذي قام به روف أمام هيئة المحلفين الكبرى قبل الانتخابات، لكنه لم يكن الأخير. في مستهل التحقيق، كان الرئيس قد اتخذ قراراً بعدم إجراء تحقيق داخلي. قال إنـه كان يريد أن يذهـب إلى أبعد مدى في التحقيق في هذا النشـاط المشبوه الذي يحيط بمسلسـل التسريـب، لكنه لم يأمر أياً من أركان البيت الأبيض بالقيام بتحقيق، أو يبادر إلى اتخـاذ خطوات لرفـع الغطاء عن الحقيقة، أو إطلاع الشعب عليها. اختار الرئيس أن يـترك موضوع التسريب وعواقبـه للمستشار الخاص حصراً، وذلـك - على الأقل جزئياً - بناء على نصيحة تلقاها من محامي البيت الأبيض، وبعضٍ من كبار مستشاريه.

شكلـت هذه المقاربة تناقضـاً صارخاً مع الطريقة التي قارب بها البيت الأبيض اللغط الدائـر بشأن الكلمات الست عشرة التي قادت إلى الفضيحة. فما حدث في تلك القضية، أنه حالما تم اتخاذ القرار بتحديد الكيفية التي تسربت فيها الكلمات إلى خطاب الرئيس، وصلنـا بسرعة مقبولة إلى حقيقة ما جرى، وتشاطرنا المعلومات بأفضل ما نستطيع. لقد كانـت مقاربة ذلـك اللغط بهذا الشكل المنفتح والصادق، سببـاً في اختصار الوقت الذي كان يمكـن أن تبقـى موضوعة فيه على رف الأخبار، ووضع حد لأي زخم يدعو إلى إجراء تحقيـق خارجي حول هذا اللغط بشكل خاص في الوقت الـذي أيد إجراءَه مبدئياً أعضاءُ الكونغرس من الديمقراطيين.

ولكن عندما أصبح الأمر يتعلق بالكشف عن هوية بليم، تركنا الأمر لتحقيقات خارجية قـام بها صحفيون ومدعون عامّـون، بحيث أفسحنا المجال للقضيـة في أن «تتحول بشكل قاسٍ إلى حالٍ دائمة من التشكيـك والتقاتل،» كما وصف بوب وودوارد فضيحة ووترغيت في كتابه المعنون: Shadow وتأثيرها على كل من خَلَفَ نيكسون.

كان من المفروض إيضاح المخاطر التي رافقت هذه المقاربة. ولكن في خضم الجعجعة التي تطغى على الحياة في البيت الأبيض، فإنك تتعلم أحياناً الدروس الخاطئة من التاريخ، وتخفق في الاعتراف بهذه الحقيقة. يصبح انتباهك مركزاً على حماية الرئيس، لدرجة أنك لا تتبين أنك ترمي بالنرد، وتفقد سيطرتك على المشكلة.

لم أكن أعرف شيئاً عن التسريب، أو عن أسبابه. ونظراً لأن أحداً لم يعلمني بالجهود المبذولة للنيل من مصداقية ويلسون، تعاملت مع الموضوع بكل بساطة، من مبدأ حسن النية، وهكذا كان موقفي من كبار مستشاري الرئيس. اعتقدت، مستنداً في ذلك بدرجة كبيرة إلى التأكيدات المطلقة التي تلقيتها من روف وليبي أن البيت الأبيض لم يكن متورطاً في تسريب معلومات سرية، أو خلق بيئة أدت إلى هذا التسريب. ولكن من المحزن القول إنني علمت أن ما جرى هو العكس من ذلك تماماً.

هل كنت سأتبنى هذه المسألة بشكل صريح ومباشر، لو علمت بالحقائق والظروف التي رافقتها، ولو كنت بقيت في عملي فترة أطول، أو لو كانت لدي خبرة سابقة بالتحقيقات الجنائية؟ أظن أنني كنت سأقوم بذلك. كنت وما زلت أعتقد أن عبارة «لا تعليق لدي» تمثل إستراتيجية سيئة في مجال الاتصالات. فهي مثيرة قطعاً للشبهات وتمثل أسلوباً دفاعياً. ولكن في هذه الحال، اضطررت أن أتماشى مع القرار الذي تم اتخاذه؛ وليتني لم أفعل.

تعهد المرشح جورج دبليو بوش إلى انتخابات الرئاسة في حملة سنة 2000 بأن يكون مختلفاً؛ إلا أنه اختار بعد وصوله إلى البيت الأبيض أن يكون على شاكلة من سبقوه. وتماماً مثلما فعلت رئاسة كلينتون عندما كان عليها مواجهة عملية استجواب، فقد قمنا بتأجيج أوار أعداد لا تنتهي من الفضائح والتحقيقات التي أقسمنا على تجاوزها، وذلك عبر انغماسنا في اللف والدوران، وبناء الجدران العازلة، وإنشاء السياج، والمراوغة، والإنكار، وتغييب منطق الاتصالات، والخداع واللامبالاة.

كان القرار بغزو العراق السبب الحاسم في حرف رئاسة بوش عن مسارها، كما أن تبنينا المفرط للألاعيب السياسية المتوضعة في قلب ثقافة الخداع في واشنطن أبقى الرئاسة خارج مسارها. عندما كان يمكن للصدق أن يساعد في التخفيف من كثافة الغبار

السياسي المتساقط بسبب الكشف عن المنطق الرئيس المؤدي إلى الحرب، فقد اخترنا أن نستعمل سياسة اللف والدوران، والمراوغة.

وبينما صبت هذه الأساليب في صالحنا على المدى القصير، ولم تتسبب في أي أذى لمسألة إعادة انتخاب الرئيس - التي كانت غايتنا الرئيسة في البداية - فإن تأثيرها على المدى الطويل قلل من شأن رئاسته ومن مصداقيتها، وأبقى واشنطن عاجزة عن الانتقال إلى حقبة ما بعد الحرب الحزبية التي انغمست فيها على امتداد سنوات سابقة.

أما باتريك فيتزجيرالد، المستشار الخاص، فقد كان مصمماً على القيام بشيء واحد فقط - ألا وهو عمله. وكان هذا يعني أنه غير معني بالتجاذبات الحزبية، أو أي مواعيد مصطنعة من أجل الوصول إلى الحقيقة في ثقافة واشنطن التي تعوزها الحقيقة. ونظراً لكونه غير معروف خارج نطاق فريقه المكون من أعضاء حازمين في روحهم المهنية، فقد تم النظر في توجيه اتهامات بعرقلة سير العدالة لواحد على الأقل، أو ربما اثنين من مسؤولي البيت الأبيض.

ضمن إطار القضايا الكبيرة، لم تساعدنا حكاية التسريب في جهودنا التي نبذلها من أجل مواجهة التحديات في العراق، أو الوضع المتفجر في الشرق الأوسط، أو مصالحنا الأمنية هناك. ما فعلته هذه الحكاية هو أنها أسهمت في استمرار ثقافة الخداع المدمرة في واشنطن، والمتجذرة في مرتعها الخصب المتمثل في الحرب الحزبية التي يخوضها قادتنا المنتخبون في واشنطن. حدث كل هذا في وقت كان الجنود الأمريكيون، رجالاً ونساء يقاتلون خارج الحدود، ويأملون في العودة إلى الوطن يوماً ما، ويلتئم شملهم مع أحبائهم.

ولكن بالنسبة لنا، نحن المتواجدين في البيت الأبيض أثناء ذلك كله، فليس هناك ما نفعله سوى لوم أنفسنا على هذا الاهتمام الشعبي الذي أثارته قضية التسريب. ما يزال انعدام الصدق والصراحة والأمانة والاستقامة حتى يومنا هذا، يؤجج النار التي أشعلها منتقدونا، ويطرح أسئلة حول أمانة الرئيس واستقامته، وهي مزايا كانت يوماً ما، من بين أعظم الصفات التي يتحلى بها.

ضمن ذلك كله، ويا للمفارقة، أبقى البيت الأبيض بنجاح على واحدة من أكثر القضايا إحراجاً وأكثرها ضرراً بعيدة عن التمحيص، وهي القضية الأكبر التي تقع في قلب اللغط الدائـر حول الكلمات الست عشرة: كيف استغل صانعو السياسة المعلومات الاستخباراتية حول العراق من أجل الترويج لقضية أن العراق يشكل تهديداً «خطيراً ومتصاعداً» بشكل يسوغ شن الحرب الاستباقية.

كانـت الأسئلـة المحيطة بالقضية الأكبر، أعظم مـن إدراك معنى اتخاذ القرار بغزو العـراق، والدروس التـي سيقدمها للتاريخ. إن تقصي هذه الأسئلـة، بالإضافة إلى قرار الرئيسـ وكبـار مستشاريـه الهـادف إلى تجنب أي نتائـج محتملة للصـدق والصراحة حولهـا، تقع أيضاً في قلب المفهوم الذي حرف الرئاسـة عن مسارها، ومنعها من العودة إلى سكتها الصحيحة من جديد.

فبـدلاً من الالتـزام بالصـدق والصراحـة عندما كنـا بأمس الحاجـة إليهما وإلى استعمالهمـا لصالح الرئيس، فقد قرر تجنبهما خوفاً من أن يتسببا في ضرر سياسي له. وافقـه مستشاروه على قراره هـذا. وكانت نتيجة ذلك فقدانه لثقـة الشعب؛ وأضحى هو رئيسـاً يتعلق بأهداب الاعتقاد أن التاريخ والأجيـال القادمة سوف يتغاضون عن الخداع المتجـذر في هـذه المقاربة، ويلمّعُ إرثه لو قدر لرؤيته حول النجـاح في العراق أن تتحقق في نهاية المطاف.

لكنني لم أرَ أي دلائل على هذا المنحى منذ شهور طويلة. إلا أنه وبالعودة إلى نهاية سنة 2004، كان الرئيسـ في طريقه لحفر اسمـه في التاريخ بطريقة أخرى: عبر فوزه بجائزة الرئاسة لمرحلة ثانية.



13

الانتصار والوهم

اتجهت صوب المكتب البيضاوي في وقت متأخر من صبيحة يوم الثالث من شهر تشرين الثاني، نوفمبر، سنة 2004. كنت أتوقع أن أشهد الرئيس وهو يتلقى مكالمة من خصمه في الانتخابات، السيناتور جون كيري، يعترف فيها بخسارته. كانت ليلة طويلة. حتى بوش الذي ينام باكراً في العادة، بقي مستيقظاً حتى الخامسة صباحاً - وهو الوقت الذي يستيقظ فيه عادة - وكان يخطط أن ينام لمدة ساعتين. غادرت البيت الأبيض نحو الساعة الخامسة والنصف، وعدت إليه بعد عدة ساعات.

كان اليوم السابق قد أعاد إلى ذاكرتي بعضاً مما حدث يوم انتخابات سنة 2000، ما عدا أن (الدراما) هذه المرة حدثت في ولاية أوهايو وليس في ولاية فلوريدا. ففي وقت متأخر من بعد ظهر ذلك اليوم، وقبل أن تغلق مراكز الاقتراع أبوابها في البلاد كلها، كان المزاج معكراً. أدلى الرئيس والسيدة بوش بصوتيهما في كروفورد، ثم توقفا في ولاية أوهايو قبل أن تقلهما طائرة الرئاسة مع ابنتيهما - ومن كان يرافقهم من كبار المستشارين - إلى واشنطن. وقبل أن نصعد إلى حافلات الموظفين التي كانت ستقلنا إلى البيت الأبيض، سمع دان بارتليت من كارل روف الذي أبلغه ماثيو دود، كبير المشرفين على استطلاعات الرأي لدى الرئيس أن استطلاعات رأي الناخبين الذي أدلوا بأصواتهم تحمل في طياتها أنباء مزعجة للرئيس. هذا التشخيص الذي لا يبشر بخير جعلنا، نحن العاملين في النسق الأعلى من عالم بوش، نشعر بالقلق.

بدا مزاجنا يتغير مع حلول المساء. عندما بدأت النتائج من ولايات مثل جنوب كارولينا وفيرجينيا بالوصول، كان واضحاً أن استطلاعات رأي الناخبين الذين أدلوا بأصواتهم لا تستند إلى أي أساس. كانت النتائج متقاربة جداً ولكنها كانت أميل لصالحنا. ساد نوع من التفاؤل الحذر في الجو. تنقلت بين مكتبي في الجناح الغربي وبين قاعة روزفلت

الملاصقـة، التي كانت قـد هيئت من أجل الحفلة التي سيقيمهـا كبار الموظفين للاحتفال بالانتصـار. كانـت زوجتي جيل، وأنا - كنـا قد تزوجنا في شهر تشريـن الثاني، نوفمبر، المنصـرم - نستمتع بصحبة الرئيس السابق جورج، إتش، دبليو بوش لعدة دقائق، عندما دخل ليلقي التحية على المستشارين المجتمعين. كانت جيل التي لم تلتقِ قبل ذلك بالرئيس سعيـدة جـداً بالتحدث إلى رجل الدولة العجـوز، الودود واللطيـف. كان الرئيس الحالي يتابـع الأخبار من مسكنه الخاص في البيت الأبيضـ مع عائلته المباشرة والكبيرة - أبويه وأنسبائه، من الأزواج والزوجات - بالإضافة إلى جمع من أصدقائه القدامى.

توجهـت فيما بعد إلى غرفة الطعام العائلية القديمـة الموجودة أسفل المسكن الخاص مباشـرة، والتي كان كارل روف قد رتبها بحيث تصبـح جاهزة للاستخدام كغرفة حرب لليلـة الانتخابيـة. كانت متوضعة بشكل مناسب بحيث لا يفصـل بينها وبين الرئيس سوى الدرج فيما لو قرر الرئيس أن يعرف ما يجري شخصياً. وقد قام بذلك عدة مرات في تلك الأمسيـة في الوقت الـذي كان على اتصال دائم مع كارل روف بالهاتف. كانت هناك عدة طاولات في أحد جوانب الغرفة وعليها بضع أجهزة كومبيوتر بحيث يمكن لبعض الموظفين ومنهم كارل، مراقبة نتائج الانتخابات في كل ولاية. في الجانب الآخر، كانت هناك شاشة تلفزيون كبيرة ومسطحة، مثبتة على إحدى الشبكات التي تغطي الأخبار السياسية.

كانت الخطة تقتضي بإفساح المجال لعدد محدود من كبار مساعدي الرئيس السياسيين - روف وكبـار مساعديـه، إسرائيل هيرنانديز وسوزان رالستـون، وحفنة من المساعدين الآخريـن. ولكن عندما هبط الليـل، واستمر السباق الانتخابي متقاربـاً جداً، فقد وصل بعضـ كبار موظفـي البيت الأبيض كي يطلعـوا على آخر مستجدات وجهـة هذا السباق. وكنت واحداً من هؤلاء.

بحلول منتصف الليل، بدأت بعض الشبكات تعلن أن فلوريدا قد صوتت لصالح بوش. امتـلأت غرفة الطعام العائلية القديمة بأصوات التهاني والابتهاج. وبالرغم من أن روف المهتـم بالأرقام شعر بأننا فزنا في ولاية أوهايو أيضاً، إلا أن أياً من محطات التلفزيون لم تشـر إلى احتمال مثل هذا الفوز بعد. كان آندي كارد قد بدأ بإجراء اتصالات جس نبض

خفيفـة مع معسكر كيري محـاولاً بكياسة، تشجيعهم على النظر في فكـرة إجراء المكالمة التـي يتجنب كلا المعسكرين إجراءها، وهي الاعـتراف بالخسارة. كان يجري الاستعداد لإقامـة حفلـة الانتصار في قاعة الاحتفالات في مبنى رونالد ريغـان في أسفل الشارع. أما في البيـت الأبيض، فقد كنا تواقـين جميعاً إلى اللحظـة التي سيكـون باستطاعتنا فيها الاحتفال، ومشاهدة الرئيس وهو يلقي خطاب الانتصار.

لكـن الليلة كانت مـا تزال تتحرك بتثاقـل. حلت الساعـات الأولى، وكانت محطات التلفزيـون الوطنيـة - ربما كانت على جانب كبير من الحـذر بعد أن أساءت إلى نفسها جـداً في انتخابـات سنة 2000 - ما تزال مترددة في إعلان النتائج في ولاية أوهايو ذات حجم الصوت الانتخابي الهائل.

وبينمـا كان الوقـت يخطو باتجاه الساعـة الرابعة صباحاً، شعرنـا أن كتلة الأصوات المحسوبـة لنا والبالغة نحو 150000 صوت انتخابي سوف تمنحنا الفوز في ولاية أوهايو، ومن ثم، ستمنحنا الفوز في الانتخابات. إلا أن الشبكات كانت ما تزال مترددة في إعلان النتائـج، وكان كيري وبعضـ أركان حملته الانتخابية ما يزالون يأملون في أن تعدل نتائج انتخابات المناطق في ولاية أوهايو النتائج. أما في البيت الأبيض، فلم يكن هناك سوى قلة مـن المستشارين تريد من بوش إعـلان الفوز من دون انتظار مكالمة الاعتراف بالخسارة من كيري. كانوا يأملون أن تؤدي هذه الخطوة في تثبيط عزيمة الديمقراطيين لاستدعاء محامـين، وتكـرار صـورة ما حـدث سنـة 2000. لكن آخرين حثـوا الرئيسـ بوش على الانتظـار، وهذا ما كانت عليه الأمور عندما قرر الرئيس أن ينهي تلك الليلة متوجهاً إلى مسكنه الخاص في الساعة الخامسة صباحاً.

تسربـت إلينا شائعات بشكل سري عبر مايك ماكوري من حملة كيري، أنه إذا منحنا كيري وقتاً كافياً للتفكير، فإنه سيجري اتصاله بالرئيس. قام بذلك بالفعل في وقت لاحق من ذلك الصباح.

بعـد وصـولي إلى البيت الأبيضـ في ذلك الصباح، وذلـك بعد أن أخـذت قسطاً من الراحـة لمدة ساعتين، قصـدت المكتب البيضاوي فوراً لمقابلة الرئيس. قلت له: «تهانينا يا سيدي. إنه انتصار رائع».

رد الرئيس: «شكراً يا سكوت، لقد قمتَ بعمل رائع، عمل رائع بالفعل».

بعد ذلك بفترة وجيزة، كان كل من روف، وكارن هيوز، ودان بارتليت، ومايك غيرسون، كبـير كتاب خطابات الرئيس، وأنا مع الرئيس في المكتب البيضاوي. كنا نتوقع اتصالاً من كـيري في أي لحظـة. وكان دون رمسفيلـد الذي كانت الابتسامة علـى وجهه تصل ما بين أذنيه، قد أطل برأسه قليلاً لتهنئة الرئيس.

بعد الساعة الحادية عشرة بدقيقتين، أطل مساعد بوش آشلي إيستس وخاطب الرئيس قائـلاً: « سيدي الرئيـس، السيناتور كيري على الهاتف». قفـل الرئيس عائداً إلى مكتبه ليجلس ويأخـذ المكالمة. كان بإمكاننا سماع المحادثة فقط مـن جانب بوش: «أعتقد أنك كنت خصماً مثيراً للإعجاب. لقد خضتَ حملة قاسية. آمل أن تكون فخوراً بالجهد الذي بذلته. لا بد أنك كذلك».

عندمـا وضـع بوش السماعة بعد ثـلاث أو أربع دقائق، قال وصوته يتهـدج قليلاً: «هذا لطف كبير منه». ثم بدأت الدموع تنهمر من عينيه. كانت لحظة عاطفية مؤثرة. لقد حجز بوش لنفسه مكاناً في التاريخ عبر فوزه بولاية ثانية. بدأ بمعانقتنا فرداً فرداً. وبدأت دموعنا تنهمـر بدورهـا. كانت تلك المعانقات حميميـة ونابعة من الأعماق. بعد عـدة دقائق، وصل آندي كارد وانضم إلى مهرجان العناق مع كل من جو هاغن، وبليك غوتسمان، وآشلي. نزل بوشـ بعدها إلى القاعة حيـث يوجد مكتب نائب الرئيس، حيث هنأ الاثنان بعضهما بعضاً. اتصلـت السيـدة بوش بعـد دقائق من مغادرته، وبعـد مدة وجيزة ذهب بوشـ إلى مسكنه لرؤيتها وتحضير نفسه قبل خطاب الانتصار الذي كان سيلقيه عصر ذلك اليوم.

أذكر أنني كنت أركن سيارتي تحت مبنى ريغان في مرآب السيارات من أجل الاحتفال عصـر ذلك اليـوم. كانت حافلات الموظفين مـلآى بكبار الموظفين الذيـن كانت الفرحة تغمرهم. كانت تلك مناسبة لنا كي نستمتع بلحظات من الفرح الذي حرمنا منه منذ أربع سنوات. في الداخل، كان المبنى يغص بالمؤيدين والموظفين الذين ملئوا المكان بالهتافات.

كانت كلمة بوش مختصرة. شكر فيها مؤيديه والموظفين - مشيراً إلى بعضهم تحديداً بعبارات مثل «المهندس» كارل روف - ومادّاً يده إلى أولئك الذين صوتوا لخصمه. تحدث

عن العدد الذي لم يسبق له مثيل من الذين أدلوا بأصواتهم، وعن الانتصار التاريخي. ثم تناول موضوع جدول الأعمال التي سيشكل برنامج مدة رئاسته الثانية. قال: «لأننا بذلنا جهوداً جبارة، نحن ندخل الآن موسم الأمل». تعهد بالبدء في عملية التطوير الاقتصادي، وبإصلاح النظام الضريبي، ودعم الأمن الاجتماعي، والاستمرار في تحسين أوضاع المدارس الحكومية. كما أعاد التأكيد على مساعدة «الديمقراطيات الوليدة في العراق وأفغانستان»، والاستمرار في الحرب ضد الإرهاب. كانت الكلمة في محلها تماماً وتتناسب مع الروح الاحتفالية، كانت كلمة مفعمة بالأمل ومليئة بالتفاؤل بشأن الإنجازات العظيمة التي كان يتطلع إلى تحقيقها في مرحلة ولايته الثانية.

أقام دان صبيحة اليوم الثاني احتفالاً لفريق الاتصالات الذي يرأسه في قاعة روزفلت. قام الرئيس بزيارة مفاجئة لكي يشكر الجميع على ما بذلوه من جهد. عندما انتهى من كلمته، نادى عليّ بأعلى صوته: «أين سكوت؟ هل هو موجود هنا؟»

أشار بعضهم باتجاهي. تابع بوش: «أود أن أعبر عن شكري الخاص لسكوت. لقد قام سكوت بعمل رائع. لم تتسبب في إثارة أي خبر»، وتابع بهذه الروح المرحة: «أود أن أشكرك لأنك لم تصرح - بشيء».

أثار هذا القول الأخير الضحك الذي يستحقه. لكنه كان يعكس مشاعر بوش المتمثلة في عدم رغبته في أن يقوم سكرتيره الصحفي بإثارة الجدل من دون سبب، وخصوصاً في خضم الحملة الانتخابية. لقد تفوه بكلام مشابه في الحفل الذي أقيم تكريماً لآري فليشر عند رحيله، قائلاً إن فليشر قام بعمل عظيم كونه لم يقل أي شيء على الإطلاق.

عقد بوش في ضحى ذلك اليوم اجتماعاً للحكومة. قال في بداية الاجتماع: «أتوقع أن تحاك شائعات وتوقعات حول تغييرات في المناصب الحكومية في مدة حكمنا الثانية. حسنٌ، يمكن أن تحدث بعض التغييرات، ولكن لم يتسن لي الوقت بعد، للتفكير في هذا الموضوع». تحدث بعد ذلك عن أهداف المرحلة الثانية من الولاية. تحدث عن مزايا الوصفات الطبية في الرعاية الصحية - التي ستوضع موضع التنفيذ قريباً - وكذلك عن الحاجة إلى أن تصبح مدخرات المتقاعدين المقترحة «واقعية وحقيقية». على الصعيد

الداخلـي، ساعد موضوع التعليم بوش على الفـوز بالانتخابات وذلك عبر تحييد قضية يعتبرهـا الديمقراطيـون حكـراً عليهم، لا بل نجـح في تحويلها إلى نقطة قـوة بالنسبة للجمهوريين لأننا، كما قال، نملك «فلسفة ورؤية».

سـوف تشـكل المرحلة الثانية فرصـة لتعزيز موقع بوش في التاريـخ. إن إعادة صياغة أفـكار الديمقراطيين حول التعليم، والرعاية الصحيـة، والضمان الاجتماعي ضمن أطر المحافظـين أسهم في نـزع احتكار الديمقراطيين لهذه القضايـا الجوهرية لسنين عديدة قادمة، أو، على الأقل، هذا ما اعتقده كل من بوش وكارل روف. ومع وجود أغلبية جمهورية في مجلسـي النواب والشيـوخ، فقد اعتقد الرجلان - على الأخصـ، روف - أن بالإمكان إطلاق عصر جديد من سيطرة للحزب الجمهوري ليكون جزءاً من إرثهما الشخصي.

أبلـغ الرئيس الحكومة بأنـه سوف يدفع بقانـون إصلاح تحديـد المسؤولية الطبية، وسـوف يصر علـى الانضباط المالي، ويسعـى إلى استصدار قانـون للطاقة، ثم يلتفت بعدها إلى ثلاث من أكبر المبادرات الداخلية: الضمان الاجتماعي، والإصلاح الضريبي، وإصلاح الموازنة.

ولكـن الأهم من ذلك كلـه، أن الرئيس أكد أن مقاربته للحكم سوف تكون على المنوال نفسه الذي كانت عليه إبان مرحلة ولايته الأولى. سوف تستمر الحملة الدائمة. أوضح بوش أن الكيفيـة التـي سنسوق فيها القضايا الكبرى هي على قـدر كبير من الأهمية في الوقت الذي نتحرك إلى الأمام. لقد استطعنا تسويق أهدافنا عند الشعب الأمريكي» وكان بهذا يشـير إلى الانتصار الذي تحقـق في الانتخابات. أكد للحكومة أنه عندما كان الأمر يتعلق بتسويق أهم القضايا في جدول أعماله «فإننا سنندفع لإتمامه». يجب أن يتم التركيز على تغيير منحى الرأي العام، ومن ثم الضغط على الكونغرس لدعم موقف الإدارة.

كانـت تلك فلسفته في ممارسة الحكم، وكان يشاطره إياها كارل روف، الذي التفت الآن للحديـث عنه. فلقد امتدح بوش روف واصفاً إياه «بالمهندس اللماح» الذي يستنبط «الإستراتيجيـة الكاملـة»، من أجل إعـادة الانتخاب؛ وقد أدار «حملـة إعادة انتخاب لا تشوبهـا شائبـة. لقد كانت الحملة تدار بشكل لا يصدق. كانـت تقف إلى جانبنا حشود

جماهيريـة كبيرة ورائعة». ومن البديهي القـول إن هذا المهندس يكرس اهتمامه لإدارة حملة «تسويق القضايا الكبيرة» للشعب الأمريكي. لقد بدا وكأن يوم الانتخاب ما هو إلا محطة في رحلة لا تنتهي.

بعدها أدلى تشيني ببعض التعليقات. فقد تذكر أنه سبق له أن ناقش خططاً مع الرئيس في هذا الوقت نفسه منذ أربع سنوات. قال نائب الرئيس: «أتذكرُ الحديث الذي دار بيننا بعـد إعادة عد الأصـوات في انتخابات سنة 2000، وكان الحديث حـول ما إذا كان علينا التخفيـف من نشاطنا؛ وأذكر أنك قلت إن ذلك ليس خياراً، وقد آتى أُكُلَه. التفويض هذه المـرة هو في غايـة الوضـوح». (لم يلحظ أحد في هـذا الحديث عن مبـدأ «التفويض» أن الانتصـار بهذا الفـارق الضئيل، هو من أضيـق الهوامش في أي حملـة إعادة انتخاب في تاريخ الرئاسة.) قال تشيني إن السنوات الأربع المقبلة تمثل «فرصة لإتمام المهمة».

تحـول الحديـث بعد ذلك باتجاه موضـوع العراق. قال كولن باول وزيـر الخارجية إن «العراق يحتل الأولوية في أذهاننا. إننا نعمل للتحضير للانتخابات سنة 2005، ولا بد من وضع حد للخروق الأمنية، وعلى الأخص في المثلث السني».

تدخـل الرئيـس قائـلاً: «كانـت لحظـة حاسمـة في تاريـخ أفغانستـان عندما تمت الانتخابـات. يجب أن تؤمنوا بأن الناس تواقـون إلى الحرية، حتى في المناطق المحرومة. العراق سوف يغير العالم». لكنه اعترف بأن النتائج المتوخاة التي يتم التوصل إليها يمكن أن تكون «قبيحة».

تحـدث وزير الدفاع، دونالد رمسفيلـد عن أسر العسكريين، وعـن آبائهم وأمهاتهم. قال: «لم أتوقف عن التفكير بهم. لا بد أن نتيجة الانتخابات هي مصدر اطمئنان [لهم]». تحدث كيـف أن الشعب العراقي كان «يقاوم التخويف» وسـط «الإجراءات القاسية» التي كان عليهـم مواجهتها - وكان بذلك يلمح بشكل غير مباشر مثل كولن باول، إلى الفوضى والقتـل في مناطـق مثل الفلوجة حيـث كان المخربون والإرهابيـون يتسببون في الكثير من الخـراب. كما أكد على أهميـة الانتخابات العراقية القادمة في شهر كانون الثاني، يناير، لانتخاب الجمعية الوطنية الانتقالية.

وافق الرئيس على ذلك قائلاً: «الانتخابات مهمة من دون شك. إنها ترغم الناس على الاختيار. فإما أن يفوتهم القطار، أو يستقلون قطار» الديمقراطية. أضاف بوش أنه تحدث إلى قادة عراقيين أمثال الياور وعلاوي حول نتائج انتخابات الرئاسة الأمريكية، وقالا إنهما «مرتاحين» لفوز بوش.

قال رمسفيلد: «كانوا سيتحولون إلى خبز محمّص لو خسرت».

أجاب بوش: «خبز فرنسي محمّص». انفجر جميع من كان بالقاعة بعدها بالضحك.

أوضح كل من خطاب الانتصار والاجتماع الحكومي بما لا يدع مجالاً للشك طريقة تفكير بوش لكل من كان يعرفه. كان مصمماً حتى النهاية على التقدم إلى الأمام بعقلية هجومية لتسويق أفكاره الكبيرة، وحفظ مكان له في التاريخ. اعتقدَ أن الانتخابات كانت بمنزلة تصديق على سياساته في المرحلة الرئاسية الأولى، بما في ذلك قراره بغزو العراق، ومنحته تفويضاً لتنفيذ خطط وأهداف مرحلة الولاية الثانية التي حدد معالمها. الآن أصبح عليه القيام بأفضل ما يجيد فعله - شن الحملات. قرر القيام بجولات في طول البلاد وعرضها، مسخراً الآلة الإعلامية لصالحه، والفوز بمعركة كسب الرأي العام مركزاً على كل صوت انتخابي، وكل استطلاع للرأي، وكل ولاية على حدة. لا بد أن يضطر الكونغرس قريباً جداً للإذعان والجلوس إلى طاولة المفاوضات بشروط بوش. ولن تكون هناك منذ البداية أي حاجة إلى الثنائية الحزبية التي تعتمد مبدأ الأخذ والعطاء والحلول الوسط. هذه الأساليب التي شكلت العامل الحاسم في نجاح بوش في ولاية تكساس، لا مكان لها في اللعبة السياسية المعتمدة في واشنطن.

كانت تلك الروحية نفسها واضحة في المؤتمر الصحفي الأول الذي عقده بوش بعد إعادة انتخابه. فقد أعرب عن نيته في الإنفاق من «رأسماله السياسي» في سبيل تنفيذ أهدافه المبهمة بدءاً بموضوع التدقيق بالضمان الاجتماعي؛ وعندما حوصر في مسألة التعاون مع الديمقراطيين، قال بوش إنه راغب في القيام بذلك. حتى أنه ألمح بشكل عابر إلى مسألة توحيد الأمة، وهو الموضوع الذي كان أحد موضوعات جدول أهدافه منذ أربع سنين. قال بوش: «أحد مظاهر خيبة الأمل الناجمة عن التواجد في واشنطن يكمن في

المـرارة والعقلية التقسيمية اللتـين تنتجهما هذه المدينة، لا ألوم هنا هذا الحزب أو ذاك. هـذا هو واقع الحال في واشنطـن دي سي، وأحياناً تتفاقم هـذه المشكلة بسببكم [يقصد وسائل الإعلام]، لأن في هذا تسلية عظيمة لكم. هي كذلك في الواقع - إنها مسلية بالنسبة للبعض. وهذا ما يجعل ممارسة الحكم عملية صعبة أحياناً. ولكن، وبغض النظر عن كل ذلك فإن التزاميبالتعاون مع الديمقراطيين «ما يزال موجوداً».

لكـن بوش أوضـح أيضاً أنه إذا كان عليـه الدفع بشيء يحتاج فيـه إلى دعم قليل من الديمقراطيين كما فعـل بالنسبة إلى مشروع قانون الوصفات الطبية تحت مظلة الرعاية الصحيـة، فإنه سيقوم بذلك. قال: «النتائج تهمنا بالتأكيـد»، وكان من الواضح بالنسبة لبوشـ، أن «النتائـج» تعنـي تنفيذ جدول أهدافـه بالطريقة التي تراءت لـه (ولروف) - وليسـت نسخة مبللة لطختها تدخلات من الديمقراطيين. بالعـودة إلى الوراء، يتضح أن الالتزام بالترفع عن الصراعات الحزبية كان مسألة تعوزها الحماسة.

كان العـراق ما يـزال بطبيعة الحال، يشـكل الأولوية المطلقة. فقد أكـد الرئيس في مؤتمـره الصحفـي علـى الرأي نفسـه الذي تحدث بشأنـه مع فريقـه في مجلس الأمن القومي في لقاءات خاصة: إنها فقط مسألة وقت قبل أن تتحول الديمقراطية في العراق إلى واقـع. سيندفـع العراقيون إلى الأمـام، وسيتحملون مسؤولياتهـم في مجال الأمن، ومـن ثم، فـإن البحث في سحب القـوات الأمريكية يمكن أن يصبـح مسألة جدية. وقد عـدت الانتخابات القادمة في شهر كانون الثاني، يناير، لحظة تاريخية في هذه العملية. قـال بوش: «سنتعاون مع حكومة عـلاوي للوصول إلى مبتغانا الذي يتمثل في الانتخابات في سبيـل تحقيق الاستقرار، وسوف نستمر في تدريـب القوات العراقية. وسيكون بإمرة قادتنا العسكريين كل ما يحتاجونه لإكمال مهمتهم».

كان كل ذلـك جزءاً من رؤية بوش المثالية حول العـراق كمنصة إطلاق لتغيير الشرق الأوسـط. وقـد دافع عن هـذه الرؤيـة في مؤتمره الصحفـي. قال: «هنـاك أسلوب يتبعه بعضهـم في العالم، مفاده أن محاولة الدفع بمجتمعات باتجاه الحرية هي مضيعة للوقت.

لقد سمعت بهذه الانتقادات... إنني أعارض بشدة أولئك الذين لا يرون الحكمة في محاولة دعم حرية المجتمعات في شتى أرجاء العالم. إذا كان يهمنا الدفاع عن بلدنا على المدى الطويل، فإن أفضل الطرائق للقيام بذلك يكمن في نشر الحرية والديمقراطية».

كانت خطط وأهداف مرحلة الولاية الثانية مبهمة تماماً: إصلاح بعضٍ من أكبر البرامج المحلية وأكثرها إثارة للجدل، خلق الظروف الملائمة للإبقاء على أغلبية جمهورية دائمة، وفي الوقت نفسه، تحقيق النصر في حرب خارجية كبيرة، والبدء نتيجة لذلك بتغيير منطقة ملتهبة إلى واحة من السلام والديمقراطية. لكن بوش وبعضهم من أركان فريقه كانوا واثقين من ذلك. كانت ثقتنا كبيرة بأسلوب قيادة بوش المتمثل بمبدأ كف اليد، وهو ما وضع الكثير من التفاصيل الحاسمة بين أيدي أعضاء تابعيه في فريقه الموثوق. وبعكس كل من الرئيسين جونسون وكارتر اللذين غرقا في كومة من الطحالب نتيجة ولعهم بالتفاصيل الدقيقة، فإن بوش كان يلتزم بالصورة الشاملة، ومن ثم كان يحقق النجاح على عدة جبهات في وقت واحد.

كان كبار مستشاري بوش للشؤون الإستراتيجية والسياسية يعتقدون أنهم استوعبوا حقيقة الكيفية التي تمكنهم من الانتصار على طريقة واشنطن. ولكن هل كانت ثقتهم بالنفس حول «التفويض» الممنوح لنا مبنياً على أساس من الوهم؟ وهل تعرض أحدهم لواحد من الأخطار الدائمة التي يواجهها القائمون على الحملات الناجحة - مؤمنين بعالمهم الذي يدورون فيه، ومتجاهلين كم كان الدعم الشعبي لبوش مهزوزاً؟

السنتان القادمتان سترويان الحكاية. أما الآن، فإن بوش العاقد العزم والممتلئ بالحماس، وفريقه في البيت الأبيض الذي استعاد زخمه ونشاطه يندفعون إلى الأمام يقودهم الإحساس بالانتصار.

⁂

غادر بوش برفقة السيدة بوش إلى كامب ديفيد في عصر يوم الخميس ذاك، لتصفية ذهنه والاسترخاء بعد حملة شرسة. ولكنه كان سيبدأ نقاشاً جدياً مع آندي كارد حول حكومته وكذلك حول طاقم البيت الأبيض. كان بعض أعضاء الحكومة يخططون لترك

مناصبهم، وكان آندي يشجع بعض أعضاء الحكومة الآخرين على النظر في المكاسب التي سيجنونها جراء تقديم استقالاتهم بدلاً من الانتظار إلى حين إقالتهم.

التغيير بين الحين والآخر مسألة مهمة جداً للمحافظة على حيوية البيت الأبيض. يحتاج الرئيس إلى كم كبير من النصائح الحكيمة والصادقة وواضحة الرؤية. يمكن للدم الجديد أن يساعد في الإبقاء على هذه المصادر حيوية ونَشِطة. أكثر من ذلك، إن العمل عضواً في فريق كبار الموظفين في البيت الأبيض ينهك صاحب العلاقة ويستهلكه، وهو بمنزلة طريق تحرق صاحبها. وكلما طال عليك الوقت كموظف داخل جو الخداع في البيت الأبيض، أصبح من الصعب عليك أكثر رؤية الأشياء بوضوح وموضوعية. ولذا تصبح معرفة متى وكيف يمكن إجراء التغيير، مسألة مهمة جداً للرئيس ورئيس أركانه.

كان آندي كارد يستوعب ذلك كله. فقد حذّر العديد منا، نحن العاملين المستقبليين في الجناح الغربي منذ البداية أن أحد أهم الأشياء التي علينا معرفتها هي «متى يتعين علينا تقديم الاستقالة». انطلقَ كارد الآن إلى كامب ديفيد لتشجيع الرئيس كي يبدأ بهذه العملية بتعيين رئيس أركان جديد للبيت الأبيض.

بقيت على اتصال وثيق مع آندي خلال مدة التخطيط. كانت طاحونة الإشاعات في واشنطن قد بدأت في تخميناتها حول التغييرات القادمة، ولم أشأ أن أكون غير مدرك لما قد يحدث فجأة في أي لقاء صحفي. في الوقت نفسه، فهمت أن هذه العملية ستكون في غاية السرية. كان الرئيس يؤمن بوجوب إبقاء الخطط سرية إلى أن يتم وضع اللمسات الأخيرة عليها. كان آندي والرئيس يطلبان مشورة بعض المستشارين الموثوقين؛ وكان مكتب مستشار البيت الأبيض يدقق بهدوء في كل الوجوه الجديدة المحتمل تعيينها في ملاك البيت الأبيض. كان يتم عادة تداول بعض الأسماء المحددة ضمن الدائرة الداخلية، وعندها كنت اكتشف ما يجري، هذا إذا لم يكن الرئيس نفسه يعلمني بذلك. كان الهدف من ذلك الاستفادة القصوى من التغييرات في الوقت نفسه تقريباً، وتشكيل حكومة متكاملة لمرحلة الولاية الثانية قبل نهاية السنة.

يـوم الجمعة في كامب ديفيد، شـارك الرئيس أيضاً في اجتمـاع لمجلس الأمن القومي حول العراق. وقد قدم كل من الجنرال أبي زيد، رئيس القيادة المركزية، والجنرال كيسي، رئيـس مسرح العمليات في العراق، وجون نيغروبونتي، السفير الأمريكي في العراق رؤاهم عبر بث الدائرة المغلقة التلفزيوني.

كان الوضـع في مدينـة الفلوجة الموضـوع الرئيس في النقاش، وهـو موضوع أثار القلق منـذ نهايـة المعـارك الأولى قبل ثلاثة أشهـر. كان المخربـون ما يزالـون يسيطرون على المدينـة، كما أن بوش وفريقه قرروا أن هؤلاء المخربين يجـب أن تتم هزيمتهم مرة وإلى الأبـد، وقبل حلول موعد الانتخابات. في الأسبوع الأول مـن شهر تشرين الثاني، نوفمبر، حـذر رئيس الوزراء، المالكي علنـاً المتسللين أن النافذة المفتوحة لهـم للوصول إلى تسوية سلميـة مع الحكومة تغلق بسرعـة؛ وأن القوات الأمريكية بدأت بمهاجمة المدينة بالغارات الجويـة ونـيران المدافع. وسوف تنضم القـوات العراقية قريباً إلى القـوات الأمريكية في حرب دموية ومكثفة داخل المدينة نفسها، تحت مسمى:عملية غضب الشبح. وسوف تطبق القـوات الأمريكية والعراقية علـى المدينة بشكل كامل خلال بضعة أيام، تنتقل بعدها إلى عمليات تمشيط بحلول منتصف الشهر.

ولكـن خلال تلك المدة نفسها، وقعت عمليات عنف أكبر في مناطق أخرى من العراق، مثـل مدينـة الموصل. كان ذلـك بداية لما أطلق عليـه بعضهم معركة عصـر «التغلب على الخلد» ضد المتسللين: اهزمهم في مكان ما، وسيخرجون عليك من مكان آخر.

صبـاح يوم الاثنين الثاني، وبعد عودة الرئيس من كامب ديفيد، قام بزيارة نادرة إلى حيـث اجتمـاع كبار الموظفـين في قاعة روزفلت. قـال: « اتخذت قراراً واحـداً، طلبت من آنـدي البقاء في منصبه رئيسـاً لأركان البيت الأبيض. صفق كبـار الموظفين، وعبر آندي عن عميق امتنانه للشرف الذي حظي به.

كانـت الرسالة هنا توحي بالاستمرارية وليس التغيير. إنني معجب جداً بآندي كارد. كنـت دائمـاً أعده واحداً من أشرف العاملين في إدارة بوش. وكان آندي نفسه يعتقد أنه مـن الأفضل بالنسبة إلى البيت الأبيض تغيير رئيـس أركانه. وكما أخبرني آندي بنفسه

في وقت لاحق، فقد حث الرئيس على إجراء مثل هذا التغيير، لكن هذا الاقتراح جوبه بالرفض القاطع. بالعودة إلى الوراء، فقد كان ذلك ينبئ بما سوف يأتي لاحقاً فيما يتعلق بعملية التغيير في الولاية الثانية.

اعتاد الناس أن يسألوني عن سبب الولاء الشديد الذي يظهره أركان بوش له. وكنت أجيب: «نحن موالون له، ولكنه هو موالٍ لنا أيضاً. إنه طريق باتجاهين. إن ولاءنا المتبادل يغذي بعضه بعضاً.

يحب بوش الإبقاء على ما اعتاد عليه، ولا يحب التغيير، خصوصاً فيما يتعلق بأعضاء أساسيين في فريقه كان قد منحهم ثقته واعتمد عليهم. أدى ذلك إلى نشوء رباط قوي بين بوش وبين عدد منا، أي من كبار الموظفين، وخصوصاً أشخاص تكساسيين وآخرين مثل آندي. كانت جاذبيته الشخصية وطبيعته التلقائية عاملاً مهماً في خلق بيئة عمل ممتعة حيث يرغب الناس في أن يبقوا حيث هم - ربما أكثر مما يجب.

كانت قدرة جورج دبليو بوش على استلهام مثل هذا الولاء مظهراً من مظاهر القوة الكبيرة لديه «بصفته شخصاً». أما بالنسبة إلى بوش «الرئيس»، فقد كانت مصدر ضعف كامن أيضاً. إن الإزعاج الذي يسببه التغيير لبوش يجعل من الصعب عليه التراجع عن العلاقات القوية التي ينشئها، واتخاذ قرارات واضحة حول ما هو أفضل.

بالعودة إلى الماضي، يبدو من الواضح أن فرصة قد ضاعت مع بداية مرحلة الولاية الثانية المتمثلة في تعيين أشخاص لهم رؤى وآفاق جديدة في فريق البيت الأبيض، وفي فريق مجلس الأمن القومي. بدلاً من ذلك كله، شاهدنا تعزيزاً لمواقع الفريق ذي اللون الواحد داخل الحكومة، وداخل البيت الأبيض، خصوصاً بين كبار المستشارين في مجلس الأمن القومي. كانت هناك تغييرات؛ لكن تلك التغييرات زادت من وتيرة التجانس في الرأي بينهم وبين أذن الرئيس.

خرج وزير الخارجية كولن باول. أبلغني كارد فيما بعد أن باول وبوش اتفقا سابقاً على أن يبقى في منصب وزير الخارجية حتى انتهاء الولاية الأولى. ومع حلول موعد المرحلة

الانتقاليـة، أعاد باول النظـر في موقفه وكان على استعداد لإعادة النظر في مسألة البقاء مـدةً أطول ضمن شروط محـددة. ولكن بعد الاجتماع معه لمناقشتها، اتفق الرجلان على أن موعد الفراق قد حان.

كنـت أشعر بالأسـف لرحيل باول، مثـل الكثيرين من الأمريكيين. كنـت أعرف فيه الشخص الذي يقدم النصيحة الصادقة والمباشرة المبنية على سنوات طويلة من الخبرة كقائد عسكري، وكخبير في السياسة الخارجية. أكثر من ذلك، لم يتردد أبداً في التعبير عن مواقفه بوضوح.

لكـن الرئيس شعر على ما يبـدو أنه لم يعد بحاجة إلى صوت باول المعتدل كي يضعه في مواجهة آراء صقور مثل تشيني ورمسفيلد. وقد تم إبداله بكوندي رايس الموثوقة جداً، والمتكيفـة جداً، والتي كانت أكثر من مستعدة لتغيير موقعهـا كمستشار للأمن القومي. كانت الضغوط والتحديات الهائلة تحيط بهذا المنصب من كل حدب وصوب - بالإضافة إلى اللغـط المتزايـد بشأن العراق منذ مدة قريبة. كان بإمـكاني التنبؤ بأنها كانت تتوق إلى بدايـة جديدة في موقـع آخر، وكان منصب وزير الخارجية هـو الموقع الوحيد الذي كانت تطمح إلى احتلاله، باعتقادي.

شعـر بعض أعضاء فريق بوش، بمن فيهم الرئيس نفسه، بأن رايس قادرة على ضبط بيروقراطيـي وزارة الخارجيـة (بمن في ذلك الكادر المـوالي للديمقراطيين) ضمن خط سياسـة الإدارة، سـواء كانوا متفقين معها أم لا؛ بعكس كولن بـاول الذي أوكل الكثير من المسائـل إلى الدبلوماسيين المحترفـين المختصين بالشؤون الخارجيـة. هذا الموقف الذي اتخـذه، بالإضافة إلى آرائه السياسية المستقلة، جعل بعض العاملين في مؤسسة السياسة الخارجيـة يعتبرون أنه لم يكن يتصرف ضمن روحيـة الفريق. باعتقادي، كان مثالاً على مـا تدل عليه عبارة روحيـة الفريق من معنى. لقد كان يبحث عن مصالح الشخص الذي يعمـل في خدمتـه، وكذلك في خدمة بـلاده التي أقسم علـى الولاء لها بكثـير من العناية والحكمة. كان من الخطأ عدم إيجاد طريقة تؤدي إلى الاحتفاظ به.

مـن الصعـب على المرء القول إنه يعـرف كوندي رايس. إنها تلعب وهـي تضع أوراقها قريباً جداً من صدرها، وتحتفظ عادة بآرائها لتناقشها مع بوش في جلسات خاصة. بمرور الوقـت، أدهشتني بحصافتها التي حمت سمعتهـا بواسطتها. وبغض النظر عن الأخطاء التي يمكن أن ترتكب، فإنها كانت قادرة دوماً على إبقاء يديها نظيفتين، حتى عندما تكون المشـكلات ضمن نطاق سلطتها المباشرة بما في ذلك موضوع أسلحة الدمار الشامل التي كانت الدافع وراء الحرب في العراق، وقرار غزو العراق، والكلمات الست عشرة في خطاب الرئيـس حول حال الاتحـاد، وإستراتيجية التخطيط والتنفيذ لمرحلـة ما بعد الحرب في العراق. يقول بعضهم إنه كان عليها أن تدفع بقوة أكبر باتجاه لفت الانتباه إلى التهديدات وتوجـه أنظار البيت الأبيض نحـو موضوع الإرهاب قبل وقوع هجمـات الحادي عشر من أيلول. بالرغم من أنها كانت كبير مستشاري الرئيس لشؤون السياسة الخارجية، ومنسق فريق الأمـن القومي، فقد جيّرتْ المسؤولية عن هذه الأمور لتقع بدرجة كبيرة، على عاتق أشخاص مثل مدير وكالـة المخابرات المركزية السابق جورج تينيـت، وبول بريمر، ودون رمسفيلـد. وكمـا يحب الرئيس بوش أن يقول، إذا كان ما يهـم هو النتائج، فإن التاريخ لا بـد أن يحكم عليها بقسوة باعتبارهـا الشخص المسؤول عن الإشراف على رسم عدد من السياسات الحاسمة - والسيئة الطالع، أقله على المدى القريب - الإدارة بوش.

ولكن مهما كان نوع الأخطاء التي ارتكبتها في مجال إدارة السياسة، فقد كانت بارعة في مجـال العلاقات العامـة. كانت تعرف كيف تتأقلم مع الإزعاجـات المحتملة، وتتجاهل المشكلات الكامنة، وتخرج من هذا كله وهي تشع كنجمة. لا يستطيع سوى القلة من الناس التصرف تحت الأضواء بطريقة أفضل؛ بالطريقة التي تعلق فيها على الأخطاء بفصاحة تلقائية وسلسة، ونزوعها نحو التقليل من شأنها.

لكنهـا كانت في اللقاءات الخاصة تمتدح حدس بوش وتعززه، بدلاً من انتقاده أو طرح تساؤلات بشأنه. وبمقدار ما أستطيع قوله استناداً إلى الاجتماعات والمناقشات الداخلية، فقد انتظمت كوندي بشكل لا عودة عنه، في مسار تفكير بوش. وإذا لم تكن هي من يحدد

له مسار تفكيره، فإنها بالتأكيد تعرف كيف تقرأه، وكيف تترجم أفكاره ومشاعره وميوله، وتحولها إلى سياسات ملموسة.

بدأت رايس بداية قوية في منصبها الجديد كوزيرة للخارجية. ونظراً لأن المكون الأساسي لهذا المنصب يرتكز إلى الدبلوماسية العامة، ولدوره القوي في مجال العلاقات العامة، فقد كان مناسباً جداً لشخصيتها الطيعة أو المرنة وقد أحاطت نفسها بفريق عمل موثوق ومجرب خدم مصالحها بشكل جيد.

تمت ترقية ستيف هادلي من موقعه كنائب للمستشار، إلى منصب مستشار الأمن القومي. لعب هادلي البعيد عن الأضواء، ذي الشخصية المستوية، والذكي الذي لا يكل ولا يتعب، في معرض اهتمامه بالتفاصيل، دور ميسر الأمور بالنسبة لطريقة تفكير الرئيس، ومجلس الأمن القومي التابع له. كان يعمل لساعات طوال، وكان في المحصلة يعلم أنه يعمل في خدمة شخص واحد، ألا وهو الرئيس بوش. لكنه كان يتأكد من أن كل مسؤول تابع له لا بد وأن يطلع على التفاصيل كي يكون باستطاعته تقديم كل ما يلزم في مجال السياسة. ولذلك فإنه لم يتم عزل أحد أو تهميشه.

ذكرت بعض التقارير فيما بعد أن آندي كارد أجرى عملية إصلاح كاملة في فريق مجلس الأمن القومي، بما في ذلك استقالة دون رمسفيلد. كان هذا يبدو معقولاً بالنسبة إلي بالرغم من أن آندي لا يمكن أن يقر بذلك علناً. (شعر بأن دوره وسيطاً نزيهاً في العملية السياسية يتطلب منه هذا من النوع الحصافة). على أي حال، قرر الرئيس أن على رمسفيلد أن يبقى. رمسفيلد ذو شخصية قوية، لا يكل ولا يمل من السعي لتحقيق أهدافه، وهو مقتنع تمام الاقتناع بأن سنوات خدمته الطويلة في المجال الحكومي وخبرته المشتركة تجعله ملماً بدقائق الأمور بطريقة فريدة، وتؤهله لكي يكون الحكَم الوحيد على قراراته. كان بوش يبدي دوماً اهتماماً عظيماً به - أكثر مما ينبغي، أحياناً. وكان إبقاؤه في منصبه مع بداية مرحلة الولاية الثانية يعني أن وزارة الدفاع ستدار على المنوال نفسه؛ وهو المنوال الوحيد الذي يجيده رمسفيلد - أي على طريقته.

تم إجـراء تغيـيرات في بعض المواقع الرئيسـة في الإدارة. فقد تولى آل غونزاليز الذي شغـل منصـب مستشـار البيت الأبيض خـلال مـدة الرئاسـة الأولى، وزارة العدل. كان غونزاليز من أشد الموالين للرئيس، وهو صديق ومساعد له منذ أيام تكساس، وكان يخدم مصالـح الرئيـس بكثير من الولاء إلى أن وصل هذا الأخير إلى البيت الأبيض. لقد تعامل مع منصب مستشار البيت الأبيض كما لو كان المحامي الشخصي للرئيس؛ فقد كان يعمل بجـد لإيجاد الحجج القانونية والحماية اللازمة لأكثر الخيارات السياسية التي تقوم بها الإدارة إثـارة للجـدل. وتضمنـت هذه بشكل خاص بعض المواقع التي كان يـؤدي تشيني ومستشـاره ديفيـد أدينغتون من الداخل دور البطل فيهـا - على سبيل المثال، قرار توسيع الصلاحيـات التي تسمح باستخدام أساليـب الاستجواب التي كان من المحرم استعمالها ضد المحتجزين في قضايا الإرهاب؛ وكان موقف الحكومة يتمثل في أن «المقاتلين الأعداء» الذيـن يعتقلون في الحرب ضد الإرهاب، لا تنطبق عليهـم الحماية التي تفرضها اتفاقية جنيف،وكذلك قرار استخدام المحاكم العسكرية بدلاً من المحاكم المدنية لمحاكمة المشتبه فيهم في قضايا الإرهاب.

من السهل تبيان الأسباب التي حدت بالرئيس، الوفي لأصدقائه القدامى والموثوقين، والكاره للتغيير، كي يرغب في أن يكون غونزاليز في منصب المدعي العام. (تمت تسمية هارييـت ميرز، مـن تكساس أيضاً للحلـول محل غونزاليز في منصـب مستشار البيت الأبيضـ.) لكـن عملية الانتقال هـذه أثبتت أنها ستثير مشكلات أكـثر مما توقعها أي منهمـا. لا بأسـ في أن يكـون مستشار البيت الأبيضـ موالياً بشـكل شخصي للرئيس؛ لكـن هـذا يصبح أكثر مدعاة للتسـاؤل عندما يكون هذا الشخصـ في منصب المدعي العام الذي تتطلب وظيفته أن يكون محايداً في تطبيق قانون البلاد، حتى لو ألحق ذلك الضرر بالرئيس والحزب الذي ينتمي إليه.

تمـت الموافقـة على تعيـين غونزاليز في هذا المنصـب بأغلبية ضئيلـة استندت بشكل رئيسـ إلى الـولاء الحزبي، حيـث صوت ستون عضـو جلس شيوخ (سـتـة منهم فقط من الديمقراطيين) لصالحه بينما عارضه ستة وثلاثون عضواً (جميعهم من الديمقراطيين)؛

ويعـود ذلك إلى المواقع السابقة المثـيرة للجدل، والتي شغلها غونزاليز. كان هذا التقارب في نتيجة التصويت ينبئ بما تعنيه عبارة المشكلات المرتبطة بتولي المنصب. ونظراً لعدم قدرته على الفصل بين موقعه وبين علاقته الوثيقة مع الرئيس، ولعجزه عن إظهار نوع من الاستقلاليـة، ولارتباطه الشديد بالمكائد السياسيـة الدائرة في البيت الأبيض، فقد وجد آل نفسه متورطاً في العديد من القضايا المثيرة للجدل والضارة، بما في ذلك تلك القضية التـي مـا تزال تثير الكثير مـن الشبهات، والتي تتمحـور حول ما إذا قامـت وزارة العدل بعزل عشرات من المدعين العامين الأمريكيين بسبب انتماءاتهم الحزبية. وبعد أن وقع في خضـم من سياط الاتهامات والاتهامات المضادة، انتهى الأمر بآل إلى تقديم استقالته في شهـر آب، أغسطس، سنة 2007، وكان هناك ما يشبـه الإجماع في أن مدة توليه منصب المدعي العام لم تكن لها فاعلية تذكر.

كانـت هنـاك وزارة أخـرى في الحكومة بحاجة إلى قيـادة جديدة مـع مستهل مرحلة الولايـة الثانيـة، وهـي وزارة الأمن الداخلـي، التي ما تـزال في مراحل طفولتهـا الأولى، والتـي ما تزال تحاول تحديد هويتهـا ومهامها. فالتكديس الهائل والفوضوي للعشرات من الـوكالات المستقلة التـي تم تجميعها تحت مسمى واحد، وتركز على هدف جديد (التهديد المـادي «للوطن» الأمريكي) يتعارض أحياناً مع التفويضات القديمة، أدى إلى عرقلة العمل في وزارة الأمـن الداخلـي بسبب الصراعات البيروقراطية الداخليـة، والتحديات المتعلقة بالتنسيق بين مختلف مكوناتها، والمعقدة بشكل لا يصدق، ومعنويات العاملين المنخفضة.

كانـت الـوزارة بحاجة إلى قائـد ذي مهارات عظيمـة، وإمكانية إداريـة، ورؤية قوية استشرافية، بالإضافة إلى نزاهة غير مشكوك بها. ولكن لسوء الحظ، فقد كان الشخص الأول الـذي اختـاره الرئيـس بوش لهذا المنصـب لا يمتلك أياً من تلـك الصفات – وهو برنـارد كيريك، أمـين شرطة نيويورك السابـق الذي وصّى به بحـرارة، عمدة نيويورك السابق، رودولف جولياني.

كانـت هناك صداقـة وثيقة تربط جوليـاني بكيريك، وهي صلة شبيهـة بالصلة التي تربـط بين بوش وبين بعض الموالين التكساسيين لـه. بالعودة إلى الماضي، يمكن القول إن

علاقتهمـا كانت وثيقة جداً. فقد قادت هذه الصداقة الوثيقة جولياني إلى إغفال حقيقة أن هناك العديد من الأفعال غير الأخلاقية التي لطخت إلى درجة كبيرة سجل كيريك في مجـال الخدمة العامة. وقـد أودت بعض هفوات كيريك به إلى بعض المشكلات القانونية. فقـد اعترف سنة 2006 بأنه مذنب في اثنين مـن الانتهاكات الأخلاقية، وتم تغريمه على كل منهمـا؛ وفي سنة 2007، وجهت إليه تهم في ست عشرة قضية تتعلق بالتزوير بواسطة الهاتـف، والتزويـر بواسطة البريـد، والتآمر، والكـذب على مصلحة جبايـة الضرائب. (أعلن أنه غير مذنب، لكنه لم يحاكم بعد بشأن القضايا اللاحقة).

بعد أن رشح بوش كيريك لمنصب وزير الأمن الداخلي في شهر كانون الأول، ديسمبر، سنـة 2004، بـدأت عمليـات الكشف عـن سلوكه تعلن علـى الملأ. كانت هـذه واحدة من الحلقـات التـي قدمت فيها الصحافة مثـالاً عن الدور الحاسم الذي يمكـن لها أن تلعبه في الكشـف عن الارتكابات التي يقـوم بها المسؤولون الحكوميون. بصراحة، قامت وسائل الإعـلام بعمـل أفضل مما قامت به إدارة بوش فيما يتعلـق بسبر المعلومات حول كيريك. ولم يكن أمام كيريك بعدها سوى تقديم استقالته.

في شهـر كانون الثـاني، يناير، أقدم بوش على ترشيح مايـكل تشيرتوف لمنصب وزير الأمـن الداخلي؛ وهو مدع عام فيدرالي سابق، وقاضٍ في محكمة الاستئناف الأمريكية، ومسؤول في وزارة العدل. كان تشيرتوف معروفاً في البيت الأبيض حتى أنه عمل (بالتعاون مـع فيت دينه) على صياغة مشروع قانـون الوطنية، وهو قانون استند إلى مبادرة روجت لهـا الإدارة كثيراً، وتحول فيما بعـد إلى قانون مثير جداً للجدل. لكـن إمكاناته في إدارة بيروقراطيـة حكومية معقـدة وواسعة كانت مثار شك؛ وقد لاحقتـه الاتهامات بالتقصير خلال إعصار كاترينا بشكل لم يكن أحد يتوقعه.

كان توسيـع دور كارل روف الرسمـي داخـل البيت الأبيض أحد أهـم التغييرات ذات المغـزى، والتـي حصلـت في المرحلة الانتقاليـة سنـة 2004. سبق وأن تمـت تسمية روف للحلـول محل هارييت ميرز (مستشار البيت الأبيض الجديد) نائباً لرئيس الأركان. أدى هـذا الموقـع الجديد إلى أن يصبح الملـف المناط بروف أكبر حجماً عـبر إعطائه دوراً في تنسيق السياسة الداخليـة، والسياسة الاقتصادية، والأمن القومي (بشكل جزئي، بحيث

لا يتضمن ذلك سياسة الحرب)، والأمن الداخلي - وهي دور ذو مدى واسع بالنسبة لشخص يعده العديد من الناس حتى في واشنطن، ناشطاً سياسياً بعيد النظر. وكما وصف بيتر بيكر الأمر في صحيفة واشنطن بوست بشيء من روح الدعابة، حيث كتب ما يلي: «في مدة رئاسة بوش الأولى، كان المراقبون من خارج البيت الأبيض غالباً ما يشكّون في أن كارل روف هو وراء كل ما يحدث. الآن، أصبح الأمر رسمياً».

عدت هذه الخطوة بصورة جزئية، مكافأة لكارل روف الذي قام بدور «المهندس»، والشخص الذي قاد حملة إعادة انتخاب ناجحة لرئيس كان يعاني من حرب صعبة بشكل متزايد في العراق. لكنها أيضاً أعادت التأكيد، وزادت من الشعور بأن إدارة بوش ملتزمة إلى أبعد مدى بالحملة الدائمة كإجراء عملياتي طبيعي في واشنطن. فممارسة الحكم لن تكون فرعاً من فروع شن الحملات وحسب، بل سيكون سيد من يقود الحملات مسؤولاً عن الحكم بشكل علني - وهو بذلك ينزع برقع الإدعاء بأن هناك فرقاً بين المبدأين. كان روف في أعماقه متقلقلاً من الناحية السياسية، لكنه كان بالأساس، العقل السياسي المدبر. لقد كان من المستحيل التفريق بين الاثنين.

وكان يكمن وراء كل هذا وذاك، الساحر، نائب الرئيس تشيني. ما كان باستطاعة أحد أن يدير هذه الأوركسترا بأفضل مما كان يحدث خلف الستائر، وذلك في الوقت الذي كان العرض الكبير يجري هناك فوق خشبة المسرح. كان ينسل بهدوء إلى قلب الاجتماعات الداخلية، ومنها، وكان تأثيره وتلويحه بصولجانه غالباً غير مرئيين بالنسبة للعالم الخارجي؛ نادراً ما كان تشيني يكشف كل أوراقه، كما أنه لم يكشف أبداً عن الكيفية التي يقوم فيها بأفعاله. ومع ذلك، كان تشيني يحصل دائماً على كل ما يريد، وذلك في كل مجال من مجالات السياسة التي كان يضع يده فيها، من غزو العراق، إلى توسيع السلطة الرئاسية، إلى معاملة المحتجزين، إلى استعمال أجهزة المراقبة ضد المشتبه بهم في قضايا إرهابية. كان ينظر إلى العالم باعتباره بؤرة من الشر؛ وهكذا فلا بد من محاربة الشر بكل الوسائل الضرورية – بما في ذلك الوسائل التي تعد مؤلمة.

في المحصلة، كان شكل الإدارة، والتوجه الذي أخذته في مرحلة الولاية الثانية قد بدأ يتضح. لم تضخ الإدارة دماً جديداً وأفكاراً جديدة من مصادر في الخارج، لا بل

قامـت بإسكات بعض الأصوات التي كانت تمثل رؤى مستقلة (مثل الوزير باول) وقامت بترقية أناس معروفين بولائهم لبوش، والذين تضمن بشكل عملي عدم تحديهم للتفكير التقليـدي السائد في البيت الأبيض (مثـل كوندي رايس وآل غونزاليز). كما عززت من سيطـرة عقليـة الحملة الدائمة داخـل الإدارة عبر إعطـاء كارل روف موقعاً أقوى على الطاولـة، ضامنة بذلك أن لا تكون الاعتبـارات السياسية بعيدة أبداً عن مركز النقاش حول السياسة في مدة الولاية الثانية.

ونظـراً لأننـي كنت محاصراً في قلب معمعة البيت الأبيض، فقد كنت أدافع علناً عن كل قـرارات بوشـن. تلك كانت مهمتي. لكننـي لم أقدر مضموناتها بشـكل كامل بالنسبة إلى مستقبـل الإدارة، كما لم أتبين حجم المشـكلات الخطرة التي ستساعد في خلقها في السنوات الأربع القادمة.

⁂

كانـت الإدارة الأمريكيـة التـي استعـادت نشاطهـا واستجمعت شجاعتها بعـد فوزها في الانتخابات مرة أخرى، مستعدة للبدء في شن حملة هجومية جديدة تهدف إلى إحداث تغيير تحـولي. كان في الموضـوع هذه المـرة وهو الضمـان الاجتماعي. ولم تكـن لترضينا أي خطة للإصـلاح يمكـن أن تعرض علينا كيفما اتفق. رسم الرئيس خطاً على الرمال: يجب أن تكون حسابـات التقاعد الشخصية أو الخاصة جزءاً مـن الحل. كانت الفكرة تقتضي بتوفير خيار للناسـ كي يقومـوا باستثمار جزء صغير- 2 إلى 4 بالمائة من أمـوال ضمانهم الاجتماعي في «بورصـات» آمنة، وصناديق نقد تبادلية، ووسائط تقاعدية أخرى مناسبة. كانت تلك مبادرة جمهوريـة صرفة. وكانـت تناسب الموضوع الـذي كان الرئيس غالباً ما يـردده حول «مجتمع المُلكيـة»؛ كانـت تشجـع الناسـ على أخـذ المبادرة، وتحمـل المسؤوليـة بكل ما يتعلـق بشؤون مستقبلهم؛ وكانت مسؤولة مادياً عن إيجاد حلول للديون الكبيرة وغير الممولة.

كانـت مبـادرة محلية شجاعـة، أمِلَ بوش أن تكـون علامة فارقـة في رئاسته. وكان يخطـط لتمريرها في حملة هائلة يشنها أمـلاً في ممارسة ضغط شعبي على الكونغرس لتحقيق ذلك.

عقد اجتماع لمديري الضمان الاجتماعي في البيت الأبيض في السادس عشر من شهر كانون الأول، ديسمبر، لمناقشة الإستراتيجية التي ستتبع لتمرير خطة الرئيس حول الضمان الاجتماعي في السنة القادمة. ركزت المناقشة على معركتين لا بد لنا من شنهما. ستهدف المعركة الأولى إلى «توعية» الناس بشأن المشكلات المالية والاقتصادية التي تواجه الضمان الاجتماعي، والحاجة إلى حلها. كان الهدف من هذا الجهد خلق جو أزمة سوف يساعدنا في الحصول على الدعم الشعبي الضروري لنفرض على الحزبين الموافقة على خطتنا الإصلاحية في الكونغرس. أما المعركة الثانية فستكون حول اقتراح الحلول، والتأكد من أن حسابات التقاعد الشخصية ستكون جزءاً منها.

كان ديفيد هوبس، ضابط الارتباط مع السلطة التشريعية التابع لبوش يفهم الكونغرس، وما يستجيب له أعضاؤه: «يشكل كل من تحديد المشكلة، ووضع أعضاء الكونغرس أمام مسؤولياتهم سبعين بالمائة من الحل. نحن بحاجة إلى الضغط الشعبي على الكونغرس». الخطة المقترحة لخلق هذا الضغط تضمنت القيام بجولات واسعة في الولايات والمناطق التي يقطن فيها أعضاء الكونغرس. كان بوش سيستعمل الآمال الناجمة عن إعادة انتخابه لضمان تأييد أعضاء الكونغرس من ذوي الآراء المتأرجحة كرافعة يمارس بواسطتها الضغط المطلوب.

اتفقنا على عقد اجتماع دوري للمديرين مرة في الأسبوع، وأن يجتمع نوابنا أكثر من ذلك. انتهت حملة إعادة الانتخاب، وسيعود النشاط إلى الحملة الهادفة إلى إعادة تشكيل التفكير الأمريكي؛ وهو ما يتطلب تقديم حركات معقدة ودائمة التجدد لكبار اللاعبين للتأكد من أن رسالة قوية ومتوازنة، وذات صدى طيب سوف تصل إلى الناس من طريق كل القنوات المتوافرة بين أيدينا.

ولكن بالعودة إلى الكيفية التي بذلنا عبرها جهداً هائلاً في سبيل هذه الحملة في بداية سنة 2004، فإنني أتساءل فيما إذا كنا حينها نستثمر مواردنا بحكمة. كنا نبذل جهوداً طائلة لتسويق خطتنا التي كانت مجرد مخطط؛ في الوقت الذي كنا نقتر في تركيزنا على عناصر أخرى في العملية التي ربما كانت على الأقل، توازيها في الأهمية. لم نكن نكرس

مـا يكفي من الوقت لمناقشة أعضاء الكونغرس بغية الاتفاق على تفاصيل خطتنا من أجل الإصـلاح. لم نكن نقوم إلا بالحـد الأدنى من التواصل مـع الديمقراطيين للخروج بذلك النـوع مـن الإجماع الذي سيحدث تغيـيراً جذرياً في القانون سيجعل مـن الأسهل تمريره والموافقـة عليه. بـدلاً من ذلك، كنا نقفـز كالضفادع متجاوزين خطـوات مهمة، كما كنا نقفـز مباشرة إلى خشبة المسرح بالطريقة الأكـثر فطرية – والمتمثلة بالجهد المبذول من أجل العلاقات العامة.

كان كل ذلك يذكّر بشـكل غامض بالطريقة المتسرعة التي أغلقنا فيها دائرة النقاش حـول ضرورة الحرب في العـراق، واخترنا بدلاً مـن ذلك أن نحولهـا إلى حملة متسرعة تسويقيـة هائلـة. استخدمنـا مقاربة مشابهـة في إعدادنـا لحملة الضمـان الاجتماعي. فبالنسبة إلى العراق، كان هناك تهديد تجب مواجهته، أما بالنسبة إلى موضوع الضمان الاجتماعي، فهناك أزمة لا بد من حلها.

حتى عندما كنا على وشك الانتهاء من إعداد خططنا، كانت تلاحقنا الأخبار السيئة حول موضوع آخر حملاتنا الكبيرة – ألا وهي الحرب في العراق. فعلى امتداد آخر شهرين مـن سنة 2004، استمر المخربون والإرهابيون في العراق في إحلال الخراب والدمار. كان العنـف المستمر يشكل مصدر قلق خصوصاً وأن أول انتخابات مقررة كانت على الأبواب. وبحلـول أوائل شهر كانون الأول، ديسمبر، قرر الرئيس زيادة مستوى عدد القوات إلى ما يقـرب مـن 150000 من الجنود لتقديم عنصر أمان إضافي من أجل الانتخابات في شهر كانون الثاني، يناير، ولإبقاء الضغط على المخربين.

في الوقـت نفسه تقريباً، وبالتحديد في السابع من شهر كانون الأول، ديسمبر، تحدثت صحيفـة نيويـورك تايمز عن ورود برقية سريـة من رئيس المخابـرات المركزية في بغداد مفادهـا أنه من غير المحتمـل أننا سننجح في السيطرة على الوضع في المدى المنظور. كما قدّم مسؤول آخر في وكالة المخابرات المركزية، والذي كان قد زار العراق قبل ذلك بزمن قصـيرة، تقويماً مشابهـاً. لاحظت المقالة أيضـاً أن بوش رفض إحصـاءً سبق أن قدمته المخابـرات الوطنيـة وكان يتضمن أن «المستقبل في العراق يلفـه الغموض حتى نهاية سنة 2005»، واصفاً إياه بأحد الاحتمالات من ضمن احتمالات أخرى كثيرة.

كان ذلـك يشكل إيحاء أولياً بأن الفـوز في انتخابات الولاية الثانية لن يؤدي إلى تغيير منهجية هذه الإدارة بشـأن الأخبار السيئة. فالرئيس الذي مُنِحَ تفويضاً انتخابياً، والذي لـن يكون عليـه خوض انتخابات أخـرى في المستقبـل، كان عليه أن يستغـل بالتأكيد هذه الظروف ويحاول الوصول إلى مقاربة على شكل إجماع لتحسين سياسة كانت نتائجها أقل من مُرضية. إلا أن بوش وفريقه قررا أن لا يقوما بذلك.

يـوم الأربعاء الواقع في الثامن من شهر كانـون الأول، ديسمبر، وفي الوقت الذي وصل فيـه مستوى العنـف في العراق إلى مستويـات مرتفعة، وتدنت فيه الحـال الأمنية، التقى الوزيـر رمسفيلد بالجنود الذين كانوا سيرسلـون إلى العراق في القاعدة التي سينطلقون منها في الكويت. أُمطر بوابل من الأسئلة المحددة التي تتعلق بضعف التجهيزات، وتمديد زمـن بقاء الجنود في العراق. سأل توماسـ ويلسون المتخصص في جيش الحرس الوطني مـن ولاية تينيسي عن النقص في أعداد عربات النقل القتالية. سأل ويلسون: «لماذا علينا نحن الجنود أن نتولى بأنفسنا البحث عن قطع معدنية من الخردة، وزجاج بالستي رديء الصنعة كي نركبه على واجهات عرباتنا؟»

كان رد رمسفيلد علامة فارقة في حياته المهنية – ولم تكن علامة إيجابية. أجابه وزير الدفـاع: «كما تعلم، فأنت تخوض الحرب بالجيش الـذي لديك». أضاف فيما بعد قائلاً: «إنـه ليسـ الجيش الذي تريـده، أو ترغب في أن يكـون تحت إمرتك فيما بعـد. لو فكرتَ بالموضوع ملياً، لعلمتَ أنه قد يكون كل سلاح العالم بإمرتك وأنت تقود دبابة، ولكن يمكن أن يتم تفجير تلك الدبابة».

ثـارت ثائرة أعضاء الكونغرس مـن الديمقراطيين احتجاجاً علـى تعليقات رمسفيلد التـي وصفوها «بالمثيرة للصدمـة» و«القاسية القلب». عندما سئلتُ عن هذه التعليقات في الحوارات الصحفية صباح اليوم الثاني، دافعت عن رمسفيلد شخصياً، ولكنني كنت أكثر حصافـة مـن أن أحاول الدفاع عن تعليقاته. قلت: «الوزيـر رمسفيلد له طريقته الخاصة التي يتحدث عبرها بشكل مباشر مع قواتنا بشكل مؤلم، ولا بد أنكم لحظتم ذلك بالأمس. فالوزيـر مهتم جـداً بجنودنا ومجنداتنا، وهـو مصمم على القيام بما يلـزم لمعالجة كل

مـا يمكن أن يثير قلقهـم». لكن تعليقاته ساعدت في تثبيت الروايـة الإعلامية التي يقتنع الجميـع بها: إن هـذه الإدارة ترسل قوات مسلحـة سيئة التجهيز لمحاربـة التهديد الذي يمثلـه الإرهابيون والمخربون؛ والأسوأ من ذلـك، إن مسؤولي الإدارة هم إما غير مدركين للمشكلات الحاصلة، أو غير قادرين على حلها، أو غير مهتمين بهذا البتة.

حتـى الإيحـاءات الحسنة النية التي أريدَ لها أن تخلـق انطباعات إيجابية عن الجهد المبـذول من أجل الحرب في تلك الفترة ارتـدّتْ سلباً على مطلقيها. ففي الرابع عشر من شهـر كانون الأول، ديسمبر، قلّد الرئيـس وسام الحرية وهو أعلى وسام مدني في البلاد، إلى من يتمتعون بميزات استثنائية، واستقامة وإنجازات، لثلاثة من القادة الذين وصفهم «بالرجـال الذيـن لعبوا دوراً محورياً في أحداث عظيمـة، والذين كانت لجهودهم الفضل في جعـل بلادنا أكـثر أمناً وأكثر تقدماً في مجـال الحرية الإنسانيـة». كان هؤلاء الثلاثة لاعبين أساسيين في تنفيذ السياسة بشأن العراق وهم جورج تينيت، المدير السابق لوكالة المخابرات المركزية، والقائد السابـق للقيادة المركزية، الجنرال المتقاعد تومي فرانكس، والرئيس السابق لسلطة الائتلاف المؤقت في العراق، بول بريمر.

في مقابـل الأخبار المحبطة الواردة من العـراق، بالإضافة إلى زيادة عدد أفراد جوقة المنتقديـن الذين يوجهون سهـام نقدهم إلى هؤلاء الثلاثة مجتمعـين - خصوصاً تينيت الـذي نقل عنه وصفه لإخفاق المخابرات حول أسلحة الدمار الشامل في العراق «بالمغطس المتهـور»، وبريمر الذي ارتكـب جملة من الخطوات الكبرى غـير المحسوبة خلال الأشهر الأولى مـن الاحتلال - أثارت هذه الاحتفالية الكثير مـن النقد. ألم تكن هذه هي الإدارة التـي يفترض بأنهـا تبني أمجادهـا على أساس النتائج، والتـي تؤمن بمبـدأ المسؤولية والمحاسبـة؟ إذا كان الأمر كذلـك، لمَ الاستعجال في منح أوسمة إلى أشخاص أسهموا في التخطيط لحرب يبدو أنها كانت حرباً خرقاء وغير مفهومة؟

كانـت ردة الفعل المتصاعدة ضد الحرب تهدد بمحاصرة الرئيس نفسه. ففي مؤتمره الصحفـي الذي يعقـده نهاية السنـة، والذي عقـده في العشرين من شهر كانـون الأول، ديسمبر، أرغم بوش على الدفاع عن وزير دفاعه، قام بذلك بصفة شخصية:

أعرف طيبة قلب الوزير رمسفيلد. أعرف كم هو مهتم بالقوات المسلحة. يذهب دائماً برفقة زوجته إلى مركز والتر ريد الصحي في مدينة بيثيسدا لتقديم العزاء والمواساة. لقد رأيت الألم - أو سمعت الألم في صوته، ورأيت الألم في عينيه عندما كنا نتحدث عن الخطر في العراق، وحقيقة أن شبابنا وشاباتنا هناك معرضون للأخطار. وهو - هو شخص طيب وأخلاقي. إنه شخص عطوف. أحياناً تكون طريقته قاسية؛ ولكن توجد تحت هذه الطريقة القاسية، شخصية طيبة تهتم جداً بالقوات المسلحة، وبالآلام التي تتسبب بها الحرب.

هذا هو التقويم النمطي الذي يقدمه بوش الذي غالباً ما يتحدث عن الأشخاص الذين يحبهم عبر شخصياتهم الداخلية - رجل طيب، رجل أخلاقي - بدلاً من الحديث عن سلوكهم الحقيقي وأفعالهم. لم يحاول بوش الدفاع عن الكلمات التي اختار أن يتلفظ بها رمسفيلد، والتي تلفظ بها بشكل سيئ في الكويت، أو الأخطاء التي ارتكبها في الأحكام التي أطلقها حول الطريقة التي تدار بها الحرب. بدلاً من ذلك، قام بكل بساطة بإجراء تقويم للصفات الخبيئة في شخصية الرجل، كما لو أن هذه الصفات تتفوق على أفعاله، وتمحو عواقبها السلبية. يمكن للمرء أن يطلق على هذه المقاربة منظوراً مسيحياً تطهيرياً حيث يغسل التسامح كل نتائج الأعمال القذرة. لكن ذلك لم يكن يتفق مع الصورة التي رسمتها لنفسها إدارة يفترض أنها تركز على مبدأ المحاسبة، كما أنها لم تكن مقنعة للأمريكيين الذين تزداد تعاستهم وهم يتساءلون فيما إذا كان أبناؤهم يموتون، ومقتنياتهم تتبخر في سبيل لا شيء.

حاول الرئيس في المؤتمر نفسه أيضاً، وذلك بعد أن قمنا بمناقشة خطة خلف الكواليس، إعطاء الانطباع الذي يمكن أن تطلق عليه وسائل الإعلام «تقويماً صريحاً ويقظاً» للحال في العراق. تحدث عن التفجيرات الانتحارية، واعترف بوجود صعوبات. كما أعطى الانطباع أن قواتنا المسلحة تحتاج إلى البقاء في العراق لمدة أخرى قادمة، من دون إعطاء مهلة زمنية لذلك.

أظهر استطلاع نشرته صحيفة واشنطن بوست في اليوم الثاني أن 56 بالمائة من الأمريكيين يعتقدون الآن بأن الحرب كانت «خطأ»، و «لا تستحق أن تخاض». وارتأت

الغالبيــة أن على رمسفيلد أن يستقيـل. حاولت الإدارة ممارسة عملية الدوران الإيجابي، والإنــكار، والآن - متأخــرة - الصراحــة والواقعيــة، ولكــن مــن دون جــدوى. فقد كانت الأخبــار الفاضحة الواردة من الميدان تبث رسالتها الخاصة بنفسها، وهي رسالة وجدها الأمريكيون مثيرة للقلق بشكل متزايد.

أمــا بالنسبة لنا نحن القابعين داخل البيــت الأبيض، فإننا لم نلحظ إشارات التحذير التــي تتضاعف يومــاً إثر آخر، في الوقت الــذي كانت السنة الجديدة علــى الأبواب. كان معــدل التأييــد للرئيس متأرجحــاً ولا يتجاوز الحد الأدنى للغالبيــة إلا بفارق بسيط، وهو الأدنــى من بــين كل الاستطلاعات التي كانــت تجري قبل أي خطاب حــول حال الاتحاد. مــن الواضح أن الرئيس لم يحــظَ بأي دعم إضافي في مرحلة ما بعــد الانتخابات. فالنية الحسنــة التي أظهرها قبــل أربع سنوات عندما بدأ مرحلة رئاسته الأولى ضاعت ولم يبق لهــا أثــر، ولم يكن بوش يفعل إلا أقل القليل كي يبعثها مــن جديد. كان يبدو مصمماً على خوض اللعبة على طريقة واشنطــن، من دون أن يقدّر مدى أسهــام سياساته وأفعاله في تسميم الجو العام.

لم يوفــر الانتصــار في الانتخابات بفارق ضئيــل أي تفويض حقيقــي لبوش. فلم تكن هناك سوى انقسامات وتكتلات، ولم يكن أحد بيننا ممن هم في الدائرة الداخلية الضيقة للرئيســ قادراً على تصور مدى جدية المشكلة في ذلــك الوقت. بدلاً من ذلك، فقد تعلقنا بأهداب فكرة التفويض، رافضين قبول حقيقة أنها لم تكن سوى مجرد وهم.

في تلك الأثناء، كانت الأحوال في العراق مستمرة في التداعي. بالنسبة للرئيس وفريقه لشؤون السياسة الخارجية، فإن الخطة كانت تسير في المسار المرسوم لها، وكانت المصادر مثبتــة في أماكنهــا استعداداً لمواجهــة العاصفة التي تقــترب رويداً، رويــداً. كانت قواتنا مستمــرة في ملاحقة المخربين والإرهابيين من دون هــوادة. وكان دبلوماسيونا مستمرين في دفــع العملية السياسية إلى الأمام. كانت الانتخابــات التي ستجري في العراق في شهر كانــون الثاني، يناير، تشكل أولوية مطلقة، وكانت تعد بمنزلة نقطة تحول يمكن أن تعطي العراقيين الأمل، وتزرع روح اليأس في نفوس المخربين. بعد انتخاب حكومة انتقالية، يجب

أن يتحول الاهتمام باتجاه مشروعات إعادة البناء الصغيرة التي يمكن أن تقدم مساعدة ملموسة وآمالاً للمواطنين في أنحاء البلاد كلها. في الوقت نفسه، كنا سنتابع عملية تدريب القوات العراقية بحيث يكون باستطاعتها تحمل قدر أكبر من المسؤولية عن أمن البلاد. وكانت الصيغة التي كنا نعتمدها في الغالب تقول: في الوقت الذي تنهض القوات العراقية، فإن القوات الأمريكية سيكون بإمكانها أن تجلس.

كان برنامجاً ذا صدى منطقي للنجاح على المدى الطويل في العراق. المشكلة في أن هذا البرنامج لم يتطابق البتة مع الواقع. كانت هناك مشكلات جد خطرة لم يتم بعدُ تحديدها ومن ثم، مواجهتها.

لم يكن عديد القوات الأمريكية داخل العراق كافياً، وقد استهلكت طاقاتها إلى أبعد مدى عبر تكرار عمليات إعادة الانتشار. كانت القوات المسلحة تحمل أعباء هائلة، وكانت تتصرف حيالها بشكل جيد؛ لكن إنهاء العنف، والحفاظ على أمن تلك البلاد الشاسعة كانا يشكلان تحدياً كبيراً ومشكلة حقيقية، إذا أخذنا بعين الاعتبار حجم القوات المسلحة المتواجدة على أرض العراق. كانت الحال الأمنية المتدهورة تعيق بشكل متزايد أعمال إعادة البناء. فقد تباطأت المشروعات بسبب الهجمات التي كانت غالباً ما تُشن، وهو ما منع عن العراقيين الكثير من الخدمات الأساسية. وكان الوقت الذي استهلكته عملية تجهيز القوات العراقية وتدريبها كي تصبح مؤهلة لإمساك بزمام الأمن بمعزل عن المساعدة الأمريكية طويلاً جداً. والأسوأ من كل ذلك، كان الانقسام الطائفي المتصاعد، والضارب في عمق التاريخ، والذي قام بتأجيج أواره المخربون، والميليشيات التي لا تجد من يضبطها، والإرهابيون. كانت القوات الأمريكية تقوم بواجبها على خير ما يرام، لكن لم يكن بإمكانها أن تقوم بأكثر مما قامت به. كانت بحاجة إلى دعم أكبر من واشنطن، لكن واشنطن أصبحت أكثر استقطاباً في الوقت الذي استمر الصراع.

كانت طريقة بوش في إدارة المشكلات في العراق تثبت خيبتها يوماً بعد يوم في تحقيق المهمة الموكولة إليها. كان يتلقى تقارير أولاً بأول، وبانتظام في الوقت الذي حاول تحسين الوضع بواسطة الإقناع الشخصي أو ممارسة الضغط على القادة العراقيين. لكنه كان

معزولاً عن واقع الأحداث على الأرض، ومن ثم، فقد بدأ بالسقوط في فخ الإيمان بحنكته الشخصيـة. أخفق في قضاء ما يكفي من الوقت كي يبحث عن معلومات مستقلة يستقيها مـن طيف واسـع من خبراء من خـارج دائرة البيـت الأبيض الذين لديهـم خبرة دقيقة وميدانية حول العراق، و - ربما كان ذلك هو الأهم - الذين لهم آراء مختلفة، بمن فيهم أولئك الذين يختلفون معه في سياساته.

إن إخفـاق بوشـ في فتح أبواب البيت الأبيض لأفكار جديـدة في مرحلة ولايته الثانية، جعله بالفعل يبدأ في دفع الثمن.



14

الكشف للعيان والشعور بالمهانة

بحلول منتصف سنة 2004، كان باتريك فيتزجيرالد المدعي الخاص يعمل جاهداً كي يضع اللمسات الأخيرة على التحقيق بشأن عملية التسريب. حامت التوقعات حول إمكان أن يقوم فيتزجيرالد بتوجيه اتهام أو اثنين، أو أن يضع اللمسات الأخيرة على تحقيق معقد ومحاط بالفوضى. لكنه كان بحاجة إلى اثنين من الصحفيين لإكمال تحقيقه، لذلك فقد سعى إلى الاستماع إلى شهادتيهما أمام هيئة المحلفين الكبرى منذ نحو السنة.

أحد هذين الصحفيين كان ماثيو كوبر، وهو مراسل مجلة تايم في البيت الأبيض، ويمتاز بسرعة البديهة، ولطف التعبير. أما الأخرى فكانت جوديث ميللر الصحفية التي تعمل في واشنطن لصالح صحيفة نيويورك تايمز، والتي كتبت بشكل مستفيض حول أسلحة الدمار الشامل التي يملكها صدام حسين، والتي اعتمدت فيها على تقارير استخباراتية مسربة من حكومة الولايات المتحدة، وحكومات أجنبية أخرى، في المرحلة التي سبقت عملية الغزو.

رفض كل من كوبر وميللر إطلاع فيتزجيرالد على ما يعرفانه حول قضية التسريب. كانا مصممين على الالتزام بالعقد الصحفي القاضي بعدم إفشاء المصادر السرية، أو الإفصاح عن هوية تلك المصادر لأي شخص، وخصوصاً بطريقة يمكن أن تفضي إلى إفشاء سرية مصادرهما أمام الرأي العام. كان ذلك يشكل بالنسبة إلى كل من كوبر وميللر واحدة من الحريات الأساسية لمبدأ الصحافة. فغالباً ما يعتمد الصحفيون على مصادر ترفض الإفصاح عن هويتها للحصول على معلومات تساعد في وضع المسؤولين الحكوميين أمام مسؤولياتهم. وإذا كان سيتم التلويح باستخدام تهمة إهانة المحكمة لإرغام الصحفيين على إفشاء مثل هذه المصادر، فإن ذلك سوف ينفر الناس من التحدث

إلى الصحفيين بالمطلق، وهو ما سيجعل من الصحافة المختصة بمجال التحقيقات مجالاً أكثر صعوبة في المستقبل.

كانت هناك بطبيعة الحال انعطافة غريبة نتجت عن دفاع كل من كوبر وميللر عن موقفيهما في هذه القضية؛ ذلك أن رفضهما إفشاء أسماء مصادرهما في قضية التسريب، لم يكن يعني أن الصحفيين كانا يقومان بحماية أولئك الشجعان الذين دقوا ناقوس الخطر لافتين إلى الأخطاء التي ارتكبتها الحكومة بحق الصالح العام، بل كانا يحميان المسؤولين الحكوميين الذين يعتقد منتقدو الحكومة أنهم استخدموا هذه التسريبات كسلاح في الحرب الحزبية التي يخوضونها. كان من الصعب على بعضهم في أوساط الشعب، خصوصاً منتقدي الإدارة، أن يروا في ما قام به كل من كوبر وميللر موقفاً مهنياً يوحي بالشجاعة الصحفية. في أيام فضيحة ووترغيت، تم نقل الحملة التي شنها آنذاك مراسلو الصحف الذين حاربوا من أجل الحقيقة إلى شاشات السينما بواسطة ممثلين كروبرت ريدفورد وداستين هوفمان. أما هذه الحكاية، فقد أكدت على ما يبدو، لبعض نقاد الإدارة على الأقل، أن الصحفيين لم يعودوا تلك الشخصيات البطولية، بل انخرطوا الآن في الحرب الحزبية نفسها التي يقومون بتغطيتها.

أما فيتزجيرالد الذي أصدر مذكرتيّ استدعاء بحق الصحفيينّ فقد رفض الدفاع الذي قدماه حول حرية الصحافة، وأصر على أن شهادتيهما حاسمة كي يكون باستطاعته وضع اللمسات الأخيرة على التحقيق الذي يجريه، ولكي يتخذ قراره فيما إذا كان سيعتبر ما حدث يشكل جريمة أم لا. فقد حصل على أوراق تنازل موقعة من مسؤولين في الإدارة يعفي الصحفيينّ من أي اتفاق سابق معهما حول سرية المعلومات، كما استصدر أمراً قضائياً يلزمهما بضرورة الإدلاء بالشهادة. إذا رفض كوبر وميللر، فسوف توجه إليهما تهمة إهانة المحكمة، وتلقي بهما في السجن إلى أن يوافقا على الكلام.

لم يغير التنازل الموقع من المسؤولين الذي يعفيهما من أي مسؤولية، شيئاً بالنسبة لهما، نظراً لاحتمال أن تكون مصادرهما قد تعرضت للإكراه كي توقع على مثل هذا التنازل أمام تحقيق جنائي بهذا الحجم. لم يكن هذا يشكل في رأييهما ضمانة اختيارية غير إجبارية. أما فيتزجيرالد، فكان يرى أنها مسألة تتعلق بكشف الحقيقة

حول احتمال ارتكاب جريمة جنائية، وما يمكن لمحكمة الاستئناف أن تدعم هذا الطلب باعتباره «حاجة ملحة» للحكومة لشهادتيهما.

أثـارت هـذه القضيـة اهتمامـاً شديـداً في الدوائر الإعلاميـة في الوقت الـذي أصر كوبـر وميللر على موقفيهمـا. وكان ما يشبه الحمى المجنونة يسـري خارج مبنى المحكمة الفيدرالية كلما أطل هذان الصحفيان.

في شهر آب، أغسطس، سنة 2004، أصدر القاضي توماس هوغان في محكمة المنطقة التابعة لمقاطعة كولومبيا حكماً قضائياً اعتبر فيه كلاً من كوبر ومجلة تايم مذنبين بجريمة تحقـير المحكمة. أما ميللـر فقد تلقت ضربة مشابهة في شهر تشريـن الأول، أكتوبر، من السنـة نفسها. تم فرض غرامة على الاثنين، وحكم عليهمـا بالسجن. وقد أبقى القاضي بموافقة فيتزجيرالد، على الأمرين القضائيين حتى انقضاء مدة استئنافهما.

حكـم في نهايـة المطاف على ميللر بالسجن بتهمة إهانـة المحكمة. وكان عليها بدءاً مـن السادس من شهر تمـوز، يوليو، 2005، قضاء مدة خمسـة وثمانين يوماً من أصل أربعـة أشهر في السجن قبل حصولها أخيراً على ضمان شخصي بالتنازل من المصدر الـذي كانت تحميـه. وكان ذلك الشخصـ هو سكوتر ليبـي الذي أبلغهـا استناداً إلى شهـادة ميللـر التي أدلت بها فيمـا بعد، أن زوجة ويلسون هي عميلـة لوكالة المخابرات المركزيـة بالرغـم من أنها لم تنقل هـذه المعلومة أبداً. أما سكوتـر ليبي فقد أفلت من عقوبة السجن بعد أن أعفاه مصدره - كارل روف - بشكل اختياري في اللحظة الأخيرة من عبء سرية المعلومات.

بحلـول شهر تموز، يوليو، سنـة 2005، بدأت التقارير تتـوالى أن روف تحدث إلى مـات كوبـر حول القصة التي كتبها هذا الأخير عن مهمـة جو ويلسون إلى النيجر. في الرابع من شهر تموز، يوليو، كتب أحد الصحفيين العاملين في مجلة نيوزويك، والذين يتمتعـون بقدر وافـر من الاحترام، أن كارل هـو أحد مصادر كوبر. تلقـى تأكيداً من محامـي كارل الشخصي وهـو روبرت لاسكين. إلا أن لاسكين أبلـغ إيسيكوف أن كارل «لم يقـم بإفشـاء أي معلومات سرية»، كمـا أنه «لم يخبر أي صحفـي أن فاليري بليم

تعمـل لصالـح وكالة المخابرات المركزيـة». لحظ إيسيكوف أن مـا جرى بالضبط بين كوبر وكارل كان «غير واضح».

وفي يـوم الأحد الواقـع في العاشر من شهر تموز، يوليو، سنـة 2005، أي بعد انقضاء ستـة أشهر مـن سنة بوش الأولى في ولايته الثانية، وبعد انقضـاء سنتين تقريباً على نشر عمـود نوفاك الصحفـي الذي كشف فيه عن هوية فاليري بليـم - وهي جزئية معلوماتية مهمة رفض كوبر سابقاً الاعتراف بإفشائها، أضحت علنية للمرة الأولى.

علمت عبر إشاعات سرت هنا وهناك أن إيسيكوف كان لديه مصدراً آخر يغرف منه معلومات لصالح مجلة نيوزويك تتضمن تفاصيل محددة عما قاله كارل لكوبر. أذكر أنني كنت أتأمل في احتمال أن يكون كوبر قد سأله عن زوجة ويلسون، ولكن، وكما أوضح كارل لكلير ولي، بشأن اتصاله مع نوفاك فإنه لم يكن باستطاعته التأكيد على أي شيء لأنه لم يكن يعلم أي شيء عن الموضوع. كما أن الرئيس أبلغني بنفسه أنه تلقى تأكيدات بأن كارل لم يقم بإفشاء أي معلومات. ربما لم أشأ التصديق أن كارل كان صريحاً بما يكفي، أو أن ما قاله لي - وللرئيس - لم يكن صحيحاً.

في وقـت لاحـق مـن صباح ذلك اليـوم، اتصلت بـي هارييت ميرز، وهي مـن الموالين القدامى لبوش من ولاية تكساس، والتي استلمت منصب مستشار البيت الأبيض خلفاً لآل غونزاليز بعد أن تم التصديق على تعيينه بمنصب المدعي العام، بواسطة عامل المقسم في البيـت الأبيض. وكانت هارييت مثلي، قد عملت في البيت الأبيض في عهد بوش منذ اليوم الأول. كان الجناح الغربي هادئاً في ذلك اليوم. كان باستطاعتي إنجاز الأعمال التي كان علـي القيام بها في ذلك اليـوم، ومشاهدة بعض البرامج الحوارية السياسية المسجلة يوم الأحد ، والتحضير للأسبوع الآتي من دون أي عراقيل.

كانـت هارييت تتصل من مكتبها، وقالت إنها بحاجـة للمجيء إلى مكتبي للتحدث في موضـوع هام. دخلـت وأغلقت الباب خلفها، وقالت: «هناك بعض الأخبار التي قد تنشر غداً عن كارل وتتعلق بقضية التسريب، والتي قد تناقض ما قلتَه أنت منذ نحو سنتين».

قلت وفي ذهني ما ذكره تقرير إيسيكوف من دون أن آخذ الوقت الكافي لأستوعب تماماً ما قالته: «سمعت بهذا». أعادت هارييت التأكيد بأننا لا نستطيع التعليق على موضوع التحقيق بشكل علني. وفي واقع الأمر، كانت تطالبني بالامتناع عن الحديث حول هذا الموضوع، مشيرة بوضوح إلى تعليقاتي السابقة حول الموضوع نفسه.

ثم، وقبل أن تخرج من باب مكتبي، قالت هارييت: «هل تعلم يا سكوت، أشعر دائماً بالاستياء بسبب شعوري بأنني أجعل وظيفتك أكثر صعوبة».

رددت بشكل شبه تلقائي كي أخفف عن شخص أحبه فعلاً، أي إحساس بالذنب: «لا بأس، إنه عملي». بعد مغادرتها مكتبي، تساءلت عما يمكن لهذه المقالة أن تذكره، وكيف يمكن لها أن تناقض ما كنت قد قلته. وفي وقت لاحق من ذلك اليوم، عرفت الحقيقة. لقد كشفت مقالة إيسيكوف أن كارل سبق له أن تحدث مع كوبر بالتحديد عن أن زوجة ويلسون تعمل لدى وكالة المخابرات المركزية.

استناداً إلى إيسيكوف، فقد كتب كوبر إلى رئيسه مايكل دافي مدير مكتب مجلة تايم في واشنطن بواسطة البريد الإلكتروني يعلمه فيها أن كارل حذره «بعدم الذهاب بعيداً في الحديث عن ويلسون». وتابعت رسالة كوبر الإلكترونية ملاحظة أن كارل قال إن رحلة ويلسون لم تتم بتفويض من مدير وكالة المخابرات المركزية جورج تينيت. «قال كارل روف إن زوجة ويلسون التي تعمل على ما يبدو لدى وكالة المخابرات المركزية حول قضايا تتعلق بأسلحة الدمار الشامل هي من فوضت ويلسون القيام بهذه الرحلة». وتابع كوبر: «هناك خلل وشبهة ليس فقط في أصل القصة، بل في التقرير برمته. فقد لمح [روف] بقوة إلى أن هناك الكثير مما يمكن استخدامه لإثبات الاهتمام العراقي بالحصول على اليورانيوم من النيجر».

أوضح كوبر في بداية رسالته الإلكترونية أن هذه المعلومات سرية، وأن روف تحدث إليه فقط «على خلفية من السرية الشديدة المضاعفة لنحو دقيقتين قبل أن يغادر لتمضية إجازته»، استناداً إلى إيسيكوف.

كان تاريـخ الرسالـة الإلكترونية صباح يوم الجمعة الواقع في الحادي عشر من شهر تمـوز، يوليـو، سنـة 2003 - أي قبل ثلاثة أيام مـن نشر عمود نوفـاك الصحفي الذي كشـف عن هوية بليم. وأشـارت الرسالة إلى القصة التي كانـت تعمل عليها مجلة تايم حـول ويلسون، ورحلتـه إلى النيجر، والجهود المبذولة من قبل البيـت الأبيض للنيل من مصداقيتـه والتي كانت تحمل عنوان: «هل هي حرب ضد ويلسون؟»، ونشرت في السابع عشر من تموز، يوليو، سنة 2003.

وفي مقالته المنشورة في مجلة نيوزويك، فجر إيسيكوف آخر قنبلة له في هذا السياق:

كانـت الكلمـات التي استعملها روف عن قضية بليم مختـارة بعناية: قال روف في مقابلـة له مع محطة CNN، السنة الفائتـة عندما سئل عما إذا كانت له يد في قضيـة تسريـب اسم بليم: «لم أكـن أعرف اسمها. لم أسـرب اسمها». لم يعترف روف أبداً علناً وعلى الملأ، بأنه تحدث إلى أي صحفي حول السفير السابق جوزيف ويلسـون وزوجته. ولكن محاميه روبرت لاسكين أكـد الأسبوع الماضي في مقابلة له مـع مجلة نيوزويك أن روف كان المصدر السري الـذي أعطى لكوبر الإذن للإدلاء بشهادته وذلك بناء على طلب من محامي كوبر والمدعي فيتزجيرالد.

كتـب إيسيكوف: «لا شيء في رسالة كوبـر الإلكترونية يشير إلى أن روف استعمل اسم بليـم، أو أنـه كان يعرف أنها عميلـة سرية. ومع ذلك، يجدر التنبـه أن روف كان يتحدث إلى كوبـر قبـل نشر عمود نوفاك الصحفي؛ أي، بعبارة أخـرى، قبل نشر هوية بليم. كان فيتزجيرالد يبحث عن دليل يؤكد أن روف تحدث إلى صحفيين آخرين أيضاً».

استناداً إلى ما ذكره إيسيكوف، فقد ذكر «مصدر مقرب من روف أن قراءة متأنية للرسالـة الإلكترونيـة توضح أن المعلومـات الواردة فيها ليست جـزءاً من جهد منظم للكشـف عـن هوية بليم، لكنها جزء من جهد بذل لثني مجلة تايم عن نشر أخبار تبين فيما بعد أنها مزيفة».

كان أكـثر المصـادر احتمالاً هو لاسكين، محامي روف، بما أن أجزاء أخرى من المقالة نسبـت إليه. وقد أشير إلى أن المصـدر كان متخوفاً من أن يدخل في ملف القضية ما كان

كارل قـد أدلى به بشكل شخصـي أمام هيئة المحلفين الكبرى جزءاً من التحقيق الذي ما زال في مراحله الأولى. من الواضح أنني وقعت في شَرَك الخديعة. ففي الأسابيع والأشهر التي تلت ذلك، اكتشفت أن عملية الخداع تخطت روف بمسافة طويلة.

كل هـذا الكشف أمام العيان سوف تكون له قريبـاً آثارٌ مؤلمة ومثيرة للقشعريرة فيما يتعلق بعلاقتي مع الصحفيين. ففي برنامج Late Edition على قناة CNN الذي بُثّ يوم الأحـد الواقـع في السابع عشر من شهر تموز، يوليو، سنـة 2005، لخص مقدم البرنامج جـون كينـغ الـذي كان لزمن طويل كبـير مراسلي محطـة CNN في البيـت الأبيض رأي زملائـه في قاعة اللقـاءات الصحفية: كانوا ميالين إلى التساهـل معي إلى حد ما، لأنهم كانوا يعرفونني ويعرفون سمعتي التي أتمتع بها، ولكن لم يكن بإمكانهم الذهاب بعيداً في ذلك من دون تفسير علني وواضح للأحداث من قبلي.

كان رأي الصحفيـين مؤلماً لكنـه كان أيضاً مفهوماً. لم يكن ذلك يصل إلى حد توجيه الاتهـام لي بقـدر ما كان اتهاماً للإدارة التي كنت أعمـل في سلكها. كان القصد واضحاً: إذا كان بعضـ أهـم كبار المسؤولين في إدارة بوش غير صادقـين مع كبير الناطقين باسم الرئيس، فكيـف يمكن لأحد أن يقتنع أنهم سيكونون صادقين مع الناس؟ فالبيت الأبيض يعاني من أزمة خطرة تتعلق بمصداقيته، ويبدو أن نار هذه الأزمة سوف تلسعني.

❋ ❋ ❋

كان التأثـير الـذي أحدثه الحوار يوم الأحد، والقصة التـي كانت مجلة نيوزويك على وشك نشرها أشبه بتلقي ضربة لم تكن بالحسبان. لم أتوقع أبداً تلقي مثل هذه الضربة، خصوصـاً بعد التأكيدات الشخصية التي قدمها كارل لي وللرئيس، وعلى الأقل ليس قبل عدة أيام من تحولها إلى العلن. وحتى حينها، كنت قد أقنعت نفسي بعدم تصديق الضجة المثارة في واشنطن وذلك بسبب التأكيدات الشخصية التي تلقيتها حول هذا الموضوع.

كان اللقـاء الصحفـي الذي تلا ما كشفه إيسيكوف إلى العلـن وما أحدثه من إرباك، قاسيـاً ومؤلمـاً في آن. أذكر أنني، وبعد المدة الأولى التي انقضت على حكاية التسريب منذ سنتين تقريباً، استعملت هذه الجملة: «لن أقوم بالتعليق على تحقيق ما يزال قائماً». وهو

ما كان ينهي هذا النوع من الأسئلة بسرعة، ولكن الأمر بالأمس ليس مثله اليوم؛ ذلك أنه وبالنظـر إلى ما أكدته بكثير مـن الثقة في مستهل خريف 2003، فقد أشار جون روبرتس مراسـل محطـة CBS على أنني كنـت في الواقع قد قمت بالتعليق بينمـا كان التحقيق ما زال جاريـاً ولمـدة أسبوعين، وتساءل عن سبـب هذا التغيـير. كان روبرتس محقاً، وكنت أعـرف أنه كذلك. وبالرغم من أنني بـرأت ساحة روف من حيث المبدأ، قبل طرح مسألة التحقيق، فإنني لم أبرئ ساحة ليبي بطلب من الرئيس ونائبه إلا بعد أن أبلغنا بأنه سيتم التحقيق في هذه القضية.

قـال ديفيـد غريغوري مراسل محطـة NBC بسخرية إنه من «السخـف» عدم قيامي بالإجابة حول ما إذا كنت ما زلت مصراً على تأكيداتي السابقة من أنه لا يوجد تورط لأي من روف أو ليبي أو أبرامز، متهماً إيايَ بعدم التجاوب، وذلك باستعمالي عبارة «لن أقول شيئـاً» حـول الكشف الذي قامت به مجلة نيوزويك. وتبعـه تيري موران من محطة ABC الـذي لوح بعصـاه في الهواء قائلاً إنني «في وضـع صعب» قبل أن يسألنـي بتهكم: «فجأة أصبحت تكن احتراماً لقدسية التحقيقات الجنائية؟» أخيراً، وبعد مضي وقت طويل على تركـي لمنصبي في البيت الأبيض بدأت أتبين حقيقـة أن الوقوف في وجه حافلة الصحافة المسرعة في تلك الأيام كان مبعثه بالدرجة الأولى الرغبة في حماية الرئيس والبيت الأبيض من إحراج سياسي آخر، وليس احترام قدسية التحقيق.

تناولنا في ذلك اليوم عدة موضوعات أخرى، إلا أن الصحفيين ثابروا على العودة إلى الموضـوع نفسهالذي كان في المرتبة الأولى في سلم اهتماماتهم. وكانت نشرات الأخبار في تلك الأمسية سلبية بمقدار ما كانت قارصة.

كنـت أشعـر أن شيئـاً مـا، كان يسقـط مني في طريقـه إلى الجحيـم في كل مرة كان الصحفيـون، كل بدوره، يهاجمونني. لقد كانـت سمعتي تتداعى، جزءاً إثر جزء. وتبعتها في نهاية المطاف، محبتي لتلك الوظيفة. بقيت أستعرض شريط ذكرياتي مثلما كنت أفعل عندمـا كان إخوتـي الأكبر سناً مني يمسكـون بي بشدة أحياناً ونحـن نتعارك عندما كنا

أطفالاً (على الأقل إلى أن بدأت أكبر وأجاريهم في الحجم والقوة). لم يكن بإمكاني فعل أي شيء حيال ذلك سوى أن أكابر وأتظاهر بالشجاعة، وأرفض إعطاءهم الانطباع بأنهم هزموني. ولم يكن مقدراً لهذا اللقاء الصحفي أن ينتهي بالسرعة المرجوة.

إن السخرية التي تلقيتها في ذلك اليوم، وكذلك في الأيام التي تلته، كان لها ما يعللها بالرغم من كونها محبطة ومذلة في الوقت عينه، بالنظر إلى ما قلته سابقاً. وبما أن يديَّ كانتا مكبلتين، فكل ما كان باستطاعتي فعله حينها هو اللجوء إلى موقع الدفاع وإسناد ظهري إلى الحائط.

كان اللقاء الذي جرى مع نوابي بعد اللقاء الصحفي كئيباً. كانوا يعرفون أنني حُشِرتُ في زاوية مستحيلة. قال أحد النواب: «هذه هي طبيعة الأشياء»، وقال ترينت دافي وهو مصدر لا ينضب من النصائح الصريحة: «لا يوجد ما يمكنك فعله حيال ذلك، فأنت في موقع صعب». أما الآخران، دانا بيرينو، وفريد جونز الناطق الرسمي باسم مجلس الأمن القومي، فقد عبرا عن تعاطفهما الصادق لي شخصياً.

بعد أن عدت إلى مكتبي في وقت لاحق عصر ذلك اليوم، تلقيت اتصالاً هاتفياً من كارل روف. قال: «أريد فقط أن أعبر لك عن أسفي لما تمر فيه». ومع الأخذ بعين الاعتبار التحقيق المستمر فقد عرفت أن هذا يتضمن اعتذاراً كاملاً بأقصى ما يمكنه من التعبير. من الواضح بالنسبة لي أن كارل كان يهمه حماية نفسه من إجراءات قانونية محتملة، ومنع العديد من منتقديه من إسقاطه.

كانت تغطية الشبكات الإخبارية بواسطة المراسلين في البيت الأبيض في تلك الليلة غير متسامحة البتة، وهو أمر مفهوم - كانت قاسية على مصداقية البيت الأبيض وعلى مصداقيتي أنا شخصياً، وهو ما أساء إلى الرئيس نفسه. كل واحدة من هذه الشبكات، أعادت بث مقاطع من تصريحاتي سنة 2003، وبينت كم تبدو متناقضة مع ما قلته لاحقاً. لخص جون روبرتس المسألة كلها كما يلي: «كان يوماً بائساً في البيت الأبيض الذي لم يتمكن من الدفاع عن تصريحاته المثبتة على شرائط تسجيل، ولم يستطع أن يشرح لماذا كان ما يردده دائماً بكل ثقة منذ واحد وعشرين شهراً لا يعدو أن يكون كذبة».

ختم بيل بلانتي، زميل روبرتس، تقريره صباح اليوم الثاني بالقول: «إن هناك أشخاصاً آخرين يبدو أنهم متورطون في هذا الجدل المتعلق بنشر اسم أحد ضباط وكالة المخابرات المركزية، ولكن إذا كان روف غير مستهدف في هذا التحقيق، فإن البيت الأبيض في أسوأ الأحوال، ما يزال يبدو غبياً.

في صباح اليوم نفسه، أدار كارل اجتماع أركان البيت الأبيض نظراً لغياب آندي. وكالعادة، كنت أنا ثاني المتحدثين وذلك بعد استعراض سريع لجدول مواعيد الرئيس لذلك اليوم. قبل أن يحيل كارل الدور لي للكلام، قال كلاماً قصد أن يسمعه كل الزملاء من كبار الموظفين أنه «آسف فعلاً» لما مررت به.

توقف كارل للحظة وهو ينظر إلي بتمعن كما لو أنه كان ينتظر مني أن أقول: «لا تقلق بشأن هذا الموضوع، فالأمر ليس بهذه الأهمية». إلا أن كل ما كان باستطاعتي القيام به آنذاك كان ليّ شفتيّ من دون أن يظهر على وجهي أي تعبير، في الوقت الذي أومأت برأسي بشكل خفيف، معبراً له عن رد فعلي على إحساسه بالذنب بالقول بما يشبه الهمس: «شكراً، أقدر لك هذا». في اليوم اللاحق وجدت اعتذاراً مكتوباً بخط اليد بانتظاري على كرسي مكتبي.

وفي وقت لاحق من ذلك الأسبوع، أصبح من المعروف (وقد أكد ذلك محامي كارل الشخصي، روبرت لاسكين بشكل سري) أن كارل كان المصدر الثاني لعمود نوفاك الصحفي الأصلي الذي كشف عن هوية بليم. حقق كل من المراسل في البيت الأبيض ديك ستيفينسون، وزميله مراسل نيويورك تايمز، ديفيد جونستون سبقاً صحفياً وذلك لأنهما كانا أول من أعلن عن هذا النبأ صباح يوم الجمعة. وكان ذلك جزءاً من خطة كارل ولاسكين.

أصر محامي كارل أمام الصحفيين على القول إنه لم يسرب هوية بليم أو يكشف عنها. استناداً إلى لاسكين، فإن نوفاك قال إنه سمع أن زوجة ويلسون كانت تعمل لصالح وكالة المخابرات المركزية، وأن كارل أجاب: «سمعت بذلك أيضاً». أما المقالة المنشورة في مجلة تايم فقد ذكرت أن مصدراً مجهولاً (لاسكين) «ناقش المسألة تحت تأثير الاعتقاد أن السيد روف كان صادقاً في قوله إنه لم يكشف عن هوية السيدة ويلسون».

ذكرت الحكاية التي روتها صحيفة نيويورك تايمز أن نوفاك أعطى وصفاً «للمسؤولين الرفيعين في الإدارة» في عمود لاحق نشر في الأول من شهر تشرين الأول، أكتوبر، سنة 2003. استناداً إلى نوفاك، فإن مصدره الرئيس الذي لم يكشف عنه بعد، «لم يكن محارباً حزبياً"؛ أما المسؤول الثاني (روف) فقد أكد قائلاً: «نعم، أنت ملم بهذا الموضوع».

وفي مؤتمر صحفي عقد يوم الاثنين الثاني، بحضور رئيس الوزراء الهندي الزائر، سينغ، سأل تيري هانت مراسل وكالة الأسوشيتد برس الرئيس عن كارل وقضية التسريب. قال هانت: « سيدي الرئيس، سبق وقلت إنك لا تريد أن تتحدث عن موضوع ما يزال قيد التحقيق؛ ولذا فأنا أود أن أسألك، وبغض النظر عن احتمال أن جريمة قد ارتكبت، هل ما يزال في نيتك طرد أي موظف يثبت أنه متورط في قضية التسريب المتعلقة بوكالة المخابرات المركزية؟ وهل أنت منزعج بسبب أن كارل روف أخبر أحد الصحفيين أن زوجة جو ويلسون كانت تعمل في قسم أسلحة الدمار الشامل بوكالة المخابرات المركزية؟»

قال الرئيس: «إن تحقيقاً في منتهى الجدية يجري هنا». ثم تابع قائلاً:

> كما أن الموضوع تتناوله الصحف. وأعتقد أنه من الأفضل للجميع الانتظار حتى يكتمل التحقيق قبل أن تقفز إلى استنتاجات. وسأقوم أنا بذلك أيضاً. لا أعرف كل الحقائق. أريد معرفة كل الحقائق. أفضل مكان يمكن أن تتم فيه معرفة الحقائق هو من قبل شخص يقضي وقته في التحقيق بشأن ذلك. أريد لهذا الأمر أن ينتهي في أقرب وقت بحيث نصل جميعاً إلى الحقيقة، وإذا ارتكب أحدهم جريمة ما، فلن يستمروا في العمل معي في هذه الإدارة.

كان السطر الأخير جزءاً من خطة الرئيس «لتوضيح» أسباب الطرد من العمل. اعتقد بارتليت أن على الرئيس أن يقول شيئاً حول ذلك السؤال الذي كنا نعرف جميعاً أنه سيطرح نفسه، وأن من الأفضل أن يبادر ويعيد تحديد ضوابط الطرد من العمل لشخص يمكن أن يكون متورطاً في التسريب، وتحديداً كارل. ونظراً لأنني كنت أشعر بأنني مصاب من الناحية النفسية، فقد وافقت دان من دون ضجة على مخططه، ولم أبدِ أي اعتراض عليه بالرغم من أنه لم يكن متناسباً مع ما ألزم الرئيس نفسه به في السابق.

صـورت وسائل الإعـلام الأمر على أنه تغـير في الموقف، وهو ما كنـا نتوقعه من وسائل الإعـلام، ولكن كان مـن الأفضل المبـادرة إلى القيام بذلك في أقرب وقـت، حيث إن ذلك كان أفضـل من تأجيله إلى وقـت لاحق في المستقبل. أحسست بخيبة الأمل وأنا أرى الرئيس يتراجع، ويسـير عكس الاتجاه، لكنني كنت أتفهم دوافعه. كان الوضع المتمحور برمته حول كارل، الذي كان ما يزال يصر على أنه لم يسرب بمعرفةٍ أو بقصدٍ منه هوية بليم السرية، ما يزال ضبابياً على الأقل بالنسبة للرئيس، ولكن كارل كان عضواً مهماً في فريق الرئيس.

في أحـد أيام تلـك المرحلة ولم أعد أتذكر كيف حدث ذلـك، أذكر أن آندي قال لي في حديث خاص بيننا كيف أن عدداً من موظفي البيت الأبيض شعروا بالاستياء لأنني تُرِكتُ وحيـداً أتعرضـ للجلد من قبـل وسائل الإعلام مـن دون أن أكون قـادراً على الدفاع عن نفسي، بينما كان بعضهم الآخر منهم يرى أنه كان على البيت الأبيض أن يدافع عن كارل بقوة أكبر. أظن أن آندي شعر بالاستياء لأنني حُشِرتُ في الزاوية، ويعود ذلك بشكل جزئي إلى اتصالـه بي في أول يوم سبت من شهر تشرين الأول، أكتوبر، سنة 2003. لكن إماطة اللثام عن روف لم تكن المرة الأخيرة التي تم فيها النيل من كلماتي ومن مصداقيتي.

بعد ثلاثة أشهر، وجّهَ باتريك فيتزجيرالد، المستشار الخاص الاتهام إلى رئيس أركان نائـب الرئيس، سكوتر ليبي الـذي تم توجيهي لتبرئته هو بالتحديد، بعرقلة سير العدالة، كما وجهـت إليه تهمتان تتعلقان بالإدلاء بمعلومات كاذبـة أمام عملاء مكتب التحقيقات الفيدراليـة، وتهمتان أخريان بالحنـث باليمين أمام هيئة المحلفـين الكبرى. وكان سيتم الكشـف في ذلـك الوقت أنه تحدث عـن بليم ليس إلى ميللر وحسب، بـل إلى كوبر أيضاً، ولكنـه لم يتحدث إلى نوفاك - وهذا مناقض للتأكيدات العلنية التي صرحت بها علناً من أنـه أكـد لي العكس. كما كُشِف أنـه تقاسم هذه المعلومات السرية مـع سلفي آري فليشر، في محاولـة منه استخدامـه في سبيل تسريـب المعلومات إلى الصحفيـين. (أدلى فليشر بشهادته فيما بعد مؤكداً بأنه لم يكن يعرف أن المعلومات كانت سرية).

في غضون الأسابيع والأشهر اللاحقة انبرت اللجنة الوطنية للحزب الجمهوري للدفاع عـن روف بقوة، وكان رئيسها كين ميهلمان، الذي تم اختيـاره بعناية، يشغل منصب كبير

مساعـدي روف، وكان أيضاً زميـلاً سابقاً لي. وكان المنظرون المحافظون وقادة الفكر قد انضموا إلى حملة الدفاع عنه، وتولى تنظيم هذه الحملة جزئياً محامي كارل، وميهلمان، ومـارك كوراللو، الناطق الرسمي المخضرم الذي تعاقد معه كارل بشكل شخصي لمعالجة مسألة التحقيق.

وفي النهايـة، وبعد المثول مطولاً ولمـرات عديدة أمام هيئة المحلفين الكبرى، نجا كارل مـن توجيـه أي اتهامات له. أشارت التقارير إلى أنه لم يفصح عن مناقشته مع مات كوبر حـول بليـم في البدايـة، أمام هيئـة المحلفين الكبرى. ثـم، وبعد أن علـم محاميه روبرت لاسكـين عـن هذا الموضوع في حديث عابر مع صحفي آخر مـن مجلة تايم، أشيع أن روف وضع نفسه تحت رحمة المحلفين.

دافع كين ميهلمان عن شرفي واستقامتي بقوة عندما استضيف في البرامج الحوارية، وقـد فعل دان بارتليت الشيء نفسه على شاشة محطـة CNN. لكن أفضل من دافع عني مـن ذوي المصداقيـة كانوا مراسلي البيت الأبيض المعروفين جيـداً، والذين سبق لهم أن قرعـوني بشـدة بعد أسبوع على الكشف عن تورط روف؛ وبعـد ذلك، في الأسبوع الذي تم توجيـه الاتهام إلى ليبي. وكانـوا يتمتعون بالمصداقية نظراً لأنهـم لم يكونوا يعتمون على الحقائـق أو يداورون من أجل غايات حزبية، بـل كانوا بكل بساطة، يعبرون عما يعتقدون أنه الحقيقة.

على سبيل المثال، عندما أطل ديفيد غريغوري، كبير مراسلي محطة NBC في البيت الأبيض، وأشد خصومي قسوة وبعداً عن التسامح في قاعة اللقاءات الصحفية، مع كريس ماثيـوز في برنامج Hardball في الحادي والثلاثين من شهر تشرين الأول، أكتوبر، سنة 2005، سئـل عما أنـا فيه. وكان ذلك يوم الاثنين الذي تلا الاتهـام الوحيد الذي وجهه فيتزجيرالد في موضوع التحقيق، وأثناء استمرار فيتزجيرالد بالتحقيق في دور روف في الوقـت الذي كنت أكـرر فيه موقفي الدفاعي المتمثل بعبارة «لا تعليق لدي» حول القضية برمتها من على المنصة:

سأل ماثيوز غريغوري: «لقد تحول الجو إلى حار نوعاً ما، في قاعة اللقاءات الصحفية في هذه الأيام، أليس كذلك؟»

أجـاب غريغـوري: «بالتأكيد، يمكن أن يكون حاراً، وقد أصبـح بالفعل حاراً خصوصاً عندمـا تسمع تصريحـات سكوت ماكليلان حول عدم تورط هـؤلاء الأفراد بأي شكل من الأشكال أو الطرق أو الصيغ». ثم تابع يقول:

أعنـي أن سكـوت في موقف صعب، ونحن نفهم ذلك، لأنـه طلب إليه، وإلى كل موظفـي البيت الأبيض، من قبل هارييت مـيرز المستشارة في البيت الأبيض، عدم الخوض في هذا الموضوع بتاتاً.

ولكنـه في الواقع أدلى بتصريح علني أفـاد فيه أنه تلقى تأكيدات بشكل مباشر مـن كل مـن روف وليبـي تفيد بأنهمـا غير متورطـين البتة في أي من هـذا، وهذا لم يكـن صحيحـاً. لأنه حتى لـو لم يرتقِ ذلـك إلى مستوى الجريمـة، ونحن نعلم أن اتهامـاً قـد تم توجيهه إلى سكوتـر ليبي بارتكاب جريمة عرقلـة سير العدالة، والحنث باليمين، فإن كارل روف لم توجه إليه تهمة ارتكاب أي جريمة؛ لقد تورطا في واقع الأمر بأحاديث حول ضابط سري تعمل في سلك وكالة المخابرات المركزية. ليسـ عليـك أن تصدقني، ولكن هذا هو ما قاله المدعـي الخاص فيتزجيرالد عن سرية...[بليم].

هـذا هو الوضع الذي هو فيه الآن. إنها مسألة تتعلق بالمصداقية؛ ولقد قال لنا سكـوت، اسمعوا: أنتم معشر الصحافيين تعرفوننـي، فأنا شخص ذو مصداقية. وهـذا صحيح. سمعته فـوق الشبهات. لكـن المسألة تتعلق بالشعـب الأمريكي كما تعلم. فلو قلت شيئاً تبين فيما بعد أنه غير صحيح، فإن المسالة تصبح جدية.

في اليـوم الذي سبقه، وضمن برنامـج Reliable Sources على محطة CNN، الذي يقدمـه الصحفي الإعلامي هـوارد كورتز، بالتعاون مع صحيفـة واشنطن بوست، انبرى جـون روبرتسـ مراسل محطة CBS للدفـاع عني. سألـه كورتز: «هل تعتقـد يا جون أن

سكـوت ماكليلان مديـن باعتذار للصحافة والجمهـور بسبب - ما تبين لاحقـاً أنه إنكار مضلل في قضية تسريب معلومات عن وكالة المخابرات المركزية؟»

قـال روبرتس: «حسنٌ، أنت تعلم يـا هوارد أنني قد أكون ضمن أقلية في هذا المضمار، لكنني أظن أنه يمر في وقت صعب بسبب هذا الموضوع»، وتابع قائلاً:

أنـت تعلم أنه لا يخرج إلى العلن ويتحـدث عن هذا الموضوع من تلقاء نفسه... إنـه يخرج إلى هناك ويحاول بأمانـة أن يعرض أي شيء يطلب إليه البيت الأبيض أن يقوله. من الواضح أنه زُوِّدَ في شهر تشرين الأول، أكتوبر، سنة 2003 بمعلومات سيئة جداً. هل أخطأ في التصريح عن هذه المعلومات؟ لا أظن ذلك. أعتقد أن من زوده بهـذه المعلومات هو المخطئ - المخطئون هم الذين زودوه بما يتضح الآن أنها كانت معلومات خاطئة.

لـذا أعتقد أن سكـوت - كما تعلم، فأنا أعرفه منذ سنـين عديدة. وكانت لي معه علاقة عمل جيدة. أعتقد أنه صادق فيما يقوله. وأعتقد أنه يدافع عما يؤمن بـه. كما أنني أعتقد أنه طلب إليه حمل ميـاه غيره، وتبين فيما بعد أن هذه المياه كانت آسنة.

في اليوم نفسه، وفي ظهور له وهو يجلس إلى الطاولة المستديرة في برنامج This Week With George Stephanopoulos، تصدى تيري موران أيضاً، وهو كبير مراسلي محطة ABC في البيـت الأبيض، للدفاع عـن سمعتي بصراحته المعهودة. سـأل ستيفانوبولوس: «مـا الذي سيفعله البيت الأبيض الآن بسكرتيره الصحفي سكوت ماكليلان، وبحقيقة أنه في مناسبـة، إثـر مناسبة، إثر مناسبة، ليس لديه ما يقوله سوى الإنكار الكامل لأي تورط لكارل، أو أي تورط لليبي؟»

أجـاب مـوران بالقـول: لقد حشـر السكرتير الصحفـي في وضع صعـب بشكل لا يصدق، لقد كنت في القاعة. كان يطلعنا على معلومات كاذبة مرة إثر أخرى من دون أن يعرف ذلك».

سألت كوكي روبرتس، وهي إحدى المشاركات في النقاش: «هل تظن أنه كان يعرف؟»

أجـاب موران: «كلا»، وأضـاف: «لقد أشار إلى أنه يريد أن يروي لنا القصة»؛ وكان يشير بذلك إلى تعليقاتي الأمينة حين كنت على المنصة، والتي قلت فيها إن أحب شيء إليّ هـو أن يكـون باستطاعتي التحدث حـول أحداث أحاطت بتبرئتـي العلنية لكل من روف وليبي.

قـال ستيفانوبولوس: «علـيّ إذاً أن أطرح السؤال الآتي حسـنٌ، قلتَ إنه لم يكن يعرف شيئاً عن الموضوع، وإذاً، فهل يعني هذا أن كارل روف كان يكذب عليه؟»

قال موران: نعم، نعم».

سأل ستيفانوبولوس: «ماذا سيفعل الرئيس حيال ذلك؟»

قـال موران: «يجـب عليه القيام بشيء مـا»، قبل أن يستدرك متوقعـاً - وهو محق في هذا - التفعيل المستمر للجدار الأصم الذي يمثل إستراتيجية التواصل الفظيعة في البيت الأبيض: «ينبئني حدسـي أنهم سينَحّون الأمر كله الآن جانبـاً. سوف يقولون إنها قضية جنائية يتم التحقيق فيها بصورة مستمرة، ولذا فنحن سننَحّي بها جانباً».

أضاف روبرتس، في إشارة منه إلى بيل كلينتون: «كانت عندنا رئاسة مؤخراً كذب فيها الرئيس على سكرتيره الصحفي، وعلى الجميع في البيت الأبيض».

ألح ستيفانوبولوس بالسؤال: «ولكن ماذا سيفعل الرئيس؟»

تدخـل جورج ويـل قائلاً: «في هذه المرحلـة، سيغير الموضوع، إنهـا عادة قديمة في العمـل السياسـي، وتتلخـص في أنـه إذا لم تعجبك الأخبـار، أخرج واصنـع أخبارك بنفسـك»؛ وكمـا توقع أن هذا ما سيقـوم به الرئيس بالضبط، فقـد أعلن هذا الأخير عـن تسمية مرشح جديد لعضوية المحكمة العليا بعـد إعلان هارييت ميرز عن سحب ترشيحها قبل عدة أيام على ذلك.

رشح الرئيس سام أليتو لعضوية المحكمة في صباح اليوم الثاني مباشرة. لكن هذا لم يؤثر البتة في رفع إحساسي بالمهانة المؤلمة، أو يبعد الضربات المستمرة التي كيلت لمصداقية إدارة بوش.

⌘ ⌘ ⌘

وفي مقابلة له مع ميهلمان، رئيس الحزب الجمهوري، قال جون كينغ من محطة CNN:

> أنت تصف سكوت ماكليلان بالرجل المستقيم. أوافقك الرأي. بالرغم من أن قولي هذا قد يشكل خطراً عليّ. من المفترض أن أكون موضوعياً هنا. إنه شخص مستقيم. إنه يقوم بأصعب وظيفة في واشنطن. لقد كنت في قاعة اللقاءات الصحفية نفسها عندما طرحت أسئلة مشابهة في عهد هذه الإدارة، وأسئلة مشابهة في عهد إدارة كلينتون. ولو راقبت ما جرى، سواء أكنت موضوعياً أم لا، فقد عانى من بعض الضرر الذي وقع في تلك القاعة. إن مصداقيته أضحت محل تساؤل بالنسبة لأولئك الذين يقومون بتغطية نشاطات الرئيس يومياً بسبب ذلك.

بعد ذلك، طرح كينغ على ميهلمان السؤال الآتي: «وإذاً، فأنت تقول بالأساس إن هذا ثمن مقبول: سكوت ماكليلان، الشخص الذي كان موالياً لهذا الرئيس منذ أن كان هذا الأخير حاكماً لولاية تكساس، هل تعد مصداقية هذا الرجل ثمناً مقبولاً مقابل الدفاع عن كارل روف؟»

رد ميهلمان قائلاً: «ما أقوله هو أن سكوت ماكليلان، وكارل روف، وجورج دبليو بوش مهتمون بالعملية نفسها أكثر من اهتمامهم بمعايير المصداقية الشخصية»؛ وتابع قائلاً:

> يريدون الوصول إلى وضع حد لهذه القضية. يريدون أن يتأكدوا من أن العدالة ستأخذ مجراها. ولكي تأخذ العدالة مجراها لا يعني أن يقوم البيت الأبيض والرئيس بإصدار تصريحات من على المنصة حول تحقيق عن البيت الأبيض. ولذلك فأنا أعتقد، وبكل صراحة، أن ما يقوم به مدعاة للإعجاب؛ كما أظن أن حقيقة رغبته في وضع نفسه ثانياً، والعملية أولاً هي بالضبط ما نتحدث عنه عندما نقول إن المرء يأتي إلى واشنطن بهدف الخدمة، وليس لكي ينتابه القلق بشأن نفسه.

كان تمسكي بالعبارات الصريحة التي تفوهت بها أمام السائلين في قاعة اللقاءات الصحفية شكلاً آخر من أشكال خداع الذات وذلك لاعتقادي بأن سمعتي ومصداقيتي أمام الصحافة يمكن أن لا تتأثرا في غياب وجود تفسير شخصي ومنطقي؛ وهو التفسير الذي تم منعي من البوح به لأنني التزمت بالتوجيهات التي قضت بأن لا أقوم بالتعليق على ما حدث.

بالعودة إلى الماضي، يمكن القول إن العلاقة القوية المبنية على الثقة المتبادلة التي نشأت بيني وبين الجسم الصحفي المتمركز في البيت الأبيض لم تستطع أن تفعل شيئاً سوى السماح للناطق الرسمي المطعون في مصداقيته في أن يجتاز - وبالكاد - الأشهر القليلة الآتية.

كانت هناك لحظة أثناء حكاية التسريب أجدني متردداً بالخوض فيها. ولكن بما أنني ملتزم بقول الحقيقة كما أعرفها، وطالما أن تلك اللحظة لها بعض الصلة بما نحن بصدده إذا أخذنا بعين الاعتبار توقيتها وطبيعتها، فإنني أشعر أن الكشف الكامل عنها هو الخيار الوحيد المتاح أمامي.

اللحظة التي أتحدث عنها حدثت سنة 2005 عندما كان الاهتمام منصباً على كل من روف وليبي، وهذه اللحظة محفورة في ذاكرتي. لا أذكر اليوم الذي حصلت فيه بالضبط، ولكنها أعقبت اجتماعاً لأركان البيت الأبيض في مكتب آندي كارد. كان يتقاسم جناحاً يتكون من مكتبين، بالإضافة إلى ثلاثة من المساعدين الذين كانوا يحتلون المنطقة المشتركة التي تصل بين المكتبين وكانت تستعمل أيضاً كردهة انتظار ومدخل إليهما. أما المكتب الثاني فكان يشغله نائب رئيس الأركان لشؤون السياسة، وكان حينها كارل روف نفسه.

ضم الاجتماع الذي عقد في مكتب آندي عدداً من المديرين، أو مساعدي الرئيس، وبعض النواب، أو نواب مساعدي الرئيس. أعتقد أن من بين الحاضرين في ذلك الاجتماع كان بعض المساعدين الخاصين.

بعد الاجتماع، كان بعضهم منا ما يزال يتجه نحو الباب باتجاه المنطقة المشتركة للجناح، ونختلط مع بعضنا بعضاً أمام المدخل قرب باب مكتب كارل، وأمام طاولة

مساعـده القديـر تايلور هيوز. كان سكوتر ليبي يمشي باتجـاه المدخل وهو يتهيأ للمغادرة عندما استدار كارل كي يلفت انتباهه.

سأل كارل: «هل لديك وقت لتقوم بزيارة؟»

أجاب ليبي: «نعم».

كانا على بعد عدة أمتار مني قبل أن يختفيا وراء الباب المغلق في مكتب كارل.

لم تكـن لدي فكرة عما دار بينهما، ولكن ما كان يجمـع بينهما مثار شبهة، ذلك أنني لم ألحظ مطلقاً قبل ذلك أنهما أمضيا لوحدهما وقتاً معاً؛ أو الاختفاء وراء أبواب مغلقة، والقيـام بزيـارات خاصة. كان بـاب كارل مفتوحاً دائماً إلا إذا كانـت هناك حاجة ملحة تستدعـي الخصوصيـة. وكان مألوفـاً بالنسبـة لي أن أطل من البـاب، وأقطع عليه عمله للحظـة. كان كارل يبدو مشغولاً بشكل دائم وهو يعمل على قضايا، وأحداث، ومخططات لا تنتهـي. ولـو أردت الحصول على معلومات منـه بغية التحضير للقـاء الصحفي، وهي معلومات كان علي الحصول عليها تحت ضغط عامل الوقت، كان عليّ إتباع أسهل الطرق لتحقيق ذلك، ألا وهو الذهاب إليه مباشرة.

لماذا بقيت هذه اللحظة عالقة في ذهني بهذا الوضوح؟

لأن هذين هما الزميلان، وأحدهما من أصل تكساسي مثلي، اللذان وضعت مصداقيتي على المحك من أجل الدفاع عنهما. وهما الشخصان اللذان أكدا لي بصورة قاطعة أنهما غـير متورطيْن في تسريب هوية فاليري بليم. كمـا أن واحداً منهما على الأقل، وهو روف، قـام بتضليلي بسبب أنه لم يشاطرني المعلومات المطلوبـة؛ وكانت الإشاعات التي تلامس الحقيقة تشير إلى أن الآخر، ليبي، فعل على الأقل، الشيء نفسه.

عقـد هذا الاجتمـاع السري بين الرجلين في لحظة كانت الضربات تنهال عليّ من قبل الصحافة لأنني دافعت بشكل علني عن الاثنين عن طريق ادعائي أنهما غير متورطين في تسريب هوية بليم في الوقت الذي كشفت معلومات مؤخراً عن أن العكس قد حصل. لم أرَ هذيـن الشخصين، على امتداد السنوات الأربـع التي عملنا فيها سوية في البيت الأبيض، يجتمعـان لوحدهما أبداً قبل ذلك. أما الآن، فها هما يجتمعان بشكل خاص وراء الأبواب

المغلقـة في وقت متأخر من اللعبـة عندما كانا ما يزالان يخضعان للتحقيق، وتحت المجهر الشعبي المتزايد.

لم أعرف شيئاً عما تمت مناقشته، ولكن ما الذي يمكن لأي شخص مطلع أن يستنتج بشـكل عقـلاني ومنطقي طبيعة الموضوع الـذي كانا يناقشانه؟ وكما هـي الحال بالنسبة إلى الحقيقـة الكاملة التي ننشدها حول تورط بعض الأشخاص في هذه القضية، فإننا لن نعرف أبداً بشكل مؤكد.

⁂

قـادني الإحساس بالحريق الذي يتعاظم من حـولي إلى التفكير لبرهة، في الاستقالة . إلا أننـي لم أشعر أبداً بـأن الرئيس نفسه قد ضللني عن سابـق تصور وتصميم، أو أنه حجـب عني معلومات ذات صلـة. وبالرغم من بعض الشكوك التي كانت تحوم في الداخل حـول النهـج الذي نسير عليه، فقـد بقيت مصمماً على احترام التزامـي أمامه، من دون التبصر بمدى الصعوبات التي تحوط هذا الالتزام.

أتخيـل أن بعضهـم كان يتصـور أن استقالتي في تلك اللحظة ستساعـد الرئيس. ربما كانت ستساعده. إلا أن الإذعان اللا شعوري الذي أبداه بوش، والذي كان في بعض الأحيان عامـلاً مساعـداً في تمريـر سياسة الخداع هو مـا وضعنا في هذا الموقـف المربك. وسوف يستمـر في التسبـب بضربات كارثية لرئاسته، ولرأي الناس فيه. فبـدلاً من التزام خيار الانفتـاح والصراحة لمنـع الفضيحة من أن تترسخ، فقد سمـح للشبهة أن تزداد، وللحرب الحزبية أن تزدهر.

بعـد أكثر من ثلاثين سنة، كانت ثقافة الفضيحـة الدائمة التي وسمت إرث نيكسون تلاحـق رئيساً آخر أخفق في تعلم دروس ووترغيت. دفعتُ بالتأكيد الثمن نتيجة لذلك. ولكـن إدارة بوش دفعـت ثمناً أكبر من ذلـك بكثير - وكذلك البلاد التـي تعهدت هذه الإدارة بخدمتها.



15

الانسلاخ عن الواقع

تم الإعـلان عـن بدء المؤتمر نحـو الساعة الخامســة صباحاً من يـوم الثلاثاء الواقع في الثلاثـين مـن شهـر آب، أغسطس، سنـة 2005. كنت قد استيقظت قبـل ذلك بفترة وجيـزة لأن النوم جفاني. وصلنا إلى كاليفورنيـا قادمين من تكساس قبل يوم واحد حيث أمضى الرئيس كعادته الجزء الأكبر من شهر آب، أغسطس، وهو يعمل من بيته في مدينة كروفـورد. وكالعديد مـن أركان المرافقين، كان مـا يزال على توقيت وسـط أمريكة. أتى الرئيـس إلى مدينة سان دييغو، لإبداء بعض الملحزظـات بمناسبة إحياء الذكري الستين للانتصـار على اليابان وذلـك ضمن كلمة يلقيها أمام مجموعة مـن المتقاعدين، ورجال البحرية، وقوات من العمليات الخاصة، وضباط من القوى البحرية، والبحارة، والملاحين العاملـين في القاعدة الجويـة في الجزيرة الشمالية. الوزير رمسفيلـد الذي كان مسافراً بشـكل منفصل، كان هناك أيضاً. بعد ذلك، كان جدول الرئيس يتضمن زيارة إلى بعض الجرحـى من رجال البحرية في المركز الصحي القريـب قبل العودة إلى كروفورد لقضاء الأيام القليلة الباقية من الصيف هناك.

كانـت إحـدى المزايـا القليلة التي نتمتـع بها عندمـا نكون ضمن الطاقـم المرافق للرئيـس، أو «طاقـم الطريق» كما كنا نطلق على أنفسنا، تتمثل في الإقامة معه في أحد الفنـادق الفخمة. في هذه الرحلة، كانـت غرفتي في فندق ديل كورونادو التاريخي وهو فنـدق خمســة نجوم يقـع على شاطئ ديل مـار في مدينة سان دييغـو - على بعد عدة غرف من الجناح الذي يقيم فيه الرئيس.

كانـت الرحلـة إلى الغرب قـد تم التخطيط لهـا وإقرارها منذ مدة طويلـة. ولم يكن أحـد يتوقع حينها أنهـا ستصادف عطلة نهاية الأسبوع الذي سيضرب فيه إعصار كارثي الولايـات المتحدة. كان من الصعـب تصور حجم التأثير الذي سيحدثـه إعصار كاترينا

بقوته التدميرية التي ستغطي أكثر من 90,000 ميلاً مربعاً. وكان الهدف من الدعوة إلى المؤتمر صباح هذا اليوم وضع بعض كبار أعضاء طاقم الرئيس في آخر مستجدات الوضع الحالي في أعقاب الإعصار، وأهم من ذلك، وضعهم في صورة خطط الرئيس الآنية.

علمنـا منذ مدة أن الإعصار سيكون شديـداً، وأن نتائجه ستكون سيئة. وكان الرئيس قـد اتخـذ خطوة غـير اعتيادية تمثلـت في إعلانـه ولايتـيْ لويزيانا ومسيسبـي منطقتيْ كوارث وذلك يومي السبت والأحد السابقيْن على التوالي وذلك قبل أن يضرب الإعصار. (جـاء هذا الإعلان استجابـة للحاكميْن كاثلين بلانكو وهالي بربـور، وكانت الإدارة على اتصال بهما؛ ويعود السبب في ذلك جزئياً إلى أن كلفة الاستعدادات للطوارئ التي قامت بإعدادهـا الولايتـان يمكن أن تعوضهـا الحكومة الفيدرالية بعد انحسـار الإعصار.) تم اتخاذ إجراءات أولية قاسية جداً صبيحة يوم الأحد بما في ذلك إصدار أول أمر بالإخلاء القسري في تاريخ نيو أورلينز، أصدره عمدة المدينة راي ناغين (سبق للرئيس أن حثه على القيام بذلك في اتصال هاتفي).

ومع ذلك، وبمرور الوقت، تواردت أنباء أكثر سوءاً. من هنا برزت الحاجة للدعوة إلى عقد هذا المؤتمر.

هنـاك في واشنطـن، كان دان بارتليت هو الذي اقترح إجـراء هذه المكالمة عن طريق نظام الاتصال في البيت الأبيض، وهو نظام خدمة اتصالات عسكري يدار بواسطة عامل المقسـم؛ وهذا النظام مخصصـ لقضايا الأمن القومي وكبار الموظفين من أعضاء وكالة الاتصـالات التابعة للبيت الأبيض، ويقدم تسهيلات كاملة في مجال الاتصالات بالرئيس، ونائـب الرئيسـ، ومجلس الأمن القومـي، والأمن السري، وكبار موظفـي البيت الأبيض، بمـا في ذلك الاتصالات الآمنة وغير الآمنة. من بـين الموصولين بهذا النظام، كان رئيس أركان البيـت الأبيضـ، آندي كارد الـذي كان يقضي إجازته في ولاية مـين، ونائب رئيس الأركان لشـؤون السياسات، كبـير المستشارين كارل روف، وبارتليـت، وجو هاغين، نائب رئيسـ الأركان لشؤون العمليات، وأنا. كنا، هاغين وأنا، مسافرين مع الرئيس بوش. ومن

بـين مهامه الأخرى في البيت الأبيض كان منصب ضابـط الاتصال الداخلي للتنسيق مع المسؤولين في الإدارة الذين يتولون مهمة التحرك في حال حدوث كوارث طبيعية.

بالعودة إلى تلك المرحلة، أذكر أنني لم أكن في أحسن أحوالي. فمنذ بضعة أسابيع قبل ذلـك، تعرضت للتشهير بدعوى أنني زورت الحقائق عبر تأكيدي على أن كارل روف ليس متورطـاً في تسريـب هوية فاليري بليـم. ونتيجة لذلك، تلقت مصداقيتـي بوصفي ناطقاً باسـم الرئيـس ضربة موجعة، وهو مـا كان يتم تذكيري به، ويضغط علـيّ بشكل متزايد عندمـا أكون على المنصة في قاعـة اللقاءات الصحفية في البيـت الأبيض، عقب الكشف عـن الحقيقة مباشرة. استهلكتني هـذه الأحداث نفسياً بشكل هائل، وشعرت بحاجة إلى أخـذ إجازة من جوواشنطن - بعيداً عن زملائـي، وبعيداً عن الأضواء؛ كنت بحاجة إلى وقت أخلد فيه إلى نفسي كي أرتاح مما كنت أعاني منه. ولذلك أخذت إجازة لبضعة أيام وسافـرت مع زوجتي جيل إلى مخبأ بعيد منعزل في ولاية كارولينا الشمالية، وأخذنا معنا كلبينـا. ومع ذلـك، فقد كنت ما أزال أشعر بالوهن وبقليل مـن الإحباط، في الوقت الذي بدأ ذلك الأسبوع المشؤوم.

قبل أن أستحم أو أحلق ذقني، وكنت ما أزال أرتدي قميص القصير الأكمام، وسروالي القصير، بدأت أتنقل بين البرامج الإخبارية الصباحية. ذكرت الصحف التي تم إيصالها إلى بابـي أن مدينة نيـو أورلينز قد نجت على ما يبدو من ضربـة كارثية، إلا أن مراسلي البرامـج الصباحية المتواجدين في ذلك المكان كانوا ينقلـون أخباراً عكس ذلك. كنت ما أزال بانتظار ملخص عن التقرير الصباحي اليومي الذي كان سيتضمن تقريراً عن وضع الإعصار كاترينا من الداخل، وذلك من غرفة العمليات في البيت الأبيض.

رن جرس الهاتـف. كان دان بارتليـت وأنا، أول من تم ربطهمـا بنظام الاتصال. وفي الدقائـق التـي سبقت ربـط الآخرين بالنظام المذكـور، أطلعني دان باختصـار على آخر المستجـدات ممـا عرفه عن الوضع. قـال دان: «إن الوضع سيء. وهـو أسوأ مشهد يمكن أن يحـدث لنيو أورلينز. لحق الدمار الكامل بأغلبية مناطـق ساحل الخليج، على امتداد الجنوب الشرقي لولايتيْ لويزيانا والميسيسيبي أيضاً.

لكن أكثر خبر إثارة للصدمة كان يتعلق بالدمار الذي أصاب مدينة نيو أورلينز. فأغلبية مساحة المدينة تقع تحت مستوى سطح البحر، وهي منخفضة على شكل وعاء تحيط به حواجز وجدران صد للفيضانات. كان إعصار كاترينا من الدرجة الثالثة ترافقه هبات إعصارية تبلغ خمسة وعشرين قدماً في الوقت الذي كانت عين الإعصار على بعد أربعين ميلاً إلى الجنوب الشرقي من المدينة. وقد ازداد اتساع عرضه وهو يقترب من الشاطئ، بالإضافة إلى أن سرعة رياح هذا الإعصار تجاوزت 103 أميال من المركز. وقد علمت الآن أن الحواجز قد تم تخطيها، وهذا يعني أن مياه الفيضان لن تنحسر في مدة قريبة.

تم وصل أعضاء فريق بوش بالنظام واحداً إثر آخر. لم نطلع على تقرير مفصل حول الوضع؛ جميعنا سمع كيف أن الحال أصبحت أكثر سوءاً، إما عبر الصور والتقارير الواردة من شاشات تلفزيوناتنا، أو من التقارير الداخلية الصادرة عن البيت الأبيض. علمنا أن إعصار كاترينا تسبب في خسائر جسيمة وأحدث دماراً شاملاً، واجتمعنا على رأي يقضي بأن على الرئيس العودة إلى واشنطن في أقرب وقت ممكن.

كانت الخطة التي وضعناها تقضي بأن يعود الرئيس فوراً إلى مدينة كروفورد، وذلك بعد زيارته الصباحية للقاعدة البحرية وللمستشفى. وهذا سيوفر الوقت للجميع في حاشية الرئيس كي يحزموا أمتعتهم مساءً في ولاية تكساس، ويعودوا إلى واشنطن صبيحة اليوم الثاني. ولكن بالعودة إلى تلك اللحظة، يمكن القول إنه كان من المستحسن لو عدنا مباشرة إلى واشنطن. إلا أن أحداً لم ينتابه إحساس بأن العودة بهذا الشكل اللولبي ستكون له أي آثار سلبية طالما أن الرئيس على اطلاع كامل على كل شيء، وطالما أن الشعب يعرف أنه قطع إقامته في تكساس لهذه الغاية.

سأل كارل روف: «هل يمكن لنا ترتيب رحلة استطلاع جوية للرئيس في طائرة الرئاسة؟ يجب علينا إطلاعه على الدمار الذي لحق بمدينة نيو أورلينز، وعلى امتداد ساحل ولاية الميسيسيبي وولاية ألاباما وهو في طريق العودة إلى واشنطن». كالعادة، كان روف يفكر من منطلقات سياسية. هذه كانت وظيفة روف، ولم يكن أحد آخر باستطاعته أن يجيدها بالدرجة نفسها. كان منطق تفكيره في هذا الوضع جلياً: التحليق فوق هذه المنطقة المنكوبة سيعكس على الأقل قلق الرئيس واهتمامه بالوضع.

كانـت تقديـرات روف الفطرية حول موضوعات كهذه تصيـب هدفها عادة، لكن هذا الاقتراح أشعرني بالضيق. لم ترق لي الفكرة، ولذلك فقد سارعت إلى القول: «أعتقد أن هـذه فكرة سيئة» مؤكـداً «أنه سيكون على ارتفاع عشرة آلاف قدم في الجو؛ ينظر من عَلٍ إلى النـاس الذين يتم إنقاذهم مـن على أسطح المنازل. سوف يكـون ذلك انسلاخاً عن الواقـع، وانعـزال عنه. وإذا كان لا بد لـه من الذهاب، فليكن ذلك علـى الأرض مختلطاً بالناس الذين يعانون من هذا الإعصار بشكل مباشر».

أضفـت قائلاً: «أو ليكـن هذا الاستطلاع في رحلة بطائـرة هيلوكبتر، هذا إذا لم يكن باستطاعتـه أن يكون علـى الأرض؛ وإذا لم يكن بإمكانه القيام بذلك أيضاً، فمن الأفضل له العودة مباشرة إلى واشنطن من دون أن يطير فوق المنطقة المنكوبة.

أضـاف بارتليت علـى الفور: «أنـا موافق»، ولم يعترض أحد على ذلـك. شعرت بأن القضية طويت: لن يكون هناك طيران لتفقد الدمار الذي أحدثه إعصار كاترينا.

كنـت واثقـاً جـداً من أننـي كنت محقـاً في رأيي، ومـن ردة فعلي الفطريـة حول هذا الموضـوع. تذكرت أنني عندمـا كنت صغير السن، كنت برفقة والدتـي، التي كانت عمدة مدينـة أوستن، في الزيارة التـي قامت بها شخصياً إلى المناطق التـي ضربتها فيضانات مدمـرة. كمـا تذكرت كيف قمت أنا وجـو هاغين قبل سنة مـن الآن، بمرافقة الرئيس في الزيـارات الأربـع التي قام بهـا إلى فلوريدا خلال عدة أسابيـع، وكان يزورها في كل مرة حدث فيها إعصار كبير تسبب في تهديم المنازل وإلحاق الضرر بالممتلكات.

كان الرئيس يستوعب دوره قائداً لحملة التخفيف من الآلام في أوضاع كهذه، وكان يؤدي هـذا الـدور ببراعة ملفتة، وهو يبدي اهتماماً حقيقياً وتعاطفـاً مع ضحايا هذه الكوارث. كان يسـير مترجـلاً في جولات على المناطق المتضـررة، ويشاهد بأم عينيـه الدمار الذي لحـق بالمنازل، ويخفف عن آلام العائلات المنكوبة مقدمـاً الدعم لها. وكانت زياراته إلى ولايـة فلوريدا تتضمـن رحلات جوية بطائرة الهيلوكبتر برفقـة الحاكم (شقيقه جيب)، وبعض المسؤولين الآخرين، وذلك لكي يكون بمقدوره مشاهدة الدمار عن كثب. ولقد تفهم

هاغين هذه العملية بشكل جيد، وكان يتصرف دائماً على أساس التخطيط لأحداث كهذه تبعاً لهذا الفهم.

بالمقابل، كان التحليق لمشاهدة آثار الإعصار، كاترينا من على متن أكثر طائرات العالم ترفاً وتميزاً وهي طائرة الرئاسة من طراز بوينغ 747، سوف يطبع في عقول العاملين في الصحافة والناس عموماً صورة عن رئيس لا مبالٍ ومتحجر القلب. وطالما أنه ليس في برنامجنا أن نحط على الأرض، فقد شعرت أنه من الأفضل لنا العودة إلى واشنطن العاصمة، ونبدأ عملية الإشراف على عملية الطوارئ من هناك.

لذا، كان من دواعي سروري أن أتلقى تأكيدات بواسطة نظام دارة الاتصالات أنه لن يكون هناك تحليق لطائرة الرئاسة فوق المناطق المنكوبة. ولكن، ولسوء الحظ، يبدو أنني تسرعت جداً في قبول هذه التأكيدات.

انتهت هذه المحادثة بعد وقت قصير، في الوقت الذي كانت تناقش فيه الخطط النهائية. قلت: «في أول نشاط لي هذا الصباح، سوف أخبر الطاقم الصحفي المرافق عن التغيير في خطة الرحلة. سوف أخبرهم أن هناك رحلة محتملة إلى منطقة ساحل الخليج بنهاية الأسبوع. وسوف أخبر الصحفيين أيضاً عن آخر المستجدات التي يحاط بها الرئيس علماً، وأن من المحتمل أن يشارك في مؤتمر بالدارة المغلقة صباح غد من مزرعته».

كان الجميع سعداء بهذه الخطة.

لكن الرئيس بوش كان يسبقنا بخطوة واحدة. عندما انتهى الاتصال، وتوجه هاغين إلى إطلاعه على ما توصلنا إليه من أفكار، تحدث الرئيس أولاً. أبلغ هاغين أنه قرر أن من الضروري العودة إلى واشنطن. بدأ كامل أفراد الفريق المرافق بالإعداد للسفر، وكان عليهم البدء في مشهد مرتجل في حفلة الرقص المعدة بعناية، والتي نطلق عليها تسمية «الرحلة الرئاسية».

ركزت بصفتي سكرتيراً صحفياً على الحكاية التي سردناها أمام وسائل الإعلام الإخبارية حول ردة فعل الرئيس على إعصار كاترينا. كنت أعلم كم كان ذلك مهماً.

كانت الكوارث الطبيعية تعد على نطاق واسع، امتحاناً للزعامة الرئاسية. فالصحافة والناس يريدون رؤية رئيسهم وهو يتصرف بحزم مستخدماً سلطاته كافة في أعقاب حدوث الكارثة مباشرة. كما يتوقعون قيامه بزيارة المنطقة المنكوبة بأسرع ما يمكن، حيث تستخدم الصحافة هذا الفعل من الرئيس كمقياس لاهتمامه بما يجري.

تعقد الوضع الحالي بسبب أن الرئيس «يمضي إجازته حالياً في كروفورد» حسب ما أكدته الصحافة؛ وهو ما كان منتقدونا يستخدمونه بشكل منتظم للإشارة ضمناً إلى أنه غير مكترث بالموضوعات المهمة. ولكن بصراحة، وبحكم كوني أعيش الواقع من الداخل، أنا أعتبر أن هذا التأكيد خارج السياق، ومناسباً لأن يكون سردية مُرْضية سياسياً لا أكثر ولا أقل - خصوصاً عندما تظهر مشكلة ما، فجأة في مكان ما، من العالم، كما حدث هذا الأسبوع. فالرئيس لا يكون أبداً في إجازة. يمكن أن يذهب أحياناً إلى مكان ما، كي ينفس الضغط الذي يكاد يطبق عليه، ويصفي ذهنه، ويهرب من المعمعة في واشنطن؛ لكنه لا يعطي نفسه إجازةً ليوم كامل أبداً، وخصوصاً في عصر تقانة الاتصالات المتقدمة التي نعيشها اليوم. فكل شيء، أو كل شخص يحتاج إليه، هو إما معه، أو في متناول يده على مدار أربع وعشرين ساعة في اليوم، وسبعة أيام في الأسبوع، بدءاً من إطلاعه على القضايا الأمنية، وآخر مستجدات الأخبار السرية، وانتهاء بتوفير الاتصال الفوري مع القادة على امتداد البلاد والعالم.

اغتنمنا فرصة بقائنا في كروفورد هذا الأسبوع للقيام برحلة باتجاه الغرب تهدف من ضمن أهداف أخرى، إلى تعريف الكبار في السن بوصفات الأدوية في نظام العناية الصحية الجديد والذي سيتم تطبيقه قريباً، بالإضافة إلى إحياء ذكرى الانتصار على اليابانيين في الحرب العالمية الثانية، والزيارة المرتقبة لجنود البحرية الجرحى. بالنسبة إلى أي شخص عادي، يعتبر برنامج مثل هذا، منهكاً - كقيام مسؤول تنفيذي كبير بإلقاء سلسلة من الخطابات على سبيل المثال. لكن هذا لم يمنع منتقدينا من الهجوم على الرئيس «الذي يقضي إجازته في كروفورد» من أجل شحن متزايد للجو بهذه الأفكار. أذكر أنه كان عليّ أن أضع الأمور في نصابها بعد عدة أشهر عندما ذكرت مقالة في صحيفة نيويورك تايمز ما أرادت إظهاره كحقيقة، أن الرئيس شعر بالارتياح يوم عرف

أن مدينــة نيو أورلينز قد نجت من ضربــة كارثية بينما كان «يقضي إجازة في كروفورد».
في الحقيقــة، كان الرئيســ في مدينة سان دييغو، ولم نكــن نشعر بالارتياح. لكن مصطلح «الإجازة» يعد مناسباً لاختلاق القصة المناسبة – التي تزعم أننا أسأنا التقدير، وقد كان ذلك صحيحاً.

فهمــت أن كل ذلــك كان جــزءاً من السياســة المعمول بها في واشنطــن. ولكنني أردت التأكــد من أن مــا يزعم أنها كانت «إجازة» لم تفسر علــى أن «الرئيس كان يستجم بينما كانــت نيو أورلينــز تغرق». هنا تكمن أهميــة التنظيم الحصيف لخطــط السفر، وإطلاع الصحافــة عليها بشكل كامل، وبكل شفافية. ولكــن لسوء الحظ، كانت ستطغى على هذه القضية مشكلات سياسية وإدارية أكبر سيتم الكشف عنها في الأسبوع الثاني.

كانــت مسألــة تحديد موعد قيامنــا بالسفر إلى مدينة نيو أورلينــز بحد ذاتها تشكل مجموعــة مــن التعقيدات. كانــت الممارســات المعيارية للبيــت الأبيض في عهــد بوش لا تتضمــن أن يقوم الرئيس بالظهور في منطقة الكــوارث الطبيعية. كنا نريد أولاً وقبل كل شــيء، التأكد مــن أن شيئاً لا يمكن أن يعرقل سرعة التحــرك في حال الطوارئ، وجهود إعــادة الإعمار في أعقــاب حدوث الكارثة مباشرة. فحتى لو كانــت مثل هذه الزيارة من قبل الرئيســ غير معلنة على نطاق واسع، فإن المرافقــين، والطاقم الصحفي، والعملاء السريين، وعناصر الدعم سيشكلون حاشية من الحجم الكبير؛ ناهيك عن الطاقم الذي يجــب أن يسافر قبل الرئيس لتنسيق كل ما يتعلــق بهذه الزيارة مع الأشخاص المسؤولين على الأرض. عندما تحل المصيبة، وتكون حياة الناس في الميزان، فإنه ليس من المنطقي أن تتشتــت جهــود عشرات من العمال والمسؤولين وتتحول مــن جهود الإنقاذ إلى التركيز على ترتيب زيارة رئاسية.

ثانيــاً، لم يشــأ الرئيس يوماً أن يبدو ظهــوره بهذا الشكل وكأنه استثمــار للمأساة من أجــل غايات انتخابية. لهذين السببــين، فإن المحافظة على فسحة زمنية تفصل بين وقوع الكارثــة، وقيامه بزيارة المنطقة المنكوبة كانت تبــدو بالنسبة للرئيس هي ما يجب القيام بــه. فعلى سبيل المثــال، لم يقم بزيارة موقع الضربة في نيويــورك إلا يوم الرابع عشر من

أيلـول، أي بعد ثلاثة أيام على وقوع الهجمات سنــة 2001، وفقط بعد أن تم التأكد تماماً مـن أن تلـك الزيارة لـن تعرقل أعمال الإنقاذ وجهـود إعادة الإعمار التـي كان يقوم بها المتطوعون الأوائل.

تم ترتيـب جدول زيارتنـا إلى نيو أورلينز ضمـن هذه الاعتبارات، وكنـت أنوي القيام بشـرح كل ذلك لوسائـل الإعلام قبل أن يلقـي الرئيس كلمته في المناسبـة الأولى صبيحة ذلـك اليوم الواقـع في الثلاثين من شهـر آب، أغسطس، في مدينة ســان دييغو. ولكن كما يحـدث أحياناً، فقد انحرفـت خططي عن مسارها قليلاً. فنظـراً إلى ضيق الوقت بسبب أن الرئيـس كان تواقـاً للبدء في إلقاء الكلمــة بعد وصوله مباشـرة، أسرعت عبر المنطقة المفصولـة بالحبال أمام المنصـة إلى المنطقة المخصصة للصحافـة. استطعت بالكاد أن أعلن أمام الصحفيين أن الرئيس سوف يعود إلى العاصمة واشنطن صبيحة اليوم الثاني. ولكـن، وقبل أن أتمكن مـن إعطاء أي تفاصيل إضافية، ظهـر الرئيس الذي يحافظ بدقة علـى مواعيده كالعادة، على المنصة جاهزاً لإلقاء كلمتـه. توقفت وأبلغت الصحفيين أنني سـوف أزودهم بالتفاصيل بعد أن ينتهـي الرئيس من إلقاء كلمته، من دون أن أشتت ذهن الرئيس، أو أستفزه كي ينظر إليّ شذراً.

بدأ الرئيس كلمته بالحديث عن الدمار الذي أحدثه الإعصار:

> في صبـاح هـذا اليوم نتوجه بقلوبنـا وصلواتنا من أجل إخوتنـا المواطنين على امتـداد ساحل الخليج الذين عانوا كثيراً من إعصـار كاترينا. إن هذه أيامُ محنة وامتحـان بالنسبة إلى سكان هذه المنطقـة. نعرف أن العديدين تواقون للعودة إلى منازلهـم. وهذا ليس ممكنـاً في الوقت الحالي. أولويتنا القصـوى الآن هي إنقاذ الأرواح، ونحـن ما زلنا في خضم عمليات البحث والإنقاذ. إنني أحث الجميع على إتباع التعليمات الصادرة عن الولاية والسلطات المحلية.

بعدهـا، تابـع الرئيـس بقيـة خطابه، الـذي ركز علـى إحيـاء ذكرى الانتصـار على اليابانيـين. وعندمـا انتهى من إلقاء الخطـاب، بدأت مباشرة في شـرح تفاصيل التغيير الـذي حصل على الخطـة إلى الطاقم الصحفي، وقد أطلعـت الصحفيين على البرنامج

الذي كنا ناقشناه في مؤتمر الدارة المغلقة لكبار المسؤولين، كما أعلمتهم أن الرئيس استلم تقريراً بآخر المستجدات عن تقدير لحجم الضرر، والجهود المبذولة حالياً.

سأل أحد الصحفيين إذا كانت لرحلة العودة إلى واشنطن دلالة رمزية معينة طالما أن بإمكان الرئيس ممارسة صلاحياته من منزله في كروفورد. أجبت: «كلا؛ فهذه واحدة من أكثر العواصف تدميراً في تاريخ أمتنا، والرئيس اتخذ قراراً بعد أن استلم تقريراً بشأن آخر المستجدات هذا الصباح بالعودة إلى واشنطن والإشراف على الجهود المبذولة من هناك. وهو ما - هناك الكثير من الجهات المشاركة في هذه في هذه الجهود المبذولة - وهو ما يتطلب جهداً طويلاً ومستمراً من قبل الجهات الفيدرالية كافة التي تعمل جنباً إلى جنب مع الولاية ومع المسؤولين المحليين لمساعدة الناس على تجاوز آثار الدمار والخراب».

على بعد أمتار قليلة، كان الرئيس يصافح عدداً من السكان المحليين الذي عبروا عن أمنياتهم له بالتوفيق عبر حاجز الحبال الذي يفصل بين الجانبين. وأثناء عودته باتجاه المنطقة الواقعة خلف المنصة، أشار مساعد السكرتير الصحفي، جوش ديكارد إلى ضرورة أن نقوم بإعداد أنفسنا للمغادرة. أراد من الطاقم الصحفي أن ينضم إلى الموكب كي يكون جاهزاً للانطلاق حالما يكون الرئيس قد قرر المغادرة. وبينما كان يرافق الطاقم الصحفي، توجهت نحو المنطقة الواقعة خلف المنصة حيث كان الرئيس والوزير رمسفيلد يصافحان كبار مستقبليهم.

وبينما كنت أقف جانباً استرعى انتباهي أن مارثا راداتز التي كانت حينها مراسلة محطة ABC في البنتاغون، كانت برفقة مجموعة من ضباط الجيش المسافرين مع رمسفيلد. تساءلت عما تفعله هنا، خلف الكواليس، طالما أن هذه المنطقة ليست في العادة متاحة أمام الصحافة. إنه المكان الذي يمكن للرئيس أن يأخذ فيه قسطاً من الراحة، وأن لا يقلق بشأن «ممارسة رياضته الخاصة» طالما أن أحداً لا يسجل كل كلمة يقولها أو يحصي عليه كل حركة يقوم بها.

وقع نظري على إريك راف، وهو ضابط اتصالات متقاعد من الحزب الجمهوري، والناطق باسم رمسفيلد، وكنت أعرفه منذ عدة سنوات. تنحيت به جانباً وسألته: «ما

الذي تفعله هنا؟» وكنت أقصد راداتز. نظر راف حوله بدهشة وقال: «إنها برفقة الوزير، ولكـن ليس لدي أي فكرة عن سبـب وجودها هنا خلف الكواليس». بعدها مباشرة طلب راف أن تتم مرافقة راداتز إلى خارج تلك المنطقة؛ ولكن بعد فوات الأوان.

في الوقت الذي توجه راف نحو راداتز، لحظت أنها كانت تحمل بيدها كاميرا صغيرة للتصوير. وفي وقت لاحق من ذلك اليوم، علمت أن إحدى الصور التي التقطتها كانت تمثل لحظة خاصة. فقد قدم مارك ويلز، وهو مطرب يؤدي الأغاني الريفية، والذي قام بالغناء في حفل إحياء ذكرى الانتصار على اليابانيين قبل وصول الرئيس، هدية صغيرة للرئيس وكانـت عبارة عن آلة غيتار تحمل الخاتم الرئاسي. قبل الرئيس الهدية وهو مبتسم، قام بعدها بمداعبة بعض أوتار الغيتار. كانت تلك لحظة لطيفة خففت من وطأة يوم شاق. أنا متأكد من أن ويلز أعجب بهذه اللفتة من بوش. أما راداتز، فقد اعتبرت أن صورة الرئيس وهو يداعب أوتار الغيتار جديرة باللحظ، كما علمت في وقت لاحق من ذلك اليوم.

تم إخـراج راداتـز من تلـك المنطقة؛ لكـن الصورة التـي التقطتها كانـت قد وصلت إلى وكالـة الأسوشيتـد برس، وكان مقابل تلـك الصورة صورة أخـرى لعائلة على ساحل الميسيسيبـي يتم إنقاذها من على سطـح المنزل الذي تقيم فيه بالإضافة إلى صور أخرى يظهـر فيها سكان نيو أورلينز وهم يتمسكون بجوانـب أسطح منازلهم التي كانت تبتلعها تدريجياً مياه الفيضان.

هـذا بالضبـط ما كنت أخشـاه: صورة للرئيس بوشـ يبدو فيها كأنـه غير مكترث لما يجري، حيث إن جل اهتمامه ينصب على متابعة برنامجه من دون أن يأبه لمعاناة ضحايا إعصـار كاترينا - القتلى، والمشردين، والمفقودين. هل كان ذلك التصرف عادلاً؟ هناك لحظـات أخرى للرئيس في ذلك الصبـاح كان من الممكن التركيز عليها: الملاحظات التي أبداهـا بشـأن العواقب الخطيرة لإعصـار كاترينا، وقراره المتضمـن تغيير برنامجه كي يركز على موضوع الإعصار، وعيادته للجرحى من جنود البحرية في المستشفى العسكري. لكن وسائل الإعلام ومنتقدينا اختاروا التركيز على صورة الغيتار. كانت رمزاً مناسباً لما اختار العديد من العاملين في الصحافة أن يصدقوه عن الرئيس بوش، وعن أولوياته.



لسوء الحظ، كانت المشكلة أعمق بكثير من مجرد نشر صورة واحدة. وكان لا بد من انقضاء يوم أو يومين قبل أن نبدأ باستيعاب هذه المشكلة بشكل كامل؛ ولكننا كنا قد أخطأنا في طريقة تعاملنا مع إعصار كاترينا منذ البداية. ونحن بذلك جعلنا من أنفسنا عرضة للنوع نفسه من الانتقاد الذي أطلقت له العنان الصحفية راداتز والصورة التي نشرتها.

أدركنا بشكل متأخر أنه كان من الأفضل لو قام الرئيس بوش بإلغاء رحلة اليومين إلى الغرب، والعودة إلى واشنطن يوم السبت أو الأحد قبل أن يفلت إعصار كاترينا من عقاله. حتى لو أننا قفلنا عائدين من تكساس إلى واشنطن يوم الاثنين، لكان ذلك أفضل بكثير؛ ولكانت الرسالة قد وصلت: إن الرئيس يتفهم حال الطوارئ هذه، وإنه يأخذها على محمل الجد، وهو منخرط فيها شخصياً، كما أنه يريد أن يكون التجاوب الفيدرالي هو الأولوية المطلقة بالنسبة إلى كل فرد في الإدارة. بدلاً من ذلك، أخّرنا وسوّفنا وتابعنا أداء الأعمال اليومية كما لو أن شيئاً لم يحصل؛ ونحن بذلك قمنا بإرسال الرسالة المعاكسة تماماً: البيت الأبيض في عهد بوش يركز على كل شيء إلا على إعصار كاترينا.

كيف أخفقنا بهذا الشكل المروع؟ لم تكن المشكلة تتمثل في نقص في المعلومات. فخطورة هذه العاصفة كانت واضحة، وتم إبلاغنا بها مسبقاً من قبل ماكس ميفيلد مدير مركز الأعاصير الوطني. وبينما كانت المعلومات التي تلقيناها بعد هبوب إعصار كاترينا يومي الاثنين والثلاثاء غير كاملة، ومتناثرة وغير دقيقة، فإن الإحصاءات التي تلقيناها كانت كافية لنعرف أن هذه العاصفة مدمرة - وربما كانت هي «العاصفة الكبرى» التي كان سكان مدينة نيو أورلينز، والمتخصصون في إدارة الطوارئ يتوجسون منها.

كانت المشكلة تكمن في تركيبة عقولنا. كان البيت الأبيض في عهدنا قد مر بكثير من الكوارث بدءاً من أعاصير السنة الفائتة، ونكوصاً إلى الكارثة غير المسبوقة في الحادي عشر من أيلول. ربما كنا كمن أصابه شيء من الخدر («ماذا، هل هي كارثة أخرى؟»)، أو، ربما كنا نعبر عن شيء من الرضا («مررنا بحوادث مشابهة من قبل»). افترضنا أن المسؤولين المحليين والفيدراليين سوف يقومون بعملهم المعتاد الذي سيؤدي إلى تخفيف

حـدة الخراب مثلما فعـل مسؤولو ولاية فلوريدا الموسميون في السنــة الفائتة؛ كما تذكرنا كيـف تفـوق الرئيس بوش على نفسه وهـو يطمئن الأمة ويخفف عنهـا عشية حدوث هذه الكـوارث. فبدلاً من أن نحسب حساباً لأسوأ سيناريو ممكن، ونتصرف على أساسه، فقد جازفنـا بالظـن أن إعصار كاترينا لن يفلت زمامه من أيدينا، ولن يكون مدمراً أو كارثياً علـى النحو الذي ظهـر عليه. ولذلك فقد تركنا لردة فعلنـا المؤسساتية أن تسير من دون قيادة مباشرة. وبدلاً من اغتنام الفرصة والإمساك بزمام المبادرة، والتحكم فيما يجري على الأرض في مدينة نيو أورلينز، تركنا للأحداث أن تتحكم بنا. لقد كان ما فعلناه خطأ دفعنا ثمنه غالياً.

بعد ذلك مباشرة، ساءت الأحوال أكثر فأكثر. فقد صدر عنوان رئيس مرعب في إحدى وسائـل الإعلام بعنوان - حكاية لا مبـالاة - وتبعه بعد ذلك مباشرة عنوان آخر - حكاية عدم الأهليـة. وقد ثبت في الأيام الثلاثة اللاحقة، أن استجابة الحكومة لكارثة الإعصار كانت بطيئة وغير كافية، وكانت الصحافة، ومعها الجمهور يربطون بين صورة رئيس غير مكـترث بما يجري، وبين الأخبار الواردة عن التعاطي المضطرب لإدارته مع الكارثة، وهو مـا أثـار حكايات لا يمكن مقاومتها عـن إخفاق الحكومة؛ هذا الإخفـاق الذي ما إن يبدأ بالترسخ في أذهان الناس حتى تصبح إزالته من أذهانهم عملية شبه مستحيلة.

منذ صباح يوم الثلاثاء، ذاك، لم نعد نعرف كيف، أو من أين ستأتينا الضربة الآتية. توجهنـا بفرح إلى تكساس كـي نجمع أغراضنا ونمضي ليلة استراحـة قبل أن نغادر إلى العاصمة واشنطن في اليوم الثاني.

أثنـاء ذلك كلـه، كانت الآلاف مـن الناس محتجزة إمـا في السقيفـة، أو على أسطح المنـازل، أوفي أي مـكان آخر في مدينة نيو أورلينز بانتظار مساعدة، وهم لا يحملون سوى الثيـاب التي يرتدونها. انقطـع التيار الكهربائي عن المستشفيـات الممتلئة بالنزلاء الذين يعانون من شدة المرض. وكانت الملاجئ بما في ذلك القبة العظيمة في مدينة نيو أورلينز، ومركـز المؤتمرات تغص بعشرات الآلاف مـن المشردين عن ديارهم، والجياع، والمرضى، والمذعورين. وقـد زادت التقارير المتناقضة المتسربة من داخل المدينة من حدة الفوضى: كان الناس يتحدثـون عن انتشار أعمـال النهب والسلـب، وأعمال العنـف، والعصابات

المسلحة من القتلة الذين ينشرون الذعر في المدينة (ثبت فيما بعد أن بعض هذه القصص كان مبالغ فيها، ولكن كان من المستحيل في حينها التمييز بين الواقع والخيال).

كانت المشكلات الأساسية التي يتعين على البيت الأبيض في عهد بوش مواجهتها كبيرة وضاغطة. وكانت الكارثة الموازية التي حلت بالبيت الأبيض في مجال العلاقات العامة، وبدأت بالتكشف قد زادت من وطأة هذه المشكلات. وفي وقت ما، من صبيحة يوم الأربعاء، علمت أن كارل روف ما زال يدفع باقتراحه غير الموفق الذي عرضه في لقاء الدارة المغلقة، وأنه أقنع الرئيس بالفعل بالقيام برحلة استكشاف جوية فوق المنطقة المنكوبة التي ضربها إعصار كاترينا.

تحدثت إلى دان بارتليت حول هذا الموضوع بالهاتف. كنت ما زلت على موقفي الحازم أن هذه فكرة سيئة. لم يخالفني دان الرأي، إلا أنه أوضح أن كارل مقتنع بأننا بحاجة إلى القيام بذلك - وأن الرئيس موافق على ذلك.

لم يبق لديّ وقتها سوى القليل من الروح القتالية، وقد اضمحلت إلى حد كبير، رغبتي في القيام برد قوي في أعقاب الهجوم الكاسح الذي شنته علي وسائل الإعلام بسبب تأكيداتي السابقة حول قضية بليم. تجاهلت الأمر بشكل كلي، ولم أعترض عليه. لم أشأ إثارة الموضوع مع الرئيس. كنت أعرف أنها خطوة خاطئة، ولكن لم تكن لدي فكرة حول كمِّ الخراب الذي ستحدثه هذه المسألة لصورة الرئيس.

قبل مغادرة كروفورد، تحدثت إلى الصحفيين على أرض المطار الإسفلتية. شرحت لهم كيف أدار الرئيس مؤتمراً بالدارة المغلقة حول عمليات الإغاثة لمنكوبي الإعصار من مزرعته. أكدتُ على أن الرئيس يعطي الأولوية القصوى لعملية إنقاذ الأرواح، أما أولويته الثانية فتتركز حول الإستراتيجية البعيدة المدى لمواجهة احتياجات مئات الآلاف من المواطنين اللاجئين. ركبنا بعدها في الطائرة الرئاسية في طريقنا إلى واشنطن، بما في ذلك التحليق فوق منطقة الإعصار، وهو ما كان كارل روف قد أصر على القيام به.

جرت عملية التحليق بسلاسة من الناحية التقنية. وبينما كانت الطائرة الرئاسية تقترب من مدينة نيو أورلينز، انخفضت إلى ارتفاع أدنى، وانتقل الرئيس من مقصورته

الخاصـة إلى الجانب الأيسر من الطائـرة حيث يجلس عادة رئيس الشرطة السرية. وقد وفـر له هذا الموضـع، الزاوية الأكثر وضوحاً للدمار الذي أحدثـه إعصار كاترينا. انضم إليـه كارل روف، ونائب مستشار الأمـن الداخلي، جي. دي. كراوتش، بالإضافة إلى أحد قباطنـة الطائرة، وأنا. كما تم استدعاء مصوري الكاميرات الثابتة في الطاقم الصحفي لالتقـاط صور لمدة دقيقتين بينما كان بوش ينظـر من علٍ باتجاه المدينة الهلالية الشكل، والتي تغمرها مياه الفيضان.

استغرقـت مـدة الطيران خمسـاً وثلاثين دقيقة علـى ارتفاع 2500 قـدم فوق مدينة نيـو أورلينز، والمـدن الساحلية في ولاية الميسيسيبي وهي مـدن سليديل، وويفلاند، وباس كريستيـان، وغالفبـورت، وبيلوكسـي، وباسكاغـولا. شاهدنا في مدينتـي ويفلاند وباس كريستيـان مقاطـع إسمنتية معزولـة في الأماكن التـي كانت البيـوت الخشبية موجودة، وكانـت الأنقاض «تبدو من الجو وكأنهـا أكوام من أعواد الكبريت علـى مد النظر»، كما وصفهـا التقرير المقدم مـن الصحفي بيتر بيكر، مراسل صحيفـة واشنطن بوست. كان المـزاج في المقصـورة عكراً جـداً. شعر الجميع بمن فيهـم الرئيـس بالصدمة من جراء مشاهدة الخراب الذي خلفه ذلك الإعصار.

تضمنـت نشرات الأخبـار مساء ذلك اليوم صـوراً للرئيس وهو يحـدق عبر النافذة، وتبعتهـا في ذلك الصحف الصادرة في طول البلاد وعرضها صبيحة اليوم الثاني. تجسد الانطبـاع الـذي كان يثـير في نفسـي أشد الخوف في كل صـورة من هذه الصـور التي تم التقاطهـا. وقـد لخص الكاتبـان وين سليتر وجيمـس مور هذه الحادثـة بأسلوب بليغ في كتابهما «المهندس: كارل روف والخطة الكبرى للوصول إلى السلطة المطلقة»:

> تصـدرت صـورة بوش وهو يحدق عـبر النافذة في تلك البقعـة المريحة نصف المضـاءة محاطاً بالأمان والراحة اللتين توفرهما الطائرة الرئاسية، ويمعن النظر مـن عَلٍ في مدينة ضائعة ومدمرة وغارقة تدريجياً في الفوضى، الصفحات الأولى من الصحف الصادرة صباح اليوم الثاني. كانت هذه الصور من بين أكثر الصور التـي تسببت في الضرر لرئاستـه. كان الرئيس يبدو منسلخاً عـن الواقع ومشلول الإرادة وعاجزاً حتى عن استيعاب كيف يمكن له أن يسخر حكومته لخدمة شعبه.

والأسوأ من هذا وذاك، أن هذه الصور لم تعطِ أي انطباع بأن الرئيس مهتم أو قلق بشأن الكارثة التي تتكشف من تحت جناحي الطائرة الكبيرين.

لم تعد للقائي الذي جرى مع الصحفيين في وقت سابق فائدة تذكر بعد نشر الصور في الصحف. فقد كانت الصورة التي رسمتها للرئيس تدل على أنه مهتم جداً، وأنه كرس وقته بشكل كامل لهذه المسألة؛ إلا أن الصور التي نشرت له وهو يحدق عبر نافذة الطائرة الرئاسية بالناس الذين تحتجزهم مياه الفيضان في الأسفل طبعت له في أذهان الناس صورة مختلفة كلياً وجزئياً. لقد كانت درساً عملياً يمثل السلطة المطلقة التي تجسدها هذه الانطباعات في عالم اليوم الذي تحكمه المرئيات.

الخراب الذي شاهده الرئيس أثناء عملية التحليق كان له تأثير كبير عليه بالتأكيد؛ ولكن من المستحيل أن يشعر المرء كما يجب بعذابات أولئك الذين يعانون في الأسفل وهو يسترق النظر من الطائرة الرئاسية التي فيها كل مقومات الترف والراحة. لا يمكن للمرء أن يشعر بالتعاطف الحقيقي إلا إذا التقى وجهاً لوجه مع الضحايا. لقد استوعب بوش بالتأكيد حجم الدمار الذي أحدثه الإعصار أثناء زيارتنا الأولى إلى المنطقة بعد يومين على انحسار الإعصار بالرغم من أنه لم يلتقِ أبداً حتى في هذه الزيارة بأي من الأشخاص الأكثر تضرراً من الكارثة في مدينة نيو أورلينز.

الطريقة التي يتم فيها تعريف كلمة «القيادة» في أمريكا هذه الأيام تثير الضحك. فهي تتطلب القوة والثبات والحزم بالإضافة إلى تركيز لا يتزعزع على الالتزامات المباشرة اليومية التي يتعين عليه الوفاء بها. وتتضمن أيضاً إظهاراً مرئياً للمشاعر، والأحاسيس، والتعاطف، والحزن - وهي مزايا أكثر لطفاً، مما يجعلها تخوض صراع مع الشدة والقسوة اللتين نتوقعهما من قادتنا. كان بوش يفهم هذين الدورين، وكان في معرض تصديه لمتطلبات المصلحة التي يفرضها موقعه، قد استطاع أن يعتمد على قدرته غير المحدودة في إخفاء مشاعره - أي أ، ن يبني جداراً داخل ذاته يعزل في داخله ردات الفعل العاطفية والنفسية المختلفة التي تتسبب بها جملة من القضايا الضاغطة التي تواجهه بشكل يومي.

ساعدتــه هذه الإستراتيجيــة في أن يكشف عن شخصية قيادية هادئة ومتزنة في وقت الأزمات. وكان بوش يرى أن هذا النوع من الهدوء مؤشر على مزايا القائد المنضبط الذي يركـز على اتخاذ قرارات صعبة، وتوزيع المهام علــى من حوله بحكمة وروية تشبه طريقة المسؤول التنفيذي الكبير، صاحب الكلمة المسموعة. وعند هذا المفصل في رئاسته، وبحكم كونه قد مر بعدد من الأزمات التي شكلت اختباراً لقيادته، فقد كان يعرف كم من السهل أن يــترك لمشاعــره أن تسيطــر عليه، وتشل تفكــيره. حدث هذا الأمر مــع رئيس آخر من تكساس: لينــدون جونسون في ذروة الحرب في فيتنام. كان بوشــ مصمماً على أن لا يدع شيئــاً مشابهــاً يحدث له، ســواء كان ذلك بسبب حرب في الخــارج، أو كارثة داخل حدود الوطن.

تعنــي عبــارة القائد القوي وقت الأزمــات بالنسبة لبوش أن لا يسمــح لنفسه بأن يقع فريســة لمشاعــر الألم والقلق. إنها تعنــي قيامه بحل المشكلات ببرود وبتــؤدة مستنداً في ذلــك إلى رؤية إستراتيجية. وهو بنتيجة ذلك قد يبدو منسلخاً عن واقع الناس المعيشي. وهذا بالضبط ما حدث عشية إعصار كاترينا. فقد كان الناس في طول البلاد وعرضها يشاهدون الصــور المرعبة في شاشة التلفزيون: جثث تطفو فوق مياه الفيضان، أو منكبة على وجوهها على الأرصفة، أو عائلات محاصرة فوق أسطح منازلها وهي تستغيث طالبة الطعــام والمــاء، أو أشخاصــ يحتمون تحت ألواح مــن علب الكرتــون. كان بوش يريد أن يظهــر بمظهر المسيطر على الوضع، ولكنه كان بحاجة إلى أن يظهر بأنه مهتم بمصائب النــاســ – وأنــه متفهــم للوضــع الذي يمرون بــه، وأنه يشــارك الأمريكيين هــذا الشعور بالرعــب والغضــب، وأنه مصمم على اتخاذ كل ما يلزم مــن أجل تحريك البيروقراطية في واشنطــن لتستجيب لمطالــب الناس. لكن الصور التي التقطت لــه أثناء التحليق فوق منطقــة الإعصار لم تظهر أيــاً من ذلك. وفي الوقت الذي بدأ بوشــ يظهر أنه مهتم بما يجري من دون افتعال أي ضجة، كان الوقت على ذلك قد فات.

في اليومين اللاحقين، كان عليّ وعلى دان بارتليت أن نقاتل على واحدة من جبهات هذه المشكلــة، ألا وهــي جبهة العلاقات العامة. تحدثنا مطــولاً إلى الرئيس بوش حول الحاجة

إلى إظهار أنه مهتم بما يجري وذلك بشكل علني. إلا أن الجانب المتعلق بالسياسة العامة للمشكلة كان أكثر خطورة بكثير، وكان ما يزال مغيّباً.

كان العديد من المسؤولين داخل البيت الأبيض ينكرون أي مسؤولية للإدارة فيما يتعلق بإعصار كاترينا. ركزنا خلال الأسبوع الأول، على ضعف الاستعدادات التي قام بها مسؤولو الولاية والمسؤولون المحليون لمواجهة الإعصار. وهو أمر صحيح. ولكننا أهملنا إلى درجة كبيرة حقيقة أن الحكومة الفيدرالية هي الداعم الأساسي، وهي آلية الأمان التي ينبغي اللجوء إليها للتعويض عن أي ضرر يحدث على المستوى الأدنى. عندما تكون رئيساً، يكون الدولار في جيبك - وهي حقيقة لم يفهمها جورج دبليو بوش كما ينبغي، حتى الآن.

عصر يوم الأربعاء، ترأس بوش في البيت الأبيض الاجتماع الأول لوحدة طوارئ تم تشكيلها حديثاً على المستوى الحكومي تابعة للبيت الأبيض من أجل التعامل مع إعصار كاترينا. قال في بداية الاجتماع: «سوف نتعامل مع هذا الموضوع لمدة طويلة». وتابع قائلاً:

> إن تنسيق المسؤوليات مع المسؤولين المحليين والمسؤولين على مستوى الولاية هو أمر هام. هناك قضايا على الأرض لا بد من معالجتها. نحن بحاجة لأن نعرف من هو المسؤول، ومن هو المشرف على سير العمليات ميدانياً. لقد تحدثت لتوي مع حاكمة ولاية لويزيانا [كاثلين] بلانكو وأبلغتها أنه إذا أرادت تكون معنا، فإننا نحن من سيشرف على سير العمليات على الأرض.
>
> إنها كارثة مريعة. فبعض أجزاء من ولاية ميسيسيبي قد تم محوها من الخريطة. إنه شيء يفوق الوصف. في مدينة نيو أورلينز، زالت أحياء بكاملها. إننا نتحدث هنا عن عملية إعادة بناء مدينة. لا يمكن وصف كم هو مريع الوضع هناك.

ختم بوش حديثه الافتتاحي بكلمات بسيطة: «هناك مشكلة، ويتعين علينا حلها».

كان تشيرتوف، وزير الأمن الداخلي قد بدأ سلسلة لقاءات إعلامية يومية بحضور المسؤولين عن وكالة إدارة الطوارئ الفيدرالية بمن فيهم مايك براون. كان يطلع

الإعلاميين على آخر المستجدات في الوضع الميداني، ويراجع معهم الأولويات على المدى القصير، والمتوسط، والطويل. كانت الحاجات الأولية ملحة: إنقاذ الأرواح، والسيطرة على الفيضان، وإخلاء مدينة نيو أورلينز بالكامل، وإيصال الماء والطعام إلى المحاصرين، ومواجهة المشكلات الأمنية، وإيصال المعونة الطبية لمن يحتاجها. وكانت ندرة المعلومات الموثوقة تساهم في تعقيد كل هذه القضايا. اعترف تشيرتوف بأن «معرفة ما يجري حقيقةً على الأرض، ما تزال مشكلة». حتى الآن، عندما سأل الرئيس عن فعالية اتصالات الطوارئ بالنسبة للمتطوعين المحليين وعلى مستوى الولاية، فإنه أبلغ بأن عدداً محدوداً من الاتصال عبر المحطات الفضائية موضوع بتصرفهم. أطلع الوزير رمسفيلد وسائل الإعلام على آخر المستجدات بشأن قيامه بنشر وحدات عسكرية في المنطقة، خصوصاً في مدينة نيو أورلينز؛ وهو ما دفع الرئيس إلى التصريح بأن من المحتمل أن تكون هناك حاجة إلى جعل الاستجابة لمعاناة نيو أورلينز مسألة فيدرالية. وفي معرض تلميحه إلى تدهور الحال الأمنية في المدينة، أعلن أن» هذه منطقة حرب، أؤكد لكم. إنني قلق من اندلاع أعمال شغب. إننا بحاجة إلى أن نقرر [فيما إذا كنا سنطلب من الحكومة الفيدرالية استلام زمام الوضع] في الأيام القليلة المقبلة».

تناول أعضاء آخرون في الحكومة مسألة الأولويات التي تقع ضمن مجال عملهم، كالنقل، والصحة، والطاقة، والقضايا البيئية. ختم الرئيس بالقول: «سوف أدعو إلى اجتماعات متكررة إلى حين تتم سيطرتنا على المشكلة». لقد كانت جلسة كئيبة.

في الوقت الذي ركز المسؤولون في وكالة إدارة الطوارئ الفيدرالية والحكومة على الخطوات الميدانية لمساعدة المنطقة التي اجتاحها الخراب، فقد حاولنا التصدي لمهمة الاتصالات. لكننا لم نفلح في ذلك. فقد كانت الهوة التي تفصل بين الرسائل المطمئنة التي كنا نود إيصالها وبين الوقائع على الأرض عميقة جداً، وواضحة جداً.

بعد انتهاء اجتماع وحدة الطوارئ، تحدث الرئيس بوش إلى الأمة من حديقة الزهور في البيت الأبيض. حدد الخطوات التي تم اتخاذها من أجل إنقاذ الأرواح، كما تحدث

عـن الخطـة الشاملـة التي ستظهـر إلى العلن قريبـاً من أجـل إعادة البنـاء على المدى الطويـل. حـاول أن يترك الانطباع بأن شحنات أساسية مـن الطعام والماء والأدوية تصل إلى مستحقيهـا. صحيح أن خفر السواحل، بالإضافـة إلى فرق البحث والإنقاذ الأخرى، كانت تقـوم بأعمال بطولية؛ إلا أن الصور التي بثتها شاشـات التلفزيون لعشرات الآلاف مـن الأشخاص المحاصرين في مدينة نيو أورلينز، والذين تعوزهم المؤن كانت أيضاً صوراً حقيقيـة، وأعطت الانطبـاع بأن الرئيس كان مجرد متعهد لتقـديم الطعام في الحفلات، همـه الأكـبر إعطاء الانطباع الوهمي بأن كل شيء على مـا يرام. في وقت لاحق من اليوم نفسـه، قدّر عمدة نيو أورلينز راي ناغين عدد الموتـى في المدينة بالآلاف. (الحمد لله أنه كان مبالغاً جداً في تقديراته، ولكن لم يكن باستطاعة أحد التأكد من ذلك في حينه).

كان دان بارتليت يعمل جاهداً كي تكون قناة الاتصالات على الصعيد الفيدرالي فعالة بمـا فيه الكفاية. فبالإضافة إلى اللقاءات الصحفية اليومية التي تقوم بها وكالته، تشجع مدير وكالة إدارة الطوارئ للقيام بجملة من المقابلات خصوصاً مع الشبكات التلفزيونية. وأجرى الوزير تشيرتوف العضو الحكومي المسؤول الأكبر عن التعامل مع المسألة مقابلات أكـثر. لكن تشيرتـوف وبروان أثبتا أنهما بعيدان جداً عما يجـري. ففي مقابلة له مع تيد كوبـل في برنامج Nightline قال براون إن مركـز الاجتماعات يؤوي نحو 5000 شخص، وأن الطعـام والماء قد توزيعهما من قبل وكالـة إدارة الطوارئ. إلا أن العدد الحقيقي كان يتجاوز 25000 شخص، ولم يكن المركز يحتوي على أي تجهيزات على الإطلاق. كما قام تشيرتـوف بنفـي ما قيل إنه يجـري في مركز الاجتماعات من أمور خطـيرة رأى أن ذلك مجرد إشاعات.

ولأن التقديـرات المملـوءة بالتفاؤل كانـت تتناقض بشكل واضح مـع تقديرات وسائل الإعـلام، وما تظهره الصور فـإن التصريحات الوردية التـي أدلى بها براون وتشيرنوف ومسؤولون آخرون فندتها تقارير الصحفيين - وهو أمر مفهوم.

وبينمـا كان بارتليت يركز على إستراتيجية الاتصالات بإطارها العام، فقد كنت أركز علـى التفاصيل اليومية، وكنـت أسعى إلى التنسيق الكامل مـع زملائي في الوكالات ذات

الصلــة - على سبيل المثال، عبر التأسيس لاجتماع يومي عن طريق الدارة المغلقة لتقاسم المعلومــات الجديــدة الأكثر أهميــة. بطبيعة الحــال، كان من الأفضل تــرك مسألة شرح القضايا العملية إلى من هم أقرب إلى ذلك. كان دوري ينحصر في الحديث حول ما يقوم بــه الرئيس، والاجتماعات التي يعقدها، وحول الصورة الأكــبر التي تصورناها حول دور البيت الأبيض.

ولكــن في هذا المجــال أيضاً، كانــت الهوة الكبيرة بــين الرسالة المتوخــاة وبين الواقع مستمرة في الاقتطاع من رصيدنا. فيوم الخميس، وفي مقابلة أجرتها معه دايان سوير في برنامج Good Morning America، وبث على الهواء مباشرة، أثار الرئيس بوش زوبعة أخرى ضمن ذلك الإخفاق اللولبي الذي يدعى إعصار كاترينا. هذه المرة لم تكن المشكلة تكمن في الصور التي تم عرضها بل في الكلمات التي تفوه بها الرئيس نفسه. عندما سألته سويــر عــن سبب بقائه هو وفريقــه «في إجازة» بينما كان إعصــار كاترينا يضرب ساحل الخليــج، أجاب الرئيس بأسلوب دفاعــي: «بدأت بالتحضير للعودة يــوم الثلاثاء، عندما تبــين لنا المــدى الحقيقي للإعصار. قلت للطاقم المرافق إننــي عندما أعود إلى واشنطن عصــر يوم الأربعــاء فإنني أريــد أن يكون التقرير جاهــزاً على مكتبي، كمــا سأدعو إلى اجتمــاع للحكومة أتوقع فيــه أن تعلموني بالضبط ما الذي ستقوم بــه وزاراتكم للتخفيف من وطأة الوضع».

لم يــرَ الملايين الذين شاهدوا اللقاء ما يطمئــن في رد الرئيس. هل صحيح أنه لا أحد في الإدارة «استوعــب مــدى الضرر الذي تسبب به الإعصــار» إلا يوم الثلاثاء، في حين أن بوشــ نفسه أعلن عــن حال الطوارئ قبل ثلاثة أيام من ذلــك؟ الأمريكيون الذين سمعوا في السابق الرئيس، وأيدوا آراءه الناقدة والمتحاملة التي قارنت بين العقلية البيروقراطية وبين روحية القيادة الفعلية، كانوا مستاءين لسماعهم أن بوش لم يطلب سوى القليل زيادةً علــى «تقرير جاهز على مكتبي» بحلول عصــر يوم الأربعاء - وذلك بعد أكثر من خمسين ساعة على هبوب الإعصار. بدا الرئيس وكأنه، في لحظة الأزمة هذه، يمارس أسوأ أشكال الإدارة البيروقراطية التي لا صلة لها بالواقع - وهو عكس ما وعد به الناخبين تماماً.

بطبيعــة الحال، أستطيــع الآن رؤية هــذا الإخفاق في التواصل بسهولــة ووضوح أكبر ممــا كنت قــادراً على رؤيته حينها. كنت آنذاك كبقية أفــراد الفريق، منهمكاً في معالجة التحديات الآنية الهائلة التي كنا نواجهها بما في ذلك الخطوات العملية للتخفيف من حدة المأســاة، وأيضــاً، القيام بجهود مكثفة في مجال الاتصالات كــي نطمئن الجمهور ونطلعه علــى مجريات الأمور. تظهــر الأخطاء التي ارتكبناها في غايــة الوضوح، فقط إذا نظرنا إليها بمنظور اليوم - أي من خارج المعمعة.

في الساعــة السابعــة مــن صباح يوم الجمعــة، أي قبل قيامــه بأول زيــارة إلى ساحل الخليــج، ترأس بوشــ لقاء مشتركاً حول إعصار كاترينا مع قادة من وزارة الدفاع ووزارة الأمــن الداخلي. عقد الاجتماع في غرفة اجتماعــات آمنة في مركز الاجتماعات في البيت الأبيضــ. كان الأمريكيون يشاهدون على مدى ثلاثــة أيام كاملة صوراً مريعة عن المعاناة الإنسانيــة علــى شاشــات تلفزيوناتهم. كانت تلك الصــور تقطع القلــوب. تساءل العديد كيــف يمكن لحكومة فيدرالية بمواردها الهائلــة، أن تسمح بحدوث شيء من هذا. وكانوا يطالبون بإجابات.

بــدأ بوش الاجتماع بتوجيــه رسالة صارمة بناء على إلحاح من كبــار مستشاريه. كان واضحــاً ومباشراً. قال: «إننا لا نسيطر على الوضــع ميدانياً. المكان يعج بالفوضى. يجب إعــادة وضع مدينة نيو أورلينــز تحت السيطرة. ويجب أن نعيد فرضــ النظام بأسرع ما يمكــن». عبر عن قلقــه المستمر بشأن قضايا تتعلــق بالقيادة والمراقبــة كانت تقف عائقاً أمــام التعاون بين حكومــة الولاية وبين الحكومة الفيدرالية. وبعــد أن أشار إلى أن الكثير من العمل والجهد الشاق قد بذلا في هذا المجال، قال بشكل واضح: «لست سعيداً بالنتائج البتــة». كانت الرسالــة واضحة. الإخفاق بعــد الإخفاق في مواجهة إعصــار كاترينا غير مقبول بالمــرة. اختتم الرئيس كلماته الافتتاحية بالطلــب إلى الجنرال مايرز رئيس هيئة الأركان المشتركــة، أن يعيد كل الأفــراد العاملين في وحدات الحرس الوطني المتمركزة في الخارج إلى الديار ممن شردت عائلاتهم بفعل إعصار كاترينا.

اتصــل الوزير رمسفيلــد بالأميرال كيتينغ الــذي ظهر على شاشة الــدارة المغلقة من القيــادة الشمالية بولاية كولورادو المسؤولة عن الدفاع عن الأرض الأمريكية. حدد كيتينغ

الأولويـات العسكرية - وهي إنقاذ الأرواح وحمايتها دعمـاً للجهود المحلية وجهود الولاية والجهـود الفيدرالية. كما عرض لنظـام المراقبة والقيادة المعمول بـه حالياً، والإمكانات التـي وضعت في الخدمة بما في ذلـك بعض القطع البحرية، ونحو مئتـي طائرة عامودية (هيلوكبـتر)، وأعداد متزايدة من وحدات الحرس الوطني؛ وكانت جميعها بإمرة وحدة كاترينا القتالية المشتركة المتمركزة في كامب شيلبي بولاية ميسيسيبي، وكانت تحت قيادة الجنرال راسل هونوري الذي ظهر على شاشة أخرى تبث من ساحل الخليج.

كانـت المقاربة الحازمة والقيادية التي قدمها هونـوري الذي تم تعيينه لقيادة الوحدة القتالية قبل يومين فقط قد تركت انطباعاً قوياً لدى بوش. قال هونوري إن ولاية لويزيانا ما تزال حتى الآن تعد «مشكلة كبيرة»، بينما لاحظ أن الوضع في ولاية ميسيسيبي مستقر إلى حد ما. كما أكد أن الوضع في داخل القبة العظيمة في مدينة نيو أورلينز «مستقر وتحت السيطـرة». في الساعات الأربع والعشرين الماضية تم إجلاء 15000 شخص من الإستاد. أما الآن، فإن مركز الاجتماعات هو محل اهتمامنا. ما يزال هناك ما بين 25000 و30000 شخص موجودين هناك بعد أربعة أيام على الضربة التي وجهها الإعصار، والأولوية الآن تكمن في تزويدهم بالطعام والماء والأدوية. تحدث هونوري عن التقارير التي أوردت أنباء عـن «إطلاق نار وخروج علـى القانون» فوصف الوضع في مركز المدينـة بأنه «أزمة» لا بد مـن «السيطرة عليها في غضـون الإثنتي عشرة ساعة القادمة». كمـا ذكر أنه تم تحريك وحـدات الحرس الوطني كي تضبط الوضع الأمني في المنطقـة. أعطى الجنرال هونوري صـورة القائد الـذي يسيطر على الوضع تماماً، كما أعطـى الانطباع بأنه على اطلاع تام على المهمة التي عليه القيام بها، ولديه ما يكفي من الحزم لتنفيذها.

تـلا ذلـك نقاش حـول الوضع الأمنـي. في معرض رده علـى سؤال وجهـه إليه الوزير تشيرتـوف، قال هونـوري إن حوادث إطلاق نار معزولة قد جـرى رصدها، ولكن يبدو أن التقاريـر المتعلقة بحوادث اغتصاب حول منطقتي القبـة العظيمة ومركز الاجتماعات لا تستنـد إلى حقائـق. قال إن ما يرغب بـه الناس الموجودون داخل مركـز الاجتماعات هو فقط الخروج منه. أما فيما يتعلق بحوادث النهب والسلب، فقد اعترف هونوري بأن الناس

«يبحثــون عن الطعام لأنه ليــس لديهم طعام». هناك ما يكفي مــن المؤن من طعام وماء، بالإضافــة إلى أن القوة العسكرية في طريقها إلى المنطقة، ولكن تأمين المنطقة والبدء في توزيع المواد على المواطنين سيستغرق بعض الوقت.

وضــع الجنرال كارل ستروك قائد وحدة المهندســين في الجيش الأمريكي الحضور في صــورة آخــر المستجدات حول إصلاح الحواجز الإسمنتيــة وشفط مياه الفيضان في مدينــة نيو أورلينز. لحظ أن مياه الفيضان استقرت عنــد مستوى معين، وأن منسوبها مستمر بالانخفاض.

تحــول النقاش بعد ذلك إلى إمكان اعتبار التحرك الحكومي قضية فيدرالية، والتأكيد علــى أن مدينة نيــو أورلينز أصبحت تحت سيطرة الجيشــ الأمريكي؛ كان هذا واحداً من الخيــارات التــي سبق أن نوقشت بعمق منذ بداية الأسبــوع. كان بوش يعتقد أن الجيش هو المنظمة الوحيدة المنضبطة بما يكفي كي تأتي وتضبط الوضع بسرعة. وعندما تم التطرق إلى الوضع الحالي، وإلى جهود الإغاثة، قال الأميرال كيتينغ إن الوحدات العسكرية مستعدة للتحرك إذا صدرت الأوامر إليها بذلك. ولكن لم يتخذ أي قرار نهائي بهذا الشأن.

أدى هذا إلى نقاش حول صور المعاناة الإنسانية التي كانت تعرض في وسائل الإعلام. لحــظ أحدهم أن بعض هذه الصور التقطت منذ ثلاثة أيام، ومع ذلك فقد أعيد عرضها مــن دون شرح من قبل شبــكات التلفزيون الإخبارية. في ظل مثــل هذه الظروف، لم يكن مستغربــاً أن يكون شعور الأمريكيــين بالثقة في تحرك حكومتهم متدنياً جداً. اختتم بوش الاجتماع بالقول: «إن من واجبنا ومسؤوليتنا أن نفكر بوضوح». كان محقاً، بالطبع. ولكن ذلــك كان يومَ الجمعة في الثاني من شهر أيلــول، سبتمبر. أتت الرسالة متأخرة جداً بعد أسبوع طويل.

لم تقــدم زيــارة بوش إلى منطقــة الفيضان عصر ذلــك اليوم ســوى القليل لتحسين معــدل قبول الناس للطريقة التي عالجت بها الإدارة إعصار كاترينا. بالنسبة إلى معظم الأمريكيين لم تقدم هذه الزيارة في واقع الأمر سوى اثنتين من اللحظات الجديرة باللحظ وشكلــت كل من هاتــين اللحظتين إحراجاً للرئيس. تمثلــت الأولى في تركيزه اللافت على

استراحـة السيناتور الجمهوري ترينت لوت، وهي المنزل الـذي يقضي فيه إجازته عادة، والـذي تعرض لضرر كبير جراء الإعصار، حيث تحدث بوش بحماس مفرط قائلاً: «من قلـب حطام منـزل ترينت لوت - لقد خسـر منزله بالكامل - سوف يتـم بناء منزل رائع مكانـه»، وتابـع موضحاً أنه يتطلع إلى الجلوس في شرفة المنـزل الجديد معه. ونظراً لأنه كان محاطـاً بمنـازل مهدمة للآلاف من سكان ولاية ميسيسيبـي - معظمهم من الفقراء الذين لن يكون بمقدورهم إعادة ترميم مساكنهم إلا بالكاد، ناهيك عن بناء منزل فخم لقضـاء إجـازة فيه - فإن هذه العبـارات قيلت في توقيت سيئ في أفضـل الأحوال، وبدت قاسية القلب في أسوئها.

الخطيئـة المضحكة الثانية التي تمخضت عنها هذه الزيـارة أصبحت أكثر شهرة من سابقتهـا. ففـي لقاء غير رسمـي أمام عدسـات الكاميرات التلفزيونيـة، وكان يحيط به العديـد ممن المسؤولـين الفيدراليين والمحليـين، استدار بوش وأشار تحديـداً إلى مايكل براون الذي كان يمطر بالانتقادات، وأغدق عليه مديحاً مستخدماً في ذلك عبارة أضحت معيبـة: «بـراوني، أنت تقوم بعمل رائع!» حتى براون نفسه بـدا عليه الاضطراب، ولا غرو في ذلك؛ ذلك أن معظم الأمريكيين توصلوا إلى الاستنتاج بأن مدير وكالة إدارة الطوارئ الفيدراليـة كان على قائمة من قرر الرئيس استبدالهم. كانوا بكل بساطة، يتساءلون عن موعـد قيام الرئيس باستخـدام الفأس ضده، ومـن الذي سيخلفـه. (في نهاية المطاف، استقـال براون بعد عشرة أيام، وذلك في الثاني عشر من شهر أيلول، سبتمبر). أن يقوم بوش بكيل المديح له على الملأ، أوحى بأن الرئيس، الذي يُعرَفُ عنه تقديره الشديد للولاء الشخصـي، إمـا أن يكـون الصواب قـد جانبه في حكمـه، أو أنه ما يزال غـير قادر على الإحساس بالسوء الذي وصلـت إليه الأحوال في ساحل الخليـج. في كلتا الحالين، أوحت هذه الحادثة بأشياء سيئة حول إدارة بوش.

أبلغنـا الرئيس فيما بعـد أنه لم يكن لديه خيار سوى كيـل المديح «لبراوني» في تلك اللحظـة. شـرح لنا موقفـه قائلاً، منهياً ما قالـه بسؤال يتضمن الجـواب: «كان واقفاً هناك بالضبط. وكنت أحاول رفع معنويات الجميع. ماذا كان من المفترض عليّ القيام

به؟ كان معه بعض الحق؛ إذ كان علينا أن لا نضعه في هذا الموقف. كان الدافع مفهوماً، بل جديراً بالثناء. إلا أن وضعه موضع التطبيق شكل ضربة أخرى لهذه الإدارة التي تترنح مصداقيتها.

وحالما تترسخ عبارة محددة في وسائل الإعلام، سواء كانت جيدة أم سيئة، فإن من الصعب أن تبطئ من زخمها واندفاعها. في هذا الوقت، ترسخت عبارة «إدارة بوش تتجاهل الدمار الذي أحدثه إعصار كاترينا» بشكل كامل في أدبيات وسائل الإعلام، مع لحظ أن تفاصيل كثيرة من خارج السياق تقحم في خضم هذه السردية. أخذت كوندي رايس إجازة لمدة يومين قررت أن تقضيهما في نيويورك في ذلك الأسبوع، وبينما هي في نيويورك، ثمة من رآها وهي تحاول شراء زوج من الأحذية من بوتيك فاخر. لم يكن في هذا ما يمكن أن يثير شهية الصحفيين لاعتباره خبراً يستحق الذكر، خصوصاً وأن وزيرة الخارجية لا علاقة مباشرة لها بجهود الإغاثة في كارثة حلت بداخل البلاد. لكن هذا لم يمنع المنتقدين أو وسائل الإعلام من التقاط هذه الحادثة واعتبارها «إثباتاً» آخر على اللا مبالاة التي تبديها إدارة بوش تجاه المعاناة الإنسانية. وقد خرجت صحيفة Daily News الأكثر انتشاراً في نيويورك بعنوان عريض جَذِلٍ يلخص القصة التي استمر الحديث حولها لأسابيع آتية: بينما يغرق الجنوب، رايس تتعرض للبلل في نيويورك.

تظهر أحداث مثل هذه أنه حتى مع وجود الكثير من المواد التي تثير الانتقاد، ومع وجود الكثير من الحقائق المهمة التي يمكن الكشف عنها، فإن المنتقدين ميالون لاستغلال الأحداث التافهة لتحقيق مكاسب سياسية، كما أن وسائل الإعلام تجد أن من الصعب مقاومة ما تراه مهماً من الناحيتين الرمزية والنفعية، وهو ما يؤدي في الغالب إلى تراشق سياسي سخيف لا يضيف أي قيمة تذكر لمهمة البحث عن الحقيقة. أما في حال إعصار كاترينا، فإن أساس مشكلاتنا هناك كانت أكبر وأوضح من أن تطغى عليها قصص تافهة كالقصة التي تحدثت عن شراء كوندي لزوج من الأحذية.



قمـت بتغطية جـزء بسيط فقط من قصة ردة الفعل الوطنيـة على إعصار كاترينا، لأننـي أردت أن أركز بالدرجة الأولى على الأحـداث الأولى التي شهدتها خلال الأسبوع الأول المدمـر. وبينمـا كانـت مدينة نيـو أورلينز وبقيـة منطقة الخليج تكافـح من أجل استعـادة عافيتها بشـكل كامل من الدمار الهائـل الذي أصابها بـه الإعصار، فقد بدأ المؤرخون والصحفيون بنشر تفاصيل عن قائمة بالأخطاء التي ارتكبت وذلك قبل وأثناء وبعـد الإعصـار. لقد كانت حكاية مهمة غنيةً بالدروس والعبر التي يمكن الإفادة منها في المستقبل.

فيمـا يتعلـق بالغاية المتوخاة مـن هذا الكتاب، فإننـي أريد أن أؤكد علـى أن إعصار كاترينـا كان نقطـة تحول فاصلـة بالنسبة إلى بوش وإدارته. وقد ترك هـذا الإعصار لطخة لا يمكن إزالتها عن رئاسة بوش. فالجانب التجاري الطاغي على الجهود المبذولة لمساعـدة الناس المقيمـين في منطقة ساحل الخليـج لم يقنع الأمريكيين بـأن يتسامحوا مـع الطريقة الأولية التي تعاملت فيها الإدارة والتـي أعدت إعداداً رديئاً، والاستعدادات والخطط غير الكافية.

تبـين أن إدارة بوش بطيئة ومتثاقلة، ويعـود ذلك جزئياً إلى أن هـذه الإدارة كانت تعتقـد أنهـا سيدة فن إدارة الطوارئ. لكـن إعصار كاترينا كان مختلفـاً، ونيو أورلينز كانـت مختلفـة. ولسوء الحظ، فقد تعامل كل من البيت الأبيض ووكالة إدارة الطوارئ الفيدراليـة مع إعصار كاترينا بالطريقـة نفسها التي تعاملا فيها مع الأعاصير الأربعة الكبرى التي ضربت منطقة فلوريدا السنة الفائتة. لم تتخذ حينها أي إجراءات استثنائية منذ البداية. فبدلاً من نشر فرق عسكرية مؤللة كانت المنطقة تحتاجها، فقد تم الاكتفاء بعـدد محـدود من الجنود الراجلـين في البداية بالرغـم من حقيقة أننا كنـا نعرف أن إعصـار كاترينـا يمكن أن يكون «الإعصـار الكبير» الذي كان يخشـاه سكان مدينة نيو أورلينـز منذ مدة طويلة. على سبيل المثال، بالرغـم من أن كميات كبيرة وغير مسبوقة مـن المؤن قد تم تحضيرهـا قبلاً وذلك في معرض الاستعداد للضربـة التي سيوجهها

الإعصــار، فـإن تلك الكميات كانــت قليلة جداً إذا أخذنا بعــين الاعتبار الحجم الهائل لهـذه المأساة، كما أن هذه المؤن لم تأخذ طريقها بسرعة وكفاية إلى من يحتاجها بشدة وذلك في الأيام الأولى من الكارثة.

كان ذلك إخفاقاً على صعيدي الرؤية وروح المبادرة. إذ عندما ضربت العاصفة وتبين أن حجم الدمار كان أسوأ مما توقعه أي شخص، كان عجزنا عن التأقلم مع الكارثة يعكس إخفاقنا في تحمل المسؤولية.

قضينـا معظم أيـام الأسبـوع الأول في حال مـن الإنـكار. إن التنصل مـن المسؤولية وتحميلها للآخرين، والتخفيف من حدة الواقع المؤلم يشكلان جزءاً من الطبيعة الإنسانية التي يجب أن تبقى تحت المراقبة. لكن ذلك لم يحدث. ونحن في فريق الاتصالات، تحملنا قسطنـا من اللـوم. ففي الوقت الذي كنا نحـاول حماية الرئيس وسمعتـه، بدلاً من قبول تحمـل المسؤوليـة منذ البدايـة، والتحرك باندفاع لمعالجـة المشكلة، فإننـا حاولنا تجيير المسؤولية بعيداً عن البيت الأبيض والحكومة الفيدرالية.

تحولت واحدة من أسوأ الكوارث في تاريخ أمتنا، إلى واحدة من أسوأ الكوارث بالنسبة إلى رئاســة بوش. فقد حدد إعصار كاترينا والطريقة الخرقاء التي تعاملت بها الحكومة الفيدراليــة مع هذا الأمــر سمة المرحلة الثانية من ولاية بوش. وقد أصبح الموقف من هذه الكارثــة أكثر سوءاً عندما يقارن بقــرارات سابقة اتخذها الرئيس بوش، بما في ذلك أولاً وقبل كل شيء، إخفاقه في أن يكون منفتحاً وصريحاً بشأن العراق، واندفاعه نحو الحرب بخطط مبتورة، واستعدادات غير كافية لمرحلة ما بعد هذه الحرب.

أدى العنف المستمر في العراق - التفجيرات الانتحارية، والمتفجرات اليدوية الصنع، ونــيران القناصــة، والخسائر البشريــة اليومية في صفوف الجنــود الأمريكيين - إلى التسبــب في فقدان الأمل لدى الكثيرين، وظهــور تحفظات عميقة حول الجهد المبذول لمرحلة ما بعد الغزو. لقد بدأ القصور والعمى في الرؤية اللذان تجليا في الطريقة التي

تعاملت فيها هذه الإدارة مع إعصار كاترينا بالتحول إلى عدسة سيختبر عن طريقها الكثيرمن الأمريكيين، وخصوصاً المستقلين منهم، والمؤيدين للحرب من بين أولئك الذين يقفون في الوسط، الطريقة التي أدار فيها بوش وإدارته العراق في مرحلة ما بعد صدام.



16

بعد المحاكمة

كان تصريحاً في غاية البساطة، ثلاث كلمات فقط خرجت من فم الرئيس الذي تفوه بها بطريقة مباشرة ولهجة حاسمة: «نعم، أنا فعلت». لكن هذه الكلمات أثارت في نفسي شعوراً بالصدمة وعدم التصديق. وثبت لي في أعقابها أنها كانت الضربة الحاسمة – وهي الضربة المؤلمة الأخيرة التي جعلتني أتأكد أنه ليس بإمكاني الاستمرار في العمل لدى إدارة بوش إلى ما لانهاية.

كنت ألج إلى الطائرة الرئاسية الرابضة في مطار تشارلوت في كارولينا الشمالية بعد ظهر يوم السادس من شهر نيسان؛ أبريل، سنة 2006. كان الرئيس يجلس إلى مكتبه في الطائرة، وعندما لمحني، أشار إليّ وإلى دان بارتليت. كان كلانا قد صعد إلى الطائرة وراءه مباشرة. سألنا بوش: «لماذا يصرخ؟»

كان يقصد بسؤاله مراسل محطة ABC الإخبارية، جيف موريل الذي قام بتغطية الأحداث في البيت الأبيض، والذي كان يصيح منادياً بوش وهو على الأرض الإسفلتية للمطار منذ دقائق قليلة. في ذلك الصباح كان الرئيس قد أدلى ببعض التصريحات بشأن إستراتيجيتنا في العراق، وشارك في جلسة من الأسئلة والأجوبة مع أعضاء مجلس تشارلوت للشؤون الدولية. في غضون ذلك، كان مجلس الشيوخ في واشنطن يحرز بعض التقدم الملحوظ حول إصلاح شامل لموضوع الهجرة، وقررنا أن نقترح على الرئيس الإدلاء بتصريح في المطار للترحيب بهذه الجهود الحزبية المشتركة.

لم يكن بوش يقبل أن تطرح عليه أسئلة من الصحفيين عصر ذلك اليوم، ولكن موريل كان يتوق إلى الحصول على جواب من الرئيس حول أهم خبر عاجل ورد في ذلك اليوم ويتعلق بملف في المحكمة له علاقة بمحاكمة سكوتر ليبي من قبل باتريك فيتزجيرالد،

المدعي الخاص. سمع دان السؤال الذي طرحه موريل، وأطلع بوش على فحوى سؤاله. قال دان إن الصحفي كان يسأل عن شهادة ليبي أمام هيئة المحلفين الكبرى وحكاية تسريب تقويم المخابرات الوطنية التي كشف فيتزجيرالد عن إجراءاتها القانونية.

أضفت: «يؤكد أنك أنت من أعطى الأوامر بتسريب حكاية تقويم الاستخبارات الوطنية».

أجاب بوش ببساطة: «نعم، أنا فعلت». كانت تعبيرات وجهه تنم عن أنه غير راغب في أن يخوض في التفصيلات أكثر من ذلك. ولم أتوقع منه أن يفعل، طالما أن محاميه الشخصي جيم شارب نصحه بعدم مناقشة أي تفصيلات تتعلق بمحاكمة ليبي.

لم أكن متأكداً مما سأقوله. فقد علمت لتوي بالملف الذي أعده المدعي فيتزجيرالد طريق التقارير الإعلامية. ولكن هذا التصريح الذي كان بمنزلة قنبلة، سيزيد إذا ما ثبتت صحته، من حدة الضرر الذي سببته قضية فاليري بليم لإدارة بوش - ولي شخصياً كوني كبير الناطقين باسمها. صدمتني مفاجأة سماع اعتراف الرئيس بكل بساطة بصحة هذه الاتهامات، كما لو كان يتحدث عن شيء لا يزيد أهمية عن نتيجة مباراة في البيسبول.

تعود جذور هذه الحكاية إلى شهر تموز، يوليو، سنة 2003 عندما كنت أحضر نفسي لاستلام منصب السكرتير الصحفي. كان اللغط المتشابك حول الكلمات الست عشرة الملتبسة التي تضمنها الخطاب حول حال الاتحاد، بما في ذلك الزعم غير المثبت بشأن اليورانيوم من النيجر، وتسريب اسم فاليري بليم وهويتها كعميل لوكالة المخابرات المركزية ما يزال دائراً. في خضم هذه المناظرات، صرحت مستشارة الأمن القومي حينها، كوندوليزا رايس علناً أن تقويم المخابرات الوطنية الصادر في شهر تشرين الأول، أكتوبر، سنة 2002 قدم دليلاً يدعم فكرة أن العراق حاول الحصول على اليورانيوم من إفريقيا، وتحديداً من النيجر. ولكن عندما سئلت فيما إذا كان من الممكن أن يتم رفع السرية عن تقويم الاستخبارات الوطنية بحيث يكون بمقدور الشعب الأمريكي أن يحكم على الدليل بنفسه، أجابت رايس - وكان هذا ضمن خط سياسة الإدارة - أن البيت الأبيض «لم يشأ محاولة الدخول إلى نوع من رفع السرية بطريقة انتقائية» بالرغم من أنها أضافت أننا ندقق في احتمال أن تكون أجزاء من هذا التقويم قابلة للطرح علناً عبر رفع السرية عنه بواسطة القنوات الرسمية.

بالاستنــاد إلى الشهادة التي كان ليبي يـدلي بها أمام هيئة المحلفين الكبرى وذلك في الوقت نفسه الذي كانت رايس تؤكد أن البيت الأبيض يعارض «رفع غطاء السرية بصورة انتقائية»، فإن الرئيس بوش بنفسه كان متورطاً في حقيقة الأمر بعملية رفع غطاء السرية بصـورة انتقائية. فقد أصـدر أوامره باستعمال فقرات من تقـويم الاستخبارات الوطنية الصادر في شهر تشرين الأول، أكتوبر، بغرض النيل من مصداقية الهجوم الذي يقوم به جـوويلسون ضـد مصداقية الإدارة - وهي الحملة التي تضمنت في نهاية المطاف تسريب هوية بليم، وأدت إلى إصدار لائحة اتهام ضد سكوتر ليبي.

الآن، ومـع التلفـظ بهذه الكلمات الثلاث البسيطة «نعم، أنـا فعلت»، فإن الرئيس كان يقـول لي إن شهادة ليبي بشأن تقـويم الاستخبارات الوطنية - الذي اطلعت على تفاصيل أكـبر حولـه فيما بعد - كانت صحيحـة، وإن تصريحاته وتصريحاتـي حول حرمة سرية الاستخبارات كانت فارغة من المضمون.

لم يتردد الديمقراطيون في الوثوب على هذا الدليل الأخير على قيام إدارة بوش بحجب الحقيقـة على الأقل. قـال السيناتور عن مدينة نيويورك، تشارلز شومر، إذا كان الرئيس قـد أصدر أوامره بتسريب المعلومات، فإن على الشعب الأمريكي «أن يعرف ما الذي يميز تسريبه للمعلومات عن التسريب الذي قام به الآخرون الذين أدانهم الرئيس بنفسه».

غالبـاً مـا كان الرئيس بوش يشجب بشدة عمليـات التسريب الانتقائيـة. ففي شهر كانون الأول، ديسمبر الفائت، أدان بشكل علني تسريب صحيفة نيويورك تايمز لمعلومات سريـة للغايـة حول برنامج المراقبة غير المسموح به، والـذي تم الأمر بتطبيقه في أعقاب هجمـات الحـادي عشر من أيلول وذلـك لإتاحة المجـال لوكالة الأمـن القومي كي تقوم بعمليات تنصت على الاتصالات الدولية التي يمكن أن يقوم بها المشتبه بهم أو المعروفون بانتمائهم إلى تنظيم القاعدة.

توصلتُ في الأيام التي تلت الكشف عن رفع غطاء السرية عن تقويم المخابرات الوطنية إلى قناعة شخصية حاسمة. وكان رفع الغطاء عن هذه المعلومات بشكل سري قد نال من مصداقية ما كان يكرره الرئيس دائماً، وما كنت أردد صداه بالوتيرة نفسها في المؤتمرات

الصحفيـة. لا أعتقد أنه كان في نية الرئيس بوشـ تضليلي أو تضليل كبار مستشاريه مثل كونـدي؛ إلا أن أفعالـه السريـة كانت تعني أننا تعرضنا لعملية خـداع سواء كان ذلك عن قصد أو من دون قصد.

⁂

عندمـا تم الكشف عن عملية رفـع الغطاء عن سرية تقـويم الاستخبارات الوطنية، كانـت إدارة بوش تمر بأوقـات حرجة. فالتفاؤل والزخم اللـذان شعرنا بهما بعد حملة إعادة الانتخاب الناجحة، تبخرا بسرعة. فقد تعرضت الإدارة إلى الصد عند محاولتنا استمالـة الرأي العام واستعماله للضغط علـى الكونغرس لإصلاح الضمان الاجتماعي. وبالرغـم من أن الإدارة قامت بحملة هائلـة تهدف إلى تجييش الدعم الشعبي من أجل إصـلاح الضمـان الاجتماعي، فقد أظهـرت استطلاعات الـرأي أن غالبية الأمريكيين يرفضـون مفهومنا المفضـل لموضوع الحسابات الشخصية، ويقفـون ضد فكرة الحاجة إلى القيام بتغييرات في البرنامج الشعبي. في نهاية شهر أيار، مايو، سنة 2005، عندما قام رئيس الغالبية النيابية في الكونغرس روي بلانت بوضع لائحة تتضمن «تشريعاً بشأن تحديـد الأولويات» يعمل بـه بعد يوم النصب التذكاري، لم يكن مشروع إصلاح الضمان الاجتماعـي ضمـن تلك اللائحة؛ وكان هـذا مؤشراً على موت مشـروع إصلاح التأهيل كواحـد من أهـداف الحزب الجمهـوري على المـدى القصير. وعندما ضـرب إعصار كاترينا، كان الأمل باستعادة الزخم لهذا المشروع قد تلاشى إلى الأبد.

بحلـول ربيع سنـة 2006، كنا نحـن العاملين في البيـت الأبيض في عهـد بوش نكافح على امتداد أشهـر طويلة محاولين التغلب على الإحساس بالعجز الذي تسببت به طريقة تعاملنـا الأوليـة مع إعصـار كاترينا، والحال التـي تزداد تردياً في العـراق (بما في ذلك تدمـير المسجد الذهبي في سامـراء الذي أدى إلى تأجيج الصـراع المذهبي هناك)، وما رافق ذلك من انخفاض ملحوظ في معدل التأييد للرئيس.

في الثامـن والعشرين من شهـر آذار، مارس، أعلن آنـدي كارد استقالته من منصب رئاسـة الأركان في البيـت الأبيض. ولقـد فرض على الرئيس قبولهـا ليس بالطريقة التي

يرغب فيها هو أو غيره ترك البيت الأبيض. لكن وقت التغيير قد حان، وكان آندي البعيد كل البعد عن الأنانية وذو الخبرة الطويلة في مجال العمل الحكومي، يعرف ذلك جيداً. فقد كان مستعداً لتلقي الضربة فيما لو كان ذلك يساعد في تحسين معدل قبول الجمهور لبوش والفريق الذي يساعده في قيادة البلاد.

قال لي آندي عندما كنا نتحدث عن هذا الموضوع في مكتبه: «فكر بالأمر. هناك أربعة، أو ربما خمسة أشخاص في الإدارة يمكن أن تشكل استقالة أي منهم فرقاً بالنسبة للجمهور. أحد هؤلاء الأشخاص هو أنا، وهناك نائب الرئيس، وهذا لن يحدث، وهناك كوندي، وهذا لن يحدث، وهناك رمسفيلد، وهذا ليس من الممكن أن يحدث؛ لكن هذا يبقى بينه وبين الرئيس». كان الخيار الوحيد أمام آندي يكمن في أن يبادر هو إلى تقديم استقالته، ويفسح المجال لرئيس أركان جديد كي يدير العرض.

ساعد هذا الحديث مع آندي في ترسيخ فكرة إجراء تغيير في وضعي داخل البيت الأبيض. ولقد بدأت في التفكير في هذا الموضوع منذ شهر تموز، يوليو، سنة 2005 عندما تبين أن ما قلته في معرض دفاعي عن كارل روف ، وفيما بعد، عن سكوتر ليبي حول اللغط الدائر بشأن تسريب اسم بليم كان مغايراً للحقيقة. شعرت بأنني ورقة محروقة. لقد مررنا بتجربة الكشف عن التجسس غير القانوني على الاتصالات، وبفضيحة السرقة من أحد المتاجر التي قام بها أحد كبار المساعدين السابقين، بالإضافة إلى حادثة إطلاق النار في رحلة الصيد التي كان بطلها نائب الرئيس، وكانت تشبه الفضيحة. ومع الكشف عن طريقة رفع الغطاء عن سرية المعلومات الواردة في تقويم الاستخبارات الوطنية، شعرت بأنني أحترق شيئاً فشيئاً. لكنني لم أشأ ترك الرئيس في خضم هذا اللغط الهائج. شعرت بأنني لو فعلت ذلك، فسأعتبر نفسي غير منصف بحقه، وسيكون هذا سيئاً بالنسبة إلى الإدارة. بدأت بالتفكير أن الخامس عشر من شهر تموز، يوليو، سنة 2006 حيث ستكتمل حينها مدة السنوات الثلاث التي قضيتها سكرتيراً صحفياً، هو موعد مناسب لأتخذ الخطوة الثانية في مهنتي. وسوف أعلن عن هذه الخطوة عندما يحين الوقت، وقررت أن هذا سيكون ربما في شهر أيار، مايو.

ونظراً لأن آندي كان على وشك مغادرة موقعه، فقد تقرر أن يأخذ مكانه جوش بولتين رئيساً لأركان البيت الأبيض. كان يشغل في السابق منصب مدير مكتب الإدارة والميزانية، وقبل ذلك، كان نائب رئيس الأركان لشؤون السياسة. كان من الأتباع الموثوقين؛ وقد عمل مع بوش منذ أن كان مدير السياسة في الحملة الانتخابية الرئاسية الأولى.

تحدثت إلى جوش في اليوم الأول الذي أعلن فيه تعيينه بديلاً عن آندي (وهكذا كان باستطاعتي إخبار الصحافة بهذا الموضوع بشكل كامل)، والذي تزامن مع الإعلان عن استقالة هذا الأخير. أشار أيضاً إلى أنه يرغب بزيارتي قريباً، لكنه لم يشر إلى أن أمراً عاجلاً يدور في ذهنه، أو أن لديه شيئاً يشغل باله، ويريد أن يتحدث معي بشأنه — فقط أراد أن يطلع مني على أفكار حول الاتصالات في البيت الأبيض.

ولكن في الأسبوع اللاحق بعد أن غادر الرئيس إلى كامب ديفيد يوم الخميس لقضاء عطلة نهاية أسبوع مطولة لأنها تزامنت مع عيد الفصح، طلب جوش أن أوافيه إلى مكتبه. كانت هناك تقارير في الأفق تتحدث عن نيته إجراء تغيير في منصب السكرتير الصحفي، وكنت مستعداً لإبلاغ جوش أنني مستعد لترك منصبي في تاريخ نتفق عليه معاً، وأن هذا التاريخ لن يتجاوز الخامس عشر من شهر تموز، يوليو. افترضت أنه لن يعترض على هذا التوقيت. فكرت في استباق حمى وسائل الإعلام حول احتمالات التغيير في مواقع البيت الأبيض، والتي تلي في العادة تغيير رئيس الأركان؛ إلا أن افتراضي كان خاطئاً.

رحب بي جوش، جلست بعدها على أريكته. وقبل أن يكون باستطاعتي التفوه بأي كلمة، اتجه مباشرة إلى الموضوع قائلاً بنبرة لطيفة وموزونة: «ما سأقوله الآن لن يكون من دواعي سروري؛ في الواقع، أنت محبوب من الجميع هنا. وأنا شخصياً أحبك، ولكنني أعتقد أن البيت الأبيض هذا مشلول بدرجة كبيرة، ويحتاج إلى تغيير. وأحد المواقع التي قررت أن يتم التغيير فيها هو منصبك. عندما طلب الرئيس إلي شغل منصب رئيس الأركان، أكد لي أنني أملك كامل الصلاحيات لإجراء تغييرات أجد أنها ضرورية لضخ النشاط من جديد في مفاصل البيت الأبيض. هذا ليس قراره، أو قرار دان بارتليت؛ إنه قراري أنا».

كنت أتلقى كل ذلك وأنا جالس، ولكنني لم أكن أشعر بالسعادة وأنا أصغي إلى جوش وهو يبدأ الحديث قبل أن يعطي نفسه مجالاً لكي يسمع ما أردت أن أقوله. بعد ذلك قلت: «أتفهم ذلك، يجب أن تعرف أنني كنت أفكر بموضوع ترك المنصب منذ مدة طويلة؛ وكنت أفكر أن شهر تموز، يوليو القادم المصادف لخط نهاية الثلاث سنوات هو الموعد المناسب لذلك».

قال جوش: «حسنٌ، في هذه الحال، هذا يسهل الأمر كثيراً. كنت أنوي إبلاغ كبار الموظفين يوم الاثنين القادم أن أي شخص يفكر في ترك منصبه خلال الأشهر القليلة القادمة عليه أن يبادر إلى القيام بذلك. أريد أن يكون أفراد الفريق الذين سيمارسون أعمالهم حتى نهاية السنة في مواقعهم خلال الأسبوعين القادمين. يمكنك إبلاغ الصحافة أن هذا هو السبب الذي دفعك إلى ترك المنصب الآن. فكرت في أن يوم الغد هو الوقت المناسب لك كي تعلن عن استقالتك».

أترك منصبي خلال أسبوعين؟ أعلن عن ذلك غداً؟ ليس هذا ما كان يجول في خاطري.

كانت ردة فعلي العاطفية قوية ومباشرة. فكرت في نفسي: إنه مستعد للإلقاء بي إلى الذئاب. استعرضت المدة التي عملت فيها مع الرئيس، وكم كنت وفياً له، وكيف ألقيت بنفسي أمام الحافلة خلال مدة اللغط الدائر حول تسريب اسم فاليري بليم – وكيف ضحيت بمصداقيتي من أجل هذه الإدارة. والآن، فهو غير معني البتة في أن يترك للعاصفة الحالية أن تمر بسلام. أشكرك على كل شيء قمت به يا سكوت – ولا تنسى أن تنتبه كي لا يرتطم بك الباب وأنت في طريقك إلى الخارج.

مع ذلك، وفي الوقت نفسه، كان عقلي يتفهم جيداً ما كان يحصل. كنت أعلم أن هذا ليست له أي دوافع شخصية. كان جوش يفعل ما شعر أن عليه أن يفعله، وكان يود أن يتم ذلك بسرعة. غالباً ما كنت في موقف دفاعي منذ أن تم الكشف عن تورط روف في عملية التسريب في شهر تموز، يوليو من السنة الفائتة. ولا يمكن لأي سكرتير صحفي أن يبقى مدة أطول في منصبه في مثل هذه الظروف.

مــع ذلك، لم أكن أنوي الاستسلام بهذا الشكل. أخبرت جوش أنني بحاجة إلى بضعة أيــام كي أرتــب بعض الأمور. قلــت: «أرى أن الإعلان عن ذلك مع بدايــة الأسبوع القادم أفضــل مــن الإعلان عنــه الآن». أنهى جوش اللقاء بالقــول إن عليّ أن أتحــدث إلى دان، وترتيب موعد معه بشأن توقيت الإعلان عن الاستقالة.

كان التوقيــت لافتاً علــى جبهة العاملــين في البيت الأبيض. فقد طالــب بعض كبار القــادة العسكريــين السابقين باستقالــة الوزير رمسفيلــد، أو إقالتــه. سئلت عن هذا الموضــوع أثنــاء اللقاء الصحفي قبــل لقائي بجوش. دافعت عــن رمسفيلد بشدة قائلاً إن الرئيســ يــرى أنه «قام بعمل ممتاز في المرحلة التي واجهنــا فيها تحديات في تاريخ أمتنــا». وكان الجنرال بيت بيس رئيس هيئة الأركان المشتركة قد دافع بشدة أيضاً عن رمسفيلد في وقت سابق من ذلك اليوم.

صبــاح اليوم اللاحق وبعد انتهائــي من قراءة التغطية الإخبارية التي نشرتها صحيفة نيويــورك تايمــز، وصحف أخرى علــى صفحاتهــا الأولى، تحدث جوشــ إلى كل من دان وأنا. شعر أن هناك حاجة لتصعيد وتيرة الدفاع عن رمسفيلد عبر الاقتراح على الرئيس الإدلاء بتصريــح بهذا الشأن. شعرت بــأن نقل الفريق الصحفي إلى كامب ديفيد سيكون عمــلاً مرهقاً جــداً. اتفقنا على أن يقــوم الرئيس بدعوة وزير دفاعــه إلى اجتماع، يدلي بعدهــا بتصريح يكون بمنزلة دعم لــه. (في نهاية المطاف، ترك رمسفيلد العمل في إدارة بوشــ في شهــر تشرين الثاني، نوفمبر، سنة 2006 عشيــة الخسائر الكبيرة التي مني بها الحزب الجمهوري في الانتخابات النصفية. المرة الأولى التي سمعت فيها الرئيس يتحدث عــن احتمال تــرك رمسفيلد لمنصبه كانت ضمن حديث عابر سمعتــه بعد أيام قليلة على الإعلان عن استقالتي).

غادرت في وقت مبكر من صباح يوم الجمعة العظيمة من عطلة عيد الفصح – قضيت مع زوجتي جيل العطلة في منتجع في جنوب فرجينيا على امتداد خليج تشيسيبيك. تحدثنا مطولاً عن الموضوع، كما يفعل المتزوجون عادة. لم تكن جيل سعيدة بالأسلوب الذي اتبعه جوشــ وهو يدفع بــي إلى خارج الباب. تفهمــت مشاعرها، ولكن، وبما أننــي بدأت أنظر إلى المسألــة من زاوية أكثر عقلانية منذ أن انتهى النقاش الأولي بيني وبينه، فقد حاولت

إقناعهــا بتبني مواقف أكثر فلسفية. قلت، في النهاية كنــت أستعد لتقديم استقالتي على أي حــال، وبالرغــم من أنني كنت أود القيام بذلك علــى طريقتي، فإن عدة أشهر في هذا الاتجاه أو ذاك لن يكون لها تأثير كبير على المدى الطويل.

أعــادت جيــل الكرّة. لم تستطع أن تفهم كيف يمكــن للرئيس أن يترك لجوش معالجة المسألــة بهــذه الطريقة بعد كل ما قمت به من أجله. مــرة أخرى، تفهمت مشاعرها. فأنا وجيــل استمتعنا بعطلتيْ نهاية أسبوع قضيناهما برفقــة الرئيس والسيدة بوش في منتجع كامــب ديفيــد، ومجموعة أخرى مختــارة من الضيــوف. وقد شعرتْ هي كمــا شعرت أنا بمحبة كبيرة لكليهما. لقد كان من الصعب عليّ أن أشرح لها أن الأمر ليس شخصياً.

قلــت أخيراً: «أنــا متأكد من أن الرئيس وأنا سوف نتحدث عــن هذا الأمر في الأسبوع القــادم. دعينا نستمتع بعطلــة نهاية الأسبوع هذه، وأن لا نقلق بشــأن هذه المسألة». ولقد تمتعنا بالفعل بهذه العطلة بالرغم من أنني لا أستطيع الزعم بأن أفكاراً عن البيت الأبيض وعن التغيير في وضعي لم تزحف إلى رأسي مرة أو اثنتين.

تحدثــت إلى دان عــبر الهاتف في نهاية الأسبوع. كنت أرتب مع جيل متاعنا في غرفتنا المطلة على خليج تشيسيبيك. اتفقت مع دان على أن يكون يوم الثلاثاء أو الأربعاء القادم موعداً للإعلان عن استقالتي.

قال دان: «أشعر بالأسف لهذا المنحى الذي اتجهت إليه الأمور».

قلــت له مؤكداً: «لا بأس، أنا مستعد للتحرك إلى الأمام. لقد مررنا بتجارب مريعة في السنوات القليلة الماضية. وأظن أن التغيير سيكون مفيداً جداً بالنسبة لي. جيل منزعجة بعض الشيء بسبب هذا الأمر، وتعاني من مشكلة في تفهم ما يجري؛ لكنني بخير».

استدعاني الرئيس في الساعة التاسعة من صباح يوم الاثنين إلى المكتب البيضاوي.

بــدأ بالقول بينما كنت أهم بالجلوس على الكرســي القريب من مكتبه: «سمعت أنك تحدثــت إلى جوش الأسبوع الماضي. لقد أبلغتــه أنني أظن أنه ليس بالإمكان إيجاد بديل أفضل منك».

تابع بوش الحديث لدقيقة أو دقيقتين حول تقديره الكبير لما قمت به، وأنه سيفتقدني كثيراً. كان سحره يملأ المكان، ولكن كان من الصعب التنبؤ بصدقية مشاعره، وفيما إذا كان ذلك مجرد محاولة منه للتخفيف عني. ولكن في الوقت الذي كان يتكلم، حدث شيء لم أره في حياتي من قبل: كانت الدموع تنهمر على خديه.

وجدت نفسي في موقف غريب وأنا أواسي الرئيس: «لا بأس يا سيدي، أنا مستعد للرحيل. كانت المهمة طويلة».

بقيت في مكتبه لمدة قصيرة، تعانقنا بعدها بحرارة. وفي الوقت الذي كنا نهم بمغادرة المكتب معاً، التفت إلي بوش وقال: «سمعت أن جيل منزعجة جداً».

أجبت: «أجل يا سيدي، إنها كذلك. من الصعب عليها أن تتفهم ما حدث. ولن يكون من السهل عليّ أن أشرح لها الأسباب، بسبب أنه ليست لديها خلفية سياسية».

قال بوش: «إنها تحبك كثيراً، وقلقها الوحيد هو بشأنك. ما رأيك في أن أتصل بها؟"

توقفت للحظة ثم قلت: «أعتقد أنها ستقدر لك ذلك جداً؛ ويمكن أن يساعد اتصالك في التخفيف عنها. إنها تحبك وتحب السيدة بوش كثيراً».

قال: «سوف أتصل بها».

تحدثت إلى جيل في وقت لاحق عصر ذلك اليوم. سألته: «هل تحدث الرئيس إليك؟"

قالت: «نعم تحدث إليّ هو وجوش، كل على انفراد».

سألتها: «كيف جرت الأمور؟»

ردت: «لم يكن على الرئيس أن يتصل. لقد كان لطيفاً جداً وحاول مساعدتي على تفهم ما جرى. وجوش بدوره كان لطيفاً».

كان باستطاعتي التخمين أن جيل تأثرت كثيراً من اللفتة التي قام بها الرئيس والتي تمثلت باقتطاعه جزءاً من وقته كي يتحدث إليها. لم يكن لديها الكثير مما تقوله بشأن

هاتـين المكالمتين. وكانت ما تزال منفعلة بسبب ما قد يحدث لي؛ ولذلك فإن جوش بولتين لم يكن على قائمة أفضل الأشخاص بالنسبة لها في ذلك الوقت.

في يـوم الأربعاء ذاك، وقبل أن يتوجه إلى مدينة توسكيغي في ولاية ألاباما، مشيت مع الرئيـس باتجاه طائرة الهيلوكبتر الرئاسية. ولكن كان علينا التوقف في أحد الأماكن أولاً - وكان ذلـك المـكان يقع جنوب المنطقـة العشبية خارج المكتب البيضـاوي حيث تم إبلاغ الصحفيين بالتجمع هناك بانتظار تصريح صحفي. كان ذلك في المكان نفسه الذي أدلى فيـه الرئيـس بتصريح منذ ثلاث سنـوات تقريباً مفاده أنني سأحل محـل آري فليشر في منصب السكرتير الصحفي. وبينما كنا نسير من المكتب باتجاه الميكروفون الذي ينتظرنا، قال لي الرئيس إنه سيبذل جهداً كي لا يختنق صوته.

تبـين لرجال الصحافة مباشرة، حالما رأونا نمشـي باتجاههم أنني الجثة التي تمشي على قدمين. تحدثت أنا أولاً:

صبـاح الخير للجميع. أنا موجـود هنا الآن لأعلن أننـي سأستقيل من منصب السكرتـير الصحفي للبيت الأبيض. سيدي الرئيس [كان علي هنا أن أنظف حلقي بسرعة شديدة لأننـي شعرت بشيء من الاختناق في صوتي]، كان شرفاً استثنائياً وامتيـازاً بالنسبة لي أن أقوم بالعمل لديك لأكثر مـن سبع سنين حتى الآن، كانت السنتـان والأشهـر التسعة الأخيرة منهـا بصفة السكرتـير الصحفي. يمر البيت الأبيض الآن بمرحلة انتقالية، ولذلك يمكن أن يكون التغيير مفيداً، والوقت مناسب الآن للبدء في إجراء التغيير بدءاً من هذا المنصب. أنا مستعد للتحرك إلى الأمام، فقـد بقيت في هـذا الموقع مدة طويلـة؛ ويغمرني الحماس أنـا وزوجتي ونحن على وشك البدء في فصل جديد من حياتنا معاً. لقد حققتَ الكثير على مدى السنوات الأخـيرة مع هذا الفريق، ويغمرني الإحساس بالشرف والامتنان لأنني كنت أشكل جزءاً صغيراً من هذا الفريق الرائع والموهوب الذي يضم أشخاصاً أفاضل. بدأت علاقتنـا هنـاك في تكساس، وأتطلـع إلى أن تستمـر في المستقبـل. [عندها، قال الرئيس: «أوافقك على هذا»، وأثار هذا ضحك الآخرين] بالرغم من أنني آمل أن

أصـل إلى هنـاك قبل أن تصل أنت إليها [وأثار هـذا التعليق الضحك من جديد]. قدمت طيلة هذه المدة أفضل ما أستطيع، يا سيدي؛ وقدمت لك الولاء كله. وسوف أستمـر في تقديم ما أستطيعـه إلى أن يستلم خلفي هذا المنصب خلال الأسبوعين أو الثلاثة القادمة. شكراً لكم على منحي هذه الفرصة.

بعدها، جاء دور الرئيس:

في البدايـة أود أن أوجـه الشكـر لسكـوت علـى الخدمات التي قدمهـا لبلاده. لسـت أدري إن كان الطاقـم الصحفي يدرك ذلك أم لا؛ ولكن مهمته كانت مملوءة بالتحديـات بدءاً مـن التعامل معكم جميعاً بشكل منتظـم. وأعتقد أنه تولى المهمة الموكلـة إليه بشـكل راقٍ وبأمانة. إنه بحق يمثل ما هـو أفضل في عائلته، وفي الولاية التـي قدمنا منها، وفي بلادنا. سيكـون من الصعب إيجاد بديل لسكوت. ومع ذلك، إنـه هـو من اتخذ القـرار، وأنا قبلته. في يـوم من الأيام القادمـة، سوف نسترخي هـو وأنا على كرسيين هزازيـن في تكساس، ونتذكر الأيام الخـوالي الحلوة، والمدة التي قضاها في منصب السكرتير الصحفي. وبودي أن أؤكد لكم أن شعوري حينها سيكون شعوري نفسه اليوم، وهو أنني سأقول له: لقد قمت بمهمة رائعة يا سكوت.

مرّ التصريحان على خير. ولكن عندما تحث الرئيس عن جلوسنا في كرسيين هزازين، حدقـت فيه وفكرت في نفسي، لست ذلك الرجل العجوز، يا سيدي! أذكر أنني كنت أنظر في وجوه بعض الصحفيين، الذين تعرفت إليهم جيداً خلال سني عملي في البيت الأبيض. كانوا يقومون بما هو مناط بهم، إنها قصة أخرى يقومون بتغطيتها في تلك السلسلة التي لا تنتهـي من أخبار البيت الأبيض. ولكنني رأيت أيضـاً بعض تعبيرات التعاطف في وجوه بعضهـم الآخر. فقد نشـأت بيننا علاقة طيبة بالرغم من كل المماحكات والمناوشات التي جرت في مدة اللغط التي سادت حينها. ولكنهم كانوا جميعاً بشراً أيضاً، وكان من الجميل أن ترى هذه المسحة الإنسانية والشعور بالزمالة ترتسم على وجوههم.



وإذاً، فهـذا ما تعنيه عبارة نهاية الطريق. لحظات الوداع، وحفلات الوداع، والرسائل اللطيفة والكلمات الطيبة التي وردت واختفت. فمنذ ثلاثة أسابيع أعلنت تقديم استقالتي. والآن، أنـا بمفـردي أحمل آخر علبة فيها مقتنياتي الشخصيـة، وأنزل على الدرج المؤدي إلى الطابـق الأرضي باتجاه حي ويسـت إيكسيكيوتيف أفنيو، الذي كنـت سأقود سيارتي عبره للمرة الأخيرة عصر ذلك اليوم الربيعي اللطيف.

لم يكـن يتواجد هناك حينها سوى شخص واحـد – وودي، وهو الضابط المتقاعد من فرقة الخدمة السرية ، بهيئته المهنية الصارمة وهو يرتدي بزته العسكرية البيضاء جالساً في موقعه يحرس المنطقة التي تقع ضمن مدخل الموظفين في الجناح الغربي، حيث يصور وزراء الحكومـة غالباً في تلك المنطقة من قبل مراسلـي وكالات الأنباء وهم يترجلون من سياراتهـم في طريقهم لحضور أحد الاجتماعـات. كان وودي أكثر أهمية بالنسبة لي من بعض الأشخاص الذيـن يتولون حماية الرئيس، ومن بعضنا، نحـن أفراد الفريق العامل معه. وكان قد نشأ بيني وبينه نوع من الصداقة.

بينما كان يلتفت، تنبه أنني أسير باتجاهه، همَّ وودي بالوقوف من وراء مكتبه المقوس.

أمـا وقد انتهـت التزاماتي الوظيفيـة الآن، فقد شعرت في تلك اللحظـة أن مشاعري طغـت علـيّ لأول مرة في ذلك اليوم. لقد كانت تجربتي أشبـه بركوب مزلاج أودى بي إلى الكثـير من الدوران والمنعطفات في كل الاتجاهات؛ وهي تجربة لم يكن أحد منا يتصورها في العشريـن من كانون الثاني، يناير، سنة 2001. كنا قد عدنا لتوّنا من آخر رحلة لي مع الرئيس في ذلك اليوم – وكانت ليلة قضيناها في فلوريدا.

قلـت لوودي وأنا أصافحه، وأنظر في عينيه: «الوداع يا وودي. شكراً لك على كل شيء، كان شرفاً لي أن أتعامل معك».

قـال وودي: «إن من دواعي سروري معـرفتك. أنت رجل طيب يا سكوت. أتمنى لك حظاً سعيداً».

أجبت: «شكراً يا وودي، انتبه لنفسك».

قال: «انتبه لنفسك أيضاً يا سكوت».

كنــت أتمنــى أن تطول هذا الحــوار وقتاً أطول، لكــن صوتي بدأ يتهــدج، وشعرت بأن عيناي بدأتا تغرورقان بالدموع. ولذلك فقد أشحت بوجهي واتجهت خارج الباب. لم أشأ أن أظهر مشاعري أمام وودي، ذلك الرجل الطيب الذي يمثل العديد من الرجال والنساء الذيــن يُبقون على حيوية البيت الأبيضــ، ويحفظون أمنه. نحن، أعضاء طاقم الموظفين، نأتي ثم نذهب، لكنهم هم من يبقى؛ وببقائهم تبقى روح الاستمرارية والألفة التي تذكرنا أن البيت الأبيض ليس ملكاً لأي رئيس أو حزب، بل هو بيت الأمة.

وفيمــا كنــت أصعد إلى سيارتي، أخــذت نفساً عميقاً. وبعد أن قمــت بتثبيت نظاراتي الشمسيــة في مكانهــا، وسيطرت على دموعي، قدت سيارتي عــبر حواجز التفتيش ملوحاً بيدي للمرة الأخيرة لزملاء وودي في الفرقة العسكرية. لا أعرف بالضبط فيما إذا كانت تلــك طبيعتهم، أو أن الحلــوى التي كانت جيل تعدها لهم هــي السبب في تعاملهم الطيب معــي. لكن رجال الأمن هــؤلاء، كانوا دائماً ودودين ومهنيــين ولطيفين جداً تجاهي. كان قــد مضــى ما يقرب من خمس سنوات على المرة الأولى التي قدت فيها سيارتي إلى البيت الأبيضــ مروراً بتلك الوجوه الباسمة والمتحفــزة في آن. كان قد مضى ما يقرب من ثلاث سنــين على تلك اللحظة التي انحنــى فيها رجل الأمن الواقف على حاجز التفتيش في حي ويســت إيكسيكيوتيــف أفنيو باتجاهي وقال: «لقد أصبحــتَ بمنزلة الرحم في هذا المكان، أنت تعرف ذلك».

هــذه العبارة كانــت كلمة السر التــي يستخدمها رجال الأمن الســري لوصف منصب السكرتير الصحفي. أجبت حينها، والابتسامة تطفو فوق وجهي: «أعرف ذلك». الآن، وفي هذه اللحظة، كنت أنا رحماً للمرة الأخيرة.

كانــت تلــك اللحظة مليئــة بالمشاعــر بالنسبة لي، كــوني استثمرت جل وقتــي في البيت الأبيضــ. ولكــن تلك اللحظة أحاطتنــي أيضاً بهالة من الهدوء ما فــوق الواقعي. كنت واعياً تماماً لكل ما يحيط بي، وأنا أنظر من حولي للمرة الأخيرة، وأقود السيارة ببطء عبر محيط البيــت الأبيض. وبينمــا كنت أجتاز حاجز التفتيش الأول، لــوح لي رجل الأمن مودعاً. وعند الحاجــز الثــاني، شاهدت رجل الأمن وهو يلوح لي بيده محييــاً كما لو أنه كان يريد أن يقول «انتبه لنفسك»، تماماً كما كنت ألوح له بيدي.

وصلت إلى آخر حاجز للتفتيش؛ وهناك لوحت بيدي مودعاً رجل الأمن الذي يربض إلى جانبه الكلب المدرب على اكتشاف المتفجرات، وهو الشخص المولج بالإشراف على موقع الحراسة الأخير قبل الانعطاف للمرة الأخيرة باتجاه المخرج الذي يفضي إلى خارج منطقة البيت الأبيض. اتجهت نحو المنزل لأكون مع زوجتي جيل، كي نبدأ بالتخطيط سوياً لمستقبلنا.

ولكن بعد مرور خمس سنوات من العمل داخل معمعة رئاسةٍ كانت تفيض يوماً بالآمال، والآن، ولشديد الأسف، انحرفت عن مسارها بشكل مريع، لم يكن باستطاعتي رؤية الأشياء بوضوح كامل. كنت ما زلت أتساءل: ماذا حدث.

❋ ❋ ❋

بعد مرور أقل من سنة، أي في أوائل سنة 2007، كنت أتابع محاكمة سكوتر ليبي في واشنطن، وكان فضولي يدفعني نحو معرفة المزيد الذي يمكن أن يوصلني إلى الحقيقة. وفي الوقت الذي أقر أننا قد لا نعرف كل الحقائق المتعلقة بحكاية تسريب اسم وهوية فاليري بليم، فإن الكثير من تلك الحقائق قد تم كشفها بعد انتهاء محاكمته.

لم يكن بمقدور أحدٍ أن يعرف حقيقة حكاية فاليري بليم أكثر من المستشار الخاص باتريك فيتزجيرالد وفريقه. فقد كانت لديهم الصلاحية للإطلاع على كل الوثائق والتسجيلات المتوافرة. وقاموا باستجواب العديد من الناس. استجوبوا العديد من الناس تحت القسم أمام هيئة المحلفين الكبرى؛ ووضعوا أيديهم على أجزاء اللغز كله الذي يمكن أن يتم الكشف عنه. بعضها ما يزال غير معروف، أو مغلق عليه بقوة القانون، ومن غير الممكن أن يتم الكشف عنه. بعض هذه الأجزاء قد لا يكشف عنه أبداً من قبل أفراد مثل تشيني، أو ليبي، أو روف لأنه لا يوجد ما يدفعهم إلى القيام بذلك.

لكن فيتزجيرالد هو مدعٍ مستقيم، ويتمتع بقدر كبير من الاحترام؛ وقد عرض الحقائق في محاكمة ليبي بطريقة مباشرة، وكانت القضية التي عرضها مؤثرة، ومقنعة بالنسبة للمحلفين والمراقبين الخارجيين. نتيجة لذلك، أدين ليبي بارتكاب أربع جنايات

تتعلق بالكذب وعرقلة سير العدالة. أمر القاضي بتغريم ليبي 250000 دولار، وحكم عليه بالسجن مدة ثلاثين شهراً في أحد السجون الفيدرالية.

لسوء الحظ، لم يكن بمقدور هذه المحاكمة الإجابة على جميع الأسئلة التي كان يتداولها الأمريكيون. وسأقوم على امتداد الصفحات الآتية بعرض استنتاجاتي غير النهائية التي أرجو أن تكون ذات فائدة.

هل أراد البيت الأبيض أن يرفع الغطاء عن وضع فاليري بليم انتقاماً من زوجها، جو ويلسون وذلك بسبب اتهامه للإدارة بسوء استخدام أجهزة المخابرات؟ لا أعتقد أن ذلك يعود إلى رغبة الإدارة في الانتقام منه؛ بل أميل إلى الاعتقاد أن بليم أصبحت ببساطة منصة انطلاق لحملة أوسع يقودها نائب الرئيس تشيني للنيل علناً من مصداقية ويلسون، ومن ثم، وضع حد لأي تأثير ممكن للانتقادات التي وجهها للإدارة. فالرئيس كان على علم بهذه الحملة الأوسع بشكل عام، وقام بتفويض تشيني باستخدام أجزاء من تقويم الاستخبارات الوطنية لدعم هذه الحملة. وعندما حاول نائب الرئيس معرفة الكيفية التي تم عبرها اختيار ويلسون من قبل وكالة المخابرات المركزية للسفر إلى النيجر، حينها أصبحت هوية زوجته ودورها في الوكالة في متناول اليد.

وكما أظهرت الوثائق التي كشف عنها فيتزجيرالد والمكتوبة بخط يد نائب الرئيس، فقد تساءل تشيني فيما إذا كانت الرحلة قد ساعدت في الترتيب لها زوجته بقصد الاستجمام على نفقة الدولة، ومبنية على ذريعة محاباة الأقارب. وفي الوقت الذي بدأ تشيني وسكوتر ليبي، رئيس أركانه، بالتنقيب عن جذور هذه القصة، بدأ تداول اسم بليم بين مسؤولي الإدارة في وكالة المخابرات المركزية، ووزارة الخارجية، ومكتب نائب الرئيس.

دافع بعضهم عن ليبي وروف قائلين بأنها ليسا من قام بتسريب اسم بليم وهويتها إلى نوفاك. في الحقيقة، أول من فعل ذلك كان نائب وزير الخارجية ريتشارد أرميتاج. ولكن قبل أن يقوم نوفاك بالكشف عن هوية بليم إلى الجمهور، كان روف وليبي قد أبلغا صحفيين آخرين عن هويتها - وأصبح روف المصدر المؤكد الثاني لنوفاك الذي استند إليه في مقالته.

تحول ليبي إلى لاعب أساسي في لعبة النيل من مصداقية ويلسون بينما أصبحت هوية بليم، كما أوضح فيتزجيرالد في مرافعته الختامية، مجرد سلاح آخر جاهز للاستخدام في معارك واشنطن السياسية. بالنسبة لليبي، كما قال فيتزجيرالد، فإن بليم «لم يكن اسمها فاليري ويلسون، ولم تكن حتى مجرد شخص؛ بل كانت مجرد حجة، أو حقيقة جاهزة للاستعمال ضد جو ويلسون». أظن أن فيتزجيرالد كان محقاً في ذلك.

هل قام نائب الرئيس تحديداً بتوجيه رئيس أركانه ليبي للكشف عن اسم بليم وهويتها؟ لا أعرف. زعم محامو ليبي أن فيتزجيرالد كان يسعى إلى تحريك غمامة من الشك باتجاه موقع نائب الرئيس أثناء مدة المحاكمة من دون تقديم أي بديل. لكن المستشار الخاص رفض هذا الزعم بشدة. أوضح فيتزجيرالد في هذا الصدد «أننا لم نضع تلك الغمامة هناك. لقد استقرت تلك الغمامة فوق مكتب نائب الرئيس لأن المتهم عرقل سير العدالة وكذب بشأن ما حدث».

هل كان بوش يعلم شيئاً عن كشف هوية بليم؟ لا أستطيع التكهن بأنه كان يعلم شيئاً عن هذا الموضوع، وذلك استناداً إلى أحاديثي معه في تلك الفترة. كانت عباراته في واقع الأمر تدل على أن روف قام بتضليله أيضاً. أوضح فيتزجيرالد أيضاً، وهذا مثبت في ملفات المحكمة، أن «الرئيس لم يكن يعلم شيئاً» عن الدور الذي قام به ليبي «في الكشف عن وظيفة السيدة ويلسون في وكالة المخابرات المركزية». هل كان تفويضه السري لتشيني لاقتباس أجزاء من تقويم المخابرات الوطنية هو ما حرّكَ مسألة الكشف عن هوية بليم؟ ربما. لقد حرّض ذلك بالتأكيد الجهود المجهولة المصدر للقيام بهجوم مضاد على اتهامات ويلسون. للأسف، هذه هي الطريقة التي تدار فيها اللعبة في واشنطن.

هل تم ارتكاب جريمة ضمنية من قبل أي مسؤول في الإدارة عبر الكشف عن هوية بليم؟ لا أعرف. فقد كان ريتشارد أرميتاج المصدر الأول لروبرت نوفاك فيما يتعلق بهوية بليم، وكان المدعون العامّون ميالين إلى الاعتقاد أن هذا التسريب كان غير مقصود من أرميتاج. لكن من الزيف التأكيد أنه كان الوحيد الذي أفشى بالمعلومات حول هوية بليم. نعرف الآن أن ليبي، وروف، وآري فليشر كشفوا عن هويتها أيضاً أمام صحفيين قبل أن

ينقل نوفاك الخبر. ويبدو أن فليشر أفشى بهذه المعلومات من دون أن يعلم أنها ذات طابع سري، بينما استمر روف في القول إنه لم يقم بتسريب اسمها، وأنه كشف عن هويتها أمام كوبر فقط كي يمنعه من نقل أخبار غير صحيحة.

هـل قام هؤلاء بارتكاب جريمة بواسطة إفشاء هويـة بليم؟ لا أستطيع الجزم بذلك. ويعـود ذلك جزئياً إلى أن هذا هو موضوع تقني وقانوني لست مؤهلاً لإعطاء رأي فيه. لم يتهـم أي من هؤلاء الأشخاص بارتـكاب جريمة بسبب إفشاء هويتها؛ لكنني أعرف أن ما فعلـوه كان خطأ وضاراً بالأمـن القومي، بغض النظر عما إذا كان الكشف عنها يضر بأي مصـادر أو أساليب. كانت بليم ضابطاً سرياً تعمل مـع وكالة المخابرات المركزية حينها، وكان عليهم أن لا يتحدثوا إلى الصحفيين حول هذا الموضوع سواء أكان ذلك جرماً يعاقب عليه القانون أم لا.

فقد حاول مكتب نائب الرئيس تقصي الأسباب التي دعت إلى إيفاد ويلسون إلى النيجر. وعندما تم ذكر اسم زوجته، بدأ هذا الخبر ينتشر في أروقة وزارة الخارجية والبيت الأبيض مسبباً في خلق بيئة من المبررات لتداول هويتها. وكما ظهر في ملفات المحكمة فيما بعد، فقد حـاول ليبي الاستعانـة بمساعدة آري فليشر كي يتم نشرها بين الصحفيين. وبعد أن اتصل نوفـاك بروف، ذهب هذا الأخـير إلى ليبي ليعلمه أن نوفاك سينشر مقالاً حول دورها. كما كشف روف عن هويتها لمات كوبر، الصحفي في مجلة تايم.

أمـا بالنسبـة لما قالـه لي كل مـن روف وليبي عندما قمـت بتبرئتهما علنـاً في اللقاء الصحفـي، فإن بإمكاني الاستنتاج أن الاثنين ضللاني عمـداً. أعدتُ طرح هذه الحقائق في هـذا الكتـاب. ولكن ضعوا جانباً ما كتبته، وتأملوا حقيقـة أخرى مهمة. فكل المراقبين المحايدين، واستناداً إلى الحقائق التي أصبحت معلنة، يجمعون على أن ما قلته لصالحهما في حينه كان كاذباً؛ فقد كانا في حقيقة الأمر متورطيْن في الكشف عن هويتها - أو تسريب هويتهـا - من دون أن يفصحا عـن اسميْهما لبعض الصحفيين. كمـا أنني أعلنت حينها على الملأ أن تعليقاتي تلك كانت مبنية على تأكيدات شخصية من قبل كل من روف وليبي. قلـت حينهـا: «إنهما أكدا لي أنهمـا غير متورطيْن» في قضية تسريـب معلومات سرية. ما كنت أبداً أن أدلي بتصريح كهذا لو كنت أعلم الحقائق التي ذكرتها آنفاً.

لم يقـم أي منهما بتصحيح مسـار الوقائع عندما كان بإمكانهما القيام بذلك. بدلاً من ذلـك، تـركا كلماتي تقف في العراء لمدة سنتين. كان روف ظريفاً جداً عندما صرح لمحطتيّ CNN و ABC الإخباريتـينّ قائلاً: «لم أكـن أعرف اسمها، ولم أقم بتسريب اسمها» وذلك سنـة 2004. لم يكـن عليه معرفة اسـم بليم كي يقوم بتسريب هويتهـا كما فعل مع مراسل مجلـة تايم في البيت الأبيض مات كوبر، وكما أكد لبـوب نوفاك. وهكذا فقد تركني كل من روف وليبي بشكل متعمد أن أقول للجمهور أكاذيب تصب في صالحهما - وهو سوء استخدام واضح لدور السكرتير الصحفي للبيت الأبيض. لكنني أحمل نفسي مسؤولية السماح لشيء مثل هذا أن يحدث. كان يجب عليّ أن لا أسمح بان أوضع في هذا الموقف - انتهى.

من الواضح بالنسبة لي أن سكوتر ليبي مذنب أيضاً بجريمتيّ الحنث باليمين وعرقلة سير العدالة؛ وهما الجريمتان اللتان حكم عليه بموجبهما.

عندمـا ألغى الرئيس بوش الحكم القاضي بسجن ليبي، ومن ثـم حماه من قضاء لو ليلـة واحدة خلف القضبان، شعرت بكثير من خيبـة الأمل. فهذا الشكل من التعامل يقلل مـن قيمة نظامنا القضائي. هذا لا يعني أننـي كنت أتمنى رؤية شخص عملت إلى جانبه يومـاً ما، وهو يمضـي مدة عقوبته في السجـن. فالسجن ليس مزحـة، ولا أرغب في رؤية أحـد أعرفه، أو أهتم له يدخـل السجن. وبكل تأكيد، لا يدخل هـذا ضمن بوتقة المشاعر الشخصية السلبية بالنسبة إليّ. الحياة أقصر من أن يسفح المرء وقته أو طاقته من أجل مشاعـر الانتقام. لكنني أؤمن بحكم القانون، وأظن كذلك أن الرئيس، أياً كان، والطاقم الـذي يعمل معه أمامهم التزام خاص يقضي بـأن يكونوا جميعاً تحت مظلة القانون نصاً وروحـاً. للرئيس بوش بالتأكيـد، الحق والسلطة اللذان يخولانه إلغـاء العقوبة على ليبي. ولكـن لجـوءه إلى هذا الخيار، أوصـل رسالة سلبية جـداً لأمريكة والعـالم - مفادها أن السلـوك الإجرامـي في الولايات المتحدة لا يعاقب عليـه إذا كان يصب في مصلحة قضية سياسية، هذا إذا كان الذين يدعمون هذه القضية السياسية لديهم السلطة للقيام بذلك؛ خصوصاً وأن أولئك الذين هم في السلطة يملكون مفتاحاً لنظام عدالة مختلف.

كما شرحت سابقاً في هذا الكتاب، أظن أن من المؤسف أن العقلية الحزبية المتمثلة في إستراتيجية الحملة الدائمة التي تتبنى مقولة «الرابح يأخذ كل شيء» قد فرضت الكثير من التأثير على الطريقة التي تحكم فيها بلادنا. فالتدخل من أجل إيقاف حكم قضائي نزيه وعادل أخلاقياً بسبب أن المتهم على صلة بأشخاص من ذوي النفوذ السياسي يعد واحداً من أعراض هذا التوجه المستهجن.

وماذا عن الكلمات الست عشرة التي أثارت كل هذا اللغط؟ هل كانت إدارة بوش مذنبة بتهمة التعمد في تضليل الشعب الأمريكي بست عشرة كلمة؟ لا أظن ذلك. أظن أن الباحثين في مركز أنينبيرغ لتقصي الحقائق السياسية الذي يصف ذاته بالمدافع غير حزبي عن الناخبين، والهادف إلى التخفيف من حدة الخداع والاضطراب في الرؤية في السياسة الأمريكية كشفوا عن مكمن الداء في موقعهم الإلكتروني الموسوم factcheck.org:

لا شيء في المعلومات الجديدة يشير إلى أن العراق ضُبِطَ يوماً وهو يحاول شراء اليورانيوم، ويؤكد تقرير مجلس الشيوخ أن محللي المخابرات الأمريكية توصلوا إلى استنتاج مفاده أنهم يشككون في أن يكون العراق قد قام بمجرد محاولة لشراء هذه البضاعة. في حقيقة الأمر، اعترف كل من البيت الأبيض ووكالة المخابرات المركزية أن الكلمات الست عشرة كان يجب أن لا تكون ضمن الخطاب الذي ألقاه بوش.

لكن ما قاله – من أن العراق سعى للحصول على اليورانيوم – كان بالضبط ما أبلغته به أجهزة الاستخبارات في كل من بريطانيا وأمريكة. إذا يمكن القول إن بوش قد تعرض لشكل من أشكال الخداع، ولكن ذلك لا يعد شكلاً من أشكال الكذب.

عدت «الكلمات الست عشرة» التي تضمنها خطاب بوش حول حال الاتحاد في الثامن والعشرين من شهر كانون الثاني، يناير، سنة 2003 بمنزلة دليل على أن الرئيس قاد الولايات المتحدة إلى حرب وهو يعرف أنه يستخدم معلومات كاذبة. تظهر التقارير الجديدة أن بوش يؤكد بما لا يرقى إليه الشك، ما قالته المخابرات البريطانية، وأن المخابرات الأمريكية لديها الاعتقاد نفسه.

هذا لا يعني أن إدارة بوش بريئة في الطريقة التي تعاملت مع التقارير الاستخباراتية في الفترة التي سبقت إعلان الحرب. وكما أوضحت في هذا الكتاب، قادت عقلية الحملة أحياناً الرئيس بوش وكبار مستشاريه إلى اللجوء للف والدوران، والاختباء، واللجوء إلى الظل، والمبالغة في الحقائق، والتعمية على البديهيات، وتجاهل التحذيرات التي كان من الضروري أن ترافق حججهم التي كانوا يسوقونها. وبدلاً من أن يلجؤوا إلى خيار الصراحة والصدق، فقد اختاروا تسويق الحرب؛ وهم بذلك، أساؤوا إلى الشعب الأمريكي، وإلى ديمقراطيتنا. إلا أن ذلك لا يعد على الدرجة نفسها من القول إنهم ضللوا الشعب الأمريكي وكذبوا عليه بشكل مقصود - وهي كلمات ذات شحن عاطفي تنحو باتجاه طمس بعض الحقائق والدروس المهمة في خضم ضباب القنص السياسي المهيمن على جو الاتهامات التي لا يمكن إثباتها. من وجهة نظري، فإن الدليل يصب في صالح أحد الاتهامين، وليس الآخر. لكن ممارسة تكتيكات الحملة الدائمة التي تصب الزيت على نار ثقافة الخداع في واشنطن تشكل مشكلة بحد ذاتها.

لا أعتقد أن الطريق إلى ديمقراطية أفضل تمر طريق المزاعم المبالغ فيها، أو الهجومات الحزبية المضللة، أو الاتهامات التي لا أساس لها، والمبنية على سوء النية. لا يمكن رؤية أيٍّ من الحزبين الرئيسيين في بلادنا خزاناً للشر، لأن الغالبية الساحقة من زعمائنا في طرفي الكونغرس، وعلى كل مستويات العمل الحكومي هي مجموعة من المواطنين الشرفاء، وذوي النيات الحسنة، والجادين الذين يحبون بلادهم، ويرغبون بالقيام بالشيء الصحيح. في معرض تشخيصنا للمشكلات التي نعاني منها، والتغييرات كافة التي يجب أن نجريها، أعتقد أن من المهم جداً الالتزام بالحقيقة، حتى عندما تكون أقل وضوحاً، أو أكثر تعقيداً وضبابية مما يرغب المتطرفون الحزبيون من الجانبين أن يختاروا تصديقه.





17

تغيير ثقافة الخداع

عندمــا وصل جورج بوش إلى البيــت الأبيض، ظننت أن وجوده فيه كان بمنزلة فرصة حقيقيــة للتحرك بعيداً عن العقليــة الحزبية المفرطة، والتسييس المبالغ فيه، والذي يطبع الحياة في واشنطن. لكن ذلك لم يتحقق. كانت مقاربة الحملة الدائمة التي قمنا بإدانتها علناً، ونأينا بأنفسنا عنها في الحملة الانتخابية سنة 2000 هي ما تبنيناه مباشرة بعد يوم الانتخاب. تماهت آلة الحملة الدعائية الهائلة لبوش بالكامل مع طريقته في الحكم عندما انتقــل إلى البيــت الأبيض من دون وجود أي مراقبــة كافية أو تفتيش قديــر أو حسابات. في المحصلــة، عملــت تلك الآلــة ليس فقط علــى الالتفاف على وسائــل الإعلام، وهزيمة خصومنا، بل جعلتنا نلتف على أنفسنا ونهزم ذاتنا.

يقــال إن التقليــد هو أكثر أنواع المجامــلات إخلاصاً. إذا كان ذلك كذلــك، فإن أعضاء فريق إدارة كلينتون سيشعرون بالكثير من الإطراء عندما يلقون نظرة على إدارة بوش. بنينا بطرقنا الخاصة، على شاكلة النمط الفني نفسه الذي أسست له إدارة البيت الأبيض في عهد كلينتــون، ورفعنا وتيرتــه إلى مستوى أعلى. وكان هذا مفيداً من زوايــا عديدة لبوش، تماماً كان مفيــداً لكلينتــون. كان بمقدور بوشــ تمرير المشروع التاريخي المتمثــل في قانون إصلاح التعليــم، وخفض الضرائب، واتخاذ إجراءات جديدة مهمة لتمتين الأمن الداخلي (بالرغم مــن أن بعضهــا كان مثيراً للجــدل)، وتغطية نفقــات الوصفات الطبيــة للمسنين المشمولين بنظــام الرعاية الصحية، وتوسيع التجارة، والقيام بجهود غير مسبوقة لمحاربة الأوبئة التي تفتك بإفريقيا - بالإضافة إلى نجاحات لافتة في الحرب على الإرهاب في الخارج.

ربما تتفقــون مع بعض هذه السياسات، وتعارضون بعضها الآخر؛ ولكن لا يمكن إنكار أن رئاســة بوشــ كانت متساوقة إلى درجــة كبيرة. كما أن تأثيرها علــى مسار التاريخ ما يزال في طور التكشف، وسوف يستمر في ذلك إلى أمد طويل. بهذا المعنى، يمكن عد بوش

رئيساً حقق تأثيراً سياسياً عظيماً إن شئنا سلباً، أو شئنا إيجاباً. إنه مجرد مثال آخر على السلطة القصيرة المدى التي تتصف بها الحملة الدائمة.

ولكن إذا تبين للرئيس بوش وأعضاء فريقه وجود العديد من المطبات في مقاربة الحملة الدائمة لمفهوم ممارسة الحكم، واستوعبوها، فإن هذا سيصب في صالح الإدارة والأمة. كان لاعتمادنا المفرط على فلسفة الحملة الدائمة أكبر الأثر على رئاسة جورج بوش عندما كان الأمر يتعلق بالعراق. لم يكن لأي قرار بمفرده أن يحرف عربة البيت الأبيض عن مسارها؛ إلا أن الطريقة التي تم فيها تنفيذ قرار المضي في طريق الحرب - بدءاً من عرض القضية على الجمهور وانتهاء بالتحضير لمرحلة ما بعد الحرب، ونحن في طريقنا إليها - أدت إلى حرف مسارنا بشكل سيء جداً.

كانت فكرة تمرير الحرب من طريق حملة التسويق السياسي لها بدلاً من المناقشة الصريحة والعلنية للحاجة إليها مع الشعب الأمريكي محفوفة بالمخاطر. إننا نرى اليوم نتائجها المدمرة وهي تفرض نفسها. فواشنطن اليوم في حال من الاستقطاب الشديد، ويبدو أن كلاً من البيت الأبيض والكونغرس عاجزان عن اتخاذ موقف موحد يخدم مصلحة أمتنا وقواتنا المسلحة عبر الإجماع على فكرة المضي قدماً معاً من أجل وضع نهاية مقبولة وناجحة للحرب في العراق. فقد شاهد الرئيس مصداقيته التي بدا يوماً وكأنه لا يمكن المساس بها: — أمانته، والإحساس بالثقة الذي يمنحه للآخرين - تتهاوى تاركة تساؤلات حول خداع متعمد تسري في أوساط الجمهور.

ما زلت أكن الود والإعجاب لشخص جورج بوش. أراه شخصاً محترماً بالأساس، وأعتقد أنه لا هو، ولا البيت الأبيض في عهده قد سعيا بشكل متعمد أو شعوريٌ لخداع الشعب الأمريكي. لكنه مع مستشاريه خلطوا بين الحملة الدعائية وبين المستوى العالي من الصدق والصراحة، لأنهما الدعامة الأساسية لبناء الدعم الشعبي، ثم المحافظة عليه في زمن الحرب. لو تم الالتزام بمبدأ الانفتاح والصراحة في مستهل إدارته، لكان مستوى التأييد الشعبي للرئيس بوش أقوى في هذه الأيام. بقي مستوى التأييد الشعبي منخفضاً بشكل ملحوظ ولم يسبق له مثيل طيلة هذه المدة لأن هاتيْن السمتيْن ما تزالا

غائبتين حتى يومنا هذا. بهذا المعنى يمكن القول إن كبار مستشاريه أساؤوا إليه خصوصاً أولئك الذين يعملون بشكل مباشر في مجال الأمن القومي.

كل ما يمكن للرئيس أن يقوم به اليوم ينحصر في الأمل في أن تكون رؤيته بشأن العراق صحيحة، واضعاً بذلك الشرق الأوسط على مسار جديد يعلل قراره بالذهاب إلى الحرب. إنني أرحب بتطور كهذا لأن فيه مصلحة لأمريكة، وللعراق، وللعالم. يعرف بوش كيف تكافئ الأجيال القادمة النجاحَ على حساب الصراحة والصدق. ولكن بينما يتحرك التاريخ لينطق بحكمه في السنين والعقود القادمة، فإنه لن يكون بمقدورنا تلميع الحقائق التي سعى هذا الكتاب لإبرازها، والدروس التي يمكن أن نتعلمها من فهم هذه الحقائق بشكل أفضل. إن السماح لثقافة الحملة الدائمة أن تبقى في وضع المسيطر على عقولنا قد لا تأخذنا باتجاه حرب جديدة، ولكنها سوف تستمر في تقليص فرصة إجراء مراجعة متأنية، والوصول إلى حلول وسط على الصعيد الحزبي، والوصول كذلك إلى حلول ذات معنى لكل المشكلات التي يرغب الشعب الأمريكي أن يراها محلولة.

حاولت تجنب الخوض في سؤال من قام بإشعال فتيل الحرب الحزبية، ومن هو المسؤول عن ثقافة الخداع الحالية في واشنطن. قد تحتاج مجرد محاولة الإجابة عن هذا السؤال إلى كتاب كامل. في اعتقادي، أن نظرة موضوعية غير محازبة إلى الحقائق سوف تفضي إلى الاستنتاج بأن الكثير من اللوم والمسؤولية يقعان على الطرفين - بدءاً برئيسي الحزبين، مروراً بالقادة الديمقراطيين والجمهوريين في الكونغرس، والمنتقدين الحزبيين، وقادة مجموعات المصالح، وانتهاء بالمحرضين الخفيين في وسائل الإعلام الوطنية وفي واشنطن.

من كان منا بلا خطيئة، فليقذف الحجر الأول. سوف يكون من الصعب، إن لم أقل من المستحيل إيجاد شخص عاش في عالم واشنطن التدميري هذا - وهو عالم نما وترعرع بمعزل عن المشكلات التي يعاني منها الشعب الأمريكي، والأولويات التي يهتم بها - وبقي بالفعل «بلا خطيئة». هذا هو السبب الذي حدا بالعديد من الأمريكيين، خصوصاً أولئك الذين يشكلون الغالبية العريضة في الوسط، إلى الإحساس بخيبة الأمل، وحتى بالقرف،

مـن السياسـة. ولهذا السبب، نحن بحاجـة إلى تخطي تقاذف اللوم وتبـادل الاتهامات، والتركيز بدلاً من ذلك على تنظيف النظام. الأخبار الجيدة في هذا الصدد هي أننا بدأنا تلمس الرغبة في حصول شيء كهذا، حقيقية، وهي تتنامى في أرجاء البلاد كافة.

هـل من الممكن الفصل بين القيام بالحملات وبـين ممارسة الحكم؟ هل تعد محاولة التحكـم بمصادر الدعم الشعبي لأسلوب الحكم كمـا تتطلبها مقتضيات الحملة الدائمة جريمـة؟ لا أظـن ذلـك. ستكون تلك طريقـاً من الخطـر السير فيها. يجـب على قادتنا السياسيـين أخـذ الرأي العام بعـين الاعتبار؛ ولكي يكـون بإمكانهـم أن يمارسوا الحكم بصـورة فعالـة، فهم بحاجة إلى الدعم الشعبي. بهذا المعنـى، يمكن أن تتزامن ممارسة الحكم مع القيام بالحملة، وأي ادعاء مغاير لذلك سيكون شكلاً من أشكال الحماقة.

الغشـ والخـداع المتعمـد همـا أمران مختلفـان تمامـاً بطبيعة الحـال؛ وكذلك سوء استخدام المكاتب الحكومية والموارد المالية لغايات حزبية صرفة. هذه تعد جرائمَ، ويجب أن تكون كذلك. لو توفر دليل مادي ملموس على أن أحد الموظفين الحكوميين تجاوز الحدود القانونيـة المرسومة، فإنه يجـب أن يتعرض للمحاسبة. لكن محاولة تعريف طريقة العمل في مؤسسـة واشنطـن على أن لها إرثـاً فضائحياً، هي انحراف عن الهـدف، فهي تسمح لجـذور المشكلات في أن تستمر من دون انقطاع. لسوء الحظ، يمسك قادتنا المنتخبون في كلا الحزبـين بطرفيْ خيط المسألة. فهم من ناحيـة، يدينون نظرياً الحملة الدائمة، ومن ناحية أخرى، فهم متمسكون بأساليبها الأكثر تدميراً والأكثر خداعاً.

يجـب أن تتم مواجهة التجـاوزات التي تمثلها الحملة الدائمـة، ووضع حد نهائي لها. إنهـا حملة ذات طابع تدميري لخطابنـا السياسي الوطني، إن نتائجهـا السلبية واضحة للعيان في مجالَيْ السياسة والعمل السياسي.

ليسـ المقصـود من انتقاد النظـام إيجاد أعذار أو تبرئة للقـادة المنتخبين من أي من الحزبـين جراء اتخاذهم قرارات، أو قيامهم بأساليبها، أو استخدامهم وسائل تؤدي إلى تجاوزات تدميرية تسببها الحملة الدائمة. الغالبية الساحقة من هؤلاء هم أناس طيبون، إلا أنهـم انتُخِبـوا لكي يمارسوا القيـادة، ويوحدوا الأمـة، ويبحثوا عن الحلـول الوسط،

ويضعـوا مصلحة الأمـة فوق مصالحهم الحزبيـة. القلة القليلة منهـم تنطحوا لقيادتنا خـارج إطار التجاوزات الحزبية. الرئيس بوش يدفع ثمنـاً غالياً بسبب إخفاقه في القيام بذلك. تلاشت نسبة التأييد الشعبي لسياسته بنسبة كبيرة نتيجة لذلك. لكن توجيه إصبع الاتهـام إلى شخص بعينه يلقي بظلال كثيفة علـى المشكلات الأكبر التي تجب مواجهتها وتصحيحها.

يجـب على قادتنا المنتخبين البدء في عمليـة التغيير عبر وضع حد لتعليب عقولهم كي يقومـوا بكل ما قام به الآخرون. فهم يتبؤون أفضـل المواقع التي تمكنهم من تغيير الواقع الراهن؛ ولا أحد يستطيع القيام بذلك أكثر من الرئيس نفسه. لا أحد بحوزته مايكروفون أعلـى صوتاً من مايكروفون الرئيس، ولا أحد يملك منصـة أكثر اتساعاً من المنصة التي يقـف عليها الرئيس؛ لذلك فـإن المسؤولية الرئيسة بالنسبة إلى المبادرة في إجراء التغيير تقع على عاتقه (أو عاتقها)*.

كان بإمكان الرئيس ممارسة تأثير إيجابي فوري على ثقافة واشنطن عبر اتخاذ بعض الخطـوات التي لا تتطلب موافقة الكونغرس. لا أقصد الإشارة إلى أن مثل هذه الخطوات ستكـون سهلة المنال، أو يمكن المحافظـة عليها. إنها تتطلب وعياً مستمراً للتجاوزات التي تتسبـب بها الحملات الدائمة، ووعياً بالأخطـار على المدى البعيد، والمتمثلة في الانخراط بالعمـل السياســي بعقلية المتجه إلى الحرب، وبالحاجة إلى وقف ضخ الدم إلى شريان ثقافة الفضائح بما في ذلك عدم القيام بأي فعل داخلي، والسرية، وبناء الجدران العازلة، والتشويش، والمراءاة.

يمكن أن يبدأ المرشحون للرئاسـة بمصارحة أنفسهم بشأن مخاطر الحملة الدائمة، ليـس فقط مـن زاوية الخطط السياسيـة الحالية وحسب، بل من ضمـن السياق الأشمل للتاريـخ الأمريكي، وتطوره عبر الأجيـال. إن قراءة كتاب The Permanent Campaign and Its Future «الحملـة الدائمـة ومستقبلهـا» وهـو الكتاب الذي قـام بتحريره كل من نورمـان أورينستايـن وتوماس مان، والذي أشرت إليه في أحـد الفصول السابقة من هذا الكتاب، سوف يوضح للكثيرين المعنى المقصود وراء ذلك. بالإضافة إلى ذلك، فإن إحدى

الخطوات الأولى المهمة في هذا الصدد تتمثل في استشارة بعض الباحثين المتخصصين في هذا الحقل لمعرفة كيفية التعامل مع المشكلات الناجمة عن الحملة الدائمة.

وكما تنهت عبر مشاهدتي لجورج بوش، فإنه لا يكفي أن تنادي بالوحدة وتتعهد بتغيير النبرة. معظم الأمريكيين مستعدون لكليهما. لكن العبارات الرنانة لا معنى لها من دون أن تترافق بخطوات عملية. ما هي التغييرات المؤسساتية التي يمكن لأي رئيس قادم أن يجريها لمواجهة مظاهر الضرر الذي تتسبب به الحملات الدائمة، أو التخفيف من حدته؟ أي طرق ينبغي على أي رئيس قادم إتباعها كي يجعل من المناقشات والحلول الوسط الحزبية في جوهر الحكم، أي أن تكون النبراس الدائم الذي يسير الجميع على هديه؟ لن يكون من السهل التغلب على التجاوزات الناجمة عن الحملة الدائمة. لا بد للرئيس من أن تكون لديه خطة محددة تطمئن الناس حول التزامه بالإصلاح، وأن تكون هذه الخطة أكثر من مجرد كلمات فارغة من المضمون.

يجب على الرئيس المنتخب الإصرار على أن يقوم المشرفون على المرحلة الانتقالية إلى الحكم الجديد بالاطلاع على الحملة الدائمة - ما هي، وكيف تعمل، وعواقب ممارستها. يجب على الرئيس المنتخب أن يصر أيضاً على أن يولي كبار موظفيه اهتمامهم بهذه الدروس والعبر. هذا سوف يساعد الإدارات القادمة على تجنب الوقوع في بعض المطبات التي وقعت فيها إدارة بوش مثل نقل كامل جهاز الحملة الدائمة الهائل إلى البيت الأبيض - وهي خطيئة خطيرة خصوصاً عندما لا تكون هناك قوة موازية قوية تعيد التوازن إلى ذلك المكان.

وعندما يستلم الرئيس مهام الحكم، يجب عليه إظهار التزام لا يتزعزع بثلاثة مبادئ مهمة: (1) انفتاح عالي المستوى، وصراحة مقرونة بالأمانة عندما يخاطب الشعب الأمريكي؛ (2) روحية لم الشمل والوحدة التي تتجاوز الانقسامات الحزبية والخلافات العقائدية بغية تشجيع التعاون بين كل المجموعات والأفراد؛ (3) استعداد دائم لممارسة الحكم وتوجيهه باتجاه الوسط، باحثاً عن حلول وسط كي يتم حل المشكلات بدلاً من الاحتماء بالقاعدة الحزبية الضيقة.

أظن أن العديد من الناس سوف يرحبون بهذه المبادئ من الناحية النظرية. ولكن كيف يمكن تطبيقها على أرض الواقع؟ هناك جملة من الأفكار الجيدة في أذهان الناس؛ وهاكم بعضاً منها للتأمل فيها علماً أن تطبيقها لا يأخذ وقتاً طويلاً، وليس بحاجة إلى قانون من الكونغرس.

أنصح بالقيام بتغيير جذري في تركيبة كبار موظفي البيت الأبيض. وقد خلصت إلى هذا الاستنتاج بناء على تجربتي في البيت الأبيض، وكذلك عبر التدقيق في بنية البيت الأبيض التي أقامتها الإدارة التي سبقت تلك التي خدمت فيها. أولاً، يجب على الرئيس تعيين نائب لرئيس الأركان لشؤون الحكم. وسيكون هذا المنصب مسؤولاً عن التأكد من أن الرئيس ملتزم دوماً، ومن دون انقطاع بممارسة أقصى درجات الانفتاح والصراحة، وأن يتخطى العقلية الحزبية من أجل تحقيق الوحدة.

من الناحية التنظيمية، يجب على نائب رئيس الأركان هذا، أن يرتبط مباشرة بالرئيس، وبرئيس أركان البيت الأبيض. وسيكون مديرو السياسة، ومدير شؤون الموظفين، وكبير مستشاري الرئيس للشؤون السياسية، ومستشار البيت الأبيض تابعين له ولرئيس أركان البيت الأبيض. وبموجب هذه الصلاحية والمسؤولية، سيكون هذا الشخص بحاجة إلى مساعد ذي موهبة وكفاءة يعمل في مكتبه مباشرة. ربما يحتاج أيضاً إلى ثلاثة مساعدين، لكل منهم مسؤوليات محددة:

- مساعد يركز على موضوع الوحدة، ويكون على اطلاع كامل على السياسة التشريعية، والأجهزة السياسية. يجب أن يعمل على التأكد من أن الأولويات السياسية والتشريعية، وأولويات صنع السياسة منطلقة من الرغبة في التعاون البناء مع قادة الحزب المعارض للوصول إلى أرضية مشتركة. على سبيل المثال، عندما يبدأ العمل على تطوير تفاصيل برنامج الرعاية الصحية الجديد، يجب عليه التأكد من مشاورة ليس المشرعين فقط من كلا الحزبين أولاً بأول، وبصورة مستمرة، بل أيضاً ممثلي مجموعات أصحاب المصالح من الجانبين والتي لها علاقة بالبرنامج الذين يجب أن تكون لديهم الفرصة في المساهمة في تلك المحادثات - من منظمات

الأطباء والممرضين، وشركات التأمين والشركات الصحية الربحية وغير الربحية، وروابط حقوق المرضى، واتحادات العمال، ومجموعات المستخدِمين، وآخرين.

- مساعد يركز على مسألة الشفافية، مطلع بشكل كامل على الوثائق الرئاسية، وعمليات التوثيق، بالإضافة إلى الرد على الطلبات الواردة من مجموعات المواطنين ومجموعات أصحاب المصالح حول معلومات تتعلق بصنع السياسات في البيت الأبيض. يمكن أن يشرف مساعد الرئيس لشؤون الشفافية على عملية توثيق المعلومات الاستخباراتية والإحصاءات الحكومية الأخرى، والتأكد من أن السرية المطلوبة لحماية المصالح الأمنية لا يساء استعمالها لتكون وسيلة لحماية الإدارة من عمليات كشف تعد محرجة أو غير مريحة من الناحية السياسية.

- مساعد يشرف على شؤون المزاج العام، ويكون على اطلاع كامل على هيكلية نظام الاتصالات في البيت الأبيض، بما في ذلك معالجة اللغط الذي يحظى بقدر كبير من التغطية الإعلامية التي لا بد أن تظهر في الشق التنفيذي. تتضمن مهمته التأكد من أن الرسائل التي تختار الإدارة إيصالها تعكس احتراماً لقادة الحزب الآخر، وتأخذ بعين الاعتبار القلق المشروع، والاحتياجات المشروعة لكافة الأمريكيين. سيكون هذا المساعد مسؤولاً عن تحديد التكتيكات السياسية البغيضة كافة التي تعمق الهوة التي لا لزوم لوجودها في واشنطن، وكذلك بين المجمعات الاجتماعية والعرقية والدينية والجغرافية؛ ومن ثم، وضع حد لها.

يجب أن يكون نائب رئيس الأركان لشؤون الحكم رجل دولة متمرس، له خبرة طويلة، ويتمتع بقدر كاف من المعرفة والمهارة والاحترام بشكل يؤهله كي يعمل عبر الخطوط الحزبية. كما يجب أن يتمتع بفهم وإدراك عميقين للحملة الدائمة وعواقبها المحتملة، بالإضافة إلى إدراك لوسائل حكم بديلة - أي المناظرات، والإجماع، والحلول الوسط، والتعاون. ومن المهم أن يتمتع بحضور قوي وشخصية قوية. يجب أن تكون لديه الجرأة ليثبت عينيه في عيني الرئيس أو كبار مستشاريه حين تقتضي الضرورة، ويقول: «مع كل الاحترام، أنت مخطئ». سيكون دور نائب رئيس الأركان لشؤون الحكم حاسماً في ضبط

وتحجيـم الحملة الدائمـة، والتأكد مـن أن المستشـار السياسي أو طاقـم المستشارين لا يمارسون تأثيراً مفرطاً على الأحداث التي تجري داخل البيت الأبيض.

يشـكل هذا تراجعاً مهماً أمام الواقعية. أظن أنه من غير الواقعي الأمل في أن لا يكون لكبار مستشاري الرئيس السياسيين تأثير لافت في البيت الأبيض. فالهدف من وراء ذلك هـو خلق توازن بين الاعتبارات السياسية، وبـين الاعتبارات غير السياسية؛ كما يرى هذا المنصب الجديد الذي يركز على شؤون الحكم أحد مظاهر خلق هذا التوازن.

يجـب على نائب رئيس الأركان لشؤون الحكم أن تكون لديه المعرفة الكاملة بما يجري داخل الإدارة كي يستطيع القيام بدوره بشكل فاعل. يجب أن يدعى إلى كافة الاجتماعات التـي تعقـد على مستـوى كبار الموظفـين، وتتعلـق بالقضايـا التشريعية، وقضايـا شؤون الموظفين، والاتصالات، واتخاذ القرارات ذات الصلة بالقضايا الداخلية والخارجية على حـد سـواء. ويجب أن تقدم لـه الوثائق والمعلومـات الضرورية كافة ، كمـا يجب أن يكون على اتصال مباشر ودائم مع الرئيس. وبينما يقوم رئيس الأركان بمهمة الوسيط النزيه، مترفعـاً عن المعارك التي تحدث بـين الجدران والتي لا بد من وقوعها في أي إدارة – وهو الـدور الذي شغله آندي كارد – فـإن نائب رئيس الأركان لشؤون الحكـم سيكون مسؤولاً مباشراً عن الأولويات الموكولة إليه. وإذا قام بالمهام الموكولة إليه خير قيام، فلا بد له من أن يصطدم بمستشاري الرئيس السياسيين من حين لآخر. وفي الحقيقة، إذا لم يصطدم بهـم أبـداً، أو لا يصطدم بهم إلا نادراً، فهذا يعني من وجهة نظـري، أنه لا يقوم بواجبه كما يجب.

بإمكان نائب رئيس الأركان لشؤون الحكم أن يقوم بالكثير لمساعدة الرئيس في الانتقال ببلادنـا صوب نوع مـن القيادة الشفافـة، واستيعاب التيارات كلهـا، والصراحة – وهي مزايـا يتـوق الأمريكيون إليهـا باعتقادي؛ وهم علـى استعداد لتبنيها عندمـا يلمسونها. دعوني أتحدث بشيء من الاستفاضة حول كلٍ من هذه الموضوعات على حدة.

أولاً، الشفافيـة. في عصرنـا الـذي يتميز بتغطيـة إخبارية على مـدار أربع وعشرين ساعـة يومياً، وعلـى امتداد سبعة أيـام في الأسبوع، ويتميز كذلـك بالاتصالات الفورية،

فـإن من المنافي للعقـل التفكير أن إدارة مـا ، يمكن أن يكتب لها النجـاح من دون اعتماد مبـدأ الشفافية. يتطلب عصر المعلومات بشكل متزايد الانفتـاح والصراحة. لا يملك أي فـرد أو مؤسسة السيطرة علـى الرأي العام في عالم يمتلك مجموعـة واسعة من مصادر التأييـد الشعبـي، بـدءاً بالتعليقات الـواردة في المواقـع الإلكترونية، مـروراً بالصحفيين المدنيين وانتهـاء بصحافة المواقف على اليمين واليسـار، بالإضافة إلى المصادر المتنوعة للأخبـار والآراء وطرق الحصول عليها، وتحديداً عبر الإنترنيت. هذه التوجهات جميعها تعد ظواهر صحية لمبـدأ الديمقراطية، وضمان المحاسبة، وبذل الجهد من أجل الوصول إلى الحقيقة.

أمـا التمسك بمبدأ السرية خارج إطار المعلومـات الأمنية القومية السرية الضرورية، فيشكل بحد ذاته كارثة في مثل هذه البيئة حيث إن محاولة البيت الأبيض لإخفاء الأسرار لا تأتي أكلها؛ إذ سرعان ما تطفو تلك الأسرار على السطح. من الأفضل بكثير إتباع مبدأ الانفتـاح والمصارحة بشأنها بدلاً من السمـاح للشبهات بأن تنمو، أو السماح للآخرين في أن يحددوا معالم القصة.

ولا تقـل أهمية عما تقـدم، الإشـارة إلى أن التمسك بالانفتـاح والصراحة يؤدي إلى تغيير إيجابي، وإلى ممارسة مبدأ المحاسبة الداخلية. ففي البيئة المنفتحة، لا يمكن كنس المشكلات وإخفاؤها تحت السجادة. فالشفافية تشجع على المبادرة إلى التصحيح، بما في ذلك إحالة الناس إلى المحاسبة عند الحاجة.

الاستيعـاب بصفته مظهراً من مظاهر القيادة، يعنـي التأكد من أن الحوار والتوصل إلى حلـول وسطـى مع الكونغرس لا يقـل أهمية عن القيام بالحملة بغيـة استمالة التأييد الشعبـي؛ ذلك أن علـى الرئيس أن يبقي يده ممدودة إلى أعضـاء الكونغرس، ويدخل في حـوار مبني علـى الثقة وحسن النية، ومنطـق الوسطية السياسية كـي يفَعّل التشريعات، ويجـد حلاً للمشـكلات التي لها طابع الأولويات، ويمكن أن يطلب إلى نائب رئيس الأركان لشؤون الحكم تولي مهمة تسويق هذه الجهود وتسهيلها.

الترويـج لقيادة الاستيعاب يعنـي من ضمن ما يعنيه أن الرئيـس سيتلقى بشكل دائم النصح من خبراء من خارج منظوم البيت الأبيض، ومن باحثين ورجال دولة متقدمين في السن، من مختلف المشارب والآراء ومستشارين - بالأخص حول قضايا جدلية، أو مهمة. وتعنـي أيضاً التأكد مـن أن الفريق الحاكم لدى الرئيس يعمل ضمـن آفاق تتجاوز الأطر الحزبيـة بشكل أكبر مما كانـت عليه الأمور في الماضي القريب، بما في ذلك العدد الوافر مـن أعضاء في هذا الفريق ممن ينتمون إلى الحـزب الآخر، بالإضافة إلى زعيم مستقل أو اثنـين يعملان مع الفريق. هذا التجاوز للأطر الحزبية ستكون له أهمية خاصة في بيئة واشنطن الحزبية المتطرفة التي تتحرك ضمن سياقات عقائدية وفكرية.

يجـب أن يتم التغيـير بدءاً من حكومة الرئيـس؛ إذ ليس كافياً قيـام الرئيس بتسمية عضـو أو اثنين من الحـزب المعارض في مناصب حكومية قليلة الشـأن (كما كانت الحال بالنسبة إلى قيام بوش بتعيين الديمقراطي نورمان مينيتا في منصب مغمور نسبياً، وأعني بـه وزارة النقـل). فلماذا لا يعيّن وزيـر للخارجية مثلاً، أو للدفـاع، أو المالية من الحزب المعارض؟ مـن السهل التفكـير بأشخاص وسطيـين، وقادرين، ومتميزيـن من الحزبين الجمهـوري والديمقراطـي، ممن يمكن أن يكونـوا مناسبين لشغل هـذا المنصب أو ذاك بطريقة تدعو إلى الإعجاب. يا لها من لفتة قوية ترمز إلى الوحدة الوطنية، لو حدث وأتت هذه اللفتة من رئيسنا القادم!

مـن الحكمـة أيضـاً أن تعكس الحكومـة التنوع الإثنـي والعرقي والدينـي والجغرافي والجنسـوي في أمريكة. (وهذا هدف سعى بوش لتحقيقه بشكل مثير للإعجاب). يمكن تحقيق ذلك بسهولة عبر اختراق الحواجز الحزبية لتشكيل فريق رئاسي من دون التضحية بميزات رئيسة مثل الفطنة والخبرة والتدريب والمحاكمة الفكرية والاستقامة.

تعنـي الحاجـة إلى الاستيعاب مـن ضمن ما تعنيه محاولة التواصـل النشط مع قادة مختلـف الدوائـر الانتخابية من المؤيديـن التقليديين لـلإدارة أو من غـير المؤيدين لها. فالرئيـس في خدمة جميـع الناس، وعلى البيـت الأبيض أن يكون مـرآة لذلك. فالرئيس الديمقراطـي المقبل يجب أن يسجل سابقة عن طريق قضـاء بعض الوقت مع مجموعات

مـن المحافظين التقليديين مثل المسيحيين الإنجيليين، ومالكـي الأسلحة، والناشطين من أجـل الحيـاة، والمؤيدين لخفض الضرائب، في حـين أن على الرئيسـ الجمهوري المقبل التواصل مع مجموعات حقـوق المثليين، واتحادات المعلمين، ومجموعات الضغط من أجل حقوق الحيوان، والمدافعين عن البيئة من بين فئات كثيرة أخرى. حتى لو بقي كل فرد على رأيه، فإن قاسماً مشتركاً يمكن اكتشافه ويكون أساساً لبناء التغيير المنشود. في أي حال، إبـداء الاحترام المتبادل، والرغبة في الإصغاء سوف يحقق الكثير لتخفيف حال الاحتقان التي تسود جو واشنطن.

سياسة الاستيعاب تعني أيضاً المراقبة الدائمة للاتصالات الرئاسية، وتلك التي تجري في البيـت الأبيض لضمان أن ترتقي اللغة إلى ما فوق السياسة الحزبية، أو أن تخفف، أو حتـى تلغي استخدام سياسة الأرض المحروقة - على الصعيدين الداخلي والخارجي بين المنظمات الرئيسة المؤيدة لهذا الحزب أو ذاك، بما في ذلك جهاز الحزب الوطني.

لا توجـد مشكلـة في ثقافـة الرسالة. فهـي مفيدة وضروريـة في بيئة وسائـل الإعلام المعاصـرة. ولكن مـن المهم إبقاؤهـا ضمن سياق سويـة راقية من الصراحـة، والصدق والاحترام للرأي الآخر. من المنظور نفسه، يمكن رؤية الانخراط في حملة لتجييش الناس وراء مبادرات سياسية معينة أمراً حيوياً، ولكن ليس على حساب مبدأ تبادل الرأي والحلول الوسط. لا يجوز النظر إلى المجموعات المدنية، أو المنظمات الصناعية، أو المنظمات غير الربحية، أو روابط الناشطين كأسلحة يجب استخدامها في الحرب الحزبية، بل كشركاء يمكن أن يساهموا في حل المشكلات عبر تقصي الفرص والخيارات ودراستها.

يمكـن للتركيز على مبـدأ الصراحة أن يساعد في ضمـان أن لا يتحول اللغط الذي لا مفـر منه، والذي يظهر عادة مـع بداية أي إدارة، إلى حال دائمة من الشك والحرب. إذا قـام نائـب رئيس الأركان لشؤون الحكـم بعمله بشكل مُرْضٍ، فـإن الرئيس لن يسمح لأي لغـط في أن يتحول إلى تحقيـق خارجي، أو إجراء قضائي، علـى الأقل، قبل القيام بجهد مخلص لحـل تلك المشكلة داخلياً. عندما تخرج الفضائـح إلى العلن -وسوف تخرج إلى العلـن- يجب علـى الرئيس أن يأمر بإجراء تحقيق في العمـق، ويتخذ من ثم، الإجراءات

العلاجيــة الضروريــة بمــا في ذلك الكشف عــن المنظورالحقائق كلهــا، وتحميل من يلزم المسؤولية؛ حتى لو كلفت تلك الإجراءات الإدارة خدمات بعض الموظفين الموهوبين.

في المناخ الحزبــي الراهن والسائد هذه الأيام، نسمع أحياناً عبارة «الولاء» باعتبارها فضيلة سياسية سامية. فالرؤساء يطالبون مستشاريهم والطاقم التابع لهم بالولاء؛ وهم يبادلونهم الولاء بطرقهم الخاصة حيث يؤمنون لهم الحماية من المحاسبة. هذا النوع من الولاء يشكل إساءة بالغة للشعب الأمريكي. يجب على موظفي الخدمة العامة أن يتذكروا قيامهــم بالقسم للولاء لدستور الولايات المتحدة. ولاؤنــا الأول هو للأمة والشعب. عندما تحتــدم الصراعــات، يجب أن تكون الأولوية هي الولاء للأمــة على حساب الولاء للحزب، أو الــولاء الشخصــي. وإذا كان ذلك يعني توجيه إصبع الاتهام باتجاه الخطأ، أو الإصرار على وجوب معاقبة من يسيء استغلال منصبه بشدة، فليكنْ ذلك. إن الاستعداد للالتزام بهذه القاعدة أمر مهم لأي رئاسة تبحث عن طرائق لترتقي فوق الجو الفاسد الذي يسود السياسة هذه الأيام.

الرئيــس الملتــزم بجوهر المبــادئ التي بينتهــا، والبيــت الأبيض المبني علــى أساس الالتــزام بها، يمكن لهما أن يفعلا الكثير لضبط العمل علــى الإيقاع الصحيح، وتثبيط زخم سياسة الأرض المحروقة في واشنطن. لكن لاعبين آخرين في هذه اللعبة السياسية لهم دورهم الهام أيضاً.

يمكــن للكونغرس أن يساعدنــا في تجــاوز الحرب الحزبيــة وثقافة الخــداع. أعضاء الكونغرســ الحاليــون منهمكــون في جمــع التبرعات الماليــة، وإرضاء أصحــاب المصالح الخاصــة، والتفوق على خصومهم عبر المناورات للفــوز في الانتخابات القادمة - كل هذه العناصر هي من سمات الحملة الدائمة. طُرحت العديد من الأفكار البناءة من أجل تغيير نظــام الكونغرس. وهذه الأفكار جديــرة بالمتابعة، لكن القيادة يمكن أن تقوم بتغيير نبرة الخطــاب وأساليبــه الآن، إن أرادت ذلــك. لسوء الحظ، يتحول قــادة الحزبين من موقع رجال دولة، إلى رجال أحزاب. إن هؤلاء القادة بالذات - رئيس المجلس ورئيسيّ الأغلبية والأقلية في مجلسي النواب والشيوخ - هم من يجب أن يمسك بزمام المبادرة.

ويمكن لوسائل الإعلام المساعدة في تغيير ثقافتنا السياسية أيضاً. فالكثير مما تقوم به صحيح، ولكن الأخطاء التي ترتكبها تطغى في الغالب على صحة ما تقوم به.

بدأت الشبكات الإخبارية تفقد مشاهديها مؤخراً. هناك العديد من الأسباب وراء ذلك، بما فيها كثرة مصادر الأخبار وانتشارها، والعديد من تلك المصادر مصممة لتناسب أذواق ومصالح نوعيات محددة من المشاهدين. لكنني أعتقد أن السبب الرئيس في ذلك يعود إلى أن تلك الشبكات مربوطة إلى الماضي. فمكاتب الأخبار الوطنية في تلك الشبكات ما زالت تركز على السباق الذي يطبع الحملة الدائمة، ليس فقط أثناء سني الانتخابات، بل بصورة مستمرة، مؤكدة على جوانب اللغط، ومركزة على الرابحين والخاسرين في واشنطن بدلاً من الغوص في القضايا الحقيقية التي يهتم لها الأمريكيون - الاقتصاد، والرعاية الصحية، والتعليم، والجريمة، والحرب، والسلام.

وسائل الإعلام الإخبارية بحاجة إلى طرق جديدة للإبداع إذا أرادت أن تتحرر من انخفاض معدل مشاهديها، وتتملص من الأخاديد التي علقت فيها. الشعب الأمريكي يتوق إلى الحقيقة - ليس فقط ذلك المظهر من الحقيقة الذي يبرز المناوشات الحزبية الصغيرة، واللغط الدائر حالياً، بل إلى الحقيقة بمعناها الأشمل، بما في ذلك الحقائق الصعبة التي نادراً ما نسمع أنه تم التركيز عليها في التلفزيون، أو حظيت بتغطية واسعة في صحفنا ومجلاتنا الرئيسة. فالشبكة الإخبارية التي بمقدورها إيجاد طريقة تحول فيها اهتمامها من المبالغة في التركيز على اللغط السائد، وعلى سباق الخيل التقليدي، والتغطية التي يتم فيها التركيز على الصورة، إلى إظهار تركيز أكبر على من هو على صواب، ومن هو على خطأ؛ ومن هو الذي ينطق بالحقيقة، ومن هو الكاذب، بالإضافة إلى التركيز على الحقائق الأكبر حول مجتمعنا وعالمنا، سوف يكون بإمكانها تحقيق نتائج مدهشة في بيئتنا الإعلامية التي تتميز بالتغير السريع. أراهن أنني لست المشاهد الوحيد الذي سيعود إليه الزخم والحماس عبر برامج كهذه. الدراما السياسية مسلية بالنسبة لي، كما هي الحال بالنسبة لمعظم السياسيين؛ إلا أن خدمة أكبر كانت ستقدم للأمريكيين فيما لو ركزت هذه الأخبار بشكل أكبر على الحقيقة بمعناها الأشمل؛ وحينها سيكونون أكثر استجابة للأخبار.

هنــاك تغيـيـرات ميدانيــة في ممارســات وسائـل الإعلام يمكـن أن تفضــي بدورها إلى إحـداث تغيـير كبير في ثقافتنــا السياسيــة؛ إذ يجب على المراسلـين أثناء الحملات الانتخابيــة بذل جهـد أكبر وذلك عـبر إحراجهم للمرشحين حول قضايــا محددة تتعلق بالشـأن السياســي العام، بـدلاً من تقبل حديثهـم في العموميات وميلهم نحـو استخدام العبـارات الرنانة. يجب على كتــاب الصحف ومعدي البرامــج التلفزيونية مراقبة حجم العمود الصحفــي، والكم الزمني الذي يكرسونه من أجل الحديث عن المنافسة في حقول استطلاعــات الــرأي، والأساليب المتبعة في الحملــة، والخطط العامــة، مقارنةً بالمحتوى السياســي لتلك المساحات. يجـب عليهم التركيز على أهداف محددة لـكل نوع من أنواع التغطيــة الإعلامية كي لا يطغى أسلوب تغطية المباريــات الرياضية على اللعبة السياسية بشكل ينسي المواطنين معرفة ما يحتاجون إلى معرفته كي يستطيعوا تحديد خياراتهم.

يجـب على المنافذ الإعلامية تكريس مصــادر أكثر من أجل الخروج بأفكار ومعلومات تساعـد في التثبت من الحقائق التي تقدمها الحمــلات السياسية، والسياسيون القائمون على رأس عملهــم، أو منظمات المصالح الخاصة. وعندما يحاول أحد المرشحين أن يلوي عنــق الحقيقة، يجب أن لا يتردد الصحفيون حينها في الإشارة إلى ذلك. عندما يستعمل إعــلان تجــاري تلفزيوني أسلــوب الشحــن العاطفي، وتشويــه الصورة، وتقــديم حقائق انتقائيــة مضللــة كي يســوق وجهة نظر معينة، فـإن على المنظمــات الإخبارية فضح هذه الأساليب حتى لو أثار ذلك غضب تلك الجهة المعلنة.

هنــاك بعض المنظمــات التي تشير إلى الطريــق باتجاه تغطية إعلاميــة أفضل. أشرت سابقــاً إلى مركز أنينبيرغ لتقصي الحقائق السياسية كنموذج لمجموعة غير حزبية تناضل مــن أجل تحســين مستوى الأمانة في خطابنــا السياسي. نحن بحاجــة إلى منظمات أخرى على شاكلــة هذا المركز. كما أننا بحاجة إلى تشجيع وسائل الإعلام للقيام بالدور الحاسم المنــوط بهــا دعاةً لمبــادئ الصدق والشفافيــة والاحترام المتبــادل بين قادتنــا السياسيين؛ وهناك إشارات مشجعة على أن شيئاً مثل هذا سوف يحدث بالفعل. أصبح موضوع «تدقيق الحقائــق» في الدعايــة التي تقوم بها الحملة جزءاً طبيعيــاً في التغطية السياسية في العديد

من الصحف، كما أن تقارير برنامج «Keeping Them Honest» أي «التأكد من صدقهم» في محطة CNN، يطرح مقاربة مشابهة تهدف إلى التدقيق في الحقائق قبل إرسالها إلى محطات الكابل التلفزيونية. والآن، تحتاج وسائل الإعلام إلى مأسسة هذا النوع من التغطية الإعلامية، وجعله النقطة المركزية في التغطية السياسية التي يقومون بها.

وسائل الإعلام نفسها بحاجة إلى من يساعدها كي تحافظ على صدقيتها. تسعدني رؤية أعداد متزايدة من المراكز الإخبارية التي تستخدم محققين في الشكاوى للعمل كمحامين عن العدالة والمعايير الأخلاقية في العمل الصحفي. يقوم هؤلاء بالتحقيق في اتهامات تتعلق بالتحامل، ومراقبة الممارسات التي تجري في غرف الأخبار، وانتقاد التقارير غير المنصفة أو الكاذبة عندما يكتشفونها. وهم بذلك يؤدون دوراً تجاه وسائل الإعلام يشبه الدور الذي أقترح أن يقوم به نائب رئيس هيئة الأركان لشؤون الحكم بحيث يكون نوعاً من الضمير المؤسساتي. أعتقد أن هذا يشكل اتجاهاً مفيداً، وأتمنى له الاستمرار والانتشار.

آمل أن تكون ردة فعل أصدقائي في وسائل الإعلام - بمن فيهم المهنيون المخلصون في طاقم البيت الأبيض الصحفي الذين استمتعت جداً بالعمل برفقتهم - إيجابية على الانتقادات التي أوردتها في هذا الكتاب. أعلم أن أغلب الصحفيين يلجون إلى عالم الصحافة مسلحين بالمثل العليا. كما أؤمن بأن العديد منهم يوافقني الرأي أن الوقت قد حان من أجل إعادة التأكيد على التزامنا بهذه المثل، من أجل خير أمتنا.

أخيراً، أرى وجوب أن يكون لكل مواطن دور في تغيير نبرة نظامنا السياسي. يجب على المواطنين الأمريكيين المشاركة في صياغة لغة خطابنا الوطني، وتبني فكرة قيام قادتنا السياسيين بالاستجابة إلى مطالب الشعب الحقيقية، بل حتى بالمطالبة بها. وبينما أخط هذه الصفحات، تسعدني جداً رؤية هذا الكم الهائل والجديد من الاهتمام بالانتخابات الرئاسية لسنة 2008 عند الملايين من الشعب الأمريكي، بمن في ذلك وسطيين من كلا الحزبين، ومستقلين وأفراد ينتمون إلى مجموعات لم تكن تبدي في السابق سوى اهتمام ضئيل بمبدأ المشاركة السياسية - الفئات العمرية الشابة، والأقليات العرقية والدينية.

آمـل أن يسود هذا الاتجاه الجديد ويستمـر في السنوات القادمة. أعتقد أن هذا يمكن أن يحدث في ظل قيادة سليمة بدءاً بالرئيس، مروراً بالكونغرس، وانتهاء بوسائل الإعلام.

تلعـب حالياً التقانات الجديـدة دوراً في تشجيع المواطنين العاديين على القيام بنشاط أكـبر في هذا المجـال. وتعد (الإنترنيـت) منصة للملايـين من الناس لطـرح أفكارهم، وآرائهـم، وملحوظاتهـم، وتقاريرهم فيمـا يتعلق بالقضايـا المحلية والوطنيـة والعالمية، مقدمـة في ذلـك منبراً للعديـد من الناس الذيـن لم يكن أحد من قبل يسمـع أصواتهم. كمـا أن مواقـع الشبكات الاجتماعية تسهل على المواطنـين تشكيل مجموعات تجمع بينها مصالح محددة مثل تقديم الدعم لأحد المرشحين، أو المخاوف بشأن السياسة الخارجية أو البيئـة. بعض الرسائل التي تـرد عبر الإنترنيت، تكون أحياناً صفيقة أو غير حضارية، كما أن بعض مقاطع الفيديو التي ترد عبر خدمة You Tube قد تكون فاضحة أو سخيفة. لكـن حقيقة أن معظم الناس يشعرون أنهم قادرون على التعبير عن أنفسهم وعن آرائهم هـي شيء جيـد؛ وبمرور الوقت، يجـب أن ترغم القـادة السياسيين علـى أن يكونوا أكثر استجابة لإرادة مواطنين أكثر نشاطاً ووعياً.

الأهـم من ذلـك، أننا بوصفنا مواطنين، يمكن لنـا أن نساعد في تغيير نبرة الخطاب الوطني عبر بذل جهود أكبر في التواصل مع الآخرين متجاوزين خطوط الحزب، والعقيدة، والخلفيـة ضمن مجتمعاتنا. ابحث لنفسك عن طرق للمشاركة. انضم إلى مجلس المكتبة المحليـة في الجوار، أو إلى رابطة النقل العـام، أو الرابطة المدنية؛ وتعلم كيف تتواصل مع النـاس الذين تختلف معهم في الرؤية حول موضوعات تتعلـق بالشؤون العالمية أو البيئية. استمـع إلى هواجس جيرانك الذين يمكـن أن يصوتوا لمرشح آخر غير ذاك الذي تفضله أنـت، صـلِّ في أماكن عبادة مختلفة مـع أشخاص يكسبون لقمة عيشهـم بطرق لم يسبق لـك أن تخيلتهـا. من الممكن أن تكتشـف أن هناك قواسم مشتركـة لم تخطر على بالك، تجمعـك بهؤلاء الناس. ولو حـدث واكتشفنا طرائق تمكننا من العمـل سوية وبشكل بنّاء بـدءاً بالقواعد، فمن الممكن أن تجد جرعة صغيرة من هذه الروحية طريقها إلى ردهات الكونغرس والبيت الأبيض أيضاً.

سوف تنحسر إدارة جورج بوش قريباً جداً لتصبح جزءاً من التاريخ. وسوف يناقش المؤرخون في المستقبل الآثار البعيدة المدى للقرارات المشؤومة التي اتخذها جورج بوش وكبار مستشاريه على امتداد سنين طويلة قادمة. لكنني آمل أن يبادر الأمريكيون إلى المشاركة في النقاش حول ما يمكن لنا أن نستخلصه من العبر فيما يتعلق بالطرق الصحيحة والخاطئة لممارسة الحكم كما حدث في السنين الثماني الأخيرة من تاريخنا المشترك. يمكن أن يكون من الصعب، أو حتى المؤلم، النظر إلى الخلف ورؤية أخطائنا. ومن المغري أن نقوم بالتركيز على الانتصارات الواضحة أو نتجاهل التاريخ بشكل كامل، وذلك في سعينا الدائم للوصول إلى غد أفضل. لكنني مقتنع بأن هناك الكثير مما سنجنيه لو قمنا بمراجعة متأنية وصريحة ودقيقة لذاتنا... وهذا يتطلب منا أن ننظر بأمانة إلى ما حدث.



شكر وتقدير

أنا مدين بشكل خاص إلى الفريق العامل في دار Public Affairs وبالأخص، مؤسسها ورئيس تحريرها بيتر أوسنوس، ومديرة التسويق وكبيرة المحررين فيها ليزا كوفمان. لقد كان التزامهما ودعمهما ورؤاهما لا تقدر بثمن. وكانت للآراء والأسئلة التحريرية التي طرحتها ليزا فائدة عظيمة. كما قام روبرت كيمزي وفريق الإنتاج العامل معه بعمل عظيم، وكذلك كريسونا شميدت في تحرير المخطوط. وساعدت الناشرة سوزان واينبيرغ ومديرة الإعلان ويتني بيلينغ على تجاوز المشكلات المتعلقة بالنشر والإعلان.

كارل ويبير، له مني أعمق التقدير؛ فعمله الاستثنائي، وتنبيهات التحريرية ومقترحاته دفعت بهذا المشروع إلى الأمام، وساعدت في إتمامه في الوقت المناسب. لقد قدّم في هذا السبيل أكثر مما كان متوقعاً، ولذلك فأنا ممتن لمساعدته.

قدمت ميمي باردجي بعض المساعدة في مجال البحث؛ وأنا أشكرها على العمل العظيم الذي قامت به واستجابتها السريعة.

قدم كريغ وايلي، وكيلي الأدبي ومؤسس وكالة كريغ وايلي يد المساعدة لي في الإبحار في عالم نشر الكتب. ولولا كريغ، لما كان باستطاعتي مجاراة فريق العمل المدهش في مؤسسة Public Affairs، فله مني أعمق التقدير.

كان لي شرف العمل إلى جانب العديد من الناس الطيبين في البيت الأبيض، وأخص بالذكر من بينهم، العاملين في مكتب السكرتير الصحفي خلال مرحلة شغلي لذلك المنصب. فمقابل العيوب التي عانيت منها، والأخطاء التي ارتكبتها، قاموا بفعل كل ما هو صواب. إن الفضل في كل نجاح حققناه يعود إليهم. أنا ممتن أبداً لكل من كلير بوكان، وشان ماكورماك، وترينت داي، ودانا بيرينو، وفريد جونز. كما أتقدم بالشكر لكيت ستار ومايك أنتون. قامت كل من كارمن إنغيل وتينا هاري بعمل رائع كمساعدتيْن خاصتيْن لي. كما أشكر كلاً من ناثان كارلتون، وجو كيلدا، وديفيد شيرزا، وبرايان برافو الذين أشرفوا

على الأخبار العاجلة وقاموا بعمل بحثي رائع. مساعدو السكرتير الصحفي بام ستيفينز، وإيريـن هيلي، وآشلـي سني، وآدم ليفين وريد ديكينز، وجوش ديـكارد قاموا كذلك بعمل رائع. أقدّر للوي كاسانو عمله العظيم ومساعدته. شكر خاص موصول لكل المساعدين من العاملـين وأخص منهم أماندا دوفونو، وجورجيا غودفري، وبيتر واتكينز، وجون روبرتز، وراشيـل سانبيرغر، وويل هولي، وتيريزا باغليوكا، وهاري وولف، وكاراتون كارول، وكريغ ويليامز، وليز دونان.

مـنّ الله علـيّ بعائلـة رائعة. كمـا دائماً، كانـوا جاهزين لتقديم يـد العون لي من البدايـة إلى النهايـة خلال مرحلة إعـدادي لهذا الكتاب. أشكر بشـكل خاص والدتي كارول كيتون ستريهورن.

الأهـم من بين مـا تقدم، أشكـر زوجتي جيل لمحبتهـا ونصائحهـا ولتوفيرها أسباب الراحـة لي، وتوجيهاتها وذلك طيلة المدة التي قضيتهـا في منصب السكرتير الصحفي، وأثنـاء إعداد هذا الكتاب. لا أستطيع أن أتصور أنني كنت قادراً على تجاوز كل ما مررت به لولاها.



تصوير
أحمد ياسين
تويتر
@Ahmedyassin90

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

أحمد ياسين

